

مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي
سلسلة إصدارات المركز



الخلاصة في
الخطب المنبرية



المجلد الأول



جمعه ورتبه
مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي

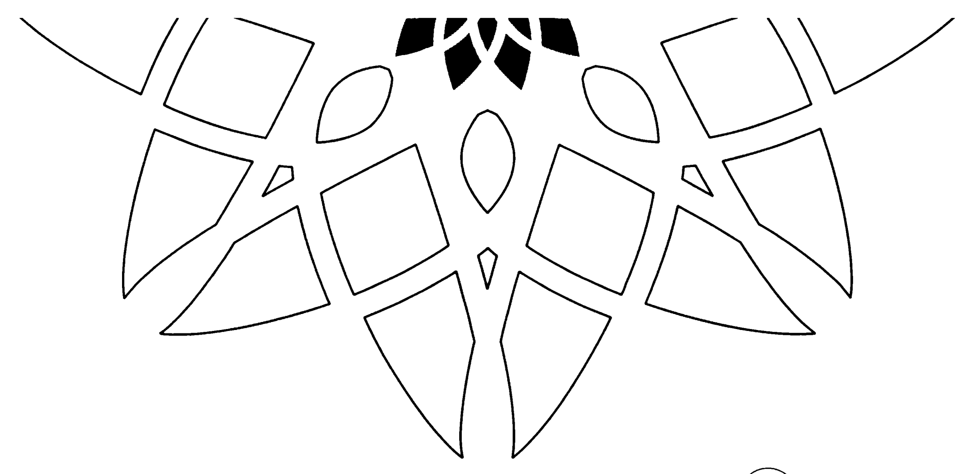




الخلاصة
العلمية



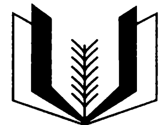

الخُلاصَةُ في
الخُطَبِ المِنْبَرِيَّةِ
المجلَّدُ الأوَّلُ



ح دار أصول المنهاج للنشر، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي.
الخلاصة في الخطب المنبرية. / مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي. - الرياض، ١٤٤٢هـ
٢مج
٨٣٢ ص، ١٧×٢٤سم
ردمك: ٧-٥-٩١٥٤٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٧-٣-٩١٥٥٧-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)
١- خطبة الجمعة. أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٣٧٩٣

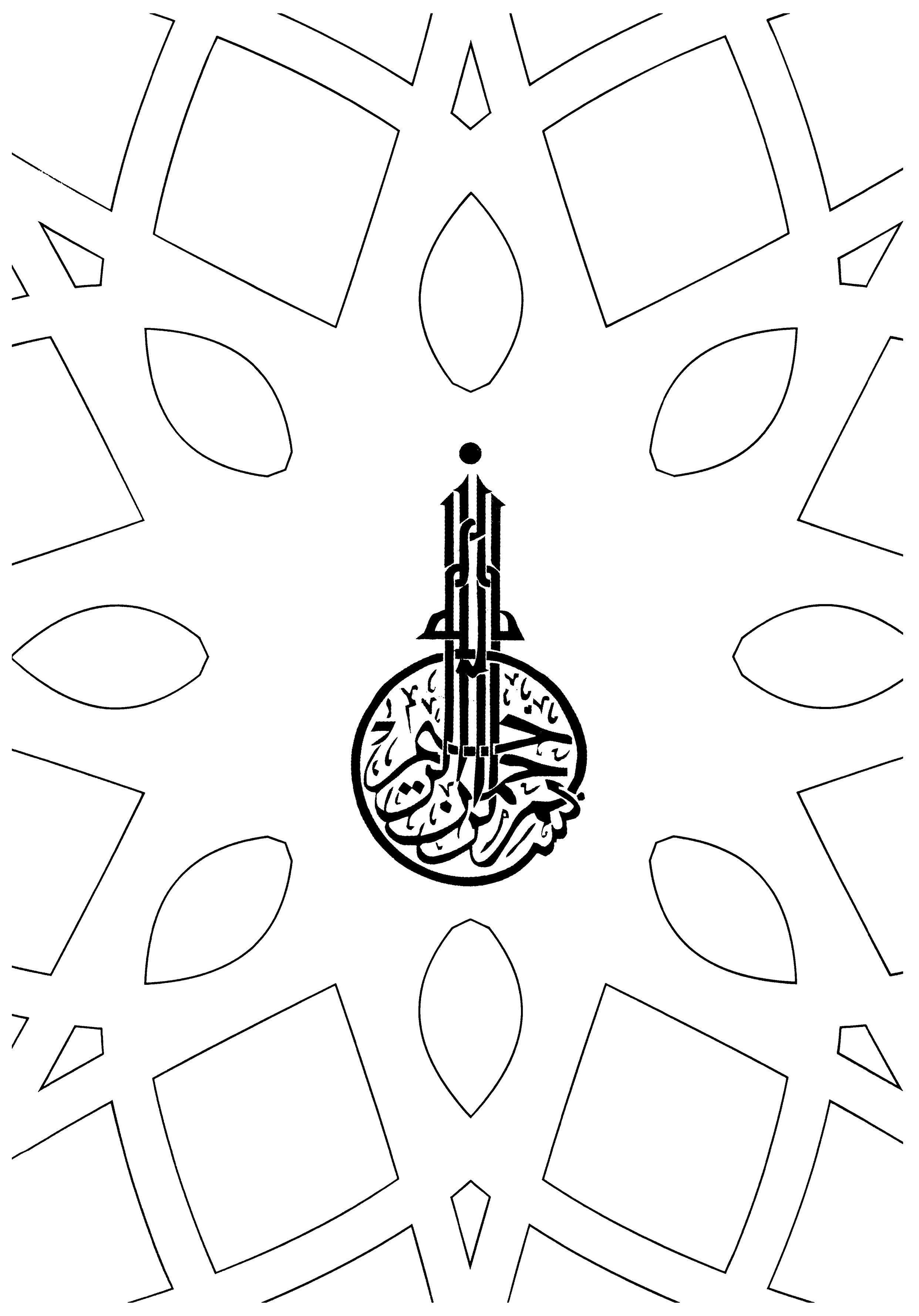
رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٧٩٣
ردمك: ٧-٥-٩١٥٤٤-٦٠٣-٩٧٨
ردمك: ٧-٣-٩١٥٥٧-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

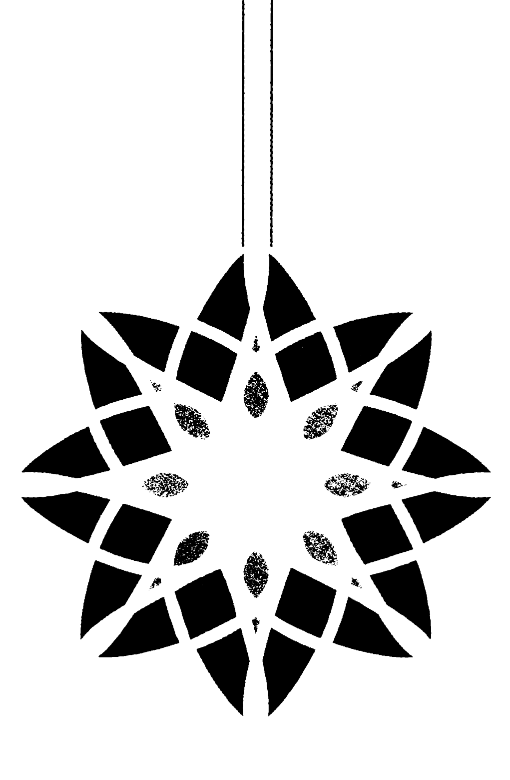


مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي
Almenhaj Center for Educational Supervision and Training

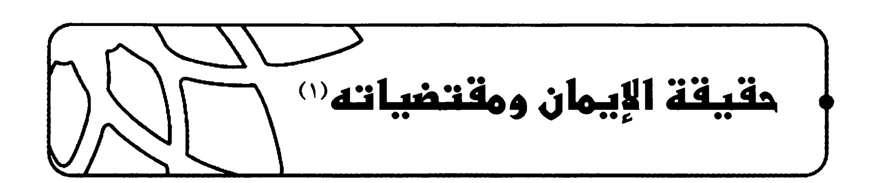
المملكة العربية السعودية - الرياض - هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٠٩٥٣
الموقع الإلكتروني: www.kholasah.com
البريد الإلكتروني: info@kholasah.com


الملحوظات
والمقترحات


بسم الله الرحمن الرحيم



الإيمان والعقيدة



حقيقة الإيمان ومقتضياته[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أحمده تعالى وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقَيُّوم يوم الدين؛ وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله إمام المتقين، وسيد الخاشعين، وقدوة الناس أجمعين، صَلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين، وصحبه الطاهرين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى ربكم واشكروه على وافر نعمه، وأطيعوه واعبدوه، ما لكم من إله غيره، ولا رب لكم سواه؛ الزموا أمره، واحذروا نهيه، فبذلك أمركم وشرع لكم؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أيها المسلمون: لقد كرم الله تعالى بني آدم، وأنعم عليهم بوافر النِّعَم، وحَبَاهُم من الخيرات ما يعجِزون عن شكره، والقيام لله سبحانه بحقه، وإن أفضل نعمة أنعمها الله على الإنسان وكرمه بها وميزه عن سائر المخلوقات: العقلُ والإدراك. وإن من تمام هذه النعمة اتباع الدين الذي شرعه، والإيمان بالإسلام الذي اختاره للعالمين دينًا لا يقبل من أحد سواه.

عباد الله: القلب هو مدار صلاح الإنسان، ومعيار استقامته وتقواه، إذا صلح قلبه أفلح وفاز، وإذا فسد قلبه خاب وخسر؛ عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى

---

(١) ناصر بن محمد الغامدي.

المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كراع يرعى حول الحِمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملِكٍ حِمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغه، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

قال سفيان بن عيينة عليه رحمة الله: (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه).

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

الإيمان هو المقبول عند الله دون سواه، وهو عصمةٌ للإنسان في الدنيا، وحفظ له في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله؛ فمَن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بِحَقِّه، وحسابه على الله»[2].

إن من رضي بالله تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا فقد ذاق طعم الإيمان، وحلاوة الحياة، فعاش مطمئنًا، ومات آمنًا، لرحمة الله راجيًا؛ وإذا تمكن الإيمان من النفوس، وخالطت بشاشته القلوب، خرج الإنسان من ظلمات الجهل والشك والخرافة إلى نور الإيمان واليقين، وشرح الله صدره، ويسَّر أمره، وأصلح له شأنه، فأصبح من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أيها المسلمون: الإيمان من أجَلِّ نعم الله تعالى على العباد، ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ومعنى الإيمانِ التصديقُ والاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، وخالقه ومدبره، وأنه وحده الذي يستحق العبادة؛ مِن صلاة وصوم ودعاء ورجاء، وخوف وذُلٍّ وخضوع، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المنزَّه عن كل عيب ونقص.

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٤).

فالإيمان بالله تعالى وحده يتضمن توحيده في ثلاثة أمور: في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته؛ وهذا يعني تفرده سبحانه وتعالى بالربوبية والألوهية، وصفات الكمال، وأسماء الجلال؛ لا كما فعل أهل الجاهلية الأولى الذين أقروا لله بالربوبية، وأشركوا معه في الألوهية؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠].

وأركان الإيمان التي لا يسلم لأحد دينه ما لم يؤمن بها إيمانًا جازمًا هي: الإيمان بالله تعالى وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله؛ ففي حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبي ﷺ فسأله عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث»(١).

هذه هي أركان الإيمان التي مَن آمَنَ بها فقد نجا وفاز، ومن جحدها فقد خاب وخسر؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

أيها المسلمون: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ولقد ضلت طوائف من أهل البدع والأهواء في معنى الإيمان؛ فمنهم من زعم أن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب دون عمل بالجوارح، أو نطق باللسان؛ ومنهم من زعم أن الإيمان مجرد النطق باللسان وحده دون تصديق أو عمل؛ ومنهم من زعم أن أهل الكبائر مخلدون في النار؛ وطائفة زعموا أن من آمن بقلبه، ونطق بلسانه، فهو في الجنة، ولو ارتكب الذنوب العظام.

وهذا كله جهل وضلال، وتخبُّطٌ وفسادٌ ما أنزل الله به من سلطان، وهؤلاء يدَّعون الإيمان ادِّعاء، لا حقيقة له ولا دلائل عليه، إذ كيف يجعلونه مجرد التصديق دون الانقياد والخضوع:

والدَّعاوى مَا لَمْ يُقِيمُوا عليْها ... بيِّناتٍ أَصْحابُها أَدْعِيَاءُ

---

(١) رواه البخاري (٥٠).

يقول الحسن البصري عليه رحمة الله: (ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن هو ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال).

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الإيمان إذا تمكن من النفوس، وخالطت بشاشته القلوب ظهرت نتائجه من خلال الأعمال، فكيف يزعم هؤلاء الجُهَّال الضُّلَّال أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، أو النطق باللسان، دون عمل واجتهاد، وكأن إبليس وفرعون وهامان لم يصدِّقوا، ولم يُقِرُّوا بوجود الله تعالى وأنه المستحق للعبادة دون مَن سواه. وكأن أهل الجاهلية الأولى كانوا ينكرون وجود الخالق سبحانه وتعالى؟ وقد قال الله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٣٨].

أما أهل الحق والعدل فإن الإيمان عندهم قول وتصديق وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، ومما يؤكد ذلك أعظم التأكيد قَرْنُ الله تعالى في كتابة العزيز في مواضع عديدة بين الإيمان والعمل الصالح؛ بل لا تكاد تجد آية في كتاب الله تعالى تدعو إلى الإيمان إلا وتذكر العمل الصالح معه؛ مما يدل على أن مجرد التصديق أو النطق وحده لا يكفي.

وأما أهل الكبائر من المسلمين عند أهل السنة والجماعة فهم تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم، ولا يخلدون في النار ما داموا مسلمين؛ فإن الله تعالى لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. قال الإمام ابن عطية -عليه رحمة الله-: (وقد أجمعت العلماء -لا خلاف بينهم- أنه لا يُكفَّر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بمعصيته، نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين).

قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة؛ على ما كان من العمل»[١].

وقال ﷺ: «فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).
(٢) رواه البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يـا ابـن آدم! إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبـك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابـن ادم إنـك لـو أتيتنـي بقـراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[1].

عباد الله: «الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إلـه إلا الله، وأدناهـا إماطـة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، والإيمان أمانة بين العبد وربه، وعهد بينه وبين الناس، فمن ضاعت أمانته ذهب إيمانه، ومن خان عهده قل إيمانه، فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا ديـن لمن لا عهد له.

الإيمان يحمل صاحبه على مكارم الأخلاق، وجميل السجايا والصفات، فيحب للناس مـا يحب لنفسه، ويعيش مع إخوانه في العقيدة آلامهم وآمالهم، يحزن لحزنهم، ويفـرح لفـرحهم، يخاف الله ويتقيه ويعظمه عن أن يكون أهون الناظرين إليـه، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفـال:٢-٤]. قال مجاهد: (هو الرجل يهم بالمعصية فيتذكر مُقامه بين يـدي الله، فيتركها خوفًا من الله).

وأوثق عرى الإيمان الحُبُّ في الله تعالى، والبغض فيه، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَن أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبـدٌ طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كـذلك، وقـد صـارت عامـة مؤاخـاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا».

قال الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

---

(١) صحيح الترمذي للألباني (٣٥٤٠).

وفي الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(١).

ومن كمالِ الإيمانِ قولُ الخير، والصمت عما عداه، وحفظ حقوق الجار، والبعد عن أذاه، وإكرام الضيف؛ قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(٢).

بل إن اللسان هو السبب العظيم في صلاح القلب أو فساده، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه»(٣).

ومن علامات الإيمانِ محاربةُ المنكَرات، ونشْر الخير، والدعوة إلى المعروف؛ قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٤).

وعنده، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره؛ ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٥).

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).
(٢) رواه البخاري (٦٠١٨).
(٣) صحيح الترغيب للألباني (٢٥٥٤).
(٤) رواه مسلم (٤٩).
(٥) رواه مسلم (٥٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها الناس، واعلموا -رحمكم الله- أن أكثر الناس -أو جُلَّهم- يدَّعون الإيمان، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين!

مِن الناس مَن حَظُّه من الإيمان مجرد الإقرار بوجود الخالق، وأنه الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وهذا لم ينكره حتى عباد الأوثان والأصنام.

وآخرون إيمانهم مُجَرَّدُ النطق بالشهادتين، دون عمل أو متابعة، أو استجابة لله تعالى ولرسوله.

وآخرون إيمانهم عبادة لله تعالى على وَفق أذواقهم، ومواجدهم، وما تهواه نفوسهم، من غير تقيُّدٍ بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله سبحانه وتعالى.

وطائفة إيمانُهم ما وجَدوا عليه آباءهم وأسلافهم كائنا ما كان، ولو كان في عقيدتهم ما يخالف الشرع الحنيف. وفئام من الناس إيمانُهم مكارمُ أخلاق، وحُسْنُ مُعاملة، وطلاقةُ وجه، وهذا حسن، لكنه لا ينفع بدون الشطر الآخر: فأين العبادات والطاعات؟

أين الشرائع والصلوات؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]، ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍ﴾ [البقرة:٨٥]؟

وفريقٌ من الناسِ إيمانُهم تجرُّدٌ من الدنيا وعلائقها، وتفريغ للقلب منها، والزهد فيها؛ فمَن كان هكذا جعلوه من سادات أهل الإيمان، وإن كان منسلخًا من ربقة الإيمان علمًا وعملًا، وهذه رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم، فإن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

وقد كان المصطفى ﷺ وهو القدوة والأسوة، وسيد العُبَّاد والمؤمنين، جامعًا بين الدنيا والآخرة بقدر، فهو يعبد الله، ويعظم شعائره وشرائعه، ويعامل الناس بالحسنى، ويتحرى الحلال، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، يجالس أصحابه، ويمازحهم، ويتزوج النساء، ويصوم ويفطر، ويقوم وينام، فمن رغب عن سنته فليس منه.



وهذه الطوائف كلها لم تعرف حقيقة الإيمان، ولا قام بها، ولا قامت به؛ فالإيمان هو معرفة ما جاء به الرسول المصطفى ﷺ، والتصديق به اعتقادًا، والإقرار به قولًا ونطقًا، والانقياد له محبَّةً وخُضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان.

وكمال الإيمان يكون بكمال الحب في الله تعالى، والبغض فيه، والعطاء لله، والمنع لله، ومنه محبة رسول الله ﷺ. كما قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١).

ألا وإن من محبته ﷺ محبة أتباعه، والمتمسِّكين بسنته في كل زمان ومكان، واتِّباع أمره، وتحكيم سنته، واجتناب ما عنه نَهَى وزجر، وألا يعبد اللهُ سبحانه وتعالى إلا بما شرع، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

أيها المسلمون: الإيمان حصن حصين من الشهوات والمحرمات، ففي الحديث، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»(٢).

وهو سبب للأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

فالمؤمنون لهم الأمن في الدارين، أمن وسلام، وهداية وتوفيق في الدنيا، وأمن من المخاوف، وسلامة من المضايق يوم الفزع الأكبر؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: (لهم الأمن في الآخرة، وهم مهتدون في الدنيا). وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت

(١) رواه البخاري (١٤).
(٢) رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

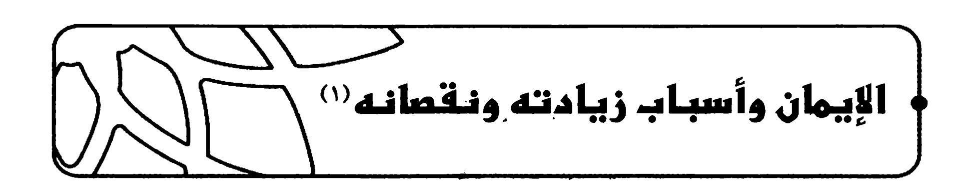
لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]»[(١)].

اللهم صَلِّ وسَلِّم على عبدك ورسولك محمد بن عبد الله صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم الدين، وارْضَ اللهم عن أصحاب نبيك أجمعين، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.



(١) رواه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).





الإيمان وأسباب زيادته ونقصانه[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا عبد الله ورسوله، وخيرته من رسله وصفوته من خلقه وأمينه على وحيه، معلم البشرية، وهادي البرية، ومجدد لواء الحنيفية، ومزعزع كيان الإلحاد والوثنية، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأخيار، وصحبه الأبرار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله؛ فإن من اتقى الله وقاه، وأرشده إلى خير أمور دينه ودنياه، وإن تقوى الله جل وعلا سلاح المؤمنين في الأزمات، والأمة المتقية أمة منصورة، أمة عزيزة مرهوبة الجانب يهابها أعداؤها.

ثم اعلموا -رحمكم الله- أن أهمّ ما يجب على العبد العنايةُ به في هذه الحياة الإيمان، فهو أفضل ما اكتسبته النفوس، وأعظم ما حصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، بل إن كل خير في الدنيا والآخرة متوقف على الإيمان الصّحيح؛ فهو أعظم المطالب، وأجل المقاصد، وأنبل الأهداف.

فبالإيمان -عباد الله- يحيا العبد الحياة الطيبة في الدارين، وينجو من المكاره والشرور والشدائد، ويدرك جميل العطايا وواسع المواهب.

---

(١) عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد البدر.

أيها الإخوة في الله: إن الإيمان بالله سبحانه وتعالى طريق للسعادة في الدنيا والآخرة، وسبيل إلى الأمن والأمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

بالإيمان ينال ثواب الآخرة، فيدخل جنة عرضها كعرض السماء والأرض، فيها من النّعيم المقيم والفضل العظيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وبالإيمان -عباد الله- ينجو العبد من نارٍ عذابُها شديد، وقعرها بعيد، وحرها أليم، وبالإيمان يفوز العبد برضا ربه سبحانه؛ فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذذ يوم القيامة بالنظر إلى وجهه الكريم، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

وبالإيمان يطمئن القلب، وتسكن النفس، ويسر الفؤاد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وكم للإيمان من الفوائد العظيمة، والآثار المباركة، والثمار اليانعة، والخير المستمر في الدنيا والآخرة، ما لا يحصيه ولا يحيط به إلا الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

عباد الله: إن الإيمان شجرة مباركة، عظيمة النفع، غزيرة الفائدة، كثيرة الثمر، لها مكان تغرس فيه، ولها سقي خاص، ولها أصل وفرع وثمار؛ أما مكانها؛ فهو قلب المؤمن، فيه توضع بذورها وأصولها، ومنه تنشأُ أغصانها وفروعها، وأما سقيها فهو الوحي المبين: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فبه تسقى هذه الشجرة المباركة، ولا حياة لها ولا نماء إلا به، وأما أصلها -عبادَ الله-؛ فهو أصول الإيمان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر: خيره وشره، وأعلى هذه الأصول الإيمان بالله؛ فهو أصل أصول هذه الشجرة المباركة، وأما فروعها؛ فهي الأعمال الصالحة، والطاعات المتنوعة، والقربات العديدة، التي يقوم بها المؤمن من صلاة وزكاة وحجٍّ وصيام وبر وإحسان وغير ذلك، وأما ثمارُها؛ فكل خير وسعادة ينالها المؤمن في الدّنيا والآخرة، فهو ثمرة من ثمار الإيمان، ونتيجة من نتائجه:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

عباد الله: والناس يتفاوتون في الإيمان تفاوتًا عظيمًا بحسب تفاوتهم في هذه الأوصاف قوةً وضعفًا، وزيادةً ونقصًا؛ فجدير بالعبد المسلم الناصح لنفسه أن يجتهد في معرفة هذه الأوصاف ويتأملها، ثم يطبقها في حياته ليزداد إيمانه، ويقوى يقينه، ويعظم حظه من الخير، كما أن عليه -عباد الله- أن يحفظ نفسه من الوقوع في الأمور التي تنقص الإيمان وتضعف الدين؛ ليسلم من عواقبها الوخيمة، ومغبتها الأليمة.

عباد الله: وللإيمان أسباب كثيرة تزيده وتقويه؛ أهمها: تعلم العلم النافع، وقراءة القرآن الكريم وتدبره، ومعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وتأمّل محاسن الدين الإسلامي الحنيف، ودراسة سيرة نبينا الكريم ﷺ وسير أصحابه الكرام، والتأمل والنظر في هذا الكون الفسيح وما فيه من دلالات باهرة، وحجج ظاهرة، وآيات بينة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١].

كما أن الإيمان يزيد بالجد والاجتهاد في طاعة الله، والمحافظة على أوامره، وحفظ الأوقات في طاعته وما يقرِّب إليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

عباد الله: وللإيمان أسباب كثيرة تنقصه وتضعفه يجب على العبد المؤمن أن يحترز منها وأن يحتاط عن الوقوع في شيء منها، وأهمها: الجهل بدين الله، والغفلة والإعراض، وفعل المعاصي، وارتكاب الذنوب، وطاعة النفس الأمّارة بالسوء، ومخالطة أهل الفسق والفجور، واتباع الهوى والشيطان، والاغترار بالدنيا، والافتتان بها، بحيث تكون غايةَ مُنى الإنسان وأكبر مقصوده.

عباد الله: ولما تحقق لدى سلف الأمة وصدرها وخيارها عظم شأن الإيمان، وشدة الحاجة إليه، وأن الحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، كانت عنايتهم به عظيمةً ومقدَّمة على كل أمر، فكانوا يتعاهدون إيمانهم، ويتفقدون أعمالهم، ويتواصون بينهم؛ كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: «هلموا نزددْ إيمانًا»، وكان



عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اجلسوا بنا نزدد إيمانًا»، وكان يقول في دعائه: «اللهم زدني إيمانًا ويقينًا وفقهًا»، وكان عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: «تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ولنزدد إيمانًا بطاعته، لعله يذكرنا بمغفرته»، وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «من فقه العبد أن يعلم أمُزداد هو أو منتقص»، أي من الإيمان، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه. وكان عمير بن حبيب الخطمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما زيادته ونقصانه؟! قال: إذا ذكرنا الله عَزَّ وَجَلَّ وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه». والنقول في هذا المعنى عنهم كثيرة.

عباد الله: ولهذا فإن العبد المؤمن الموفَّق لا يزال يسعى في حياته بتحقيق أمرين عظيمين ومطلبين جليلين: الأول: تقوية الإيمان وفروعه، والتحقق بها علمًا وعملًا، والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح وتدارك الأمر قبل الفوات، والإقبال على الله جل وعلا إقبالًا صادقًا بقلب منيب، ونفس مخبتة مطمئنة مقبلة على الله، ترجو رحمة الله، وتخاف عقابه، فنسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يمن علينا جميعًا بتحقيق ذلك وتكميله على الوجه الذي يرضيه عنَّا، وأن يرزقنا جميعًا إيمانًا صادقًا، ويقينًا كاملًا، وتوبة نصوحًا، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات؛ إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله عظيم الإحسان، واسع الفضل والجود والامتنان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله؛ فإن تقوى الله جل وعلا أساس الفلاح وعنوان السعادة في الدنيا والآخرة، وتقوى الله جل وعلا هي أن يعمل العبد بطاعة الله، على نور من الله، يرجو ثواب الله، وأن يترك معصية الله، على نور من الله، يخاف عقاب الله.

فيا أيها المسلمون! إن العظمة الإنسانية والقوة الإيمانية لا تُعرف في الرخاء قدر ما تعرف في الشدة، والنفوس الكبار هي التي تملك أمرها عند بروز التحدي، ألا ما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه، وما أشقاه بالضعاف المهازيل الذين لا ينصرون صديقًا، ولا يخيفون عدوا، ولا تقوم بهم نهضة، ولا ترفع بهم راية.

لقد ابيضت عين الدهر، ولم ترَ مثل المؤمن في قوته وبذله وفدائه.

المؤمن لا يصرفه عن الحق وعد، ولا يثنيه عن الخير وعيد، ولا ينحرف به الطمع، ولا يضله هواه، ولا تغلبه شهوة؛ فهو دائمًا داع إلى الخير، مقاوم للشر، آمرٌ بالمعروف، ناه عن المنكر، هادٍ إلى الحق، فاضح للباطل؛ لئن كسر المدفع سيفه، فلن يكسر الباطل حقه.

المؤمن قوي؛ لأنه على عقيدة التوحيد وعلى طريق الحق، لا يعمل لعصبية جاهلية ولا من أجل البغي على أحد، إنه قوي بإيمانه، مستمسك بالعروة الوثقى، يأوي إلى ركن شديد: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦] ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥].

المؤمن بإيمانه ليس مخلوقًا ضائعًا، ولا رقمًا هملًا، ولو تظاهر عليه أهل الأرض أجمعون: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢].

هل خيّب الله مؤمنًا قط؟ هل خذل متوكلًا صادقًا قط؟ قال الله عن أحد المؤمنين، مؤمن آل فرعون حين كاده فرعون وجنوده ففوض أمره إلى الله قائلًا: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤] فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥].

عباد الله.. ولكن مع طول الأمد وكثرة الفتن وطروء الغفلة فإن الإيمان يحتاج إلى تعاهد وتفقد وتجديد، روى الحاكم في المستدرك، والطبراني في المعجم الكبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»(١).

فوصف ﷺ الإيمان بأنه يخلق كما يخلق الثوب، أي أنه يبلى ويضعف ويدخله النقص من جراء ما قد يقع فيه المرء من معاصٍ وآثام، وما يلقاه في هذه الحياة من ملهيات متنوعة، وفتن عظام، تذهب جدة الإيمان وحيويته وقوته، وتضعف جماله وحسنه وبهاءه؛ ولهذا أرشد عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث العظيم إلى تعاهد الإيمان والعمل على تقويته، وسؤال الله تبارك وتعالى زيادته وثباته، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]، فمن الخير للعبد المؤمن -عباد الله- أن ينصح لنفسه في إيمانه الذي هو أغلى شيء لديه، وأثمنُ أمر عنده، وهو خير زاد إلى لقاء الله.

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٠).

والكيس -عباد الله- من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، ألا فاتقوا الله رحمكم الله، واستمسكوا بدينكم، وأحسنوا الظن بربكم ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

هذا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم الله في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام الحث على الإكثار من الصلاة والسلام عليه في ليلة الجمعة ويومها، فأكثروا في هذا اليوم الأغرّ المبارك من الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله..



الإيمان وأثره في توجيه السلوك[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل كتابه الكريم هدى لِلْمُتَّقِين، وعبرة للمعتبرين، ورحمة وموعظة للمؤمنين، ونبراسًا للمهتدين، وشفاءً لما في صدور العالمين؛ أحمده تعالى على آلائه، وأشكره على نعمائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحيا بكتابه القلوب، وزكّى به النفوس، وهدى به من الضلالة، وذكّر به من الغفلة، وأمر فيه بالتقوى. فسبحان من يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى!

إذا المرءُ لم يلبَسْ ثيابًا مِن التُّقى ... تقلَّبَ عُرْيَانًا وإنْ كانَ كَاسِيًا

وخيرُ لباسِ المرءِ طاعةُ ربِّهِ ... ولا خيْرَ فيمَنْ كان لله عاصيًا

وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه، ومَن ترسَّم خطاه وسار على نهجه، ما تعاقب الجديدان، وتتابع النيِّران، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

عباد الله: كم هي الآيات التي يدعونا الله فيها إلى الإيمان! ما تكاد تجد سورة في القرآن إلا وفيها دعوة صريحة، أو إشارة إلى أهمية الإيمان وأثره في حياة الفرد والمجتمع والأمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

---

(١) حسان بن أحمد العماري.

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

وكم هي نداءات الرحمن في القرآن الكريم لعباده بأعظم صفة وهي صفة الإيمان التي جعلها الله شرطًا لقبول الأعمال والعبادات، ورتب عليها الجزاء في الأخلاق والسلوك والمعاملات، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه:٧٥].

إنه الإيمان بقوة الله وقدرته، وعلمه، وعظمته، وسعة ملكه وسلطانه؛ إنه الإيمان بحُكمه وعدله، وعفوه ورحمته، ونصره وتأييده لعباده المؤمنين؛ فالإيمان هو حياة الإنسان الحقة، وبغيره يكون كالميت الذي لا حياة فيه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والإيمان قوة هادية؛ لأنه يحدد للإنسان وجهته، ويعرّفه غايته ومنهجه، فيحيا على نور، ويمضي على بصيرة: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١].

والإيمان ينير الطريق، ويحقق الطمأنينة والراحة النفسية، ويباعد بين المؤمن والقلق والحيرة، والهم والحزن، والتمزق داخل النفس؛ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

فلا إله إلا الله كلمة عظيمة؛ من أجلها خلق الخلق، وبعث الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار، فكان الإيمان بها وبمقتضياتها من أعظم الواجبات.

فعن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب: علِّمْني شيئًا أذكرك به، وأدعوك به. قال: يا موسى: قل: لا إله إلا الله. قال: يا رب: كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى: لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»(١).

والإيمان المطلوب من كل عبد أن يحققه في نفسه هو ذلك الإيمان الذي يورث الخشية والخوف من الله، والحب لله، والرجاء منه؛ وهو ذلك الإيمان الذي يهذب النفوس، ويقوّم الأخلاق، وبه يستقيم السلوك، وينتشر الخير.

وهذا الإيمان يزداد بالطاعات من صلاة، وصيام، وحج، وصدقة، وقراءة للقرآن، وتفكُّر في مخلوقات الله، وغيرها من الطاعات؛ وينقص بالمعاصي والسيئات، حتى يمشي الرجل بين الناس وليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

إنَّ تنميةَ العقيدة والروح الإيمانية أعظم ضماناتٍ لسلامة المجتمع الإسلامي، وأقوى أسباب تماسكه ووحدته؛ فهو يصهر الشعوب والقبائل والأعراق واللغات في رحاب المجتمع الواحد، الذي يعبد الإله الواحد، ويتبع النبي الواحد، ويؤمن بالكتاب الواحد؛ بل ويضبط التصوراتِ والأفعالَ والسلوكَ وفق قيمٍ واحدة، هدفها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

عباد الله: ولما كان للإيمان هذا الأثر العظيم في حياة المسلم فقد رأينا أن نتحدث في هذا المقام حول الإيمان وأثره في واقع حياتنا، خاصة وقد ظهر كثيرٌ من الأمراض الاجتماعية والنفسية والسلوكية والأخلاقية بسبب ضعف الإيمان، والتعلق بالدنيا، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، وبسبب هذه الحضارة المادية التي أهملت جانب الروح؛ فكان اهتمامها فقط بالجسد، فرأينا المخترعاتِ العملاقةَ، والمنتجات المتنوعة، والصناعات المختلفة التي تهتم بجسد هذا الإنسان: كيف يأكل وكيف يشرب وكيف ينام..

فأين غذاء الأرواح الذي به تُهذب النفوس، وتزدهر المجتمعات، وتبنى الحضارات؟! أين القيم والمبادئ والأخلاق؟! أين حب الإنسان لأخيه؟ أين الإيمان الذي يصنع الفرد

---

(١) صحح إسناده ابن حجر في الفتح (١١/ ٢١١).

والأسرة والمجتمع صناعة تضمن لهم جميعًا طمأنينة النفس، وراحة البال، وانشراح الصدر، وخير الدنيا، والنجاة يوم القيامة؟!

إن آثار الإيمان كثيرة في حياتنا؛ فمن آثاره توجيه السلوك وتهذيبه، وإن مَن ينظر إلى سلوكيات وتصرفات البعض اليوم يجدها لا تسلم من البغي والظلم، والتقاطع والعقوق، والشدة والجفاء، والحسد والبغضاء، ونكران المعروف وحب الذات، والتهرب من المسؤولية، والتنصل من الواجبات، بل أصبحت السلوكياتُ بعيدةً عن أوامر الدين وتوجيهات الرسول الكريم ﷺ، لا تحتكم إلى الشرع؛ بل إلى الهوى والمنافع الذاتية والمصالح الشخصية.

إن الإيمان كفيلٌ بعلاج الانحرافات؛ فهو يغرس في كل فرد قضيةَ مراقبةِ الله تعالى وخشيته، والسعي لنيل الأجر والثواب، والخوف من العقاب، فيحرص المؤمن على أن يكون سلوكه حسَنًا مع الناس جميعًا؛ بل حتى مع الحيوان والبيئة التي حوله، وهذه هي رسالة الإسلام، وثمرة من ثمار الإيمان.

والإيمان هو الذي يغذي القيم ويوجه سلوك العبد، مع نفسه، ومع خالقه، ومع أبناء جنسه، في البيت، ومع الجيران، وفي الوظيفة، وفي السوق، بل ويجعل من العادة العادية عبادة ثابتة راسخة؛ كما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكْرِم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو لِيَصْمُت»[1].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ»[2].

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨).

(٢) صحيح الترمذي للألباني (١٩٥٦).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).

والإيمان يدعونا إلى نهج السلوك الحسن مع الخلق جميعًا، وتهذيب الأقوال والأفعال، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ»[1] وقال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسنِ خُلُقِهِ درَجَةَ الصائمِ القَائمِ»[2]. وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللَّعَّان، ولا الفاحش، ولا البذيء»[3].

والإيمان يوجه سلوك المسلم في أي ميدان من ميادين الحياة إلى الخير، فللتاجر الصدوق منزلةٌ رفيعةٌ يتسابق إلى بلوغ شرفها المؤمنون، قد بشّر بها النبي ﷺ في قوله: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيّين والصدّيقين والشّهداء»[4].

وخرج رسول الله ﷺ إلى المصلَّى بجانب السوق يومًا، فرأى الناس يتبايعون، فقال: «يا معشر التجار»، فاستجابوا، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «إن التجار يُبعثون يوم القيامة فُجّارًا، إلا من اتقى الله، وبَرَّ، وصدق»[5].

وانظروا إلى ماذا يصنع الإيمان، وكيف يضبط السلوك ويوجه التصرفات: ففي عام الرمادة، وقد بلغ الفقر والجوع بالمسلمين مبلغًا عظيمًا، جاءت قافلة لعثمان بن عفان مؤلفة من ألف بعير، محملة بالتمر والزبيب والزيت وغيرها من ألوان الطعام، فجاءه تجار المدينة المنورة من أجل شرائها منه، وقالوا له: نعطيك ربحًا بدل الدرهم درهمين يا عثمان. قال عثمان: «أعطيت أكثر من هذا». قالوا: نزيدك، الدرهم بخمسة. قال لهم: «لقد زادني غيركم الدرهم بعشرة». قالوا له: من الذي زادك، وليس في المدينة تجار غيرنا؟! قال عثمان: «ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]؟! أشهدكم أني قد بعتها لله ورسوله» فأنفقها في سبيل الله.

فلو لم يكن هناك إيمان لكان الجشع والطمع واستغلال حاجات الناس وظروفهم؛ لكنه الإيمان.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦/ ٩٩).
(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٨) وصححه الألباني.
(٣) صحيح الجامع (٥٣٨١).
(٤) صحيح الترغيب للألباني (١٧٨٢).
(٥) صحيح الترغيب (١٧٨٥).

عباد الله: والإيمان يمنع الغش والتحايل والخيانة، كما جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يتجول ذات ليلة بالمدينة، ومعه خادمه، فأعياه التعب، فاتكأ إلى جدار بيت، وإذا بامرأة تقول لابنتها: قومي إلى اللبن فامزجيه بالماء، فقالت الفتاة: يا أماه: أوَمَا سمعتِ منادي الخليفة ينادي: لا يُخْلَط اللبن بالماء؟! فقالت: إن عمر لا يرانا، فقالت الفتاة: إنْ كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا.

فلما سمع الخليفة كلامها قال لخادمه: اعرف مكان البيت، ثم مضى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جولاته، فلما أصبح قال للخادم: امضِ إلى المكان فانظر مَن الفتاة؟! وهل لها زوج؟! قال الخادم: أتيت البيت فعلمت أنه ليس لها زوج، فعدت إلى الخليفة فأخبرته الخبر، فجمع أولاده وقال لهم: هل فيكم من يحتاج إلى الزواج فأزوجه؟! فزوجها لابنه عاصم، فكانت جدّة عمر بن عبد العزيز من جهة أمه، حيث إن ابنتها تزوجت عبد العزيز بن مروان، وأنجبت عمر بن عبد العزيز.

آمنت وعرفت ربها وعرفت معنى مراقبته، والسلوك الذي يجب أن تلتزم به، فعوضها ربها خيرًا وخلّد التاريخ قصتها لتُروى للأجيال لتكون مثلًا للاقتداء. فمتى ينتبه الموظف لسلوكه وتصرفاته في وظيفته؟! ومتى يدرك القاضي دوره ومسؤوليته؟! ومتى يشعر الجندي بواجبه في حماية الأعراض والدماء والأموال؟! عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «عينانِ لا تمسُّهما النار: عينٌ بكتْ من خَشيةِ الله، وعينٌ بكتْ من خَشيةِ الله باتتْ تَحْرُسُ في سبيلِ الله»(١).

ومتى يدرك الأبناء أهمية البر بالآباء؟! ومتى تقوم المرأة بواجبها في التربية وبناء الأسرة المسلمة؟! إن ذلك كله لن يكون واقعًا في الحياة حتى تمتلئ هذه القلوب بالإيمان بالله.

إنه الإيمان الذي يضبط السلوك حتى في أحلك الظروف وأصعب الأزمات، فهذه الخنساء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عُرفت بالبكاء والنواح، وإنشاء المراثي الشهيرة في أخيها المتوفَّى إبان جاهليتها، وظلت ترثيه سنوات، تقول فيه:

---

(١) صحيح الترغيب (٣٣٢٢).

يُــذَكِّرُنِي طلــوعُ الشــمسِ صَــخْرًا ... وأذْكُــرُهُ بكُــلِّ غُــرُوبِ شَــمْسِ
ولــولا كثــرةُ البــاكينَ حَــوْلِي ... عَــلَى إخْــوَانِهِمْ لَقَتَلْــتُ نَفْسِــي
ومــا يبْكُــونَ مِثْــلَ أَخِــي، وَلَكِــنْ ... أُعَــزِّي الــنَّفْسَ عَنْــهُ بِالتَّــأَسِّي

وما إن لامس الإيمان قلبها، وعرفت مقام الأمومة، ودَور الأم في التضحية والجهاد في إعلاء البيت المسلم ورفعة مقامه عند الله، وعظت أبناءها الأربعة عندما حضرت معركة القادسية تقول لهم: إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لابْنُ أب واحد، وأم واحدة، ما خبث آباؤكم، ولا فُضحت أخوالكم.

فلما أصبحوا باشروا القتال واحدًا بعد واحد حتى قُتلوا، ولما بلغها خبرهم ما زادت على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

لَقَد قَصَدَ الإسْلامُ أنْ يكُون الإنسان مَثَلًا صَالحًا محمُود الخصال، شريف الشمائل، حسَنَ السلوك، إن تكلم صَدَقَ، وإنْ وَعَدَ وَفَى، وإن اؤتُمِنَ في أمْرٍ أَدَّى الأمانَةَ وَلَمْ يَخُنْ، وإنْ رَأى أمرًا مُنْكرًا غَيَّرَهُ بيَدِه، فإنْ لمْ يَسْتَطعْ فَبلسانه، فإن لم يَسْتَطعْ فَبِقَلْبه، وإن تَكَلم غضَّ مِن صَوْتِه، وَإن مَشَى لَم يَكُن مُخْتَالًا ولا فخورًا في مشيته، وإنْ رأى كَبيرًا وَقَّره، أو صغيرًا عطف عليه، أو محتاجًا أعانه.

اللهم زَيِّنْ قلوبنا بالإيمان. قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عباد الله: إن سلوك الإنسان وأخلاقَه وتصرفاتِه في الحياة هي ثمرة ومظهرٌ من مظاهر عقيدته في حياته الواقعية وممارساته اليومية، فإن صح الإيمان وصلَحت العقيدة صلَح السلوك واستقام، وإذا فسَدت فسد واعوجَّ، ومن ثَمَّ كانت عقيدة التوحيد والإيمان بالله ضرورةً لا يستغني عنها الإنسان؛ ليستكمل شخصيته، ويحقق إنسانيته واستقامته، وقد كانت الدعوة إلى عقيدة التوحيد والإيمان بالله أول شيء قام به الرسول ﷺ لتكون المنطلق وحجر الزاوية في بناء الفرد والأمة المسلمة.

إن الإيمان يجعل صاحبه قويًا في مواجهة العقبات، صلبًا عند حلول الأزمات، ليس هلوعًا ولا جزوعًا ولا منوعًا، بل كريمًا صبورًا قنوعًا، لإيمانه وثقته وحسن ظنه بالله، ومعرفته لحقيقة هذه الحياة.

وإن الإيمان يوجه سلوك الفرد تجاه أمته ومجتمعه التوجيه الأمثل، فمن مقتضيات الإيمان أن يكف شره وأذاه عن القريب والبعيد، والجار والصديق، ولذا جاء عن أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يُؤمن، والله لا يُؤمن، والله لا يُؤمن»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوائِقَه»[1]. قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا الحديث شديد في الحض على ترك أذى الجار، ألا ترى أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أكد ذلك بقسمه ثلاث مرات أنه لا يؤمن من لا يؤمن جاره بوائقه، ومعناه أنه لا يؤمن الإيمان الكامل، ولا يبلغ أعلى درجاته من كان بهذه الصفة، فينبغي لكل مؤمن أن يحذر أذى جاره ويرغب أن يكون في أعلى درجات الإيمان، وينتهي عما نهاه الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه)[2].

أيها الآباء والمربون.. اغرسوا الإيمان في قلوب أبنائكم، اغرسوا حب الله ورسوله في قلوبهم الناشئة، لينهجوا منهج الصدق والعدل، والعفة والأمانة، والأدب والصيانة، قُصُّوا

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦).

(٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٩/ ٢٢٢).

عليهم قصص الأنبياء والصالحين، والأولياء والمؤمنين، اغرسوا فيهم مبدأ المراقبة لله، وحبه وخشيته والحياء منه، فتلك هي أصول القيم وجذور الأخلاق وينبوع الشمائل، لتنبت فيهم تواضعًا وإحسانًا، واستقامة وخيرًا..

أيها الناس.. المؤمن مبارك أينما كان، فهو كالنحلة أو كالنخلة، وكالغيث أينما حل نفع، لا يعيش لنفسه وحسب؛ بل يعيش لمجتمعه وأمته، ويسعى دائبًا في نفع غيره؛ لأنه يعلم أن أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، وأحب العمل إلى الله سرور تدخله على مسلم.

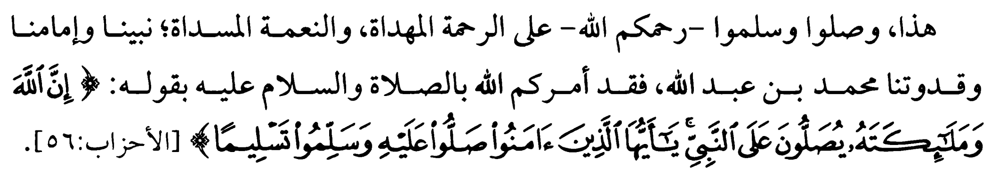
وإن التعاون والتكافل عنوان المجتمع المؤمن، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْـمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْـجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْـجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْـحُمَّى»[1].

فيفرح المسلم لفرح المسلمين، ويحزن لحزنهم، ويتألم لمصابهم، ويسعى لنصرتهم، ولا يوالي عدوهم؛ بل ويشاركهم في همومهم وتطلعاتهم، ويبذل الوسع في ذلك، فإن عجز عن شيء بلّغه صدق إيمانه وصحة نيته ما لم يبلغه عمله، وانظروا إلى سلوك المسلمين في غزوة تبوك وقد دعاهم رسول الله للخروج للجهاد في سبيل الله في وقت شديد الحرارة، وقد بلغ بهم الفقر والحاجة مبلغًا عظيمًا، فخرج مَن خرج، وتصدق من تصدق، وجاء الفقراء يريدون مشاركة المسلمين في شرف الجهاد؛ لكنهم لا يملكون زادًا ولا راحلة، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع، قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

اللهم حبب إلينا الإيمان، وَزَيِّنْهُ في قلوبنا، وكَرِّهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).



هذا، وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة؛ نبينا وإمامنا وقدوتنا محمد بن عبد الله، فقد أمركم الله بالصلاة والسلام عليه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد، وارضَ اللهم عن خلفائه الراشدين، وعن الصحابة أجمعين، وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعَنَّا معهم بِمَنِّكَ ورحمتك يا أرحم الراحمين.





الرد على الملحدين

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي عز جلاله فلا تدركه الإفهام، وسما كماله فلا تحيط به الأوهام، وشهدت أفعاله أنه الحكيم العلام، سبحانه هو الملك القدوس السلام، حبب إلى عباده الإيمان وشرح صدورهم للإسلام، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام..

أشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، جل عن الشبيه والمثيل والكفء والنظير، دلَّت على وجوده الآيات الباهرة، وشهدت على جوده نعمه الباطنة والظاهرة، وسبحت بحمده الأفلاك الدائرة، والنجوم السائرة، والسحب الماطرة، هو الأول فله الخلق والأمر، والآخر فإليه الرجوع يوم الحشر، الظاهر فله الحكم والقهر، والباطن فله السر والجهر..

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله ربه رحمة للعالمين، ومحجةً للسالكين، وحُجة على العباد أجمعين، فهدى به من الضلالة، وبصَّر به من الجهالة، وأرشد به من الغواية، وكثَّر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغُرِّ الميامين، ما اتصلت عينٌ بنظَر، أو سمعت أذن بخبر، وسلَّم تسليما كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عباد الله: إن من فضل الله علينا أن أوجدنا وخلقنا في هذه الحياة، وأمدَّنا بأصناف النعم، خلقنا في أحسن تقويم، وكرمنا أعظم تكريم، ومتَّعنا بالأسماع والأبصار والعقول، وسخَّر لنا ما في السماوات وما في الأرض، وما في الجو والبر والبحر، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وفضلنا على كثير من خلقه بالفطر الصحيحة، والعقول الرجيحة، والجوارح السليمة، والنعم العظيمة، والمنن الجسيمة، كل ذلك ليحمل الإنسان الأمانة الغالية، والمسئولية الكبيرة، ليعرف في الوجود مكانته التي بوَّأه الله إياها، ووظيفته التي كلفه بها، والغاية المُثلى التي خلقه لأجلها، والحق العظيم الذي عليه لله ربه، خالقه ورازقه، ومدبر أموره، ومالك ضره ونفعه، وحياته وموته، لا إله غيره، ولا رب سواه.

أيها الإخوة الكرام: خلق الله تعالى الخلق عبيدا له، ذليلين لجنابه جل وعلا، وقضى الله تعالى أن يوجد خالق ومخلوق، وربّ ومربوب، وعبد ومعبود جل في علاه.

ولقد قرر الله تعالى هذه القضية في القرآن، وبين الله عَزَّوَجَلَّ أحوال الملحدين الأولين فذكر الله تعالى في كتابه إلحاد فرعون لما جحد بها واستيقنتها نفسه، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وذلك لما جاء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى فرعون يدعوه إلى الإسلام فجحد فرعون بربنا جل وعلا وجعل يناظر موسى و يناقشه حتى كان الهلاك على فرعون، فلما بدأ به الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

فذكر الله تعالى إلحاد فرعون، وذكر الله تعالى في كتابه الحاد النمرود الذي قال لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنا احيي واميت! فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فذكر الله تعالى الإلحاد في كتابه، ولا يزال الإلحاد -أيها المسلمون- يطوف بعقول بعض الناس، وإنك إذا تأملت اليوم في واقعنا وجدت أن مثل هذا الإلحاد بدأ ينتشر عند بعض المسلمين مع -الأسف!- فبدأت تظهر لهم منظمات ومنتديات من خلال شبكة الانترنت، وصار لهم مواقع، وصار لهم مناقشات ونواد يجتمعون فيها، فتجد أحيانا في بعض البلدان من كانوا مسلمين أو هم لا يزالون مسلمين لكن عندهم شيء من اللوثة تتأثر بذلك الإلحاد أو

ببعض عقائده أو بقراءة بعض كتبه، أو المشاركة في بعض منتدياته أو ما شابه ذلك، بسبب الشبهة والشهوة.

ولقد كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يُحذرون الناس من أن يقع في قلوبهم شك في وجود رب العالمين أو في أحقيته بالعبادة، ولقد ذكر أهل العلم أن الإمام أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ناظر يوما قوما من السومانية، قال: وكان هؤلاء السومانيه قوما ملحدين ينكرون وجود الله تعالى ويقولون إن هذا الكون وجد هكذا صدفة من غير خالق، من غير موجِد، وأن ما نرى من جبال وأحجار وأشجار و مخلوقات متنوعة على إتقانها وجلالة هيبتها ودقة صنعتها أن هذا كله إنما وجد هكذا صدفة دون أن يكون له خالق و موجد جل في علاه.

فناظرهم أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإذا بهم يتأففون عنه ويترفعون عن حواره و يظنونه ضالا في عقيدته، فواعدهم من غده أن يلتقوا عند الأمير -يعني عند أمير البلد- فلما كان الموعد تأخر عليهم أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأخذوا يتكلمون عنه ويذمونه ويقولون للأمير: هؤلاء علماؤكم يتأخرون عن مواعيدهم! فلما دخل أبو حنيفة قال له الأمير: تأخرت يا أبا حنيفة. قال: نعم؛ إني لم أجد مركبا ينقلني من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى. قال له: فماذا فعلت؟ (لما لم تجد مركبا يحملك)؟ هل قطعت النهر سباحة؟ قال: كلا، بينما أنا واقف على جانب ضفة النهر إذا بسحابه تمر علينا، وإذا ببرق عظيم ورعد شديد، وإذا هذا البرق تنطلق منه صاعقه فتشق شجرة عظيمه إلى نصفين فيقع نصفها هكذا صدفة في البر ونصفها في البحر، وصدفةً إذا بالنصف الذي في البحر تنطلق قطعة من حديد كانت موجودة على الارض ثم تلتصق بغصن من اغصان هذه الشجرة، ثم هكذا يلتصق هذا الحديد بذلك اللوح ثم يقبل على هذا الجزء الذي على الماء ثم يبدأ يقطعه حتى صُنع منه قارب يستطيع إن يسير في الماء، ثم دنا هذا القارب صدفةً إلى جانب الشط فركبت فيه، ثم صدفة هكذا انطلقت ألواح من يمين ويسار وصنعت مجاديف، والتصق بعض الأخشاب ببعض حتى صنعت مجدافين، ثم جعلت تجدف من نفسها دون أن يكون لها صانع، دون أن يكون لها مجدِّف، دون أن يكون لها موجِّه ولا رُبّان يقود هذا القارب، فإذا نحن بعد قليل في الضفة الأخرى، فها نحن الآن بين أيديكم!

قال: فالتفت السومانية إلى الأمير وقالوا: عالمكم هذا مجنون. قال لهم أبـو حنيفـة: لمـاذا؟ قالوا: أمعقول أن يوجد قارب كامل من غير صانع؟ ثم هذا الفأس يوجد من غير صانع، ثم ما هذه الصدفة التي قسمت هذه الشجرة نصفين وجعلت نصفا على البر ونصفا على البحر؟ ثم كيف يسير هذا القارب من غير قبطان يقوده و لا رجل يوجهه؟ أنت مجنون.

فقال لهم أبو حنيفة: سبحان الله! الآن لم تصدقوني بأن قاربا واحـدا وجـد هكـذا صـدفة وصنع هكذا من غير صانع، وأنتم تقولون إن السموات و الأرض والجبال والشمس والقمر وما في الكون من الأفلاك الدائرة والكواكب السائرة كله تدَّعون أن هـذا الكـون كلـه وجـد صدفه! فحجَّهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وذُكر أن أبا حنيفة أيضا جلس يوما مع بعض هؤلاء الملحدين فتكلم أبو حنيفة عن خلق الله تعالى للكون وإتقان صنعته، قال ذلك الملحد: أنت تزعم أن الله هو وحـده هـو الخـالق؟ قال: نعم؛ هو سبحانه الذي يوجد الشيء من عدم فيخلق ما يشاء. فالتفت إليه ذلـك الملحـد وقال: أنا أستطيع أن أخلق. قال: أنت تخلق؟! قال: نعم.

فمضى ذلك الملحد بأبي حنيفة إلى شجرة فشق شيئا منها ثـم أخـذ قطعـة لحـم ودسـه في الثقب الذي صنعه ثم غطى ذلك الثقب، وقال لأبي حنيفة: موعدنا هنا بعد شهر، فلما مضت الثلاثون يوما أقبل أبو حنيفة إلى ذلك الموضع ثم نزعوا ذلك الغطاء وإذا بذلك اللحـم عليـه شيء من الدود يسري عليه، لما كشفوا الغطاء إذا بالـدود يخـرج مـن مكانـه، فقـال لـه ذلـك الملحد: هل كان هذا الدود موجودا قبل أن نضع اللحم؟ قال أبو حنيفة: لا. قال: هـل تـرى موضـعا يمكـن للـدود أن يـدخل مـن خلالـه وقـد سـددنا المكـان؟ قـال: لا؟ فقـال: إني أنا الذي خلقته.

فقال له أبو حنيفة: الخـالق يعـرف خلقـه، ألـيس كـذلك؟ قـال: نعـم. قـال: كـم عـدد مخلوقاتك؟ قال: لا أدري. قال: كم منها ذكور وكم منها إناث؟ قال: لا أدري. قـال: مـاهي آجالها؟ مَن سيموت منها قبل الآخر؟ قال لا أدري. قال: مَن وُجد منها في الحياة قبل الآخر؟ ما أعمارها؟ قال: لا أدري. قال: سبحان الله! وتزعم أنك خالق عليم بخلقك وأنت لا تدري عن أعمارهم ولا عن آجالهم ولاعن ذكورهم من إناثهم؟!.

وإذًا؛ هو فعلا لم يخلق إنما هيأ بيئة لأجل أن تتحرك بعض الفطريات الموجودة أصلا في ذلك اللحم، هيأ لها بيئة ليصنعها الله تعالى وأن يخلقها كما يشاء جل في علاه؛ كما يهيء الزارع البذرة والأرض للنبات، لذا -أيها المسلمون- إن هذا المذهب -أعني مذهب الإلحاد- مع وجوده اليوم ومع ظهوره فإن عددا من هؤلاء الملحدين لا يزالون مقتنعين بما حدَّثَهم به داروِن لما قال إن أصل الإنسان كان من قرد!.

يقول أحد الدعاة: حاورت ملحدًا فقلت له: من خلقنا؟ قال: نحن تطورنا. قلت له: كيف تطورنا؟ قال: نحن كنا قرودا، وقبل أن نكون قرودا كنا حيوانات أصغر من ذلك، ثم كنا ضفادع، ثم كنا خلايا صغيرة، ثم كنا أصغر من هذه الخلايا. فلما قال كنا قرودا قلت له: أما أنا فلم اكن قردا ولله الحمد! كل شخص يتكلم عن نفسه، أنا بشر ابن بشر، خلق الله تعالى أبانا آدم في السماء بشرا ونحن من ذريته، أما أن تكون أنت اجدادك قرود فهذا راجع إليك!.

ثم قال: إن هذه الخلايا كانت قديمة. فقلت له: حسنا، ارجع ايضا. قال: فلا تزال هذه الخلايا كونت من خلايا اصغر منها... حتى وصلنا إلى موضع لا يستطيع الاجابة عليه. قلت له: حسنا، لما تناهت في الصغر وجعلت تصغر هذه الخلايا فتصنع تلك الخلية خلية قبلها وتوجد منها وتتطور حتى تكبر الخلية الأولى، مَن أوجدها؟ قال: هذه جاءت من الانفجار العظيم للكون. قلت: هذا الانفجار معناه أن هناك شيء كان موجودا وانفجر، أليس كذلك؟ قال: بلى. قلت: هذا الشيء الذي انفجر مَن خلقه؟ من أوجده؟ ماذا كان قبل ذلك؟ فسكت قليلا -ومعه ماجستير من امريكا- فقال: هذا السؤال الذي لا يستطيع احد إلى الآن الاجابة عليه.

فقلت له: أما نحن فعندنا الإجابة: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وهو سبحانه وتعالى العزيز الحكيم، وهو العلي العظيم، وهو الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، والله! إن كل خلية من الخلايا لتشهد أن الله تعالى واحد لا شريك له.

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

إن كل ذرة من ذرات الكون تشهد أن الله واحد لا شريك له، إنَّ كلَّ جزء نراه في هذا الكون يشهد أن الله تعالى واحد لا شريك له؛ بل إن كل هذه الأمور وكل هذه الأشياء تسبِّح بحمد ربنا جل وعلا، كما قال الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وإن هؤلاء الملحدين ليعيشون في حيرة وحسرة، وهم وغم، لن يجدوا له حلا إلا أن يدخلوا في الاسلام ويوحدوا الله رب العبيد وبارئ البرايا سبحانه.

يقول أحد الدعاة: اتصلت بي امرأة تستفتي فقلت: دعي زوجك يتصل بي، فإذا زوجها يتصل وهي تستفتي: هل يجوز أن أبقى معه وهو ملحد أم لا؟ قلت: دعينا نناظره ونناقشه وننصحه، فتحدثت معه فإذا هو يقول لا إله! قلت: فمَن خلقنا؟ فإذا به يعود بي إلى نظرية دارون وأنه كان قردا. قلت له: حسنا! ما تقول في محمد ﷺ؟ قال: هذا رجل أديب واستطاع أن يصنع القرآن، وخدع الناس بذلك. قلت له: مادام أنه صنع القرآن؛ فلماذا لم يتأتَّى لأحد صنع مثل هذا القرآن الآن من ١٤٠٠ سنة وقريش لم تستطع أن تصنع ولا سورة واحدة، وقد تحداهم وهم الأدباء والبلغاء والشعراء؟ لماذا لم يستطيعوا؟ قال: لا اعلم.

قلت له: حسنا؛ والإعجاز العلمي الموجود في القرآن، لما يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧] ثم يكتشف اليوم الجيولوجيون بأن لكل جبل وتدا في داخل الأرض هو بمقدار ثلاثة أرباع الذي في سطحها، كما أنك تضرب وتد الخيمة فتجعل ثلاثة أرباعه داخل الأرض ليشدها وليثبتها، كذلك سمى الله تعالى الجبال أوتادا، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]. قلت له: مِن أين عرف محمد ﷺ أن في الارض ثلاثة أضعاف هذا الجبل؟ قال: هذا جاء مصادفة.

قلت له: وما يتعلق بالجنين وأنه كان مضغة وعلقة وإذا به يُنشأ خلقا آخر ويكسو الله تعالى العظام لحما. كيف عرف محمد أن العظام تسبق اللحم؟ كيف عرف؟ قال: هذا أيضا كان صدفة. قلت له: حسنا! والكون لما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، ولا يزال اليوم الناس يعلمون من العلماء في الفلك بأن الكون لا يزال يتوسع في ذراته؟ قال: أيضا هذا كان صدفة!

قلت: سبحان الله! ما أكثر الصدف التي وافقت الحقيقة من رجل عربي أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يسبق إليها أحد غيره من الفلاسفة والأطباء والحكماء وغيرهم!

إن صدقت بالأولى والثانية فلا ينبغي ان أصدقك في بقيتها، ثم قلت له: أسألك بالله! متى كنت تشعر براحة أكثر وطمأنينة في قلبك وعدم اكتئاب وعدم قلق الآن حين أنكرت وجود الله وكفرت بالله العظيم وبدأت تنخرط في شهواتك ولذاتك دون أن يكون لك رقيب من داخل قلبك، أم لما كنت عابدا لله مصليا له تقرأ القران؟ فقال: لا تستعمل معي العواطف. قلت: أجب عن هذا السؤال. فقال: أما إن أردت أن أصدقك فوالله لقد كنت في ذلك الحال في طمأنينة، أتمنى الآن أن أجد ولو ربعها، ثم قال: والله إني أعيش الآن في شتات، ولا أستطيع أن أستقر على حال من القلق والاكتئاب؛ لكن مع ذلك أنا مصر على الرأي الذي أنا عليه!!

فتذكرت حال الاولين الذين عاشوا في شيء مما كان يتعلق بالفلسفة والإلحاد.

واعلم أن الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان في زمانه أعظم أئمة التأويل؛ رجع عن ذلك المذهب إلى مذهب السلف، معترفًا بأن طريق الحق هي اتباع القرآن في صفات الله.

وقد قال في كتابه أقسام اللَّذَّاتِ: لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلًا، ولا تشفي عليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.. وقال: ومن جَرَّبَ مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وقد بيَّن هذا المعنى في أبياته المشهورة الثي يقول فيها:

(نهايةُ إقدامِ العقول عقالُ ... وغايةُ سعْيِ العالمين ضلالُ
وأرواحُنا في وحشةٍ في جُسومنا ... وغايةُ دنيانا أذىً ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرِنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا
وكم من جبال قد عنت شُرفاتها ... رجالٌ فزالوا والجبال جبال)

وقيل: إنه ذهب مره إلى نيسابور فمر بطريق من الطرق فاجتمع عليه بعض الطلاب يسألونه، فكانت عجوز جالسة عند بيتها فسألت: مَن هذا الذي ظلل عليه الناس واجتمعوا؟

فقالوا لها: هذا الرازي. قالت: أي شيء الرازي؟ ما هو الرازي؟ لم أسمع به! فقال لها أحدهم: هذا الذي أقام ألف دليل عقلي على وجود الله. فقالت: إيه! والله لو لم يقم في قلبه ألفُ شَكٍّ لما احتاج إلى ألف دليل. فسمعها الرازي فرفع بصره إلى السماء وقال: (اللهم اعطني إيمانًا كإيمان عجائزِ نيسابور) أعطني عقيدة مطمئنة، ولا تجد هذه العقيدة المطمئنة إلا في الإيمان بالله وحده.

والشهرستاني رَحِمَهُ اللَّهُ مَرّ أيضا بشيء من تلك الفلسفة والخوض في العقليات، قيل: فلما نزل به الموت جعل يقول:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها وقلبت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعًا سِنَّ نادمِ(١)

يعني: دخلت على الملحدين وحاورتهم وناظرتهم، ودخلت على شتى العقائد ونظرت فيها وجربتها، يقول: ما رأيت إلا محتارين، أو أقواما عندهم ضلال في عقائدهم، أو ما شابه ذلك.

وأذكر أن أحد الملحدين قابل أحد العقلاء الحكماء، فقال له ذلك الملحد: أتزعم أن الله موجود؟ فقال: نعم؛ ربنا جل وعلا موجود، كما سئل ذلك الأعرابي الذي قيل له كيف عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير. إذا مشيت في البر ورأيت بعرة عرفت أن بعيرًا مرَّ، لم تقل مر صقر أو حمامة، قال: البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على العليم الخبير؟!

فقال ذلك الملحد لهذا العاقل: هل تؤمن أن الله موجود؟ قال: نعم. فسأله عن إدراك ربه بالحواس الخمس. قال: هل رأيت ربك؟ قال: لا. قال: هل سمعته؟ قال: لا. قال: هل ذقته؟ هل لمسته هل شممته؟ قال: لا. قال: إذن ربك غير موجود.

فقال له المؤمن: هل عندك عقل؟ قال: نعم. قال: هل رأيت عقلك؟ قال: لا. قال: هل شممت عقلك؟ قال: لا. قال: هل ذقت عقلك؟ هل لمست عقلك؟ هل سمعت عقلك؟

(١) نهاية الإقدام ص (٣).

قال: لا. قال: إذن ليس لك عقل. قال: بلى؛ لي عقل لأني أرى آثار عقلي، أرى أني أتصرف بعقل، وأتكلم بعقل، إذن لما رأيت آثار عقلي عرفت أنه موجود. قال: فكذلك ربنا جل في علاه. وحاجج بعض المسلمين ملحدًا بقصة شبيهة لهذه القصة، لكنه قال له: هل تحب زوجتك؟ قال ذلك الملحد: نعم. قال: صف لي هذا الحب، كيف شكله ولونه؟ قال: لا أدري، قال: هل رأيته أو لمسته أو شممته؟ قال: لا.. قال: فبم تعرفه؟ قال: بآثاره، قال: فكيف تستغرب حين نقول: إننا نعرف وجود الله بآثاره ونعمه ومخلوقاته؟ فبُهت الذي كفر.

أيها الناس: لو شاء ربنا سبحانه وتعالى لرأيناه ولسمعناه، والمؤمن سيسمع ربه يوم القيامة، وسوف يرى ربه يوم القيامة؛ لكننا عرفنا ربنا اليوم بآياته ومخلوقاته، وهو جل وعلا الذي جعل في فطرنا جعل الإيمان به وحده لا شريك له، كما قال الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

جعل الله تعالى في فطرنا على الإيمان به وحده لا شريك له، والطفل لو سلم من شياطين الجن والإنس لنشأ على عقيدة التوحيد، وعلى عبادة الله وحدة لا شريك له؛ لذلك أرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، لم يرسل الله تعالى الرسل ليقنعوا الناس بأنه يوجد إله اسمه الله، لا؛ فهذا في فطر الناس يعلمونه ويدركونه، انما الرسل يبشرون المؤمنين بالجنة وينذرون المخالفين من النار، ويعلمون الناس كيف يصلون وكيف يتعبدون لربهم الذي استقر في قلوبهم انه موجود وحده لا شريك له.

اسأل الله تعالى ان يُمَكن الإيمان في قلوبنا، وأن يعيذنا من الشرك و الإلحاد.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله الجليل العظيم لي ولكم من كل ذنب فاستغفروا وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له تعظيما لشانه، وأشهد ان محمدا عبده ورسوله الداعي الى رضوانه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله واخوانه وخلانه، ومَن سار على نهجه واقتفى اثره واستن بسنته الى يوم الدين.

أما بعد..

ايها الاخوة الكرام، إن مما يوقع عددا من الناس فيما يتعلق بالإلحاد أو إنكار وجود ربنا جل وعلا أن بعضهم يدخل في حوارات مع الملحدين وهو لا يملك بضاعة يستطيع أن يرد بها الشبهات عن نفسة.

ولقد بدأ بعض الشباب يدخلون في حوارات ونقاشات مع أقوام إما مع أهل البدع، سواء من الشيعة او غيرهم، أو أحيانا من الملحدين وما شابههم، فلكونه لا يملك الأهلية للمناظرة، ولم تكتمل بُنيته العلمية في المسائل التي يناقش فيها، فربما خلص إلى قلبه شيء من هذه البدع فلا يستطيع أن يردها عن قلبة فأحدث فيه شُبهة وظلمة؛ لذلك نهى أهل العلم عن محاورة أهل البدع أمام العامة.

لذلك لا ينبغي للإنسان من خلال هذه المواقع وغيرها أن يدخل على شيء من هذه المنتديات أو أن يناقش أهلها ويناظرهم إلا إذا كان أهلا لذلك وعنده معلومات تامة فيما يحاورهم فيه، أما أن يدخل في حوار وهو لا يعلمه فلا ينبغي له ذلك.

أيها الأحبة: وكلما تعلم الانسان أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وتعرف على خالقه جل وعلا أيقن أن الايمان بالله وحده إذا استقر في قلبه حماه الله تعالى من صنوف الإلحاد والبدع، ومَن كان بالله أعرف كان منه أخوف، القراءة في كتب العقيدة الاسلامية، معرفة صفات الله وأسمائه والتفكر فيها، معرفة ما يتعلق بالرد على أصحاب الشبهات من الملحدين وغيرهم، إذا تمكن هذا في قلب الانسان حماه الله تعالى بإذن الله تعالى من أن يزيغ قلبه.



ومما ينبغي التنبه له: أن يكثر المسلم من دعاء الله تعالى، وقد كان من دعاء المؤمنين قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران:٨]، وكان من دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يبني البيت الحرام بأمر من الملك العلام أنه كان يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]، ومن يأمن البلاء بعد ابراهيم؟ وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ أنه كان يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)].

أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سِلْمًا لأوليائك، حربا على أعدائك، نحب بحبك مَن أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، يا ذا الجلال والاكرام.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

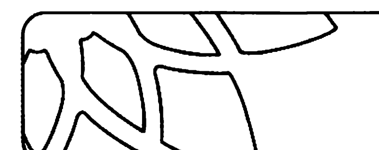
سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام، على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



(١) صحيح الترمذي للألباني (٣٥٢٢).



الإيمان بالملائكة(1)



الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر:١]. هذه الآية تبيّن مظاهر قدرة الله تعالى، وآثار قوته المشهودة في خلق السموات والأرض، وفي خلق الملائكة العظام، الذين خلقهم من نور، وجعلهم رسلًا في تنفيذ أوامره، وتبليغ وحيه وأحكامه، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]، وزاد في خلقهم جمالًا وقوة أنْ جعلهم أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر:١]. ودقة المصنوع تدل على عظمة الصانع.

---

(١) عبدالباري الثبيتي.

الملائكة آية من آيات الله، قال: «أُذِنَ لي أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عَاتِقِهِ مسيرة سبعمائة عام»(١).

كل حركة في السموات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والسحاب والنبات والحيوان فهي ناشئة عن الملائكة الموكّلين بالسموات والأرض، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]. لهم مقامات مختلفة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤].

أثر الإيمان بالملائكة كأثر الإيمان جملة، له آثار عقدية وسلوكية تقرّب العبد من ربه، وتشعره بحلاوة الإيمان، ولهذا كان الإيمان بالملائكة من البرِّ ودليل التقوى، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]. نطق الحديث الشريف بمشهد عادل من مشاهد عبادتهم، تُبْرِزُ جلالة عملهم وشموخ طاعتهم، قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّتِ السَّمَاءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابعَ إلا وفيها ملك واضع جَبْهَتَهُ ساجدًا لله»(٢). سعادة أبدية واستقامة لا غَبَشَ فيها، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

إن هذه النصوص تدفع أولي الألباب إلى الاتصاف بصفة الملائكة، بالتسبيح والحمد والثناء، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، لاسيما والقلب البشري سريع التقلّب، سريع النسيان، يشرق ويفيض بالنور، فإذا طال عليه الأَمَدُ بلا تذكير ولا ذكرٍ تبلّد وقسا وأظلم وأَعْتَم. إن النفس التي بين جوانحنا تفتقر إلى خلوة بعض الوقت في الذكر، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجّة الحياة في عبادة للرب وترتيل للقرآن.

سلك الملائكة موكب الثناء والحمد، وحياتهم كلها عبادة وتسبيح، فإذا كان يوم القيامة قالت الملائكة جميعًا: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لا نشرك بك شيئًا»(٣).

---

(١) صحيح أبي داود للألباني (٤٧٢٧).
(٢) صحيح الجامع (٢٤٤٩).
(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٤).

والمسلم مهما بلغ في العبادة، وبذل في الدعوة، وأنفق من مال فلن يبلغ مقدار عبادة الملائكة، فهو أولى بنَبْذِ الكِبْر في الطاعة، والاغترار بالعمل، والعُجْب المُحْبِط.

أقسم سبحانه بطوائف منهم: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات:١]، وفيهم يقول الرسول: «ألا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائكة عند ربها»، فقلنا: يا رسول الله، كيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتِمُّون الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّون في الصَّفِّ»[1].

وهذه دعوة إلى حسن النظام وإتقان العمل؛ استجابة للشارع واقتداءً بالملائكة الكرام، فتصطف الخلائق على نسق واحد في الأرض والسماء. ألا ما أروعها من صورة، وأعظمه من دين!

الملائكة عددهم لا يُحصَى، فقد أجاب جبريل النبي لما سأله عن البيت المعمور الذي في السماء السابعة، فقال: «هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملكٍ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»[2]. هذه عظمة المخلوق فكيف بالخالق!

تصلي الملائكة على من يحضر وينتظر صلاة الجماعة: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، وعلى الصف الأول، وعلى معلّم الناس الخير، ومن صلّى على النبي صلت عليه الملائكة، وصلاة الملائكة لها تأثير في هدايتنا وإخراجنا من ظلمات المعاصي والذنوب إلى النور، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣].

والصلاة من الملائكة للمؤمنين الاستغفار والدعاء لهم، تشفع الملائكة في المذنبين، ومن دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكّل به: آمين، ولك بمثل.

تنزل الملائكة بالسكينة لقراءة القرآن، قال لأُسَيد بن حُضَير: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت - أي: بقيت تقرأ- لأصبحت ينظر الناس إليها لا تَتَوارَى منهم»[3].

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).
(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).
(٣) رواه البخاري (٧٩٦).

ومن أعمالهم تسجيل أعمال البشر وحفظها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، والإنسان بمحضر الكرام من الناس يحتشم في سلوكه، ويستحي أن يُسِفّ في قول أو يَتَبَذّل في حركة، فكيف به في حَضْرة حَفَظَة من الملائكة الكرام؟!

إن هذه الآيات تَسْتَجِيشُ القلب، وتُحرّك المشاعر، وتبعث الحياء؛ كي لا يصدر من المسلم إلا كريم الخصال وسَامِق الصفات، لا فرق بين خلوته وجَلْوته، هذا يُنمّي الشعور بالمسؤولية ودوام المراقبة لله، فهو في قرارة نفسه يعلم أن هناك ملائكة ترافقه، تحصي عليه كل لحظة من لحظات حياته، وكل حركة من حركاته، وهذا يبين أهمية الأدب مع الملائكة، والخجل من اقتراف المعصية، فيكون إيمانه بالملائكة حافزًا لعمل الخير وترك الشر، وحصنًا من الوقوع في المنكر، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

وَكَّلَ سبحانه بابن آدم ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار، يحفظونه من المضار، يُحَصِّنُونه من المهلكات، لا يفارقونه، بل يرافقونه من بين يديه ومن خلفه، وفي صحيحي البخاري ومسلم: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»(١).

قال مجاهد: (ما من عبدٍ إلا له مَلَكٌ موكّل يحفظه في نومه ويقظته، من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه)(٢). فلك الحمد - يا ربنا - على كريم فضلك، وجزيل عطائك.

الملائكة - إخوة الإسلام - لا تدخل بيتًا فيه تمثال أو صورة أو كلب، قال النبي: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة»(٣). فهل يفرّط العاقل في حفظ الملائكة من أجل كلب أو صورة.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٧/ ٣٥٠).

(٣) رواه البخاري (٣٣٢٢) ومسلم (٢١٠٦).

من عِظَمِ خلق الله وجلال إبداعه أنّ الملائكة تتمثّل حسب المناسبة، فقد جاء جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بصورة بشرٍ سوي الخِلقة مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، يبشّرها بغلامٍ زكيٍّ هو المسيح عيسى ابن مريم، وجاء إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ملائكةٌ في صورة شباب حِسَان ضيوف، وبشّروه بغلام: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤] ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]. وكان جبريل يأتي النبي بصورة رجل أعرابي، كما في يوم بني قريظة، فلما رجع رسول الله من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: «قد وضعتَ السلاح! والله ما وضعتُه، أخرج إليهم». قال النبي: «فأين؟» فأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي»[١]. قال أنس: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زُقَاقِ بَنِي غَنْم مَوْكِبَ جبريل صلوات الله عليه، حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة»[٢].

تنزل الملائكة على المؤمنين بالتأييد والنصرة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢]، وهذا يورث العزّة في نفوس الصادقين، بتحقّق مَدَد وأنصار لمن نصر الدين. ثبت أن النبي قال لحسان: «اهْجُهُمْ - أي المشركين - أو هَاجِهِمْ وجبريلُ معك»[٣]، وقال: «إن رُوحَ الْقُدُسِ مع حَسَّانَ مَا نَافَحَ عن رسول الله»[٤].

«وإذا أحبّ الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القَبول في الأرض»[٥]. وهذه ثمرة الطاعة ونور العبادة، حُبٌّ في الملأ الأعلى يفيض على الأرض قبولًا، ومن أهلها حُبًّا، ومن شؤم المعصية غَضَبٌ في الملأ الأعلى، وبغضٌ في الأرض وصدود من الخلق.

ولله ملائكة سيّاحون في الأرض يبلّغون رسول الله سلام أمته وصلاتهم عليه. ومن الملائكة من وُكلَ بنفخ الأرواح في الأجِنَّةِ وكتابة الآجال والأعمال والأرزاق. وإسرافيل

(١) رواه البخاري (٢٨١٣) ومسلم (١٧٦٩).
(٢) رواه البخاري (٤١١٨).
(٣) رواه البخاري (٣٢١٣) ومسلم (٢٤٨٦).
(٤) رواه مسلم بمعناه (٢٤٩٠).
(٥) رواه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧).

صاحب الصور ينفخ فيه بأمر الله النفخة الأولى، فيهلك من في السموات إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث للحياة بعد الموت.

خَزَنة النار ملائكة أقوياء أشدّاء، لا يُقاوَمُون ولا يُغالَبُون، وعلى جهنم تسعة عشر من الملائكة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله: «يؤتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زِمَام، مع كل زِمَام سبعون ألف ملك يجرّونها»[1]، وفي حديث الإسراء واجتماعه بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حانت الصلاة كما قال: «فأَمَمْتُهُم فلما فرغت من الصلاة، قال قائل: يا محمد، هذا مالكٌ صاحب النار، فَسَلِّمْ عليه، فَالْتَفَتُّ إليه فَبَدَأَني بالسَّلاَمَ»[2].

تقبض الملائكة الأرواح حين ينقضي أجلها: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]، وهذا دليل على أن الحياة الدنيا فانية لا تدوم، ويكفيك منها متاع طيّب وحلال بَيّن لتفوز بالآخرة الباقية. تَنَزَّل الملائكة ساعة الموت لأهل الاستقامة بالبشرى والإيناس، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، وفي القبر مُنْكَر ونكير، وسؤال وموقف عسير، لا ينجو منه إلا صادق الإيمان، تُرَحّبُ الملائكةُ بالمؤمنين الذين فازوا برضوان الله في مقام عالٍ رفيع، وفي جو راضٍ وديع، ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:٢٣] ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) رواه مسلم (١٧٢).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على توفيقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى.

أيها الناس: الملائكة الحفظة تحضر عند صلاتي الفجر والعصر، قال رسول الله: «تجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الفجر وصلاة العصر»، قال: «فيجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر»، قال: «فيجتمعون في صلاة الفجر»، قال: «فتصعد ملائكة الليل، وتثبت ملائكة النهار»، قال: «ويجتمعون في صلاة العصر»، قال: «فيصعد ملائكة النهار وتثبت ملائكة الليل»، قال: «فيسألهم ربهم، كيف تركتم عبادي؟» قال: «فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»، قال سليمان: ولا أعلمه إلا قد قال فيه: «فاغفر لهم يوم الدين»(١).

وهذه عباد الله مزيّة كبرى، وفضل عظيم للمواظبين على صلاة الجماعة، خاصة في صلاتي الفجر وصلاة العصر، أما الذين يرفضون الخير، ويحرمون أنفسهم الفضل، ويفرّطون في صلاتي الفجر والعصر جماعة، فصفقتهم خاسرة، وفعلتهم بائرة؛ لأنهم لا يعرفون صلاة العصر إلا إذا غدت بين قرني شيطان، ولا يؤدون صلاة الفجر إلا إذا طلعت الشمس، ماذا ستقول عنهم الملائكة، وبماذا يجيبون ربهم وهذا ديدنهم وحالهم؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦-٧]، ما غرّك بربك الذي خلقك في أحسن صورة، وجمّلك بأبهى خلقة، وأغدق عليك نِعَمًا لا تعدّ ولا تحصى؟! ما غرّك حين يناديك ربك فتقف أمامه مقصّرًا مذنبًا مفرّطًا، حين ترى المساجد في صلاة الجمعة لا تكفي المصلين، وتمتلئ بهم الطرقات، إذا هي تشتكي الوحشة وهجر المسلمين لها في صلاتي الفجر والعصر؟! وحينما تكتظ مدرجات الملاعب بآلاف الشباب، أين هؤلاء عن صلاة الفجر في بيوت الله؟! مشاهد محزنة تدل على عبودية الهوى، وتفريطٍ من البعض بأعظم

(١) رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

ركن من أركان الدين بعد التوحيد، وهو الصلاة، حتى صار كالعُرْف العام. نسأل الله السلامة والعافية.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله: «إن لله ملائكة يطوفون في الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أهل الذكر، فإذا وجدوا أقوامًا يذكرون الله تنادوا: هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ، قال: فَيَحُفُّونَهُمْ بَأَجْنِحَتِهِم إلى السماء الدنيا»(١)، وفي رواية مسلم: «حتى يملؤوا بينهم وبين السماء الدنيا»(٢).

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن ملائكة الله يسبّحون الليل والنهار، لا يفترون ولا يسأمون، فإذا جاؤوا يوم القيامة فعاينوا أهوالها قالوا: سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك! فما عسى أن يقول ابن آدم الذي يقضي معظم أوقاته في غير طاعة؟ لكن ليُعلم أن المؤمن قد يفضل الملائكة، ولو لم يبلغ مثل عباداتهم، لأنه تغلب على شهواته ونجح في اختبار ربه له.

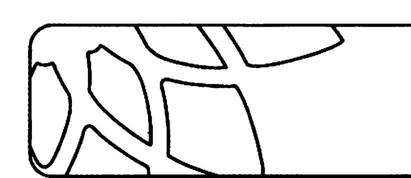
أيها الناس: علّموا أبناءكم صفات الملائكة وأعمالهم، وأسماء من جاءتنا أسماؤهم، كجبرائيل وإسرافيل وميكائيل.. واغرسوا في القلوب محبتهم، فإنهم أطوع الخلق لله، وإن الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان.

ألا وصلوا - عباد الله - على رسول الهدى، فقد أمركم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]. اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك محمد..



(١) رواه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٩).



عالم الملائكة (1)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المسلمون، حديثنا اليوم عن عالم من عوالم الكون العظيمة، وعن جُندٍ من جنود الله العجيبة، صادق الإيمان لا يملك والله إلا أن يحبهم وينزلهم قدرهم ومكانهم، ناصَروا الدين وحموه، وقاموا بالحق وبذلوه، يصرف الله بهم حادثات البشر، ويحفظ عباده من الحوادث والغِيَر، ويسوق سبحانه بأفعالهم العظات والعبر، من سمع عنهم بصدق لهج لسانه بالتسبيح والتعظيم للذي خلقهم، وبإبداع محكم سوّاهم، ولك أن تعجب إذا علمت أنهم موجودون حتى في النار، وهم في الجنة كذلك، وهم في السماء، وهم في الأرض، وهم عند النطفة في رحم المرأة، ومع الميت في قبره، وما بينهما في الحياة، هم معه لا يفارقونه، شهدت لهم أراضي الجهاد، ولأمر الله هم دوما في انقياد، إنهم رسل الله إلى عباده وأنبيائه، عليهم الصلاة

---

(١) فيصل بن عبدالرحمن الشدي.

والسلام، إنهم عالم الملائكة، فأعظم به وربي من عالم، عالم كريم، كله طهر وصفاء، كرام أتقياء، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

الإيمان بوجودهم وبما صح من أعمالهم وإنزالهم منازلهم أصل أصيل من أصول الإيمان، بل لا يصح إيمان العبد ما لم يؤمن بهم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥].

جاء في صحيح مسلم أن الله خلقهم من نور، وأكرِم به من نور، ما لك إلا أن تسبح وتمجّد الخالق سبحانه إذا علمتَ عن خلقهم، فهذا أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء في وصفه في مسند الإمام أحمد بإسناد جوَّده ابن كثير عن عبد الله بن مسعود قال: «رأى رسول الله جبريل وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه التهاويل من الدرر واليواقيت».

وإن كان حملة العرش ثمانية فهاك وصفًا لواحدٍ منهم، روى الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صححه الألباني عن أنس قال: قال رسول الله: «أُذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى السابعة، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت»[1].

فلا إله إلا الله سبحانه ما أعظمه! هذا خلق من خلقه، فكيف به سبحانه جل في علاه وتقدس وعظم كبرياؤه في أرضه وسماه، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

أودع الله سبحانه فيهم قوة تغنيهم عن الطعام والشراب، فلا يأكلون ولا يشربون، وما قصة أضياف إبراهيم من الملائكة عنا ببعيد، خير شاهد على ذلك.

أما عددهم فأنى لبشر أن يعدِّدهم أو يعلم ذلك؟! ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر:٣١]، كفاك أن تعرف أنه جاء في الصحيحين أنهم في السماء السابعة يدخلون البيتَ المعمور، يدخله

(١) صحيح الجامع (٨٥٣).

ويصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم. فيا لله ما أعظم عددهم وأكثرهم.

جاء في آيات القرآن وكتب السنة وظائف بعضهم، فمنهم الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله لرسله من البشر ومبلغ الوحي، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٤]. ومنهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور، ومالك خازن النار، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وخازن الجنة، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح، والملك الموكل بالقطر والمطر، وحفظة بني آدم، والكتبة للحسنات والسيئات، وملك العذاب، وملك الجبال، وغيرهم وغيرهم، عز سبحانه كيف خلقهم ونظمهم وعلّمهم، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

ولله ما أعظم عبادتهم، ديدنهم ذكر الله، وأعظم ذكره تسبيحه، لذا وصفهم ربهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: سئل رسول الله: أي الذكر أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحانه الله وبحمده».

وما أعظم تقربهم بالسجود له سبحانه، فها هي السماء تثقل بسجداتهم للعظيم سبحانه، صح في الحديث: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك ساجد»[1].

وها قد سمعت آنفًا عظم خلقهم وكُبرهم، وسعة جسمهم ومع ذلك هم أمام ربهم في خشية وخضوع وذل وخنوع، قال ربهم فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كالسلسة على صفوان»[2].

(١) حسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).
(٢) رواه البخاري (٤٧٠١).

ويصف جبريل ليلة الإسراء يوم أن مرّ به بقوله: «مـررتُ بجبريـلَ ليلـةَ أُسْرِيَ بي بـالملأِ الأعلى، و هو كالحِلْسِ البالي من خشيةِ الله عَزَّوَجَلَّ»[1]، فما أظلم الإنسان بعد هذا وأجهله! مـا أعتاه وأطغاه! عجبًا لك من نطفة حقيرة وجسم ضعيف، الشوكة تؤذيك، والحجر يطرحك، ومع هذا تتألى على ربك، وتتثاقل عن طاعته، وتستهين بحرماته، وتجاهر بمعصـيته، في زهـو وتكبر وتغطرس وتجبر، ألا ترى ملائكته؟! رحماك ربي بنا رحماك.

وعلاقة الملائكة بابن آدم وثيقة، من يوم أن يمرّ على النطفة في الرحم ثنتان وأربعون ليلة، والله يبعث إليها ملكًا يصورها ويخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، وبعد أربعة أشهر يبعث الله الملك فيكتب بإذن الله عمله ورزقه وشقي أو سعيد وينفخ فيها الـروح، وهـا هي المعقبات تلازم الإنسان من أمامه ووراءه طيلة حياته لتحفظه في نومه ويقظتـه مـن الجـن والإنس والهوام، إلا إذا جاء القدر خلّت بينه وبينها ليصيبه ما شاء الله ذلك، وها هـم واحـدٌ عن اليمين يكتب الحسنات، وآخر عن الشمال يكتـب السيئات، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، ولكأنّ حال هذين الملكين يعظان ابن آدم، صحيفتك قد بسطت لـك، فـالله الله املأها بالحسـنات والصـالحات الباقيـات، وحـذار مـن أن تلطّـخ سـجلاتك بالسـيئات الطالحات، فكل شيء مكتوب، إما هنا أو هناك. رحمة الله على الإمام أحمد كان في مرض موته، وكان يئن من شدة حرصه على سلامة صحيفته ولو مما يكـره، يأتيـه مـن يبلغـه أن طـاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (يكتب الملك كلّ شيء حتى الأنين)، فلم يئن أحمد بعدها حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وها هي الملائكة تحضر يومَ موتك ورحيلك، ولها معك شأن أيما شأن، فملائكـة تقـبض الـــروح بـــإذن ربهـــا وباريهـــا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وملائكة تنزل عليه تبشره وتثبته، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾
[فصـــلت:٣٠] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣١]، الله أكبر تتنزل ومعها كفن من الجنة وحنوط من الجنة،

---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني (٢٢٨٩).

بيض الوجوه، حسان المنظر، ما إن يراهم المؤمن عند الموت إلا ويفرح ويُسرّ، وملائكة أخرى تتنزل على الكفار والمجرمين، لتبشرهم بالنار وغضب الجبار، وتقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، ينزلون ومعهم كفن من النار، سود الوجوه، وما إن يذهب الإنسان إلى قبره حتى يأتيانه فيسألانه تلك الأسئلة الثلاث، فاز بها من أجاب، وخاب من تاه لسانه عن الجواب، فالمؤمن الموفّق يفرشون له من الجنة، ويفتحون له بابًا إلى الجنة، والكافر يفرش له من النار، ويفتح له بابٌ إلى النار، نسأل الكريم سبحانه من فضله، ونعوذ به من عذابه.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه..

الخطبة الثانية:

الحمد لله، خلق فأبدع، وحكم فشرّع، وخفض من خلقه من شاء ورفع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أكرمُ من أعطى وأحكم من منع، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الشافع المشفع، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه السجَّد الركع، ومن تبعهم بإحسان وإفضال إلى يوم معاذير الظالمين فيه لا تنفع. وبعد:

العلاقة بين الملائكة وبين عباد الله المؤمنين وثيقة، فالملائكة تحبّ المؤمنين، في الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول: «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبّه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[1].

وأنت راءٍ هذا في الأرض بين الناس، من الناس من تحبه الناس وتألفه، وهو لم يعطها يومًا درهما، وقد لا يعرفهم، لكنها محبة السماء ومحبة الأرض، نسأل الكريم من جوده وبره.

والملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم وتصلي عليهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]، وصلاتها بمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم، وهل سمعت بتلك الدعوات المباركات التي يدعو بها حملة العرش من الملائكة لعباد الله المؤمنين؟ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر:٧-٩] سبحانك ربنا ما أرحمك وأكرمك، يُسخّر لعباده خلقًا ممن لم يذنبوا فيدعون لهم بالمغفرة، والرحمة ودخول الجنات، والوقاية من العذاب والسيئات.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٨٥) ومسلم (٢٦٣٧).

وقد صح عند الترمذي أن الملائكة تصلي على معلم الناس الخير[١]. وهي تصلي على المبكرين للمساجد المنتظرين للجماعة كما في البخاري وتقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه[٢]. كما أنها تصلي على الصف الأول[٣].

وروى أبو داود في سننه وصححه الألباني عن علي بن أبي طالب عن النبي قال: «ما من رجل يعود مريضًا ممسيًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة، ومن أتاه مصبحًا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي، وكان له خريف في الجنة»[٤].

وها هي الملائكة تبحث عن مجالس العلم وتشهدها، في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»[٥].

وها هي الملائكة الكرام تحضر يوم الجمعة وخطبتها، في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد، يكتبون الأول فالأول، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم، وجلسوا يستمعون الذكر»[٦]، فيالله كم من سابق قد كتب في أول صحفهم، هنيئًا له والله، وكم من المحرومين التي تطوى الصحف كثيرًا ولم يدركوها بتأخرهم وتباطئهم.

والملائكة تحبّ القرآن وسماعه، ومنهم من يتنزل من السماء حين يقرأ القرآن، في صحيح مسلم عن البراء بن عازب قال: قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فإذا

---

(١) صحيح الترمذي (٢٦٨٥).
(٢) رواه البخاري (٦٥٩).
(٣) صحيح الترغيب (٥١٣).
(٤) صحيح أبي داود (٣٠٩٨).
(٥) رواه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).
(٦) رواه البخاري (٩٢٩) ومسلم (٨٥٠).

ضبابة أو سحابة قد غشيته، قال فذكر ذلك للنبي فقال: «اقرأ القرآن، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن»[١].

فأين أهل القرآن؟ أين أهل القيام؟ أين أهل التلاوة والترتيل؟ طوبى لهم ثم طوبى لهم!

والملائكة تناصر الصالحين من العباد بإذن الله، ويأمرها الله بتفريج كربهم، جاء في السير أن أحد الصالحين كان في سفرٍ له، ومعه رجل قد أركبه خلفه بأجر، فلما انتهوا إلى مكان عميق ووعر غدره الراكب وسلّ سكينه وقصده، واستسلم الصالح بين يديه، وقال له: خذ الدابة وما عليها ودعني، فأبى إلا أن يقتله، قال: إذًا دعني أصلي ركعتين، فقال: عجل، قال الصالح: فقمت أصلي، فارتجّ علي القرآن ولم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفًا متحيرًا وهو يقول: عجّل، فأجرى الله على لساني: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، يقول: فإذا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فمات، فتعلقت به، وقلت: من أنت؟ فقال: (أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)[٢].

والملائكة تقاتل مع المؤمنين وتثبتهم في الحروب، وشهودها لبدر وأحد والخندق وغيرها أثبتها القرآن وصحت بها السنة.

والملائكة تشهد جنائز الصاحين، روى النسائي عن ابن عمر وصححه الألباني أن رسول الله قال في سعد بن معاذ: «هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة»[٣].

وأخيرًا ما هو واجبنا تجاه الملائكة؟

واجبنا عدم إيذائهم، بتسميتهم إناثًا، فقد قال الله عن المشركين: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]، ومن هنا

(١) رواه مسلم (٧٩٦).
(٢) ذكرها اللالكائي في كرامات الأولياء، وابن عساكر في تاريخ دمشق.
(٣) صحيح النسائي (٢٠٥٤).

نهى أهل العلم عن تسمية البنات ملاكًا، وعلينا البعد عن الذنوب والمعاصي لأنها مما تتأذى منه الملائكة، فالملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله سبحانه، أو التي يوجد فيها ما يبغض الله كالصور والكلاب، صح عن رسول الله قال: «لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ»(١). ولعل قائلًا يقول: أين البيت اليوم الذي لا يخلو من صورة؟! أجاب عن ذلك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن هذا مما عمت به البلوى، ويشق التحرز منه، لكن المقصود إن وجدت أن لا تكون بارزة ظاهرة).

والملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم من الروائح الكريهة والأوساخ، فينبغي إكرامهم والحياء منهم، فإنه قد يبلغ الحياء والمروءة والستر والعفة والصيانة عند المؤمن إلى درجة أن تستحي منه الملائكة، كما كانت تستحي من ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

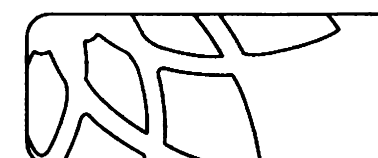
وكم هي آلات اللهو والعبث التي تمتلئ بها بيوت المسلمين اليوم مما يمنع دخول الملائكة، ويجعلها مرتعًا للشياطين. فاتقوا الله عباد الله، واعمروا قلوبكم وبيوتكم بذكر الله وطاعته وتلاوة كتاب.

هذا وصلوا وسلموا على النبي محمد..



---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٢).



الإيمان بالكتب[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلَّغ رسالة ربه، وجاهد في الله حق جهاده، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: اتقوا الله، وعظِّموا أمره، واحذروا زواجره، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، الاستمساك بالدين هو الهدف الأسمى لكل مسلم، وهو السياج الحامي لكل حق.

أيها الناس:

الإيمان بالكتب -عباد الله-: هو التصديق الجازم بأن للهَّ تعاليكتبا أنزلها على رسله إلى عباده، وأن هذه الكتب كلام الله تعالى، تكلّم بها حقيقة كما يَليق به سبحانه، وأن هذه الكتب فيها الحق والنور والهدى للناس في الدارين.

والإيمان بالكتب يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًّا.

الثاني: الإيمان بما سمّى الله من كتبه؛ كالقرآن الكريم الذي نزل على نبينا محمد، والتوراةِ على موسى، والإنجيل على عيسى، والصحف على إبراهيم، والزبور على داود -عليهم أجمعين السلام-.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها؛ كأخبار القرآن.

---

(١) ماجد بلال.

والإيمان بالكتب أحد أركان الإيمان؛ كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦].

فأمر الله بالإيمان به وبرسوله وبالكتاب الذي نزّل على رسوله وهو القرآن، كما أمر بالإيمان بالكتب المنزلة من قبل القرآن. وقال عن الإيمان: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

وقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد حرّفوا كتبهم، فلم تعد في صورتها التي أنزلها الله تعالى؛ فحرّف اليهود التوراة، وبدّلوها وغيّروها، وتلاعبوا بأحكام التوراة، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

كما حرفّ النصارى الإنجيل، وبدّلوا أحكامه، قال تعالى عن النصارى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

فليست التوراة الموجودة الآن هي التوراة التي أنزل الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا الإنجيل الموجود الآن هو الإنجيل الذي أُنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إن التوراة والإنجيل التي في أيدي أهل الكتاب تشتمل على عقائد فاسدة، وأخبار باطلة، وحكايات كاذبة، فلا نصدِّق من هذه الكتب إلا ما صدّقه القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة، ونكذب ما كذّبه القرآن والسنة.

ولا يجوز للمسلم أن يقرأ في شيء منها؛ فعن جابر أن عمر بن الخطاب: أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله، إني أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب النبي ﷺ وقال: «أَمُتَهوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟! فوالذي نفسي

(١) رواه مسلم (٨).

بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»(١).

إلا من كان عالمًا لبيان بطلانها والرد على أصحابها، أو ما كان على سبيل الحكاية مما ما لم يرد تصديقه ولا تكذيبه؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلام، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٥٩] الآيَةَ»(٢).

فقد فضل الله هذه الأمة على سائر الأمم، كما فضل نبيها وفضل كتابها على سائر الكتب.

فقد فضل الله القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى المنزّل على عبده ورسوله محمد المتعبد بتلاوته، المعجز بكل آية منه.

وهو اسم لكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء من سائر الكتب السماوية، هو الفرقان والكتاب والذكر والتنزيل، حفظه الله من التحريف، أنزله الله ليكون الكتاب المهيمن، والرسالة الخاتمة، والشريعة الباقية، رعاه عن عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، محفوظ منذ اللحظة الأولى لنزوله وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا زيادة فيه ولا نقصان، منقول بالتواتر، لم يختلف في عصر من العصور في سورة ولا آية ولا في كلمة واحدة منه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

عجز المشركين عن أن يأتوا بآية مثله، فضلا عن سورة، فضلا عن أن يأتوا بمثله، ما أخبر عن أمر إلا وقع كفلق الصبح، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:١-٣].

وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨].

وهو حبل الله المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد.

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٨٧) وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥).

راحة النفس وطمأنينتها: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

شفاء ورحمة للمؤمنين: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

عجز عنه عدوه الوليد، فما استطاع أن يَكذِب عليه لما سئل عنه، فقال عنه لما سمعه من النبي ﷺ غضّا طريًا: (وماذا أقول؟! فوَالله، ما من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لِقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته)(١).

خصه الله بمزايا كثيرة، وخصائص متعددة، ينفرد بها عن الكتب السماوية السابقة؛ منها:

أن القرآن الكريم قد تضّمن خلاصة الأحكام الإلهية، وجاء مؤيِّدا ومصِّدقا لما جاء في الكتب السابقة من الأمر بعبادة الله وحده، وناسخا لجميع الشرائع قبله، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

ومنها: أن هذا القرآن العظيم يجب على جميع الناس التمسك به، ويتعيّن على جميع الخلق اتباع القرآن والعمل به، بخلاف الكتب السابقة فهي لأقوام معينين، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩].

ومنها: أن الله تعالى قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم، فلم تمتد إليه يد التحريف، ولا تمتد إليه؛ كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:١١٥].

فضائله كثيرة شتى لا تنتهي، قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(٢).

---

(١) رواه البيهقي (٣١٠) والحاكم (٣٨٧٢) وقال: (صحيح الإسناد على شرط البخاري)، ووافقه الذهبي.
(٢) رواه البخاري (٥٠٢٧).

وقال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»(١). وقال: «إنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه»(٢).

وقال: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٣).

وقال: «الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»(٤).

وقال عن البقرة وآل عمران: «يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان تحاجان عن أصحابهما»(٥). وقال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»(٦). وقال عن سورة الملك: «شفعت لرجل حتى غُفر له»(٧).

وقال: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»(٨).

وقال: «قل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق ما تعوذ متعوّذ بمثلهما»(٩).

وهذا غيض من فيض، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩]. فاستمسكوا بالذي أوحي إلى نبيكم، وانهلوا من معينه، فإنه عنوان عزتكم ومادة سعادتكم.

بارَكَ الله لي ولكم في القرآنِ العظيم، ونفَعني الله وإيّاكم بما فيهِ من الآياتِ والذكر الحكيم، أقول ما تَسمَعون، وأستغفِر الله لي ولَكم ولجميع المسلِمين من كلّ ذنب فاستَغفروه، إنّه هو الغفورُ الرّحيم.

---

(١) صحيح الترمذي (٢٩١٤).
(٢) رواه مسلم (٨٠٤).
(٣) صحيح الترغيب (١٤١٦).
(٤) رواه مسلم (٧٨٠).
(٥) رواه مسلم (٨٠٤).
(٦) رواه الحاكم (٢/ ٣٩٩) والبيهقي (٣/ ٢٤٩) قال ابن حجر في تخريج الأذكار: (حديث حسن، وهو أقوى ما ورد في قراءة سورة الكهف).
(٧) صحيح الجامع (٢٠٩١).
(٨) رواه مسلم (٨١١).
(٩) صحيح أبي داود (١٤٦٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عباد الله: إن للإيمان بالكتب السماوية آثارًا متعددة؛ منها:

عناية الله تعالى بعباده، وكمال رحمته، حيث أن لكل قوم كتابا يهديهم به، ويحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ومنها: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه، حيث شَرَع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ويلائم أشخاصهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

ومنها: شكر نعمة الله في إنزال تلك الكتب، فهذه الكتب نور وهدى في الدنيا والآخرة، ومن ثم فيتعيّن شكر الله على هذه النعم العظيمة.

إذا عرفنا كذلك بعض المزايا العظيمة والخصائص الفريدة لهذه الأمة بتخصيصها بهذا القرآن الكريم: فما واجبنا نحو القرآن؟

أولًا: محبة القرآن، وتعظيم قدره، واحترامه؛ إذ هو كلام الخالق عَزَّوَجَلَّ، فهو أصدق الكلام وأفضله، ويعظم الكلام بعظم قائله، فالقرآن هو كلام الله العظيم المتعال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

كما أن من حق القرآن علينا أن نقتطع له من أوقاتنا جزءا لتلاوته وقراءته، وأن نتدّبر آيات القرآن سوره، وأن نتفكر في مواعظ القرآن وأخباره وقصصه، وأن لا نكون كمن قيل فيهم: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

ويجب علينا اتباع أحكامه والطاعة لأوامره وآدابه؛ سئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خُلقه القرآن»[1]. ومعنى الحديث: أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو التطبيق العملي لأحكام القرآن وشرائعه، فقد حقق كمال الاتباع لهدي القرآن، ومن ثمّ يتعيّن علينا الاقتداء برسول الله، فهو القدوة الحسنة لكل واحد منا؛ كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

---

(١) صحيح الجامع (٤٨١١).

تعظيم القرآن الكريم[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لم يزل بالمعروف معروفا، وبالكرم والإحسان موصوفًا، أحمده سبحانه وأشكره، كل يوم هو في شأن، ييسر عسيرًا ويجبر كسيرًا، ويغفر ذنوبًا ويستر عيوبًا، ويكشف كروبًا، ويدفع خطوبًا، ويغيث ملهوفًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً خالصةً لمن فطر السماوات والأرض حنيفًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، جعله الله صادقًا أمينًا شريفًا عفيفًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، صلاةً وسلامًا تزيدهم تفضيلًا وتكريمًا وتشريفًا.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الناس: كانتِ البشريّةُ تعِيش في ظلامٍ دامِس ولَيل بهيمٍ، لعِبت بعقولِها انحرافاتٌ وخُرافات، حتى أكرَم الله هذه البَشريّةَ وأنزل علَيها القرآن؛ ليخرِجَها من الظلمات إلى النّور ومِن الخضوعِ للأوثان والأصنامِ إلى خضوعٍ كامِلٍ للواحِد الديّان.

أنزل الله القرآنَ معجزةً خالِدة، وتحدَّى به الثّقلَين، فأذعَن لفصاحَتِه بلَغاؤُهم، وانقاد لحُكمِه حُكَماؤهم، وانبَهَر بأسرَارِه علماؤهم، وانقطَعَت حُجَج معارِضيه، وظهَر عَجزُهم، كيف لا وهو كلام الحكيمِ الخبير الذي لا يطاوِله كلام ولا يجاريه أسلوب؟! قولُ إيجازٍ وآياتُ إعجاز.

يسَّر ذكرَه للذاكرين، وسهَّل حِفظَه للدّارسين، فهو للقلوبِ ربيعُها وللأبصارِ ضياؤها، جعَله الله نورًا، وإلى النّور يهدِي، حقًّا وإلى الحقِّ يرشِد، وصِراطًا مستقيمًا ينتهي بسالِكيه إلى جنّةِ الخلد، لا تملُّه القُلوبُ، لا تتعَب من تلاوته، لاَ يخلَق معَ كثرةِ التّرداد.

---

(١) عبدالباري بن عوض الثبيتي.

القرآن دليلُ دربِ المسلمين، دُستور حياةِ المؤمِنين، هو كلِّيّةُ الشريعة، عَمود الملّـةِ، ينبـوع الحكمة، آيَة الرِّسالة، نور الأبصار والبصائر، لا طَريقَ إلى الله سواه، ولاَ نجاةَ بغَيره، وإذا كانَ كذلك لزِم مَن رامَ الهدَى والنّورَ والسعادة في الدّارين أن يتَّخِذه سَـميرَه وأنيسَـه، وأن يجعلَـه جليسَه على مرِّ الأيّام واللّيالي، نَظرًا وعمَلًا، لا اقتصارًا على أَحدِهما، فيوشِك أن يَفوزَ بالبُغيةِ، وأن يَظفرَ بالطّلبَة، ويجِد نفسَه معَ السّابقين وفي الرَّعيل الأوّل.

الجيلُ الأوّل في صدرِ الإسلام ساروا على نهج القـرآن، فأصبَحوا خـيرَ أمّـةٍ أخرِجَـت للناس، لم يكُن القرآن عندَهم محفوظًا في السّطور، بل كان مَكنونًـا في الصّـدور ومحفوظًـا في الأخلاقِ والأعمال، يَسير أحدُهم في الأرضِ وهو يحمِل أخلاقَ القرآن وآدابَه ومبادِئَه.

شَهِد الأعداء بعظمةِ القرآنِ وسموِّ معانيه، فقد أتَى الوليد بن المغيرةِ مرةً إلى الرسولِ يقول: يا محمّد، اقرَأ عليّ القرآنَ، فيقرَأ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، ولم يكَد يَفرغ الرسولُ مِن تلاوتها حتّى يطالِب الخَصمُ الألَدّ بإعادَتها لجلالةِ لفظِها وقدسيّه معانيها، مأخوذًا برَصانَة بنيانها، مجذوبًا بقوّةِ تأثيرها، ولم يَلبَث أن يسجِّل اعترافَه بعظمةِ القرآن قائلًا: والله، إنَّ لَه لحلاوةً، وإنّ عَليه لطَلاوَة، وإنّ أسفَلَه لمورِقٌ، وإنَّ أعلاَه لمثمِر، وما يقول هذا بشر.

يخبِر الربُّ تبارك وتعالى عن عَظمةِ القرآنِ وجَلالـه، وأنّـه لـو خوطِـب بـه صُـمُّ الجبـال لتصـــدَّعت مــــن خَشــــيةِ الله: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

في إِحدَى غزَوات النّبيِّ قام رَجلٌ من المهـاجِرين ورَجـلٌ مِـنَ الأنصـارِ بالحراسـةِ لـيلًا، فاضطَجَع المهاجريّ وقام الأنصاريّ يصلِّي، فجاءَ رجلٌ من العدوّ، فلمّا رأَى الأنصاريَّ رمـاه بسهمٍ فأصابَه، فنزعَه الأنصاريّ، حتى رماه بثلاثةِ أَسهُم، ثم ركَـع وسـجَد، فانتبَـه صـاحبُه،

وهرَب الرجل، ولما رأى المهاجريّ ما بالأنصاريّ من الدّم قال: سبحان الله! ألاَ نبَّهتَني أوّلَ ما رمَى؟! قال: «كنتُ في سورةٍ أقرَؤها، فلم أحِبّ أن أقطَعَها»(١).

أيها المسلمون.. إنّ الكلامَ يعظُم بعِظَم قائله، فكيف إذا كانَ المتكلِّم هو الله جبّار السماوات والأرضِ؟! ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢].

وعنوانُ الشعائر الإلهيّة هو القرآنُ العظيم الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بين يدَيه ولا مِن خلفه. هو عظيمٌ عندَ الله، وهو في اللوحِ المحفوظ،﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف:٤]. قال ابن كثير في معنى الآية: (بيّن شرَفه في الملأ الأعلَى ليشرِّفه ويُعظِّمَه ويطيعَه أهلُ الأرضِ).

وإنَّ تعظيمَ كلامِ الله تعظيمٌ لله، قال النوويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التبيان: (أجمع المسلِمون على وجوبِ تعظيمِ القرآنِ العزيزِ على الإطلاقِ وتنزِيهه وصِيانتِه)، قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من استخفَّ بالقرآن أو بالمصحَف أو بِشيءٍ منه فهو كافِرٌ بإجماعِ المسلِمين).

يعظم كتابُ الله بحُسنِ التلاوة وتصديقِ الأخبارِ وامتثال الأوامِر واجتِنابِ النّواهي وبما شرَعَ الله لكم أن تعَظِّموه به.

إنَّ تعظيمَ كلام الله لَيس بتَزيينِه وتفخِيمِ طِباعته وكاتبتِه، وليسَ بتعليقِه على جُدرانِ البيوت، وليس بقراءتِه على الأمواتِ، بل بإقامةِ حروفِه وحدودِه وتعظيمِ شأنِه والسَّير على منهاجِه، ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

ومِن تعظيم كتابِ الله أن لاَ يقرَأه الإنسانُ وهو جنُب، وأن لا يمَسَّ المصحفَ إلاّ على طَهارة؛ لأنَّ النبيَّ كتَب إلى عمرو بن حزم أن لا يمسَّ القرآنَ إلاّ طاهِر(٢).

ومِن تعظيم القرآن أنّه لا يجوزُ الكلامُ فيه بِغير عِلم، يقول الإمام النوويّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويحرُم تفسيرُه بغيرِ علمٍ والكلامُ في معانيه لمن لَيس من أهلِها، والأحاديثُ في ذلك كثيرةٌ، والإجماعُ منعقِد عليه، أمّا تفسيره للعلماء فجائزٌ حسَن، والإجماع منعقِد عليه).

---

(١) صحيح أبي داود (١٨٢).

(٢) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٢).

مِن تعظيم القرآن الكريم: تركُ تفسيره بالظنِّ، أخرَج أحمد والترمذيّ وحسَّنه عن سَعيد بن جبير عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيِّ قال: «اتّقوا الحدِيثَ عنّي إلاّ ما علِمتم، فمن كَذَب عليَّ متعمِّدًا فليتَبَوَّأ مقعدَه من النار، ومَن قال في القرآنِ برأيِه فليتبوَّأ مقعدَه من النار»[1].

من تعظيمه إحضارُ القارئِ قلبَه في القراءة والتفكّرُ فيها، روَى البخاريّ عن أبي سعيدٍ الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سَمعت رسول الله يقول: «يخرُج فيكم قومٌ تحقِرون صلاتَكم مَع صلاتهم، وصِيامَكم معَ صِيامهم، وعمَلَكم مع عَملِهم، يقرؤونَ القرآنَ لا يجاوز حَناجِرَهم، يمرُقون من الدّين كما يمرُق السّهمُ من الرميّة»[2].

من تعظيمِ القرآن التسوك وتنظيفُ الفم لأجلِ القراءة بالسِّواك والمضمَضة، روى البخاريّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله قال: «لولاَ أن أشقَّ على أمّتي – أو على الناس – لأمَرتهم بالسّواك مع كلِّ صلاة»[3]، وظاهِرُ هذا أنّه كان يفعَل هذا للصّلاة وقِراءةِ القرآن.

مِن تعظيمه كراهيةُ قَطع القراءةِ لكلام الناس، فلا يَنبغي أن يؤثِرَ كلام الناس على قراءةِ القرآن، روَى البخاريّ عَن نافع قال: (كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا قرَأ القرآنَ لم يتكلَّم حتّى يفرغَ منه).

ومِن تعظيم القرآن أيها الأحبة.. تلقّيه من العدولِ العلماء بما أخَذوا وبما يؤدُّونَه، روى مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله قالَ لأبيّ: «إنَّ اللهَ أمرني أن أقرَأ عليك القرآنَ»، قال: الله سمّاني لك؟! قال: «الله سمّاك لي»، قال: فجعل أبيّ يبكِي[4].

ومِن تعظيمه تركُ المماراةِ في القرآنِ، روَى البخاريّ عن جندب بن عبد الله عنِ النبيِّ قال: «اقرؤوا القرآنَ ما ائتلَفَت قلوبكم، فإذا اختلفتُم فقوموا عنه»[5]، وروى مسلم عن

---

(١) صححه أحمد شاكر في مقدمة عمدة التفسير.

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٨).

(٣) رواه البخاري (٨٨٧).

(٤) رواه مسلم (٧٩٩).

(٥) رواه البخاري (٥٠٦٠).

عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: هَجَّرتُ -أي: بكّرتُ- إلى رسول الله يومًا قال: فسمع أصواتَ رجلَين اختلَفا في آيةٍ، فخرج عَلينا رسول الله يُعرَف في وجهه الغضبُ فقال: «إنما هلَكَ من كان قبلَكم باختِلافِهم في الكِتاب»[1].

ومِن تعظيمِه عدمُ السّفر بالقرآنِ إلى أرضِ العدوّ، روى البخاريّ ومسلِم عن عبد الله بن عمر قالَ: نهى رسول الله أن يُسافرَ بالقرآنِ إلى أرضِ العدوّ[2]، وروى مسلم عَن أيّوب عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله: «لا تُسافروا بالقرآن؛ فإني لا آمَن أن يَنالَه العدوّ»[3]، قال أيّوب: (فقد نالَه العدوّ وخاصموكُم به). قال النوويّ في شرح مسلم: (النهيُ عن المسَافرةِ بالمصحَفِ مخافةَ أن يَنالَه العدوّ فينتهِكوا حرمتَه، فإذا أُمنَت العِلّة فلا كراهةَ ولا مَنعَ منه).

ومِن تعظيمه: تركُ استِئكالِ الأموالِ بالقرآن، روَى الترمذيّ وقال: (حديث حسَن) عن عمران بن حصينٍ أنّه مرَّ على قاصٍّ يقرأ ثم سَأل، فاسترجَع ثم قال: سمعتُ رسولَ الله: «من قَرأ القرآنَ فليَسألِ الله به، فإنّه سيجيءُ أقوامٌ يقرؤونَ القرآنَ يسألون به النّاس»[4]، وروى البخاريّ ومسلم عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسولَ الله يقول: «يأتي في آخرِ الزّمان قومٌ حُدَثاء الأَسنان سُفَهاءُ الأحلام، يقولون من خيرِ قول البريّة، يمرُقون من الإسلام كما يمرق السّهمُ من الرّميّة، لا يجاوز إيمانُهم حنَاجِرَهم، فأينَما لقِيتموهُم فاقتلوهم، فإنَّ قتلَهم أجرٌ لمَن قتلَهم يومَ القيامة»[5].

والمعنى: سيظهَر في زمَنِكم قومٌ يكثِرون من العبادةِ، ولكن رياءً وسمعَة، وهم بَعيدون عن الدّين كالسَّهم إذا نفَذ من مرمَاه بسرعةٍ، فينظر الرامي في النَّصل والقدح والرّيش، فلا يرى فيها أثرًا للإصابة، قومٌ أصابَتهم فِتنةٌ فعَموا وصمّوا.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٠) ومسلم (١٨٦٩).

(٣) رواه مسلم (١٨٦٩).

(٤) السلسلة الصحيحة للألباني (٢٥٧).

(٥) رواه البخاري (٥٠٥٧) ومسلم (١٠٦٦).



قِراءةُ القرآنِ رياءً لا أَجرَ فيها، فقِراءةُ القرآن لا تكون إلا للإيمانِ والعمل به لله تَعالى، قالَ الله تعـــالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإيّاكم بما فيهِ مِن الآيات والـذكر الحكـيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب فاستغفروه، إنـه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى، أحمده سبحانَه وأشكره، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريك له له الأسماء الحسنى والصّفات العـلا، وأشـهد أنّ سـيّدنا ونبيَّنـا محمّدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحبِه ومن اقتفى.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله.

ومِن تعظيمِ القرآن المحافظةُ على الكُتبِ العامّة والكتب المدرسيّة والصّحُف التي تشتمِل على آياتٍ من القرآنِ الكريمِ في غِلافها أو داخِلها، لكنَّ بعضَ المسلمين حينما يقـرؤون تلـك الكتُب والصّحفَ يُلقيها، فتجمَع مع القمائم وتوطَأ بالأقدام، بل قد يستَعمِلها بعضهم سُفرةً لطعامه ثم يرمِي بها في النفايات مع النّجاسات والقاذورات، ولا شكَّ أن هذا امتهانٌ لكتابِ الله العظيم وكلامِه المبين.

ومِن تعظيم كلام الله أن يُرفَعَ فـلا يوضَـع في الأرض، لا سـيما في الأرض التـي ليسَـت محتَرَمة، فإنَّ وضعَه في أرضٍ ليست محترَمَةً يدلّ على عَدمِ مُبالاة الواضِع به، وإذا كان الإنسانُ يقرَأ في مصحَفٍ وهو في المسجِد أو في بيته ثم أراد السّجودَ ووضَعه بين يديه فإنَّ هذا لا بأسَ به ولا إِهانةَ فيه للقرآن.

ومِن تعظيمِ القرآن أن لا تمدَّ إليه رجلَيك، وأن لا تولّيَه ظهرَك.

يقول عمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما في صحيح البخاري: سمعتُ هشامَ بن حكيم بن حِزام يقرأ سورةَ الفرقان في حياةِ رسولِ الله، فاستَمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأ عـلى حـروفٍ كثـيرة لم يقرِئنيهـا رسول الله، فكدتُ أساوِره في الصلاةِ، فتصبَّرت حتى سلَّم، فلَبَبتُه بردائِه فقلت: مـن أقـرأَك هذه السورةَ التي سمعتُك تَقرَأ؟! قال: أقرَأنِيها رسولُ الله، فقلتُ: كذَبتَ فإنَّ رسول الله قـد أقرَأنيها على غيرِ ما قَرأتَ، فانطلقتُ به أقودُه إلى رسـول الله فقلـتُ: إنّي سـمِعتُ هـذا يقـرَأ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تقرِئنيها! فقال رسول الله: «أَرسِله، اقرَأ يا هشـام»، فقـرأ عليـه القراءةَ التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله: «كذَلك أنزِلَت»، ثم قال: «اقرَأ يا عمَـر»، فقـرأتُ

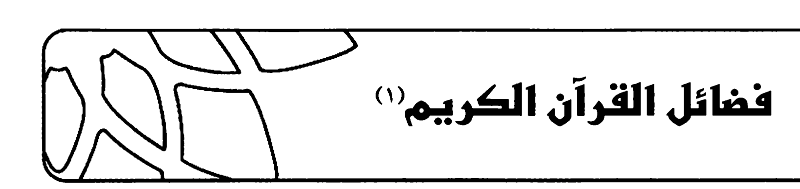
القراءةَ التي أقرَأني، فقال رسول الله: «كذلك أُنزِلت، إنَّ هَذا القرآنَ أُنزِل على سبعةِ أحـرُف، فاقرَؤوا ما تيسَّر منه»(١).

أيها الناس: إن القرآن نعمة وعطية، وهبة وهدية من الله تعالى، لكنه لا يعطي صـاحبه إلا بقدر ما يعطيه من وقته وصفاء ذهنه وخلو قلبه من الشواغل، فهل من عاقل يختطف لـه مـن وقته اليسير ليتنعم بتلاوته وتدبره، والتفكر في آياته والعمل بها فيه، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

ألا وصلّوا - عباد الله - على رسول الهدَى، فقد أمركم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) رواه البخاري (٤٩٩٢) ومسلم (٨١٨).



فضائل القرآن الكريم[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب الأرض والسماء، خلق السموات و الأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، نشهد أن لا إله إلا هو أرسل إلينا خاتم الرسل وخير الأنبياء، وأنزل القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء، فأضاءت به قلوب العارفين و الأتقياء، وترطبت بآياته ألسنة الذاكرين والأولياء، نحمده تبارك وتعالى على النعماء والسراء، ونستعينه على البأساء و الضراء، ونعوذ به سبحانه من درك الشقاء وجهد البلاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله خاتم الرسل والأنبياء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته الأجلاء، وعلى السائرين على دربه والداعين بدعوته ما تعاقب الصبح والمساء..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

عباد الله، لقد امتن الله تعالى علينا بنعمة جليلة حين أنزل القرآن الكريم على عبده ونبيه محمد ﷺ، فهو نعمة عظيمة حق لنا أن نفرح بها ونعلن اغتباطنا بها، ألم يقل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

(١) عبدالمجيد بن عبدالعزيز الدهيشي.

ولو تأملنا فيما ورد من الفضائل لهذا الكتاب العزيز لرأينا عجبًا، فهو الكتاب الذي لو أنزل على الجبال الرواسي لتصدعت وخشعت ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ﴾ [الحشر:٢١]، وهو الكتاب الذي تكفل الله سبحانه بحفظه ولم يكل حفظه إلى ملك أو نبي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وهو الكتاب المهيمن على ما عداه من الكتب التي أنزلها الله جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، وفي السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي تبين فضائل القرآن الكريم وما اختص به الخلال. ففي الحديث «إن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا»(١).

وعن زيد بن أرقم أن النبي قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، هو حبل الله، ومن اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة»(٢).

وكان إذا خطب يقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد»(٣)، فمن أراد النجاة والفلاح فعليه بكتاب الله تعالى، ومن أراد الخير الكثير والأجر الوافر فليقرأ كتاب الله تعالى يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠]، وعن أبي موسى: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو»(٤).

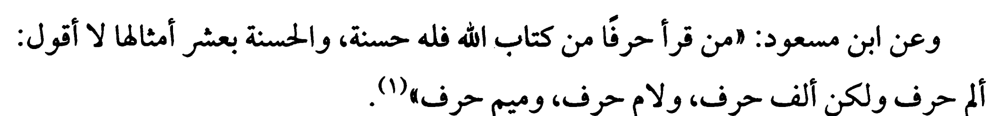
---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني (٧١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٣) رواه مسلم (٨٦٧).

(٤) رواه البخاري (٥٤٢٧) ومسلم (٧٩٧).



وعن ابن مسعود: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(١).

ومن قرأ القرآن ماهرًا به فهو يوم القيامة مع الملائكة السفرة الكرام البررة، فعن عائشة: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»(٢).

وعن أبي هريرة قال ﷺ: «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان»؟ قلنا: نعم قال: «فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاة خير له من ثلاث خلفات عظام سمان»(٣).

وهذا قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: اعمروا به قلوبكم واعمروا به بيوتكم أي القرآن أخرجه الدارمي وكان أبو هريرة يقول: إن البيت ليتسع على أهله وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويكثر خيره أن يقرأ فيه القرآن، وإن البيت ليضيق على أهله وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين ويقل خيره أن لا يقرأ فيه القرآن.

وللقرآن الكريم مع أهله يوم القيامة مواقف عجيبة فعن أبي أمامة: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»(٤).

وعن النواس بن سمعان: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»(٥).

وعند تلاوة القرآن ومدارسته تتنزل الملائكة والسكينة والرحمة، فعن البراء بن عازب قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي فذكر له ذلك، فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن» متفق عليه. وعن أبي هريرة «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله

---

(١) صحيح الترمذي (٢٩١٠).
(٢) رواه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨).
(٣) رواه مسلم (٨٠٢).
(٤) رواه مسلم (٨٠٤).
(٥) رواه مسلم (٨٠٥).

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[١].

وفي تلاوة القرآن الكريم أمان بإذن الله من الغفلة «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بألف آية كتب من المقنطرين»[٢].

عباد الله: ومما يؤكد المكانة السامية لهذا القرآن أن خير الناس من تعلم القرآن وعلمه كما أخبر بذلك النبي، وأن أحق الناس بالإمامة في الصلاة أقرؤهم. بل إن أهل القرآن لهم المكانة والرفعة «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»[٣].

عباد الله: إن القلب يصدأ ويقسو، والنفس تضعف، وتهبط بها دواعي الشهوات ومشاغل الدنيا وما أحوجنا إلى ما يصلح نفوسنا ويلين قلوبنا ويربطنا بخالقنا سبحانه. وما تقرب عبد إلى ربه بأفضل من تلاوة كتابه والوقوف عند معانيه والتدبر في آياته.

وقد كان من هدي السلف المستقر لديهم تلاوة ورد يومي من كتاب الله تعالى، بأن يجعل أحدهم له قدرًا يقرؤه يوميًا ويتعاهد نفسه عليه بحيث يختم القرآن في كل شهر أو عشرين يومًا أو أقل من ذلك.

ومما يدل على ذلك ما ورد في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي قال له: «اقرأ القرآن في كل شهر قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: فاقرأه في سبع، ولا تزد عن ذلك»[٤].

وعن عمر بن الخطاب: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»[٥]. وثبت عن ابن مسعود وعثمان وتميم الداري وجمع من أئمة التابعين أنهم كانوا يختمون القرآن في سبعة أيام.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٢) صحيح أبي داود للألباني (١٣٩٨).
(٣) رواه مسلم (٨١٧).
(٤) رواه البخاري (٥٠٥٢) ومسلم (١١٥٩).
(٥) رواه مسلم (٧٤٧).

ومن آداب التلاوة أيها المؤمنون تدبر كلام الله تعالى وتفهم معانيه، فهذا من أهم مقاصد القرآن الكريم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] وعن حذيفة أن النبي صلى فكان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب استجار، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه لله سبح. النسائي وصححه الألباني.

وقال أبو جمرة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث)، فقال: «لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول».

ومما يعين على تدبر القرآن تحسين الصوت في قراءته، وقد أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها، وعن أبي هريرة: «ما أذن الله لشيء أي استمع ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»[(١)].

وعنه: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[(٢)].

وكان أبو موسى الأشعري حسن الصوت بالقرآن فقال له النبي: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»[(٣)].

وعن البراء بن عازب قال: «سمعت النبي يقرأ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين:١]، في العشاء، وما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه على أن هذا لا يعني التنطع في القراءة والتكلف فيها».

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك. اللهم انفعنا وارفعنا بالقرآن في الدنيا والآخرة.

(١) رواه البخاري (٧٥٤٤) ومسلم (٧٩٢).
(٢) رواه البخاري (٧٥٢٧).
(٣) رواه البخاري (٥٠٤٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله يقول الحق وهو يهدي السبيل، أحمده سبحانه وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مثيل، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله جاء باليسر والرفق والتسهيل، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ذوي الهدى والتقى والتفضيل، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أكثر الناس تعظيمًا للقرآن وقيامًا بحقه، علمًا وعملًا، تلاوةً وتدبرًا، جاء عن الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار».

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يختالون»

وقال عثمان بن عفان وحذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله».

وعن الفضيل بن عياض قال: (حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيما لحق القرآن).

وقال عبدالله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين الفاتحة إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدَّقَل!». الدقل: أي التمر الرديء.

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تهذُّوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كنا نحفظ العشر آيات فلا ننتقل إلى ما بعدها حتى نعمل بهن» وروي عنه أنه حفظ سورة البقرة في تسع سنين.. و ليس ذلك للانشغال عن الحفظ أو رداءة الفهم، حاشاه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولكن بسبب التدقيق والتطبيق..

وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإنّ من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به».

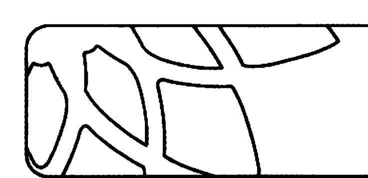
وقال أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».

عباد الله: لما ذكر الله تعالى في سورة الفرقان ما قاله النبي من الشكوى من ترك قومه للقرآن العظيم وهجره، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان:٣٠]، أي جعلوه متروكًا مقاطَعًا مرغوبًا عنه، ولا شك أن شكواه عليه الصلاة والسلام من هجره دليل على أن ذلك من أصعب الأمور وأبغضها لديه.

وقد ذكر أهل العلم أن هجر القرآن له درجات، ويدخل فيه صور مختلفة، فمنه هجر العمل به وهجر تلاوته، وهجر التحاكم إليه، وهجر التداوي به.

فلنحذر أن نكون من الهاجرين لكتاب الله المحرومين من فضائله وبركاته، ولنقبل على كتاب ربنا تلاوة وتعلمًا وحفظًا وعملًا، ففي ذلك كثير الخير وعظيم الأجر، وما أجمل أن يكون لكل واحد منا قدرًا من كتاب الله يقرؤه يوميًا، يتدبر آياته ويتعلم معانيه، ولو كان ذلك يسيرًا فإنه مع الديمومة كثير، فقد علمنا أن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قلّ، وها هو العمر ينقضي والأيام تمضي والساعات تضيع، فأين أهل الله وخاصته وأين أهل القرآن، وأين من ينورون قلوبهم وبيوتهم وقبورهم بالقرآن، أين من يربون أولادهم بالقرآن ويعلمونهم القرآن، فإن القرآن صاحب لا يخيب، وصديق لا يخذل، هو نور في القلب والقبر وبين يدي الرب.. والحمد لله رب العالمين.





تَدبُّرُ ومُدارَسَةُ القرآن

الخطبة الأولى:

الحمد لله، وبحمده يستفتح الكلام، والحمد لله حمده من أفضل ما تحركت به الألسن وجرت الأقلام، أحمده تعالى على الدوام، وأشكره على ما هدانا للإسلام، وأبان لنا الحلال والحرام، وشرع لنا الشرائع وأحكم الأحكام، وأمرنا بالبر والاجتماع على الحق والاعتصام، ونهانا عن الجفاء وسائر الآثام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك القدوس السلام، ولي كل إنعام، ذو الآلاء الجسام، والمنن العظام، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، هو للأمة بدر التمام، وللأنبياء مسك الختام، المصطفى من الرسل والمجتبى من الأنام، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله البررة الكرام، وصحبه الأئمة الأعلام، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تبارك وتعالى حق التقوى، فتقوى الله عروة ليس لها انفصام، وقدوة يأتم بها الكرام، وجذوة تضيء القلوب والأفهام، من تمسك بها سلم من محذور العواقب، ومن تحقق بحملها وقي من شرور النوائب.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

عباد الله: إن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه مباركًا ونورًا، وهدى وشفاء وموعظة، أنزله لنتدبر آياته؛ وتلاوة القرآن لها أجر عظيم، وتجويده له أجر عظيم، ولكن تدبره هو الوظيفة الأساسية للإنسان. لماذا أنزل الله القرآن؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩].

التلاوة تعين على التدبُّر، والتجويد، ومعرفة الوقوف، وحق الحروف، وأما التدبر فإنه إعمال العقل في معنى الآية، وهذا يزيد الإيمان، ويدفع للعمل؛ ولذلك ذكر ربنا سبحانه وتعالى في كتابه أنه أنزله ليتدبروه.

والتدبر قد يكون من الإنسان وحده: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ:٤٦]، وقد يكون التدبر جماعيًا، وهو عملية مدارسة القرآن التي ذكرها نبي الله ﷺ بقوله: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[١]، والسكينة هي الطمأنينة والوقار.

التدارس عبادة عظيمة ونعمة جليله نسيها أكثر الناس، اجتماعك بأهلك للمدارسة مع الزوجة والأولاد لمدارسة القرآن، في اجتماعك مع أصحابك لمدارسة القرآن؛ مجالسنا كثيرة، مناسباتنا متعددة، اجتماعاتنا ذات عدد، لماذا لا نستثمر فرصة الاجتماع للتدارس ولو لجزء من الوقت؟ هذه المدارسة قِمَّتُها أن تكون في المسجد عندما يقعد أهل الإيمان ويتنادون بقولهم: تعالوا نؤمن ساعة. ويتدارسون كتاب الله فيما بينهم.

عباد الله: إن هذا التدارس شأنه عظيم، وأجره كبير، وهذا التدارس هو القراءة بتمعُّن، معرفة المعنى، وإنزال المعنى على الواقع؛ هذه المدارسة عبادة عظيمة نكاد نفقدها اليوم، وأكثر ما يقوم الناس به تجاه القرآن هو التلاوة، لكن المدارسة قليل من يقوم بها، إنه يشملها حديث النبي ﷺ: «تعاهدوا القرآن»[٢]، لأن التعاهد مراجعة الحفظ والتلاوة، نعم، ويدخل فيها أيضًا تعاهدوا واهتموا بالقرآن، ومنه هذه المدارسة.

هذه المدارسة جعلت الصحابة مِن قبلنا يحرصون عليها؛ لأنها تزيد الإيمان، وتربط بالرحمن، وكل من فقه الكتاب أكثر اقترب منه أكثر، وكل من فهم مراده أكثر أحبه الله أكثر، وهذه هي أهمية المدارسة، أهمية التدبر، أن تقترب من ربك زيادة، أن يحبك ربك زيادة،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٢) رواه البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

وكذلك فإن هذا التدبر يعين على الحفظ، يعين على رسوخ القرآن بالنفس؛ لأنك إذا فهمت المعنى فإنه يصعب عليك بعد ذلك أن تنسى الآية.

وأيضًا يحقق الترابط والتآلف؛ لأن التدارس اجتماع مؤمنين حتى لو كنت مع أهلك من أجل تحقيقه، إنه يُزكِّي النفس؛ ثم ماذا نريد أكثر من أن تتنزل علينا الرحمة والسكينة؟ وتحفنا الملائكة؟ وأن يذكرنا الله فيمن عنده؟ وكل هذا مقابل هذه العبادة التي يقوم من قام بها.

ومن السنن كما جاء في الحديث عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كان النبي ﷺ يلقى جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن» فكانت المدارسة بين أفضل رسول ملَكي وأفضل رسول بَشَري تتم ليلا، دليلًا على أهميتها.

والنبي ﷺ كان يحب أن يسمع القرآن من غيره أحيانًا، كما أمر ابن مسعود أن يقرأ عليه ليكون ذلك عونا على التدبر والتفكر، وأن تكون مدارسة.

أيها المسلمون: لقد كان الصحابة يجلسون في المسجد يتدارسون القرآن، يتعلمون الفرائض والسنن، ويذكرون الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك كان النبي ﷺ يعلمهم الإيمان مع تعليمه القرآن، كان الصحابة يجتمعون فتطرح قضية قرآنية، مثلا: أي آية في كتاب الله أرجى؟ هناك آيات تخيف، وآيات فيها ذكر رحمة تبعث على الرجاء، فمثلا يقولون: أخوف آية في كتاب الله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]. ما هي أرجى آية؟ حتى يعيش المسلم بين الخوف والرجاء، فقال بعض الصحابة: «إن أرجى آية قول الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣]؛ فقدم غفران الذنب على قبول التوبة»، وقال آخر: «إن أرجى آية: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فقدم المغفرة والرحمة على العذاب»، وقال آخرون: «إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]» وقال بعضهم: «إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] يعني بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]».

وهكذا كانوا حتى في استقبال المسافرين والتعامل معهم تحصل مناقشات ومدارسات للقرآن، قال معمر: بلغني أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مر به ركب فأرسل إليهم يسألهم مَن هم؟ «مَن أنتم؟» قالوا: جئنا من الفج العميق. قال: «أين تريدون؟» قالوا: نريد البيت العتيق. فقال عمر: «إن لهؤلاء نبأً!» ما داموا بهذا الفقه وهذه الإجابات: جئنا من الفج العميق نريد البيت العتيق.

فأمر رسوله أن يسألهم: «أي آية في كتاب الله أحكم؟» قالوا: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، قال: «فأي آية أعدل؟» قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ [النحل:٩٠]، قال: «فأي آية أعظم؟» قالوا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قال: فأي آية أرجى؟ قالوا: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. فسألوا: «من فيهم؟» فإذا فيهم ابن مسعود.

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُدخل ابن عباس برغم صغر سنه مع شيوخ المهاجرين والأنصار والصحابة الكبار معه في مجلس الخلافة، فيقول بعضهم: عندنا أولاد في مثل سنه فلماذا يُدخله علينا؟ حتى سألهم عمر يومًا: ما تقولون في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، فقال بعضهم: «أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا». وهذا ظاهر الآيات! هذا كلام ليس به استنباط، هذا ظاهر السورة، وبعضهم سكت فلم يقل شيئًا.

فقال عمر لابن عباس: «أكذلك تقول يا ابن عباس؟ قال: لا. قال: ما تقول؟ فقلت: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلَمَهُ له، فقال: إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فذلك علامة أجلك ودنو موتك وقرب انتقالك، فسبح بحمد ربك واستغفره. قال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول»(١). فِعلًا هكذا!.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤).

هذه الإشارة في السورة مَن يفهمها؟ أصحاب التدبر ومَن فتح الله عليه، وهذا ما دعا به رسول الله ﷺ أن يفقِّهه الله في الدين، وأن يعلمه تأويل القرآن؛ وكذلك حصل في قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٦٦]، عمر يسأل ابن عباس عن هذه الآية، فقال ابن عباس: «ضُربت مثلا لعمل. فقال عمر: أي عمل؟ فقال ابن عباس: لعمل». فقال عمر: رجل غني يعمل الحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

مثل نقرأه ولكن من الذي يعرف مدلول المثل؟ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ [البقرة:٢٦٦]، جنة بستان عظيم ملتف الأشجار، وهذه الأشجار فيها بدائع وروائع الثمار نخيل وأعناب، ليس عنبا بل أعناب، لأن العنب أنواع، وبالإضافة إلى ذلك له فيها من كل الثمرات، كم نفاسة هذا البستان عنده؟ ما قيمة هذه الجنة عنده؟ كبيرة جدًا، لنفاسة ما فيها.

هذه حاله المادية، ما هي حاله الاجتماعية؟ ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ [البقرة:٢٦٦]، دخل في الشيخوخة، الآن هو ضعيف عن العمل، فهذا البستان بالنسبة له تقريبًا كل شيء في رزقه، مصدر المال في المعيشة، يعيش عليه، أصابه الكبر، ليس عنده قدرة الآن على أن يكتسب شيئًا جديدًا، فهو محتاج إلى البستان جدًا، وليست القضية هكذا فقط، بل إنه كما قال الله: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ [البقرة:٢٦٦]، عنده ذرية صغار وعجز عن العمل لعاهة أو لمرض، أصابه اكبر وهم ذرية ضعفاء، فكيف سيكونون في حالة ضياع البستان؟ كم حاجته من هذا البستان؟ كم هي؟ ومن أجل أولاده كم هي؟.

كل الأمل في البستان، الحاجة ماسة لهذا البستان، فأصابه إعصار فيه نار فاحترق! ما هي النتيجة؟ هذا المثل لماذا؟ مَن الذي قرأ هذه الآية؟ هذا المثل لماذا؟ مَن الذي قرأ هذه الآية؟ فكر فيها، ونحن ربما نقرأ وربما لا نقرأ، ونقصر، نمر بالآية: ما هو معناها؟ مثل ضربه الله لأي شيء؟ لشخص عمل بالحسنات وله أعمال طيبة كثيرة، يوم القيامة في حاجة ماسة إليها جدا، ولكن جاءه الشيطان في قضية الرياء والعجب، فصار يسمع ويتكلم ويسترحم.

ما العمل؟ وهذه محبطات للأعمال، الرياء والعجب محبطات للأعمال، فصار على هذه الشاكلة، فماذا سيبقى له من الأجر؟ لا شيء، سيأتي يوم القيامة وهو محتاج جدا إلى الحسنات في تلك الأهوال في المحشر عند الميزان إذا جاء الله لفصل القضاء، إذا وزعت الصحف وتطايرت، وأخذ كل كتابه، والنار أمامهم لها شهيق يسمعونه وزفير، فكم تكون الحاجة إلى الحسنات؟ فلا يجد شيئًا، لماذا؟ أذهبه العجب والرياء والاغترار والمنّ، ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٢].

فوجد الله عنده فوفاه حسابه، كم تكون المصيبة حينئذ؟ كيف يكون الألم النفسي حينئذ؟ إنه وقع الصاعقة، وهذا مثل، لكن مَن الذي يتدبر في هذا المثل؟ مَعَ مَن نتدارس لاستخراج الكنوز القرآنية؟.

ولذلك النصيحة -أيها الأخوة- أن لابد أن تكون لنا مجالس مدارسة، ولو مع الزوجة والأولاد، نأخذ آيات ولو آية نستعرض معناها من كتب المفسرين، ثم يبدأ التدبر والنقاش في ظل هذه المعاني، ما ارتباطها بالواقع؟ ماذا نستفيد منها؟ ماذا يُستنبط؟ ما يستخرج؟ ما علاقة هذا بهذا؟ وهكذا يدور العقل في معاني ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي خلق فسوَّى، وقدَّر سبحانه لا إله إلا هو وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، الله أكبر ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بديع السموات والأرض، لم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا.

وأشهد أن محمدًا عبد الله إمام المتقين، وقائد الغُرِّ المحجلين، والشافع المشفع يوم الدين، حبيبنا وسيدنا وقدوتنا وأسوتنا، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وعلى آله وذريته الطيبين، وأزواجه وخلفائه الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله: قضية التدبر هذه والتفكر والمدارسة وإعمال العقل في معاني التنزيل لا تكون إلا بعد معرفة التفسير، فلو أخذت بعض كتب التفسير المختصرة التي تبين المعنى الإجمالي للآية لكان ذلك حسنًا، وهذه خطوة جيدة أن يعرف المسلم المعنى الإجمالي للآية، وهذه المفردات التي يقرؤها ما معناها.

تسأل البعض: ماذا تحفظ؟ فيجيب: البعض من قصار السور؟ فتسأله: ما معنى الصمد؟ لا أدري، ما معنى الفلق؟ لا أدري، ما هو الغاسق؟ لا أدري، ما معنى وقب؟ لا أدري، ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات:١] ما معنى ضبحا؟ لا أدري. ما معنى لإيلاف؟ لا أدري.. وهكذا.. فإذا كانت هذه السور القصيرة وفيها كثير، فما بالك بالسور الطويلة، وهذا القرآن أهم شيء في حياتنا، هذا أهم من المطالعات، هذا أهم من كل الشروحات والكتلوجات والأوراق ومواقع الإنترنت والجرائد.. لكن القليل من يوفق لفهم كتاب الله.

سبحان الله العظيم! بعض الناس يتابعون تفاصيل الأخبار، ويقرؤون الكتب العامة، والتسلية، والقصص، والروايات، وربما أصر على أن يطالع ما لا نفع وراءه من ذلك؛ وكتاب الله الكريم، هذا الأصل، الكتاب العزيز المبارك القرآن، يُهمل وتضيق الأوقات إذا جئنا إليه، والله المستعان.

القرآن أيها الأحبة هو شرَفنا، عزّنا، سعادتنا، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤].

قال عالم لطلابه: هل محبة الله فرض أم لا؟ قالوا: فرض، قال: ما الدليل من القرآن؟ فما أجاب أحد، ما استحضر من دليل يوجِب، هناك آيات تصف ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] تصف المؤمنين بالمحبة، ولكن إن محبة الله فرض، قال لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة:٢٤]. إذن محبة الله فرض؛ لأنه لا يهدد على ترك مستحَب ولا مباح، لا يهدد إلا على ترك واجب.

أيها المؤمنون: كان علماؤنا وسلفنا يحرصون على ذلك، حتى كان الواحد منهم لا يخرج بعد صلاة العصر حتى يجلس مع صاحبه يتدارسان مع بعضهما ولو آية؛ وكان بعضهم يرتب أياما معينة، كل أسبوع مرة أو مرتين، وهو كبير العائلة، يأتي الأولاد والأحفاد الذكور في يوم، والإناث في يوم، فالموضوع هو كلام الله، ولو آية، لأننا سنُسأل عنه يا عباد الله، سنسأل عن هذا الكتاب.

وهناك آيات تحل إشكالات كثيرة، هناك آيات إذا فهمت تعطي تحصينات قوية ضد شبهات مطروحة في الأجواء اليومية، هناك آيات تثبت الإنسان أمام المواقف الصعبة، الناس يتعرضون للحرام، للشهوات، لو تدبر أحدهم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف:٢٣]، لو تفكر الواحد وجلس في ظلال هذه الكلمات، وطالع بعض التفاسير فيها، واستنبط بعض معانيها لكان في ذلك خيرًا كثيرا وأثرا عظيمًا. ففي هذه الآية نجد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شابًا يدخل ويخرج بلا ريبة لأنه خادم في القصر، وكان عبدًا له الطاعة لسيدته، وكانت المرأة جميلة وكانت صاحبة منصب وكانت سيدته، وغلقت الأبواب، وغاب الرقيب، والزوج قليل الغيرة؛ لأنه قال يا يوسف أعرض عن هذا! ولم يقتلها بعد الحادثة! والذهن يمر ويجول في الآية ليقول يوسف: معاذ الله! ألتجئ إلى الله، ما الكلمة التي يقولها الشاب إذا عرضت عليه فتاةٌ الحرامَ، أو عرض عليه الكترونيا أو هاتفيًا أو في رسالة جوال، بماذا سيجيب؟ أو مر بموقف كهذا في مكان ما؟ ماذا يقول؟ ها هو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يُفضِّلُ السِّجنَ على الفتنة والقصر فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ﴾ [يوسف:٣٣]!

وهكذا، ولما تتأمل ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وتتأمل حل مشكلات النساء الآن على ضوء الآية، لأن القرار في البيت الاستقرار، يعني أكثر الوقت في البيت، ﴿وَقَرْنَ﴾ [الأحزاب:٣٣]، ما قال واجلسن، القرار في المكان: ملازمته، ستحل لك إشكالات كثيرة في ظل الدعوات التي تخرج اليوم في موضوع تحرير المرأة من الشريعة ومن الأحكام. أُذن لكنَّ أن تخرجن لحوائجكن، إذن فلابد أن هناك حاجة، وعلاقة الآية بالحديث، وكيف يفسر الحديث الآية؟ ارتباطات بين الآيات.

يحل لك مشكلة الربا في النسب القليلة قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا﴾ [البقرة:٢٧٨]، ما بقي من الربا، يعني ولو كانت نسبة يسيرة.

وهكذا كلام الله، آيات لو تدبرها الإنسان يجد لها حل المشكلات الاجتماعية والنفسية، لو تدبرنا كلام الله لخشعت واطمأنت القلوب وزكت النفوس وذرفت العيون واستعلى المسلم على أهوائه وشهواته.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، (حث على تأمل مواعظ القرآن، وتبين أنه لا عذر في ترك تدبر القرآن، فإنه لو خوطب بهذا القرآن، الجبال مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها، خاشعة متصدعة متشققة من خشية الله).

أيها الناس.. لقد ذم الله سبحانه وتعالى قومًا لم يفقهوا القرآن ولم يتدبروا آياته، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٦-١٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وترك تدبره من هجرانه)، لقد مثل الله حال اليهود مع التوراة أقبح تمثيا فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

قال الطرطوشي: (فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ولا يفهمه ولا يعمل به).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاه عملا، وتدبر آياته: اتباعه والعمل بعلمه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله، فما أسقط منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل، ومن أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه على القرآن، وأن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار).

فيأيها المؤمنون: عليكم بالقرآن، باللسان ذكرا، وبالقلب تدبرا، وبالعقل تفكرا، وبالجوارح عملا.

فتدبّر القرآن إن رُمت الهدى   فالعلم تحت تدبر القرآنِ

يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، صدق الله العظيم، وبلغ رسوله الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، اجعلنا ممن يحل حلالك ويحرم حرامك..





القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك، ونثني عليك الخير كله، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، لك الحمد بالإسلام ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالمال والأهل والمعافاة، كبت عدونا، وأظهرت أمننا وجمعت فرقتنا ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد والشكر على ذلك كثيرًا، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، ولك الحمد على كل حال، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ونشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك أنت الواحد فلا شريك لك، والأحد فلا نِدَّ لك، شرعت الهجرة والجهاد، لدرء الشر والفساد ووعدت عبادك المؤمنين بالنصر والفتح المبين، والعز والتأييد والتمكين.

ونشهد أن نبينا محمدًا عبدك ورسولك، ومصطفاك وخليلك، شكر نعمتك وحقق عبادتك، وبلغ شريعتك، ونصح خليقتك، وهاجر وجاهد لإعلاء كلمتك، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها المؤمنون اتقوا الله حق التقوى، عظموا الله عظموا أمر الله عظموا نهي الله لتكن الدنيا في قلوبكم حقيرة، ولتكن الآخرة في قلوبكم عظيمة فإن حقارة الدنيا وعظم الآخرة في قلب العبد المؤمن سبب السعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.

أيها المؤمنون:

يقول الله جل وعلا: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

وقال جل وعلا في القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤] فإن الله جَلَّجَلَالُهُ جعل هذا القرآن هدى للمؤمنين، وجعل فيه الشفاء. قال العلماء: الشفاء في القرآن ثلاثة أنواع:

فمنه الشفاء من أدواء الشبهات والشهوات. التي من تسلطت عليه أضلته وصار ساعيًا في الظلمات، والله جَلَّجَلَالُهُ جعل هذا القرآن هاديًا للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] فمن أراد السلامة من أمراض الشهوات ومن أمراض الشبهات، فعليه بالقرآن، فهو للذين آمنوا هدى وهو للذين آمنوا شفاء.

النوع الثاني: أن القرآن شفاء لأمراض البدن بأنواعها. قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما من داء إلا وفي القرآن شفاؤه، علمه من علمه وجهله من جهله، وآيات القرآن عند أهل العلم فيها من عجائب الاستطباب ومن عجائب التداوي بها ما لا يعلمه كثير من الناس).

فانظر مثلًا إلى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كيف تلا على الذي كان به داء الرعاف الذي استطال به. كان طريقة دواء ذلك الداء عند ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كتب على جبينه آيات من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود:٤٤]. فشفى الله جل وعلا ذلك المريض.

انظر إلى ذلك الرجل سيد الحي اللديغ الذي أصيب بسمّ من بعض ذوات السموم. فرَقاه أبو سعيد الخدري بفاتحة الكتاب، فجعلوا له قطيعًا من الغنم، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ قال: «قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهمًا»[1].

(١) رواه البخاري (٢١٥٦)، ومسلم (٢٢٠١).

وهكذا القرآن فيه شفاء للأمراض البدنية. وقد عدّ العلماء من أنواع هجر القرآن التي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]. عدّوا من أنواع هذا الهجر، أن يهجر القرآن فلا يستشفي به.

والنوع الثالث من أنواع الشفاء بالقرآن: الشفاء من الأمراض النفسية، ومن عين الإنس وعين الجن ومن السحر، ومن جميع تلك الأمراض، التي قد لا تكون من جنس الأمراض البدنية.

وقد أمر النبي ﷺ أن يُرقى بعض أولاد جعفر لما رأى فيهم من أثر العين[(١)]. وقد أمر عليه الصلاة والسلام بذلك، وقد رقى عليه الصلاة والسلام ورُقي أيضًا.

فالقرآن إذًا أيها المؤمنون شفاء، والرقية بالقرآن سنة ماضية فقد رقى جبريل عليه الصلاة والسلام نبينا محمدًا عليه الصلاة والسلام[(٢)]. وقد رقى النبي ﷺ طائفة من الصحابة، ورقى الصحابة أيضًا، رقى بعضهم بعضًا، وهذا امتثالًا لقول النبي ﷺ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»[(٣)] فالرقية بالقرآن وبالأدعية النبوية الواردة، فيها الشفاء بإذن الله، فهي سبب ينفع الله جل وعلا به.

والقرآن فيه الشفاء للمؤمنين ولكن الظالمين لا يزيدهم إلا خسارًا.

أيها المؤمنون: لأجل هذا شاع في الناس بكثرة من يرقي الناس ومن يتلو عليهم القرآن وينفث عليهم طلبًا لشفائهم ورغبة في ذلك. وهؤلاء الذين يرقون الناس بالقرآن وبالأدعية على ثلاثة أصناف:

منهم من يرقيهم وهو عالم بأمر الله عالم بشرعه عالم بمسألة الرقية وما تؤول إليه من الخير أو ما قد تؤول إليه من الشر.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٥٩) وابن ماجه (٣٥١٠) وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (٢١٨٥، ٢١٨٦).
(٣) رواه مسلم (٢١٩٩).

والصنف الثاني: صنف جاهل لا يعلم أحكام الرقية ولا ما يرقي به الناس ولا ما تـؤول إليـه الرقيـة. إذا رقـى تجـده يخـوض غمـرة ذلـك بجهلـه وإعراضـه عـن اتبـاع طريقـة العلماء في ذلك.

والصنف الثالث: من هو مشعوذ يتبع أساليب المشعوذين في القـراءة. يـوهم أن قراءتـه بالقرآن وبالأدعية، وهو في الحقيقة يستخدم طرقًا غير مشروعة. منهـا أن يسـتخدم الجـن في رقيته في إعلامه بحال هذا المريض. وفي إخباره ما حصل له ونحو ذلك. فتجده يبذل للجـن بعض ما يُسرّ به الجن ويستمتعون به لقاء ما يخبره به الجن.

وهذا الصنف من الناس من صنف المشعوذين، من صنف الـذين يرقـون برقيـة محرمـة؛ لأنهم في ذلك استخدموا طرقًا ليس عليها دليل من الكتاب والسنة، وقد انتشر القراء في هـذا الزمان وكثروا جدًا؛ حيث إن الذين يرقون كانوا في الزمن الماضي قليلين ولا يرقي إلا الواحد بعد الواحد من قلتهم.

وفي هذا الزمان تجد بعض من قلّت بضاعته من هذا العلم ومن فقه القرآن وتفسيره، قـد أصبح من القراء المشهورين والناس يأتون إليه أسرابًا إثر أسراب يطلبون رقيته بذلك، مع أن الرقية تحتاج إلى علم وتفتقر إلى الدراية، وليس الزمن القصير بكاف لتعلم ذلك، لهذا كثـرت الأخطاء في هذا الباب والله المستعان.

وقد قال شيخ الإسلام ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتـاب النبـوات: (إن نـور العلـم والإيـمان والتوحيد إذا انتشر في أرض ضاق معه وجود الشيطان ووجود الجن الـذين يسـتفيدون مـن الناس ويستفيد الناس منهم؛ فإن الرقية السبيل إلى ذلـك، ولهـذا نـور العلـم والإيـمان، نـور التوحيد إذا نتشر في بلاد الله كان مغنيًا عن ذلك، والجن والشياطين إنـما ينتشـرون في الـبلاد التي يضعف فيها نور القرآن والسنة).

واعتبر ذلك وانظر إليه في بلاد الله المختلفة تجد ذلك جليًا، وأكثر الناس طغيانًـا فرعـون كيـف كانـت أرضـه ينتشـر فيهـا السـحرة الـذين يسـتخدمون الجـن كـأعظم مـا يكون من الاستخدام.

وعندما ضعف أمر التوحيد في قلوب الناس ضعفت حقيقة التوكل على الله، حتى غدا التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ضعيفًا فظهر في الناس ما ظهر من أنواع الخروج عن العلم في باب الرقية.

انظر إلى حال كثير من البيوت كيف إذا ظهر في البيت شيء غريب ظن الناس أن هذا من الأمراض، فصار النساء يذهب بعضهن إلى كل من سمعت بأنه قارئ يقرأ سواء كان من أهل العلم المشهود لهم أو كان من الجهال، المهم أنه يذكر اسمه وأنه قارئ، وبعض النساء يذهبن إلى كاهنات ومشعوذات أو إلى مشعوذين وبعض أولئك القراء قد يتعدون حدود الله وينتهكوا ما حرم الله، حين يرقي من رؤية النساء ومن الخلوة بهن، ونحو ذلك ما قد يستنزل غضب الله وغيرته وسخطه.

لهذا لا ينبغي للرجل أن يتسامح لنسائه بالذهاب إلى كل من قيل عنه راقٍ، لا سيما بدون محرم، وعليه أن يكون في ذلك ذا قوامة على أهله، وأمراض النفس والعين والسحر علاجها يكون بالقرآن، وتلاوته وتدبره، مع الذكر والابتهال والدعاء، وذلك في متناول كل مسلم.

أيها الناس: لا تنفروا ملائكة الله من بيوتكم، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ أو صورة»(١) فانظر إلى ما شاع في الناس من انتشار الصور المحرمة في بيوتهم ومن تعليق الصور على الجدران، والملائكة ملائكة الحفظة ملائكة الرحمة تفر من البيت الذي فيه الصورة، وإذا فرت الملائكة دخلت الشياطين فعاثت بالناس، والله جل وعلا حمى الإنسان بالملائكة الحفظة قال جل وعلا: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١]. يعني الملائكة تحفظ ابن آدم مما قد يصيبه حتى إذا أتى قدر الله خلوا بينه وبين ذلك.

عباد الله: لقد قلّت أو ضعفت أو انعدمت تلاوة القرآن في البيوت، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة؛ لأنه لا مكان له في مكان تقرأ فيه سورة البقرة. فكم تقرأ سورة البقرة فينا من بيت؟ من يقرأ في بيته هذه السورة التي أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة؟

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٨) ومسلم (٢١٠٦).

إن الشيطان يفر من المؤمن الذي يديم الاستعاذة بالله، يديم الأوراد، يديم الذكر لأن القلب إذا خلا من ذكر الله تسلط عليه الشيطان وكان بيتًا للشيطان. وأما إذا عمر بذكر الله فرت الشياطين فإن الشيطان وسواس ولكنه خناس، قال المفسرون: (إذا ذكر الله خنس، وإذا غفل العبد أقبل). فكم منا من يتلو الأوراد ويستعيذ بالله من شر الشياطين عند إقبال الصباح وإقبال المساء، وهي فترات انتشار الشياطين.

إن الرقى مشروعة، وأكمل الرقى أن يرقي العبد نفسه متوكلا على الله عالمًا أنها سبب، وأن الله جل وعلا هو الذي أمر بهذا السبب، وأن القرآن شفاء، إذا أذن الله بذلك فليكن كل منا متوكلًا على الله راقيًا نفسه، راقيًا أهل بيته، ولا يجوز أن يتساهل الناس في هذا الأمر بأن يأذنوا لمن يرعونه بأن يذهبوا إلى من هب ودب ممن يرقون؛ لأن كثيرين منهم ليسوا على الطريق الصحيح، وقد يزيدون الطين بلة والمرض تفاقمًا.

والانتفاع بالرقية أكثر ما يكون من جراء أن يرقي أولياء الله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣]، وليحذر الناس أن ينتشر هذا الأمر من الذين يرقون على خلاف السنة ومن الذين يستخدمون الجن ومن الكهنة والمشعوذين والعرافين ممن يدعون ما ليس لهم به علم من أمور الغيب.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المؤمنين من كل ذنب فاستغفروه حقًا، وتوبوا إليه صدقًا إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد بن عبد الله، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وعليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة، وعليكم بلزوم التقوى في سركم وعلانيتكم؛ فإن بالتقوى رفعة مقامكم عند ربكم، فـ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]..

أيها المسلمون: العين حق، فربما نظر العائن إلى شخص فأصابه إذا لم يكن مترسا بالأذكار المانعة بإذن الله من الأذى فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخَزَّارِ من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان رجلا أبيض حسن الجسم والجلد فنظر إليه عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يغتسل فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبَّأَةٍ فَلُبِطَ سهل فأتي رسول الله ﷺ فقيل له يا رسول الله هل لك في سهل والله ما يرفع رأسه وما يفيق قال: «هل تتهمون فيه من أحد» قالوا نظر إليه عامر بن ربيعة فدعا رسول الله ﷺ عامرا فتغيظ عليه وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟» ثم قال له: «اغتسل له» فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ثم صب ذلك الماء عليه فراح سهل مع الناس ليس به بأس[1].

فإذا كان العائن معلوما فيطلب منه الاغتسال ويصب الماء على المعيون ويجب علي العائن الاغتسال ويحرم عليه الامتناع لإمر النبي ﷺ العائن بالاغتسال. والأصل في الأمر الوجوب وإذا أخذ من ملابس العائن التي تلي جسده وغسلت بماء واغتسل به المعيون نفعت بإذن الله لأمر النبي عامر بن ربيعة بغسل داخلة إزارة وهي طرف الإزار مما يلي الجسد، وإذا كان العائن غير معروف يرقى المعيون، فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال

(١) رواه الإمام أحمد (١٥٥٥٠) وغيره بإسناد حسن.

لأسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعة تصيبهم الحاجة»؟ قالت لا، ولكن العين تسرع إليهم. قال: «ارقيهم»[1].

أيها الناس: إن الرُّقية الشرعية تطبيقًا وعلاجًا تستوجِبُ استِنفار الهِمَم، وتبرِئَة الـذِّمَم في سائر الأقطار للضبط والتأصيل، والبيـان والتفصـيل، تحـت مِظلَّـةٍ راسِـخةٍ علميـة، مكينـةٍ رسمية، تنطلقُ بهذا العلم الدوائي إلى معارِج النور والانتفاع، والتألُّق والشفاء، حفظًا للأفراد والمجتمعات، وغيرةً لجانب العقيدة العتيدة، وحِيَاض الشريعة البديعة الفريدة. لـئلا يـدخل فيها من ليس من أهلها ويستعملها من لا يتقنها.

وإن مما ينطوِي عليه حِفظُ جَنابِ التوحيد: التنويهُ بآثار اليقين المتين الذي لا تشرَفُه أوهامُ التطيُّر والعرَّافين، والكَهَنة والدجَّالين، ومن سلَّط على نفسه المُعتقَدات الباطلة، وتشـاءمَ مـن الشهور والأيام، والطيور وأضغاث الأحلام، وتعلَّق بالنجوم والمطالع والأبراج، بزعمِ دفـعِ المكروه والانفِراج؛ فقد عَبَثَت به الشياطين، ويُخشَى على دينه من رَنَقٍ كمـين، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧].

فجلَّ الله وتقدَّسَ في عُلاه، لا رادَّ لما قضاه، ولا مُؤثِّر في الكائنات سِواه.

وكيف تتهاوى العقول إلى هذا الحضيض مـن اللامعقـول في عصـرِ الارتقـاءِ العلمـي، وتفتُّكِ العقل البشري، والتفجُّر المعلوماتي؟! سُبحانك ربَّنا!

أمة القرآن: إن الأدواء المعنوية العالمية لا تقلُّ أهميـةً عـن الفرديـة والمُجتمعيـة، فيـا أمـة الاستشفاء بالقرآن: أنتم أطباء المُعضِلات والأسقام، أنتم بقرآنكم الحَكَمُ المَرْضِيُّ لكل اعتلالٍ مَرَضيّ، تحمِلون للعالَمِ المُثخَن بالجِراح والأتراح الدواء الشافي، وتُضمِّدون عِلَـل الاحـتراب بالترياق الكافي، وتجمعوا بين الدواء العضوي الطبـي، والشـفاء القـرآني، وذلـك لا يجتمـع لغيركم إن أنتم أخذتم بالأسباب وتوكلتم على رب الأرباب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

---

(١) رواه مسلم (٢١٩٨).

هذا واعلموا رحمني الله وإياكم أن الله جَلَّجَلَالُهُ أثنى على الذين يتبعون أمره. وأمر بالصلاة على نبيه فقال جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وارض اللهم عن الأربعة الخلفاء، الأئمة الحنفاء الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وعنا معهم بعفوك ورحمتك يا أرحم الراحمين.





القرآن نور الأنوار

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أنزل كتابه الكريم هدى لِلْمُتَّقين، وعبرة للمعتبرين، ورحمة وموعظة للمؤمنين، ونبراسًا للمهتدين، وشفاءً لما في صدور العالمين؛ أحمده تعالى على آلائه، وأشكره على نعمائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحيا بكتابه القلوب، وزكَّى به النفوس، وهدى به من الضلالة، وذكَّر به من الغفلة، وأمر فيه بالتقوى، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الإخوة المؤمنون: حديثنا عن منبع الهداية ومعلم النور، الذي به حياة القلوب، وسكينة النفوس، ورشد العقول، واستقامة الجوارح، وطيب الحياة الدنيا، ونجاة الحياة الآخرة.

كتاب الله سبحانه وتعالى كلامه العظيم، حكمته البالغة، شريعته النافعة، ذلكم في سياق حديثنا عن المبادئ التي هي أعظم أسباب القوة، وأول أسباب النهوض، وعندنا مبادئنا وعقائدنا وشرائعنا مصدرها الأول ومنبعها الأعذب، كتاب الله سبحانه وتعالى.

وقفنا لننظر ما السر في نكوصنا وهزائمنا وضعفنا، رغم ثبات مبادئنا ورسوخ عقائدنا، وحفظ كتابنا، ذلكم أن الصلة بيننا وبينه، وأن الأمر المطلوب منا له، ومعه، وبه، وفيه، يشهد

نقصًا عظيمًا، وخللًا كبيرًا. إن المهم الذي ينبغي أن نحرص عليه، والواجب الذي نركز فيه، هو الفهم لكتاب الله واليقين بما جاء فيه.

ونحن لا نزال في حاجة ماسة إلى قضية الفهم والتدبر، حتى نأخذ منها حظًا وافرًا، يقودنا إلى قوة اليقين، وعظمة الاعتقاد بكل ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى من غير شك ولا اضطراب، ومن غير حيرة ولا تردد، الفهم والتدبر، والخشوع والتأثر، والخضوع والتمثل، هذه الثلاثة مدخلها الفهم والإقبال على القرآن إقبالًا صحيحًا، فهمًا يقود إلى تدبر، وخشوعًا يقع به التأثر، وخضوعًا واستسلامًا يقع به الاستجابة والتمثل لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الفهم والتدبر فآياته وأحوال رسول الله ﷺ وصحابته فيه عظيمة.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

والتفكر في آياته المسموعة وآياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليُتدبر ويتفقه فيه، ويُعمل به، لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه، كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما مسألة الخشوع والتأثر، فنستمع إلى آية من كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

ووصف الله عَزَّوَجَلَّ للمتأثرين الخاشعين بقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء:١٠٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن خشوع القلب للقرآن واجب، ولابد أن نستحضر ذلك الوصف الذي وصفته أسماء في المتفق عليه، عندما قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تليت عليهم الآيات، كان وصفهم كما جاء في كتاب الله، تدمع أعينهم، وتخشع قلوبهم، تصديقًا لما جاء في هذه الآيات العظيمة).

وأما الخضوع والتمثل، فهو الغاية النهائية، الاستجابة الحقيقية، الامتثال الصادق، يقول فيه جل وعلا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

الخشوع الحقيقي هو الانقياد للحق، ومن موجبات الخشوع الاستجابة والعمل، وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال النبي ﷺ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة، وأهله الذين

كانوا يعملون به، تقدمه البقرة وآل عمران». ثم وصفهما النبي عليه الصلاة والسلام وقال: «تحاجان عن صاحبهما»(١).

وشاهدنا قوله: «وأهله الذين كانوا يعملون به»، أولئك هم المنتفعون، أولئك هم المستحقون لشفاعة القرآن، أولئك الذين حييت به قلوبهم، وقويت به عزائمهم، ورشدت به عقولهم، واستقامت به أحوالهم، وكان حكمًا فيما بينهم، وفصلًا فيما يقع منهم من خلاف، تصديقًا لكتاب الله سبحانه وتعالى.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه، فإنه قد حمل أعباء الرسل، وصار شهيدًا في يوم القيامة على أهل الملل).

ليس أمرًا هينًا كلام الله عَزَّوَجَلَّ، كتابه وهدايته الأخيرة للناس، الذي تكفل بحفظه، فلذلك ينبغي أن يكون هذا هو الأصل الذي نتعامل به مع القرآن، حتى يحدث في نفوسنا أولًا التأثير المنشود، ثم يفيض على قلوبنا ومن قلوبنا ونفوسنا إلى واقع حياتنا، لنتحرك به ولنحرك به واقعنا، ونقوِّم به اعوجاجنا، ونستدرك به نقصنا، ونكمل به ما وقع من خلل في حياتنا، وذلك هو التأثير المنشود، الذي عندما فقدنا كثيرًا منه، ظل القرآن في حياتنا كأنما هو غائب شاهد، وكأنما هو قد عطل في واقع نفوسنا وقلوبنا، فتعطل في واقع حياتنا وأحوالنا.

وذلك ما كان أصحاب النبي ﷺ يحذرون منه، ويستحضرونه دائمًا، روى الإمام أحمد في كتاب الزهد، عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو من أرق الصحابة وأكثرهم مواعظ، كانت مواعظ قلبه تفيض على لسانه، فإذا بها تلج إلى القلوب وتؤثر في النفوس، يقول في معاني الصلة بالقرآن الكريم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: «أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: يا عويمر: أعلمت أم جهلت؟! قال: فإن قلت: علمت، لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها، الأمر هل ائتمرت؟! والزجر هل ازدجرت؟! وأعوذ بالله من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع».

---

(١) رواه مسلم (٨٠٥).

هكذا كانت قلوبهم ونفوسهم، هكذا أدركوا أنه لابد من فهم وتدبر، يحصل به خشوع وتأثر، ينطبق ويليه استجابة وتمثل، وذلك الذي نحتاج إليه، ولعلنا هنا ونحن نريد أن نيسر الأمر على أنفسنا، وأن نعين أنفسنا على أن نبلغ مثل هذه الغايات، سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه الملهيات، وعظمت فيه المشغلات، وكثرت فيه الفتن، وتعاظمت فيه المحن، وصرفت القلوب بالشهوات، وضلت العقول بالشبهات إلا من رحم الله، أفلسنا في حاجة إلى عصمة نعتصم بها، وإلى ملجأ نلجأ إليه، فأي ملجأ أعظم من الله؟! وأي عصمة أعظم من عصمة كتاب الله؟! وأي نور يبدد الظلمات أعظم وأقوى وأبلج من نور الله عَزَّوَجَلَّ، ونور كلامه سبحانه وتعالى؟! كم نحن في حاجة ماسة إلى أن نعيد القول، ونردده ونكرره ونزيده في مثل هذه المعاني، ومهما زاد فإنه قليل؛ لأن البون شاسع، والهوة سحيقة، والفرق عظيم وهائل بين ما تنزلت به الآيات، وما دعت إليه الشريعة، وما هو واقع في الحياة، بل ما هو مستقر في القلوب والنفوس.

ولعلنا هنا نذكر بعضًا بما يعيننا على ذلك، ويؤدي بنا إليه في خطوات ميسورة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأننا لا نريد أن نلقي القول على عواهنه، ولا نريد أن يكون حديثنا مجرد كلمات عظيمة أو ضخمة أو بليغة، أو ربما يكون فيها شيء من التعظيم والتأثير المؤقت، الذي لا ينبني عليه عمل، ولا نخرج به إلى تغيير واقع، ولا نبدأ فيه في تغيير أحوالنا، علّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يتداركنا برحمته، ويغير إذا غيرنا ما في نفوسنا وما في واقعنا، كما وعدنا الحق جَلَّجَلَالُهُ.

خطوات: أولها: حسن الاستماع والإصغاء لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كم نسمع من نشرات الأخبار؟! كم يسمع كثيرون من المعازف والأغنيات؟! وكم نسمع من الأخبار والأحوال والأقوال، وكل ذلك يصب في قلوبنا كدرًا يخلط صفاء الإيمان، وظلمة تطفئ نور اليقين، وأحوالًا تقسو بها القلوب؟! كم نسمع من غيبة ونميمة؟! كم نسمع من لعن وشتيمة؟! أليس لنا حظ نطهر به القلوب، من إصغاء يفيض على قلوبنا الخير والنور والهدى والتقى؟! كم نستمع قبل أن نتلو؟! كم نستمع من الآيات والقرآن؟ ونستطيع أن نسمعه إذا واظبنا على الصلوات في الجماعات، وهو يتردد في المحاريب آناء الليل وأطراف النهار.

ما حظ آذاننا من هذا الإصغاء، وما حظ قلوبنا من هذا الإصغاء، حسن الاستماع هو الأول والمبدأ والفاتحة والبداية، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]، وتأمل بلاغة القرآن المعجزة: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾ [الزمر:١٨] وليس يسمعون، فالاستماع أعظم من السماع، السماع كلام عابر يمر على أذنك، تكون سائرًا في طريقك، فهذا يتكلم لقد سمعته، لكنك لم تستمع له، لم تلقِ له بالًا، لم تعطِه أذنًا واعية، لم تعطِه قلبًا حاضرًا، فذلك أمر آخر، إنما المقصود الاستماع الذي تتوجه له بكليتك، وتقصده بعنايتك، وتفرغ له من وقتك، وتهيئ له نفسك، وتستحضر له كل الأسباب التي يقع بها أثره.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]، والفاء للتعقيب السريع، إن كان استماعًا حقيقيًا فثمة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ استجابة صادقة، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]، والله سبحانه وتعالى أمرنا بذلك، وبين أنه سمة هدايته: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:١٨].

والحق جل وعلا يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

وكذلك تأمل: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف:٢٠٤]، ثم حينئذٍ تتنزل الرحمة، وتغشى النفوس والقلوب، ونرى حينئذ آثار الخشوع والسكينة، والتدبر والتأمل، عندما نحسن هذا السماع والإصغاء.

ومن كلام وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور القلب، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى).

ومن كلام سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر)، فما أحرانا أن نبدأ بهذا، وهذا ليس لأحد فيه عذر، حتى الأمي الذي لا يقرأ، عنده فرصة سانحة لينهل من هذا الكتاب العظيم، المشغول الذي لا يفرغ، ليست له حجة، عنده وقت في سيارته، عنده وقت وهو مستلقٍ على فراشه، أن يستمع هذه الآيات، عنده وقت لأن هذه الأسباب قد توفرت وتيسرت، لكنها الصوارف المشغلة، لكنها الاهتمامات المنافسة، لكنها الدنيا التي استولت على قلوب الناس إلا من رحم الله.

الثاني: حسن النية: وقد أخرتها وحقها التقديم، لننظر أنها فاعلة فيما قبلها وبعدها، ونعني بذلك أن نُقبل بصدق، وأن نستمع، وأن نتلو، وأن نتعلق بالقرآن في كل أحواله وأحوالنا معه، بنية خالصة، بنية نبتغي بها وجه الله تعالى، بنية نتلمس بها علاج أدواء قلوبنا، وبرء علل نفوسنا، وذلك ما نحتاج إليه، نحتاج إلى هذه النية الخالصة حتى تتحقق لنا النتائج المثمرة، فإننا نعلم أن كل أمر وعمل بلا إخلاص لا ثمرة له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (العمل بلا إخلاص كالمسافر يملأ جرابه رملًا، يُثقله ولا ينفعه، يحمل حملًا كثيرًا لكنه تراب، ليس له منه إلا ثقل الوزن دون النفع والفائدة)، ومن هنا قال القرطبي: (إذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه بنية صادقة، ما الذي يحصل له؟! عامله الله سبحانه وتعالى بما يحب الله له، أفهمه كما يجب، وجعل له في قلبه نورًا).

ومن كلام ابن تيمية: (من تدبّر القرآن طالبًا الهدى منه، تبيّن له طريق الحق، والله عَزَّوَجَلَّ قد وعد من أقبل، أقبل الله عليه، ومن صدق وأخلص، أثاب الله عليه، ومن تجرد لله سبحانه وتعالى أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ بقدر إخلاصه). ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وذلك أمر نحتاج فيه إلى مجاهدة نفوسنا.

والثالث: حسن التلاوة: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:٤]؛ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(١)، كما أخبر المصطفى ﷺ فيما رواه البخاري. قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (اعلم أن التلاوة أفضل الأذكار، ليس هناك شيء أفضل من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وأفضل ذكر الله كلامه سبحانه وتعالى، وتلاوة كتابه، فما بالنا كذلك منقطعين عن ذلك إلا نزرًا يسيرًا، نقرؤه بلا روية، وبلا حسن ترتيل، وبلا استحضار معانٍ، كما ينبغي أن يكون الأمر).

ولذلك قال العلماء: (المطلوب شرعًا إنما هو تحسين الصوت، الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد والطاعة). كما ذكر ذلك ابن كثير، ومن هنا قال النووي: (الترتيل مستحب للتدبر ولغيره)، فكم حظنا من ذلك؟! وقد أشرنا من قبل إلى أنه

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧).

ينبغي أن لا ننقطع عن هذا، وأن يكون لنا حظ من تلاوة متأنية، نحيا بها، ونحيا فيها، ونحيا معها، ونستعيذ الله سبحانه وتعالى في أولها، لتنصرف عنا شرور الشياطين، ومضلات العقول، وصوارف النفوس الأهواء: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل:٩٨].

وذلك كله تهيئة للمقصد الأعظم، من بعد في حسن التفكر والتدبر، الذي لا يمكن أن يكون إلا بمثل هذه الأمور السابقة، وهو أمر عظيم وخطواته كثيرة، ونحن نشير إلى قليل، حتى يكون عونًا لنا، ونسأل الله أن لا يكون حجة علينا:

اجعل لنفسك حظًا من تلاوة على الصفة السابقة، في الأوقات التي تستحضر فيها فكرك، وتحيي فيها قلبك، بعيدًا عن الناس، وعن دنيا الناس، وعن شواغل وصوارف الدنيا.

وأفضل ذلك الليل؛ أوله وأوسطه وآخره، في أي وقت منه، عندما تخلد إلى بيتك، وتسكن إلى راحتك، وتنعزل وحدك، اجعل أنيسك كتاب الله، فإن هذه التلاوة أعظم ما يفيض بها على قلبك النور والهدى، وعلى عقلك الفهم والإدراك بإذن الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦]. قالوا: هي أشد مواطأة بين القلب واللسان، يتفق القلب مع اللسان ويندمج معه، ويكون معه؛ لأنه لا صوارف تصرف، ولا شواغل تشغل، فحينئذ يكون الأثر أعظم، والطريق إلى التفكر والتدبر أيسر بإذنه سبحانه وتعالى، ومدارسة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لسيد الخلق ﷺ إنما كانت في الليل، وفي ليالي رمضان العظيمة، لماذا؟! لهذا المعنى الذي تشير إليه هذه الآيات العظيمة، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (المقصود من التلاوة الحضور والفهم، ومظنته الليل؛ لأن الليل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية، وكم في هذا من أثر عظيم).

ثم كذلك أمر آخر: الوقوف مع دلالات الآيات، كما روى حذيفة عن سيد الخلق ﷺ عندما قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح

آل عمران، يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ»[1].

أحضر ذلك في نفسك وطبقه عندما تتلو، كلما مر تسبيح سبح، كلما مر وعد اسأل الله عَزَّوَجَلَّ، فإن ذلك يعين على ولوج هذه المعاني، وتعلُّق القلب بها، وحياة النفس معها، وذلك ما كان يفعله النبي ﷺ، كما روى ذلك كثير من أصحابه -رضوان الله عليهم-، ومن المعين على ذلك استحضار أحوال النزول، وذلك عندما نعرف بعض أسباب النزول ونعرف الوقائع.

ألسنا قد مرّ بنا كثيرًا ما جاء من الآيات بشأن غزوة الأحزاب، كيف كان هذا الوصف مؤثرًا، لمن كان عالمًا وعارفًا بهذه الأحداث وما مر فيها؟!

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

عندما نتذكر كيف كان النبي ﷺ يربط على بطنه حجرين من شدة الجوع في ذلك الوقت، عندما نتذكر حادثة حذيفة عندما قال ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة»[2]، فلم يقم أحد من الصحابة، عندما نعرف تلك الملابسات، نعرف كم كان لهذه الآيات من عظمة، ويكون لها في نفوسنا تأثير؛ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

أصحاب النبي في يوم أحد وبعد أحد: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وكثيرة هي الأحوال التي إذا عرفنا شيئًا منها، أصبح للقرآن في قلوبنا أثرًا غير ما نقرأ بلا تمعن ولا فهم ولا معرفة، ولعلنا نستعين على ذلك بأمرين اثنين أختم بهما:

أولًا: استحضار عظمة المتكلم سبحانه وتعالى، فهذا كلام رب الأرباب وملك الملوك، جبار السماوات والأرض، خالق الخلق وواهب الرزق، ليس كلامًا له مثيل في الحياة كلها،

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢).
(٢) رواه مسلم (١٧٨٨).

ليس له نظير فيما تسمعه وتقرؤه من كلام الدنيا وأهلها كلهم، فإذا استحضرت ذلك كان له أثر.

الأمر الآخر وهو: استحضار عظمة الخطاب، إنه خطاب لك، إنه كما قال الحسن: (رأوها رسائل من ربهم، كانوا يتفكرون بها ويتدبرونها بالليل، وينفذونها ويعملون بها في النهار).

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا حسن الفهم لكتابه، وحسن العمل بأوامره ونواهيه، ونسأله أن يحيي به قلوبنا، ويرشد به عقولنا، ويحسن به أحوالنا. أقول هذا القول، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين.

أما بعد:

أيها الإخوة المؤمنون: أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله، فإن تقوى الله أعظم زاد يقدم به العبد على مولاه، فاتقوا الله في السر والعلن، واحرصوا على أداء الفرائض والسنن، واجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإن ثمرة مثل هذه الخطوات، نراها في سيرة النبي ﷺ، وسيرة أصحابه، أذكر بعضًا منها في هذه الومضات.

أولها: الاستجابة الدائمة ليست المؤقتة ولا العارضة، ولا التي تنشأ عن تأثير محدد، بل دائمًا، يكون حينئذ هذا الإنسان المؤمن قرآنيًا كما كانت عائشة تقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ليس في قولها: «كان خلقه القرآن»، فإن هذا معروف، ولكن قالت: «ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[(١)] لأنه جاءه الأمر فسبح بحمد ربك واستغفره، فجعلها النبي ﷺ في صلاته.

وروت عائشة قالت: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن». يعني: أن يطبقه ويمتثله.

ثانيًا: الاستحضار للاعتبار، إن هذه الخطوات تقودنا إلى هذا الاستحضار، الذي يقع به الاعتبار، ومثل ذلك في قصة أبي بكر وعمر يوم خرج هذا وخرج ذاك فلقيهما رسول الله ﷺ فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟!»، قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما». رسول الله يخرج من بيته من شدة الجوع، يلقى صاحبيه جائعين، يمضي إلى رجل من الأنصار فلا يجده في بيته، ثم يأتي الأنصاري فيفرح بهذه

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦٧) ومسلم (٤٨٤).

الغنيمة، برسول الله ﷺ وصاحبيه رضوان الله عليهما، فيذبح لهم، ويستعذب لهم الماء، فيأكلون وجبة شهية هنية، فيقول النبي ﷺ والقرآن حي في قلبه: «والذي نفسي بيده، لتسألنّ عن هذا النعيم يوم القيامة»(١). نعيم يوم عابر، مر بعد جوع شديد، ومع ذلك استحضر النبي ﷺ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨].

لم تغب عنه الآيات، لم تغب عنه ذكراها، لم تغب عنه موعظتها، وإن كانت الحالة عابرة، فكم نحن في حاجة إلى مثل هذا، إذا أخذنا بذلك والعودة بعد الغفلة.

مثلها قصة أبي بكر، لما أوقف نفقته على مسطح بن أُثاثة عندما تكلم في عائشة مع المتكلمين، وخاض مع الخائضين، فقال أبو بكر: «والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا»، فتنزلت الآيات: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢].

قال أبو بكر: «بلى والله أحب أن يغفر الله لي، فأعاد النفقة وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا»، تلك القلوب العائدة، تلك القلوب المتذكرة، تلك الراجعة إلى الحق والآخرة، المرتقية إلى ذرا المعالي، عندما يحيا القرآن في قلوبها، كلنا نعرف قول الحق جل وعلا: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٢].

نقرأ الآية مرارًا وتكرارًا، نرددها في صلواتنا، أي شيء أحدثت في واقعنا؟!

أنس يروي عن أبي طلحة، وكان من أثرياء الصحابة، وكان له بستان قبالة مسجد رسول الله ﷺ اسمه (بيرحاء)، فيه شجر كثير وماء عذب، لما نزلت الآية، تحركت في نفسه معانيها، اشتاقت إلى ثوابها نفسُه، فجاء إلى رسول الله: إن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها -يا رسول الله- حيث أراك الله، فأثنى النبي وقال: «بخ، ذلك مال رابح»، ثم قال: «أرى أن تجعلها في الأقربين»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).

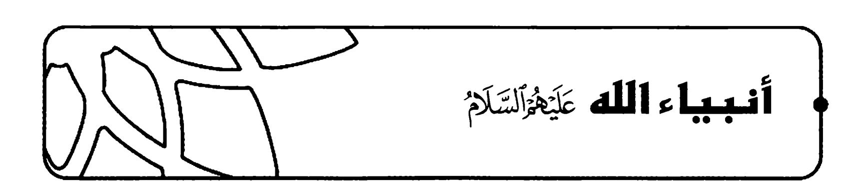
(٢) رواه البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨).

ورواية ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية، بحثت عن أنفس شيء عندي، فكانت له جارية رومية هي نفيسة ومحبوبة لديه، قال: «فأعتقتها لوجه الله، ولو كنت راجعًا في شيء لرجعت فيها، فأنكحتها نافعًا». ذلك الذي كان يحركه إلى المعالي.

فمن منا يسعى لأن يكون القرآن ربيع قلبه؟ من يجعله بوصلة حياته ليوجّه أقواله وأفعاله؟ من الذي يترنم به ويتغنى ويستغني به عن اللهو واللغو؟ من منا يجعله نور قلبه في الدنيا في ظلمات الليالي، ليكون نور قبره في تلك الظلمة الطويلة؟ ألا طوبى لأهل القرآن ثم طوبى لهم..

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يحرك قلوبنا بالقرآن، وأن يقوي به عزائمنا، وأن يرشد به عقولنا، وأن يصلح به أحوالنا، وأن يؤلف به قلوبنا، وأن يجمع به صفوفنا، وأن يقوي به عزائمنا.





أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جَلَّ عن الشبيه والمثيل والكفء والنظير.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله ربه رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، فهدى الله تعالى به من الضلالة، وبصَّر به من الجهالة، وجمع به بعد الشتات، وأمَّن به بعد الخوف، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغُرِّ الميامين، ما اتَّصَلَتْ عينٌ بنظَر، ووعَتْ أذن بخبر، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الإخوة المؤمنون: روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ جلس إليه أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله: هل كان آدم نبيًّا؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم، كان نبيًّا مكلَّمًا»، فقال أبو ذر: يا رسول الله: كم هو عدد الأنبياء؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «هم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا»، قال كم الرسل من بينهم؟! قال: «هم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا»، وفي رواية قال: «ثلاثمائة وخمسة وعشرون رسولًا»(١).

---

(١) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٦٦٩).

هؤلاء الرسل -أيها الإخوة الكرام- اصطفاهم الله جل وعلا واختارهم من خلقه جميعًا ليبلغهم جل وعلا رسالاته حتى يكونوا رسلًا بينه وبين الناس، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج:٧٥]، فجعل الله تعالى الرسالة اصطفاءً واختيارًا منه جل وعلا، لا يملك أحد أن يكون رسولًا من تلقاء نفسه، ولا أن يعترض على أحد من الرسل: لماذا اختاره الله جل وعلا؟!

ولما اعترضت قريش على إرسال نبينا وسيدنا رسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]، وحددوا رجلين كان لهما وجاهة عندهم وعِظَم، هما: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فقالوا: لو كان الله سيبعث نبيًّا وسينزل قرآنًا لأنزله على أحدهما، فكيف يُنزله على رجل نشأ يتيمًا وكان منا ليس في غنى ولا في مال كثير؟! ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١] قال الله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

الرسالة رحمة، الرسالة اصطفاء، لا علاقة لها بالمال والجاه، النبوة رفعةٌ وعِزةٌ يمنُّ الله تعالى بها على من يشاء من عباده، قال الله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [الزخرف:٣٢] ؛ فدل ذلك على أن النبوة هي أرفع من غيرها من الفضائل، أرفع من العِلم، وأرفع من الولاية، وإذا اختار الله تعالى رجلا فجعله نبِيًّا فقد أعَزَّهُ وأعلى شأنه.

والرسل -أيها الإخوة الكرام- قد جعلهم الله تعالى رسلًا بينهم وبين الناس، وأوجب الله تعالى على الناس الإيمان بهم وتصديقهم، والرسل كثير، قد بيّن الله جل وعلا في كتابه عددًا منهم بأسمائهم، فذكر الله تعالى في كتابه خمسة وعشرين نبيًا، منهم من فصَّل الله تعالى قصصهم كما فصل الله تعالى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصة آدم، وقصة عيسى وعدد من أنبيائه -عليهم الصلاة والسلام-، ومنهم من لم يفصل الله تعالى قصته، وإنما ذكر الله تعالى اسمه كما ذكر اليسع وذا الكفل وغيرهما من الأنبياء مِن غير أن يفصل الله تعالى صفاتهم.

وجب علينا الإيمان بهم كلهم، سواء مَن علمنا أسماءهم منهم من الكتاب أو من السنة أو مَن لم نعلم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤]، فدل هذا على أن الله تعالى بعث إلى عدد من الأمم أنبياء كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥].



وربما بعث الله تعالى إلى الأمة الواحدة؛ بل إلى المدينة الواحدة، بل إلى القرية الواحدة أكثر من نبي، كما قال الله جل وعلا لما ذكر في أول سورة يس خبر أولئك الأنبياء: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:١٤].

فبيّن الله تعالى أنها قرية واحدة بعث الله تعالى إليها ثلاثة من الرسل لإنذارهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

أيها المسلمون: أمر الله تعالى بالإيمان بجميع الأنبياء، وهو من عقيدة المسلمين: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥]، لا يجوز أن تؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وتكفر بعيسى أو تكفر بموسى أو بنوح أو بلوط أو بغيرهم.

فالإيمان بنبي واحد يقتضي الإيمان بجميع الأنبياء، كما قال الله جل وعلا عن قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، مع أنهم ما كذبوا إلا نبيًا واحدًا، لكنهم لما كذبوا نبيًا واحدًا كذبوا بجميع رسالات الأنبياء.

وقال الله جل وعلا مبينًا حال قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنهم ما كذبوا إلا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الإيمان بهم جميعًا بأنهم رسل من عند الله جل وعلا، لهم حق الطاعة، لهم حق الاحترام، لهم حق الاتباع، لهم حق التصديق فيما بلغوه عن ربنا جل وعلا.

ذم الله تعالى أهل الكتاب لما كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون بغيرهم، قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة:٩١]، نحن نؤمن بما أنزل علينا، نؤمن بموسى وعيسى ويكفرون بما وراءه فجعلهم الله تعالى كفارًا بجميع الأنبياء.

الأنبياء -أيها المسلمون- فضّل الله تعالى بعضهم على بعض، فقال الله جل وعلا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ويجوز أن تقول: إن أولي العزم هم أفضل الرسل، لكن لا يجوز أن تقول ذلك على سبيل التنقُّص من غيرهم، فإذا قلت مثلًا: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضل من فلان من الأنبياء جاز ذلك

إن كنت تقصد أن موسى من أولي العزم وأنه نبي مكلم، لكن إذا كنت تعني تنقُّصًا لذلك النبي أو أن ذلك النبي قصّر في رسالته فهذا لا يجوز، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تخيّروا بين الأنبياء»(١)، يعني: لا تقولوا: هذا خيرٌ من هذا، حمل أهل العلم الحديث على أنه إذا كان على سبيل التنقص للنبي الآخر.

أيها الناس: لقد جعل الله تعالى للرسل أحسن صفات البشر، فأجمع أهل العلم على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن ربنا جل وعلا، فلا يمكن أن يبلغ إلا الحق، ولا يمكن أن يغير ولا أن يبدل، فإذا أوحى الله تعالى إلى أي رسول بوحي فإن الله تعالى يعصمه من النسيان، يعصمه من الخطأ فيما يتعلق برسالته.

فهم معصومون فيما يبلغونه عن ربنا جل وعلا، وهم أيضًا صادقون فيما يخبروننا، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

فلا يمكن أن يُتهم نبي بأنه يكذب فيما يدعو إليه أو فيما يبلغه عن ربنا جل وعلا، ولما أقبل رجل إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقال: يا محمد: اعدل؛ فإنك لم تعدل. غضب النبي ﷺ؛ وذلك لأن الرجل اعترض على قسمة قسمها النبي ﷺ في مال لم يأخذ لنفسه منه شيئًا، وإنما قسمه على أصحابه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يأمنني أهل السماء ولا تأمنونني؟!»(٢). الله يأتمنني على رسالته، الله يأتمنني أن لا أزيد ولا أنقص، الله يأتمنني على أن أحكم بالقرآن فأعدل، وأنت لا تأتمنني على دريهمات قسمتها بينكم؟!

الرسل بلغوا كل الرسالة بأمانة وصدق، كما قال الله جل وعلا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال لقومه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:٦١-٦٢].

كل الرسل بلغوا الرسالة تامة كاملة من الله جل وعلا، ولم يكتم رسول منهم أبدًا خبرًا واحدًا أمره الله تعالى ببلاغه.

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٢) ومسلم (٢٣٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٣٥١).

وقال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، يعني نبينا وسيدنا رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، بلغ الناس ما نزل من ذم في اليهود والله يعصمك منهم، بلغ الناس حرمة الربا والله يعصمك من أذى المرابين، بلغ الناس بحرمة الزنا والله يعصمك من أذى المتعلقين بالزنا، بلغ الناس حرمة السرقة والله يعصمك من أولئك اللصوص، فلا يضرونك بتبليغك: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

فمن جاء بعد ذلك من أهل الضلال وأهل الانحراف وأهل الزيغ والفجور، وزعم أن نبينا وسيدنا رسول الله ﷺ كتم شيئًا من الرسالة يتعلق بصحابي معين، سواء كان من عامة الصحابة أم من الخلفاء الراشدين، أم من آل البيت أم من غيرهم، أو زعم أن نبينا ﷺ كتم شيئًا من القرآن ولم يبلغه فقد كذب بهذه الآية، وكذب بقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]. فإذا كان عليه الصلاة والسلام قد بلغ البلاغ التام وجب علينا أن نأخذ بكلامه جميعه -صلوات ربي وسلامه عليه-.

أيها المسلمون: وجعل الله تعالى في الرسل شجاعة في قول الحق، فيهم شجاعة في سيادة الناس، فيهم شجاعة في الثبات على مبادئهم، فيهم شجاعة في مواجهة الفتن، فيهم شجاعة في القتال والجهاد في سبيل الله. ألم تسمع ما ذكره الله جل وعلا عن نبيه إبراهيم حين أُلقي به في النار فلم يتوان ولم يتراجع ولم ينكص ولم يضعف؟ ألم تسمع ما ذكر الله عن نبيه هود عليه السلام؟! لما هدده قومه وقف عليه السلام أمامهم وقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٥]؛ ذلك لما قالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود:٥٣-٥٤] ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود:٥٤] استمعوا للشجاعة ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ [هود:٥٤-٥٥]، أتحداكم! ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٥]، لا تتأخروا في كيدكم؛ فأنا شجاع معتمد على الله، واثق به: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦].

يقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ».

وفي معركة حنين لما تقدم الصحابة مع رسول الله ﷺ إذا بمالك بن عوف وأصحابه قد كمنوا لهم واختبؤوا بين صخور في أعلى وادي حنين، فلما دخل جيش المسلمين، وكانوا اثني عشر ألفًا، فإذا بهم يُمطرونهم بالنبل، فيتولى جميع الجيش إلا رسول الله ﷺ وتسعة من أصحابه. فإذا به عليه الصلاة والسلام يتقدم ويقول: «أنا النبي لا كذب»، أنا ما جئت أفتري، أنا ما جئت أفتح دياركم أبحث عن عز لقومي ولا شرف لمجدي ولا علوّ لذاتي، «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»(١)، إنه والله موقف تقشعر منه الأبدان، فلقد ثبت عليه الصلاة والسلام ثبات الجبال، ليكون ذلك برهان على أنه ليس بمُدَّعٍ ولا أفاك، عليه الصلاة والسلام.

وأحسَنُ منك لم ترَ قطُّ عيني ... وأجْمَلُ منك لم تلِدِ النساءُ
خُلِقْتَ مُبرَّأً مِن كُلِّ عيبٍ ... كأنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تَشَاء

لم يكن أحد من المرسلين خوارًا ولا جبانًا ولا موليًا دبره إذا حضر عدوه، كلا؛ بل كانوا شجعانًا، أبطالًا، خصهم الله تعالى بخصائص الكمال في البشر.

أيها المسلمون: هؤلاء هم رسل الله تعالى، الذين أمرنا باحترامهم وتقديرهم ومعرفة مكانتهم، لقد اصطفاهم الله تعالى واختارهم على علم سابق منه جل وعلا بصلاحهم وسلامة صدورهم، ومناسبتهم ليكونوا رسلًا بينه وبين عباده.

فصلّى الله على نبينا، وصلى الله على جميع أنبياء الله ورسله ما ذكرهم الذاكرون الأبرار، وصلى الله وسلم على نبينا وعلى أنبياء الله ورسله ما تعاقب الليل والنهار، وأسأل الله أن يجعلنا من زمرتهم، وأن يحشرنا يوم القيامة في صفهم.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه وتوبوا إليه؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣٠).



الخطبة الثانية:

أحمد الله تبارك وتعالى وأثني عليه بما هو أهله، وأستغفره وأستهديه وأتوب إليه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدٌ عبدُ الله ورسولُه الداعي إلى سبيل ربه صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الإخوة المسلمون: من أعظم ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ من صفات الأنبياء (الذكاء)، فكانوا أذكياء حفاظًا، قادرين على قيادة الناس، وعلى المناظرة، وعلى المحاورة، وعلى التعليم، وعلى اتخاذ القرارات الصائبة الصارمة في المواقف الحالكة.

لم يكن نبي من الأنبياء -عليهم أفضل الصلاة والسلام- تغيب عنه الحكمة في المواقف التي يحتاج فيها إليها، مع وحي الله جل وعلا لهم فيما يحتاجون إليه من أمور الأمة.

أيها المسلمون: وقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام النمرود، فتحدث إبراهيم عن ربه جل وعلا، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، قال النمرود، ذلك الملك الظالم: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]! ثم دعا رجلين قد حكم عليهما بالقتل، فأمر بأحدهما أن يُطْلَقَ فأُطْلِقَ وأمر بقتل الآخر فقتل، قال: أنا أحييت هذا وأَمَتُّ هذا!

فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد علم أنه يناظر رجلًا مجادلًا لا نية له في أن يتبع ميزانًا ولا قانونًا يهدي إلى الحق، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]! إذا أنت ربٌّ تتحكم في الكون وتفعل ما تشاء، فالوعد غدا صباحًا، الشمس كل يوم تطلع من الشرق، نريدك -يا من تدعي الربوبية- أن تُطلِعَها غدا من الغرب! ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، لم يستطع أن يجادل فقد حاجَّه إبراهيم.

وأيضًا جاء عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان قد أوتي ذكاءً وحكمة وفهمًا كما أوتي غيره من الأنبياء، ومن ذلك أن امرأتين في عهده عَلَيْهِ السَّلَامُ نزلتا إلى نهر كي تغسلا ثيابهما، وكان مع كل

منهما طفل حديث الولادة، فوضعتا ولديهما وتوجهتا إلى النهر، فأقبل الذئب وأخذ ولد واحدة منهما ومضى به، فاختلفتا في الولد الباقي، كل واحدة تقول: ولدي.

فاحتكمتا إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحكم به للكبرى، ثم احتكمتا إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما رأى سليمان أن الكبيرة تبكي وتقول: هذا ولدي، والصغيرة تبكي وتقول: بل هو ولدي، وضعه أمامه ثم دعا بسكين، ووضع طرف السكين على رأسه، قالتا له: ماذا تفعل؟! قال: «أقسمه بينكما»، يفعل ذلك لينظر قلب الأم متى يتحرك، قال: أقسمه بينكما، وإذا بالكبيرة تثبت، وتنفجر الصغيرة باكية وتلقي بنفسها على الغلام وتقول: لا، لا تقتله، أعطه إلى هذه، لا تقتله؛ فعلم أن هذه هي أمه، فحكم به لها.

والقصص في حُكْمِه وفيما وهبه الله تعالى من ذكاء، وقصص الحكمة عند غيره من الأنبياء كثيرة متوفرة، فهؤلاء الأنبياء -أيها المسلمون- لهم جلالتهم، وينبغي الاقتداء بهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

أيها الناس: كيف يفلح جيل يتخبط في اختيار القدوات بين أهل اللهو والغفلات؟ كيف يترك الاقتداء بأكمل الناس وأفضلهم وخيرهم من أنبياء الله ليبحث عن أراذل الناس فيعظمهم ويتقفى آثارهم؟ هؤلاء أنبياء الله أعطانا الله قصصهم هدية ونعمة وعطية، لتكون لنا منارًا في أزمنة الفتن والتباس الأمور، فعلينا أن نقتدي بهم، وأن نتعلم سيرهم، وأن ندافع عنهم، وأن نعرف لهم مكانتهم وجلالة قدرهم.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا بأنبيائه في جنات النعيم..





الرسل والرسالات

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الإخوة المسلمون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وتبَصَّرُوا حقيقة دينكم، وعُوا قضية إيمانكم الذي به تلقون ربكم.

إن من قضايا العقيدة التي تحتاج إلى تذكير، الإيمان بالرسل والرسالات، والإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤].

والذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله ولكنهم يكفرون بأحد من الرسل، أو ينكرون شيئًا مما أنزل الله عليهم، هؤلاء لا يقدرون الله حق قدره، كما قال تعالى عن المشركين الذين أنكروا الرسالات: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٩١].



وليس من الإيمان في شيء التفريق بين الله ورسله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

فقد نصت الآية على كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء:١٥٠] ؛ ولهذا قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: (نص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر، وإنما كان كفرا لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله).

أيها الإخوة المسلمون: اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم الماضية أن يرسل في كل منها نذير، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر:٢٤]، ورسالة محمد ﷺ كانت عامة للبشر كلهم، وكانت خاتمة فلا رسالة بعدها.

واقتضى عدل الله ألاَّ يعذب أحدًا من الخلق حتى يكون البلاغ وتقوم الحجة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٦٥].

ولهذا كان الأنبياء والمرسلون عددًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدد الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، المرسل من ذلك ثلاثمائة وخمس عشر جمًا غفيرًا»[1].

وهذا العدد الكبير يجب الإيمان بهم كلهم، وإن لم نعرف منهم إلاَّ القليل، ومحمد ﷺ وهو الموحي إليه من ربه قال الله له: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ [النساء:١٦٤].

(١) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٦٦٩).



ولم يرد في القرآن الكريم إلا ذكر خمسة وعشرين نبيًا ورسولًا، وهؤلاء ذكروا بأسمائهم، وهناك من ذكرت نبوته ولم يذكر اسمه، وهم الأسباط أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعددهم اثنا عشر رجلًا، عرَّفنا القرآن بواحد منهم وهو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما الأحد عشر فقد أخبر الله أنه أوحى إليهم ويجب الإيمان بما أنزل عليهم، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦].

إخوة الإيمان: ولقد بين العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم، فقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم).

فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فيه الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها. إلى آخر كلامه القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويفرق ابن القيم في كتابه القيم بين حاجة الأبدان إلى علوم الطب، والأرواح إلى تعاليم الرسل، فيقول: حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة؟ وأما أهل البدو كلهم، وأهل الكُفور كلهم، وعامة بني آدم، لا يحتاجون إلى طبيب (في غالب أحيانهم) وهم أصح أبدانًا، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة.

إلى أن يقول: فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد مَن خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر. اهـ.

أيها المسلمون: أَصِلُ بكم إلى بيان وظائف الرسل ومهماتهم فتعلَّموها، ثم اعلموا بما تطيقون منها، وتنبهوا إلى أن من يقوم بها إنما هو من ورثة الأنبياء، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم.

وأول هذه الوظائف للرسل البلاغ المبين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، والبلاغ يحتاج إلى الصدق والشجاعة وعدم الخشية من الناس حيثما يأمرهم بما يستنكرون، أو ينهاهم عما يألفون -مما أمر الله به أو نهى عنه- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

الثاني من وظائف الرسل: الدعوة إلى الله، فلا تقف مهمة الرسل وأتباعهم عند بيان الحق وإبلاغه للناس، بل عليهم دعوة الناس إلى الأخذ بدعوتهم، وترغيبهم في الخير، وتحذيرهم من الشر، وتحقيق هذا الخير في أنفسهم قولًا وعملًا.

وهذا لا شك يكلف الرسل وأتباعهم من الدعاة إلى الله والمصلحين، لكن من يتصدى لإصلاح الناس وتوجيه مسيرتهم وتعريفهم بربهم لا بد له من الصبر والتحمل وأجره على الله، ألا ما أكرم المرسلين وأتباعهم من الدعاة والمصلحين وهم يجهدون أنفسهم في سبيل تقديم الخير للآخرين وإنقاذهم.

وإليكم هذا المثل المعبر عن هذه الحقيقة، فقد جاء أن النبي ﷺ قال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلًا، فقال: اسمع سمِعَتْ أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملِك اتخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار هو الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»[١].

(١) صحيح الجامع (٢٤٦٥).

ومن وظائف الرسل التبشير والإنـذار، فهـم يبشـرون مـن أطـاعهم بالجنـة والمغفـرة، ويخوِّفون وينذرون من عصاهم التعاسة والنار، وليست بشارتهم قـاصرة عـلى الآخـرة؛ بـل يبشـرون الهـداة الطـائعين بالحيـاة الـدنيا ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]. وفي المقابل يخوفون العصاة المجرمين بالشقاوة في الدنيا قبل الآخرة: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

إخوة الإيمان: تأملوا هذا المثل الذي يوضح حال الدعاة والمدعوين، ويقرب الصورة لأثر الاستجابة لداعي الهوى، وعاقبة الإعراض لمن ضل وغوى، يقـول إمـام الـدعاة محمـد ﷺ: «مثَلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنـا النذير العريان، فالنجاءَ النجاءَ! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثَل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت من الحق»(١).

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه، أقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه.

(١) رواه البخاري (٧٢٨٣) ومسلم (٢٢٨٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حَمْد الشاكرين الذاكرين، وأشهد ألا إله إلا الله رب العالمين، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، وخيرته من خلقه، صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله، ورضي عن أصحابه وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إخوة الإيمان: اتقوا الله وأطيعوه، واهتدوا بهدي رسوله ولا تخالفوه، واعلموا أن الأجل قصير، والموت قريب، وكل آت قريب.

ثم اعلموا أن من وظائف الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صلاح النفوس وتزكيتها، وهذه من رحمة الله بعباده أن يحيي نفوسهم بالوحي، وينور بصائرهم بالهدى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وتأملوا كيف سمّى الله رسالته روحًا، والروح إذا عدم فقدت الحياة، ثم تأملوا -كذلك- كيف يضرب الله المثل ويشبه الوحي المنزل من السماء على أيدي الرسل بالماء الذي ينزل من السماء، فتكون به حياة الأرض، يقول تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذه الآية: (فشبه العلم بالماء المنزل من السماء، لأن به حياة القلوب، كما أن المراد بالماء حياة الأبدان وشبّه القلوب بالأودية لأنها محل العلم، كما أن الأودية محل الماء، فقلب يسع علمًا كثيرًا، وواد يسع ماءًا كثيرًا، وقلب يسع علمًا قليلًا، وواد يسع ماءً قليلًا.

وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء وأنه يذهب جفاءً، أي يرمي به ويختفي، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جُفاءً، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي نفع صاحبه والناس...) إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن وظائف الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كذلك تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة، فحين كان الناس على التوحيد الخالص لله، والفطرة السليمة التي فطرهم الله عليها، لم يحتاجوا إلى مرسلين عشرة أجيال بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما تفرقوا واختلفوا، ومالوا عن التوحيد إلى الشرك بعث الله فيهم المرسلين لتصحيح عقائدهم، وتقويم ما انحرف من أفكارهم، يقول تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة:٢١٣]. أي كانوا أمة واحدة، فلما اختلفوا أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وقد واجه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع أقوامهم من الشدة والأذى في سبيل إصلاح معتقداتهم وتقويم ما انحرف من سلوكهم ما الله به عليم، فهذا ينكر عبادة الأصنام ويبطلها بالحجة والبرهان، ونبي آخر ينكر على قومه الاستعلاء في الأرض كما فعل هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وثالث ينكر على قومه الفساد في الأرض واتباع المفسدين، كما هو شأن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونبي يحارب الفواحش التي انتشرت في مجتمعه كما فعل لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخامس يقاوم جريمة التطفيف في المكيال والميزان كما صنع شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ، ليحارب هذه الجرائم كلها، وينكر سائر المنكرات والفواحش التي تقع في الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما يزال أتباعه من الدعاة والمصلحين يكشفون تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويواجهون حربًا ضروسًا من أعداء دعوة الرسل، كان الله في عونهم، حيث لا رسل ولا رسالات بعد محمد ﷺ، فهم نواب الرسل، وليس لهم إلا عون الله، وميزان محمد ﷺ، يتقدمون به ليسقطوا كل راية تخالف هديه، ويكشفوا كل دسيسة تحاول النيل من الدين.

وإن أقل حقوق هؤلاء العلماء، والدعاة والمصلحين علينا أن نناصرهم ونناصحهم وندعو لهم، ونكون وإياهم يدًا واحدة في سبيل الدعوة إلى الخير، والتحذير من الشر.

أيها الناس: إن من وظائف الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إقامة الحجة على الناس، فلا يعتذر أحد بالجهل، ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥].

ولهذا تسقط حجة المكذبين وهم يساقون إلى النار سوقًا: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى

ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك:٨-٩]، ثم يعرفون ويندمون حيث لا ينفع ذلك: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠-١١].

وأخيرًا؛ من وظائف الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سياسة الأمم، فالرسل هم الذين يحكمون بين الناس في حياتهم، ويجب أن يتحاكم الناس إلى هديهم بعد مماتهم: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة:٤٨]، هكذا قيل لمحمد ﷺ، وقيل لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

وهكذا كان أنبياء بني إسرائيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يسوسون بني إسرائيل كلما هلك نبي قام نبي، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ[1].

أما الذين يشرعون للبشر من ذوات أنفسهم، أو يحكمونهم ويتحكمون فيهم بأهوائهم بعيدًا عن شرع الله، ويضعون لهم من القوانين الأرضية الوضعية ما أحق وأولى، فهؤلاء مخطئون في حق أنفسهم، وظالمون لرعاياهم، ومعتدون على حقوق ربهم؛ حيث شرعوا في الأرض ما لم يأذن به، وحكموا عباده بغير حكمه، وعليهم أن يتأملوا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

أيها الناس: من منا يتأمل في سيَر الأنبياء؟ من منا يقصها ويعلمها لأولاده وأهل بيته؟ من منا يستخلص العبر ويستخرج الفوائد من قصصهم؟ أليس جديرًا بنا أن نتعلم سير خير الخلق، لعلنا أن نسلك طريق الحق، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]..

نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى..



(١) رواه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢).

محمد ﷺ

الخطبة الأولى:

الحمد لله على تقديره، وحسن ما صرف من أموره، نحمده سبحانه بحسن صنعه، شكرًا على إعطائه ومنعه، يصير الرزق للعبد وإن لم يشكره، ويستر الجهل على من يظهره، خَوَّف من يغفل من عقابه، وأطمع العامل في ثوابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خير من يدعى لدى الشدائد ومن له الذكر مع المحامد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، قضى بالحق وبه عدل، ربّى فصقل ووعد ففعل، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم عن خلفائه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن سائر صحابة نبيك محمد وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه فاتقوه وراقبوه وأخلصوا له في السر والعلن، وتزودوا بطاعته فإن خير الزاد التقوى.

أما بعد: يحلو الحديث عن الرجال العظماء من الناس، ولكن الحديث عن هذا الرجل العظيم لا يجاريه أي حديث في روعته وحلاوته والطرب له والشوق إليه، رجل ملأ حبه القلوب، واصطفاه الله على الناس، فجعله أكرمهم وأحبهم إليه، وكان خليل الله، إنه رسول الله.

حديثنا اليوم عن الحبيب الذي تشتاق إليه النفوس، وبذكره ترق وتلين القلوب، وعند الحديث عنه تطمع النفوس المؤمنة إلى رؤيته والالتقاء به في الجنان، والموعد حوضه الشريف حيث ينتظر المؤمنين، يأتون إليه غرًا محجلين عن باقي الأمم كي يشربوا من حوضه الشريف شربه هنيئة لا يظمؤون بعدها أبدًا.



هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من بني هاشم من قريش، أعز الناس نسبًا، وأشرفهم مكانة، ولد في بطحاء مكة، فرأت أمه نورًا أضاءت له قصور الشام، نشأ حين نشأ يتيمًا، فكفله جده ثم عمه، واسترضع في ديار بني سعد، أرضعته حليمة السعدية، فكانت أسعد الناس به، نزلت الملائكة من السماء فشقت صدره وغسلت قلبه، فنشأ نشأة طهر وعفاف في مجتمع جاهلي يعج بالشرك والظلم والمنكرات، لم يتجه يومًا بقلبه إلى صنم، ولم يعاقر خمرًا، ولم يتسابق كغيره إلى النساء. صادق اللسان، لم يجرب عليه قومه كذبةً واحدة، أمين وأي أمين.

تزوج في شبابه وقبل مبعثه بأكرم النساء وأحصنهن وأعفّهن وأرجحهن عقلًا أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فأنجب منها جل أبنائه وبناته. حبب الله إليه الخلوة والتعبد لربه بعدما كره بفطرته السليمة ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، فكان يصعد إلى غار حراء، فيمكث به الليالي ذوات العدد ناظرًا للكعبة الشريفة والسماء.

بشر بقدومه الأنبياء من قبله، وهتفت الجن ببعثته، وامتلأت السماء حرسًا شديدًا وشهبًا. بعثه الله للناس على رأس أربعين سنة من عمره حين بلغ أشده واستوى، فلما اقتربت طلوع شمسه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت فلا يرى إلا الحجر والشجر، فلما كان ذات ليلة على عادته في الغار وإذا بجبريل عليه السلام يأتيه رسول مرسل من ربه ب﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١-٢]، فرجع بها إلى بيته خائفًا يرجف منها فؤاده قائلًا: «زمّلوني زملوني»[1]، فسكبت عليه خديجة رضي الله عنها أعذب الكلام وأروعه حتى هدأت نفسه: كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصِل الرحم وتحمل الكلَّ وتُكسِب المعدوم وتُقري الضيف وتعين على نوائب الحقّ.

ثم تتابع الوحي عليه من ربّه آمرًا له بالدعوة إلى الله، فخرج يدعو سرًّا من كان يرجو قبول الحق، فلما تكاثر المؤمنون من حوله أتاه الأمر: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤]، فلقي منذ ذلك الوقت صنوف الأذى والسخرية والاستهزاء، وتحمل هو ومن معه من المؤمنين

(١) رواه البخاري (٤٩٥٤) ومسلم (١٦٠).



الذين كانوا يزدادون يومًا بعد يوم الشدائد لتمسكهم بالإسلام والمحافظة على هذا الدين العظيم، ثم يموت عمه الذي كان يحوطه ويحميه، وتموت زوجه التي كانت تؤنسه وتواسيه، ليس بينهما إلا أيام قلائل، فاشتد عليه الكرب واستبد به الحزن.

فلما رأى من قومه الصدود والإعراض بدأ بإخراج دعوته خارج مكة، فوصل الطائف ولاقى من أهلها أكثر مما لاقاه من قومه في مكة، فأخذ يعرض دعوته على القبائل حتى هيأ الله له نفرًا من أهل المدينة قدموا مكة في الموسم، فعرض دعوته عليهم، فأوقع الله في قلوبهم الإيمان، فاتفق معهم على الهجرة للمدينة وأن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون أبناءهم وأهليهم، فكانت تلك الهجرة العظيمة وذلك الحدث التاريخي الذي قلب الأمور على الأرض رأسًا على عقب، وانطلقت دولة الإسلام من المدينة، وبدأ الجهاد لما توافرت أسبابه، فجاهد رسول الله هو وأصحابه بأموالهم وأنفسهم حتى فتح الله له القرى وأمها، ودانت له جزيرة العرب، وهابته الأعاجم في ديارها، فكان من آخر أمره حجه بالناس، فنصح وبلغ رسالة ربه حتى حانت ساعة وفاته عليه الصلاة والسلام التي نقف عندها بعد أن نقف على شيءٍ يسير من صفاته وشمائله وخصائصه التي خصه الله بها في الدنيا والآخرة.

فإن سألت عن شكل خِلقته: كيف كان؟ فإنك تسأل عن القمر ليلة تمامه، فقد كان أجمل الناس وأبهاهم منظرًا، أبيض مُشربًا بحمرة، ربعة من الناس، ليس بالطويل ولا بالقصير، عظيم الهامة، واسع الجبين، مقوّس الحواجب في غير اقتران، طويل الأنف مع صغر أرنبته، له نور يعلوه، كث اللحية، واسع الفم، مفلوج الأسنان، ليس بالنحيف ولا بالسمين، مستوي البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، أشعر الذراعين والمنكبين والصدر، لين الملمس كأن يده الحرير.

يمشي وكأن مشيته في منحدر، إذا التفت التفت بكل جسمه، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، تواضعًا وفكرًا، يمشي وأصحابه أمامه، طويل السكوت، دائم الفكرة، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح كلامه ويختمه باسم الله تعالى، يتكلم بجوامع الكلم، ولا يضحك إلا تبسمًا، لا يتكلم فيما لا يعنيه، يؤلف الناس ولا ينفرهم، يتفقد أصحابه ويسأل عنهم، يحلم على الجاهل والسفيه، ويصبر على من يحادثه حتى يكون محدثه هو المنصرف عنه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور جميل من القول إن لم تكن عنده، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبًا.

مجلسه مجلس علم وحياء وأدب، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تذاع فلتاته، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بصخاب ولا فحاش ولا عياب، يبيع ويشتري، يضحك مما يضحك له الناس، ويتعجب مما يتعجبون.

بين كتفيه خاتم النبوة، وهي غدة حمراء بها شعرات مجتمعات، كان شعره إلى أنصاف أذنيه، وعدت شعيراته البيضاء فبلغت عشرين شعرة، وقال عنها: «شيبتني هود وأخواتها»[1]. يحسبه الرائي له أنه يخضب بالحناء شعره، ولكنه كان وبيص الطيب الذي يضعه، يحب الطيب وأمر بأن لا يُرد الطيب إذا أُهدي.

عاش عيشة الزهد، فلم يشبع من خبز الشعير قط، يمر على بيوته الهلال ثم الهلال ولا يوقد في بيوت آل محمدٍ نار، ربما وضع حجرين على بطنه ليسكت جوع بطنه. كان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقها إذا انتهى بأدب. أحب من الطعام الدباء والحلوى والعسل، وكان لا يذم طعامًا قط.

قسم وقته داخل بيته ثلاثة، فقسم لله، وقسم لأهله، وقسم لنفسه، وقسم الذي لنفسه ما بينه وبين الناس. كان يمازح أصحابه ولا يقول إلا حقًا، وكان يسمر مع نسائه ويحدثهن ويحدثنه فيستمع إلى أحاديثهن.

كان راجح العقل، صادق الفراسة، ثابتًا في الشدائد، صابرًا في البأساء والضراء وحين البأس، حليمًا وقورًا وفيًا للعهد والناس، يصفح ويعفو عمن أساء له، فعفا عمن سحره، وعفا عمن دس له السم، وصفح عن أهل مكة. كان وسطًا يحب الاعتدال، كريمًا سخيًا كالريح المرسلة.

أيها المؤمنون: ولقد انفرد نبيكم عن إخوانه من الرسل والأنبياء والناس أجمعين بخصائص في الدنيا والآخرة لم تكن لغيره كرامة وتشريفًا لهذا النبي الكريم.

منها: أن الله أخذ العهد والميثاق على الأنبياء من قبله على الإيمان به ونصرته والبشارة به.

ومنها أن رسالته كانت للناس كافة وكانت رسالة من قبله من الأنبياء لأقوامهم خاصة.

---

(١) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٢٨٣).



ومنها أنه خاتم الأنبياء والمرسلين وكانت رسالته رحمة للعالمين، ومنها أنه النبي الوحيد الذي خاطبه الله بوصف النبوة والرسالة، فكان القرآن ينزل بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [الأنفال:٦٤] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، ونادى بقية الأنبياء بأسمائهم.

ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام: أن جعل الله له ولأمته الأرض مسجدًا وطهورًا، ونُصر على أعدائه بالرعب، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كانت معجزات الأنبياء من قبله وقتيةً تنتهي بموتهم وكانت معجزته خالدة إلى يوم الدين: القرآن الكريم.

تفرد عن بقية الأنبياء بالإسراء والمعراج حتى أدناه الله منه في سدرة المنتهى.

خصه الله يوم القيامة فأعطاه الله الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، وهو مقام الشفاعة العظمى للخلائق عند ربهم حتى يفصل فيهم، ويشفع لأمته حتى يبلغوا ثلثي أهل الجنة.

أكرم الله أمته كرامة له، فكانت خير الأمم أخرجت للناس، وأحل الله لها الغنائم، ووضع عنها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم، وتجاوز عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وحفظ هذه الأمة من الهلاك والاستئصال، وجعلها أمة لا تجتمع على ضلالة، وأعطاهم الله الأجر العظيم على العمل القليل، ويأتون يوم القيامة غرًا محجلين من أثر الوضوء، ويسبقون الأمم إلى الجنة.

أظهر الله على يديه من المعجزات ما يبهر العقول، ففلق له القمر فلقتين، وتكلمت الحيوانات بحضرته، وسبح الطعام بين يديه، وسلم عليه الحجر والشجر، وتكاثر له الطعام والشراب كرامة، وأخبر بالمغيبات، فما زالت تتحقق في حياته وبعد وفاته.

فاللهم اجز نبينا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأوفره، اللهم وآته الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وأوقفه المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

عباد الله: استغفروا ربكم يغفر لكم، إن ربكم لغفور رحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن الدنيا ليست بدار قرار.

أيها المسلمون: لقد عاش نبيكم ثلاثا وستين سنة، قضى منها ثلاثا وعشرين في النبوة والرسالة والبلاغ والإنذار والجهاد، فلما أتم الله الدين وكملت الرسالة بدأت الإشارات بدنو ساعة رحيل الحبيب، فكان أول هذه الإشارات نزول قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، وكان يقول في حجة الوداع: «خذوا عني مناسككم؛ لعلي لا أحج بعد عامي هذا»[1]، وكان يخبر الناس بعد حجة الوداع: «إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه»[2].

في العام الحادي عشر من الهجرة الشريفة وفي غرة شهر ربيع الأول رجع النبي من البقيع فدخل بيته ووجد أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تشتكي رأسها و تقول: وارأساه، فيقول لها النبي: «بل أنا وارأساه يا عائشة»[3]، فكان بداية مرضه وجعا في رأسه الشريف، ثم بدأت به الحمى، وأخذت تشتد عليه حتى بلغت منه مبلغًا عظيمًا، فكان يصب عليه من سبع قرب من الماء ليبرد، وكانت توضع على جسده الشريف القطيفة فيجد اللامس حرارته من فوقها، وكان من شدتها بعد ذلك أن كان يغمى عليه المرة تلو المرة وهو يحاول القيام للصلاة بالناس فلا يستطيع، فيأمر صاحبه في الغار أن يصلي بالناس، فلما روجع في اختياره لأبي بكر لرقة أبي بكر في الصلاة أصر عليه الصلاة والسلام على إمامته للناس. واستأذن في أثناء ذلك من جميع زوجاته أن يبيت ويمرض في بيت عائشة فأذنَّ له.

---

(١) صحيح النسائي (٣٠٦٢).
(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤).
(٣) حسّنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٩١٧).

صلى الناس في أحد أيام مرضه الظهر فوجد رسول الله خفة فخرج للمسجد، وكاد الناس أن يفتنوا في صلاتهم حينما رأوا نبيهم وحبيبهم يخرج إليهم، فتأخر أبو بكر وتقدم رسول الله ليكمل الصلاة بالناس، فكان يصلي جالسًا وأبو بكر يقتدي به والناس يقتدون بأبي بكر.

واشتد المرض عليه، وكان يقول: «ما زلت أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»(١)، وكان يدخل عليه العارفون بالطب فلم يجدوا له علاجا، وكانت عائشة تأخذ يده الشريفة لتضعها بالماء ثم تضعها على وجهه الشريف رجاء بركتها.

وفي مرض موته عليه الصلاة والسلام كان يوصي بآخر وصاياه للأمة من بعده، فأوصى الأمة بالصلاة، وأوصى الرجال خيرًا بالنساء، وأوصى أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، وأن لا تتخذ القبور مساجد.

وفي صلاة الفجر من يوم الاثنين الذي مات فيه كشف الستار الذي على الحجرة ونظر إلى جموع المسلمين من أمته صفوفًا خلف أبي بكر، فتقر عينه بهذا المنظر الذي كان ثمرة ثلاث وعشرين سنة من الدعوة والجهاد.

وفي ساعته الأخيرة يدخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وفي يده سواك، فجعل النبي يطيل النظر إلى السواك ولا يستطيع الحديث، فتفهم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مراده وتأخذ السواك من أخيها فتقضمه ثم تلينه بفمها له ثم تعطيه إياه، فجعل يستاك به كأحسن ما يكون لآخر مرة في حياته، وكان يشتد عليه الألم فيقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات»(٢)، ثم سمعت منه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو واضع رأسه الشريف على صدرها وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى»، فكان آخر ما نطق به وخرجت روحه الشريفة الطاهرة إلى روح وريحان وربٍ راضٍ غير غضبان، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٨).

(٢) رواه البخاري (٤٤٤٩).

ومات نبي الله، وهو في حضن أم المؤمنين عائشة، بين سَحرها ونحرها، مات رسول الله، وبموته انقطع الوحي من السماء، وما إن علم الناس حتى طاشت منهم العقول، وذُهلت منهم الألباب. فيخرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهدد ويتوعد كل من يقول إن رسول الله قد مات، رافضًا وجدانه تصديق خبر موته، ولكن يصل أبو بكر الصديق وكان في ناحية من المدينة، ويدخل حجرة عائشة حيث رسول الله مسجى، فيكشف عنه ويقبله ويبكي قائلًا: أما الموتة التي كتبت عليك فقد ذقتها، والله لن يجمع الله عليك موتتين أبدًا، ثم خرج للناس وهم في هياج وحيرة، فحاول إسكات عمر فلم يستطع، فتوجه بكلامه للناس، كلامًا لا يصدر إلا من أبي بكر في مثل هذه المواقف: «أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا على مسامعهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، يقول عمر بعد ذلك: «وكأني أسمع هذه الآية لأول مرة». فعُقر عمر مكانه، وسقط حتى لم تستطع رجلاه أن تنهض به.

ودفن عليه الصلاة والسلام في المكان الذي توفي فيه في حجرة عائشة، وهكذا تدفن الأنبياء، وأخذ الناس يدخلون عليه جماعات يصلون عليه، تقول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنس بن مالك بعدما فرغوا من دفنه عليه الصلاة والسلام: «يا أنس: أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله؟!».

يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما هو إلا أن دفنا رسول الله حتى أنكرنا نفوسنا».

أيها المسلمون: تلكم لمحة عن الحبيب المصطفى، ألا وإن في القلوب لهيب الشوق إليه، لا يطفئه إلا لقاؤه على الموعد في جنات عدن، فنسأ الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن لا يحرمنا رؤيته ولقاءه والشرب من حوضه يا رب العالمين.

أيها المسلم المحب لرسول الله، الحريص على اتباعه، والاقتداء به، والاهتداء بهديه وسنته وآدابه وأخلاقه، هنيئًا لك ذلك، فليس من يقتدي بخير الناس كمن يقتدي بغيره، لقد اختار الله لك خير قدوة وأعظم أسوة، فهل ترضى به بديلًا؟ وهل تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ كلا، حاشاك.

وأبشّرك بقول حبيبك: «المرء مع من أحب»[1]، أي: يُحشر مع من أحب ويكون معه يوم القيامة، ولكن ذلك الحب وحده لا يكفي، وتلك العاطفة وحدها لا تبلّغك المقصود، ولكن هذا الحبّ يجب أن يترجم إلى تعظيم لسنة الحبيب والعمل بها واتخاذه أسوة حسنة في أقوالنا وأفعالنا، في غدونا ورواحنا، في يسرنا وعسرنا، في منشطنا ومكرهنا، في رضانا وغضبنا.

نسأل الله أن يوفقنا لاتباع سنة نبيه، وأن يرزقنا شفاعته، وأن يسقينا من حوضه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدا..



(١) رواه البخاري (٦١٦٩) ومسلم (٢٦٤٠).



قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله خلق النفوس فألهمها فجورها وتقواها، وأرشدها إلى هداها، وحذرها من رداها، أحمده سبحانه وأشكره، شكر من عرف نعمه فرعاها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رضيت به ربًا وإلهًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أرفع الخلق قدرًا، وأعظمهم جاهًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: اتقوا الله، واعرفوا ما منّ به عليكم من النعم الكثيرة، فلقد أرسل الله لعباده رسلًا يبشروهم وينذروهم ويرشدوهم لأفضل الطرق وأحسن السبل، ولقد جعل الله هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، فأرسل إليها خير رسله، وأنزل عليها أحسن كتبه، وهو القرآن الكريم الذي ننهل منه ونتعلم، أنزله لنا لكي نعتبر ونتذكر ونعرف سنن المرسلين وما حلّ بأقوامهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ربنا تعالى أكثر من قصص القرآن تثبيتا لقلب النبي، وأمره أن يقص القصص ليتفكر فيها كفار قريش وغيرهم لعلهم يتوبوا إلى ربهم ويعودوا إلى رشدهم، قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦]. ولقد أخبر الله نبيه بأنه لم يقصص عليه جميع قصص الأنبياء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤].

---

(١) عبدالرحمن القايدي.

وأول الرسل الذين أرسلهم الله إلى الأرض نبي الله نـوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرسـله الله إلى الأرض بعد أن انتشرت عبادة الأصنام، وحدث التبديل والتحريف في الـدين، وانقلـب النـاس مـن عبادة الله وحده إلى عبادة الأولياء والطواغيت، وعظمت الضلالة والكفر، علما بـأنهم كـانوا مسلمين، فعن عكرمة قال: (كان بين آدم و نوح عشرة قرون كلهم على الإسلام).

فبدأ نوح يدعو، واجتهد في دعوة قومه إلى توحيـد الله تعـالى، ولكـنهم كـانوا معانـدين، يرفضـون حتـى السـماع لـه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٥-٦]. ولقي عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم الأذى، وصـبر علـيهم صـبرا عظـيما، ولم يلـق مـنهم سـوى التكذيب والسخرية، ولبث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين، فلم يستجب لدعوته إلا القليـل، بل إن زوجته وابنه لم يؤمنا به، وكانوا يتواصلون جيلا بعد جيل ويتواصون بعدم الإيـمان بـه ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده أوصاه أن لا يؤمن بنوح ما عـاش أبـدا، فكانـت طبائعهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

ولما طال عليهم الزمن أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره بأن يصنع الفلك أي: السفينة، فكان قومه يمرون عليه ويسخرون منه؛ كيف يصـنع سـفينة في الـبر؟!، قـال تعـالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨].

ثم ازداد طغيانهم وتحديهم لنوح، ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود:٣٢]، عند ذلك أدرك نوح استفحال الشر منهم وما هم عليـه من الضلالة والجحود، والتجأ إلى الله وهددهم وأنذرهم، فلما أدرك أنه لن يؤمن مـنهم أحـد دعـا علـيهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نـوح:٢٦]، طلـب من الله استئصالهم.

وتأملوا في الجانب الآخر عن النبي الذي سماه ربه رؤوفا رحـيما محمـد، حيـنما آذاه قومـه وأهانوه كما ذكرت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: هل أتى عليك يوم أشد مـن يـوم أحـد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسـي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهـي،

فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال النبي: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[1]. الله أكبر! ما أرحمه من نبي! فلقد تمثل القرآن، وكان خلقه القرآن كما وصفته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

معاشر المسلمين، وبعد أن صنع نوح الفلك وحمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره ربه، قال له ربه بعد ذلك إذا حل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أن لا يعاوده فيهم أو يراجعه، فإنه لعله تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠] ومعنى التنور هنا عند جمهور المفسرين: وجه الأرض. وقد ذكرت قصة نوح في أكثر من تسع سور من القرآن، وبعد أن دعا عليهم قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١١-١٦].

الله أكبر! السماء أصبحت أبوابا فتحت بماء منهمر شديد، والأرض تفجرت عيونا، فأصبح الوضع رهيبًا مخيفًا. وأهلك الله قوم نوح، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، ولم ينج إلا أصحاب السفينة التي كنت تجري تحت عناية ورعاية المولى تعالى.

نفعني الله وإياكم بالقرآن والسنة..

(١) رواه البخاري (٣٢٣١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فاتقوا الله عباد الله، واعتبروا بما قص الله عليكم، فإنما قص الله علينا هذه القصص لنعتبر ونحذر من الغفلة والبعد عن الله والإصرار على المعاصي التي وقعوا فيها، فيصيبنا ما أصابهم.

فهكذا دمر الله كل الكفرة الذين على وجه الأرض من قوم نوح وغيرهم: قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤] أي: لما فرغ من أهل الأرض وأبادهم ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عَزَّوَجَلَّ أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع أي: تمسك عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود:٤٤] أي: نقص عما كان، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [البقرة:٢١٠] أي: وقع بهم ما قدره الله وسبق في علمه من الإغراق والتدمير.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود:٤٨]، هذه أوامر لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نضب الماء على وجه الأرض وأمكن السعي فيها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة، أي: اهبط بسلام مبارك عليك وعلى أمم سوف يولدون من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا سوى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر الأجناس من بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام وحام ويافث..

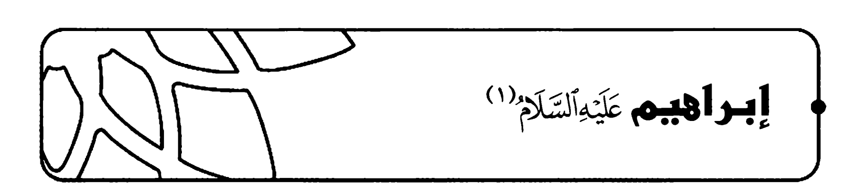
أحبتي في الله: هذه من القصص التي استضاء بها النبي وتعزى بها، فكانت له هداية وتثبيتا وتذكيرا، ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠]، فكل القرآن لنا عبرة وتبصرة كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

إن سنن الله تعالى لا تحابي ولا تجامل أحدًا، وإن الأمم السابقة ما أهلكها إلا عتوها وطغيانها، واتباع شهواتها وأهوائها، فهلا اعتبرنا؟ هلا اتعظنا وتذكرنا؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

إن المتأمل في سير الأقوام والشعوب والمجتمعات والأفراد، يدرك أنه ما نزل بلاء على الفرد أو الجماعة إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة، فتوبوا إلى الله، فقد تهلك الجماعة بالذنوب إذا كثر الخبث، تواصوا بالحق والصبر والمرحمة، وتعاونوا على البر والتقوى، وأصلحوا قلوبكم، وزكُّوا نفوسكم، فقد أفلح من تزكى.

اللهم آت نفوسنا تقواها، زكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها..





إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ(1)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها الأحبة: وقفتنا لهذه الجمعة، سوف تكون مع خليل الله، أبي الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما ذكر ابن كثير بأرض بابل، وكانت ولادته بعد أن بلغ والده من العمر خمسًا وسبعين سنة، وكان اسم والده آزر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤]. وكان مولد خليل الرحمن، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، في عهد النمرود، وكان النمرود حاكمًا مستبدًا جبارًا، كانت رعيته تتقلب في دياجير الجهل وظلمات الضلالة، كما كانوا يعبدون الحجارة الصماء، والتماثيل البكماء. وقد استخف النمرود بقومه، فنصّب نفسه إلهًا لهم، ودعا الناس إلى عبادته، فأطاعوه.

---

(١) ناصر الأحمد.

وفي هذه البيئة الفاسدة، ولد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكان أبوه آزر، من ألد أعدائه، وكذلك كان أقرباؤه وأشقائه وأترابه وهذا يعني أنه كان غريبًا بين أهله وذويه، ولما شب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، تزوج بامرأة تسمى سارة، وكانت من أجمل النساء، لكنها كانت عقيمًا لا تلد. وقد عُرف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، منذ نعومة أظفاره بصائب رأيه، وثاقب فكره، ووفقه الله أن أدرك الوحدانية، وأن الله واحد أحد، ليس له شريك في الملك، وألقى الله في قلبه كره الأصنام، التي كان يعبدها قومه، لأنها لا تجلب لهم نفعًا ولا تدفع عنهم ضرًا.

عباد الله: ابتعث الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرسالة، وهو في بابل، فقام بالواجب الذي أمره الله به خير قيام، وصبر على الأذى والابتلاء، وقابل التهديد والوعيد، بعزيمة أشد رسوخًا من الجبال، وعندما تأكد من إعراض قومه عن دعوته، هاجر في أرض الله الواسعة، يبذر بذور الإيمان في كل أرض تطؤها قدماه، فاستحق بصبره ورأيه، أن يكون أبًا للأنبياء، وإمامًا للأتقياء، وقدوة للموحدين الأمناء.

أيها المسلمون: ونظرًا لأهمية الدور الذي قام به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد ذُكرت قصته في خمس وعشرين سورة، وفي ثلاث وستين آية من القرآن.

عباد الله: إن البيئة التي نشأ فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، سيطر عليها تعدد الآلهة، ونُصبت فيها التماثيل لعبادتها، لذلك عزم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، على هداية قومه، وتخليصهم من هذه الأباطيل، وهذا ما يذكره الله لنا بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥١-٥٦].

كان تعليل هؤلاء القوم لعبادتهم الأصنام، هو أنهم وجدوا آباءهم عابدين لها فاقتدوا بهم، وهذا هو التقليد الأعمى الذي حذر منه القرآن الكريم، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أراد أن يحرر قومه من عبادة الأصنام، وما يستتبع ذلك من الاعتقاد بالخرافات والأساطير، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٢].

هذا هو إيمان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يا عباد الله، إنه إيمان المستسلم لربه بكل جارحة من جوارحه، إنه الإيمان الذي ينزع من النفس همومها وأحزانها، ويسبغ عليها طمأنينة وسعادة، إنه الإيمان الذي يخلص النفس من الاستسلام للخرافات، فلا رازق ولا شافي، ولا محيي، ولا مميت، ولا غافر للذنب إلا الله رب العالمين.

أيها المسلمون: كان والد إبراهيم في مقدمة عابدي الأصنام، بل كان ممن ينحتها ويبيعها، وقد عزّ على إبراهيم فعل والده وهو أقرب الناس إلى قلبه، فرأى من واجبه أن يخصه بالنصيحة، ويحذره من عاقبة الكفر. ولكن بأي أسلوب خاطب إبراهيم أباه؟ لقد خاطبه بلهجة تسيل أدبًا ورقة، مبينًا بالبرهان العقلي بطلان عبادته للأصنام، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم:٤١-٤٨]. هذا كلام يهز أعطاف السامعين انظر كيف استهل إبراهيم كلامه عند كل نصيحة، بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، توسلًا إليه واستعطافًا لقلبه، مع استعمال الأدب الجم.

ومن ناحية أخرى يحاول إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب، حدة أبيه، حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله، وهذا أمر معلوم، فإن غالب الآباء هداهم الله، لا يمكن أن يقبل شيئًا من ولده لأنه يرى أنه أقل منه، وأنه خرج أساسًا من صلبه، فلا يمكن أن يصل إلى مستواه، وهذا الذي كان يفكر فيه والد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شك أن هذا، تفكير غير صحيح، فقد يكون الوالد صالحًا، ويخرج أولاده على غير صلاح الأب، والعكس أيضًا أمر وارد، فيكون الولد مهتديًا بنور الله عَزَّوَجَلَّ والأب يعيش، في ظلمة الجهل والهوى، كما كان حال

إبراهيم مع أبيه، فحاول إبراهيم أن يقيم الحجة على أبيه وهو هادئ غير ثائر، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]. كيف تعبد يا أبت إلهًا لا يسمعك إذا ناديته، ولا يبصرك إذا اقتربت منه، ولا يجلب لك نفعًا أو يدفع عنك مكروهًا. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]. لم يبدأ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حواره مع أبيه، بالحديث عن غزارة علمه، وقوة حجته، وشدة ذكائه، كما أنه لم يصف أباه بالجهل، ولو قال ذلك لكان صادقًا، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الأبناء، وهم يواجهون من هم أكبر منهم، سواء كانوا الآباء، أو من القرابات والأرحام، فإن طبيعة النفوس لا تقبل النصحية ممن هو أصغر منها، ولو كان على علم ودراية.

لكن كيف كانت مقابلة الوالد لولده إبراهيم لم يتقبل النصيحة، وصار يُهدد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. لئن لم تنته يا إبراهيم عن ضلالك، وتعود عن باطلك، لأرمينك بالحجارة، وما عليك الآن إلا أن تخرج من داري وتعتزل مجالسي.

وهكذا طرد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، من منزل أبيه، لأن ذلك الوالد، لم يرد الهداية، ولا يريد أن يكون ولده محافظًا على أوامر الله عَزَّوَجَلَّ أمامه، والأب يخالف الله، فأفضل حل أن يطرده ولا يراه أمامه.

بماذا قابل إبراهيم معاملة أبيه القاسية؟ لم يقابل والده إلا بقوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:٥٤]. كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، أي لن يصلك مني أي مكروه، ولن ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وفوق كل هذا، سأدعو الله أن يغفر لك، مع أنك عاص له، بألا يعاقبك.

عندها خرج إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عند أبيه، واعتزل القوم كلهم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨]. اعتزل إبراهيم أباه وقومه، فكان لا يحضر في أفراحهم ولا أعيادهم ولا ندواتهم، ومع ذلك كان يدعو لأبيه في ظهر الغيب، عسى الله أن يهديه، ولكن هذه الدعوة لم تستمر،



فبعد أن علم أن أباه لا يمكن أن يهتدي، وأنه سوف يلقى الله عَزَّوَجَلَّ وهو كافر، أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يتبرأ منه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..



الخطبة الثانية:

الحمد لله أولًا وآخرًا، والشكر له باطنًا وظاهرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: بعد ذلك، عزم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، على تحطيم أصنام القوم، ورأى أنها هي الطريقة العملية، لإقامة الحجة عليهم، بأن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، فالبرهان العملي له في النفس البشرية وقع كبير، هو أشد أثرًا من الوعظ والإرشاد.

تحين إبراهيم الفرصة المناسبة لتحقيق ما عزم عليه، حتى كان يوم عيد عندهم، خرج معهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم انتهز فرصة غفلتهم، ورجع أدراجه نحو المكان الذي فيه أصنامهم، وكان قد صمم على تحطيمها، وصل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الهيكل الذي أقيمت فيه أصنامهم، وكان بعضها إلى جانب بعض، يتصدرها كبيرها، ورأى أمامها ما تركه القوم، قربانًا لها من الطعام والشراب، لتأكله في زعمهم، فخاطبها إبراهيم ساخرًا، ألا تأكلون، فلما لم يجبه أحد، قال: ما لكم لا تنطقون، ثم انحنى عليها ضربًا بيده فكسرها كلها بفأس كان معه، وجعلها قطعًا صغيرة، أما الصنم الكبير فأبقاه ولم يكسره، وهو أكبر الآلهة عندهم، وعلق الفأس بيده ثم غادر الهيكل، قال سبحانه: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات:٩٠-٩٣]، وجاء في آية أخرى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٧-٥٨].

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أراد بتحطيمه لهذه الأصنام أن يقيم دليلًا حسيًا لقومه، على بطلان عبادة الأصنام، فلو كانت آلهة حقيقة لدافعت عن نفسها.

رجع القوم بعد أن احتفلوا بعيدهم، فرأوا ما حل بأصنامهم، فراعهم ذلك، وتساءلوا فيما بينهم عن الفاعل الذي نال من مقدساتهم، فقال بعضهم: سمعنا فتىً يذكر هذه الأصنام بسوء

يسمى إبراهيم، كان من عادته أن يعيبها ويستهزئ بها، وهو الذي نظنه فعل بها هذا الفعل.

وصل الخبر إلى الحكام، فقالوا لجنودهم: أحضروه لنحاكمه على مشهد من الناس، جيء به عليه الصلاة والسلام، فسأله الحكام ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٢]، عندها وجد إبراهيم الفرصة سانحة ليبلغ قومه ويوصلهم إلى الحقيقة، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣]، عندها أدرك القوم، فأطرقوا رؤوسهم من الخجل، لكنهم بكفرهم وعنادهم عادوا إلى مجادلة إبراهيم قائلين، إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تتكلم، فكيف تطلب منا أن نسألها، عندها برزت حجةُ إبراهيم مدوية مجلجلة، تقرع آذانهم، في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦، ٦٧].

وبعد ما رأى القوم أنه لا يمكن مناظرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحجة، استخدموا القوة معه، فأصدروا حكمهم عليه بالموت حرقًا، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، وهذا هو سلاح أهل الباطل، الذي يلجئون إليه دائمًا في كل عصر، فأجمع القوم على إحراقه بالنار، ولكن أي نار، بنوا بنيانًا شاهقًا، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب، شارك القوم كلهم في جمعها، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧]، قال ابن إسحاق: (وجمعوا من الحطب، شهرًا ثم أوقدوها، فاشتعلت النار واشتدت حتى إن الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها، وعندما أرادوا حرق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم يستطيعوا الاقتراب من النار لشدة حرها، فوضعوه في المنجنيق، وألقوه من بعيد مكتفًا مغلولًا).

وفي تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم بربه أشد رسوخًا من الجبال الرواسي، وكان ثقته بنصر الله وتأييده أقوى من الأرض ومن عليها، ولهذا لم يكترث لجماهيرهم المحتشدة، ونيرانهم الملتهبة، وكلماتهم النابية. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»[1]. وقالها أيضًا رسولنا محمد ﷺ، حين قالوا:

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٤).



﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]. وكذلك إبراهيم انقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء.

فوالله إنها لكلمة نافعة في مواقف الضيق وعندما يشتد الكرب بالمسلم، لو قالها من قلب صادق موقن بنصر الله عَزَّوَجَلَّ حسبنا الله ونعم الوكيل. عندها نزلت رحمة الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فسُلبت النار الخاصية التي أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ وهي الإحراق، لتكون بأمره عَزَّوَجَلَّ بردًا وسلامًا: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

خرج خليل الرحمن من النار سليمًا معافى، وقومه يشاهدونه ولا يتعظون، لأن الله قد كتب عليهم الهلاك بكفرهم وعنادهم.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠].

ومن سنن الله أن ينصر رسله إذا بلغت الشدة بهم منتهاها، ويخذل أعداءه قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

أيها المسلمون: نود أن نقف وقفة بسيطة، مع حرق نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنار، فنختار لكم قصة الوزغ. روى البخاري في صحيحه، عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ»(١). وفي رواية أن امرأة دخلت على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإذا رمح منصوب، فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت نقتل به الوزغ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: «أن إبراهيم لما ألقي في النار، جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه»(٢).

(١) رواه البخاري (٣٣٥٩).

(٢) صحيح الترغيب (٢٩٧٩).

سبحانك يا رب، أي دين أعظم من هذا الذي هديتنا إليه ورزقتنا اتباعه، أية مشاركة وجدانية، تلك المشاركة التي أوجدها الإسلام بين أفراده. منذ آلاف السنين، وكلما رأى المسلمون وزغًا سارعوا إلى قتله، لأنه كان ينفخ النار على أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأن عدو إبراهيم عدو لكل مسلم، وسيبقى المسلمون على ذلك، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، كالجسد الواحد، شعورهم واحد، مهما اختلفت أقطارهم وأمصارهم، وألوانهم وبلدانهم، بعضهم أولياء بعض.

عباد الله: هل هناك قصص أحسن من قصص القرآن؟ وهل هناك أنفع مما ذكره الله من قصص أنبيائه في غابر الأزمان؟ وإن قصة خليل الرحمن من أعظم القصص عِبرًا وفكَرًا، ومن أكثرها فوائد وفرائد، فتأملوها وربُّوا أنفسكم وأولادكم وأهليكم على أخلاق الأنبياء، وشمائل الأولياء، وسيروا على ملة إمام الحنفاء، الذي جعله الله للناس إمامًا، والذي سماكم المسلمين من قبل، فلا ترتضوا لأنفسكم تسمية سواها، ولا صبغةً غيرها، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

علّموا أبناءكم الثبات على الحق في زمن الفتن، كما ثبت الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، واصبروا على الشدائد كما صبر أولو العزم من الرسل الكرام، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف:١١١].



إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المسلمون: نقف اليوم معكم حول مواقف من قصة خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أيها الناس: من معالم صبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام وثباته وصدقه مع نفسه أنه حرر العقل وتحرّى الحق، واتبعه وثبت عليه رغم وقوف جميع الناس ضده، وحارب الشرك فكسر الأصنام وحطمها جميعها إلا كبيرهم، علم القوم بأن إبراهيم هو الذي فعل هذا أجمعوا على حرقه عليه الصلاة والسلام بالنار، فأوقدوا له تلك النار العظيمة وألقوه فيها، ولكن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ وقدرته على كل شيء سلب النار خاصية الإحراق، فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم المؤمن الصابر المتوكل على الله، الذي لا يرهب سواه.

---

(١) ناصر الأحمد.



خرج عليه الصلاة والسلام من النار سالمًا معافى والقوم ينظرون إليه عندها أيقن القوم أنهم عاجزون عن قتل خليل الرحمن أو حتى زحزحته عن عقيدته التي يدعو إليها، وعندها وقف طاغوتهم النمرود حائرًا لا يدري ماذا يفعل بعد أن عجزت نيرانهم المتأججة عن التهام ظفر من أظفار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو حتى حرق قطعةٍ صغيرة من ملابسه.

وأيقن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن جذور الشرك عميقة وعميقةٌ جدًا في قلوب قومه وعقولهم، لقد أقام عليهم الحجج الدامغة، ورأوا معجزات تبهر العقول فما زادهم ذلك كلهُ إلا إصرارًا على الباطل وإعراضًا عن الحق ولم يعد ينفع معهم أو فيهم النصح والموعظة، إذًا لا فائدة من بقاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أرض جرداء قاحلة لا تمسك ماء ولاتنبت كلأً، وبين قومٍ يستعجلون عذاب الله ويزهدون برسله وأنبيائه، عندها جاء أمر الله سبحانه وتعالى وأمره بالهجرة، أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يهاجر ومن معه من المؤمنين إلى الأرض المباركة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠-٧٣].

هاجر الخليل عليه الصلاة والسلام كما هاجر نوحٌ قبله وكما هاجر محمدًا ﷺ بعدهما، أخرج البخاري في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها: «أن ورقة بن نوفل قال لرسول الله ﷺ: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم، قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا»[1].

تخلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن وطنه وعن مسقط رأسه وملاعب صباه كما تخلى عن أقرب الناس إليه من أهله وقومه، وفر بدينه عليه الصلاة والسلام في أرض الله الواسعة وليس معه من المسلمين إلا ابن أخيه لوط عليه الصلاة والسلام وزوجه سارة، وهؤلاء

(١) رواه البخاري (٣).

الثلاثة إبراهيم ولوط وسارة هم جماعة المسلمين في ذلك الوقت، وليس على وجه الأرض من يذكر الله تعالى غيرهم.

وفي هذا عبرةٌ يا عباد الله لمن يعول على الكثرة، ويقول بأن المسلمين قلة، وأن أعداءهم كثير، فهذا عذر غير مقبول في حقل العمل الإسلامي، فهناك مواطن قاساها الأنبياء والصالحون، كان أهل الإسلام فيها أفرادًا وبقية أهل الأرض على الشرك، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام، خرج من قومه وليس معه إلا زوجه وابن أخيه فصار يتنقل بأرض الله تعالى داعيًا إلى الله غير مكترث بالقلة، فهذا هو الواجب على كل مسلم، سار إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن معه حتى وصلوا إلى أرض حرّان في بلاد الشام، وكان أهلها يعبدون الكواكب من دون الله، فدعاهم إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام إلى توحيد الله وعدم الإشراك به فلم يستجيبوا له، وبعد أن مكث في حرّان ما شاء الله له أن يمكث، رحل بعدها إلى أرض بيت المقدس وما والاها ثم ارتحل بعد ذلك إلى مصر.

وهناك جرت له قصة مع ملك مصر وقد ذكر هذه القصة الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين منها في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، وواحدةً في شأن سارة، فإنه قد قَدِم أرض جبارٍ ومعه سارة، وكانت أحسن النساء، فقال لها -إبراهيم يقول لزوجته سارة -: إن هذا الجبار - هذا الملك الكافر الطاغية في هذا البلد- إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه -هذا القريب للجبار أتى الجبار- فقال له: لقد قدم أرضَك امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأُتي بها، فقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبِضت يده قبضةً شديدة، فقال: ادْعِي الله أن يُطْلِق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقبِضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقُبِضت أشد من القبضتين الأولَيين، فقال: ادعِي الله أن يطلق يدي، فلكِ الله ألا أضرك، ففعلت وأُطْلِقت يده، ودعا الذي جاء بها، فقال له: إنك إنما أتيتني



بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأَخْرِجْها من أرضي وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ انصرف، فقال: مَهْيَمْ؟ قالت: خيرًا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء»(١).

مكث إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مصر ما شاء الله له أن يمكث، ثم غادرها راجعًا إلى أرض بيت المقدس ومعه من الأنعام والعبيد والمال ما لا يحصى، ونعمُ الله سبحانه وتعالى التي أنعمها على إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام تذكرنا بهجرة المسلمين إلى الحبشة وما لاقوه عند النجاشي من إكرام وحرية وأمن مما دعا الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث بن قيس أحد المهاجرين إلى القول برسالة بعثها إلى إخوانه المقيمين في مكة يقول فيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«يا راكبًا بلّغَنْ عني مغلغلةً ... من كان يرجو بلاغ الله والدينِ
كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخزيٍ ... في الممات وعيب غير مأمون»

ما أشد بعد المصلحين اليوم في فهم معاني هذه الأبيات والتأسي بإبراهيم عليه الصلاة والسلام في هجرته وغربته عن وطنه وأهله، لقد كانت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى في غربة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عن وطنه وأهله هي من أهم القضايا التي عالجها كتاب الله سبحانه وتعالى، فلم يتعلق قلبه عليه الصلاة والسلام بالأرض التي ولد فيها ولا على التراب الذي نشأ فيه، فكيف بنا يا عباد الله ويا دعاة الإسلام لو فارق الشخص الوطن الذي يحنو إليه لعارض مؤقت جلس يكتب الرسائل والقصائد التي تعبر عن حبه لوطنه وحنينه إليه، وإن العقيدة عند الأنبياء أهم من التراب والطين والوطن، وأغلى من الأهل والعشيرة والقوم، فثقتهم بالله سبحانه وتعالى أقوى من أن تزعزعها الأهواء والمحن وما يغلق في وجوههم في أرض يفتح سبحانه وتعالى لهم في أرض أخرى، قال عز من قائل في هذا المقام: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

(١) رواه البخاري (٣٣٥٨).

أيها المسلمون: عاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مصر إلى أرض فلسطين ومعه زوجه والجارية هاجر وكانت نفس إبراهيم عليه الصلاة والسلام ترغب في ولد، فدعى الله سبحانه وتعالى أن يهبه ولدًا صالحًا كما قال سبحانه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠]، وكأن زوجه سارة شعرت بما يجول في خاطر زوجها فقالت له: إن الله حرمني الولد فأرى أن تتزوج جاريتي هاجر لعل الله أن يرزقك منها ولدًا وكانت سارة قد تقدمت في السن وكانت عقيمًا لا تلد ولا يرجى أن ترزق بولد.

تزوج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهاجر فولدت له إسماعيل، وبعد أن رزق إبراهيم بإسماعيل بدأت سارة تحس أن هاجر تتيه عجبًا وتعتز بهذا الولد مما أثار الحسرة والغيرة في نفس سارة فطلبت من إبراهيم عليه الصلاة والسلام إقصاءهما عن وجهها.

استجاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى رغبتها لأمر يريده الله سبحانه وتعالى فأوحى الله إلى إبراهيم أن يأخذهما ويذهب بهما إلى مكة، وكان إسماعيل يومئذٍ رضيعًا، اصطحب إبراهيم الغلام وأمه هاجر وسار بهما سيرًا طويلًا، إلى أن أمره الله سبحانه وتعالى بالتوقف في أرض خلاء بعيدةٍ عن العمران في المكان الذي سيبني فيه البيت الحرام. أنزل إبراهيمُ هاجر وطفلها في المكان المقفر الذي ليس فيه ماء ثم تركها وقفل راجعًا، تبعته هاجر عليها الصلاة والسلام وهي ملتاعة وقالت: إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا في هذا الوادي الموحش المقفر؟ وهو يمضي في سبيله لا يلتفت إليها، عندئذٍ قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم قالت: إذًا لا يضيعنا الله عَزَّوَجَلَّ ثم رجعت إلى المكان الذي وضعها إبراهيم فيه مع ولدها.

انطلق إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقلبه منفطرٌ أسىً على فراق زوجته وولده لكن مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ فوق مشيئة العبد فاستسلم لربه وقفل راجعًا وهو يبتهل لربه ويدعوا بهذه الكلمات التي قصها الله علينا في كتابه ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٧-٣٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ونفعني وإياكم بما فيه من المواعظ والذكر الحكيم، أقول ما سمعتم وأستغفر الله العلي العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله.. الحمد لله رافع السماء وبانيها، وساطح الأرض وداحيها، وجاعل الجبال أوتادًا في أركانها ونواحيها، أحمده سبحانه وأتوب إليه وأستغفره.. أنعم علينا نعمًا لا نحصيها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها.. وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله بشير البشرية ونذيرها وهاديها، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.. رفعوا رايات الملة حتى علت مبانيها، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقبت الأيام بلياليها، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أيها المسلمون: امتثلت هاجر إلى أمر الله عَزَّوَجَلَّ وتحلت بالصبر ومكثت تأكل من الزاد وتشرب من الماء الذي تركه لها إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن نفذ كله، فعطشت وعطش ابنها معها وجعلت تنظر إليه وهو يتلوى من الظمأ، لم تحتمل هذا المشهد المؤلم وهبت قائمة، وسارت هائمة على وجهها، تعدو وتهرول وتكاد تفقد وعيها، صعدت هاجر مكانًا مرتفعًا يعرف بالصفا، فنظرت لعلها ترى ماءً، فلم تر شيئًا، فهبطت وسعت سعي الإنسان المرهق، حتى أتت مكانًا مرتفعًا آخر يعرف بالمروة فنظرت فلم تر شيئًا ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئًا فعلت ذلك سبع مرات، ثم لما أشرفت أخيرًا على المروة، سمعت صوتًا فتلفتت فإذا بملك من الملائكة عند موضع بئر زمزم، فبحث بجناحه حتى ظهر الماء وقيل في رواية أخرى أن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يفحص بقدميه الأرض فنبع الماء من تحتها والله أعلم بالصواب وكله حاصل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته.

رأت هاجر هذا المشهد المثير فغمرها الفرح والسرور ثم جعلت تغرف من الماء وتسقي ولدها وتروي نفسها، ولما نبع الماء اجتذب الطير إليه وكان قوم من قبيلة جُرهم يسيرون قرب هذا المكان فرأوا الطير تحوم حوله ثم سأل بعضهم بعضًا: إن هذا الطير ليحلق على ماء فهل علمتم أن بهذا الوادي ماءً قالوا: لا، فأرسلوا أحدهم يستطلع الخبر فرجع يزف إليهم بشرى وجود الماء فجاؤوا إلى هاجر فقالوا: لو شئت كنا معك نوانسك، والماء ماؤك، فرحبت

بهم، فاستوطنوا بجوارها حتى شب إسماعيل عليه الصلاة والسلام ثم تزوج بعد ذلك بامرأة جرهمية وتعلم العربية منهم.

أيها المسلمون: ترك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولده إسماعيلَ في مكة، ولكنه لم ينسه ولم يغفل عنه بل كان يزوره من حين إلى آخر، وفي إحدى هذه الزيارات رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام في منامه أن الله يأمره بذبح ولده إسماعيل، ورؤيا الأنبياء حق يا عباد الله لأنها بمثابة الوحي من الله، لذلك عزم إبراهيمُ على تنفيذ أمر الله ولم يثنه عن عزمه أن إسماعيل ابنه الوحيد وأنه أصبح في سن الشيخوخة، وهذا ما يقصه الله علينا في كتابه بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:٩٩-١١٢].

أي امتحان يا عباد الله أصعب من هذا، يؤمر خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام بذبح ولده وكان وحيده آنذاك، إن هذا أيها الأخوة من أعظم الحوادث وأجلها في تاريخ التضحيات، وبالأخص إذا نظرنا إليهما من الزوايا التي أحيطت بهذه التضحية فإبراهيم عليه الصلاة والسلام الحريص على الذرية والذي رزق ولدًا في سن الشيخوخة، هذا الولد الذي هو مهجة قلبه وأمل حياته ووارث اسمه يأمره الله أن يضحي به ليمتحن إيمانه ويرى مبلغ استجابته لأمره سبحانه وتعالى ودرجة طاعته حدث إبراهيم ولده في هذا الشأن الخطير ويكاد قلبهُ لينخلع من الحزن فيجيبه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

إن اللسان أيها الأخوة ليعجز عن وصف مضمون هذا القول الذي يتمثل فيه الرضا التام بتضحية النفس في سبيل الله تضحية من وجهين تضحية الوالد بولده وتضحية الابن بنفسه، هذه هي أرفع صور الإيمان وأجلها في تاريخ الإنسانية، فليس الإيمان يا عباد الله ادعاءات



تلوكها الألسن، وليس الإيمان تسلية للأحزان لفترة ما، وليس الإيمان نظرية من النظريات يغوص العقل في كشف خفاياها، بل الإيمان هو إيثار ما يحب الله على ما تهواه النفس، الإيمان هو الاندماج الكلي في إرادة الله سبحانه وتعالى التي تتركز في العمل بوصايا الله وأوامره، والتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيله.

ما أحوجنا إلى هذا الدرس في هذا الزمن الذي أصبح فيه المال والولد والزوجة يستأثرون بحب الإنسان الذي يؤثرهم على ما يحبه الله ويرضاه، وما أحقر الإنسان يا عباد الله إذا تعلق بزينة الحياة الدنيا الفانية وترك الحقيقة الخالدة التي هي مصدر وجوده ومصدر استمرار حياته.

فهل خاب إبراهيم حينما آثر ما يحبه الله على ما تحبه النفس؟ كلا، بل كل من تاجر مع الله رجع بأربح صفقة، فلقد أراد الله بهذا الاختبار والامتحان الصعب أن يخلّص إبراهيم من كل شيء يتعلق به قلبه سوى ربه، ليرفعه لمنزلة الخُلة، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وهكذا كل من ترك شيئًا لأجل الله أسرع إليه العوض من الله بأكثر مما ترك، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وهو أكرم الأكرمين سبحانه.

وفوق هذا فقد رزق الله نبيه إبراهيم الذرية الصالحة التي كان يتمناها، فرزقه إسماعيل من هاجر، ومن سارة إسحاق، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فما من نبي بُعث بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا كان من ذريته، وما من كتاب نزل من السماء إلا نزل على نبي من نسله وعقبه، سواء من بني إسرائيل الذي هو يعقوب بن إسحاق، أو على نبينا ﷺ الذي هو ابن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أيها المسلمون: ومرةً قدم إبراهيمُ يومًا إلى مكة وأتى بيت إسماعيل فلم يجده، ووجد امرأته، وكانت تجهل أنه والد زوجها فسألها إبراهيم عن إسماعيل فأخبرته أنه خرج يصطاد ثم سألها عن حالهم فقالت: نحن في شدة وضيق وشكت إليه سوء الحال ثم قال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة من طعام وشراب فقالت: لا، ليس عندي. ولما لقي منها إبراهيم من البخل والتسخط وعدم الرضا بقسمة الله سبحانه وتعالى قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه.

انطلق إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وجاء الزوج وكأنه آنس أن أمرًا حدث خلال غيابه فقال: هل جاءكم أحد؟ فقالت نعم جاءنا شيخ كبير صفته كذا وكذا وسألني عنك فأخبرته، فقال لها: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، وطلب مني أن أقول لك أن تغير عتبة بابك، فقال إسماعيل: ذاك هو أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك.

ثم طلقها عليه الصلاة والسلام، وتزوج امرأة أخرى، غاب إبراهيم عن إسماعيل بعض الزمن ثم أتاه بعد فترة فلم يجده كذلك، ووجد امرأته الجديدة، فاستقبلته ورحبت به، فسألها إبراهيم: هل عندك ضيافة قالت: نعم فضيفته وأكرمته ثم سألها عن حالهم فقالت: نحن بخير وسعة والحمد لله، وأثنت على الله سبحانه وتعالى، فقال لها إبراهيم: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام، وقولي له أن يثبت عتبة بابه.

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام، رجع إسماعيل بعد زمن إلى منزله في المساء فأخبرته زوجته بمجيء شيخ كبير في غيبته ووصفت له هيئته وأخبرته بوصيته له فقال لها إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه أبي وقد أمرني أن احتفظ بك وأن لا أفارقك، فلازمها إسماعيل طوال حياته وكانت أمًا لأبنائه.

واعلموا رحمكم الله أن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى فيه بملائكته المسبحة بقدسه وثلث بكم أيها المؤمنون من جنه وإنسه فقال عز من قائل عليم حكيم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر وارض اللهم عن خلفائه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن سائر الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وعنا معهم بعفوك ومنّك وكرمك وجودك وإحسانك يا أرحم الراحمين اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين واحم حوزة الدين وانصر عبادك الموحدين اللهم آمنا في أوطاننا وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا واجعل اللهم ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك يا أرحم الراحمين واغفر اللهم للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنك سميع قريب مجيب الدعوات ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

عباد الله: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا إن الله يعلم ما تصنعون.





قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله بارئِ البريَّات، غافِرِ الخطيَّات، عالِمِ الخفيَّات، المُطَّلِع على الضمائِرِ والنيَّات، أحمدُه حمدَ مُعترِفٍ بالتقصير، وأستغفِرُه استغفارَ مُذنبٍ يخافُ عذابَ السعير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أحاطَ بكل شيءٍ علمًا، ووسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وحِلمًا، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله نبيُّ الرحمة الداعي إلى سبيل ربِّه بالحكمة، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله وصحبِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فيا أيها الناس.. اتقوا الله؛ فإن تقواه أفضلُ مُكتسَب، وطاعته أعلى نسَب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها المسلمون:

في سِيَر السابقين عِظَةٌ وهداية، وفي قصص الأنبياء عِبرةٌ ودلالة، وما أحوجَ الأمة إلى النظر في تلك القصص والأنباء؛ لتكون علَمًا ومنارًا، ومحجَّةً وإسفارًا، ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

وقصةُ أبي الأنبياء وإمامِ الحُنفاء إبراهيم ﷺ، أشرف أُولي العزم بعد نبيِّنا وسيدنا محمد ﷺ، قصةٌ مُجلَّلةٌ بالآيات والعِظات، مُكلَّلةٌ بالعِبَر والدلالات، إبراهيمُ الخليلُ الذي جُعِلَت الإمامةُ مُتصِلةً بسببه، وباقيةً في نسَبِه، وخالدةً في عقِبِه، لا ينالُها الظالمون من ذريَّته.

ومن خصائصه وفضائله: خِلعةٌ سنيَّةٌ لا تُضاهَى، ومرتبةٌ عاليةٌ لا تُباهَى، وخصوصيةٌ فريدةٌ لا تُسامَى، فكلُّ كتابٍ أُنزِل بعده من السماء على نبيٍّ من الأنبياء فذلك النبيُّ من ذريته وسُلالته، قال جل في عُلاه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



ولما كبُرَ إبراهيمُ وعقُمَت سارة اشتدَّت لوعةُ الوحدةِ ومرارةُ الوَحشة؛ فدعا إبراهيمُ ربَّه أن يهَبَ له عقِبًا صالحًا، فدخل - بمشورةِ سارة - على هاجر الأمينة المُؤمنة، فأنجبَت له إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن هذا الفرع الشريف والغُصن المُنيف خرجَت الجوهرةُ الباهِرة والدُّرَّةُ الزاهرة وواسطةُ العِقد الفاخرة، وُولِد خيرُ أهل الأرض على الإطلاق، وسيدُ ولد آدم باتفاق: نبيُّنا وسيدُنا محمد ﷺ، الذي اختارَه ربُّه واصطفاه، ولم يُوجَد نبيٌّ من سُلالة إسماعيل سِواه.

ودبَّت الغيرةُ في نفس سارة، وتشعَّبَ لُبُّها، وثارَ حُزنُها وشجَنُها، وتمنَّت على إبراهيم أن يذهبَ بهاجر وابنِها إلى حيث لا تراهما، فركِبَ إبراهيم بهما يطوِي المراحِل، ويحدُو الرواحِل، حتى جاء - بأمر ربِّه - موضع البيت الحرام في موطنٍ مُقفِرٍ هواء، ومكانٍ خلاء، وبلادٍ جرداء، ووادٍ مُوحِش ليس به زرعٌ ولا ضَرع، ولا أنيسٌ ولا حَسيس، فتركَهما هناك لا يملِكان سوى جِرابٍ به قليلٌ من الغذاء، وسِقاءٍ به يسيرٌ من الماء.

فتبِعَته أمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم! أين تذهبُ وتتركنا في هذا الوادي؟ إلى من تتركُنا؟ فقال إبراهيم: إلى الله، قالت: رضِيتُ بالله. وفي لفظٍ: قالت: إذًا لا يُضيِّعُنا.

يا لها من عقيدةٍ صادقة تُوقِظُ الضمائر، وتُرهِفُ المشاعِر، استسلَمَت لقضاء الله وخضعَت لحُكمه، وانقادَت لأمره بلا تردُّدٍ ولا تعنُّت، وفوَّضَت أمرَها، وألجأَت ظهرَها، ووجَّهت وجهَها إلى الحيِّ الذي لا يموت.

فلتأخُذ المرأةُ المسلمةُ اليوم من هاجر المؤمنة نِبراسًا في الاتباع، وقُدوةً في الانقياد، وأُسوةً في الصبر والثَبات.

وانحدَرَ إبراهيم مُفارِقًا حُشاشة نفسه، مُودِّعًا قطعةَ قلبه، مُستسلِمًا للقضاء، صابرًا على البلاء، داعيًا دُعاءَ المُوقِن بإجابة الدعاء: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

ومكَثَت هاجرُ تُعالِجُ القضاءَ المحتُومَ، فنفَذَ زادُها وجفَّ ضرعُها، حتى لا تجِدَ لابنها ماءً يبُلُّ صداه، ولا لبنًا تتندَّى به شَفَتاه، في مخمصةٍ مُقسِعة، ومسغبَةٍ مُعطِبة، فهاجَها التِياعُ طفلها،

ونحيبُ صغيرِها، وهو يتلوَّى ويتلبَّط، يفحَصُ الأرضَ برِجلَيْه، ويضربُ الصلطَ بقدَمَيْه، كأنه ينشطُ للموت.

فانطلَقت كراهيةَ أن تنظُر إليه - وقد تقطَّعت نِياطُ قلبها -، فقامَت على الصفا واستقبَلَت الوادي لعلها ترى أحدًا، ثم استبطَنت الوادي ورفعَت دِرعَها، وسعَت جهدَها، حتى أتت المروةَ فقامَت فوقَها، ونظرَت لعل أحدًا يأتي نحوَها.

فلما أتمَّت سبعًا بين الصفا والمروة إذا هي بصوتٍ، فنادَت نداءَ اللَّهفان، واستغاثت استغاثةَ الظمآن: أغِث إن كان عندك غُواث، أغِث إن كان عندك غُواث.

فإذا هي بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبحثَ بعقبِه الأرض، فانبثَقَ الماءُ وفار، وتفجَّرَ نبعُ زمزمَ وحارَ.

والله لا يُضيِّعُ من اتقاه، ولا يُخيِّبُ من رجَاه.

فرحِمَ الله ضعفَها، وفرَّج كربَها، وأنبَعَ الأرضَ تحتها، فجعلَت تُحوِّضُه بيديها وتغرِفُه بكفَّيها، وتسقِي وليدَها، وتملأُ سِقاءَها. فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أمَّ إسماعيل؛ لو تركَت زمزم - أو لو لم تغرِف من زمزَم - لكانَت زمزم عينًا مَعينًا»(١).

وها هي زمزمُ تسقي - بأمر ربِّها - الحَجيج، وتُطفِئُ لهبَ الأجِيج، ويُسمَع لها ثَجيج، خيرُ ماءٍ وُجِد على وجه الأرض، يقول فيها رسول الله ﷺ: «إنها لَمُباركة، هي طعامُ طُعمٍ، وشِفاءُ سُقم»(٢).

وحلَّق الطيرُ فوق الماء، وحوَّم حول الرَّواء، وصفَّق بجناحَيْه في السماء، فرأته رُفقةٌ من جُرهُم مُقبِلين من طريق كَداء، فأقبَلوا يستأذِنونها في النزول بجِوارِها والإقامة في ناحيتها، فألفَى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبُّ جِنسَها، وأذِنَت لهم حتى أضحَوا أُنسَها، وتوافَدَت أبياتٌ منهم عليها، وهوَ أفئدةٌ من الناس إليها، ونشأَ إسماعيلُ بين وِلدانهم، وتكلَّم بلسانِهم، ونطقَ بعربيَّتهم، وأنفَسهم فقرَّبُوه، وأعجبَهم فزوَّجوه.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) صحيح الجامع (٢٤٣٥).



ثم فُجِع إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بموت أمه الصابِرة، وانتقال هاجر إلى الدار الآخرة، بعد أن أرضعَته جميلَ الشمائل والخِصال، وبادَرَته بالتأديب حتى بلغَ مبلغَ الرجال.

وتربيةُ الأولاد هي مهمةُ المرأةِ العُظمى، ووظيفتُها الأُولَى، ومتى ضُيِّعَت ضاعَت الأمةُ وأجيالُها، وفسَدَت أوضاعُها وأحوالُها.

وكان إبراهيم يفِدُ إلى ابنه لِمامًا، ويتفقَّدُه أحيانًا، تُهيجُه حُرقةُ الاشتياق، ويُزعِجُه ألمُ الفِراق، والشوقُ إلى الولد لا يردُّه صبر، ولا يستقِلُّ به صدر.

فجاء يومًا وإسماعيل يبرِي نَبلًا، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنعُ الوالدُ مع ولده من الاعتناق عند التلاق بعد طول الفِراق، ثم أخبر إبراهيمُ ابنَه بما أمره ربُّه؛ من بناءِ البيت على أساسٍ من التوحيد والحنيفية ونبذِ الشرك والوثنيَّة، فرفعَ إبراهيمُ القواعد من البيت، وإسماعيل بين عينيه، وطوعُ يديه، ورَهنُ كفَّيه، يأتي بالحِجارة، ويُعينُ أباه في البناء والعِمارة، فلما ارتفعَ البناء جاء له بحجرٍ ليقوم عليه، فقام إبراهيمُ على حجر المقام حافِيَ القدَمَيْن يبني وإسماعيلُ يُناوِلُه الحِجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

وما شأنُ العمل بلا قبول، وما قيمتُه بلا رِضا، وما فائدتُه بلا أجرٍ ولا ثواب؟!

فاتَّخِذوا من الإخلاصِ وسيلةً إلى القَبول، ومن الموافقة والاتباع للرسول ﷺ وسيلةً إلى حصول الأجر والثواب المأمول؛ فالمُرائِي لا ينتفِعُ بعمله، والمُبتدِعُ لا يُثابُ على سعيِه.

وتم البناءُ، وصدَحَ إبراهيم في الأرض بالأذان والنداء، فأقبَلَت الوفود وتقاطَرت الحُشود من عهد أبينا إبراهيم ﷺ وإلى يومنا هذا والمسلمون يأمُّون الكعبةَ المُعظَّمة والبِطاح المُقدَّسة والمشاعِر المُحرَّمة، وقد توحَّد منهم اللباس على اختلاف الأجناس، وتوحَّدت المناسِك على اختلاف البُلدان والممالِك، اجتمعوا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبيِّنا محمد ﷺ، وعلى ملَّة أبينا إبراهيم حنيفًا مُسلِمًا وما كان من المُشركين.

بنيانٌ واحد، وجسَدٌ واحد، يسعَدُ بسعادة بعضه، ويتألَّمُ لألَمِه ومرضِه، يقول رسول الله ﷺ: «من صلَّى صلاتنا، واستقبَلَ قِبلَتنا، وأكلَ ذبيحَتنا، فذلك المسلم، الذي له ذِمَةُ الله وذِمَّةُ رسوله، فلا تُخفِروا اللهَ في ذِمَّته»؛[1].

وأصبحَت الكعبةُ المُشرَّفة قبلةً لأمة محمد ﷺ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]، ولكلٍّ طريقةٌ يرتضيها، ووجهُ السلم حيثُ توجَّه به دينُه، لا يَخرُج عن جهته، ولا يُماثِلُ غيرَه في نِحلَته وحِليته، ولا يُشابِهُه في سُنَّته وهيئَته، ولا يُقارِبُهفي خُلُقه وطريقته.

وأنَّى لأهل الإسلام أن يتوجَّهوا لغيره والوحيُ نزل عليهم، ورسولُ الله ﷺ بُعِث فيهم، حتى صاروا ببركة رسالته ويُمن سِفارته ونور دعوته ودلالته خيرَ الأمم.

فالثَّباتَ الثبَات - يا أهل الإسلام -، والحذر الحَذر أن تزِلَّ بكم الأقدام؛ فدينكم هو القبلةُ الصحيحة، وشريعتُكم هي الوِجهةُ المُستقيمة، وعقيدتُكم هي الفِطرةُ السليمة.

ثبَّتني الله وإياكم على الحق والهُدى حتى نلقاه. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئةٍ، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٣٩١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الكبير المُتعال، أحمدُه على جزيلِ النوالِ وكريمِ الإفضال، وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له تقدَّس عن الأنداد والأضداد والأمثال، وأشهد أن نبيَّنا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله كريمُ الخِصال وشريفُ الخِلال، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه خيرِ صحبٍ وأكرمِ آلٍ.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون:

اتقوا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فبالتقوى تحصُلُ البركة وتندفِعُ الهلَكَة، إن العاقبةَ للمُتقين.

ورأى إبراهيمُ في منامه رُؤيا - ورُؤيا الأنبياء حقٌّ -، محنةٌ تدُكُّ الجِبـال، وتُثقِـلُ الرجـال، شيخٌ كبيرٌ جالدَ الأيام، وأحنَته الأحداثُ الجِسام، يُؤمَرُ بذبحِ ولدِه، وفرْيِ أوداجِ فِلـذَة كبـدِه وإنهار دمه بيده.

أيُّ نفسٍ تُطيقُ هذا البلاء، وأيُّ قلبٍ يقوَى هذا العناء؟! وأيُّ رجل يقوى على مـا قـوي عليه أبو الأنبياء؟ لكنه الابتلاء والاصطفاء من رب الأرض والسماء.

ودخل إسماعيلُ ليقُصَّ عليه أبوه رُؤياه، ويُخبِره بمِحنته وبَلواه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات:١٠٢]، فيقول إسماعيلُ -طائعًا لربِّه ومُلبِّيًا، صابِرًا ومُؤدِّيًا، مُنقادًا وراضِيًا-: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] طاوَعَه الابنُ الصـالحُ بـالتمكين، وكـان لأبيـه خيرَ مُعين ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

فلما أمرَّ على حلقه بالسكِّين ناداه أرحـمُ الـراحمين: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٦]، وفَداهُ ربُّه بـذِبحٍ عظـيم، وخلَّصَـه بكـبشٍ لَحـيم؛ لـيُعلَمَ أن الـبلاء لـيس للتعـذيب، ولكنـه للتمحيصِ والتهذيب.

فحينَ تعلَّقَت شُعبةٌ من قلب إبراهيم بمحبة إسماعيل، وقد اتخذَ الله إبـراهيم خليلًا، مر بذبح المحبوب، فلما شرعَ في ذبحِه دلَّ على أن محبـةَ الله أعظـمُ عنـده مـن محبـة ولـده نفسـه، فخلَصَت الخُلَّةُ من شوائب المُشارَكة، ولم يبقَ في الذبحِ مصلحة.

فأين من هامَ قلبُه، وتشتَّتَت نفسُه في العِشقِ والوَلَه، والعلَقِ والسَّفَه، والهوى والعَلَه:

فيومًا بالعُذَيبِ ويومًا بالخُليصَاءِ

وتارةً ينتحِي نجدًا وآونةً شِعبَ العقيق وطورًا قصر تيماءِ

حبٌّ لغير الله، وخُلَّةٌ لم تُؤسَّس على تقواه، موطئٌ زلَق، ومسلَكٌ خطِر، وخِزايةٌ لا تَبلَى، ومسبَّةٌ لا تفنَى، ومعابَةٌ لا تُنسَى. ولا يجتمعُ حبُّ الرب الأعلى بحبِّ المعشوقِ أبدًا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

فيا لها من موعظةٍ فأين السامِع؟ ويا لها من تذكرةٍ فأين التائبُ الراجِع؟ ويا لها من مُوقِظة فأين النادِمُ الخاشِع؟! يُؤمَرُ الخليلُ بذبحِ ولده، فيُبـاشِرُ الـذبحَ بيـده، وتسـتكبِرُ نفـوسٌ عـلى الشرع الحكيم، وتستنكِفُ أن تلينَ وتستكينُ لأحكام الدين.

فويلٌ للمُستنكفين المُستكبِرين، الرافضين للحق، المُضلِّي للخلق، يوم يُحشَرون صـاغِرين حقِيرين ذليلين، ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥].

أيها المسلمون:

لقد مضَت سنةُ الأضاحِي علَمًا للملَّة الإبراهيمية، وسـنةً في الشـريعة المُحمَّديـة، تُـذكِّرُ بالتضـحية والفـداء، والصـدقِ والوفـاء، والصـبر والثبـات عنـد المِحنـة والـبلاء، وحُسـن الاستجابةِ لله في السرَّاء والضرَّاء.

مضَت قصةُ إبراهيم وهاجر وإسماعيل تُبينُ بأن الإسلام ليس بمحضِ التسمِّي والانتماء، ولا بمحضِ الانتِساب والادِّعاء، ولكنه إيمانٌ راسخ، يقينٌ صادق، علامتُه الخُضوع والانقياد الذي لا يصُدُّ عنه صادٌّ، ولا يردُّ عنه رادٌّ، ولا يحمِلُ على تركه مُضاد.

مضَت قصةُ الابتلاء العظيم تُذكِّرُ أمةَ الإسلام وهي تُعالِجُ أمواجَ البلاء بأنه لا حُجَّـةَ في الزيغِ عن منهاجِ الاستقامة، ولا شُبهة للحِياد عن وجه الحق، ولا تعلُّل للتعـالِي عـن واضـح

المحجَّة، ولا معاذِيرَ في المُلايَنَة على حساب العقيدة والدين. فسلامٌ على أبي الأنبياء، وإمام الحُنفاء، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات:١٠٩].

عباد الله: إن الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنَّى بملائكته المُسبِّحة بقُدسه، وأيَّه بكم - أيها المؤمنون - من جنِّه وإنسِه، فقال قولًا كريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن خلفائه الأربعة، أصحاب السنة المُتَّبعة: أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن سائر الصحابة أجمعين، والتابعين لهم وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بمنِّك وكرمك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ الشركَ والمشركين، وأذِلَّ الشركَ والمشركين، ودمِّر أعداء الدين، وانصر عبادكَ المُوحِّدين، ودمِّر الطغاة والبُغاة والمُعتدين، ودمِّر الطغاة والبُغاة والمُعتدين يا رب العالمين.

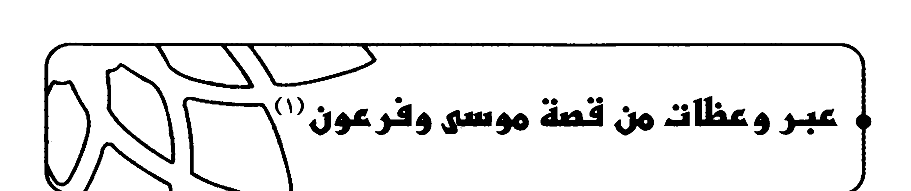
اللهم أصلِح أحوالَ المسلمين في كل مكان، اللهم احقِن دماءَهم، وصُن أعراضَهم، واحفَظ أموالَهم وأمنَهم واستقرارَهم يا كريم يا رب العالمين. اللهم ارفع الفتنَ والشرورَ والحروبَ عن بلاد المسلمين.

اللهم لا تُشمِت بنا أحدًا، ولا تجعل لكافرٍ علينا يدًا.

اللهم اشف مرضانا، وعافِ مُبتلانا، وفُكَّ أسرانا، وارحم موتانا، وانصرنا على من عادانا يا رب العالمين.

اللهم من أرادَنا وأرادَ بلادَنا وأرادَ المسلمين بسوءٍ اللهم فأشغِله بنفسه، واجعل كيدَه في نحره، واجعل تدبيرَه تدميرَه يا رب العالمين، اللهم اكشِف أمرَه، واهتِك سِترَه، واجعله عِبرة يا رب العالمين يا قويُّ يا عزيز.





عبر وعظات من قصة موسى وفرعون[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

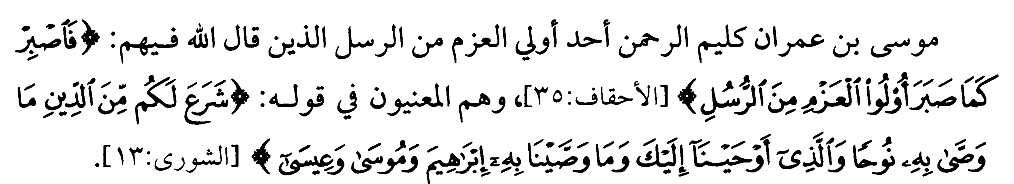
أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى.

عباد الله: لقد قصَّ الله علينا نبأ أنبيائه، ومنهم ما قصه عن النبي الكريم موسى الكريم، الذي هو أكثر نبي قصّ الله سيرته واستعرض مسيرته في الدعوة إلى دين الله، والصبر على الأذى والعنت من بين إسرائيل، حتى أنه لم يذكر نبيًا في كتابه الكريم كما ذكر موسى الكليم عليه وعلى نبينا أتم الصلاة وأزكى التسليم، ذلك لما فيها من العظات والعبر لمن تدبّر واعتبر.

---

(١) عبدالعزيز آل الشيخ.



موسى بن عمران كليم الرحمن أحد أولي العزم من الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وهم المعنيون في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣].

ربُّنا جل وعلا قصَّ علينا في القرآن نبأ هذا النبي الكريم في معظم آي القرآن، ما بين مبسوط وما بين موجَز، وما كانت تلك القصة عبثًا، ولا مجرَّد تاريخ يُحكى، ولكنها العبر والعظات، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

قصَّ الله علينا نبأ هذا النبي الكريم من حين وُلد، ذلك أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وُلد في عامٍ كان فرعون يقتل فيه الذكورَ من بني إسرائيل، ويستبقي فيه النساء، ولكن الله جل وعلا حفظ هذا النبيَّ من كيدهم، حفظه من كيدهم، ووقاه شرَّهم، وتربَّى في بيت آل فرعون لما لله في ذلك من الحكمة البالغة.

عندما ولدته أمه ضاقت بها الأرض ذرعًا، وتعلمُ أنه إن عُلم به قتل، فأوحى الله إليها: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧]، ترضعه، وتضعه في صندوق وتلقيه في البحر، ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]. إنه وعدُ حقٍ لا شك فيه، ترضعه أمُّه وتلقيه في اليم، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، ولكن الله ألقى في قلب امرأة فرعون محبته والشفقة عليه والحنان عليه، فصارت أعظمَ من أمه رفقًا ورحمةً به، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

بُحث له عن مرضعة، ولم يلتقم ثدي أيِّ مرضعة، وامراة فرعون حريصةٌ على حياته وعلى سلامته، فحرَّم الله المراضع عليه لما له في ذلك من الحكمة، وتبعث امرأة فرعون من يبحث عن مرضعةٍ وإذا أخته تخبرهم عن مرضعة له، فجاؤوا بها فالتقم ثديَ أمه، وقرَّت أمُّه عينًا بوعد الله لها، فنعد ذلك قُرِّبت أمُّه وأكرمت، ولا يعلمون أنها أمه، وإنما يعدُّونها مرضعةً أجيرة، تأخذ أجرةً على الإرضاع، والله حكيم عليم فيما يقضي ويقدر.

بلغ هذا النبيُّ أشدّه واستوى وآتاه الله حكمةً وعلما، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:٨٤].

أمره الله أن يأتي فرعونَ الذي يقول: إنه الرب الأعلى، أن يأتيَه يدعوه إلى الله، وإلى عبادة الله، وأن يخلِّي بينه وبين بني إسرائيل. وشدَّ عضده بأخيه هارون، فأتيا إلى فرعون يدعوانه إلى الله، ويرشدانه إلى الحق، والله يقول لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]. ولما خافا قال لهما: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، فقوي قلب موسى، قوي قلبه، وعظمت ثقته بربه، فجاء لذلك الطاغية، يدعوه إلى الله وإلى عبادته، ويترك ما هو فيه من الباطل والضلال، ولكن فرعون لجَّ في طغيانه، وتمادى في باطله، وقال لموسى مستهزئًا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، والله يعلم أن فرعون كاذب في دعواه، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

دعاه إلى الله، وناظره وجادله، وأقام الحجة والبراهين على فساد طريقته، وأن ما هو عليه باطل وضلال، وطلب فرعون آيةً من موسى، وكان إذ ذاك، كان السحرة في عهد فرعون لهم الشأن والقوة، وكانوا المقدَّمين في الأمور، فأعطى الله موسى من الآيات الباهرات ما حيّر عقولَ السحرة كما سيأتي بيانه، فطلب آيةً من موسى، فأخرج موسى يدَه فإذا هي بيضاء تحاكي الشمس في قوَّتها وبياضها، وألقى عصاه فإذا هي حيَّة تسعى، فعند ذلك أصابَ فرعونَ ما أصابه من الخوف والخجل، وعلم أن ذاك حق، ولكن الشقاوة إذا غلبت على العبد فليس فيه حيلة، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

أقام موسى يدعو فرعونَ إلى الله، وينشر دينَ الله، ويدعو إلى عبادة الله، ويقيم حجةَ الله على خلقه، إنها لدروس وعظات، إنها لدروس وإنها لعظة وعبرة، تبيّن للداعي إلى الله أن الدعوةَ إلى الله طريقُ الأنبياء والمرسلين، وأن الدعوةَ إلى الله لا بد للداعي فيها من صبر وقوةِ جأش وتحمُّلٍ لكل الأمور، ولا بد من علم وحجج يقيمها على المعاند، ولا بد من يقين أن الله ناصرُ دينِه، ومعلٍ كلمتَه، وأن الباطل مهما عظُم فإن الباطل زهوق، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، وبالصبر والثبات والاستمرار على الخير يتحقَّق بتوفيق الله للعبد ما يريده، إما هداية، وإما أن يلقى الله على ما هو عليه من الخير، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

استمرَّ موسى في دعوته، ومضى في طريقه، فضاق بفرعون الأرضُ بما رحبت، وعلم أن استمرارَ موسى في هذا المنهج سيقضي عليه وعلى أتباعه؛ لأن موسى جاء بحق، وفرعون على باطل، وفرعون يتناقض باطله، تحوّل موقف الكبرياء والعظمة بالإنكار، ثم طلبوا المناظرة والآيات، مما يدلُّ على تناقض الباطل وضعفه أمام قوة الحق والهدى.

طلب من موسى المناظرة، وأن يجتمعا في يوم من الأيام في يوم الزينة، ليَظهر مَن المحق من المبطل، وحشد السحرةَ على اختلافهم، ووعدهم ومنَّاهم أنهم المقرَّبون عنده، وأن لهم النفوذَ عنده، فأجابوه واجتمعوا هناك، اجتمع فرعون وسحرته وجنده، وجاء موسى يحمل عصاه وحده، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٥-٦٦]، فعند ذلك امتلأ الوادي من العصي، وامتلأ من كل شيء، ظنَّه من يراه حقيقة، ولكنه تخيّلٌ وسحر من أنواع السحر، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه:٦٧] مما رأى وشاهد، فقال الله له: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨]، وأمره الله أن يلقيَ عصاه التي يحملها، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، أتت على كل ما في الوادي فابتلعته كلَّه، فرأى السحرة بقوة فكرهم وعقولهم أن هذا أمرٌ لا قدرة لهم به، وآيةٌ لا يستطيعون مقاومتَها، وأن هذا أمرٌ ربانيٌّ هم عاجزون أن يقفوا أمامه؛ عصًا يحملها في يده، يلقيها فتفتح فاها فتلتقم كلَّ ما في الوادي!! ولولا هروب البشر لالتقمتهم معه. إنها لمعجزة عظيمة، وآية عظيمة، خرَّ السحرة لله سُجدًا، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، وتوعَّدهم فرعون وتهدَّدهم، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢-٧٣]، دخلوا الجنةَ وما عملُهم إلا سجدةٌ سجدوها لله، فختم الله بها أعمالهم، وعذبهم فرعون إلى آخر ذلك.

أيها المسلم: إن الحقَّ يعلو ولا يُعلى عليه، وإن الباطل أمام الحق ضعيف، لكن إذا وُجد أهل الحق والهدى، ذوو الصبر والتقى والإخلاص لله، واليقين بنصر الله.

إن السحرة أمام الحق ذهب سحرهم، وتبعثر سحرهم، ذاك أن الساحر إنما عمدته شركٌ بالله، واستعانة بالشياطين، واستعمال الأمور التي يُظَن أنها حقائق، ولكنها باطل وكذب، فالساحر أمام صاحب الحق لا بد أن ينهار، وإذا قرئ القرآن عليه بَطُل سحره وذهب باطله الذي كان رائجا عنده. إن الحقَّ يعلو ولا يُعلى عليه، إنها دعوةُ موسى وسائر أنبياء الله، تلكم الدعوات الصادقة التي أخلص فيها أنبياء الله في دعوتهم، وصدقوا الله في دعوتهم، فوفقهم الله وأعانهم.

وبعد ذلك ما زال فرعونُ في مكيدته بموسى ومن معه، فعزم موسى على مفارقة دار فرعون، وخرج وقومُه يقصدون البحر، فجاء فرعون بقوته ليقضي عليهم، فلما قرب من البحر قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢]، وأوحى الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣]، فضربه بعصاه، فانقسم البحر إلى أثني عشر طريقًا، عِدَّةَ قوم موسى، سلكوه آمنين مطمئنين، ﴿يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]. رأى فرعون تلك المعجزةَ فظنَّ أنه سيظفر بها، فتقدَّم فلما اكتمل عددُهم أمر الله البحر فأطبق عليهم فأغرقهم، فلما أحسَّ بذلك قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فانظر إلى نصر الله، وتأييده لنبيه، وهكذا المسلم الداعي إلى الحق والهدى إن هو صدق في دعوته، وتحمَّل كلَّ المشاقِّ في دعوته، وكان صادقا محتسبًا، على حقٍ ومنهج قويم، فالنصر لأولياء الله، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفره وتوبوا إليه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حق التقوى.

عباد الله: لما أنجى الله موسى وأغرق فرعونَ صام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ العاشر من محرم شكرًا لله على نعمته وفضله عليه بإنجائه وقومه وإغراق فرعونَ وقومه، صامه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتلقته الجاهلية من أهل الكتاب، فكانت قريشٌ تصومه في جاهليتها، وكان النبي يصومه معهم.

قدم المدينةَ مهاجرًا، واليهود إذ ذاك بها، فوجدهم يصومون اليوم العاشر، سألهم: ما سبب الصيام؟ قالوا: يومٌ أنجى الله فيه موسى ومن معه، وأغرق فرعونَ ومن معه، فصامه موسى شكرًا لله، فنحن نصوم، قال لهم: «نحن أحق وأولى بموسى منكم»[1]، نحن أحق وأولى بموسى من أهل الكتاب. أجل، إن محمدًا وأمته أولى بموسى وأولى بكل الأنبياء؛ لأنهم آمنوا بالأنبياء، وصدَّقوا رسالاتهم، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، فصامه محمدٌ شكرًا لله على ما منحه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فصامه وأمر الناس بصيامه، وأرسل إلى قرى الأنصار: «من أصبح صائمًا فليتمَّ صومَه، ومن أكل فليتمَّ بقيةَ يومه»[2]، فلما افتُرض رمضان أخبرهم أن من شاء صام، ومن شاء لم يصم، لكنه رغَّبنا في صيامه فيقول عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما رأيت رسول الله يصوم يومًا يتحرَّى فضلَه على الأيام من هذا اليوم، يعني: يوم عاشوراء،

(١) رواه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١١٣٠)..

(٢) رواه البخاري (١٩٦٠) ومسلم (١١٣٦).

وهذا الشهر، يعني: شهر رمضان». وقال أبو قتادة: قال رسـول الله: «صـوم يـوم عاشـوراء أحتسبُ على الله أن يكفر السنة التي قبله»[1].

صام تسعَ سنين صامَ عاشوراء، وفي العام الأخير قال: «لئن عشـتُ إلى قابـل لأصـومنَّ التاسعَ»[2]، يعني مع العاشر، وتوفي قبل أن يصومه، وقال لنا: «صوموا يومًـا قبلـه، أو يومًـا بعده، خالفوا اليهود»[3]. نسأل الله أن يوفقنا لكل عمل صالح.

أيها الإخوة: قد يورد إنسانٌ سؤالًا فيقول: صُمتم يومَ عاشوراء لأن موسـى صـامه؛ لأن الله أنجاه من فرعون وأغرق فرعون، أفلا نصوم يوم مولد النبي؟! أفلا نصوم صـبيحة ليلـة الإسراء؟! أفلا نصوم يومَ الهجرة؟! أفلا نصوم يوم البعثة؟!

نقول: يا أخي، إن عبادتنا ليست بأهوائنا واستحساننا، وإنما نعبد اللهَ على ما شرع لنا على لسان نبيه، فلو شرع لنا صيامَ يومِ المولد بذاته لقلنا: نعم، لكن شرع لنا صيامَ يوم الاثنين؛ لأن النبي رغَّبنا فيه وأنه يوم أوحِي إليه فيه، ويوم بُعث فيه، لكن ما شرع لنا أن نتعبَّد بيوم مولد أو بيوم هجرة، إنما نحن نصوم كما أُمرنا، فصيامنا يومَ عاشوراء اقتداء نبينا، وصيامنا يومَ الاثنين ويومَ الخميس اقتداء بالنبي، فعباداتنا لا تنطلق من مجرَّد أهوائنا، إنما هي من تشـريع الله لنا، فلو كان مولد النبي وافقَ اليومَ الثاني عشر من ربيع الأول يوم الجمعة أو يوم السبت أو يوم الأحد أو يوم الثلاثاء أو يوم الأربعاء قلنا: لا يشرع لنا صيام ذلك اليوم؛ لأن النبي ما علق الصوم بذات الولادة، إنما شرع لنا صيام يوم الاثنين في عموم السنة، شكرًا لله على إنزال الوحي إليه وعلى بعثته، لكن لو كان للثاني عشر في غير يوم الاثنين لم يُشـرع لنا الصيام لأن الصيام يوم الاثنين لم يختص بشهر معين، وإنما صيامه عام في السنة، والمسلم يتبع ولا يبتدع، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١].

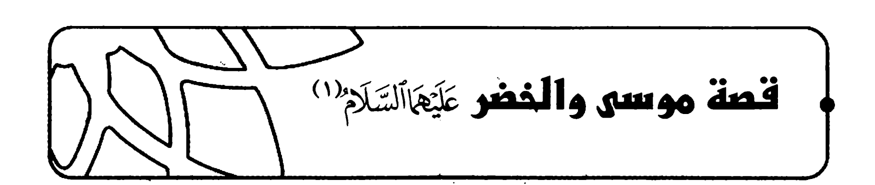
(١) صحيح الجامع (٣٨٥٣) وأصله في مسلم (١١٦٢).
(٢) رواه مسلم (١١٣٤).
(٣) صحيح ابن خزيمة (٢٠٩٥) وصححه الألباني موقوفًا.

واعلموا رحمكم الله أن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين، فإن يد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار.

وصلوا رحمكم الله على عبد الله ورسوله محمد امتثالا لأمر ربكم حيث يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين..





قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لم يزل بصفات الكمال متصفًا، جوادٌ كريم إذا وعد أنجز ووفى، تواب حليم إذا عصي تجاوز وعفا، أحمده سبحانه وأشكره على ما بسط من آلائه وأوفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو حسبي وكفى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أزكى البرية أصلًا، وأعلى الأنام شرفًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الأئمة الحنفاء.. السادة الخلفاء، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله- فإن تقوى الله عروة ما لها انفصام، من استمسك بها حمته -بإذن الله- من محذور العاقبة، ومن اعتصم بها وقته من كل نائبة، فعليكم بتقوى الله فالزموها، وجدوا في الأعمال الصالحة واغتنموها، فالزمان يطوي مسافة الأعمار، وكل ابن أنثى راحل عن هذه الدار.

أيها المسلمون: تحدثنا في خطب سابقة عما في سورة الكهف من العبر والحِكم، وذكرنا أصحاب الكهف وقصتهم، واليوم سوف نتحدث عن قصة موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ مع الخضر، فلقد روى البخاري ومسلم من حديث سعيد بن جبير قال: قيل لابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى الذي صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، قال ابن عباس كذب عدو الله، حدثني أُبي بن كعب عن النبي قال: «خطب موسى في بني إسرائيل يومًا حتى ذرفت العيون ووجلت القلوب، فلما انصرف تبعه رجل فقال: يا نبي الله، هل هناك أعلم

---

(١) عبدالرحمن القايدي.

منك في الأرض؟ قال: لا، فعتب الله عَزَّوَجَلَّ عليه إذ لم يُرجع العلم إليه، قال: بلى إن لي عبدًا في مجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: وكيف لي به؟ قال: خذ حوتًا واجعله في مكتل -وفي رواية: خذ نونًا ميتًا، والنون هو الحوت وإليه يُنسب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧]، فالنون هو الحوت-، قال: خذ نونًا ميتًا فاجعله في مكتل فحيث فقدته فهو ثم، -أي: حيث يُفقد هذا الحوت فالخضر هناك-. فانطلقا حتى إذا كان ببقعة من الأرض قال موسى لفتاه: لا أكفلك كثيرًا، أيقظني إذا رد الله الحياة في الحوت، قال: ما كَلَّفت، ثم إن الحوت ارتدت إليه الحياة، وقفز في البحر، فأمسك الله عليه الماء وحبسه، فلم يستطيع أن يذهب، فلما استيقظ موسى نسي غلامه أن يخبره أن الحوت قفز إلى الماء، فانطلقا بقية يومهما وليلتِهما، فلما كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]، عند ذلك تذكر الفتى أن الحوت المشوي الذي كانا سيتغذيان به قفز إلى الماء، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣]... الآية فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا -أي: أنهما رجعا يقصان الآثار مرة أخرى-، فلما وصلا إلى هناك وجدا رجلًا مسجى ببردة خضراء تحت قدميه وتحت رأسه -كالذي يلتحف بلحاف فيجعله تحت رأسه وتحت قدميه-، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: وهل بأرضي سلام؟! -أي: وهل في أرضي هذا من يعرف السلام؟!- قال: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم-وهذا هو الشاهد الذي قال من أجله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كذب عدو الله؛ لأن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: أنت موسى بني إسرائيل- قال: وما تريد؟ -أي: ما تريد بمجيئك إلى هنا؟-، قال: أريد أن أتعلم ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧] ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:٦٩]، فجاء عصفور فنقر من ماء البحر نقرة، فقال الخضر: يا موسى، إن مثل علمي وعلمك بجانب علم الله عَزَّوَجَلَّ كمثل الماء الذي أخذه هذا العصفور بمنقاره، ثم واصل وقال له: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٧٠]، فانطلقا ووقفا على شاطئ البحر، فمر مركب فأراد الخضر وموسى أن يركبا، فقال الغلمان: عبد الله الصالح لا نحمله بأجر، فلما استقرا في السفينة عمد الخضر إلى مكان في

السفينة فخلع منه لوحًا بقدوم ووضع مكانه خشبة، قال موسى: قوم حملونا بغير أجرة تخلع لوحًا من سفينتهم لتغرق أهلها! هذا جزاء الإحسان؟ لقد جئت شيئًا إمرا، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٢]، قال نبينا محمد: «وكانت هذه من موسى نسيانًا، فلما نزلا من السفينة وجدا أغيلمة يلعبون، فعمد الخضر إلى ولد وضيء جميل فأخذه وأضجعه على الأرض وذبحه بالسكين، فقال موسى مستغربًا: عَمِدْتَ إلى نفس لم تعمل سوءا فقتلتها بغير نفس! لقد جئت شيئًا نكرا، فقال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٥]» قال نبينا: «وكانت هذه شرطًا لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:٧٦]».

فهناك فرق في التحذيرين، بين المرة الأولى والثانية، ففي المرة الأولى قال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٢] وفي المرة الثانية قال له: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٥] فكأنه استدار إليه والتفت إليه وحذره وأشار: ألم أقل لك -أي: في المرة الثانية-: إنك لن تستطيع معي صبرا، «فدخلوا قرية وكانوا جوعى، فلم يستضيفهم أحد ويطعمهم، فأثناء خروجهم من القرية وجدا جدارًا على وشك السقوط، فقام الخضر فأصلح الجدار بيده حتى لا يسقط، فقال موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧] واشترينا به طعامًا، فقال الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]. قال نبينا: «يرحم الله موسى وددنا أنه صبر حتى يقص الله عَزَّ وَجَلَّ علينا من أخبارهما»(١)، وكل ذلك من علم الغيب الذي يصعب علينا كبشر فهمه لأول وهله.

نفعني الله وإياكم بالقرآن والسنة، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العلي العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب.

(١) رواه البخاري (٣٤٠١) ومسلم (٢٣٨٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله المبدئ المعيد، الغني الحميد، ذو العفو الواسع والعقاب الشديد، نحمده سبحانه وتعالى على إحسانه المديد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الفعال لما يريد، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك وأنعم عليه وعلى آله أجمعين.

أما بعد:

فهكذا -أيها المؤمنون- قام الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ ووضح لموسى أسباب خرق السفينة بأنها كانت لمساكين، وفي الطريق يوجد ملك جبار يأخذ كل سفينة صالحة تمر بالطريق بالقوة، فألهم الله الخضر أن يقوم بأخذ لوح كبير منها لتبدو غير صالحة، فتسلم من الملك الجبار. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين، فكان بعلم الله كافرا لو كبر، وحتى لا يفتن أبواه أماته الله مبكرًا قبل أن يبلغ الحلم حتى يدخله معهما الجنة؛ لأنه لو أبقاه حتى يشب ربما حب والديه له قد يجعلهما يكفران. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة التي أهلها بخلاء، ترك لهما أبوهما كنزًا وبنى عليه جدارا ليخفيه من أهل القرية اللئام، وأوشك هذا الجدار على السقوط، ولو سقط لوجده أهل القرية وضاع نصيب اليتيمين، ولكن الله ألهم الخضر أن يصلحه وقبل مسحه بيده فاستقام الجدار حتى يكبرا وبعد ذلك يتمكنان من الاستفادة من هذا الكنز.

أيها المسلمون: يستفاد من هذه القصة أشياء كثيرة:

فأولًا: التواضع بالعلم، فإن الله عتب على موسى إذ لم يرد العلم إليه، وأيضًا: تواضعه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك وحرصه في الذهاب إلى مجمع البحرين، وتواضعه مع الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثانيًا: صلاح الآباء سبب في حفظ الأبناء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢] فحفظ الله كنزهما بصلاح أبيهما، وقيّض للجدار من يصلحه ليحتفظ بالكنز حتى يكبرا.

ثالثًا: قدر الله لا يدركه الإنسان ولا يعرف حكمته إلا بعد أن يتحقق ويفسر، ولقد رأينا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتعجب من تصرفات الخضر الفورية ولا يرى لها تفسيرًا؛ لأن هذا قدر مؤجل النتائج، وأيضًا قد يشتد حزن أبوي الغلام عليه لفقده، ولكنهما لا يدركان أن تلك رحمة من الله لا نقمة.

فعلى المسلم أن يرضى ولا يتضجر بقضاء الله وقدره لأننا لا نعلم شيئًا، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فأي شيء يحدث لك أو لغيرك لا تقول: لو كان كذا لصار كذا، «فإن لو تفتح عمل الشيطان ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»[(١)]، وتذكر ما حدث لك من مصائب وكيف تحولت إلى خير وأنت لا تدري، ولو لم يترك سيدنا إسماعيل وأمه في الصحراء لم يكن ماء زمزم الذي نشرب منه، ولولا أن فدى الله إسماعيل بكبش لأصبح علينا أن نضحي بابن من أبنائنا، ولو أخذنا نعدد قدر الله الذي استبان لنا لوجدنا العجب، فعلينا أن نرضى بقدر الله حتى نعيش سعداء في هذه الدنيا.

فمثلًا الذي تأخر عنه أمر يتمناه لا تقلق، فما تدري كم من الخير ينتظرك ما دمت قد أخذت بالأسباب، وأنت الذي تبحث عن عمل أو وظيفة لا تخف على رزقك ورزق أولادك، فأنت لا تدري ما هو مدخر لك حتى يأتي وقته، ولا أقصد بذلك أن نتواكل ونترك البحث، بل كما قيل: الجوارح تعمل بالأسباب، والقلوب تتوكل على رب الأرباب، فاسع وتحرك وكلٌ ميسر لما خلق له، وكما سَأل عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الرسول حينما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]، فقال: فعلى ما نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه أو على شيء لم يُفرغ منه؟ فقال النبي: «بل على شيء قد فُرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له»[(٢)].

عباد الله.. هل يدرك الإنسان عواقب الأمور؟ هل يعرف الغاية من المقدور؟ كلا، فذلك لله وحده، وتدبيره لك خير من تدبيرك لأمورك، وهو أرحم وأعلم بك من نفسك، ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١].

فاتقوا الله أيها المسلمون: واسعوا لرضوان الله، وارضوا بقدر الله ولا تسخطوا.

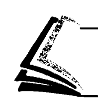
ثم صلوا وسلموا على صفوة خلق الله كما أمركم بذلك..

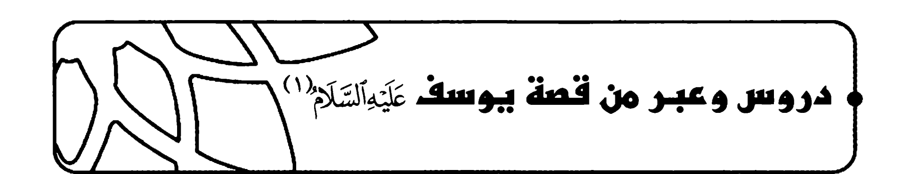


---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) صحيح الترمذي (٣١١١).





دروس وعبر من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرا.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أيها الناس: نقف اليوم وإياكم مع قصة الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم وعلى نبينا أتم الصلاة وأزكى التسليم.

قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعجبِ القصص في القرآن، وقد ذكرها الله جميعًا متصلة، وأفردها بسورةٍ واحدة مطولةٍ مفصلةٍ تفصيلًا واضحًا، ساقَ فيها سبحانه وتعالى حَالةَ يُوسفَ من ابتداءِ أمرهِ إلى آخرهِ، وما بين ذلكَ من التنقلاتِ واختلافِ الأحوالِ وقال فيها: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف:٧]، وقد اشتملت هذه القصة على جملة من الفوائد والعظات نذكر طرفًا منها، فنقول:

أولًا: إن هذهِ القصة من أحسنِ القصصِ و أوضحها لما فيها من أنواع التنقلات من حالٍ إلى حال، ومن محنةٍ إلى محنة، ومن محنةٍ إلى منّحة ومنّة، ومن ذلٍ إلى عزٍ، ومن أمنٍ إلى خوفٍ،

---

(١) عبدالله بن محمد الطيار.

ومن مُلكٍ إلى رقٍ، ومن فُرّقةٍ وشتاتٍ إلى اجتماعٍ وانضمامٍ، ومن سُرورٍ إلى حُزنٍ، ومن رَخاءٍ إلى جدبٍ، ومن ضِيقٍ إلى سَعه.

ثانيًا: ما فيها من أصولِ تعبيرِ الرؤيا المناسبةِ، وأن عِلمَ التَّعبير عِلمٌ مُهمٌ يَهبه اللهُ لمن شَاءَ من عِبادهِ، وهُو دَاخلٌ في الفَتوى، فينبغي لمن لا يُحسنُ الخَوضَ في بَحرهِ ألا يلجَ فيهِ لئلا يَنْدمَ على ذلك.

ثالثًا: حَيثُ قصَّ الله ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة نبينا محمد هذهِ القصة الكاملة الواقعة وهو لم يقرأ كُتبُ الأولين، بَلْ هُو أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وصدق الله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢].

ومن الفوائد: أنه ينبغي للعبدِ البعدُ عن أسبابِ الشرِّ وكِتمان بعض أموره التي يخشى مضرة من إفشائها والتحدث بها، وقد وجه يعقوبُ ابنه بذلك قائلا: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

ومنها: أن النعمُ الكبيرةُ الدينية و الدنيوية لابد أن يتقدمها أسبابٌ ووسائلٌ إليها لأن الله حكيمٌ ولَهُ سُننٌ لا تتبدلْ ولا تتغير، قَضى سُبحانَه بأنَّ المطالبَ العاليةَ لا تُنالُ إلا بالأسبابِ النافعةِ خُصوصًا العُلوم النافعة وما يتفرع عنها ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف:٦].

ومنها: أن العدل مطلوبٌ في جميعِ الأمور الصغار والكبار ومن ذلكَ مُعاملةَ الوالدينِ للأولادِ فلابدَ من التَّسوية بينهم، وعدم إيثار بعضهم على بعض، ومتى حصل ذلك اختلَّ نظامُ الأسرة ووقع ما يكدر الصفو ويعكر طعم الحياة، وهذا ما حصل ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن أهم ما نستفيده من قصة يوسف: الحذرَ من شُؤم الذُنوب وعواقب الطمع فكم من ذنب واحدٍ اسْتَتّبع ذُنُوبًا كثيرة، وهذه حالُ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أرادوا التفريقَ بينهُ وبين أبيهِ، وهذا ذنبٌ عظيمٌ ترتبَ عليهِ ذُنوبٌ كثيرةٌ من الكذبِ ورمي يوسف، وهكذا الطاعةُ تتبعها في الغالبِ الطاعة، وهذا دليلٌ على بركةِ الطاعةِ وشُؤمُ المعصيةِ.

ومنها: أن العبرةُ بالنهايةِ لا بالبداية، وهكذا كـانَّ أمـر إخـوة يوسـف تَـابُوا واسْـتغفروا وسَمحَ لهم يعقوب ويوسف وإذا سمح العبدُ فاللهُ أولى بذلكَ وهو خير الراحمين.

ومنها: أنَّ بعضَ الشرِّ أهونُ من بعضٍ، فرمي يوسف في البئرِ أهونُ من قَتلِهِ، ولهذا أَخـذَ الإخوةُ بهذا الرأي وكان من تدبير الله ليتحققَ ليوسف ما كتب الله له.

ومن أبلغ العبر: الحذرُ من الخُلوةِ بالنسـاءِ الأجنبيـاتِ وخُصوصًـا الـلاتي يُخشـى مـنهنَّ الفتنة، وقد جرى ما جرى ليوسف بسببِ الخلوة لكنَّ الله عصمه، فليُنتبه من ذلك فإنه بـابُ شرٍّ عظيمٍ، ومن حام حول مواطن الشبهات والشهوات لم يكد يسـلم منهـا، ولـذا قـال الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء:٣٢].

وأيضًا: الهمُّ بالسوءِ والتفكير بالمعصية الذي يعرض للإنسانِ إمَّا أن يجدَ مـا يدافعـه مـن نوازع الخير فهنا يتقزم هذا الهمُّ ويتضـاءل ويـزول، وإمَّـا ألا يجـدَ مـا يُقاومـهُ فينمـو ويكـبر ويتحقق، وهكذا حال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى البرهانَ من ربه فطرد همه وامرأة العزيـز لم يوجـد عندها من نوازعِ الخيرِ ما يُقاومُ همَّها فاستمرت وطالبت بأن يتحقق واقعًا.

من الفوائد: أن العبد إذا ابتُلي بمواطنِ الريبةِ وأماكن الفتنة فينبغي له أن يهرب لئلا تُدركه أسبابَ المعصيةِ فيقـع ثـمَّ ينـدم، وكـان هـذا حـالُ يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ فـرَّ هاربًـا وهـي تُمسـك بثوبهِ من خلفهِ.

ومما أخذَه العلماءُ من قصةِ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن القرينةَ يُعمل بها عند الاشتباه في الـدعاوى إذا كانت شهادةُ الشاهدِ على القرينة: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف:٢٦]، وكـذلك وجود الصُّواع في رَحْلِ أخيهِ وقَدْ أخذ يوسف بهذه القرينة واستبقى أخاه عنده.

ومن أبرز الدروس المستفادة: ما كانَ عليهِ يُوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجمالِ الظاهرِ والباطنِ، أمَّا الظاهرُ فهو الذي بسببهِ حَصلَ له ما حصل من الابتلاء من امرأةِ العزيزِ ومـن النسـاءِ الـلاتي كُنَّ يَلُمنها على فِعلها، وأمَّا جَمالُ الباطنِ فهو العِفَّةُ العظيمةُ مع وجودِ الدواعي الكثيرة لوقوعِ السُّوءِ مِنه، لكن ما قذفَ الله في قلبهِ من الإيمانِ والإخلاصِ وقُـوةُ الحـقِ طَـردَ عنـهُ الرَّذيلـة، وجَعلهُ بَعيدًا عنِ السُّوء، وهذا ما جعلهُ عَظيمًا في نُفُوسِهم أجمعين.

ومنها: اختيار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّجن وتقديمه على الوقوعِ في المعصيةِ، وهكذا ينبغي للعبدِ إذا كانَ الخيار بين أمرينِ أحدهُما عُقوبة له عَاجلة تؤول إلى أجرٍ عظيمٍ في الآخرةِ والأُخرى مَعصية، فينبغي ألا يتردد في ذلك ويُقدم ما فيه الخير له في الآخرةِ وإن كان ظاهرهُ عُقوبة في الدُنّيا، وقد كانَ السِّجنُ طَريقًا ليوسف إلى العزةِ في الدُنّيا والفوزَ في الآخرة.

ومنها: أن العبد الصادق مع ربهِ ينبغي أن يلتجئ إليه ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حَولهِ وقوتهِ لأنه عبدٌ ضعيفٌ، وقد كانَ ذلكَ من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]،

أيضًا: على العبدِ أن يعبُدَ رَبهُ حَالَ الرَّخاءِ والشِّدةِ على حدٍ سَواءٍ فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل يَدعو إلى الله فَلمَّا دَخلَ السِّجنَ استمر على ذلك ودعا من يتصلُ بهِ من أهلِ السجنِ، ودَعا الفَتيين إلى التوحيدِ، ونَهاهما عن الشركِ وذلك قبلَ أن يُعبر لهما الرؤيا، وهكذا الداعيةُ إلى الله ينبغي أن يغتنم الفُرصَ فَيدعوا إلى الله في كلِ مكانٍ وزمانٍ بما يتناسبُ مع الظروفِ والأحوالِ والأشخاصِ، وكم أَدركَ الدُعاةُ الأكفاءُ والعلماءُ والأعلامُ في هذه المناسباتِ من المكاسبِ العظيمةِ.

أيها الأحبة.. يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله الذي جعلَ في قصصِ الأنبياءِ عظةً وعبرةً وتسليةً للمؤمنين، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وليُّ الصالحين، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله إمامُ الأنبياءِ وقُدوةُ الدعاةِ الصالحين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أيها الأحبة: من الفوائد واللطائف القيمة التي نستفيدها من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن من وَقعَ في مكروهٍ وشدة فلا بأسَ أن يستعينَ بمنَّ لهُ قُدرةٌ على تخليصهِ بفعلهِ أو الإخبارِ بحاله، وهذا ليسَ شَكوى إلى المخلوقِ بلْ هُو من فعلِ الأسبابِ المعينةُ على الخلاصِ من الظلمِ والشِّدةِ، ولِذا قال يوسف للذي ظنَّ أنه ناج منهما: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

وقيل: إن التعلق الأكمل بالله أن لا تسأل الناس شيئًا ولا ترجو شفاعة من مخلوق، ولذا لبث يوسف في السجن بضع سنين لما رجا شفاعة الرجل.

ومنها: أنه ينبغي للمعلمِ والداعي إلى الله استعمال الإخلاص التَّام في تعليمه ودعوته، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة في مالٍ أو جاهٍ أو نفعٍ دنيوي كما لا يمتنع من التعليم إذا لم يستجب المتعلم لما كلفه به المعلم، وهذا حالُ يُوسف وصَّى أحد الفتيين فلم يُنفذ الوصية، ثمَّ رجعَ نفسُ الفَتى يَسألُ يوسف عن الرُّؤيا فأجابهُ ولم يعنِّفه أو يوِّبخه أو يحاسبه على عدمِ تنفيذِ الوصية.

ومنها: أنه لا بأسَ أن يُخبر الإنسانُ عمَّا في نفسهِ من الصفاتِ الحسنةِ من العِلمِ وغيره إذا كان في ذلكَ مصلحةً للناس، وسَلمَ من الكذبِ، لقوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥]، فليس هذا من التباهي والتفاخر وإنما لئلا يتولى على الناس من يعبث بأموالهم ويفسد معايشهم غير يوسف.

من الفوائد: أن حُسن التدبيرِ مطلوبٌ والإخلاصُ في العملِ شَرطٌ لقبولهِ، وقد تحقق ذلك ليوسف فكثُرتِ الخيراتُ في عهده، وهكذا من ولي من أمرِ المسلمينَ شيئًا سَواءٌ كانت الولايةُ صغيرة أو كبيرة عليهِ أن يَرفُقَ بِهم، وأن يُساعدهُم، و أن ينصحَ لهم ليتحققَ على يديهِ الخير لهم - إن شاء الله -.

ومنها: مشروعيةِ الضيافةِ، وأنها من سُننِ المرسلين: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩]، أي المضيفين.

ومنها: جوازُ استعمال الأسباب الرافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر، لقوله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف:٦٧].

مما يستفاد من قصة يوسف: أنه لا يسوغ أن يشهد العبد إلا بما علم وتحقق منه برؤية أو سماع: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف:٨١].

ومنها: إذا حصلت النعم على العباد فينبغي أن يتذكروا ما كانوا عليه في السابق من أجل شُكر النعم لأنها إذا شُكرت قَرت، وإذا كُفرت فَرت.

من الفوائد: الإلحاحُ على الله بالدعاءِ وسُؤاله التثبيت لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

من أبلغ العبر: فضيلةُ الصبرِ والتقوى وأن عواقبهُ حميدة، وهكذا كان حال يعقوب ويوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال الله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠] فقد اجتمعت التقوى والصبر والإحسان في يوسف، ومن كان كذلك كانت عاقبته إلى رفعة وتمكين ولا بد.

ومن آخر هذه الفوائد القيمة: أن يوسف كان مملوكًا في القصر وبيع لعزيز مصر، فلو أطاع شهوة لحظة -وحاشاه- لم ينل ما ناله من الرفعة والمكانة، ولم يُؤت النبوة، ولم يُذكر في كتاب الله ويكون له لسان صدق في الآخرين إلى قيام الساعة، فلقد أصبح بعفته وصبره وخشيته لله في الغيب: ملك القصر وعزيز مصر، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

ومنها: حسن أخلاق يوسف حيث قال لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:٩٢] أي: لا عتاب، فلم يعاتبهم بل دعا لهم، ثم لم يذكرهم بفعلتهم، حتى حين قال لأبويه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف:١٠٠]، فلم يذكر فضل الله عليه بإخراجه من الجب، مع أنه مقر بذلك،

والجب أخطر من السجن لأنه مظنة الموت والهلاك، من أجل أن لا يحرج إخوته بتذكيرهم بماضيهم وخطئهم، ثم قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف:١٠٠]، فرد الأمر إلى نزغ الشيطان، وجعل الأمر مشتركًا بينه وبين إخوته، عاذرًا لهم من الغيرة التي كانت في قلوبهم والتي نفخ الشيطان فيها، وهذا غاية في المروءة والتغافل، وهو من الصفح الجميل.

فمتى ترانا نتعامل بمثل تعامل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ تصافحوا وتسامحوا، فمهما لقيتم من بعضكم لن تبلغوا إلى ما بلغ الأمر بإخوة يوسف أن يحاولوا قتله وإبعاده، وأن يتسببوا له بالغربة والعبودية والسجن، ومع ذلك فلم ينتقم وقد كان قادرًا، بل لم يؤنب ولم يعاتب، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وهذه القصة مليئة بالعظات والعبر ولعل قراءتها والتمعن في تدبر آياتها يجعل العبد يفقه كثيرًا من أسرارها. نسأل الله بمنه وكرمه أن يجمعنا بيعقوب ويوسف و بمحمد ووالدينا وأحبابنا في جنات النعيم.



فوائد من قصة يوسف مع امرأة العزيز[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها الناس: لا شك أن مرحلة الشباب هي ذروة مراحل العمر، ولذا يُسأل العبد عن عمره فيما أفناه، ثم يُسأل سؤالًا خاصًا عن شبابه فيما أبلاه، مع أنه جزء من العمر، والأمر يكون أكثر جدية ويحتاج أكثر عناية في زمان كهذا الزمان الذي تلاطمت فيه فتن الشهوات والشبهات، وتتضاعف المسؤولية على الشاب في أن يبصر مواضع قدمه، وأن يبادر هذه الفتن بالأعمال الصالحة قبل أن يدلهمّ عليه الليل فتذهب به أهواء النفس كل مذهب، فلعل مشكلةَ تأجُّج الشهوة في تلك الحقبة من العمر وانتشار دواعيها مع كثرة المغريات هي واحدة من أكبر هذه المشكلات، وأهمها لدى الشباب..

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

وإذا كانت العفة مطلبًا شرعيًا واجتماعيًا صيانة للدين وحفاظًا على المجتمع بحفظ أهم طبقة فيه فلا يخفى صعوبة هذا المطلب في مثل زماننا، زمان الفضائيات والكليبات والشبكات العنكبوتية والتي تتكاتف جميعًا لعولمة النمط الثقافي والاجتماعي الغربي والشرقي غير المسلم بما فيه من إباحية وهدم للمنظومة الأخلاقية، ومغايرة للمفاهيم الإسلامية والشرقية.

وكل هذا يجب أن لا يحملنا على اليأس والاستسلام والرضا بالواقع، بل على العكس ينبغي أن يحث الهمم ويهيج على العمل لدرء الفتن وصيانة الشباب. ويبقى الأمل في نفوسنا وحسن ظننا بشبابنا بابًا ندخل منه لدعوتهم وتحفيزهم لتحصين أنفسهم ومجابهة الفتن والشهوات وعدم الرضوخ لها والوقوع في أسرها.

أيها المؤمنون.. وإننا حين نتحدث عن مواجهة الشهوة لا نتحدث عن أمر معجز يستحيل الحصول عليه، وإنما مطلب واقعي ممكن، وإن كان صعبًا. وقد قص علينا القرآن قصة من قصص الشباب مع الشهوة ليتخذ شبابنا منها قدوة وأسوة ودرسًا عمليًا في كيفية التعامل مع مثل هذه المواقف، ويتعرف على الأسباب المعينة على الخلاص من ورطاتها. إنها قصة نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إن الواقع الذي عاشه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو في الحقيقة أشد من أي واقع يقابله شاب منا، فلقد تهيأت له كل أسباب الفاحشة ودواعيها:

فالشباب والقوة والشهوة متوفرة؛ فقد كان في عنفوان شبابه، وهو يحتاج لتصريف شهوته وهو عزب، ولا مصرف له حلال، وقد بذلت له ولم يسع إليها.. والمرأة جميلة؛ فهي زوجة العزيز ومثله لا يتزوج إلا بأجمل النساء.

ولا خوف من العقوبة؛ فالمرأة هي الطالبة والراغبة، وقد طلبت وأرادت بل راودت، فكفته مؤنة التلميح أو التصريح بالرغبة.

ثم إنها قد أغلقت الأبواب عليهما ليكونا في مأمن، ولترفع عنه حرج الخوف من الفضيحة.

ثم هو غريب في بلد لا يعرفه أحد؛ فلا خوف من أن يفتضح، وهو خادم وهي سيدته، فهو تحت سلطانها وقهرها، فلا خوف من إجابتها إلى ما أرادت، بل يخاف إن لم يجبها أن يطوله أذاها.

وقد عانى عظم الفتنة وشدة الإغراء.. فالمرأة لا شك قد أعدت للأمر عدته وبيتته بليل وخططت له، فدخلت وأغلقت الأبواب كل الأبواب، وبدأت في المراودة، ومثل هذه لابد أنها تزينت بكل زينة وجمعت كل فتنة، فما ملك إلا الهرب، وأنقذه هذه المرة وجود سيده لدى الباب رغم أن ردة فعله كانت مخيبة للآمال.

ولقد تكرر الموقف لا شك مرات، وقد هددته وتوعدته وخوفته بالسجن، ورأى جرأتها على زوجها وقدرتها على الاحتيال لتنفيذ أمرها، وإصرارها على تحصيل مبتغاها في اتباع هواها وقضاء وطرها، والإعلان بذلك أمام النسوة في وقاحة وعدم حياء أو خوف، مع أمنها مكر زوجها؛ فهو ضعيف الغيرة، وهذا ظاهر من قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩].

لقد أعلنتها صريحة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢]. فما وجد يوسف الصدّيق بعد كل هذا إلا أن يعتصم بالله، وأن يقدم رضًا الله على هوى النفس، بل ويرضى بالسجن (وأرجو أن نلاحظ ذلك) ترك اللذة والشهوة، وآثر عليها السجن بما فيه، وهو لا يدري متى سيخرج منه، ولعله لا يخرج أبدًا، لكنه كان أحب إليه من رغبة الشباب ولذة الحرام، فأطلقها صريحة: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

إننا يا شباب نحتاج إلى استحضار هذا الموقف وأشباهه لنتخذه أنموذجًا يحتذى، ومثلًا يقتدى، ونتشبث بما تشبث به يوسف لننجو من أغلال الشهوة وذل المعصية.

لقد تمسك الصادق العفيف (يوسف) بأمور كانت سببًا بعد توفيق الله وحفظه في عصمته وصيانته، ولو تمسك بها كل واحد منا لبلغ بأمر الله بر الأمان كما بلغه يوسف:

أولها: خوف الله وتعظيمه ومراقبته.. فلقد كان في خلوة لا يراه من البشر أحد، والضغوط كلها عليه، ومداخل الشيطان كثيره، فما بحث عن تبريرات، ولا استسلم لوخز

الشهوات واستحضر في ذلك الموقف العظيم خوفه من الله تعالى ومراقبته له، وتعظيمه لحق الله تعالى فقال لما راودته بملء فيه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٢٣]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١]. وما أجمل هذا الخوف وما أجل عاقبته التي أخبر بها نبينا ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ومنهم: «... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله...»(١).

ثانيها: توفيق الله وحفظه لعبده:

فلما رأى الله تعالى منه صدقه وصبره صرف عنه السوء وصرفه هو عن السوء صيانة له وتكريما وجزاء على عفته: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

ثالثها: فراره عن أسباب المعصية وترفُّعه واستعلائه بعفته على أهواء النفوس:

فلما رأى منها ما رأى، وخاف على نفسه فر منها وهرب إلى الباب يريد الخروج، وهي تمسك بتلابيبه وهو يشد نفسه وينازعها حتى قدت قميصه من شدة جذبها له وشدة هربه منها.

وهذا الفرار هو أعظم أسباب النجاة، فالفرار من الأسواق المختلطة، والفرار من المتنزهات، والفرار من الخلوة بالأجنبيات، وصيانة النظر عن رؤية المحرمات والعورات، والبعد عن مواقع الشهوة والعري في النت والفضائيات، كلها من أسباب الثبات والفرار بالدين من الفتن.. وخلاصتها غض الأبصار عن الوقوع في حمى الأخطار.

جُلُّ الحوادث مبدأها من النظرِ ... ومعظم النار من مستصغر الشررِ
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتر
يسرُّ مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

ومن صدق الفرار أن يفر الواحد منا من قرناء السوء الذين يذكرونه بالمعاصي، ويحدثونه عنها وعن سبلها ووسائلها وكيفية الوصول إليها، بل ويمدونه بها وييسرونها عليه،، فهؤلاء معرفتهم في الدنيا عار وفي الآخرة خزي وبوار.

ومن أراد السلامة فليلزم أهل التقى ومواطن الخير وأصحاب العبادة كما قال العالم لقاتل المائة نفس: «ودع أرضك هذه فإنها أرض سوء واذهب إلى أرض كذا فإن فيها قوما يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم»[1].

رابعها: الدعاء والالتجاء إلى الله:

فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ويصرفها كيف يشاء، فهو سبحانه القادر أن يثبت قلبك ويصرف همم أهل السوء عنك، والتوفيق كله بيده، والخذلان أن يكلك إلى نفسك. وقد علم يوسف ذلك؛ فالتجأ إلى الحصن الحصين والركن الركين: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٣-٣٤]. فإذا أردت العصمة فاعتصم بربك: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١].

خامسها: تهويل خطر المعصية وعدم التهوين منه:

فقد رأى الكريم أن الفاحشة أمر عظيم وخطب جليل، وتجرؤ على حدود الله خطير، وتفكر في عقوبة الآخرة، فهانت عليه عقوبة الدنيا، فاختار السجن ومرارته على أن يلغ في عرض لا يحل له، أو أن يقضي وطرًا في غير محله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

سادسها: الاعتصام بالإيمان:

فالإيمان يصون أهله ويحمي أصحابه، ومن حفظ الله تعالى حفظه الله في دينه ودنياه وأهله وأخراه، وما عصم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا الإيمان بربه وصدقه معه وإخلاصه له، وقد سجل الله له ذلك فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٦٦).

أيها المسلمون: ومن أسباب العفة والعصمة: الزواج أو الصوم..

فلقد عالج رسول الله ﷺ مشكلة الشهوة عمليًا بدعوة القادرين على سرعة إعفاف النفس، وكذلك الآباء القادرين على سرعة تزويج أبنائهم لرفع الحرج عنهم وجلب الاستقرار النفسي والاجتماعي، فإن دعت الظروف وامتنعت القدرة فاللجوء إلى الصوم، فإنه يقطع الشهوة ويحطم جموح النفس، وهذه نصيحة نبوية: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).

ومن الأسباب: تذكر عاقبة العفة..

وهو أمر معين للشاب على هجر الفاحشة ومقاومة الشهوة الجامحة أن يتذكر عاقبة العفة الدنيوية والأخروية. فأهل العفة هم أهل ثناء الله وفلاح الآخرة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤]. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:٥].. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١].

وأهل العفة هم أهل المغفرة والأجر العظيم: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وأهل العفة هم أهل الجنة: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»(٢).

ثم تذكر الإحساس بلذة الانتصار على النفس والشيطان، والتخلص من رقة المعصية ومذلة الذنب وكسرة النفس والقلب، وخوف عقوبة الآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٤).



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا كما أمر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغامًا لمن جحد به وكفر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد البشر، والشافع المشفع في المحشر، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه السادة الغُرر.

أما بعد:

يقول الإمام ابن القيّم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ متحدثًا عن الفتنة بالصور:

(ونختم بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر فإنه يفسد القلب بالذات وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال وفسد ثغر التوحيد.. والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع وكان الداعي ها هنا في غاية القوة وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله الى المرأة...

الثاني: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شابا وشهوة الشباب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبا لا زوجة له ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى لغيره في وطنه وأهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث أن كل واحد من هذين الامرين يدعو الى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنمّ عليه هي ولا أحد من جهتها فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان مملوكا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأُنس سابق على الطلب، وهو من أقوى الدواعي وأخطرها..

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال من النساء، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن فقال ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

الثاني عشر: أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [هود:٧٦] وللمرأة ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩] وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع.

وهنا لم يظهر منه غيرة، ومع هذه الدواعي كلها فلقد آثر مرضات الله وخوفه وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا فقال ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

ثم يقول ابن القيم: وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة !! لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل). انتهى من كتابه الرائع الماتع: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، والذي ألّفه جوابًا على سؤال سائل وقع في العشق المحرم، فكان فيه أحسن جواب..

فالموفق من استعلى على هوى نفسه، وغض بصره، وجاهد خطراته وأفكاره قبل أن تستحكم وتستفحل ويصعب علاجها، فإنها دركات كلما نزلت صعب الصعود منها، أو كخيوط العنكبوت لا تلبث مع الاسترسال فيها والتهاون بها أن تنقلب أغلالًا من حديد، عافانا الله وإياكم وكفانا بحلاله عن حرامه.

أيها الناس: إن دور الأسرة عظيم في غرس القيم والفضائل، والآداب والأخلاق، وتربية الجيل على العفة والصيانة، والصدق والأمانة، والترفع عن سفاسف الأمور ومرذول الطباع..

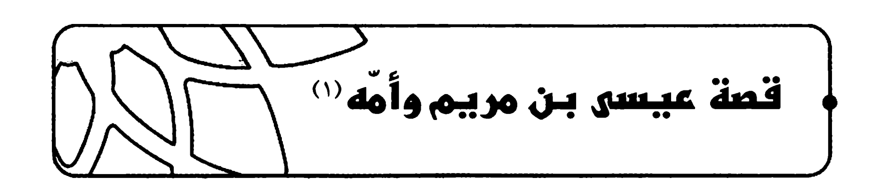
إننا ونحن ندعو شبابنا للعفة ومقاومة الشهوة لا ينبغي أن نغفل دورنا كآباء وولاة أمور، بل الواجب على الوالدين تيسير أسباب العفة للأبناء، ودفع غوائل الشهوة عنهم. وغرس الإيمان ومحبة الله وتعظيمه في القلوب بحسن التربية والتنشئة، وسد ذرائع الشهوة بإخراج آلات الفتنة واللهو والإغراء من البيوت، والعلاقة الأخوية ورابطة الصداقة مع أبنائنا التي تحمي من قرناء السوء، وحسن الاستماع والإنصات لمشكلات الأبناء، مع البحث عن العلاج السليم، مع فتح باب المصارحة لإيجاد أيسر الحلول من أقرب الطرق.. كلها معينات للأبناء، ولا تنسوا حديث رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1].

نسأل الله أن يصرف عن شباب المسلمين كل مكروه وسوء. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

كما نسأله تعالى أن يرزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى.



(١) رواه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩).



قصة عيسى بن مريم وأمّه(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82].

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله إمام المتقين وخاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم أجمعين، وارض اللهم عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

أيها الإخوة في الله:

حديثنا في هذه الجمعة عن مسيح الهدى عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم (عليه وعلى أمه السلام) والذي سوف ينزل في آخر الزمان ويحكم بالإسلام ويقتل المسيح الأعور الدجال.

أيها المسلمون:

إن الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:75]، وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:21].

(1) صالح بن عبدالرحمن الخضيري.

وممن فَضَّلَ الله واصطفى، وقَرَّب واجتبى: آل عمران. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

والمراد بعمران في هذه الآية هو عمران والد مريم البتول الذي هو جَدُّ عيسى من جهة أُمه. وقد كان بين عمران الذي هو والد مريم وبين والد موسى مدة قرونًا كثيرة.

هذا ولقد نَصَّ الله تبارك وتعالى على اسم والد مريم في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم:١٢]. ولا خلاف أن مريم من سلالة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان أبوها عمران صاحب صلاةِ بني إسرائيل في زمانه، وكانت أُمها من العابدات، وكان زكريا نبيُّ ذلك الزمان زوج أخت مريم أو زوج خالتها[1].

ثم قال تعالى مبينًا كيف حملت أم مريم بمريم وأن الله تعالى أجاب دعاءها حيث اشتهت الولد فلما تحققت من الحمل نذرت أن يكون محررًا أي خالصًا مفرغًا لعبادة الله وخدمة بيته المقدس معرضًا عن شواغل الدنيا قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٦] أي في القوة والجلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى وفي كون الأنثى لا تختلط بالرجال. ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران:٣٦]. أي عَوّذتها بالله عَزَّوَجَلَّ وحَصّنتها به سبحانه من شر الشيطان المطرود من رحمة الله، وعوّذت ذريتها كذلك.

ولم يكن لمريم ذريةٌ قط إلا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد استجاب الله سبحانه لأم مريم فقد روى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ قال: «ما من مولود إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهلُّ صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران:٣٦][2].

---

(١) ذكر ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في البداية والنهاية (٢/ ٥٦).

(٢) البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦).

فاستجاب الله دعاءها كما تقبّلَ نذرها ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران:٣٧] فسوّى خلقها، ويَسّرَ لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين تتعلم منهم العلم والدين فلهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران:٣٧] فجعل الله زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ كافلًا لها ليُتْمِها وإنما تمت له كفالتها بالاقتراع بين شيوخ بني إسرائيل أيهم يكفل مريم وتخاصمهم في ذلك لشدة حرصهم عليها بسبب ما ألقاه الله عَزَّوَجَلَّ في قلوبهم من حبها وتكريمها قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:٤٤] فوقعت القرعة لزكريا وهو نبي كريم ورسول عظيم كان زوج أختها أو خالتها وقد وصف النبي ﷺ يحي بن زكريا وعيسى ابن مريم بأنهما ابنا الخالة كما في الصحيحين.

هذا وقد أنزل زكريا مريمَ في أكرمِ غرفةٍ فكانت تتعبد فيها وقد لاحظ زكريا أنه كلما دخل عليها المحراب أي الغرفة التي تتعبد فيها وجد عندها رزقًا قال بعض المفسرين: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

قال المفسرون(١): (اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا لا يدخله سواه، فكانت تعبد الله وتقوم بما يجب عليها من سِدَانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلَها ونهارَها حتى صارت يضربُ بها المثلُ بعبادتها في بني إسرائيل، وعُرفت بطهارتها وقنوتها لله رب العالمين قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم:١٢]).

وقال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران...»(٢). ووصفها الله سبحانه بأنها صديقة في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة:٧٥].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) رواه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١).



وأخبر جلَّ وعز أن الملائكة بشرتها باصطفاء الله لها من بين سائر نساء العالمين في زمانها وأنه طهرها قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

ثم تأتي طلائع البشائر للصديقة البتول مريم بولدها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٩].. الآيات.

وفي سورة مريم حينها تعجبت من إتيان الولد لها بدون زوج بيّن الله سبحانه أن حِكمة خَلْقِه لعيسى من أم بغير أب ليجعل ذلك آية للناس: أي علامة دالةً على كمال قدرته وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء، إن شاء خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى، وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثى كما فعل بحواء، وإن شاء خلقه بدون الذكر والأنثى معًا كما فعل بآدم، وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم:١٦-٢٤].

فلقد عرفت أنها ستبتلى وتُمتحنُ بهذا المولود الذي لا يَحمل الناسُ أمرها فيه على السداد، ولا يُصدّقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدةً ناسكةً، تصبحُ عندهم فيما يظنون عاهرةً زانية وحاشاها من ذلك.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم:٢٤] والسري هو النهر الذي تشرب منه. ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا

تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٥-٢٦] فأخذت عيسى ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم:٢٧]. أي أمرًا منكرًا عظيمًا. ثم قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨] وليس المراد به هارون بن عمران أخا موسى كما يظنه البعض وإنما هو رجل صالح من بني إسرائيل يسمى هارون فقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة قال: «لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»(١)، أي: أن أخاها هارون إنما سمي على اسم نبي الله هارون، ومعلوم أن هارون أخا موسى قبل مريم بزمنٍ طويل.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٨-٣٠] وقد أخبر ﷺ أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: «عيسى ابن مريم وصاحب جريج...» الحديث(٢).

فأنطق الله بقدرته هذا الصغير في مهده، فقال عيسى ما أخبر الله: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣] وهذا إثبات منه لعبوديته لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعثُ كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد. صلوات وسلامه عليه(٣).

ولما بلغ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أشدُّه أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل وأيّده بالمعجزات وبجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧] وأعطاه

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٥).

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٤).

الله الإنجيل قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

وكان مما أيده الله به وأعطاه إياه ما ذكره في قوله سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي يخبر الواحدَ منهم بما أكل في يومه وما ادخره في بيته لغده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٨-٥٢] ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف:٦٥].

ولما أقام عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم(١) فانتدب له من بينهم طائفةٌ صالحة فكانوا له أنصارًا وأعوانًا، قاموا بمتابعته ونصرته وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك خاطئون، وللحق مكابرون، وسَلَّم لهم كثير من النصارى ما ادعوه وكلا الفريقين في ذلك مخطئون. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء:١٥٧].

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

هذا ولقد تعنت اليهود في شأن عيسى وفرّطوا وسعوا إلى قتله فخابوا وخسروا وانقلبوا أذلة صاغرين وزعموا (قبحهم الله) أن عيسى ولد زنا (عياذًا بالله) فردَّ الله عليهم وفضح أكاذيبهم في مواضع من هذا القرآن العظيم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

وقابل هذا غُلُوَّ النصارى في شأن عيسى حيث زعموا أنه الله. وقالوا إنه ابن الله (تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا). قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]. وقال: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥].

فكيف يضل بعد هذا البيان ضال؟ وكيف يزيغ بعد هذه الحجج زائغ؟ نسأل الله الهداية والثبات.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ونفعنا جميعًا بهدايته ووفقنا لتدبره والعمل به.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا.

أما بعد: فإن رسالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد نُسخت بهذا الدين العظيم والقرآن الحكيم الذي بعث به رسوله محمدًا ﷺ فلا يقبل الله من أحدٍ إلا الإسلام: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]. وقال ﷺ كما في الصحيح: «والذي نفسي بيده! لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١).

وأهل الإسلام أولى بعيسى من النصارى حيث صدّق كثير من جهلة النصارى اليهود في زعمهم، ولهذا قال ﷺ مبينًا ثواب الاعتقاد الصحيح في عيسى وغيره: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»(٢). أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق، ونسأل الله أن يدخلنا برحمته الجنة ويقينا من النار.

عباد الله: ثم إن عيسى سوف ينزل في آخر الزمان بعد خروج الدجال وإفساده في الأرض.

ويكون نزول عيسى عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام واضعًا كفيه على أجنحة ملكين. ونزوله من أشراط الساعة وهو ثابت بالكتاب والسنة الصحيحة المتواترة ففيه من الأحاديث أكثر من ثلاثين حديثًا عن رسول الله ﷺ.

ولعلَّ من الحكمة في نزول عيسى دون غيره: أن في هذا ردًّا على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه فبيّن الله كذبهم وأنه أي عيسى هو الذي يقتلهم ويقتل رئيسهم الدجال. وإذا نزل فإنه يحكم بالشريعة المحمدية ويكون من أتباع رسول الله محمد ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

ويكون زمن عيسى زمن أمن وسلام ورخاء تخرج الأرض ثمرتها وبركتها كما ثبت في صحيح مسلم.

ويبقى عيسى في الأرض بعد نزوله سبع سنين ليس بين اثنين عدواه ثم يُتوفى بعد ذلك، وهذا كله ثابت في الصحيح.

أيها المسلمون:

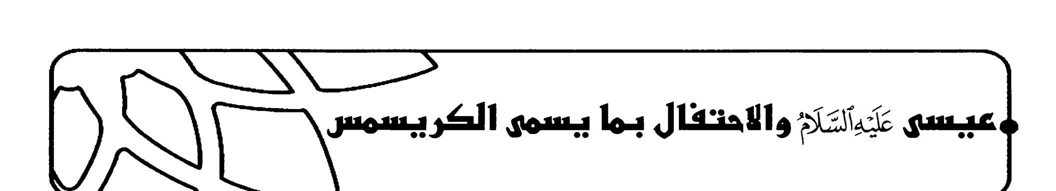
بقي أن يُعلم تفسيرُ قول الله سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران:٥٥]... فالوفاة هنا إلقاء النوم عليه إلى أن رفعه الله إلى السماء ببدنه وروحه ولقد سمى سبحانه النومَ وفاة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام:٦٠]..

وأما قوله تعالى: في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩] فالمعنى والله أعلم. على ما ذكره كثيرٌ من المفسرين: أن جميع أهل الكتاب يصدقون بعيسى إذا نزل في آخر الزمان لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام الحنيفية (دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ). فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب عند نزوله في آخر الزمان ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ولهذا قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء:١٥٩] أي قبل موت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩] أي: بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض[1].

أيها المسلمون: ينبغي أن يزيدنا ما سمعنا يقينًا وإيمانًا وتعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ فهو القادر على كل شيء ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦] فتأمل كيف اصطفى من شاء ومنَّ عليهم بالهدى والرسالة العظمى، وكيف خلق عيسى من أم بلا أب بل بكلمة منه سبحانه، ذلك تقدير العزيز العليم ثم أرسله برسالته وأيده بآياته، ثم رفعه إلى السماء بروحه وبدنه، وسوف ينزله إذا شاء سبحانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.



(١) عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير (٤/ ٣٢٣٣).



عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والاحتفال بما يسمى الكريسمس

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. أما بعد:

فإن الله كان ولم يكن شيء غيره، فخلق السموات والأرض وما بينهما بالحق؛ ليعبد وحده لا شريك له، فأضلت الشياطين الناس عن عبادة الله الذي خلقهم، فأرسل الله إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ليعبدوه وحده، وتبشرهم بالجنة إن أطاعوه، وتحذرهم من النار إن عصوه، وقد حرف اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، وحفظ الله القرآن الذي أنزله على محمد خاتم النبيين ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وأظهر بالقرآن - الذي هو كلام رب العالمين - ما كان مخفيًّا عند أهل الكتاب، وقص عليهم فيه أكثر الذي هم فيه يختلفون، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون.

فالتوراة التي أنزلها الله على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام كانت واحدة فصارت النُّسخ المشهورة للتوراة ثلاث نسخ:

النسخة العبرانية وهي المعتبرة عند اليهود وجمهور علماء البروتستانت، والنسخة اليونانية التي يعترف بها نصارى الكاثوليك والأرثوذكس، والنسخة السامرية المعتبرة عند اليهود السامريين.

والإنجيل الذي أنزله الله على نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام كان واحدا، فصار سبعين إنجيلا! ولما أراد الإمبراطور قسطنطين جَمْعَ النصارى على ملة واحدة، اجتمع بأحبارهم في

مَجمَع نيقية سنة (٣٢٥م)، وأمر بإحراق تلك الأناجيل كلها إلا أربعة أناجيل وهي التي بأيدي النصارى اليوم:

إنجيل متّى، ويوحنا، ومرقس، ولوقا، وفيها تحريف وزيادة ونقصان، فقد ادعوا وكذبوا على الله أنه ثالث ثلاثة، وأن عيسى ابن الله، ثم ناقضوا أنفسهم فادعوا أنه صُلب!

والحق في عيسى هو ما أخبرنا الله في كتابه القرآن أن عيسى هو ابن مريم، وأن الله خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وذلك أعجب، والله على كل شيء قدير، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦٠].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

ولو كان التثليث حقًّا كما يدعي النصارى الضالون لكان الواجب على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنبياء بني إسرائيل أن يبينوه حق التبيين، فالعجب كل العجب أن تكون شريعة موسى خالية عن بيان هذه العقيدة التي هي مدار النجاة على زعم أهل التثليث، ولا يمكن نجاة أحد بدونها نبيًا كان أو غير نبي ومع ذلك لم تذكر في التوراة التي يسميها النصارى العهد القديم!

والعجب كيف يدعي النصارى أن التثليث والتوحيد لا يختلفان، فيقولون: الآب والابن وروح القدس إله واحد؛ أي: ١و١و١ =١ ومعلوم أن ١و١و١=٣، ولكنهم أضل الناس، وقد سماهم الله الضالين في أم الكتاب سورة الفاتحة.

أيها المسلمون: اعلموا أنه رغم تحريف الأناجيل، فإنه ما زال فيها أقوال كثيرة تدل على التوحيد وتنقض عقيدة التثليث وادعاء الربوبية لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ منها:

ما في إنجيل يوحنا (١٧/ ٣) أن عيسى قال: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته). وفي إنجيل مرقس (١٢/ ٢٩): (الرب إلهنا رب واحد).

إن المسيح عليه الصلاة والسلام هو عبد الله ورسوله وهو بريء من هذه العقيدة الكفرية عقيدة التثليث، ولم يعبد أي نبي من الأنبياء الصليب، بل كلهم كان يعبد الله وحده لا شريك

له، ولا شك أن في كتاب ربنا ما يُغني عن قيلهم، وعما في أناجيلهم، والمسلم مكفيٌّ بكتاب ربه وسنة نبيه، فقد جاءنا بها عليه الصلاة والسلام بيضاء نقية، لكن من باب إقامة الحجة عليهم من كتبهم، وأيضًا كما قيل:

والحق ما شهدت به الأعداءُ

أيها الناس: يقول الله في كتابه القرآن المجيد: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧] وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٣٩-١٤٠].

لقد أخبر الله في القرآن بأن عيسى بشر بمحمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦].

وما زال في الأناجيل التي بأيدي النصارى اليوم هذه البشارة بمحمد ﷺ ومن ذلك: ما في إنجيل يوحنا (١٦/ ٧، ١٢، ١٣): (لكني أقول لكم: الحق إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط(١)، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم. وإن لي كلامًا كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن. وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق؛ لأنه لا ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي).

وقد قال الله في كتابه الحكيم عن محمد ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

(١) ولفظ: فارقليط معرّب من اللفظ اليوناني، ومعناه محمد أو أحمد.

إن النصارى قد سبوا الله بمقالة لم يتجرأ بها أحد غيرهم، قال الله سبحانه محذرا لهم: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٤-٥]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٥].

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»(١).

إن من المؤسف أن نرى بعض المسلمين بلغ به الجهل بدينه أن يحب النصارى أو يتولاهم ولا يتبرأ منهم، ومنهم من يدافع عنهم برغم شركهم وكفرهم، ولا يعلم أن الله قال في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٢-٧٧].

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

عباد الله: لقد ذكر الله أن النصارى أقرب مودة للمؤمنين، من اليهود والمشركين، ولكن ذلك ليس على إطلاقه، بل إن منهم قسيسين ورهبان لا يستكبرون، وإلا فلا ينبغي الركون إلى من أشرك بالله وادعى له الولد، فقد حذر الله من طاعتهم والركون إليهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٠٠]، وإن الناظر في التاريخ القديم والمعاصر يجد أن ما أصاب المسلمين في الحملات الصليبية النصرانية المتعددة من ظلم وقتل للمسلمين، واحتلال لبلادهم، ونهب لخيراتهم أضعاف أضعاف ما أصابهم من اليهود، كم قتلوا من العباد وخربوا البلاد، كم هتكوا من عرض وأفسدوا في الأرض، وهل اليهود المحتلون لفلسطين إلا سيئة من سيئات النصارى؟! فمن احتل فلسطين إلا النصارى الإنجليز ثم سلموها لليهود؟! ومن احتل معظم البلاد العربية إلا النصارى؟!

كم قتل النصارى من المسلمين في تلك البلدان الإسلامية التي كانت تجاهد لتحريرها من احتلالهم؟! في الجزائر فقط قتل النصارى الفرنسيون الملايين! وكم قتل النصارى الإيطاليون من المسلمين في ليبيا؟! وكم قتل النصارى الأميركيون من المسلمين في كثير من البلاد الإسلامية قديمًا وحديثًا؟! وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧].

لن يزالوا يقاتلون المسلمين إلى قيام الساعة ما دام المسلمون متمسكين بدينهم، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦] يكيدون بالمسلمين عسكريًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، وقد أخبرنا الله عن سعيهم في إفساد أمور المسلمين فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:١١٨].

أيها المسلم: عليك أن تعتز بدين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وتتبرأ من كل دين سواه كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ

عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

أيها المسلم: عليك أن تعلم أن الإسلام هو الحق وتدعو من استطعت من الكفار إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، قال الله سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

الخطبة الثانية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فمن ضلالات النصارى احتفالهم بما يسمى عيد الكريسمس، ويعتقدون أنه اليوم الذي ولد فيه عيسى عليه الصلاة والسلام ، ويدَّعون أنه ابن الله ويعبدونه مع الله، ونحن المسلمين نؤمن أنه عبد الله ورسوله، فنحن أحق بعيسى منهم، ولا يجوز للمسلم مشاركة النصارى الكفرة في أعيادهم الشركية، وكيف يشاركهم المسلم في عيدهم أو يهنئهم عليه وهم يحتفلون بمسبة الله ويزعمون أن هذا يوم ميلاد ابن الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا؟! فهذا من التعاون على الإثم والعدوان والله سبحانه يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢].

وهل يرضى مسلم بأن يهنئ أحدًا ممن سماهم الله الضالين، على ضلاله وشركه؟ إن في هذا اعتراف وإقرار لهم على شركهم، ثم كيف سيدعوهم إلى الهدى وقد هنّأهم على الضلال؟

وقد أفتى أهل العلم القدامى والمعاصرون بحرمة ذلك وننقل لكم فتوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: حيث سئل رَحِمَهُ اللَّهُ: ما حكم تهنئة الكفار بعيد الكريسمس؛ لأنهم يعملون معنا؟ وهل يجوز الذهاب إلى أماكن الحفلات التي يقيمونها بهذه المناسبة؟ وهل يأثم الإنسان إذا فعل شيئًا مما ذكر بغير قصد وإنما فعله مجاملة أو حياء أو إحراجًا أو غير ذلك من الأسباب؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: تهنئة الكفار بعيد الكريسمس أو غيره من أعيادهم الدينية حرام بالاتفاق كما نقل ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه أحكام أهل الذمة حيث قال: (وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق مثل أن يهنئهم بأعيادهم؛ فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب؛ بل ذلك أعظم إثمًا عند الله وأشد مقتًا من التهنئة بشرب الخمر، وقتل النفس، وارتكاب الفرْج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنأ عبدًا بمعصية أو بدعة أو كفر؛ فقد تعرض لمقت الله وسخطه).

وإنما كانت تهنئة الكفار بأعيادهم الدينية حرامًا وبهذه المثابة التي ذكرها ابن القيم؛ لأن فيها إقرارًا لما هم عليه من شعائر الكفر ورضا به لهم، وإن كان هو لا يرضى بهذا الكفر لنفسه، لكن يحرم على المسلم أن يرضى بشعائر الكفر أو يهنئ بها غيره؛ لأن الله تعالى لا يرضى بذلك كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وتهنئتهم بذلك حرام سواء كانوا مشاركين للشخص في العمل أم لا.

وإذا هنؤونا بأعيادهم فإننا لا نجيبهم على ذلك لأنها ليست بأعياد لنا، ولأنها أعياد لا يرضاها الله تعالى؛ لأنها إما مبتدعة في دينهم وإما مشروعة لكن نُسِخت بدين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ إلى جميع الخلق وقال فيه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. وإجابة المسلم دعوتهم بهذه المناسبة حرام؛ لأن هذا أعظم من تهنئتهم لها لما في ذلك من مشاركتهم فيها.

وكذلك يحرم على المسلمين التشبه بالكفار بإقامة الحفلات بهذه المناسبة أو تبادل الهدايا أو توزيع الحلوى أو أطباق الطعام، أو تعطيل الأعمال ونحو ذلك؛ لقول النبي - ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: (مشابهتهم في بعض أعيادهم توجب سرور قلوبهم بما هم عليه من الباطل).

ومن فعل شيئًا من ذلك، فهو آثم؛ سواء فعله مجاملةً، أو توددًا، أو حياءً، أو لغير ذلك من الأسباب؛ لأنه من المداهنة في دين الله، ومن أسباب تقوية نفوس الكفار وفخرهم بدينهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) صحيح الجامع (٢٨٣١).

قصة حكمة سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله أحمده عَزَّوَجَلَّ وأشكره، آتى سليمان العلم والحكمة وعلمه مما يشاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله -عباد الله- وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

عباد الله: يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٥-١٦].

لقد وهب الله عَزَّوَجَلَّ المُلك لداود على بني إسرائيل، وشدّ الله ملكه، وآتاه من كل ما يحتاجه المُلك، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، فهو يحكم بينهم، ويدلون بحججهم عنده، وهو يفصل بينهم.

ثم وهبه الله عَزَّوَجَلَّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعندما كان سليمان في الحادية عشرة من عمره وكان أبوه شيخًا كبيرًا في السن دنت به السنون إلى الأجل المحتوم، فأصبح دائب التفكير في أمر قومه، مهتمًا بمن تكون له الولاية من بعده، يرى أبناءه من حوله وسليمان وإن كان صبيًا إلا أنه يفضلهم علمًا وحكمة، وأصبح سليمان في هذا السن -الحادية عشرة- قادرًا على أن يصرف الأمور تصريف الناقد البصير، وكان من عادة داود أن يحضر ابنه سليمان مجلسه، والخصومات ويريه القضايا التي ترد بين يديه حتى تزداد قوة معرفته ورأيه، فكان سليمان ملازمًا لأبيه في مجلسه.

(١) مسفر بن سعيد الزهراني.

وفي مجلس من مجالس القضاء جلس النبي الملك داود، وجلس بجانبه ابنه سليمان، فأتى خصمان، قال أحدهما: إن زرعًا له قد آتى ثمره ودنت قطوفه وصار بهجة الناظر وعتاد الزارع، فانتشرت فيه غنم خصمه ولم يردها رادّ، بل سامت وانسابت في الزرع ليلًا فأهلكته وأبادته حتى صار أثرًا بعد عين، ولم يدفعه ولم يرد دعواه صاحب الغنم بحجة ولا دليل، فلزمته الحجة، وحقت عليه كلمة القضاء، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصة مقابل زرعه الذي أكلته وأتلفته، وجزاء إهمال صاحبها الذي تركها فنفشت الزرع بالليل -أي رعته ليلًا بلا راع-.

ولكن الصبي سليمان وقد آتاه الله علمًا وحكمة وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة انبرى في مجلسه، وفك عقال صمته، واستأذن والده في الحكم فقال: «غير هذا أرفق، ودون هذا أوفق: تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، وتسلّم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها حتى تعود كما كانت، ثم يترددان فيأخذ كل ما كان تحت يمينه، وبذلك لا يكون هناك غرم ولا غنم، فهذا أقرب إلى العدل وأصح في الحكم وأولى في القضاء»، قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]. فكان هذا مبدأ ظهور أمر النبي سليمان عَلَيْهِالسَّلَامُ الذي كان خير خلف لأبيه فيما بعد.

أيها الناس: لقد ورث سليمان داود في الملك والنبوة، فاتجهت همته إلى بناء بيت المقدس بالشام تسهيلًا لأسباب العبادة، فأقام بنيانه شامخًا، ولما تم له ذلك اطمأن قلبه وسكنت نفسه.

آتى الله نبيه سليمان العلم والحكمة وعلمه منطق الطير وآتاه من كل شيء، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

لقد وهب الله عَزَّوَجَلَّ لداود سليمان -عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ-، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [ص:٣٠-٣١] أي: الخيل التي تقوم

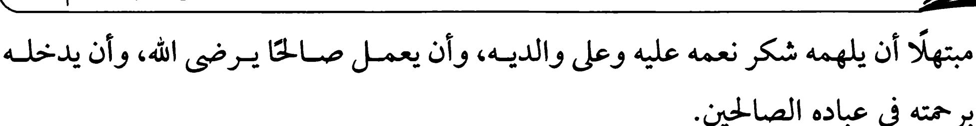
على يد ورجل، السريعة الجري، ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص:٣٢]، أي شغلتني الخيل عن ذكر الله حتى أغربت الشمس حتى فاتت عليه صلاة العصر، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص:٣٣]، أي: أخذ يذبحها تقربًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ حتى لا تشغله عن ذكر الله وطاعته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤]، أي: ابتليناه بأن ألقينا على كرسي ملكه صنمًا، وكان ذلك أمرًا عارضًا، ثم رجع إلى الله بالتوبة والاستغفار، ورجّح بعض أهل العلم أن المقصود بهذا الجسد: هو شق غلام جاءت به إحدى نسائه، حيث إنه - كما في الصحيحين- قال يومًا لجلسائه: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تأتي كل واحدة منهن بفارس يقاتل في سبيل الله، فقال له جليسه - وكان ملكًا -: قل إن شاء الله، فلم يقل، فلم تأت إلا امرأة منهن بشق غلام».

ولقد روى الأثريون ها هنا قصصًا مطولة ومختصرة مؤتلفة ومختلفة. قال ابن كثير: (وكلها متلقاة عن أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون بنبوة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في سياقها منكرات).

والمراد هنا فتنة سليمان أنها اختبار من الله له عَلَيْهِ السَّلَامُ لما آتاه الله من الملك ومدى طاعته لله حتى ظهر فضله فقط، ثم بعد ذلك آتاه الله الملك العظيم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٣٥-٤٠].

وفي يوم من الأيام جمع سليمان عساكره من الجن والإنس والطير، فرأتهم نملة متوجهين إلى وادي النمل فصاحت بهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]، أي لا يعلمون بمكانكم، فنادت، وأمرت، وحذّرت وأنذرت، وبرّرت واعتذرت لسليمان وجنوده بأنهم لا يشعرون، فما كان من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن تبسم ضاحكًا من هذا القول البديع حين أسمعه الله قولها وأفهمه لغتها، ودعا الله عَزَّوَجَلَّ معترفًا



مبتهلًا أن يلهمه شكر نعمه عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضى الله، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

ويومًا آخر.. تفقد سليمان الطير فوجدها جميعًا إلا الهدهد، وقد كان يطلبه ليدله على الماء، فلم يجده، فأقسم ليعذبنه أو ليذبحنه إلا أن يأتي بحجة واضحة يبين فيها عذره ويزيل ما يخالج النفس في أمره، وهذا من عدل سليمان وأناته وعدم تسرعه حتى مع مخلوق صغير وطائر حقير، ولكن الهدهد غاب مدة قصيرة وعاد يخفض رأسه وذنبه متواضعًا لسيده، وتقدم الطائر ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٢-٢٦].

وهنا ندرك تواضع سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل:٢٢]، وهذه لفتة للأب والمربي وحتى الصديق وكل إنسان أن لا تأخذه العزة بالإثم أو الكبرياء واحتقار الآخرين، أو تسفيه آرائهم قبل استماعها ووزنها بميزان الحق والعدل، مع الأناة والتثبت، كما فعل سليمان مع الهدهد، فلم يستعجل في العقوبة، ولم يحكم بالشُّبهة والظن، بل ترك للهدهد الفرصة في الدفاع عن نفسه وإبداء حجته وعذره.

دُهش سليمان لهذا الأمر العجيب، ورأى أن لا يرد الهدهد في خبره، وقال ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل:٢٧-٢٨] إن كان الأمر كما وصفت فهذا كتاب اذهب به وألقه إليهم ثم تنحَّ عنهم إلى مكان تنتظر رأيهم وترقب جوابهم، فحمل الهدهد الكتاب، ثم سار به إلى بلقيس ملكتهم، فوجدها في قصرها في مأرب باليمن، فطرح الكتاب أمامها، فتلقفته وقرأته فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

فجمعت الملكة بلقيس أمراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها لتخبرهم عن أمر هذا الكتاب وتأخذ رأيهم فيه، فقالوا: نحن أبناء حرب وجلاد، لا أهل رأي وسداد، وقد تركنا أمورنا

لتدبيرك، فانظري ماذا تأمرين نكن طوع أمرك. لمحت الملكة في كلام رجالها ميلًا إلى الحرب والمدافعة، فخطّأت رأيهم، وأبانت لهم أن الصلح خير وأحسن، فقالت: إن الملوك إذا غلبوا قرية ودخلوها عنوة بحرب خربوها، فأبادوا حضارتها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام وتوالت الأزمان، وإني مرسلة إلى سليمان بهدية فيها من كل غال وثمين، أُصانعه بها على ملكي، وأتبين بها سبيله وماذا يريد، وكانت ذكية عاقلة.

ثم بعثت إلى سليمان بهدية مع رجال من كرام القوم، فانتقل الرسل بالهدايا، وأقبل الهدهد إلى سليمان يبثه الخبر، فاتخذ سليمان للأمر عدته، وأمر الجن فزينوا له بناءً عجيبًا وصرحًا مشيدًا يسلب الألباب، ويبهر أعين الناظرين، فلما دنا القوم نظروا إليه فبهتوا وأقبل عليهم سليمان بوجه طلق يرحب بقدومهم بما حملوا من هدايا ونفائس يبتغون بها رضا وقبولًا من النبي الكريم.

فعفّ سليمان عما في أيديهم وقال للرسول: ارجع إليهم بهديتهم، فإن الله أعطاني الرزق السخي والعيش الرضي، ومد لي أسباب النبوة والملك، وآتاني ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين، ولا يمكن أن أقبل بمالٍ يلهيني عن الدعوة إلى الله، فأنتم بهديتكم تفرحون، ارجع -أيها الرسول- إليهم فلنأتينهم بجنود لا قدرة لهم بهم ولا احتمال، ولنخرجنهم من أرضهم - أرض سبأ- أذلة صاغرين، ذاهبًا عنهم العز والملك والسلطان.

عاد الرسل فأخبروا بلقيس بما رأوا وما سمعوا، وشاهدوا من الملك العظيم، والسلطان الواسع، والقوة التي لا مثيل لها، فقالت: ليس لنا بدٌّ من السمع والطاعة، فلنبادر إجابته ونسارع لقبول دعوته.

وكان ذلك من عقلها وحكمتها وأناتها، ورُب امرأة فطنة فيها من رجاحة العقل ولطف الجواب وحسن التدبير ما ليس في بعض الرجال..

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه وسنة خاتم رسله، أقول ما سمعتم وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: لما سمع سليمان بقدوم بلقيس وقومها عليه ووفودهم إليه، قال لمن بين يديه ممن سخره الله له من الجن: أيكم يأتيني بعرشها -أي كرسي الملك- قبل أن يأتوني مسلمين؟! قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن ينقضي مجلس حكمك فتقوم من مقامك، وإني لذو قوة على إحضاره، وأمين على ما فيه، ثم قال الذي أوتي العلم والحكمة: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، أي نظرك بالعين، أي في سرعة هائلة.

وصل عرش بلقيس إلى سليمان في لمح البصر، فما كان منه إلا أن قال وهو في قمة عزه وملكه، وقوته وسطوته، هذا من فضل ربي عليّ، وتلك نعمة من نعمه، ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن حسنت النعمة لديه وصادفت من قلبه مكانًا فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه، لأنه المستحق للشكر، وأما من كفر بنعمة ربه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة، والله غني عن العالمين. لم تغرّه الجنود المحتشدة، ولا الملك العظيم، بل اعترف للمنعم، وشكر النعم، وهذا هو سبب دوامها، خلاف ما قاله قارون حين اغتر بما آتاه الله من الأموال، فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فخسف الله به وبداره وأمواله الأرض.

ثم قال سليمان لجنوده: نكّروا لها عرشها، فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟! فاستبعدت أن يكون ذلك عرشها وقد خلّفته بأرض سبأ، ولكنها في نفس الوقت رأت معالمه وتبينت بعض علاماته ومحاسنه، فدهشت لذلك الأمر الغريب فأجابت بجواب متوسط، لا بإثبات مطلق، ولا بنفي مطلق، بل قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢]، وهذا من عقلها أيضًا.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض، ثم دعا ملكة سبأ إليه، فلما رأته حسبته لجة، أي ماءً عظيمًا، فكشفت عن ساقها، أي للخوض فيه، فقال لها سليمان: إنه صرح ممرد من

قوارير، أي إنه صرح مملس من الزجاج، عند ذلك انكشف حجاب الغفلة عنها وعلمت أن هذه خوارق لا تكون إلا لنبي، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، فدعت الله عَزَّوَجَلَّ واعترفت أنها مالت زمنًا عن عبادته، وضلت عن رحمته، فظلمت نفسها وحبستها عن نور الله، أما الآن فقد أسلمت مع سليمان خالصة الإيمان بالله متوجهة إلى طاعته، فهو رب العالمين وأرحم الراحمين.

أيها الناس: لقد أسال الله عَزَّوَجَلَّ لسليمان القطر، أي النحاس المذاب، وهي عين مصطهرة تقذف بالنحاس من باطن الأرض، فيقبل عليه صُنَّاعُه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير، ومن الجن من يعمل له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، -المحاريب: مساكن ومحال شريفة أو مساجد، والتماثيل: صور ونقوش منوعة على الجدر والأسقف والأعمدة، وجفان كالجواب: أي صحاف كالحياض الكبار، والجفان جمع جفنة، وهي كالصحفة والقصعة، وقدور راسيات: أي ثابتات، فهي لكبرها وعظمتها لا تزال في مواضعها التي وضعت فيها.

عباد الله: وأما عن موت سليمان عَلَيْهِالسَّلَامُ، فقصته عجيبة، فبينما كان يصلي عَلَيْهِالسَّلَامُ في محرابه، مات وهو متكئٌ على عصاه، وكما نعلم بأن الشياطين والجن كانوا مسخرين له عَلَيْهِالسَّلَامُ، وأن مثلهم مثل الإنس لا يعلمون الغيب، فبقي كل منهم يؤدي المهمة التي كُلِّف بها، وهم ينظرون إليه، ولا يعلمون أنه قد مات، فصارت دودة الأرض، تأكل من عصاه، فإنهار الجزء الذي أكلته فاختل توازنه، فسقط عَلَيْهِالسَّلَامُ، عندها علم الناس والجن أنه قد مات، وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ:١٤].

اللهم علمنا علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا متقبلًا، ونسألك اللهم قلبًا خالصًا، ولسانًا ذاكرًا صادقًا..

وصلوا -عباد الله- وسلموا على خاتم رسل الله نبينا محمد ﷺ.





أشراط الساعة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، يُعذِّب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقلبون، ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، أحمده سبحانه وأشكره ترادفت علينا نِعمه وتوالَت آلاؤه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مُخلِصة تنفع قائلها يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله النبي المُصطفى والرسول المُجتبى الأمينُ المأمون، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار الذين هدَوا بالحق وبه كانوا يعدلون، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، صلاةً وسلامًا دائمين إلى يوم يبعثون.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله-، واطلبوا الكرامة في التقوى، والعبادة في الورع، والأُنس في كتاب الله، والنصر في الصبر، والغِنى في القناعة، والنجاة في الصدق، والشكر في الرضا، والراحة في ترك الحسد، وثِقَل الميزان في حسن الخلق، والسلامة في حفظ اللسان، ونِعم الصاحبُ العمل الصالح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

أيها المسلمون: لقد اعتنى أهل السنة بتحقيق المسائل عالية الرتب، فكان النصيب الأكبر والحظ الأوفر لمسائل الاعتقاد التي هي سبيل النجاة في الدنيا ويوم المعاد. تنوَّعت في ذلك

(١) محمد بن عبدالكريم.

أساليبهم وتعددت تآليفهم. سطروها بكلامٍ رصين، وتدوين متين، قائمٍ على الأدلة الجلية من كتاب الله وسنة رسوله محمد، في نقولٍ موفقة، وأقوال محققة.

أيها الإخوة: إن الإيمان بما صح به النقل واجب محتم، فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه صدق وحق، سواء في ذلك ما عقلناه وما لم نطلع على حقيقته ومعناه من أنباء الإسراء والمعراج، وأشراط الساعة، وأمارات القيامة، وأحوال اليوم الآخر، وأهوال يوم الحشر، وكل ذلك مما صحت به الأخبار من آي الكتاب وبينه نبينا محمد ووضحه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٨]. ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر:١]. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب:٦٣].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لقد خطبنا النبي خطبة ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علِمَه من عَلِمَه، وجهله من جهله، إن كنتُ لأرى الشيء قد نسيته فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه يعرفه»(١).

وعند البخاري ومسلم أيضًا من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قام فينا النبي مقامًا فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه»(٢).

أيها الإخوة: ولما كان أمر الساعة شديدًا، وهولها مزيدًا، وأمرها قريبًا ليس بعيدًا كان الاهتمام بشأنها أكبر، وبيان النبي لها أجلى وأبين، فقد أكثر عليه الصلاة والسلام من بيان أشرطها وأماراتها وأخبر عما بين يديها من الفتن القريبة والبعيدة، ونبَّه أمته وحذرها ليتأهبوا لتلك العقبة العظيمة: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج:٢].

هذه العلامات وهذه الأشراط هي من علم الغيب الذي أخبرنا به ربنا جلا وعلا في القرآن، ورسولنا في سنته، وهذا الغيب من الأمور التي ينبغي للمؤمن أن يصدق بها؛ فإن من

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠٤) ومسلم (٢٨٩١).

(٢) رواه البخاري (٣١٩٢) ومسلم (٢٨٩١).

أعظم صفات المؤمنين الصادقين أنهم يؤمنون بالغيب كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ من هم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:١-٣].

أيها الناس: إن الإيمان بهذه الغيوب والتصديق بها من صميم الدين الذي جاء به الرسول ، أخبر بها القرآن وجاءت بها السنة وتعلمها الصحابة رضوان الله عليهم واهتموا بها اهتمامًا كبيرًا، نعم صحيح أن كثيرًا من المسلمين شُغلوا وشَغلوا أنفسهم بالأخبار الغيبية التي لم يكن عليها دليل صحيح من الكتاب والسنة، نلوم أولئك الذين أقعدهم عن العمل لهذا الدين انتظار لحدوث الخوارق والأمارات من خروج المهدي وغيره.

ومن الناس من ذهب مذهبًا بعيدًا فأنكر على الناس هذه الأمارات والاتعاظ بهذه الأشراط حتى يوقن بوقوع الساعة، ويقال لهؤلاء الذين أنكروا الاشتغال بهذه الأمور: ما بالكم لا تنكرون على الذين يشتغلون بالبحث عن المجهول؟ أما نرى في البشرية في هذا الزمان سعيًا إلى كشف الغطاء عن كثير من الأمور التي غابت عنهم في الماضي أو في الحاضر، فهم يجوبون الفضاء ويجوبون فجاج الأرض، لكي يكشفوا المجهول.

وإن في النصوص الواردة عن نبينا علمًا حول ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، فجدير بالمسلمين أن يدرسوا هذه المعلومات ويتأملوها وينظروا في معانيها وأن يصدقوا بها، وجدير بهم أيضًا أن يوقنوا بتبعاتها وبمؤدى هذه الأشراط، وهي الساعة العظمى التي حذرنا الله سبحانه وتعالى منها وإذا تكلمنا على الساعة وعلى أشراطها فينبغي أن نفهم ونعي تمامًا بأن الساعة علاماتها مختلفة، فهناك علامات صغرى وهناك علامات كبرى عظمى.

فأما العلامات الصغرى فهي علامات وقعت وانتهت، وهناك علامات وقعت ومستمرة، وهناك علامات لم تقع وإذا وقعت فهي إيذان بقرب العلامات الكبرى، ونذكر من العلامات التي وقعت وإن في ذكرها زيادة إيمان بالله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر، وكذلك فيه استعداد للعلامات الأخرى التي لم تقع.

أولًا: بعثة المختار ووفاته عليه الصلاة والسلام:

كانت بعثته أول آية من آيات الساعة وكانت وفاته ارهاصة من ارهاصات قدوم الساعة، ففي الحديث عند البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال: رأيت رسول الله قال

بأصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام وفي رواية مدهما عليه الصلاة والسلام وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين، بعثت أنا والساعة كهاتين»[(١)]. وجاء عنه بسند صحيح: «بعثت في نسم الساعة»[(٢)]، قال ابن الأثير: (نسم الريح هو بدايته)، فالرسول بعثته من أول أشراط الساعة، وعند البخاري عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي في غزوة تبوك وهو في خيمة: «أعدد ستًا بين يدي الساعة، موتي أي وموته هو ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى إن الرجل يعطي مائة دينار فيظل ساخطًا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانية غاية تحت كل غاية اثنى عشر ألفًا»[(٣)]، فهذا الشاهد فيه قوله: «موتي» فهو علامة من علامات الساعة.

ثانيًا: من العلامات التي وقعت انشقاق القمر، وقد اتفق العلماء على أن القمر قد انشق في عهد النبي ، جاء بذلك القرآن فقال الله عَزَّوَجَلَّ: اقتربت الساعة وانشق القمر، اقتربت الساعة وعلامة على اقترابها انشقاق القمر، وقد جاء في الأحاديث عن نبينا صلى الله عليه بذلك منها ما جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين، وفي رواية بينما نحن مع رسول الله بمنى إذا انفلق القمر فلقتين فلقة وارء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله: «اشهدوا اشهدوا»[(٤)] فهذه علامة من علامات الساعة قد وقعت.

العلامة الثالثة من علامات الساعة التي قد وقعت: نار الحجاز وما أدراك ما نار الحجاز، نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل بالبصرى، ثبت ذلك في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء أعناق الإبل

(١) رواه البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٨٦٧).
(٢) صحيح الجامع (٢٨٣٢).
(٣) رواه البخاري (٣١٧٦).
(٤) رواه البخاري (٤٨٦٥) ومسلم (٢٨٠٠).

بالبصرى»[1]، وهذه الآية العظيمة قد وقعت على الصورة التي أخبر بها رسول الله ، نار تأجج من أرض الحجاز أضاءت منها أعناق الإبل بالبصرى، وبصرى كما قال الإمام النووي: (مدينة ببلاد الشام، وهي مدينة حوران بينها وبين دمشق مراحل قليلة).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كتابه البداية والنهاية: (أن هذه النار كان خروجها في سنة ستمائة وأربع وخمسين من الهجرة النبوية، قال العلامة ابن كثير في أحداث سنة ستمائة وأربع وخمسين: وهذه النار قد خرجت في أرض الحجاز عند مدينة رسول الله فأحرقت الحرات الشرقية منها وحصل قبلها زلزال شديد دام سبعة أيام فارعوني الناس إلى ربهم ودخلوا المسجد، دخلوا الحرم واستغفروا الله جماعات وذهبوا إلى أمير المدينة وبالأخص قاضيهم، فوعظوه فرد المظالم وأعتق عبيده واستمرت النار إلى رجب أو أكثر من ذلك وقد أفرغ المؤرخون لهذه الحادثة وأثبتوا أنها من علامات الساعة التي أخبر بها الرسول ويخبر كثير منهم ومنهم العلامة أبو شامة في بعض كتبه عن هذه الحادثة وقال بعضهم في بيات وهو يصف هذه النار، حتى إن طلبة العلم في ذلك الزمان كانوا يكتبون بنور هذه النار التي أضاءت مدينة رسولنا ، وقد حدث الأعراب أنهم مكثوا ليالي لا يوقدون سراجًا وإنما يمشون على هذه النار التي أوقدت في أرض الحجاز وقد نظم بعضهم فقال:

يا كاشف الضر صفحًا عن جرائمنا ... لقد أحاطت بها يارب بأساء
نشكو إليك خطوبًا لا نطيق لها ... حملًا ونحن بها حقًا أحقاء
زلازل تخشع الصم الصلاب لها ... وكيف تقوى على الزلازل شماء
أقام سيفًا يرج الأرض فانصدعت ... عن منظر فيه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجري فوقه سفن ... من الهضاب لها في الأرض أرساء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت ... رعبًا وترعد مثل السعف أضواء
فيا لها آية من معجزات رسو ... ل الله يعقلها القوم الألباء)

فهذه آية من آيات وقوع الساعة الصغرى وقعت.

---

(١) رواه البخاري (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢).

رابعًا: من العلامات التي وقعت أيضًا: توقف الجزية والخراج عن المسلمين، كانت الجزية التي يدفعها أهل الذمة في الدولة الإسلامية والخراج الذي يدفعه الذين يستغلون الأراضي التي فتحت في الدولة الإسلامية كسواقي العراق والشام، كانت كل هذه الأموال تصب في بيت مال المسلمين وقد أخبر الرسول أن هذه الأموال ستنقطع عن المسلمين، ففي صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم» قال أبو هريرة: شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[1]، وقال في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم لما سئلوا: لما؟ قالوا: لأن الأعاجم أخذوها، وهذا يدل يا إخوان على صدق نبوة رسولنا.

وهناك علامات وقعت وهي مستمرة أو وقعت مرة وممكن أن تتكرر وسنذكرها إن شاء الله تعالى من ذلك الفتوحات والحروب أخبرنا الرسول أن هناك فتوحات للمسلمين من ذلك قوله: «تغزون فارس فيفتحها الله لكم، وتغزون الروم فيفتحها الله لكم، تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله لكم، وتغزون الدجال فيفتحه الله لكم»[2]، وأخبرنا أن المسلمين سيزيلون ملك كسرى وملك قيصر، وأن أموالهما ستنفق في سبيل الله، ثبت ذلك في البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسولنا أنه قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله تعالى»[3].

وأخبر أن المسلمين سيغزون الهند، قال: «عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار عصابة تغزو الهند وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ»[4]، وبشرنا بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية، كذلك أخبرنا بفتح روما مقر الفاتيكان ثبت ذلك عن نبينا عن

(١) رواه مسلم (٢٨٩٦).
(٢) رواه مسلم (٢٩٠٠).
(٣) رواه البخاري (٣٦١٩) ومسلم (٢٩١٨).
(٤) السلسلة الصحيحة (١٩٣٤).

عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله سُئل أي المدينتين تفتح أولًا أرومية أم قسطنطنية؟ فقال النبي: «مدينة هرقل تفتح أولًا»[1].

وقد وقع بعض ما ذكر النبي وفتح المسلمون فارس وفتح المسلمون الروم وزال ملك كسرى وقيصر وأنفقت كنوزهما في سبيل الله تعالى، ففتحت بكنوز كسرى وقيصر ما والاهما من البلاد التي حولها والتي كانت تحتهم وغزا المسلمون الهند وفتحها الله لهم حتى وصلوا إلى حدود الصين، وفتح المسلمون القسطنطنية مقر النصرانية الشرقية، وسيكون للمسلمين في مقتبل الزمان ملك عظيم ينتشر فيه الإسلام وتفتح روما قال: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت وبر ولا مدر إلا دخله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يُذل به الكفر»[2].

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما سمعنا وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

---

(١) السلسلة الصحيحة (٤).

(٢) صححه الألباني في تحذير الساجد (١٥٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة محمد صلوات الله وسلامه عليه. أما بعد:

أيها المسلمون:

كذلك من العلامات التي أخبر بها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى رسولنا والتي وقع بعضها خروج الدجالين أدعياء النبوة فقد أخبر بأنه سيكون هناك كذابون وسيكون هناك دجالون يدَّعون النبوة وسيقرب عددهم من ثلاثين وفي بعض الروايات أنهم سبع وعشرون، قال في الحديث الصحيح: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُبعَثَ دجَّالونَ كذَّابونَ قريبٌ من ثلاثينَ كلُّهم يزعمُ أنَّهُ رسولُ الله»[(١)]، وفي رواية قال: «يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون منهم أربعة نساء وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»[(٢)]، وقد وقع بعض ما أخبر النبي فخرج مسيلمة الكذاب في عهد الصحابة وكذلك الأسود العنسي، وفي عهد التابعين خرج المختار الثقفي فادعى النبوة وخرج كذلك في زماننا الحسين مرزا الذي ظهر في طهران والتف الناس حوله وسيكتمل العدد الذي أخبر به رسولنا. قال العلماء: والمراد بهؤلاء الكذابين أدعياء النبوة أولئك الذين يلتف الناس حولهم، وإلا فإن أدعياء النبوة كثير.

ومن الأشياء التي أخبر بها الرسول ووقع بعضها الفتن التي تعصف بالمسلمين، حدثنا رسول الله كثيرًا عن الفتن وأخبرنا بأنه سيكون هناك هرج وسيكون هناك قتل، من تلك الفتن التي أشار بها علينا قوله لعثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مبشرًا إياه بالجنة على بلوى تصيبه، وقوله لعمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية»[(٣)]. وقوله مثلًا «يكثر الهرج»[(٤)]، ووقع من ذلك مقتل عمر بن الخطاب الباب الذي كسر، ووقع من ذلك مقتل عثمان بن عفان ومقتل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ووقع من ذلك أشياء كثيرة والفتن لازالت.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٩) ومسلم (١٥٧).

(٢) صحيح الجامع (٤٢٥٨).

(٣) رواه البخاري (٤٤٧) ومسلم (٢٩١٦).

(٤) رواه البخاري (٧١٢١) ومسلم (١٥٧).

وأخبرنا أن بؤرة هذه الفتن تكون في المشرق ثبت ذلك عن نبينا في صحيح البخاري حينما وقف على حرة المدينة وأشار إلى جهة المشرق وقال: «مـن هاهُنـا جـاءَتِ الفِـتنُ»[1]، وقـال: «اللهم بارك في شامنا، اللهم بارك في يمننا»، فقال رجل: في نجدنا، قال: «ذاك قرن الشـيطان تكون منه الفتن»[2].

قال الخطابي: (نجد المدينة وهو العراق وما يليه من النجود وهي الأراضي المرتفعة).

وقد حدث ما قاله فالفتن خرجـت مـن أرض العـراق ففتنـة الرافضـة وفتنـة الخـوارج الحرورية الذين التفوا حول الكوفة وقاتلهم علي بـن أبي طالـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفتنـة الـزنج التـي عصفت بالدولة الإسلامية، فتنة القرامطة فتنة التتار كل ذلك ظهر من تلك المنطقة، وأخبرنـا بأن الدجال سيكون من قبلها، وإن الخراسانيين مـن اليهـود يـأتون مـن قبـل أرض العـراق فليتفون حول الدجال ويكونون عضدًا له، كل ذلك أخبر به رسول الله ووقع بعضه وسـيقع كله كما شاء الله تعالى.

كذلك مما أخبر به من العلامات التي وقعت وستقع إسناد الأمر إلى غير أهله، جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فـأخبره بعـد إذ أتـم الحـديث قـال «إذا ضُـيعت الأمانة فانتظر الساعة» فقال الرجل: كيف إضـاعتها؟ قـال: «إذا وسـد الأمـر إلى غـير أهلـه فانتظر الساعة»[3]، ومما وقـع في الأمـة الإسـلامية أنـه وُسـد الأمـر في بعـض حقـب الأمـة الإسلامية إلى غير أهله فعصفت بالأمة الإسلامية موجات من الفـتن، هـذه بعـض مـا ذكـر النبي مما وقع.

أيها الإخوة: كل ذلك من أنباء الغيب نؤمن به لِما قام عليـه مـن الـدليل والبرهـان، ولـو غاب عن شواهدنا وقَصُـرت عنه حواسُّنا، ولكنه حاضرٌ بأدلته القطعية وبراهينه العلمية.

وإنكم لتعلمون أن الماديين من أهل هذا العصر والعلمانيين هم مـن أشـدِّ النـاس تجـاهلًا للساعة وأشراطها، وأكثر الناس صدودًا عنها، وما كانوا في كثير من الأقطار إلا دعاة لعبـادة

---

(١) صحيح الجامع (٥٩١٩).
(٢) رواه البخاري (٧٠٩٤).
(٣) رواه البخاري (٦٤٩٦).



الجسد وعبادة الدنيا ما يذكرون الله ربهم في جليلٍ ولا خطيرٍ، ولا يُـذكَّرون بلقائـه لا في ليـل ولا في نهار. لقد تواطأ على ذلك ملاحدة الشرق والغـرب شـيوعيوهم وزنـادقتهم، إنهـم لم يرفعوا أيديهم إلى السماء قط. لقد ولَّوا وجوههم عن الآخرة؛ في قلوبٍ فارغةٍ، وعقائد خربةٍ. عصـرٌ ماديٌّ طافحٌ بالرغبات الجامحة والغرائز المدللة.

ومن العجب أيها الإخوة: أن التقدم المادي الكبير الذي أحرزه أهل هذا العصر في مضمار العلوم التجريبية زعزع عندهم كثيرًا مـن العقائـد الإيمانيـة والمعتقـدات الغيبيـة، بـدل أن ي دلهم على الخالق.

إن في علوم العصر ومعارفه ومكتشفاته ومخترعاته ومواصلاته واتصالاته ما يجعـل هـذه الأشـياء جـديرةً بالتصـديق، ممكنـة الوقـوع، معقولـة التصـور ممـا لم يدركـه السـابقون أو يعرفه المتقدمون.

وما العجب وقد رأى أهل هذا العصر ما قرَّب البعيد وطوى المسافات وقـارب الـزمن، بل إن هناك آيات في الأنفس من أمراض لم تكن معروفة فـيمن سـبق وكثـرة مـوت الفجـأة، والحـوادث والحـروب والفـتن والصـراع عـلى مـوارد الميـاه ومـا يسـمُّونه بالسـلع الاستراتيجية والموارد الطبيعية.

ألم يكن في الأشراط والأمارات والمتغيرات المتسارعات ما يـذكِّر أهـل الغفلـة ويزيـد في بصر أولي البصائر والأبصار؟؟ لعلهم أن ينتهوا من الذنوب، وتلين منهم قاسيات القلـوب، ويغتنموا المهلة قبل الوهلة.

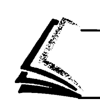
وبعد أيها الإخوة، فإن أهل العلم والإيمان يؤمنون بما جاء من عند ربهم وأخبر به نبـيهم، تطمئن بـه قلـوبهم، وتنشرـح بـه صـدورهم، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

أعوذ بالله من الشيطان الـرجيم: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يعمل للساعة وممن يصدق بها وبأماراتها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

سبحانك الهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.





الساعة وأشراطها[1]



الخطبة الأولى:

الحمد لله الولي الحميد يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، أحمد ربي وأشكره على نعمه الظاهرة والباطنة، ونسأله من فضله المزيد، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث بالدين الحق والموصوف بكل عمل صالح رشيد..

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فاتقوا الله بالإعداد للقائه والاستكثار من الطاعات قبل نزول بلائه والشكر على آلائه.

أيها الناس: إن ربنا أخبرنا بما نحن فيه من خير أو شر ومحبوب ومكروه ولذات ومنغصات.. فقال -وهو أصدق القائلين-: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقد خلق الله هذا الكون المشاهد بالحق، وقد جعل له أجلا مسمى ينتهي إليه، وكل مخلوق في هذه الدنيا له وقت لا يعدوه كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(١) علي بن عبدالرحمن الحذيفي.

[الأعراف:٣٤]، وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

فإذا بلغ الكتاب أجله، واستوفى هذا الخلق المشاهد عمره واستوفى مدته التي أرادها الله - أفناه الرب -سبحانه تعالى- وبدله، وطوى الدنيا وأزالها.. فتشققت السماوات ودكت الأرض واضمحلت الجبال فكانت سرابا وكورت الشمس وخسف القمر وانكدرت النجوم وتناثرت وسجرت البحار، وصعق من في السماوات ومن في الأرض فماتوا إلا من شاء الله من نحو الحور العين.

وأقام الله القيامة وأتت الساعة، وطرق الخلق أهوال عظام لا قبل لهم بها.. قال الله- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليق حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها»(١).

ويخلق الله للساعة وما بعدها عالمًا آخر وكونًا غير هذا الكون.. يتنعم فيه الصالحون لأعمالهم الحسنة ويعذب فيه أهل السيئات بالعذاب الأليم.. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم:٤٨-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٤-١٥].

---

(١) رواه البخاري (٧١٢١).

وقد أخفى الله الساعة عن كل أحد.. قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]..

ولكن الله تعالى جعل للساعة أشراط وعلامات تدل على قرب وقوعها ليستكثر الناس من الطاعات ويبتعدوا عن المحرمات؛ ولتكون هذه العلامات أحد المعجزات لنبينا ﷺ الدالة على صدق رسالته..

وأشراط الساعة وعلاماتها ثلاثة أنواع...

- النوع الأول: علامات وأشراط صغرى.. قد وقعت ومضت.
- القسم الثاني: أشراط الساعة الوسطى.. التي تتكاثر حتى تتصل بالكبرى.
- القسم الثالث: أشراط كبرى.. التي تعقبها الساعة.

فأما النوع الأول: فهو أشراط الساعة الصغرى التي وقعت ومضت.. وهي كثيرة، منها بعثة النبي ﷺعن بريدةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة جميعًا.. إن كادت لتسبقني»(١).

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم، فقال: «أعدُد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظلّ ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون.. فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كلّ غاية اثنا عشر ألفا»(٢)..

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان»(٣).

---

(١) حسّنه ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣١٧٦).

(٣) صحيح الأدب المفرد (٣٥٠).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة: إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذب، واستخفوا بالدماء، واشتغلوا بالبناء، وباعوا الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحكم ضعفًا والكذب صدقًا والحرير لباسًا، وظهر الجور، وكثر الطلاق، وموت الفجأة، وائتمن الخائن وخوِّن الأمين وصدق الكاذب وكذب الصادق، وكثر القذف، وكان المطر قيظًا والولد غيظًا، وفاض اللئام فيضًا وغاض الكرام غيضًا، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وحلف بغير الله وشهد المرء من غير أن يستشهد، وسلم للمعرفة وتفقه لغير الدين، وطلبت الدنيا بعمل الآخرة، ويقل الأمر بالمعروف، وشربت الخمور، وعق الرجل أباه وبر صديقه وجفا أمه وأطاع امرأته.. الحديث»[1].

ومنها قوله ﷺ: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة.. قيل: من هي يا رسول الله، قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»[2].

والنوع الثاني: الأشراط الوسطى للساعة.. وهي كثيرة أيضا، لا تزال تظهر حتى تتصل بأشراطها الكبرى.

ما رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا»[3].

وعن ميمونة زوجة النبي ﷺ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال أمتي بخير مالم يفشوا فيهم ولد الزنا؛ فإذا فشا فيهم ولد الزنا فيوشك أن يعمهم الله عَزَّوَجَلَّ بعذاب»[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٤١٠) وضعّفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٧١).
(٢) صحيح الترمذي (٢٦٤٠).
(٣) رواه البخاري (٨٠) ومسلم (٢٦٧١).
(٤) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٤٠٠).

وعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن من اقتراب الساعة أن يؤذي الجار جاره»[1]، وعن مرداس الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يذهَبُ الصالحونَ، الأوَّلُ فالأوَّلُ، ويبقَى حُفالَةٌ كحفالَةِ الشعيرِ، أو التمرِ، لا يُبالِيهم اللهُ تعالى بالَةً»[2]..

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكثر الفتن ويظهر الكذب وتتقارب الأسواق ويتقارب الزمان ويكثر الهرج.. قيل: وما الهرج؟ قال: القتل»[3].

وأما الأشراط الكبرى التي تعقبها الساعة؛ فمنها: خروج المسيح الدجال..

وهو رجل من بني آدم أعور العين اليمنى يدعي أنه رب العالمين، يأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، ويمر على الخربة فيقول: أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها.. فتتبعه كيعاسيب النحل، ويحي الموتى -بإذن الله- وتطيعه الشياطين فيتصورون على صور الأموات ويدعون إلى الإيمان به، ويتصورون على صور الأنعام التي ماتت للبادية فيتصورون على صورها، ثم يدعون الناس إلى أن الذي خرج هذا -وهو الدجال- يحي الموتى، ويدعون له ليؤمن الناس أنه رب العالمين..

وقد جعله الله فتنة للناس ليعلم المؤمن من الكافر.. مكتوب بين عينيه (كافر).. يقرأه كل مؤمن -كاتب وغير كاتب-.. فمن آمن به لم ينفعه عمل صالح سلف، ومن كفر بهذا الدجال غفر الله له.

ثم يخرج عيسى بن مريم، ثم يقتله ب (باب لد) بفلسطين.

ومن أشراط الساعة الكبرى: طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة؛ وهي دابة تخطم المؤمن على أنفه فيبيض وجهه وتخطم الكافر فيسود وجهه، ثم خروج يأجوج ومأجوج.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٥٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٣٤).

(٣) رواه البخاري (١٠٣٦) ومسلم (١٥٧).

أيها الناس: كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في مجالسهم يتذاكرون الساعة وأشراطها لأن ذكر الساعة وأشراطها يزيد في إيمان العبد ويرغب في الآخرة، ويجعل الإنسان على حذر من الدنيا وشهواتها ويزيد في الإيمان..

عن حذيفة بن أُسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ تقومُ السَّاعةُ حتَّى تروا عشرَ آياتٍ: طلوعُ الشَّمسِ من مغربِها، ويأجوجُ ومأجوجُ، والدَّابَّةُ وثلاثةُ خسوفٍ خسفٍ بالمشرقِ وخسفٍ بالمغربِ وخسفٍ بجزيرةِ العربِ ونارٌ تخرجُ من قعرِ عدنَ تسوقُ النَّاسَ أو تحشرُ النَّاسَ فتبيتُ معَهم حيثُ باتوا وتقيلُ معَهم حيثُ قالوا»[1].

أيها الناس: اتقوا الله، واعلموا أن كل ما هو آت آت وكل آت قريب..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٨]..

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، ونفعنا بهدي سيد المرسلين وقوله القويم..

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) صحيح الترمذي (٢١٨٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له القوي المتين، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمد عبده ورسوله.. بعثه الله بالهدى واليقين..

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله -أيها المسلمون- واجعلوا تقواه ذخرًا لكم في دنياكم وفي أخراكم؛ فقد سعد المتقون وخاب الخاسرون العصاة المفسدون.

أيها الناس: إن الساعة أمرها عظيم، وإن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله تبارك وتعالى يبعث من في القبور، وإن أقرب من ذلك هو موت أحدكم.. إن أقرب من الساعة موت الرجل، وهو قيامته؛ لأن الموت الانتقال بعده إلى الآخرة..

فمن مات أصبح من أهل الآخرة، واطلع على ما كان من عمله واطلع على ما يكون من جزائه؛ فمبشر بالجنة من كان من الصالحين ومبشر بالنار من كان من العصاة الفاسقين..

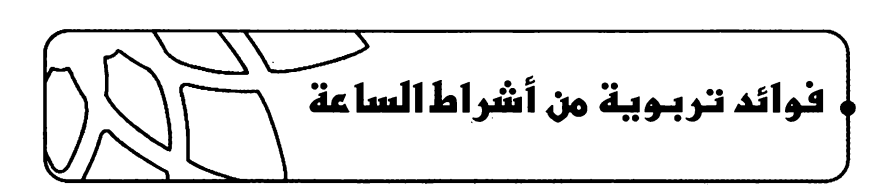
فاتقوا الله -أيها المسلمون- وأعدوا لحياتكم؛ فإن حياة المرء الحقيقية هي الحياة الأخرى.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٣-٢٥].

ألا.. وصلوا عباد الله على سيد الأولين والآخرين؛ فقد أمركم الله تعالى بالصلاة عليه في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]..

وقد قال ﷺ: «من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا»[(١)]؛ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.. اللهم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وسلم تسليمًا كثيرًا..



(١) صحيح أبي داود (٥٢٣).



فوائد تربوية من أشراط الساعة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله: اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر:١]، وهكذا يحذرنا ربنا في كتابه، وقال لنا نبينا ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه»[1]؛ وأشار بالسبابة والوسطى لقربهما من بعضهما، قال: «إن كادت لتسبقني»[2]؛ وهذا نذير لنا من النذر العظيمة، ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ [محمد:١٨].

هناك أشراط صغرى للساعة، وأشراط كبرى، فالأشراط الصغرى تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من النوع المعتاد غالبًا؛ كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان، فليست في غرابتها والأعجوبة التي فيها كأشراط الساعة الكبرى التي

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠١) ومسلم (٨٦٧).

(٢) مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٤)، وأورده ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٥٦) وقال: (إسناده حسن).

تكون قرب قيام الساعة مباشرة، وفيها أمور عِظام، ليست بمعتادة؛ كظهور الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، والخسوفات الثلاثة العظيمة في العالم؛ في شرقه، وغربه، ووسطه، وظهور النار التي تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وهكذا، ولا يشترط أن تنتهي جميع أشراط الساعة الصغرى حتى تبدأ الكبرى، فقد ترافق بعض الصغرى بداية الكبرى.

والأشراط الصغرى منها ما وقع وانتهى كانشقاق القمر، وبعثة محمد ﷺ، وظهور النار بأرض الحجاز؛ ومنها ما وقعت مبادئه وأوائله ولم تستحكم بعد؛ كتقارب الزمان، وكثرة الزلازل، وكثرة الهرج، فقد وقع شيء من هذا، ولكن سيكون المزيد من الزلازل، والمزيد من القتل، وهو الهرج.

ومن أشراط الساعة الصغرى ما لم يقع منه شيء بعد؛ كأن يحسر الفرات عن جبل من ذهب، وأن تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا، وأن يخرج المهدي من عقب النبي ﷺ، وهكذا.

وقد ظهرت أشراط كثيرة، أخبر عنها نبينا ﷺ، تُنبئ المسلم بأن نهاية العالم قريبة، وأن الأمر قد دنا.

ومما ظهر من الأشراط التي أخبر عنها النبي ﷺ، وهي من دلائل صدقه ومعجزاته؛ بعثته، وموته، وفتح بيت المقدس، وكثرة التجارة، واستفاضة المال، وكثرة الشح، وظهور الفتن من المشرق، وإتباع هذه الأمة لسنن الأمم الأخرى، وتشبههم بهم، وظهور مدعي النبوة، وقتال التُرك والعجم، وضياع الأمانة، وقبض العلم، وظهور الجهل، وكثرة الشُرط، وانتشار الزنا والربا، وظهور المعازف، وكثرة شرب الخمر، وزخرفة المساجد والتباهي بها، والتطاول في البنيان، وتقارب الزمان، وذهاب البركة من الوقت، وتقارب الأسواق، وكثرة الأسواق، وسرعة العلم بما فيها، وظهور الشرك في هذه الأمة، وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، وارتفاع الأسافل، وتشبب المشيخه، والتماس العلم عند الأصاغر، وكثرة الزلازل، وذهاب الصالحين، وأن يكون السلام للمعرفة فقط، وصدق رؤيا المؤمن، وظهور الكاسيات العاريات، وانتشار الكتابة، وانتفاخ الأهلة، وكثرة الكذب، وكثرة شهادة الزور، وكتم الحق، وكثرة النساء، وكثرة موت الفجأة، وتناكر القلوب، وأن يتمنى الموت لشدة البلاء.

وسيكون مزيد من أشراط الساعة الصغرى؛ ككلام السباع والجمادات للإنس، وكثرة الروم وقتالهم للمسلمين، وفتح القسطنطينية غير الفتح الذي حصل، فإن هنالك فتحًا في آخر الزمان سيكون بالتكبير، وخروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، وقتال اليهود، واستحلال البيت، وهدم الكعبة، وخراب المدينة، ونزول الخلافة الأرض المقدسة وبلاد الشام.

عباد الله: إنها أمور مخيفة، وإنها أمور تزلزل كيان الإنسان، وتؤكد له أن الدنيا فانية، وأن القدوم على الله قد اقترب، وأن خراب العالم قد دنا، ومَن علِم اقتراب الساعة قصر أمله، ولم تركن نفسه إلى الدنيا، وقام بالتوبة، وطرد الغفلة عن نفسه، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١-٢].

لكن -يا عباد الله- ماذا نستفيد من إخبارنا بأشراط الساعة؟

- التهيؤ لها، والعمل الصالح، والتوبة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «بادروا بالأعمال ستًا»، أي: قوموا بالأعمال قبل أن تظهر ست خصال، وعند ذلك قد لا ينفع العمل، «طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة»(١).

وقال لما سأله الأعرابي: متى الساعة؟: «وماذا أعددت لها؟»(٢)؛ هذا هو السؤال الكبير، فإذا استشعر العبد قُرب قيام الساعة انشغل قلبه خوفًا من ربه، ورجاء له، وتوكلًا عليه، وإنابة إليه، وصدقًا معه.

- أشراط الساعة تؤكد علينا الثبات على الدين، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨).

(٣) رواه مسلم (١١٨).

- أشراط الساعة تعلمنا قضية العبادة حتى لو اضطربت الأمور، وعمت الفوضى، قال عليه الصلاة والسلام: «العبادة في الهرج»، أي: الفتن وكثرة القتل، «كهجرة إليّ»[(١)]؛ أي: في الأجر والثواب، فإذا غفل الناس، وانشغلوا، وقام هذا يعبد ربه فمعنى ذلك أن قلبه معمور بمحبته، والإنابة إليه، والصدق معه، والانشغال بذكره؛ وهكذا المؤمن في وقت الهرج والمرج متصل بالله تعالى.

- إذا عرفت -يا عبد الله- حديث: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال»[(٢)]، وأنت تعلم أن قيام الساعة قريب؛ فتحفظ هذه العشرة، وتتعرف على معانيها، وتذكر نفسك أنه مهما جاءت فتن كبار فعندك من الآيات العظام ما تتلى أمام هذه الفتن الكبار فتكف بأسها عنك، «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي»[(٣)]، معنى ذلك: التباعد من الفتن، وعدم المشاركة فيها.

وكذلك: «من سمع بالدجال فلينأ عنه»[(٤)]. فلا تحسن الظن بنفسك، فلا تدري إذا اقتربت من الفتن قد تهوي، وإذا تعرضت لها قد تقع فيها، فابتعد عن فتن الشهوات، وفتن الشبهات؛ لأنك لا تدري إذا فتحت الشاشات، ونظرت بالعينين في هذه الصور والأشكال، وإذا سمعت بأذنك لتلك الشبهات، فقد تتأثر وتفتتن بها.

- أشراط الساعة تعلمنا كيف أن علم ربنا العظيم أعجز علوم البشر، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، الساعة لا تقوم إلا فجأة، الساعة لا تقوم وهناك أحد يتوقع قيامها، تباغت الجميع، وتفاجئ الجميع عند قيامها.

- لما نرى انطباق أشراط الساعة في الواقع يزداد المسلم إيمانًا، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٨).
(٢) رواه مسلم (٨٠٩).
(٣) رواه أحمد (٣/ ٢٩)، وقال أحمد شاكر: (إسناده صحيح).
(٤) صحيح أبي داود (٤٣١٩).

- أشراط الساعة تعلمنا التماس المكسب الحلال؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر: «بين يدي الساعة يظهر الربا»[1]، ينتشر على الشاشات، وبالبطاقات، والحسابات، وفي الأعمال، والوظائف، والصفقات، ينتشر كأنه غبار يطير، ويدخل كل منخر.

ولذلك فأشراط الساعة تعلمك -يا عبد الله- أن تتفقه في أحكام المعاملات، البيع والشراء، والإجارة، والكفالة، والحوالة، والرهن، فلا تدخل في باب من أبواب المعاملة إلا بعد أن تعرف أحكامها، كما قال عمر: «لا يبع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين»، لماذا؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال عن أشراط الساعة: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حلال أم من حرام»[2].

- أشراط الساعة تُربي فينا منهج الاستعفاف، فمهما كان الشيء كبيرًا إذا كان فيه محظور شرعي فنحن أغنياء عنه، كما جاء في الحديث: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو»[3]؛ ولذلك قال بعض الرواة لهذا الحديث يوصي ابنه: «إن رأيته فلا تقربنَّه»، ليس فقط لا تأخذ منه شيئًا، لا تقربنه.

- أشراط الساعة تربينا على استقلالية الشخصية الإسلامية، وعدم التشبه باليهود والنصارى والكفار، لا في ملابسهم، ولا في قصاتهم، ولا في عاداتهم، ولا في أعيادهم، أي شيء من خصائص تلك الأديان لا نتشبه بهم فيها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام حذرنا فقال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع»، فقيل يا رسول الله: كفارس والروم؟ قال: «ومَن الناس إلا أولئك؟»[4]، وفي رواية: اليهود النصارى؟ قال: «فمَن؟»[5]؛ أي: مَن غيرهم؟ فهذا نهي عن التشبه بمجوس فارس،

---

(١) صحيح الترغيب (١٨٦١).
(٢) رواه البخاري (٢٠٨٣).
(٣) رواه مسلم (٢٨٩٤).
(٤) رواه البخاري (٧٣١٩).
(٥) رواه مسلم (٢٦٦٩).



واليهود، والنصارى، وماذا سيكون ويحل بهؤلاء من الإثم، وشرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة.

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك الإخلاص يا رب العالمين، ونسألك القصد في الغنى والفقر، ونسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة؛ اللهم اجعلنا هداة مهتدين.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، أشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، رب الأولين والآخرين، وملك يوم الدين، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذريته الطيبين الطاهرين، وأزواجه، وخلفائه الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم صلِّ وسلم وزد وبارك على عبدك ونبيك محمد إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، حبيبنا، وقدوتنا، وإمامنا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

عباد الله: هذا ما أخبر عنه نبيكم ﷺ من أشراط الساعة لنحذر الشر الذي فيها، ومن ذلك ما يكون في آخر الزمان من خسف، وذهاب بعض الأرض تحت بعضها، وانشقاقها، وذهاب ما فيها وغورها، فقال: «يكون في آخر الأمة خسف ومسخ»، أي: تُغير الخلقة إلى صور الخنازير والقردة، «وقذف»، أي: رمي من السماء بحجارة ونحوها، فقالت عائشة: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا ظهر الخبث»[1]، وقد أخبر عن أسباب الخسف والقذف والمسخ، فقال: «إذا ظهرت القينات»، أي: المغنيات، والرقصات، «والمعازف وشربت الخمور»[2].

- ولذلك يجب علينا أن نتعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وننشر العلم، والدورات العلمية، وكتب العلم، ونغشى حلق العلماء، وطلبة العلم؛ لأنه قال: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل»[3].

- وكذلك أشراط الساعة تربينا على الرجوع إلى الأكابر من أهل العلم، «إن من أشراط الساعة قال: أن يلتمس العلم عند الأصاغر»[4]، أي: ليس صغار السن، وإنما أهل البدع، والذين عندهم قلة في العلم.

---

(١) صحيح الترمذي (٢١٨٥).

(٢) ضعيف الترمذي (٢٢١١).

(٣) رواه البخاري (٨٠) ومسلم (٢٦٧١).

(٤) صحيح الجامع (٢٢٠٧).

وكذلك حذرنا من أناس سيظهرون يفتوننا بغير ما أحل وما حرم سبحانه، قال عليه الصلاة والسلام: «سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»[1]. عجائب وغرائب الفتاوى، أحاديث موضوعة مكذوبة تنتشر بالبريد الإلكتروني، ورسائل الجوال.

- وكذلك علمنا عليه الصلاة والسلام أنه إذا نزلت الملمات والمدلهمات أن نرجع إلى أهل العلم، هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيرى -يعني: شأن- إلى ابن مسعود، قال: يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة؟ وكان ابن مسعود متكئًا فقعد فقال: «إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة» رواه مسلم. وهكذا، أهل العلم يبينون.

- وكذلك فإن أشراط الساعة تذكرنا بصلة الرحم، وحسن الجوار، وإفشاء السلام على الجميع؛ لأن من أشراطها انتشار العقوق، وسوء الجوار، وعدم السلام إلا للمعرفة.

- أشراط الساعة تحثنا على أن نكون أمناء، ونضع الأمناء في مواقع الأمانة؛ لأنه: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» رواه البخاري، هذه أبرز علامة من علامات الساعة الصغرى التي علمها للأعرابي، «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2].

- أن نقوم على أهلينا، وزوجاتنا، وبناتنا، وأخواتنا بأمرهن بالعفاف، والستر، والحجاب، والحشمة؛ لأنه ذكر لنا من أشراط الساعة، «نساء كاسيات، عاريات، مميلات، مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها»[3].

- أن نحذر الفوضى، والدخول في سفك الدماء؛ لأنه قال لنا: «والذي نفسي بيده! لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيمَ قتل، ولا المقتول فيم قُتل»[4].

---

(١) رواه مسلم (٨).
(٢) البخاري برقم (٥٩).
(٣) رواه مسلم (٢١٢٨).
(٤) رواه مسلم (٢٩٠٨).

- أن نحذر من التفاخر بالدنيا؛ لأنه قال: «وإذا تطاول رعاع البهم في البنيان فذاك من أشراطها»(١)؛ ليس العيب أن تنشأ عمارات طُولية لحل أزمة السكان؛ لأن البناء الرأسي مع قلة الأراضي وحاجة الناس حل من الحلول، لكن العيب والذم أن يحدث التباهي والتفاخر بذلك، والتعلق بالدنيا.

- البصيرةَ البصيرةَ! يعلمنا إياها الشاب الذي يخرج للدجال، «شاب من خيرة أهل المدينة، هو أخيرهم في ذلك الوقت، يقول للدجال: أنت الدجال الذي أخبرنا عنه رسول الله ﷺ، فيشقه الدجال نصفين ويعيده كما كان، فيقول الشاب: ما ازدت فيك إلا بصيرة، أنت الدجال»(٢).

الباطل لابد أن يعرف أنه باطل، وأن يقر أنه باطل، وأن يتضح أمر الباطل حتى لا يروج على الناس، والنبي ﷺ أخبرنا عن فرج للمسلمين عظيم في آخر الزمان، عندما ينزل عيسى بن مريم من السماء في خضم الأزمة، وشدة الكرب، وإمام المسلمين المهدي من ذرية النبي ﷺ يؤمهم، وفيهم عيسى، وشريعة محمد ﷺ تحكم إلى آخر الزمان، حتى عيسى يحكم بها.

وهكذا تتم المعركة الفاصلة بين المسلمين واليهود، فلا يهود بعد ذلك اليوم، والمعركة الفاصلة بين المسلمين والنصارى، فلا نصارى بعد ذلك اليوم، فنتعلم ترقب الفرج من ربنا سبحانه وتعالى.

عباد الله: لابد أن نعتبر، وهناك عبر كثيرة تحدث الآن، لكن ما أكثر العِبَر! وما أقل المعتبرين! ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، غنى بعد فقر، وفقر بعد غنى، شدة بعد رخاء، ورخاء بعد شدة، مرض بعد صحة، وصحة بعد مرض، وخوف بعد أمن، وأمن بعد خوف، والدنيا تتقلب بأهلها، والله يصرف الأمور سبحانه وتعالى، ومن العبر كيف أهلك الله الطغاة من فرعون وقومه وقارون، وقوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود.

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).
(٢) صحيح الجامع (٨٠٤٨).

كم من ظالم تعدى وجار، فما راعى الأهل ولا الجار، بينا هو يعقد عقد الإصرار، حل به الموت فحل من حلته الأزرار! ما صحبه سوى الكفن إلى بيت البلى والعفن، لو رأيته وقد حلت به المحن، وشين ذلك الوجه الحسن، فلا تسل كيف صار، سال في اللحد صديده، وبلي في القبر جديده، وهجره نسيبه ووديده، وتفرق حشمه وعبيده والأنصار.

أين مجالسه العالية؟ أين عيشته الصافية؟ أين لذاته الحالية؟ أين المال والجاه؟ والكبرياء والخيلاء؟ كم تسفي على قبره سافية! ذهبت العين وأخفيت الآثار، تقطعت به جميع الأسباب، وهجره القرناء والأحباب، وصار فراشه الجنادل والتراب، وربما فتح له في اللحد باب النار.

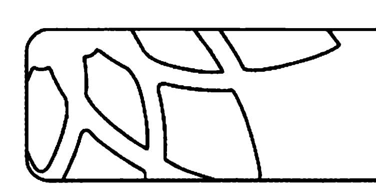
خلا -والله- بما كان صنع، واحتوشه الندم وما نفع، وتمنى الخلاص وهيهات قد وقع، وخلاه الخليل المصافي وانقطع، واشتغل الأهل بما كان جمع، وتملك الضد المال والدار، فاعتبروا يا أولي الأبصار!

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ ... غُلْبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنفعْهُمُ القُلَلُ
واستُنزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ عن معاقِلِهِم ... وأُسْكِنوا حُفَرًا يا بؤسَ ما نزلُوا!
نادَاهُمُ صارخٌ مِن بَعدِ ما دُفنوا ... أين الأسِرَّةُ والتيجانُ والحُلَلُ؟
أين الوجوهُ التي كانت محجَّبَةً ... مِن دونها تُضْرَبُ الأستارُ والكِلَلُ؟
فأفصح القبرُ عنهمْ حينَ ساءلهم ... تلك الوجوهُ عليها الدودُ يَقْتَتِلُ
قد طالما أَكَلُوا فيها وما شَرِبوا ... فأصبَحُوا بَعْدَ طُولِ الأَكْلِ قد أُكِلوا
وطالما كنَزُوا الأموالَ وادَّخَروا ... فخلَّفُوها على الأعداءِ وارْتَحَلُوا
وطالما شيَّدُوا دُورًا لتُحْصِنَهُمْ ... ففارقوا الدُّورَ والأهلينَ وانتقلوا
أضحَتْ مساكنُهم وحْشًا معطَّلَةً ... وساكنُوها إلى الأجْداثِ قد رَحَلوا
أين الكنوزُ التي كانَتْ مَفَاتِحُها ... تنوءُ بالعُصْبَةِ المقْوِينَ لو حَمَلُوا

أيـن العبيـدُ التـي أرْصـدتّهم عُـدَدًا　　　أيـن الحديـد وأيـن البِـيضُ والأَسَـلُ
أيـن الفـوارسُ والغلـمانُ مـا صـنعوا　　　أيـن الصـوارمُ والخَطِّيَّـةُ الـذُّبُلُ
هيهـاتَ مـا كشـفوا ضَـيْمًا وَلا دَفَعُـوا　　　عنـكَ المنيـةَ إذا وافَى بِـكَ الأَجَـلُ

اللهم اغفر لنا أجمعين، وتب علينا يا أرحم الرحمين، لا تفرق جمعنا هذا إلا بذنب مغفور، وعمل مبرور، وسعي متقبل مشكور، اغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا يا أرحم الرحمين.





المسيح الدجال[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي حكم بزوال هذه الدار، وأمر بأخذ العدة لدار القرار، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المختار، صَلَّى اللهُ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه الأبرار.

أما بعد:

فاتقوا الله -يا عباد الله- واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله، وحاسبوا أنفسكم عند وداع عامكم، وتوبوا إلى ربكم توبة نصوحًا، ومن كان منكم أحسن فيما مضى من أيامه، فليحمد الله على ذلك، ويستمر عليه إلى الممات، ومن كان مفرطًا في شيءٍ من الواجبات، أو مرتكبًا لشيء من المحرمات فليتب إلى ربه، ويندم على فعله، ويقلع عن معصيته، ويعزم على ألا يعود إليها في مستقبل أيامه وأعوامه.

عباد الله: إن أهم ما ينبغي للمسلم أن يعنى به من أمور دينه: أمور العقيدة، خصوصًا الغيبيات، لأنها تدخل في قوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، فمن عقيدة أهل السنة والجماعة: الإيمان بأشراط الساعة الكبرى، ومن أشدها وأعظمها خروج المسيح الدجال آخر الزمان كما أشار إلى ذلك القرآن، وأخبر به المصطفى ﷺ.

والدجال هو مسيح الضلالة، يفتن الناس بما أعطاه الله من الآيات كإنزال المطر، وإحياء الأرض بالنبات وغيرها من الخوارق، وسمي المسيح الدجال بالمسيح لأنه ممسوح إحدى العينين، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يومًا.

(١) خالد بن عبدالله الشايع.

وسمي بالدجال: لأنه يغطي الحق بالباطل، بتمويهه بالكذب، وهو رجل من بني آدم، له صفات كثيرة، جاءت في السنة لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره، حتى إذا خرج عرفه المؤمنون، فلا يفتنون به، ومن هذه الصفات أنه رجل شاب، أحمر قصير أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة ولا جحراء، كأنها عنبة طافية، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب. ومن صفاته أنه عقيم لا يولد.

وهذه الكتابة التي بين عينيه حقيقية على ظاهرها، ولا إشكال في رؤية بعض الناس لهذه الكتابة دون بعض، وكذلك قراءة الأمي لها، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وذلك أن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بعين بصره، وإن كان لا يعرف الكتابة، فيخرق الله للمؤمن الإدراك دون تعلم، لأن ذلك الزمن تخرق فيه العادات).

أيها المؤمنون: إن فتنة الدجال فتنة عظيمة، أخرج مسلم في صحيحه من حديث عمران بن الحصين قال رسول الله ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»(١).

ولقد أمر المصطفى ﷺ الناس بالاستعاذة من فتنته في دبر كل صلاة، أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع؛ يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»(٢).

ولقد حذّر المصطفى ﷺ أصحابه وأمته من فتنة الدجال، بل لقد حذّر منه كل نبي، وذلك لعظيم فتنته؛ أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وحذّر أمته الأعور الكذاب»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٦).

(٢) رواه مسلم (٥٨٨).

(٣) رواه البخاري (٧١٣١) ومسلم (٢٩٣٣).

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر قال: قام النبي ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»(١).

ولقد كان السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يحذرون منه ويعلمون أولادهم الاستعاذة منه، قال الإمام السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ: (مما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال، ولا سيما في زماننا هذا الذي اشرأبت منه الفتن وكثرت فيه المحن، واندرست فيه معالم السنة، وصارت السنة فيه كالبدع، والبدع شرع يتبع).

أيها المسلمون: إن بين يدي خروج الدجال علامات تدل على قرب خروجه، جاءت موضحة في السنة، فمن ذلك: أن تنقطع ثمرة نخل بيسان، وبيسان مدينة بالأردن.

ومنها: أن يذهب ماء بحيرة طبرية، ومنها: ذهاب ماء عين زغر، وهي عين بين الحجاز وبيت المقدس، ومنها: انتصار النبي ﷺ وظهوره على العرب، وهذه العلامات منها ما قد تم، ومنها ما بقي، وهذا يدل على أن وقت خروجه قد اقترب.

ولقد أوضحت السنة بعض أعماله ومقدار لبثه بعد خروجه، أخرج مسلم في صحيحه من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن الدجال فقالوا: وما لبثه في الأرض؟! قال: «أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قالوا: وما إسراعه في الأرض؟! قال: «كالغيث إذا استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت...». حتى قال: «ويأتي على القوم فيدعوهم فيردون عليه ما قال، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول: أخرجي كنوزك فتتبعه كيعاسيب النحل»(٢).

أخرج مسلم في صحيحه من حديث حذيفة قال رسول الله ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تتأجج».

اللهم أعذنا من فتنة المسيح الدجال، ومن جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) رواه البخاري (٧١٢٧) ومسلم (١٦٩).

(٢) رواه مسلم (٢٩٣٧).

الخطبة الثانية:

أيها المؤمنون: لقد كان الدجال حيًّا في زمن النبي ﷺ موثقًا بالحديد في إحدى جزر البحر من قبل المشرق، كما جاء ذلك في حديث فاطمة بنت قيس في صحيح مسلم من كلام تميم الداري.

واختلف الصحابة ومن بعدهم في صافي بن صياد هل هو الدجال، والصواب أنه دجال من الدجاجلة، وليس بالدجال الأكبر المشهور.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن ابن صياد قد أشكل على بعض الصحابة، فظنوه الدجال، وتوقف فيه النبي ﷺ حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، وإنما هو من جنس الكهان، أصحاب الأحوال الشيطانية).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمقصود أن ابن صياد ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعًا؛ لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية -وفي حديث الجساسة- فهو فيصل في هذا المقام).

أما مكان خروج الدجال فهو من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلدًا إلا دخلها إلا مكة والمدينة، فتحرسها الملائكة فلا يستطيع دخولها، أخرج الترمذي من حديث أبي بكر الصديق قال حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان»(١).

وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفًا من اليهود»(٢)، قال ابن كثير: (فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة يقال لها: اليهودية).

وأكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء، أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة»(٣).

---

(١) صحيح الترمذي (٢٢٣٧).

(٢) رواه أحمد (٤١/ ١٥) وحسنه المحققون في طبعة مؤسسة الرسالة.

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٤).

ثم إنه لا يزال يعيث في الأرض فسادًا حتى ينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقتله بباب لد، وهي بلدة في فلسطين قرب بيت المقدس، أخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان الطويل في الدجال، وقال فيه: «فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله»[1].

أيها المسلمون: لقد أرشد الله النبي ﷺ أمته إلى ما يعصمها من فتنة المسيح الدجال، فما من خير إلا ودل الأمة عليه، وما من شر إلا حذرها منه، صلوات ربي وسلامه عليه.

فأول واقٍ -بإذن الله- من الدجال وفتنته: التمسك بالإسلام، والتسلح بسلاح الإيمان، ومعرفة أسماء الله وصفاته الحسنى التي لا يشاركه فيها أحد، واتباع السنة في جميع الأمور.

ومنها: التعوذ بالله من فتنة المسيح الدجال وخاصة في الصلاة، كما سبق بيانه.

ومنها: حفظ فواتح سورة الكهف، العشر الآيات الأول منها، كما روى ذلك مسلم في صحيحه من حديث النواس وفيه: «من أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»[2]، قال الثوري: سبب ذلك ما في أولها من العجائب والآيات التي مَنْ تدبرها لم يفتتن بالدجال.

ومنها: الفرار منه عند السماع بخروجه وعدم الذهاب إليه، أخرج الإمام أحمد من حديث عمران بن الحصين قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات»[3].

أيها المؤمنون: إن فتنة الدجال من أعظم الفتن التي تمر بالناس، فعلى اللبيب العناية بها ومعرفتها للخلاص منها، وكثرة الدعاء والاستعاذة بالله تعالى من شرها، في أدبار الصلوات، وفي كل وقت وحين، فإنه لا معصوم إلا من عصمه الله وثبته.

اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال. اللهم أعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن...



(١) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٣) صحيح أبي داود (٤٣١٩).

كفى بالموت واعظًا(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي قضى بالفناء على هذه الدار، وأمر بأخذ العدة لدار القرار، أحمده تعالى وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، أزهد الناس في الدنيا، وأكثرهم للموت ذكرًا وللآخرة استعدادًا، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والتقى، والتابعين ومن تبعهم بخيرٍ وإحسانٍ واقتفى.

أيها الناس: أوصيكم ونفسي بتقوى الله فمن لا يتقي الله تشابهت عليه السبل: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩].

عباد الله: حقيقةٌ قاسيةٌ لا محيد عنها، وقضيةٌ رهيبةٌ مسلمةٌ لا مفر منها تواجه أهل الدنيا، فلا يستطيعون لها ردًا، ولا يملكون لها دفعًا، حقيقةٌ تتكرر كل لحظة، ونعايشها مرة بعد مرة، والناس سواءٌ أمام هذه الحقيقة المُسَلَّمة، والمصير المحتوم، يواجهها الآباء والأبناء، والأغنياء والفقراء، والضعفاء والأقوياء، والرجال والنساء، والمرءوسون والرؤساء، والعامة والعلماء، والمغمورون والوجهاء، وأهل الشجاعة والجبناء، يقفون منها موقفًا موحدًا، لا يستطيعون لها حيلة، ولا يملكون لردها وسيلة، ولا يقدرون تجاهها دفعًا ولا تأجيلًا، إنها حقيقة النهاية والفناء والموت، الموت الذي لا مفر ولا محيد من الاستسلام له، ولا يملك البشر حياله شيئًا.

عباد الله: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب.

---

(١) صالح بن حميد.



إن ربكم لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدا، فتزودوا من دنياكم ما تحرزون به أنفسكم غدا. فالأجل مستور، والأمل خادع.

تمر الجنائز بالناس يجهزونها ويصلون عليها ويسيرون خلفها يشيعونها محمولة إلى القبر، فتراهم يلقون عليها نظرات عابرة، وربما طاف بهم طائف من الحزن يسير. أو أظلهم ظلال من الكآبة خفيف. ثم سرعان ما يغلب على الناس نشوة الحياة وغفلة المعاش.

أيها الإخوة: أهل الغفلة أعمارهم عليهم حجة، وأيامهم تقودهم إلى شقوة. كيف ترجى الآخرة بغير عمل؟ أم كيف ترجى التوبة مع الغفلة والتقصير وطول الأمل؟؟.

ويل لأهل الغفلة: إن أعطوا لم يشبعوا، وان منعوا لم يقنعوا، يأمرون بما لا يفعلون، ينهون وهم لا ينتهون، هم للناس لوامون ولأنفسهم مداهنون.

يا أهل الغفلة: هذه الدنيا كم من واثق فيها فجعته؟؟ وكم من مطمئن إليها صرعته؟؟ وكم من محتال فيها خدعته؟؟ وكم من مختال أصبح حقيرا؟؟ وذي نخوة أردته ذليلا؟؟ سلطانها دول، وحلوها مر، وعذبها أجاج، وعزيزها مغلوب، العمر فيها قصير، والعظيم فيها يسير، وجودها إلى عدم، وسرورها إلى حزن، وكثرتها إلى قلة، وعافيتها إلى سقم، وغناها إلى فقر. دارها مكارة، وأيامها غرارة، ولأصحابها بالسوء أمارة. الأحوال فيها إما نعم زائلة وإما بلايا نازلة وإما منايا قاضية. عمارتها خراب، واجتماعها فراق، وكل ما فوق التراب تراب.

أهل الغفلة لا يشبعون مهما جمعوا، ولا يدركون كل ما أملوا. ولا يحسنون الزاد لما عليه قد أقدموا، يجمعون ولا ينتفعون، ويبنون ما لا يسكنون. ويأملون ما لا يدركون: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣].

طويل الأمل: يبني ويهدم، وينقض ويبرم، ويقدر فيخطئ التقدير. يقول ويفعل، ويخطط ويدبر، وتأتي الأمور مخالفة للتدبير. يسيء في الاكتساب ويسوف في المتاب، ثم ها هو قد تم أجله وانقطع عمله وأسلمه أهله وانقطعت عنه المعاذير: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

أيها المسلمون أيها المسلمات: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»[1] بهذا أوصى نبيكم محمد ﷺ. كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة؛ فمن ذكر الموت حق ذكره حاسب نفسه في عمله وأمانيه ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة - كما يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - (تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ).

أكثروا من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات، «فما ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه، ولا سعة إلا ضيقها»[2].

وايمْ الله ليوشكن الباقي منا ومنكم أن يبلى، والحي منا ومنكم أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها، فتأكل لحومنا وتشرب دماءنا، كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمرها وشربنا من مائها ثم تكون كما قال الله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

لقد وقف نبيكم محمد ﷺ على شفير قبر فبكى حتى بل الثرى ثم قال: «يا إخواني لمثل هذا فأعدوا»[3]، وسأله عليه الصلاة والسلام رجل فقال: من أكيس الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»[4]. «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»[5].

يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الموت قد فضح الدنيا فلم يدع لذي لبٍّ بها فرحا).

ويقول يونس بن عبيد: (ما ترك ذكر الموت لنا قرة عين في أهل ولا مال).

ويقول مطرِّفٌ: (إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا نعيما لا موت فيه، لقد أَمِنَ أهل الجنة الموت فطاب لهم عيشهم وأمنوا الأسقام فهنيئا لهم طول مقامهم).

---

(١) صحيح، رواه أحمد (٢/ ٢٩٢)، وصححه الألباني بشواهده، إرواء الغليل (٦٨٢)..

(٢) هذه زيادة على الحديث السابق، رواها ابن حبان (٢٩٩٣)، وحسنها الألباني، إرواء الغليل (٦٨٢).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٩٤)، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٥١)..

(٤) رواه ابن ماجه وغيره (٤٢٥٩)، وحسّن الألباني الحديث بطرقه. السلسلة الصحيحة (١٣٨٤). والجملة الأولى منه صحيحة، رواها البخاري (٦٠٢٩) وغيره..

(٥) رواه أحمد (٤/ ١٢٤) وضعفه الألباني، ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

أيها المسلمون: اذكروا الموت والسكرات، وحشرجة الروح والزفرات، اذكروا هول المطَّلَعَ. من أكثر ذكر الموت أكرمه الله بثلاث: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت ابتلي بثلاث: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

كفى بالموت للقلوب مقطعا، وللعيون مبكيا، وللذات هادما. وللجماعات مفرقا. وللأماني قاطعا.

استبدل الأموات بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، جاءوها حفاة عراة فرادا.

اللحود مساكنهم، والتراب أكفانهم، والرفات جيرانهم لا يجيبون داعيا، ولا يسمعون مناديا. كانوا أطول أعمارا وأكثر آثارا، فما أغناهم ذلك من شيء لما جاء أمر ربك، فأصبحت بيوتهم قبورا، وما جمعوا بورا، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين. حلَّ بهم ريب المنون، وجاءهم ما كانوا يوعدون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

هل تفكرت يا عبد الله يوم المصرع، يوم ليس لدفعه حيلة، ولا ينفع عند نزوله ندم. أزِلْ عن قلبك غشاوة الغافلين، فإنك واقف بين يدي من يعلم وسواس الصدور، ومن يسأل عن لحظات العيون، ويحاسب على إصغاء الأسماع: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨].

تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويمنع الركون إلى الدنيا، ويهون المصائب.

تذكروا الموت لعلكم تسلمون من حسرة الفوت.

يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اتق الله يا بن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت وحسرة الفوت).

احذر السكرة والحسرة يفجأك الموت وأنت على غرة فلا يصف واصف قدر ما تلقى ولا قدر ما ترى.

احذر لا يأخذك الله على ذنب فتلقاه ولا حجة لك.

أيها الإخوة: أين الخائف من قلة الزاد؟ وأين المتخفف من أثقال الدنيا؟ أين الوجل من بعد السفر ووحشة الطريق؟ اكتفى من الدنيا بطِّمريه[1]، ومن طعامه بقرصيه. استعان على دنياه بالعفة والسداد فكفاه في دنياه القليل من الزاد. لقد استحيا من ربه حق الحياء تذكر الموت والبلى فحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى أراد الآخرة فترك زينة الحياة الدنيا. آثر ما يبقى على ما يفنى ذلكم هو كيِّس الأكياس.

ألا فاتقوا الله رحمكم الله واحفظوا الله ما استحفظكم وكونوا أمناء على ما استودعكم، فإنكم عند ربكم موقفون، وعلى أعمالكم مجزيون وعلى تفريطكم نادمون.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

---

(١) الطِّمر: بالكسر الثوب الخلق البالي.

الخطبة الثانية:

الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مأيوس من مغفرته، أحمده سبحانه وأشكره على سوابغ نعمته، وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ومصطفاه من رسله، وخيرته من بريته. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن سار على نهجه واستمسك بسنته وحافظ على شريعته وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

أيها المسلمون: توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، «بادروا بالأعمال قبل أن تشغلوا، فهل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمرُّ»(١).

لا تكونوا - رحمكم الله - ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل. وقد علمتم أن الموت يأتي بغتة.

أكثروا من زيارة القبور فإنها تذكر الآخرة. اعتبروا بمن صار تحت التراب وانقطع عن أهله والأحباب، جاءه الموت في وقت لم يحتسبه وهول لم يرتقبه.

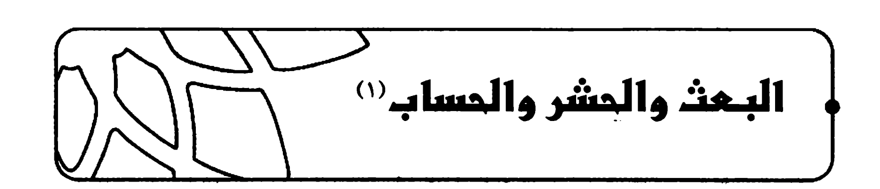
وليتأمل الزائر حال من مضى من أقرانه، أكثَروا الآمال وجمعوا الأموال انقطعت آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم، محا التراب محاسن وجوههم، وتفرقت في القبور أشلاؤهم، وترملت من بعدهم نساؤهم وقسمت أموالهم ومساكنهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

يا من بدنياه اشتغل	وغره طول الأمل
وقد مضى في غفلةٍ	حتى دنا منه الأجل
الموت يأتي بغتةً	والقبر صندوق العمل

(١) ضعيف، رواه الترمذي (٢٣٠٦) وفيه علّة خفية ذكرها الألباني، انظر: السلسلة الضعيفة (١٦٦٦).

اتقوا الله رحمكم الله وارجوا الدار الآخرة فتلك دار لا يموت سكانها، ولا يخرب بنيانها، ولا يهرم شبابها، ولا يبلى نعيمها، ولا يتغير حسنها وإحسانها وحِسانُها، يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:١٠].





البعث والحشر والحساب[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

عباد الله: هناك أمور نعرفها جميعًا ونؤمن بها ونعتقد حدوثها، لكن مع زحمة الحياة وكثرة المشاغل والنفس والهوى والشيطان وكثير من الأسباب الأخرى التي تتجاذب الإنسان تجعله ينسى كثيرًا من هذه المسلمات والحقائق؛ لذا فكم نحن بحاجة إلى أن يذكر بعضنا بعضًا بهذه الأمور، ومن أهم هذه الأشياء التي تشاغلنا عنها ما نحن مقدمون عليه بعد الموت من أمور عظيمة وأحداث هائلة، سوف يمر بها كل واحد منا، فلا أدري هل تأهبنا لها؟!

أيها المسلمون: إننا مقدمون على أمور عظيمة وأحداث هائلة يوم القيامة، ينبغي أن تكون منا على بالٍ دائمًا، وأن نستعد لها، ويسبق ذلك أحداث سوف تغير أشياء كثيرة في هذا الكون،

---

(١) ناصر بن محمد الأحمد.



فتنشق السماء، وتتناثر النجوم، وتتصادم الكواكب، وتتفتّت الأرض، وتغدو صعيدًا جرزا، وتصبح الجبال كثيبًا مهيلًا، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، ويكون هذا على إثر النفخة الأولى ينفخها إسرافيل بأمر ربه، فيصعق كلُ من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٣-١٦]، وروى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»(١).

ثم يكون بعد ذلك النفخة الثانية، وقد أشار الله عَزَّوَجَلَّ إلى النفخة الأولى والثانية في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦، ٧]، فالراجفة كما يقول ابن عباس: «هي النفخة الأولى، والرادفة هي الثانية»، فتعود الحياة إلى الأجساد الميتة، وهذا هو يوم البعث وهو إعادة الإنسان روحًا وجسدًا كما كان في الدنيا، ثم يُخرج الله الناسَ من الأجداث أحياء، فيقول الكفار والمنافقون حينئذٍ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]، ويقول المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الرسول هو أول من يخرج من قبره، فقد روى البخاري في صحيحه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «يصعق الناس حين يصعقون، فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق»(٢).

ثم بعد ذلك يقوم الملائكة بحشر الخلائق إلى الموقف، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥، ٨٦]. والحشر يا عباد الله هو سَوق الناس جميعًا إلى الموقف، وهو المكان الذي يقفون فيه انتظارًا لفصل القضاء بينهم، فبعد بعث الناس يأمر

(١) رواه البخاري (٦٥١٩) ومسلم (٢٧٨٧).
(٢) رواه البخاري (٦٥١٨) ومسلم (٢٣٧٣).

الله ملائكته فتسوقهم إلى الموقف، وحالهم كما خلقوا أول مرة، حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختتنين، فقد صح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيما اتفق عليه الشيخان أنها قالت: سمعت رسول الله يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا»، قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[1]، وروى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خطب رسول الله فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] إلى آخر الآية، ثم قال: «ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح أي: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[2].

عباد الله: وفي الموقف يصيب الخلائق كرب شديد، فقد روى المقداد بن الأسود عن رسول الله أنه قال: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يُلجمه العرق إلجامًا» وأشار بيده إلى فِيه[3].

وفي أثناء ذلك يكون أناس تحت الظل الذي يخلقه الله، تحت ظل العرش كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله،

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٩).
(٢) رواه البخاري (٤٦٢٥).
(٣) رواه مسلم (٢٨٦٤).

ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»(١).

فإذا اشتد الأمر بالناس وعظم بهم الكرب في هذا الموقف العظيم استشفعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالرسل والأنبياء أن ينقذهم مما هم فيه ويُعجل لهم فصل القضاء، وكل رسول يحيلهم على من بعده، حتى يأتوا نبينا محمدًا، فيشفع فيهم، وهذه هي الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وهي من المقام المحمود الذي وعد به الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩]، فينصرف الناس بعد ذلك إلى فصل القضاء، وعندها يجازى كلُ إنسان بما كسب في الحياة الدنيا من خير أو شر، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل:٨٩، ٩٠]، وقال رسول الله فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(٢).

وهناك تنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد خيرها وشرها، وهو ميزان حقيقي له لسان وكفتان، وهذا إظهار لعدل الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨، ٩]، وقال أيضا: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة:٦-٩]، فتوضع الحسنات في كفه والسيئات في كفه، فمن ثقل ميزان حسناته كان من المفلحين الفائزين، ومن ثقل ميزان سيئاته والعياذ بالله

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).
(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

كان من الخائبين الخاسرين، وفي ذلك قال الإمام ابن القيم في نونيته:

(أفـــما تصـــدّقُ أنّ أعـــمال العبـــا دِ تُحـــطّ يـــوم العـــرض في الميـــزان
وكـــذاك تثقـــل تـــارة وتخـــف أخ رى ذاك في القـــرآن ذو تبيـــان
ولـــه لســـانٌ كفتـــاه تقيمـــه والكفتـــان إليـــه ناظرتـــان
مـــا ذاك أمـــرًا معنويًـــا بـــل هـــو الـ ـمحسوس حقًّـــا عنـــد ذي الإيـــمان)

عباد الله: ثم تنشر الدواوين بعد ذلك وهي صحائف الأعمال، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-١٢]، ويقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥- ٢٦]، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

ثم بعد ذلك يُعرض الناس على ربهم وتقام عليهم الحجج، ويطلعون على أعمالهم ويقرؤون صحفهم، فيجب أن نؤمن يا عباد الله بالعرض والحساب وقراءة الكتاب، فجميعها حقٌّ، دل عليها الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٥-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٤٨].

كلّ عبد يعرض على ربه، فيتولى سبحانه وتعالى حسابه بنفسه وبدون وساطة، عن عدي بن حاتم أن النبي قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[1]، فإن كان من أهل النجاة وهو الذي

(١) رواه البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦).

يؤتى كتابه بيمينه تجاوز الله عن ذنوبه ولم يناقشه الحساب وأدخله الجنة ولم يعذبه بالنار، فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا من هؤلاء، وأما من كثرت معاصيه والعياذ بالله وأوتي كتابه بشماله فذلك الذي يناقش الحساب، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة، فقد حدثت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧، ٨]؟! فقال رسول الله: «إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»[1]. والمراد بالمناقشة الاستقصاء في المحاسبة والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة، كما ذكر صاحب الفتح.

وأما عن كيفية الحساب فنؤمن بما ورد في القرآن عنها وفي حديث رسول الله لا نزيد ولا ننقص، ولا نسأل عن أكثر مما ورد، فنؤمن أن الله سبحانه وتعالى يذكّر كل عبد بما قدمه في الحياة الدنيا من خير أو شر، ويشهد على العباد جميع من يستشهدهم الله عليهم، فتشهد الأرض بما حدث على ظهرها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:١-٨].

فقد ورد عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا فقال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا قال: فهذه أخبارها»[2].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) صحيح ابن حبان (٧٣٦٠).



الخطبة الثانية:

الحمد لله وهو بالحمد جدير، أحمده سبحانه وأشكره على فضله العميم وخيره الوفير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه البشير النذير والسراجُ المُنير، صلّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله ذوي القدر العليِّ وأصحابه أولي الشرف الكبير، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ومن على طريق الحق يسير، وسلَّم التسليم الكثير.

أما بعد:

أيها الإخوة: ومما يشهده الله عَزَّوَجَلَّ على عباده أيضًا في ذلك اليوم أعضاء الإنسان من الألسنة والأيدي والأرجل والجلود وغيرها، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن أعداء الله يحاورون هذه الأعضاء، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:١٩-٢٢]، وروى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قيل له: كيف سمعت رسول الله يقول في النجوى أي: مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة؟ قال: سمعته يقول: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى صحيفة حسناته. وأما الكفار فينادى على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»[1].

عباد الله: وبعد الحساب والعرض والميزان ينصرف الناس من الموقف ليمروا فوق الصراط، وهو الجسر المنصوب على جهنم، وجاء في وصفه أنه أدق من الشعر وأحد من السيف، وكل إنسان سواء كان طريقه إلى الجنة أو النار والعياذ بالله لا بد وأن يمر على

(١) رواه البخاري (٤٦٨٥).



الصراط، والمرور على الصراط عام لجميع الناس الأنبياء والصديقين والمؤمنين ومن يحاسب ومن لا يحاسب إلا الكفار، ومن استقام على صراط الله الذي هو دين الحق في الدنيا استقام على هذا الصراط في الآخرة، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الناس يمرون عليه بقدر أعمالهم في الدنيا؛ فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يرمل رملًا، فميرون على قدر أعمالهم، حتى يمرّ المقل في العمل الصالح تخرّ يد وتعلق يد، وتخرّ رجل وتعلق أخرى، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما في حديث طويل لأبي هريرة حتى يقول الرسول في آخر الحديث: «ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذٍ: اللهم سلم سلم»[(1)].

إذا كان الرسل يا عباد الله وهم مضمونٌ لهم الجنة يقولون على الصراط: اللهم سلم اللهم سلم، فماذا يقول غيرهم؟! ماذا يقول ذلك الذي لم يأتمر بأوامر الله عَزَّوَجَلَّ ولم ينته عن نواهيه؟! ماذا يقول ذلك المتهاون المتكاسل عن صلاته، يصلي واحدة ويترك أخرى؟! بل ماذا يقول النائم عن صلاة الفجر، المؤذن يقول: الصلاة خير من النوم، وهو يقول: النوم خير من الصلاة، وإن لم يقلها بلسانه فإنه قد قالها بفعله؟! وماذا يقول الآباء الذين تهاونوا في تربية أولادهم إلى حد التفريط وانشغلوا هم في دنياهم؟! بل ماذا يقول ذلك الموظف الذي استغلّ منصبه لجلب منفعة لشخصه أو قرابته؟! بل ماذا يقول علماء الأمة الذين تركوا النصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من رحم ربي وقليل ما هم؟! وماذا يقول المرابي؟! وماذا يقول المقامر؟! وماذا يقول الظالم؟! وماذا يقول وماذا يقول وماذا يقول؟!! اللهم سلم، اللهم سلم، اللهم سلم.

عباد الله: والمرور على الصراط هو الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، فإنه لا ينجو منه أحد كما روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله قال: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»،

(١) رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فقال النبي ﷺ: «قد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢]»(١). فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، فالجميع يمرون من فوق جهنم فوق الصراط، وينجي الله المؤمنين، ويذر الظالمين فيها جثيا، ثم إذا عبر المؤمنون الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص من بعضهم لبعض، فإذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة، روى أبو سعيد الخدري فيما أخرجه البخاري في صحيحه عن الرسول أنه قال: «يَخْلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»(٢).

عباد الله: هل من مشمر للجنة؟ هل من مستعد لاستقبال تلك الحياة؟ هل من متأهب للموت وما بعده من الأحوال والأهوال؟

مماتٌ ثم قبرٌ ثم حشرٌ وتخويفٌ وأهوالٌ عظامُ

سوف نحشر إلى ربنا -عباد الله- حفاة لا منتعلين وعراة لا مكتسين وغرلا لا مختونين، الأبدان عارية تماما ليس عليها شيء يسترها، والأرجل حافية مكشوفة غير مغطاة بالخفاف أو النعال أو الجوارب، ونحن غير مختونين، نحشر على الحال التي ولدنا عليها، رجالا ونساء لا فرق، الحال واحدة، يظل الناس على صعيد واحد، شاخصة أبصارهم، تحت حر الشمس، خمسين ألف سنة، لا يأكلون أكلة، ولا يشربون شربة، حتى تنقطع الأعناق جوعًا وعطشًا وخوفًا وهلعًا، إلا من أظلهم الله في ظله، ومن رزقهم الأمن في ذلك اليوم، ومن وقاهم من هول المطلع، ومن يسّر عليهم الحساب، وعافاهم من العذاب.. نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من أهل جنته ورضوانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، اللهم إنا نسألك رحمة تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتلم بها شعثنا، وترد بها الفتن عنا، وتصلح بها ديننا، وتحفظ بها غائبنا، وترفع بها شاهدنا، وتزكي بها علمنا، وتبيض بها وجوهنا.



(١) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٥).



البعث والنشور[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله تعالى في كماله عن الأشباه والنظائر، وتقدَّس في جلاله أن تُدرِكَه الأبصار أو تُحيط به الضمائر، العظمةُ رداؤُه، والكبرياءُ إزارُه، فمن نازعَه فهو الخاسرُ البائرُ، أحمده سبحانه وأشكرُه على خيرِه العَميم وفضلِه المُتكاثِر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ حقٍّ ويقينٍ تُنجِي صاحبَها يوم تُبلَى السرائر، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه، صاحبُ المقام المحمود، والحوض المورود، والشافع المُشفَّع في الصغائِر والكبائِر، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله الطيبين، وأصحابِه الغُرِّ الميامين أُولي الألباب والبصائِر، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مزيدًا ذُخرًا في القيامة من أعظم الذخائِر.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فتقوى الله عزٌّ من غير عشيرة، وعلمٌ من غير طلب، وغِنًى من غير مال، وأُنسٌ من غير جماعة.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨].

أيها الناس: تمر الجنائز محمولةٌ على الرقاب منقولةٌ إلى مثواها ومصيرها، تمر في منظر رهيب، ومشهد مهيب، تقشعر منه الأبدان، وترتجف له القلوب، ولكن نفوسًا أخرى تمر بها هذه المناظر فتلقي عليها قليلًا من دموع وعبرات في نظرات عابرات، وربما صاحب ذلك كآبة حزن أو سحابة أسى، ثم سرعان ما يطغى على النفوس لهو الحياة فتسهى ثم تنسى، وتذهل ثم تغفل.

---

(١) صالح بن حميد.

هل يظن هؤلاء أن الموت نهاية الحياة؟! وهل يعتقدون أن سعي العالمين نهايته أن يُهال عليه التراب؟!

ذلكم هو ظن الذين كفروا. إنهم الماديون والملاحدة، والكفار والزنادقة لا يرون في الموت إلا انتهاء قصة الحياة، لا يبقى عندهم بعد ذلك إلا أخبار تروى، وآثار تحكى، والأخبار هذه مآلها النسيان، والآثار مصيرها الاندثار: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

إنها المسألة الكبرى بعد الإيمان بالله، والقضية العظمى بعد توحيد الله، تكفل بها الوحي، وبرهنت عليه الكتب، وبلَّغتها الرسل.

إنه البعث والنشور، والخروج من الأجداث والقبور، والوقوف بين يدي الكبير المتعال للحساب والجزاء وعرض الأعمال، ثم المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ما من شيء في دعوة رسل الله استبعده الكفار وأنكرته الملاحدة واستهزأت به الزنادقة أشد من إنكارهم لليوم الآخر، فتراهم أجيالًا من بعد أجيال من أمم الكفر والإلحاد ينكرون ويستهزئون ويستبعدون، ولقد سجل القرآن الكريم افتراءهم العظيم، وإفكهم المبين: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨].

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٨]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ:٧-٨]. ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥].

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٢-٣]، **هذا هو افتراؤهم وهذا هو عجبهم!!**

ويتولى القرآن الرد والبرهان، فحينما يتطاولون على الله بعنادهم، وحينما يكشفون عن بلادتهم، يأتي الدليل ناصعًا بينًا، والحجة جلية ظاهرة: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٦-٦٧]. ثم تأتي الغيرة الإلهية من خلال هذا القسم العظيم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٨-٦٩].

﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٧٨-٨٢].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٧-٤٠]. سبحانك فبلى، سبحانك فبلى، سبحانك فبلى.

أيها الناس: خلق آدم من عدم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى بكلمة ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وقال له: كن فيكون.

مساكين أهل المادة والإلحاد ينساقون وراء ماديّاتهم ويغرقون في دناياهم في طيش وغفلة، محجوبون عن البصر والتبصر، ثم يتساءلون: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢].

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:٥-٦].

وما كانت هذه النزعة المادية النزقة التي تملأ رءوس هؤلاء وأشياعهم وأشباههم إلا لاتباع الهوى وتعطيل العقل: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٦]. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى:١٨]. ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨].

يا هؤلاء: هل يُسيغ العقل أن ينفضَّ سوق هذه الحياة وقد نهب من نهب، وسرق من سرق، وقتل من قتل، وبغى من بغى، وتجبَّر من تجبر ثم لا ينال أحدٌ من هؤلاء عقابه؟!!

وهل يسيغ العقل أن قومًا آخرين أحسنوا وأصلحوا وأنفقوا وجاهدوا ثم لا ينالون أجر ما قدموا؟!!

ألأنهم كانوا صادقين مخلصين؟! ألأنهم كانوا مغمورين متواضعين؟! «إن كان في الساقة كان في الساقة وإن كان في الحراسة كان في الحراسة»[1].

أم لأن الحسدة والجبارين تنكَّروا لفضلهم؟ ووقف الظالمون في طريقهم؟ آذوا وعذَّبوا وشرَّدوا واضطهدوا؟؟ هل يسيغ العقل أن يبقى المجرمون في أمنٍ وعافيةٍ وأمانٍ في العاقبة؟! لا وربك ثم لا... وكلا وعزة الله وجلاله ثم كلا... لابد من موقفٍ ويومٍ يجزى فيه المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، هذا هو نهج العقل والإيمان، والعلم والحكمة برهان ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢١-٢٢].

ثم هذا الإنسان المكرَّم المفضل سخَّر الله له ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، هل يعامل معاملة التراب والجماد؟! إن الحكمة تقتضي أن يُسأل كما أعطي، ويُحاسب على ما عمل وأنجز.

ثم ما الذي يُنكر من عجائب البعث والنشور؟! يقول بعض علمائنا المتقدمين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: (إياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس عقلك ومحسوس إدراكك!! فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عُرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدَّ إنكارًا لها. وفي طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به).

ولقد قيل للكفار والمنكرين: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥٠-٥١].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧).

أيها الإخوة: إن الذين لا يؤمنون بالآخرة والذين يكذبون بيوم الدين يعيشون في بؤس وشقاء لا أمل لهم ولا رجاء، لا يرجون عدلًا في الجزاء ولا عوضًا عما يلاقون في الدنيا من عناء.

الذي لا يؤمن بيوم الحساب لا يعدو نظره حياة الدنيا القصيرة القاصرة في حدود أرضه الضيقة، ومسافة عمره القصير، فهو من ضيقٍ إلى ضيق ومن بؤس إلى مسكنة.

لقد ضلوا وأضلوا، وما ضلوا إلا بما نسوا يوم الحساب، وما اجترأوا على حرمات الله وأفسدوا في أرض الله، وما ظلموا وتظالموا إلا لأنهم كانوا لا يرجون حسابًا.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون:١-٢]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧-٨].

أما المصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، فاستقاموا على الحق والتوحيد، ونبذوا الشرك وأصلحوا عملهم، وأخلصوا لربهم ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

يحملهم إيمانهم باليوم الآخر والتصديق بلقاء ربهم؛ يحملهم على الصبر والتحمل، والبذل والإحسان، لا يبتغون من أحدٍ غير الله جزاءً ولا شكورًا ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:٧-١١].

وما ثبتت أقدام المجاهدين، ولا تبينت مواقع الشهداء إلا بمقدار إيمانهم بلقاء الله وتصديقهم بعظم جزائه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

أيها المسلمون: أيها الناس: ورب السماء والأرض لتُخرجنَّ من قبوركم ولتُحشرنَّ إلى ربكم ولتُحاسبنَّ على أعمالكم ولتُجزونَّ بما كنتم تعملون. لتُجزون على القليل والكثير، والنقير والقطمير وذلك على الله يسير.

يوم البعث أيها المسلمون يوم مشهود تعددت أسماؤه لعظيم أهواله وأعماله. فهو يوم الحشر والنشور، ويوم الفصل والقيامة، ويوم الدين والحساب، ويوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، حين تحق الحاقة، وتقع الواقعة والقارعة، وتجيء الصاخة والطامة، يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ذلك يوم الخروج، يوم تبلى السرائر، وتتكشف خبيئات الضمائر، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩].

وحينئذٍ يكون كل إنسان حسيب نفسه ورقيب عمله ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]. تشهد عليه صحائفه، وتحكم عليه أعماله وتنطق عليه جوارحه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢٠-٢١]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٧-١٠].

الخطبة الثانية:

الحمد لله رفع قدر أولي العلم والإيمان فلم يغتروا بهذه الدار، جدوا وأخلصوا وأيقنوا أن الآخرة هي دار القرار. أحمده سبحانه وأشكره على خيره المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله النبي المختار، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه المهاجرين والأنصار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله، يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا حفاةً عراةً غرلًا، في موقف يذيب هوله الأكباد، تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، يجمع الله فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته، ومظلوم ومظلمته: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

الأبصار شاخصة، والشمس من الرؤوس دانية، قد علا أهل الموقف العرق، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، يفرُّ فيه المرء من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه، أهوالٌ شداد، وأحوالٌ عظام، تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات، فالسماء فرجت وكشطت وانشقت وفتحت فكانت أبوابًا، والشمس كورت وخسف القمر وجمع الشمس والقمر. والنجوم انكدرت وطُمست وانتثرت، أما الأرض فسجِّرت بحارها تسجيرًا، ودكت جبالها دكًا ونسفت نسفًا وسيرت فكانت سرابًا، وزلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت أثقالها، وحدَّثت أخبارها، وألقت ما فيها وتخلَّت.

ولقد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ قال: «على الصراط»[1] وفي حديث ثوبان: «إنهم يكونون في الظلمة دون الجسر»[2].

وحينئذٍ يحشر المتقون إلى الرحمن وفدًا فنعم الموفد ونعم الوافدون، ويساق المجرمون إلى جهنم وردًا ظمأى عطشى، يتمثل لهم السراب كالماء وما هو إلا الحر والسعير، والنار والزفير، عياذًا بالله من غضبه وأليم عقابه.

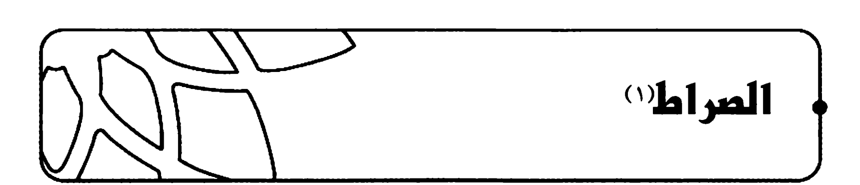
ألا فاتقوا الله رحمكم الله، وأعدوا العدة ليوم العرض والحساب وقراءة الكتاب، وجواز الصراط، وإثقال الميزان فالساعة آتية لا ريب فيها لا تأتيكم إلا بغتة، ولا يجليها لوقتها إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ.



---

(١) رواه مسلم (٢٧٩١).

(٢) رواه مسلم (٣١٥).



الصراط[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، وجامع الناس ليوم المعاد والعرض، ومورد الخلق على الصراط يوم العرض، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه، بعثه الله تعالى للإيمان مناديًا، وإلى دار السلام داعيًا، وبالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا.

وفرض على العباد طاعته، والقيام بحقوقه، وسد جميع الطرق إلى الجنة فلم يفتحها لأحد إلا من طريقه، فبلغ رسالة ربه، ونصح لعباده، حتى لحق بالرفيق الأعلى، وترك أمته على المحجة البيضاء، فسلكها الراغبون في جنات النعيم، وعدل بها المخذولون إلى طريق الجحيم، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

عباد الله: إذا قامت القيامة، وحشر الله الخلائق، وقام الناس من قبورهم لرب العالمين، ووقفوا بين يديه سبحانه وتعالى، فهناك يلاقي العباد في ذلك اليوم شيئًا عظيمًا من الأهوال والكروب، والشدائد والمصاعب، ولن ينجو من تلك الأهوال إلا من أعدَّ لذلك اليوم عدته

(١) إعداد الفريق العلمي بملتقى الخطباء.

من الإيمان والعمل الصالح، ثم يساق العباد في ختام ذلك اليوم إلى دار القرار: إما إلى الجنة وإما إلى النار.

وقبل دخول الجنة أو النار يمر الناس بهول عظيم، وكرب شديد، وعقبة كؤود، إنها عقبة المرور على الصراط، هذه العقبة التي لا مفر من ولوجها، ولا مناص من المرور عليها، وقد أقسم الرب جَلَّجَلَالُهُ وعز كماله أن يورد عباده عليها، فقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١-٧٢]، فورود المسلمين للنار يكون بالمرور على الصراط الذي بين ظهرانيها، وورود المشركين للنار أن يدخلوها.

إن أعظم الكرب وأخطر المواقف يوم القيامة موقف الصراط والمرور عليه، فالرهان الحقيقي يكون عليه، والسباق المصيري يكون فوقه، فمن نجا فقد فاز بالعلا، ومن سقط فإلى نار تلظى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس:٦٦].

أيها المسلمون: إن الصراط جسر ممدود على متن جهنم، أحدُّ من السيف، وأدقّ من الشعرة، تزل فيه الأقدام وتدحض، وطريق موحش مسود حارق، على حافتيه خطاطيف وكلاليب من نار معلقة، يجتازه كل الناس، وكل فرد منا سيمر عليه، فإما أن يكمل العبور بسهولة، وإما يعبره بمشقة وصعوبة، وإما أن ينتكس ويسقط! أعاذنا الله وإياكم!

روى سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «... ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من يجوز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك»[(١)].

وقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحدُّ من السيف»[(٢)].

وروى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا أن النبي ﷺ قال: «... ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم»، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة»، أي: طريق زلق

---

(١) السلسلة الصحيحة (٩٤١).

(٢) رواه مسلم (١٨٣).

تزلق فيه الأقدام، «عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة، لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان»(١).

قال الشُراح: الكلاليب جمع كلوب وهو حديدة معطوفة الرأس يُعلق عليها اللحم، والخطاف الحديد المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء، والحسكة شوكة صلبة معروفة، وقيل: نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم، والمفلطحة يعني العريضة، والعقيفاء أي المعوجة، وشوك السعدان نبات ذو شوك يرعى البدو إبلهم عنده مشهور بنجد، يقال مرعى ولا كالسعدان، له شوك أراد النبي ﷺ أن يقرب لهم كيف تعلق هذه الكلاليب بأجساد الناس وكل تتخطف هذه الخطاطيف الناس وتعلق بأجسادهم مثل شوك السعدان الذي يعلق وإذا نشب لا يخرج.

كل هذا وأضف إليه أن الأمم سيكونون على هذا الصراط يوم تبدل الأرض والسموات، فيا الله! كيف يكونون على صراط أحد من السيف، وأدق من الشعرة؟ سبحانك ربنا ما أعظمك!

تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط»(٢).

وفي رواية عند أحمد قال: «هم على جسر جهنم»(٣).

فالمرور على الصراط من أخطر كرب يوم القيامة، إن لم يكن هو أخطر الكربات وأعظم الأهوال، لأن فيه من الشدائد والخوف والرعب ما لا تتحمله عقول الخلق ولا نفوسهم.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت النار فبكيت؛ فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: أما في ثلاثة

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩).
(٢) رواه مسلم (٢٧٩١).
(٣) السلسلة الصحيحة (٢/ ١٠٣).

مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وحيث الكتاب حين يقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة:١٩] حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم»[١].

فانظروا -أيها الناس- إلى هذا الهول العظيم، حتى إن المرء لا يذكر في تلك الساعة إلا نفسه، وذلك لشدة الهول والفزع.

إن هذه الأحاديث توضح لنا جليًا أن نصب الصراط يعد كربًا من الكرب الكبيرة التي تستوجب علينا الحرص على الأعمال التي تنجينا منه؛ لذا قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه».

بل إن من هول الصراط وشدته وصعوبته يأتي رسولنا ﷺ بنفسه، ليحضر هذا الموقف رحمة منه وشفقة بأمته -بأبي هو وأمي ﷺ-، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: أنا فاعل. قال: قلت: يا رسول الله، فأين أطلبك؟ قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط. قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان. قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن»[٢].

ومن شدة هوله أنه لا يتكلم عند إجازته إلا الرسل داعين الله تعالى بالسلامة لمن عبره من أتباعهم، كما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذٍ: اللهم سلم سلم»[٣].

أيها المسلمون: إن المارين على الصراط ينقسمون عند المرور عليه إلى أربعة أصناف: فمنهم من يمر عليه سريعًا كالبرق فينجو منه، فلا يمسه حر جهنم ولا كلاليب الصراط،

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٥) وسكت عنه، وقال في رسالته لأهل مكة: (كل ما سكتُّ عنه فهو صالح).
(٢) صحيح الترمذي (٢٤٣٣).
(٣) رواه البخاري (٨٠٦) ومسلم (١٨٢).

ومنهم من تخدشه كلاليب الصراط أو تقطّع لحمه ثم ينجو، ومنهم من يحبس على الصراط فيعاني الشيء العظيم من لفح جهنم وغير ذلك من أصناف العذاب وألوان الخوف والرعب الذي تنخلع له الأفئدة حتى ينجو، ومنهم من يوبقه عمله فيسقط في النار والعياذ بالله.

يقول النبي ﷺ: «يوضع الصراط بين ظهراني جهنم على حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مسلّم، ومخدوج به -أي: مخدوش- ثم ناج، ومحتبس به، ومنكوس فيها»(١).

وأول من يجوز الصراط من الأمم أمة النبي محمد ﷺ لكرامتها عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأول من يجوز من هذه الأمة هو سيدنا ونبينا محمد ﷺ روى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «والأنبياء بجنبتي الصراط، وأكثر قولهم: اللهم سلم سلم، فأكون أنا وأمتي أول من يمر، أو قال: أول من يجيز»(٢).

وأول من يجوز من هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هم فقراء المهاجرين، فقد جاء عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله ﷺ أن حبرًا من أحبار اليهود سأل النبي ﷺ عدة أسئلة كان منها قوله: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين»(٣).

وأما آخر الناس مرورًا على الصراط فهو الذي يمشي مرة ويكبو مرة، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل يمشي على الصراط، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك؛ لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين»(٤).

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٤٧٢).
(٢) السنة لابن أبي عاصم (٦٣٤) وقال الألباني: (إسناده جيد على شرط مسلم).
(٣) رواه مسلم (٣١٥).
(٤) رواه مسلم (١٨٧).

عباد الله: إن مرورنا على الصراط يكون على قدر أعمالنا، فعلى قدر عملك سيكون قدر مرورك، فأعمالك الصالحة هي التي ستحدد مقدار سرعتك عليه، وهي وقودك ومطيتك على الصراط، لأنها هي التي تجري وتمشي بك في هذا الجسر الرهيب، لذا فإن كثرة الأعمال الصالحة تزيد من سرعتك واجتيازك للصراط بسلام.

والناس ستتفاوت سرعاتهم على الصراط تبعا لمراتبهم وتفاوت أعمالهم الصالحة، فالرجل الذي يأتي يوم القيامة على الصراط فلا يستطيع السير إلا زحفا، لماذا؟ إنه لقلة عمله، وانتهاء وقوده الذي يدفعه إلى المشي للأمام، ولعدم مسابقته في الدنيا إلى الخيرات.

بينما تراه يسابق على حطام الدنيا ويجاهد نفسه فيها، ونسي أو غفل عن الآخرة والصراط، فكان جزاؤه من جنس عمله، فتباطؤه وتأخره عن الأعمال الصالحة في الدنيا جعله يتأخر في الصراط، لأن الأعمال الصالحة هي التي تجري بالمرء على الصراط، فلن يجري به نسبه، ولا حسبه، ولا شهرته، ولن ينفعه في تلك الساعة إلا أعماله.

وتفكروا فيمن على الصراط وهو يزحف فوق الصراط وتحته النار، فيأتيه من لهيبها وسمومها ما يزيده شدة فوق شدته، وعذابًا فوق عذابه، فمتى سيقطع الصراط وهو على هذه الحالة؟ وكم سيعاني من حر النار ولهيبها؟ نسأل الله السلامة والعافية.

أبعد هذا يجرأ أحدنا على تضييع وقته وتسويف توبته، وأمامنا عقبات وكرب وأهوال؛ لا يكون الخلاص منها سوى بالرجوع إلى الله تبارك وتعالى والإكثار من الأعمال الصالحة، والاستغفار من الذنوب!

يحرص الناس في الدنيا على وسائل النقل السريعة للتنقُّل في أسفارهم، ولو أدَّى ببعضهم إلى دفع مبالغ باهظة، فترى أحدهم يفضل السفر إلى البلد البعيد بالطائرة رغم ارتفاع تذكرتها عن غيرها من الوسائل، ليس إلا رغبة في الوصول بأسرع ما يمكن، ولئلا يصيبه عناء السفر. أليس أولى بالمسلم أن يجاهد نفسه في الدنيا بالإكثار من الأعمال الصالحة كي يجتاز هذا الصراط بأسرع ما يمكن؟ فإنه طريق ليس مفروشًا بالورود والمناظر الخلابة، وإنما طريق مزلة، كله كلاليب، وأهوال، وعذاب.

يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فتفكر الآن فيما بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك، واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك من المشي على بساط الأرض، فضلًا عن حدة الصراط؛ فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم، كيف يُنكَّسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم، وتعلو أرجلهم، فيا له من منظرٍ ما أفظعه! ومُرْتَقَىً ما أصعبه! ومجاز ما أضيقه!)[1].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بما فيه من الآيات والعظات والذكر الحكيم، قلت ما سمعتم وأستغفر الله العظيم لي ولكم فاستغفروه وتوبوا إليه؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

---

(١) التذكرة.



الخطبة الثانية:

الحمد لله غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، يزكيهم، ويعلمهم، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

عباد الله: مما يزيد من هول الصراط وكربته الظلمة المطبقة التي عليه، فمع أنه أحدّ من السيف، وأدقّ من الشعرة، إلا أنه أيضًا مسود مظلم لا يستطيع أحد الرؤية عليه إلا من آتاه الله نورًا يهتدي به في تلك الظلمات، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وهذا النور يعطيه الله للمؤمنين، كل مؤمن على قدر عمله ليبصر به في ذلك الظلام الدامس، ويعطيه أيضًا للمنافقين مكرًا بهم، فبينما هم يمشون على الصراط إذ ذهب ذلك النور، وأما الكافر فإنه يمشي في ظلام بهيم ولا يعطى من النور شيئًا.

فعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يسأل عن الورود فقال: «نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا انْظُر أَي ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ، قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك.

قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم منافقا كان أو مؤمنا نورا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر؛ سبعون ألفا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون، حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شَعِيرَةً، فيجعلون بِفنَاءِ الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتوا نبات الشيء في السيل ويذهب حراقه، ثم يسأل حتى تجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها»[1].

---

(١) رواه مسلم.

ولقد وصف الله لنا مشهد المؤمنين وهم يسعون في نورهم، ومشهد المنافقين وهم يتخبطون في ظلمتهم، وينادون المؤمنين أن ينتظروهم ليقتبسوا من نورهم ليروا طريقهم، فقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد:١٢-١٥].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد:١٢] قال: «يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، منهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نورًا من نوره على إبهامه يطفئ مرة ويُقدّ مرة»(١). وفي رواية أخرى له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نورا من إبهامه، يتّقدُ مرة ويطفئ مرة»(٢).

وإن أهم الوسائل المعينة على الثبات على الصراط وعلى جوازه سالمًا دون أن تلفحك النار ودون السقوط منه: التقرب إلى الله تعالى بكل ما يحبه ويرضاه، وتجنب كل ما يسخط الله تعالى ويأباه من شهوات محرمة، وكبائر ذنوب توعد أصحابها بالنار، أو اللعن، أو الغضب، أو العذاب الأليم.

فالإكثار من الأعمال الصالحة عمومًا، والمنجية من النار والمسرعة على الصراط والكاشفة للظلمة التي عليه خصوصًا؛ والمبادرة إلى الاستغفار من كل ذنب نقع فيه، خاصة الكبائر، هو سبيلنا الوحيد للنجاة من هول هذا الكرب.

---

(١) صحيح الترغيب (٣٧٠٤).
(٢) صححه الألباني في شرح الطحاوية (٤١٥).



ومن فرّط في ذلك، وَأَلْهَتْهُ حياته عن آخرته، ولم يأخذ الأمر بالجد، ندم أشد الندم، ولات ساعة مندم عند اشتداد الكرب وركوب الصعاب، والعبور على الصراط، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

لقد كان أسلافنا الصالحون يعيشون همَّ هذا الصراط، ويجعلونه نصب أعينهم في كل تصرفاتهم، فزكت نفوسهم، وقلت ذنوبهم، وكثرت حسناتهم. فهل نحذو حذوهم؟.

أَبَتْ نفسي تتوبُ فما احتيالي؟ ... إذا برز العباد لذي الجلالِ
وقاموا من قُبورهم سُكَارَى ... بأوزارٍ كأمثالِ الجبال
وقد نُصِبَ الصِّراطُ لكي يجوزوا ... فمنهم من يكبُّ على الشّمال
ومنهم من يسيرُ لدارِ عَدْنٍ ... تلقَّاهُ العرائسُ بالغوالي
يقول له الْمُهَيْمِنُ يا وَلِيِّي ... غَفَرْتُ لك الذنوب فلا تبالي

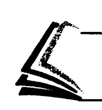
وقال آخر:

إذا مُدَّ الصراطُ على جحيمٍ ... تصولُ على العُصَاةِ وتَسْتَطِيلُ
فقَوْمٌ في الجحيم لهم ثُبُورٌ ... وقومٌ في الجِنَان لهم مَقِيل
وبان الحقُّ وانكشف الْمُغَطَّى ... وطال الويلُ واتَّصَلَ العويل

اللهم اجعلنا ممن يمر على الصراط كالبرق يا أرحم الراحمين. اللهم إنا نعوذ بوجهك العظيم من أن نكون من المنتكسين على الصراط أو المخدوشين. اللهم ارحمنا يوم المرور على الصراط برحمتك يا رحمن يا رحيم.

اللهم اشرح صدورنا، ويسِّر أمورنا، وثبت الإيمان في قلوبنا، اللهم اشغلنا دومًا بطاعتك وأبعدنا عن معصيتك.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من أهل الجنات، وأن تباعدنا عن النار دار الهلكات، وأن تتوفانا على الإيمان والتوحيد، وتعيذنا من الكفر والشرك والتنديد، إنك جواد كريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الشفاعة(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

الشفاعة وما أدراك ما الشفاعة، هي التوسط للغير بجلب خير له أو دفع شر عنه.

يقول الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس:٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ

(١) اللجنة العلمية بمسجد التوحيد، بلبيس.

وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»(١).

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٢).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِى عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ»(٣).

وعقيدة أهل السنة والجماعة في الشفاعة أنهم يؤمنون بكل ما جاءهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ وعن رسوله ﷺ في الشفاعة، ويثبتون جميع الشفاعات التي جاءت نصوص الكتاب والسنة بإثباتها؛ كشفاعته ﷺ لأهل الموقف، وشفاعته ﷺ لأهل الكبائر، وغير ذلك من أنواع الشفاعات الواردة له ولغيره ﷺ. وينفون الشفاعة التي نفتها الأدلة من الكتاب والسنة. يقول العلامة حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فهذه الشفاعة حق يؤمن بها أهل السنة والجماعة، كما آمن بها الصحابة رضوان الله عليهم، ودرج على الإيمان بذلك التابعون لهم بإحسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه)(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).
(٢) البخاري(٣٣٥) مسلم (٥٢١).
(٣) البخاري(٦٥٧٠).
(٤) معارج القبول (٢ / ٢٥٦).

أيها الناس: وللشفاعة شروط حتى تُقبل عند الله تعالى، منها:

قدرة الشافع على الشّفاعة كما قال تعالى في حق الشافع الذي يطلب منه وهو غير قادر على الشّفاعة: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦] فعلم من هذا أن طلب الشّفاعة من الأموات طلب ممن لا يملكها، قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٤].

ومن شروط قبول الشفاعة: إسلام المشفوع له. قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨]. قال البيهقي: (فالظالمون هاهنا هم الكافرون، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذ هي في ذكر الكافرين)(١).

ومنهـا: الإذن للشـافع. كـما قـال الله تعـالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الشرط الرابع لقبول الشفاعة: الرّضا عن المشفوع له قال تعـالى﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٩]، وقال تعـالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والنبي ﷺ له شفاعات يختص بها دون غيره..

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد، وشـفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين، لكن ما له فيها ﷺ أفضـل ممـا لغـيره، فإنـه أفضـل الخلق وأكرمهم على ربه عَزَّوَجَلَّ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين)(٢).

(١) شعب الإيمان (١/ ٢٠٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١ / ٣١٣).

ومن هذه الشفاعات:

الشفاعة العظمى: وهذه الشفاعة أجمع عليها أهل الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء:٧٩].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ أُتِىَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِى وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَمَا لاَ يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ ائْتُوا آدَمَ. فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْـمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّى غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ نَهَانِى عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِى دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِى نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِىُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ الله فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّى قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِى نَفْسِى اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِى الْـمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ

يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِى فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَأَنْطَلِقُ فَآتِى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّى ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِى مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِى ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِى فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِى أُمَّتِى. فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[1].

ومن الشفاعات: الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة بعد الفراغ من حسابهم:

من الأدلة على هذه الشفاعة حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ وَإِنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ»[2]. وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3]. فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن النبي ﷺ أول الشفعاء لأهل الجنة في دخولها.

ومنها: الشفاعة في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب:

ومن الأدلة على هذه الشفاعة:

حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بشيء، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ قَالَ «نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٤).

(٢) رواه مسلم (١٩٦).

(٣) مسلم(١٩٨).

(٤) رواه البخاري (٦٢٠٨)، مسلم (٢٠٩).

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْـخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النبي ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَـالَ «لَعَلَّـهُ تَنْفَعُـهُ شفاعتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ في ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»[1].

فهذه الأحاديث تبين أن سبب شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه هو دفاعه عن الرسول ﷺ ونصرته لـه، و هـو مـات كـافرًا، والله سبحانه وتعـالى أخـبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولكن شفاعة الرسول ﷺ لعمه شـفاعة خاصـة، حتـى ورد أنه أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة.

وهذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ.

الشفاعة في أهل الكبائر من أمته ممن دخلوا النار بذنوبهم أن يخرجوا منها.

فقد تقدم في الأحاديث أن الله يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وكان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان.. وذلك بفضل شفاعة النبي ﷺ. وأهل الكبائر يدخلون فيهم لأنهم قالوا لا إله إلاّ الله. ومع ذلك فقد جاءت أحاديث خاصة في ذلك.

عَنْ أَبِى مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَـيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أمتي الْـجَنَّةَ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ لأَنَّهَا أَعَـمُّ وَأَكْفَـى أَتُرَوْنَهَـا لِلْمُتَّقِـينَ لاَ وَلَكِنَّهَـا لِلْمُذْنِبِينَ الْـخَطَّائِينَ الْـمُتَلَوِّثِينَ»[2].

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «شفاعتي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أمتي»[3].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة، ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، واستفاضت به السنن من أنـه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته، ويشفع أيضا لعموم الخلق)[4].

ومنها: الشفاعة لإدخال قوم الجنة بغير حساب.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٥)، مسلم (٢١٠).

(٢) ابن ماجه في سننه (٤٣١١)وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه(٩٣٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٣٥) وابن حبان (٦٤٦٨) وصححه الألباني في ظلال الجنة (٨٣٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١ / ٣١٣).

ويدل على ذلك كما جاء في حديث أبي هريرة وفيه قول النبي ﷺ: «فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْـجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَـنِ مِنْ أَبْوَابِ الْـجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ..»(١).

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه، وبعد:

فإن شفاعة النبي ﷺ هي الشفاعة العظمى التي لا يشاركه فيها غيره، ثم هناك شفاعات أخرى غير شفاعة النبي ﷺ منها:

شفاعة المؤمنين والملائكة والأنبياء: ودليل هذه الشفاعة: ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة والشفاعة الطويل، وفيه: «فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ شَفَعَتِ الْـمَلاَئِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْـمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْـجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْـحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْـحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْـحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ». فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ قَالَ «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْـخَوَاتِمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْـجَنَّةِ هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الله الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْـجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْـجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ. فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ لَكُمْ عندي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أي شيء أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. فَيَقُولُ رضاي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(١)].

ومنها: شفاعة الشهداء: عن المقدام بن معد يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْـجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْـحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»[(٢)].

ومنها: شفاعة أولاد المؤمنين لآبائهم يوم القيامة: فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ لَهُمَا ثَلاَثَةُ أَوْلاَدٍ لَمْ يَبْلُغُوا الْـحِنْثَ إِلاَّ أَدْخَلَهُمُ اللهُ وَإِيَّاهُم

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩)، مسلم(١٨٣).

(٢) الترمذي (١٦٦٣)، ابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألبانى في المشكاة(٣٨٣٤).



بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ الْـجَنَّةَ. وَقَالَ يُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْـجَنَّةَ. قَالَ فَيَقُولُونَ حَتَّـى يَجِـيءَ أَبَوَانَـا - قَـالَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ - فَيَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فَيُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْـجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَبَوَاكُمْ»(١).

عن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إنّ الله عَزَّوَجَلَّ ليرفـع الدّرجـة للعبـد الصّالح في الجنّة، فيقول: يا ربّ أنّى لي هذه؟ فيقال: باستغفار ولدك لك»(٢).

الأعمال التي تشفع لأصحابها يوم القيامة:

شفاعة الصيام والقرآن: عَنْ عَبْدِ الله بن عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَـالَ «الصِّـيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ الصِّيَامُ أي رَبِّ مَنَعْتُـهُ الطَّعَـامَ وَالشَّـهَوَاتِ بِالنَّهَـارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فشفعني فِيهِ. قَالَ فَيُشَفَّعَانِ»(٣).

٣- سكنى المدينة والصبر على شدتها والموت بها:

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ مَوْلَى الْـمَهْرِىِّ أَنَّهُ جَاءَ أَبَا سَعِيدٍ الْـخُدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيَالِىَ الْـحَرَّةِ فَاسْتَشَـارَهُ فِي الْـجَلاَءِ مِنَ الْـمَدِينَةِ وَشَكَا إِلَيْهِ أَسْعَارَهَا وَكَثْرَةَ عِيَالِهِ وَأَخْـبَرَهُ أَنْ لاَ صَـبْرَ لَـهُ عَـلَى جَهْـدِ الْـمَدِينَةِ وَلأْوَائِهَا. فَقَالَ لَهُ وَيْحَكَ لاَ آمُرُكَ بِذَلِكَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَصْـبِرُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا فَيَمُوتَ إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا»(٤).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْـمَدِينَةِ فَلْيَمُـتْ فَـإِنِّى أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا»(٥).

الصلاة على النبي ﷺ وطلب الوسيلة له:

عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٥١٠، والنسائي (٤/ ٢٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

(٢) رواه أحمد ٢ / ٥٠٩ وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٩٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٧٤. والحاكم ١/ ٧٤٠ وحسنه الألباني في تمام المنة.

(٤) رواه مسلم (١٣٧٤).

(٥) أحمـد (٢/ ١٠٤)، والترمـذي (٣٩١٧)، وابـن ماجـه (٣١١٢) وصـححه الألبـاني في صـحيح الترمذي (٣٠٧٦).

هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

عَنْ عَبْدِ الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النبي ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[2].

٥-المصلون على الميت الموحد لله عَزَّ وَجَلَّ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ»[3].

وعنده من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لاَ يُشْرِكُونَ بِالله شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[4].

كثرة السجود لله: عَنْ زِيَادِ بن أَبِي زِيَادٍ، مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ، عَنْ خَادِمٍ للنبي ﷺ، رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَقُولُ لِلْخَادِمِ: «أَلَكَ حَاجَةٌ؟» قَالَ: حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله حَاجَتِي، قَالَ: «وَمَا حَاجَتُكَ؟» قَالَ: حَاجَتِي أَنْ تَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: «وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى هَذَا؟» قَالَ: رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «إِمَّا لا فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[5].

عباد الله: وهناك أسباب مانعة من الشفاعة على المسلم اجتنابها والحذر منها، ومن ذلك:

الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ والكفر به: الشرك أعظم ذنب عصي الله به، ولا يغفر الله سبحانه لصاحبه إلا بالتوبة، وقد دل على أن الشرك يمنع الشفاعة قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

(١) رواه البخاري (٦١٤).
(٢) رواه مسلم (٣٨٤).
(٣) رواه مسلم (٩٤٧).
(٤) رواه مسلم (٩٤٨).
(٥) رواه أحمد (٣/ ٥٠٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٠٢).



ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٣-٢٤].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ»(١).

ومنهم: اللعن واللعانين بغير حق: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

الظلم في الحكم والغلو في الدين والتشدد بما ليس فيه.

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُمَا شَفَاعَتِي: إِمَامٌ ظَلُومٌ، وَكُلُّ غَالٍ مَارِقٍ»(٣).

حكم الاستشفاع بالرسول ﷺ في الدنيا في حياته وبعد مماته.

إن طلب الشفاعة من الرسول ﷺ في أمور الدنيا حال حياته من الأمور الجائزة بل هو من الأمور التي حث عليها هو ﷺ؟ لأن فيها نفعا للمسلمين، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتوسلون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بدعائه وشفاعته ﷺ، وأما طلب الشفاعة من الرسول ﷺ بعد موته فهو من الأمور المحدثة المبنية على الهوى.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ فَيُسْقَوْنَ(٤). فَكَانُوا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ يَتَوَسَّلُونَ بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ لَهُمْ كَمَا يَتَوَسَّلُ بِهِ النَّاسُ يَوْمَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٨).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨١). وحسنه الألباني في الصحيحة (٤٧٠).

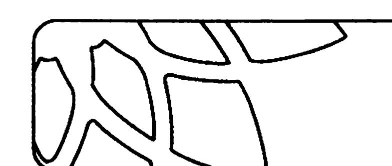
(٤) رواه البخاري (١٠١٠).

الْقِيَامَةِ وَيَسْتَشْفِعُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ فَيَأْذَنُ اللهُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ فَيَشْفَعُ لَهُمْ، فَلَـمَّا مَـاتَ النَّبِـيُّ ﷺ لَمْ يَكُونُوا يَدْعُونَهُ وَلَا يَسْتَغِيثُونَ بِهِ وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ شَيْئًا لَا عِنْدَ قَبْرِهِ وَلَا بَعِيدًا مِنْ قَبْرِهِ؛ بَـلْ وَلَا يُصَلُّونَ عِنْدَ قَبْرِهِ وَلَا قَبْرِ غَيْرِهِ لَكِنْ يُصَلُّونَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَيُطِيعُونَ أَمْرَهُ وَيَتَّبِعُـونَ شَرِيعَتَـهُ وَيَقُومُونَ بِمَا أَحَبَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ حَقِّ نَفْسِهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ الْـمُؤْمِنِينَ[1].

والحمد لله رب العالمين.



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١ / ٤٩٩)..



الجنة وصفات أهلها(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المبدئ المعيد، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، أحمده سبحانه وأشكره؛ فبالشكر تدوم النعم وتزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله أنذر القريب والبعيد، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] اتقوا يومًا الوقوف فيه طويل والحساب فيه ثقيل. ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة.

يا سلعة الرحمن لستِ رخيصةً	بل أنت غاليةٌ على الكسلانِ
يا سلعة الرحمن ليس ينالها	في الألف إلا واحد لا اثنانِ
يا سلعة الرحمن لولا أنها	حُجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلفٍ	وتعطلت دار الجزاء الثاني
فاجمع قواك لما هناك وغمّض الـ	ـعينين واصبر ساعةً لزمانِ

فيا عباد الله: إن الله أمرنا بأوامر في كتابه العزيز ونهانا عن أمور ووعدنا إن نحن امتثلنا بالجنة ، ومن خالف عذبه في ناره ، نسأل الله العافية والسلامة منها ، ولكي يحفزنا ربنا جل وعلا بالعمل بما أمر والانزجار عما عنه نهى وزجر ، بين لنا الجزاء العظيم لمن سمع وأطاع

---

(١) عبدالرحمن السديس.

وبين لنا العذاب الأليم لمن خالف وعصى ، وقد تواترت الآيات والأحاديث عن رسول الله ﷺ في وصف الجنة التي بها يجازي الله جل وعلا من سار على أمره وحذر نهيه فمن ذلك قول الله جل وعلا في كتابه مرغبًا لعباده المؤمنين في دخول جناته: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ [الحجر:٤٥-٤٨] والنصب هو التعب: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٨] ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف:٦٨-٦٩] فهؤلاء هم أهل الجنات ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف:٧٠] أي تسرون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١] فصحافهم التي فيها طعامهم من ذهب وأكوابهم التي بها يشربون من ذهب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢] بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا نلتم هذا الجزاء العظيم ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٣] ويقول جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الدخان:٥١-٥٣] لباسهم في الجنة الحرير ولذلك من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة[1] ومن لبس الذهب في الدنيا لم يلبسه في الآخرة[2]، ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان:٥٤-٥٧] وأي فوز أعظم من أن يزحزح المرء عن النار ويدخل الجنة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥] وأي خسران أعظم من أن يدخل نار جهنم نسأل الله العافية ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥]، ومما جاء في كتاب الله في وصف الجنة قوله جل شأنه ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى

---

(١) رواه البخاري (٥٨٣٢)، مسلم (٢٠٧٣).

(٢) مسند أحمد (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

﴿وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ﴾ [المطففين:٢٢-٢٧] أي مزاج هذا الرحيق ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٦-٢٨]، والآيات في كتاب الله كثيرة جدًا أكثر من أن تحصر في مقام واحد، وأما الأحاديث فقد صح عن النبي صلى الله عليه وعلي آله وسلم أحاديث كثيرة منها ما جاء عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبولون ولكن طعامهم ذلك جشاء كرشح المسك يلهمون التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر، واقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]»(٢). وصح عن أبي هريرة أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أول زمرة يدخلون الجنة علي صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة - والألوة هو عود الطيب - أزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء»(٣). وفي رواية أخرى لهذا الحديث: «آنيتهم فيها الذهب ورشحهم فيها المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيًا»(٤). وصح عنه ﷺ قال: «سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: أدخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟. فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟. فيقول: رضيت ربي. فيقول: لك ذلك

(١) رواه مسلم (٢٨٣٥).
(٢) رواه البخاري (٣٢٤٤) مسلم (٢٨٢٤).
(٣) رواه البخاري (٣٣٢٧) مسلم (٢٨٣٤).
(٤) رواه البخاري (٣٢٤٥) مسلم (٢٨٣٤).

ومثله ومثله ومثله فيقول في الخامسة رضيت ربي. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت ربي. قال ربي فأعلاهم منزلة. قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر»(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة، رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذهب فادخل الجنة. فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشر أمثالها. فيقول: أتسخر بي وأنت الملك. قال فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه صلوات الله وسلامه عليه، فكان يقول: ذاك أدنى أهل الجنة منزلة»(٢).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلًا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة لا يقطعها»(٤).

وصح عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله

---

(١) رواه مسلم (١٨٩).

(٢) رواه البخاري (٧٥١١) مسلم (١٨٦).

(٣) رواه البخاري (٤٨٨٠) مسلم (٢٨٣٨).

(٤) رواه البخاري (٦٥٥٣) مسلم (٢٨٢٨).

تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلا والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب»(٢).

وصح عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «إن في الجنة سوقًا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالًا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم حسنًا وجمالًا. فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا»(٣). وعنه أيضًا عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ ﷺ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

والأحاديث يا عباد الله في وصف الجنة كثيرة جدًا أكثر من أن تحصى، فنسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا وإياكم من أهلها وأن يوفقنا وإياكم بالعمل الصالح والعلم النافع إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦) مسلم (٢٨٣٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٣) ولم أجده في مسلم.

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عباد الله: مما ورد أيضًا في وصف الجنة ما رواه أبو سعيد وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى منادى: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»[1]. وعن أبي هريرة أيضًا عن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمنى فيتمنى ويتمنى فيقول له: هل تمنيت؟ فيقول: نعم فيقول له: إن لك ما تمنيت ومثله معه»[2].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[3].

وعن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند عن رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: «إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته»[4].

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم. فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[5]. اللهم إنا نسألك

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٢).

(٣) رواه البخاري (٦٥٤٩) مسلم (٢٨٢٩).

(٤) رواه البخاري (٧٤٣٤) مسلم (٦٣٣).

(٥) رواه مسلم (١٨١).

بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن لا تحرمنا النظر إليك. اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل. اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلي أن تعيننا على أسباب دخول الجنة. اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.



إنـها النـار(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، أعد النار بعدله للأشقياء الكافرين، وحذر من عذابها الأتقياء المؤمنين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة إلى يوم الدين، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله أنذر أصحابه من النار وطلبهم أن يستعيذوا منها في الصلاة لرب العالمين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون حق التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] إنّ القلوب بحاجة جد ماسة إلى أن نوردها المواعظ ونخوفها بما خوفها الله به وخوفها به رسوله ﷺ، فكم كان رسول الله يتعاهد أصحابه بالمواعظ التي توجل منها القلوب وتذرف منها العيون وترتعد منها الفرائص. عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ قَالَ: «بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا قَالَ فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ قَالَ غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ»(٢). فلم يتم النبي كلامه إلا والصحابة قد خفضوا رؤوسهم وأكبوا على وجوههم ولهم ضجيج وخنين بالبكاء.

أيها المسلمون: ما أحوج نفوسنا إلى المواعظ فهي بحاجة جد ماسة إلى أن نوردها المواعظ والنذر، ونذكرها بما ذكرها الله به وذكرها به رسوله.

أيها المسلمون: إنها النار، كم حذرنا المولى منها وأنذر، كم حذر عباده أشد التحذير، وأنذرهم غاية الإنذار من عذاب النار، ومن دار الخزي والبوار فقال تعالى:

---

(١) منديل الفقيه.
(٢) رواه مسلم (٢٣٥٩).

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] وقال: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣٥-٣٦] كم في كتاب الله من وصف للنار. لقد وصف الله في كتابه حرّها ولظاها، ووصف طعامها وشرابها، ووصف أغلالها ونكالها، ووصف جحيمها وغساقها، ووصف أصفادها وسرابيلها، ووصف حال أهلها، حتى إنّ من يَقرأُ القرآن بقلب حاضر ويسمع وصف عذابها لكأنما أُقِيم على شفيرها فهو يراها يحطم بعضها بعضًا، ولكأنما يرى أهلها وهم يتقلبون في دركاتها، ويسحبون في أوديتها. كل ذلك من الله تحذير وإنذار وتخويف لنا من النار.

أيها المسلمون: لقد خوفنا رسول الله من النار وحذرنا منها وهو الشفيق على الأمة الحريص على نجاة العباد، فخوف وحذر أنذر فعن النُّعْمَانَ بن بَشِيرٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ حَتَّى لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَى السُّوقِ سَمِعَهُ وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ»(١).

أيها المسلمون: ذكر جهنم أطار نوم الخائفين، ونصب أقدام المتهجدين، وأسبل عبرات المشفقين، ونغص عيش الصالحين، أما اليوم فقد أصبح الحديث عن النار حديثًا لا تستشعره القلوب، وقل أن تذرف له العيون، حتى إنك إذا تحدثت عنها في مجلس قوم قالوا لا تعقد الحياة ودعنا نعيش وكأن النار لم تخلق لهم. أيها المسلمون: وليكن الحديث اليوم عن النار وأهوالها لعل القلوب القاسية تلين ولعل الغفلة عن قلوبنا تذهب فإن سألتم عن النار فقد سألتم عن دار مهولة، قعرها بعيد، وعذابها شديد، وماؤها صديد، وطعامها ضريع وزقوم، روى مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٢) ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢١-٢٣] إن بكى لا ينفعه البكاء وإن ندم لا ينفعه الندم.

---

(١) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٥٦١٥).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

ما ظنكم يا عباد الله بحر نار أوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألـف عـام حتى أبيضت ثم أوقد عليها ألـف عـام حتـى اسـودت فهـي سـوداء مظلمـة لا يـرى لهبهـا ولا يضيء شررها.

ما ظنكم يا عباد الله بنار نارنا هذه التي نوقدها جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ قِيـلَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً قَالَ فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»(١).

ما ظنكم يا عباد الله بنار غمسة واحدة فيها تنسى نعيم الدنيا كله عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ قَـالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللهِ يَا رَبِّ»(٢).

ما ظنكم يا عباد الله بنار يسقط الحجر من شفيرها فلا يصـل إلى قعرهـا إلا بعـد سـبعين خريفًا فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «تَدْرُونَ مَا هَذَا قَالَ قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»(٣).

ما ظنك يا عبد الله بنار اشتكت إلى ربها من شدة حرها فقالت: يا رب أكل بعضـي بعضًا فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْـحَرِّ وَأَشَـدُّ مَـا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ»(٤). ما ظنكم -يـا عبـاد الله- بنـار يقـول المصـطفى -فـيما رواه البـزار وأبو يعلى- عن بعض أهوالها «لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لأحرقهم»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٨٠٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٤).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٠) ومسلم (٦١٧).

(٥) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠٩).

أيها المسلمون: هل يقوى أحد منا على حريق نار الدنيا؟ والجواب كلا. فإذا كان هذا الحال مع نار الدنيا فكيف الحال مع حريق نار الآخرة؟ وأين حريق من حريق في شدته أو مدته؟ فحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق، حريق الدنيا لحظات وينتهي. وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله، وفوق حريق الآخرة غضب الله وسخطه.

وإن سألتم عن أبواب النار فلها سبعة أبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤] وإن سألتم عن طعام أهلها فاسمعوا ما يقول ربها وخالقها والمتوعد بعذابها ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة:٥١-٥٢]، ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٦-٦٨]، ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة:٥٤-٦١] ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦] فما هي شجرة الزقوم؟ يقول تعالى عنها: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات:٦٢-٦٥]، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ قطرَةً مِنَ الزَّقومِ قُطِرَتْ في دارِ الدنيا، لأفسدَتْ علَى أهلِ الدنيا معايِشَهُم، فكَيْفَ بِمَنْ تكونُ طعامَهُ؟»(١). وليس الزقوم وحدها هي الطعام بل من طعامهم كما أخبر تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣] قال ابن عباس: «وطعامًا ذا غصة قال شوك ينشب في الحلق لا يدخل ولا يخرج»، ومن طعامهم كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٦-٧] قال ابن عباس: «الضريع شجر في جهنم، ومن طعامهم القيح والصديد الذي يسيل من جلود أهل النار ومن فروج الزانيات يأكلونه قبل أن تأكله النار ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٦]»

---

(١) صحيح الجامع (٥٢٥٠).

والغسلين قال عنه ابن عباس: «هو صديد أهل النار». وإن سألتم عن شراب أهل النار فاسمعوا إلى ما يقول تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٤-٥٥] ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٥] ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩] فمن شدة حرارته أنهم إذا قربوه من وجوههم سقطت فروة لحم وجوههم من شدته وحرارته وإن شربوا منه قطَّع أمعائهم في بطونهم حتى تخرج من أدبارهم قال تعالى ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [إبراهيم:١٦-١٧]

وإن سألتم عن سلاسلها وأغلالها يقول تعالى مبينًا ومحذرا ومنذرًا: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٢] ويقول تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر:٧١-٧٢]، ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ [الرحمن:٤١] فتجمع ناصية رأسه إلى قدميه وراء ظهره ، ويقول تعالى ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ [المزمل:١٢] والأنكال هي القيود قال أبو عمران الجوني: (قيود لا تحل والله أبدًا) عن أبي سنان، قال: تلا الحسن: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾ [المزمل:١٢] قال: (قيودا)، ثم قال: (أما وعزته ما قيدهم مخافة أن يعجزوه، ولكن قيدهم لترسى بهم النار).

وإن سألتم عن لباس أهل النار فهو مصنوع من نار ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ [الزمـر:١٦] ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤١-٤٤].

وإن سألتم عن سعة النار فعنْ مُجَاهِدٍ قَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَتَدْرِي مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ قُلْتُ لَا قَالَ أَجَلْ وَاللهِ مَا تَدْرِي أَنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا تَجْرِي فِيهَا أَوْدِيَةُ الْقَيْحِ وَالدَّمِ قُلْتُ أَنْهَارًا قَالَ لَا بَلْ أَوْدِيَةً ثُمَّ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا سِعَةُ جَهَنَّمَ قُلْتُ لَا قَالَ أَجَلْ وَاللهِ مَا تَدْرِي حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا

قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر:٦٧] فَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهَّ قَالَ: هُمْ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ»(٢).

ولأحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ قَالَ: «مَقْعَدُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَكُلُّ ضِرْسٍ مِثْلُ أُحُدٍ وَفَخِذُهُ مِثْلُ وَرِقَانَ وَجِلْدُهُ سِوَى لَحْمِهِ وَعِظَامِهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا»(٣).

وإن سألتم عن حالِ أهلِ النار فحالُهم شر حال وهوانُهم أعظمُ هوان، وعذابهم أشد عذاب، ما ظنكم يا عباد الله بعذابِ أهونُ أهله عذابًا من كان في أسفلِ قدميه جمرتان يغلي منها دماغه. وعن النُّعْمانَ بن بشير سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتان يَغْلِي مِنْهما دِمَاغُهُ»(٤).

ما ظنكم يا عباد الله بعذاب أهون أهله عذابًا من له نعلان من نار يغلي منها دماغه ما يرى أن أحدًا أشد من عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا عَنْ النُّعْمانِ بن بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»(٥).

ما ظنكم يا عباد الله بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة ونزل عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ولم يأكلوا أكلًا ولم يشربوًا شرابًا حتى تقطعت أعناقهم عطشًا، واحترقت أمعاؤهم واحشاؤهم جوعًا ثم انصرف بهم إلى النار فيسقون من عين آنية، فلو رأيتموهم وقد سكنوا دارًا ضيقة الأرجاء، مظلمةَ المسالك، مبهمةَ المهالك، قد شُدَّت أقدامُهم إلى النواصي،

(١) السلسلة الصحيحة (٢/ ١٠٣).

(٢) صحيح الترمذي (٢٥٧٧).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٦٨٣).

(٤) رواه البخاري (٦٥٦١) ومسلم (٢١٣).

(٥) رواه مسلم (٢١٣).

واسودت وجوهم من كثرة المعاصي، يسبحون في النار على وجوههم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧]، ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٣٤] عن أَنَسُ بن مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؟ قَالَ قَتَادَةُ بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا[١].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨] فيسحبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن شمائلهم، والنار عن أيمانهم، فغطاؤهم من نار، وفراشهم من نار، وشرابهم من نار، ولباسهم من نار، ومهادهم من نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران، وجر السلاسل، يتجلجلون في أوديتها ودركاتها، ويضطربون بين غواشيها، قد جعل الله جلد الواحد منهم مسيرة ثلاث ومقعده ما بين مكة والمدينة وضرسه مثل جبل أحد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ»[٢].

تغلي بهم كغلي القدور، ويهتفون على أنفسهم بالويل، ويدعون عليها بالثبور ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٤] فهل هناك خسارة أعظم من هذه الخسارة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود:٢٢] يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بَسمُوم وحميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥١).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

النـار منـزل أهـل الكفـر كلهـمُ ... طباقهـا سـبعةٌ مسـودة الحُفـرِ

جهـنم ولظـى مـن بعـدها حطمـة ... ثـم السـعير وكـل الهـول في سـقر

وتحـت ذاك جحـيمٌ ثـم هاويـةٌ ... تهـوي بهـم أبـدًا في حـر مسـتَعر

فيهـا غـلاظٌ شـدادٌ مـن ملائكـةٍ ... قلـوبهم شـدةً أقسـى مـن الحجـر

لهـم مقـامع للتعـذيب مرصـدةٌ ... وكـل كسـرٍ لـديهم غـير منجـبر

سـوداء مظلمـةٌ شـعثاء موحشـةٌ ... دهمـاء محرقـةٌ لوّاحـة البشـر

أيها المسلمون: فلو رأيتم حال أهل النار وهم على تلك الحال لرأيتم حالًا مهينة، قد صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:١٩-٢٣] يتفجر الصديد من أفواههم وتسيل أعينهم وأهدابهم على خدودهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] فعندها يحاولون الخروج منها فتتلقاهم الملائكة الغلاظ الشداد ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] معهم مقامع من حديد ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢١-٢٢] ينادون الله تعالى ويقولون ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٧] ويقول لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١٠٩] فإذا أيسوا لجأوا إلى مالك خازن النار فينادونه ألف عام يقولون: يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك قد تقطعت منا الكبود، يا مالك العدم خير من هذا الوجود، يا مالك أخرجنا

منها فإنا لا نعود، يا مالك ليقضي علينا ربك فيجيبهم بعد ألف عام ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٧-٧٨] أمانيهم في النار الهلاك، ومالهم من أسر جهنم فكاك.

أيها المسلمون: ما حال دار أماني أهلها أن يموتوا، فكيف بكم لو رأيتموهم وقد اسودت وجوههم فهي أشد سوادًا من الجحيم، وعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيدهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، وهم يمشون على وجوههم، ينادون الملائكة وخزنة جهنم يطلبون التخفيف من العذاب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فيجيبونهم ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٥٠] فتزداد حسرتهم، ويعظم مصابهم، وتنقطع أصواتهم فلا يسمع لهم إلا الأنين والشهيق والبكاء يبكون على تضييع أوقات الشباب، ويتأسفون أسفًا أعظم من المصاب، ولكن هيهات ذهب العمل وجاء الجزاء والعقاب، فيرسل البكاء عليهم فيبكون دمعًا حتى تنقطع الدموع فيبكون دمًا حتى يصبح في وجوههم مثل الأخاديد لو سيرت فيها السفن لجرت..

عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيَبْكُونَ حَتَّى يَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ»(١). ويزيد الله في حسرتهم أن يريهم أهل الجنة وهم ينعمون فيها فينادون أهل الجنة يطلبون ماءًا أو طعامًا ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف:٥٠-٥١] ويزيد عذابهم شدة تذكرهم ما فاتهم بدخول النار، لقد فاتهم دخول الجنات، ورؤية وجه الرحمن، ورضوان الله تعالى. ويزيد حسرتهم أن العذاب الذي هم فيه سببه شهوة ذاهبة. ولذة فانية. لقد باعوا جنة عرضها السموات

(١) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٨٣).



والأرض بثمن بخس. باعوا الجنة بشهوات تمتعوا بها في الدنيا ثم ذهبت فكأنها وكأنهم ما كانوا ولا كانت، ثم لقوا عذاب طويلًا، وهوانًا مقيمًا. فيعاذا بالله من نار هذه حالها، وعياذا بالله من عمل هذه عاقبته ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٢]

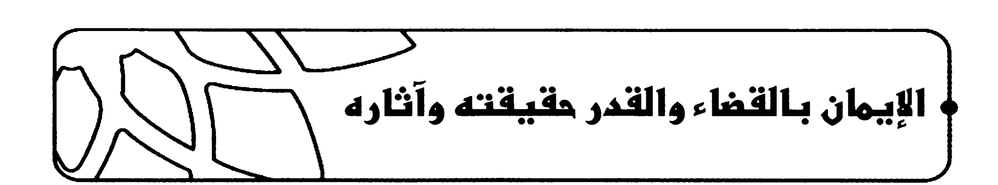
ليس هذا تقنيطًا من رحمة الله، ولا لنيأس من روح الله، بل لنتذكر قوة الله، ونحذر سخط الله ونتقي عذاب الله، ونكف عن محارم الله، فإن أجسادنا على النار لا تقوى، وإن من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك ممن يؤمنك حتى يدركك الخوف.

أيها الناس: يقول تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

فليخشَ العبد ربه، فإن مقام الخوف والخشية من الله هو مقام العارفين، وبه ينالون جنة رب العالمين: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١] جعلنا الله من أهلها، وأعاذنا من النار وعذابها..

﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].





الإيمان بالقضاء والقدر حقيقته وآثاره

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي قدر الأمور وأمضاها وعلم أحوال الخلائق قبل خلقهم وقضاها وجازى كل نفس بعد ذلك على سخطها بما قدر أو رضاها.. كل شيء خلقه سبحانه بقدرٍ وقدر، ولا يقع شيءٌ في كونه إلا بعلمٍ منه ونظر، علم الأجل وقدر العمل وجعل الأمور دول، كل ذلك منه في الأزل سبحانه كم أحاط علمه وكم وسع حلمه وكم مضى حكمه!

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.. له لطائف الحكمة وخفيات القدر، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وخيرته من كل البشر، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الميامين الغرر والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى -أيها المسلمون-، واعلموا أنكم إليه راجعون وعلى أعمالكم مجزيون، ومن عمل كساه الله رداءه.. إن خيرًا فخيرا وإن شرًا فشرا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣].

أيها المسلمون: عقيدةٌ تملأ قلب المسلم مضاءً ورضاء، وعلمٌ يورث المؤمن إرادةً وعزمًا وارتقاءً، وإيمانٌ يدفعه للعمل ويحثه على طلب معالي الأمور، وتصورٌ يسل من نفسه الخوف مع عوائق الطريق وبنيانه مسائل من عرفها وأدرك حُكْمها وحِكَمَها سهلت أمامه مصاعب الحياة وتخففت نفسه من أثقال المعاناة فاستلذ الصبر واستحلى المر، وانتظر من الله الأمل والفرج وعمل لتحقيق ذلك ولم يتواكل.. إنها -أيها المسلمون- عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

عباد الله: الإيمان بالله العظيم قضية كبرى ومسألة عظمى، وهي من أولى المسائل التي يجب على المسلم أن يستحضرها وينطوي عليها قلبه دومًا، والإيمان بنيانٌ له أركان.. التصديق بها والعمل بمقتضاها دليلٌ عليه وعنوانه، وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: النبي ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت»[1].

أيها المسلمون: الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان كما ورد في أعظم حديث في الإسلام: القدر هو تقدير الله للكائنات حسب ما سبق به علم الله واقتضته حكمته، وهو ما سبق به العمل وجرى به القلم مما هو كائنٌ إلى الأبد، والإيمان به هو أن تؤمن أن الله جَلَّ جَلَالُهُ قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء والحوادث قبل أن تكون وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقاتٍ معلومةٍ على صفاتٍ مخصوصة؛ فعلمها سبحانه وكتبها بكل تفاصيلها ودقائقها وشاءها وخلقها؛ فهي كائنةٌ لا محالة على التفصيل والدقة كما شاء سبحانه وما لم يشأه فإنه لا يكون، وهو قادر على كل شيء.. فإن شاءه وقع وإن لم يشأه لم يقع مع قدرته على إيقاعه.

أيها المؤمنون: القدر غيبٌ مبناه على التسليم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٤٩-٥٠]، وقال جل في علاه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]..

وفي صحيح مسلم: أن النبي ﷺ قال: «وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»[2]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كل شيءٍ بقدرٍ حتى وضعك يدك على خدك».

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).



أيها المسلمون: مذهب أهل السنة والجماعة هو ما دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وهو أن الله تعالى خالق كل شيءٍ وربه ومليكه، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في الوجود شيءٌ إلا بعلمه ومشيئته وقدرته.. لا يمتنع عليه شيء، بل هو قادرٌ على كل شيءٍ ويعلم سبحانه ما كان وما يكون، وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم.. قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادةٍ وشقاوة، والعباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم عنه، ونؤمن بوعد الله ووعيده، ولا حجة لأحدٍ على الله في واجب تركه أو محرم فعله، بل لله الحجة البالغة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٢-٢٣].

عباد الله: الإيمان بالقضاء والقدر يقوم على أربعة أركان مرتبطة ببعضها لا يقوم الإيمان إلا بتحقيقها، وهي: العلم والكتابة والمشيئة والخلق..

فالعلم هو: الإيمان بأن الله تعالى عالمٌ بكل شيءٍ جملةً وتفصيلا أزلًا وأبدًا ف؛ يعلم الموجود والمعدوم والممكن والمستحيل، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال جل في علاه عن ذاته العلية: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

الثاني مما يشتمل عليه الإيمان بالقدر: الكتابة؛ وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة.. فكل ما كان وما هو كائنٌ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ في أم الكتاب، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[١].

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

الأمر الثالث -أيها المسلمون- مما يشتمل عليه الإيمان بالقدر: المشيئة؛ وهي الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة.. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ولا إضلال إلا بمشيته جل في علاه ولا يمكن أن يقع في الكون حادثٌ صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا بمشيئته سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]..

قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»(١)، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

الركن الرابع -أيها المسلمون-: الخلق؛ وذلك يقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقةٌ لله بذواتها وصفاتها وحركاتها، وبأن كل من سوى الله فهو مخلوق موجد من العدم.. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»(٢).

أيها المسلمون: في الإيمان بالقضاء والقدر ثمراتٌ تعود على المؤمن بالنفع العاجل والآجل والعبوديات والنفحات والمنازل التي تبلغه رضا الله وجنته..

فأول ذلك: أن المؤمن يؤدي عبادة لله تعالى بإيمانه بالقضاء والقدر وبالإذعان لله والتسليم له، كما أنه باعثٌ على الإخلاص.. فإذا علم العبد أن كل شيءٍ بقدر الله وأن الملك ملكه والخلق خلقه وكل شيءٍ مقاليده بيده وأن الأمور لا تُنال إلا بتقدير الله وأن الناس لا يملكون شيئًا.. لم يعد يبالي بذم الناس ومدحهم في الحق ولم يسخط الله برضا الناس ولم يتزين لهم، بل يزداد إخلاصًا وقصدًا لله لا تأخذه في الله لومة لائمة، ويعلم أن كل شيءٍ واقعٌ تحت قهر الله وسلطانه محكومٌ بقدره، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي ﷺ قال: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص/٤٦)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم٣٥٧، ٣٥٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (رقم٩٤٢)، وابن منده في التوحيد (رقم١١٣).

إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك.. رُفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

وهذا يزيد إيمان المؤمن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].. وفي قراءة: ﴿يَهْدَ قَلْبُهُۥ﴾..

قال علقمة: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من قِبل الله فيسلم ويرضى، ومن رضي عن الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين وقرة عيون المشتاقين..).

إنه لا خروج للعبد عما قدر له، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو راضٍ محمودٌ ومشكورٌ ملطوفٌ به.. وإلا جرى عليه القدر وهو مذمومٌ مسخوط..

وهذا يفسر لك سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال وبرد اليقين؛ فترى المؤمن يستقبل المصائب والآلام بنفسٍ رضيةٍ ونفسٍ مطمئنةٍ وسكينةٍ عجيبة، إن الإيمان بالقدر يفلح في تهدئة الأعصاب أكثر مما تفلح كل المسكنات والعقاقير الطبية.

والسكينة من مواهب الرحمن لا من كسب الإنسان، وهي الطمأنينة والوقار والسكون والأمن الذي ينزله الله في قلب المؤمن خاصةً في مواقف القلق والاضطراب، أما الطمأنينة فهي سكينةٌ معها أنس؛ فيا الله! كم في الإيمان بالقضاء والقدر من روحٍ وسكينةٍ وراحةٍ وطمأنينة!.

أيها المسلمون: ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر أن يمتلئ القلب شجاعةً وإقدامًا؛ فلن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وأجلها، ولن يصيب الإنسان إلا ما كُتب له.. فعلام الخوف والقلق؟ «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك».

وكذلك القناعة وعزة النفس؛ فالرزق لا يجلبه حرص حريص ولا يمنعه حسد حاسد، وهذا يؤدي إلى القناعة والإجمال في الطلب وإلى التحرر من رق الخلق ومنتهم والحاجة إليهم والاكتفاء من الدنيا بالبلاغ؛ فتعلو همة المؤمن وتزكو نفسه ولا يحسد أحدًا على عطاء أعطاه

---

(١) صحيح الترمذي (٢٥١٦).

الله إياه لعلمهم أن الله يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، ومن حسد غيره فإنه معترض على قضاء الله وقسمه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء:٥٤].

الإيمان بالقضاء والقدر يدعو للتفاؤل والإيمان بالنصر القادم والفرج العاجل: «واعلم أن النصر مع الصبر.. وأن مع العسر يسرًا»[1]؛ فلا يأس ولا قنوط: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

الإيمان بالقدر يجعل المؤمن صابرًا قوي الاحتمال، وكل أحد لا بد له من الصبر.. فهو من جميل الخلال ومحمود الخصال ومن سمات الرجال، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم.. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»؛ لذا تجد المؤمن بالقدر صبورًا متجلدًا يتحمل المشاق ويتجاوز المصاعب والآلام.. بخلاف ضعيف الإيمان الذي لا يقوى على الاحتمال ولا يصبر على ما يعترضه فيجزع لأتفه الأسباب، بل ربما أدى به الجزع إلى الوساوس والأمراض النفسية والهرب إلى المخدرات والانتحار.

ولو آمن بالقضاء والقدر لرأيت قوة الرجاء وإحسان الظن بالله.. فإن الله تعالى لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل وكمال الرحمة والحكمة؛ فلا يتهم ربه فيما يجري عليه من أقضيته وأقداره؛ وذلك يوجب له استواء الحالات عنده ورضاه بما يختاره له سيده وينتظر الفرج ويترقبه، بل يخفف ذلك من حمل المشقة.. لا سيما مع قوة الرجاء فإن في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو خفي الألطاف، بل هو فرجٌ معجل..

والتأمل في قدر الله يكشف للإنسان حكمة الله فيما يقدره من خيرٍ أو شر: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ فيفوض العبد أمره إلى من يعلم عواقب الأمور.

(١) السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).

أيها المسلمون: ومن آثار الإيمان بالقضاء والقدر: التوكل على الله، وهو نصف الدين ولب العبادة والتوكل.. هو توجه القلب إلى الله واستمداد المعونة منه والاعتماد عليه وحده بعد بذل السبب..

التوكل يعني الثقة بالله والطمأنينة به والسكون إليه، وهو التعلق بالله في كل حال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

التوكل لا يعني ترك الأسباب، بل يعني عدم تعلق القلب بها.. فإذا عزمت فتوكل على الله، والشريعة أمرت العامل بأن يكون قلبه منطويًا على انفراد التوكل، فإذا استضاء به أمده الله بالقوة والعزيمة والفهم والبصيرة والصبر والتوفيق وصرف عنه الآفات وأراه من حسن العواقب ما لم يكن ليصل إليه الإنسان لولا توفيق الله، وهذا يريح الإنسان من الأفكار والوساوس ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، ومن التفت إلى غير الله نقص توكله.. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (الثقة بالله تنافي الركود والعجز؛ فإن الواثق بالله يفعل ما أمره الله ويثق بالله في طلوع ثمرته وبركتها كغارس الشجرة وباذر الأرض، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود).

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.. أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله.. الحمد لله الذي استأثر بالخلق والتدبير.. لـه ملـك السـموات وهـو اللطيـف الخبير، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمـدًا عبـد الله ورسـوله البشـير النذير والسراج المنير.. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

أيها المسلمون: يقول الحق تبارك وتعالى عن ذاته العليـة: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعـام:١٣]، ويقـول سـبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، ومن هنا كان كمال توحيد المؤمنين فأخبتت قلوبهم لأحكام القضاء وهان عليهم الصبر على البلاء والشكر على السراء، وفوضوا أمرهم إلى الله وسألوه المغفرة والرحمة.

عباد الله: الإيـمان بالقـدر لا ينـافي أن يكـون للإنسـان مشـيئةٌ يحاسـب عليهـا في أفعالـه الاختيارية؛ فكل إنسانٍ له قدرةٌ وإرادةٌ ومشيئةٌ واختيار.. لا يجبره أحدٌ على فعل خيرٍ أو فعل شر، قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، وقـال سـبحانه ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وأفعال العباد هي من الله خلقًا وإيجادًا وتقديرًا وهي من العبـاد فعـلًا وكسـبًا واختيـارًا؛ فـالله هـو الخـالق.. فأفعـالهم وهـم الفـاعلون لهـا.. قـال سـبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]..

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هاهنا أمران: قضاء ومقضي؛ فالقضـاء هـو فعـل الـرب سبحانه والمقضي هو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء كله خيرٌ وعدلٌ وحكمة، والمقضـي منـه مـا هـو مرضيٌ ومنه ما هو غير مرضي، مثال ذلك قتل النفس، فهما اعتباران؛ فمن حيث إنه قـدر الله وعلمه وقضاؤه وكتبه، وشاءه وجعله أجلًا للمقتول ونهايةً لعمره فهو كذلك، ومن حيث إنه صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصـى الله بفعله فهـو مسـخوطٌ غـير مرضي ولم يجبره أحد على هذه المعصية، ولا وجه للاحتجاج بالقدر هنا.. فإنه لا يدري أصلًا ما الذي كتبه الله وقدره؛ فهو محاسبٌ على فعله لا على ما قدره الله مما لا يعلم العبد عنه).

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء سُراقةُ بن مالكٍ بن جُعشُمٍ قال: يا رسولَ الله ! بَيِّنْ لنا ديننَا كأنا خُلِقْنا الآن. فيما العملُ اليومَ؟ أفيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجرَتْ به المقاديرُ، أَم فيما نستقبلُ؟ قال: لا. بل فيما جَفَّتْ به الأقلامُ وجرَتْ به المقاديرُ. قال: ففِيمَ العملُ؟ فقال: اعملوا؛ فكلٌّ ميسرٌ لما خلق له»، وفي رواية: «كل عاملٍ ميسرٌ لعمله»[1].

فمن ذا الذي يريد أن يُيسره الله لليسرى؟ ومن ذا الذي يخاف أن ييسره للعسرى؟ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

عليك بالصدق والأمانة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والبر والإنفاق، والإيمان والتقوى، فمن بادر إلى الخير وصدق مع الله في تحري الحق، وفقه الله لذلك، ولا يضل الله إلا الظالمين.

هذا، وصلوا وسلموا على الرحمة المهداة والنعمة المسداه محمد بن عبد الله رسول الله ومصطفاه، اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



(١) رواه مسلم (٢٦٤٨).

الصبر على أقدار الله[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله بعثه بالهدى، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجعلنا على المحجة البيضاء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأصفياء، وأصحابه الأتقياء، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله حق التقوى، فبالتقوى زيادة النعم، ودفع النقم.

أيها المسلمون: لقد قدر الله مقادير الخلائق وآجالهم، ونسخ آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملًا. والإيمان بقضاء الله وقدره ركن من أركان الإيمان، وما في الأرض من حركة أو سكون إلا بمشيئة الله وإرادته، وما في الكون كائن بتقدير الله وإيجاده. والدنيا طافحة بالأنكاد والأكدار، مطبوعة على المشاق والأهوال، والعوارضُ والمحنُ فيها هي كالحر والبرد لا بد للعبد منها، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، والقواطع محن يتبين بها الصادق من الكاذب، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢].

والنفس لا تزكو إلا بالتمحيص، والبلايا تُظهر الرجال، يقول ابن الجوزي: (من أراد أن تدوم له السلامة والعافية من غير بلاء فما عرف التكليف ولا أدرك التسليم).

---

(١) عبدالمحسن بن محمد القاسم.



ولا بد من حصول الألم لكل نفس، سواء آمنت أم كفرت، والحياة مبنية على المشاق وركوب الأخطار، ولا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم، والمرء يتقلب في زمانه في تحول من النعم واستقبال للمحن.

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ سجدت له الملائكة، ثم بعد بُرهة يُخرج من الجنة. وما الابتلاء إلا عكس المقاصد وخلاف الأماني، والكل حتم يُتجرّع مرارته، ولكن ما بين مقِلٍّ ومستكثر، يُبتلى المؤمن ليهذَّب لا ليعذَّب، فتن في السراء، ومحن في الضراء، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

والمكروه قد يأتي بالمحبوب، والمرغوب قد يأتي بالمكروه، فلا تأمن أن توافيك المضرة من جانب المسرة، ولا تيأس أن تأتيك المسرة من جانب المضرة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فوطّن نفسك على المصائب قبل وقوعها، ليهن عليك وقعها، ولا تجزع بالمصائب، فللبلايا أمد محدود عند الله، ولا تسخط بالمقال، فرب كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان، والمؤمن الحازم يثبت للعظائم، ولا يتغير فؤاده ولا ينطق بالشكوى لسانه، وخفف المصاب على نفسك بوعد الأجر وتسهيل الأمر، لتذهب المحن بلا شكوى، وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصاب لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، والمصيبة إن بدت لعدوّ سُرَّ واستبشر بها، وكتمان المصائب والأوجاع من شيم النبلاء، فصابر هجير البلاء، فما أسرع زواله، وغاية الأمر صبر أيام قلائل، وما هلك الهالكون إلا من نفاد الجَلَد، والصابرون مجزيون بخير الثواب، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦]، وأجورهم مضاعفة، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص:٥٤]. بل وبغير حساب، والله معهم، والنصر والفرج معلق بصبرهم، وما منعك ربك أيها المبتلى إلا لتعطى، ولا ابتلاك إلا لتعافى، ولا امتحنك إلا لتصفَّى، يبتلي بالنعم، وينعم بالبلاء، فلا تضيّع زمانك بهمّك بما ضمن لك من الرزق، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيا، قال تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وإذا أغلق عليك بحكمته طريقًا من طرقه فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه.

بالابتلاء يُرفع شأن الأخيار، ويعظم أجر الأبرار، يقول سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»[1].

وطريق الابتلاء معبر شاق، تعب فيه آدم، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وألقي في بطن الحوت يونس، وقاسى الضر أيوب، وبيع بثمن بخس يوسف، وألقي في الجب إفكًا، وفي السجن ظلمًا، وعالج أنواع الأذى نبينا محمد ﷺ، وأنت على سنة الابتلاء سائر، والدنيا لم تصفُ لأحد، ولو نال منها ما عساه أن ينال، يقول المصطفى ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُصِب منه»[2].

قال بعض أهل العلم: من خلقه الله للجنة لم تزل تأتيه المكاره، والمصيبة حقًا إنما هي المصيبة في الدين، وما سواها من المصائب فهي عافية، فيها رفع الدرجات، وحط السيئات، وكل نعمة لا تُقرّب من الله فهي بلية، والمصاب من حُرِم الثواب، فلا تأس على ما فاتك من الدنيا، فنوازلها أحداث، وأحاديثها غموم، وطوارقها هموم، الناس معذبون فيها على قدر هممهم بها، الفرح بها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها، يقول أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها».

فتشاغل بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك، من رفع خلل، أو اعتذار عن زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب، وتلمّح سرعة زوال بليتك تهن، فلولا كرب الشدة ما رُجيت سعة الراحة، وأجمع اليأس مما في أيدي الناس تكن أغناهم، ولا تقنط فتُخذل، وتذكر

---

(١) صحيح الترغيب (٣٤٠٢).

(٢) رواه البخاري (٥٦٤٥).



كثرة نعم الله عليك، وادفع الحزن بالرضا بمحتوم القضا، فطول الليل وإن تناهى فالصبح له انفلاج، وآخر الهم أول الفرج، والدهر لا يبقى على حال، بل كل أمر بعده أمر، وما من شدة إلا ستهون، ولا تيأس وإن تضايقت الكروب، فلن يغلب عسر يسرين، واضرع إلى الله يزهو نحوك الفرج، وما تجرّع كأس الصبر معتصم بالله إلا أتاه المخرج، يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما فقد ولدًا وطال عليه الأمد، لم ييأس من الفرج، ولما أُخذ ولده الآخر لم ينقطع أمله من الواحد الأحد، بل قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣].

وربنا وحده له الحمد، وإليه المشتكى، فإذا تكالبت عليك الأيام، وأغلقت في وجهك المسالك والدروب، فلا ترجُ إلا الله في رفع مصيبتك ودفع بليتك، وإذا ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، قلب وجهك في ظلمات الليل في السماء، وارفع أكف الضراعة، وناد الكريم أن يفرج كربك، ويسهل أمرك، وإذا قوي الرجاء، وجمع القلب في الدعاء لم يرد النداء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، وتوكل على القدير، والجأ إليه بقلب خاشع ذليل يفتح لك الباب، يقول الفضيل بن عياض: (لو يئست من الخلق لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كل ما تريد).

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ترك هاجر وابنه إسماعيل بواد لا زرع فيه ولا ماء، فإذا هو نبيٌّ يأمر أهله بالصلاة والزكاة، ومضى يونس مجردًا في العراء، ومن فوّض أمره إلى مولاه حاز مناه، وأكثر من دعوة ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، يقول العلماء: ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه، يقول ابن القيم: (وقد جُرب أن من قال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، سبع مرات كشف الله ضره)، فألقِ كنفك بين يدي الله، وعلّق رجاءك به، وسلِّم الأمر للرحيم، واسأله الفرج، واقطع العلائق عن الخلائق، وتحرّ أوقات الإجابة، كالسجود وآخر الليل، وإياك أن تستطيل زمن البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبَّد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء، فالفرج قريب، وسل فاتح الأبواب فهو الكريم، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٧]، وهو الفعال لما يريد.

بلغ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ من الكبر عتيا، ثم وُهب بسيد من فضلاء البشر وأنبيائهم، وإبراهيم بُشر بولد وامرأته تقول بعد يأس من حالها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود:٧٢]، وإن استبطأت الرزق فأكثر من التوبة والاستغفار، فإن الزلل يوجب العقوبة، وإذا لم تر للإجابة أثرًا فتفقد أمرك، فربما لم تصدق توبتك فصححها، ثم أقبل على الدعاء، فلا أعظم جودًا ولا أسمح يدًا من الجواد، وتفقد ذوي المسكنة، فالصدقة ترفع وتدفع البلاء، وإذا كشفت عنك المحنة فأكثر من الحمد والثناء، واعلم أن الاغترار بالسلامة من أعظم المحن، فإن العقوبة قد تتأخر، والعاقل من تلمَّح العواقب، فأيقن دومًا بقدر الله وخلقه وتدبيره، واصبر على بلائه وحكمه، واستسلم لأمره.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد:

أيها المسلمون: الأحوال لا تثبت على حال، والسعيد من لازم التقوى، إن استغنى زانته، وإن افتقر أغنته، وإن ابتلي جملته، فلازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، ولا في المرض إلا العافية، ولا في الفقر إلى الغنى، والمقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُقدّر لا حيلة في تحصيله، والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، والله هو المتفرد بالاختيار والتدبير، وتدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وهو أرحم به منه بنفسه، يقول داود بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات)، ومن رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به، ومع هذا فلا خروج عما قُدّر عليك.

قيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك.

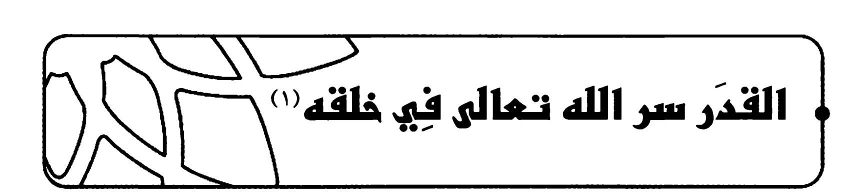
هل التسخط على الأقدار يرد المصائب؟ كلا، بل لا يزيد على أن يحرم صاحبه الثواب وينيله العقاب.

فانظر يا عبد الله إلى ما خبّأ الله لك فإن خلف المحنة منحة، والعطايا في طيات البلايا.

يقول شريح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان له فيها ثلاث نعم: أنها لم تكن في دينه، وأنها لم تكن أعظم مما كانت، وأن الله رزقه الصبر عليها إذ صبر).

ثم صلوا وسلموا عباد الله على خير خلق الله محمد بن عبد الله، فقد أمركم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].





القدَر سر الله تعالى فِي خلقه[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الحكيم الخبير، العليم القدير؛ خلق الخلق بقدرته، وسيَّرهم بحكمته، وأمضى فيهم حكمه، نحمده ونشكره ونتوب إليه ونستغفره؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ خلق فسوى، وقدَّر فهدى، وخلق كل شيء فقدره تقديرا، وكل شيء عنده بمقدار.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ رسّخ في أمته الإيمان بالقضاء والقدر، ودعا إلى العمل، ونبذ العجز والكسل، وقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ»، فقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ...»[2] صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه؛ فإنكم تطوون هذا العام الهجري من أعماركم، وقد استودعتموه أعمالكم، فأحسنوا ختامه بالتوبة من الذنوب: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢].

أيها الناس: إن تقلبات الأيام، وتصرم الأعمار، واختلاف الليل والنهار، داعية لنا لِنَتَفكَّرْ في عظمة ربنا وقدرته سبحانه وتعالى، لنتفكر في علمه وحكمته، لنتفكر في قضائه وقدره، فكم لله تعالى من أفعال في خلقه! وكم قضى في الأرض من أقضية! وكم قدَّر من مقاديرَ! فمَن يحصي ذلك ومن يعده؟ لا أحد إلا اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤].

---

(١) إبراهيم بن محمد الحقيل.

(٢) رواه البخاري (٤٩٤٩).

ما بين يوم ويوم، وشهر وشهر، وعام وآخر، كم مِن حَيٍّ مات! وكم من صحيح سقِم! وكم من عزيزٍ ذَلَّ! وكم من مكرم أهين! وكم من غني افتقر! وكم من سعيد بئس! وغير ذلك كثير وكثير لا يُعَدّ ولا يُحصى؛ أفعالٌ للرب جَلَّجَلَالُهُ كثيرة في خلقه، ما ظن أصحابها أنها تصيبهم فأصابتهم.

ليتفكر كل واحد منا في نفسه، وليتأمل أقضية الله تعالى عليه خلال عام كامل، كم فرح وكم حزن! وكم خاف وكم استبشر! وكم قنط وكم طمع! كل ذلك وقع ولا يزال يقع لكل واحد منا.

أقدار قدَّرَها الرب جَلَّجَلَالُهُ، لم يردها قوي بقوته، ولا قدير بقدرته، ولا زعيم بسلطته، ولا قائد بجنده، ولم يفلت منها حذِرٌ بحذره، ولم يراوغْ عنها ذكي بعقله؛ إن هي إلا غيب مخبوء، وقدر محتوم، يصيب مَن أمر به، بغض النظر عن عمره ومكانته.

إنَّ القَدَرَ أمرٌ عجيبٌ! وهو دليل قدرة الله تعالى، فمَن أنكره فقد عطَّل الله تعالى من صفة القدرة، وهو سر الله تعالى في خَلْقِه كما قال أئمة الهدى، ولقد عَدَّ النبيُّ ﷺ الإيمانَ به رُكْنَ الإيمانِ السادس: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

أيها الناس.. لقد دل القدَر على علم الله تعالى للغيب والشهادة، وللممكن والمحال، وللموجود والمعدوم، ولما كان وما يكون، ولا شيء محال أمام قدرته سبحانه وتعالى، ولكن مشيئته جعلته محالا؛ فهو بكل شيء عليم، وقد أحاط بكل شيء علما، ولا يكون شيء إلا بعلمه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، هذا في الموجود، وفي المعدوم قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، فهذا علمه بأهل النار وهم لا يردون إلى الدنيا، فهو خبر بما لا يقع، فسبحان العليم الخبير!.

والخلق كل الخلق لعجزهم لا يعلمون الغيب ولو كان موجودا، ولا يتصورون العلم به؛ لأنه فوق مدركاتهم، فكيف إذن بالمعدوم وبالمحال؟.

وهذا القَدَر المحكم العجيب قد كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ قبل الخَلق، فكل شيء مدوَّن: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الإسراء:٥٨]، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾

---

(١) رواه مسلم (٨).

[يس:١٢]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

وأحداث الكون، وأفعال العباد ما كبر منها أو صغر مسجلة في اللوح المحفوظ قبل وقوعها ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٢-٥٣]، أي: مسطر في اللوح المحفوظ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

وفي حديث عَبْدِ الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١)

وما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ فهو ثابتٌ لا يجري عليه مَحْوٌ ولا تغيير، وإنما المحو والتغيير في صحف الملائكة، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

والله تعالى شاء لهذا المقدر المكتوب أن يكون، ولو لم يشأْه سبحانه لما كان؛ لأن كل شيء تحت مشيئته عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وفي القرآن تقرير أن علة عدم وقوع ما لم يقع ولن يقع هي أن الله تعالى لم يشأه، ولو شاءه لوقع؛ ففي شرك المشركين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]، وفي أفعالهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧]، وفي اختلاف كلمة الناس: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨]، وفي اقتتالهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. فالله تعالى قادر على فعل ذلك الذي لم يقع؛ لكنه لم يشأْه سبحانه. ومشيئة الخلق تحت مشيئة الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

وهذا المقدور الذي كان؛ إنما كان بسبب إيجاد الله تعالى له وخلقه إياه، والخلق من أفعال الرب سبحانه، وكل مخلوق فالله سبحانه هو خالقه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

[الفرقان:٢]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] ؛ ولذا كان من صفاته سبحانه: الخلاق وهو المبالغة في الخلق: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦]، وهذه الآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقا إلَّا وهُو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء؛ إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه، وكثيرا ما يقترن الخلق بالعلم: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

فما من أمر وقع، ولا مخلوق خلق، إلا والله تعالى قد علم ذلك قبل وقوعه، وكتبه منذ الأزل، وشاءه سبحانه، وأجراه على وفق علمه ومشيئته؛ ولذا كان من أسمائه الحسنى: القادر والقدير والمقتدر، وكانت القدرة من صفاته العلى.

وإن شئتم أن تمتلئ قلوبكم بالإيمان واليقين، وتعظيم الله تعالى، والتسليم، فتفكروا فيما يجري في الأرض من أحداث ومقادير، في ضخامتها، وكثرتها، وتنوعها، في البر والبحر، على الإنسان والحيوان والنبات والجماد، ثم قارنوا ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وقَالَ النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ»(١).

ولله تعالى تقدير في السنة ينسخ من اللوح المحفوظ إلى كتب الملائكة الموكلين بأوامر الرب جل وعلا، وهذا التقدير في ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وتساق المقادير إلى مواقيتها في كل يوم، وهو ما ترونه من حوادث العالم ومستجداته، وما يجري على الأفراد والدول والأمم في كل يوم، وفيه قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

إنَّ الإيمانَ بالقدر راحةٌ في الدنيا والآخرة، به الخُلوصُ من الشركِ والإلحادِ، والنجاةُ من الحيرة والاضطراب، ولقد جُنَّ قديما وحديثا أولو عقولٍ بفقدهم الإيمان بالقدَر، والحد في

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥).



البحث عنه كثير من أذكياء البشر؛ لأنهم ما عرفوا قدرةَ الله تعالى في أفعاله، ولا أدركوا حكمته سبحانه في أقداره، وأشغلوا عقولهم في كشف أسراره في خَلقه، ومحاولة معرفة كيفيته وكنهه، وأنى لهم ذلك؟!.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنَ السُّنَّةِ اللَّازِمَةِ...: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْأَحَادِيثِ فِيهِ... لَا يُقَالُ لِمَ وَلَا كَيْفَ... وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ تَفْسِيرَ الْحَدِيثِ وَيَبْلُغْهُ عَقْلُهُ فَقَدْ كُفِيَ ذَلِكَ وَأُحْكِمَ لَهُ، فَعَلَيْهِ الْإِيمَان بِهِ وَالتَّسْلِيم لَهُ).

وقال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ الله تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وسُلم الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

إن الإيمان بالقدر سبب لثبات الإيمان، ورسوخ اليقين، ومتانة الدين؛ فلا يتغير حال صاحبه في الرخاء والسراء عن حاله في الشدة والضراء؛ لأن الإيمان بالقدر يزيل من قلبه الأشر والهلع؛ فإن بسط عليه لم يأمن ويبطر، وإن ضيق عليه لم يبأس وييأس: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٣].

والمؤمن بالقدر حسن التعامل مع الله تعالى، كثير اللجوء إليه، عظيم الخوف منه، والرجاء فيه؛ لعلمه أن النفع والضر بيد الله تعالى، وأن الخلق -مهما بلغت قوتهم- لا ينفعون ولا يضرون إلا بأمره سبحانه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدا طيبا كثيرا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى، نحمده ونشكره ونتوب إليه ونستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

أيها المسلمون: ما أحوجنا إلى الإيمان واليقين، والرضا والتسليم بمقادير رب العالمين! فإن ذلك يورث هداية القلب وطمأنينته، وهناء العيش وطيبه، وراحة البال واستقامته، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

ما أحوجنا إلى الإيمان بالقدر، والتسليم لأقضية الله تعالى فينا! في زمن مخوف مرعب، تعصف أحداثه ومفاجآته بالدول والأمم، وتقلب أحوال البشر، فتنقلب معها قلوب غير الموقنين، فيفقدون إيمانهم؛ ذلك أن الإيمان بالقدر يمثل حقيقة الإيمان؛ كما جاء في حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»(١).

وقال ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَلَئِنْ أَعَضُّ عَلَى جَمْرَةٍ حَتَّى تُطْفَأَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لِأَمْرٍ قَضَاهُ اللهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ».

عباد الله: ينبغي أن يكون المؤمن أكثر طمأنينة من غيره عند حلول الغيَر وحدوث الأحداث وتقلبات الحال، ينبغي أن لا يعلق قلبه ولا رزقه ولا غناه ولا سعادته بأحد غير الله تعالى؛ لأنه يدرك أن أقداره مكتوبة قبل أن يُخلق.

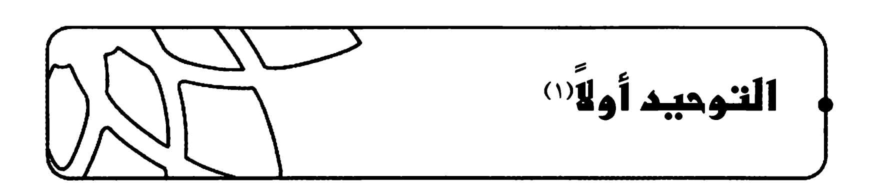
---

(١) صحيح الجامع (٢١٥٠).

فَلْنُرَسِّخ الإيمان بالقدر في قلوبنا، وقلوب مَن هم تحت أيدينا، ولْنَغْرِسْ هذا الأصل المتين من الدين في قلوب الناس؛ حتى يواجهوا ما يتوقع من أحداث كبرى قادمة بإيمان لا يتزعزع، ويقين راسخ لا يتضعضع، ويقابلوا ألم المقدور بالرضا والقبول؛ رجاء ثواب الله تعالى؛ فإن الدنيا إن ضاع شيء منها على المؤمن فلقد أبقى الله تعالى له أكثر مما ضاع، والعوض عنده سبحانه، وإن فقد الدنيا كلها فلا يفقد معها دينه الذي به صلاح آخرته، وفيها دوام معيشته: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

هذا وصلوا وسلموا...





التوحيد أولاً[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي تفرد في أزليته بعز كبريائه، وتوحد في صمديته بدوام بقائه، ونوَّر بتوحيده قلوب أوليائه، وطيَّب أسرار المؤمنين بطيب ثنائه، وأسبغ على السائلين جزيل عطائه، وأمَّن خوف الخائفين بحسن رجائه، أشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، أحاط بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في أرضه وسمائه، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمدًا عبد الله ورسوله، صفيه من خلقه وخيرته من أنبيائه، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن سار على نهجه واهتدى بهديه واقتفى أثره إلى يوم الدين..

هو المختار من خير البرايا ... هو الهادي البشيرُ هو الرسولُ

عليه من المهيمن كل وقتٍ ... صلاةٌ دائما فيها القبولُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



أما بعد:

أيّها المسلمون: لقد خلَق الله عبادَه، وسخَّر لهم ما في السّماوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرةً وباطنة، ليُفرِدوه سبحانه بالعبادةِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ولقد بقِي الناس بعد آدَم عشرةَ قرونٍ يعبدون اللهَ وحدَه لا يشركون به شيئًا، ثم إن الشيطان زيَّن لبعض الخلق عبادةَ الأصنامِ فعبَدوها، فأرسلَ الله الرسلَ، وأنزلَ معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وليرجِعوا إلى عبادةِ الله وحدَه.

لقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام فجدد الملة الحنيفيةَ، وصدع بكلمة الحق مدوية في المشارق والمغارب، قائلا للناس: «كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم: لا إله إلا الله محمد رسول الله». إنها كلمة التوحيد، أصل الدين وقاعدته. لأجلها نصبت الموازين، ونشرت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وانقسم الناس فيها الى فريقين مؤمنين وكفار، ومتقين وفجار. إنها حق الله على العباد، وفي سبيلها تجرد سيوف الجهاد.

فإن أولى ما ينبغي أن يعطى من أهمية العلم والعمل هو أمر توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالعبادة، ولقد كانت عناية القرآن بتوحيد الله عظيمة فهو القضية الكبرى، ومهمة الرسل الأولى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]. فالقرآن كله حديثٌ عن التوحيد، وبيان حقيقته والدعوة إليه، وتعليق النجاة والسعادة في الدارين عليه.

وكل نبي يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومن صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨]. ومن نعوت أهل الإيمان الموعودين بالتمكين في الأرض: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

بل لقد خاطب الله أنبياءه ورسله بنبذ الشرك والبراءة من أهله والإعراض عنه وعنهم فقال عز وتبارك: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد:٣٦]. ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦].

قال أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعليقًا على هذه الآيات وأمثالها: فإذا كان يُنهى عن الشرك من لا يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه؟؟ ولذا خاف الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشّرك، فدعا ربَّه وهو يبني الكعبة: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]، وإذا كان الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يخشى على نفسه منَ الشرك فغيرُه أولى. قال إبراهيم التيمي: (ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم[1]؟!).

إن التوحيد: توحيدٌ في الاعتقاد، وتوحيدٌ في العبادة، وتوحيدٌ في التشريع. توحيدٌ تُنقّى به القلوب والضمائر من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله، وتُنقّى به الجوارح والشعائر من أن تُصرف لأحد غير الله، وتُنَقَّى به الأحكام والشرائع من أن تتلقاها من أحدٍ دون الله عَزَّوَجَلَّ، فاختصاص الله بالحكم دون شريك كاختصاصه بالعبادة في جميع أنواعها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]. فمن نازع الله في الحكم فقد نازعه حقا من حقوق العبادة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠].

فالتوحيد هو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وقطب رحاه، وذروة سنامه، في خاص الأمر وعامِّه، ولقد قامت عليه الأدلة، ونادت عليه الشواهد، وأوضحته الآيات، وأثبتته البراهين:

فيا عجبًا كيف يُعصَى الإله ... أم كيف يجحدُه الجاحدُ
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه الواحدُ

التوحيد نُصبت عليه القبلة، وأُسست عليه الملة، ووجبت به الذمة، وعُصمت به

(١) انظر الدرر السنية (١٥/ ٣٣٠).



الأنفس، وانفصلت به دار الكفر عن دار الإسلام، وانقسم به الناس إلى سعيدٍ وشقيٍّ ومهتدٍ وغوي.

وإن مِن رأفة الكريم الرحيم بخلقِه أنْ جعَل فِطَرهم موافقةً لما خلقَهم له، فكلُّ مولودٍ يُولَد على فطرةِ إفراد الله بالعبادةِ، وأنه المعبودُ وحدَه دون مَن سواه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣٠].

والشيطانُ يسعَى لإفسادِ فِطَر الخلقِ ليحرمَ العبادَ من رضا ربهم عنهم، ومنَ النعيم المُقيم المُعَدّ لهم في جنات عَدن، قال ﷺ: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: إني خَلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالَتْهم عن دينِهم، وحرَّمَت عليهم ما أحلَلتُ لهم، وأمَرَتهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزِّل به سلطانًا»[١].

يدعو إبليسُ الخلقَ إلى الوقوع في أعظم ذنبٍ يُعصَى الله به، سُئِل النبي: أيُّ الذنبِ أعظم؟ قال: «أن تجعلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَك»[٢] فعَبَد كثيرٌ من الناسِ غيرَ الله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود:١٧].

ومِن آثار عدَم الإيمانِ أنّ كلَّ عملٍ يُعمل وإن كان صالحًا فإنّه لا يُثابُ عليه لفُقدان أصلِ الدين، قالت عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: يا رسول الله، إنّ ابن جُدعانَ كان في الجاهلية يصِلُ الرَّحِمَ ويُطعِم المسكين، فهل ذاك نافعُه؟ قال: «لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[٣].

وهذا الذّنب سببٌ لسخَط الله وحلولِ الذِّلَّة والمسكنةِ لمن فعله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأعراف:١٥٢]. وصاحبُه يتقلَّب في كُروبٍ وهمومٍ وأحزان، قال جلّ شأنُه: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:١٢٥]. ويمنعه من دخول الجنّة ويُخلِّدُه في النار،

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه مسلم (٢١٤).

قال جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢].

ولئلا يقَع العبادُ في شَرَكِ الشيطانِ ويُسخِطوا ربهم ويُخلَّدوا في النّار أرسلَ الله لكلِّ أمةٍ رَسولًا يُحذِّرهم من دَعوةِ الشيطان، ويأمرُهم بعبادةِ الرحمن، وأنزل الكتبَ، ودعا إليه في أكثرِ آياتِ القرآن، وجميعُ ما في القرآن دالٌّ عليه، وأوّل أمرٍ في كتابِ الله هو الأمرُ به، قال جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] أي: وحِّدوا ربّكم، وأوّل نهيٍ يتلوه قارئُ القرآن هو النهيُ عن ضِدِّه، ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

وأعظمُ سورةٍ في كتابِ الله ما اشتَملت على التوحيد: سورة الفاتحة التي فيها: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وسورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وأعظم آيةٍ في كتابِ الله آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ولقد مَكَثَ النبي بعد بِعثته يدعو إلى توحيدِ الله عشرَ سنين، لا يدعو إلى شيءٍ سواه، ثم تتابَعَت عليه الشّرائع، فكان يدعُو إليها مع التّوحيد إلى مماته، وكان يقول في صباحِه ومسائِه: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلِمة الإخلاص، وعلى دينِ نبيّنا محمّد، وعلى ملّة أبينا إبراهيم حَنيفًا مسلِمًا وما كان من المشركين»[١].

وكان يستفتِح يومَه بالتوحيد، فيقرأ في ركعتي الفَجر بسورتي الكافرون والإخلاص[٢]، ويختمه به، فيقرأ في الشفع والوِتر بالكافرون والإخلاص[٣].

أتى أعرابيٌّ إلى النبيِّ فقال: دُلَّني على عملٍ إذا عمِلتُه دَخلتُ الجنةَ؟ قال: «تعبُد اللهَ ولا تُشرِك به شيئًا، وتُقيم الصلاة المكتوبةَ، وتُؤدِّي الزكاةَ المفروضةَ، وتصوم رمضانَ»[٤].

---

(١) صحيح الجامع (٤٦٧٤).
(٢) صحيح ابن حبان (٢٤٥٩).
(٣) صحيح ابن حبان (٢٤٣٦).
(٤) رواه البخاري (١٣٩٧) ومسلم (١٤).

وكان يأمُر أصحابَه أن يُبايعوه على عبادةِ الله وحدَه، قال عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنّا عندَ رسول الله، ثم قال: «ألا تُبايِعون رسول الله؟» قلنا: فعَلامَ نُبايعُك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا، والصلواتِ الخمس»[1].

وإذا بعَث الدعاةَ إلى الأمصار يأمُرهم أن يبدؤوا بالدعوةِ إلى التوحيد، بعثَ مُعاذًا إلى اليمن وقال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أوّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله»[2].

وإذا جاءَه وفدٌ من الوُفود علَّمَهم التوحيدَ، فحين أتاه وفدُ عبد القَيس قال لهم: «ألا تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله» الحديث[3].

ولقد خاف الرسلُ على أبنائهم اتباعَ الشيطان بالشرك وعبادةِ الأصنام، قالَ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. والنبيُّ خافَه على أمَّته، فقال: «أخوفُ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسُئِل عنه، فقال: «الرياء»[4].

وهو من حقِّ الله على العباد، قال ﷺ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا»[5].

ويُقرِّب العبدَ من الجنّة ويُباعِده من النار، جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ فقال: يا رسول الله، أخبرني بما يُقرِّبني من الجنّة ويُباعدني من النار، فنظر النبيُّ في أصحابه، ثم قال: «لقد وُفِّق» أو: «لقد هُدِي»، قال: «كيف قلتَ؟»، قال: فأعاد، فقال النبي: «تعبدُ الله ولا تُشركُ به شيئًا، وتُقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصِل الرحِم»[6].

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣).
(٢) رواه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩).
(٣) رواه البخاري (٨٧).
(٤) السلسلة الصحيحة (٩٥١).
(٥) رواه البخاري (٧٣٧٣) ومسلم (٣٠).
(٦) رواه البخاري (١٣٩٦) ومسلم (١٣).

ولا سعادةَ في الدنيا والآخرةِ إلا به، قال ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله تُفلِحوا»[1].

ومن كانت خاتِمتُه عليه دخلَ الجنة، قال ﷺ: «من كان آخرَ كلامه: لا إله إلا الله عند الموتِ دخل الجنة»[2]. ومن مات عليه دخَل الجنةَ ونجا من النار، قال ﷺ: «من لقِيَ الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنّة، ومن لقِيَه يُشرك به دخلَ النار»[3].

(١) الصحيح المسند للوادعي (٥١٦).
(٢) صحيح الجامع (٥١٥٠).
(٣) رواه مسلم (٩٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه، وبعد:

أيّها المسلمون:

إن الله لم يخلق الخلقَ ليتقوَّى بهم من ضعف، ولا ليعتزَّ بهم من ذلةٍ، ولا ليستكثر بهم من قلة. فهو المنعم المتفضل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٥-١٦] سبحانه هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، خلقهم لعبادته وطاعته، ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وإن التوحيدُ أعظمُ ما تزكو به النفوسُ، ولا يتحقَّق إلا بالكُفر بجميع ما يُعبَد من دونِ الله، وهو معنى الشهادَة، قال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يُعبَد من دون الله حرُمَ مالُه ودمُه وحِسابه على الله»(١).

ومن حقَّق التوحيدَ فُرِّجَت كُروبُه، ونال رِضا ربّه، وقُبِلت أعمالُه، وضُوعِفَت أجورُه، وكانت حياتُه طيّبةً، وغُفِرت ذنوبُه، ودخل الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ. ولا نعمةَ أعظَم من نعمةِ الدين والثباتِ عليه.

وإن أعمالُ المُوحِّدين تتفاضلُ بتفاضُل ما في القلوبِ من الإيمانِ والإخلاصِ، وأعزُّ ما يملِك المسلِم هو توحيدُه لربّه، وأهمّ ما عليه حِفاظه عليه من البُطلان أو القوادح أو النواقص الواردة عليه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوحيدُ ألطَف شيءٍ وأنزهُه وأنظفه وأصفَاه، فأدنى شيءٍ يخدِشُه ويُدنِّسُه ويُؤثِّر فيه، فهو كأبيض ثَوبٍ يُؤثِّر فيه أدنى أثَر، وكالمرآة الصافيَة جدًّا أدنى شيءٍ يُؤثِّر فيها)(٢).

ليس للقلوب سرور وليس للصدور انشراح إلا في توحيد العبادة، وإخلاص المحبة، وتمام الذل والخضوع، وصرف البصر والبصيرة عن الالتفات إلى ما سوى الله ذي الجلال والإكرام.

---

(١) رواه مسلم (٢٣).

(٢) الفوائد لابن القيم (١٩٤).

فيه يكون الولاء والبراء، والحب والبغض، والمودة والعداء. يضعف كل رباط إلا رباط العقيدة، وتضمحل كل وشيجة إلا وشائج الحب في الله. رابطة الإيمان يتهاوى دونها كل صلة بعرق أو تراب أو لون.

أيها الأحبة: وإن توحيد الاعتقاد يتبعه توحيد العمل والاستقامة في الاتباع، لا تقوم العقيدة بصفائها إلا حين نقارنها بالعمل الصالح، وإسلام الوجه لله والإحسان في العمل.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان:٢٢].
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:١٢٥].

عباد الله: من أهم المهمات وأوجب الواجبات تعليمُ الأبناءِ أصل دينهم وسؤالهم الدائمُ عنه هو نهجُ الرسل، يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في نَزع الروح يسأل أبناءَه عن توحيدهم، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]. ونبيُّنا محمّد يسأل جاريةً صغيرةً: «أين الله؟» قالت: في السماء[(١)].

ومُدارسةُ كتبِ الاعتقادِ السليمة ومُلازمة حِلَق أهلِ العلم من أسباب الثبات على الدين، لأن فيها معرفة كلام الله ورسوله، واللذين فيهما العصمة، كما قال ﷺ: «وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتُم به، كتابَ الله وسنّتي»[(٢)].

إن من أجلّ الأعمال وأعظمها عند الله تعالى دعوة الناس إلى التوحيد وغرسه في نفوسهم؛ ومن لطيف ما يُشار إليه في هذا المقام: قصة هدهد سليمان، الذي كان سببًا في هداية أمة من الأمم، وهو طائر صغير قد لا يؤبه له، ولقد نوَّه الله بذكره وخلّد قصته في القرآن مع قصة نبيه سليمان، لشرف خبره وعظيم أثره، حيث جاء بالنبأ اليقين: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٢٣] أي: مما يحتاجه الملوك من العظمة والفخامة، ولكنه رأى أمرًا عجبًا فاستنكره قائلًا: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

---

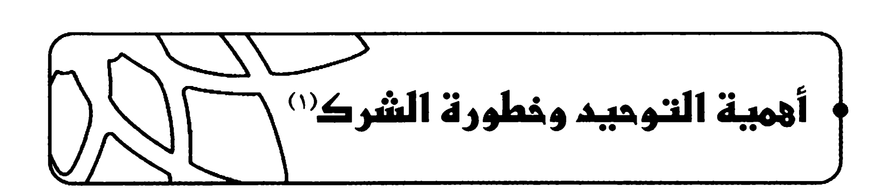
(١) رواه مسلم (٥٣٧).
(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

﴿أَعْمَٰلَهُمْ وَقَوْمَهَا..لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤] ثم أثبت صدق النبأ، وأوصل رسالة سليمان إلى بلقيس في بلاد سبأ، فكان سببًا في هدايتهم أجمعين، وإسلامهم لله رب العالمين.

إن الموحد لله تكون مشاعر قلبه وخلجات ضميره مرتبطة بربه مؤتمرة بأوامره، منتهية عن نواهيه، يحل ما أحل الله ويحرم ما حرم الله، يقف عند حدوده منتصب القامة مرتفع الهامة، لا يركع ولا يسجد ولا ينحني إلا لله رب العالمين، لا يخاف إلا الله، ولا يرجو سواه، ولا يطمع فيما عند الخلق، ولا يتذلل لهم رغبةً أو رهبة، فهو أهنأ الناس حياة، وأصلحهم بالًا، وأرغدهم عيشًا، وأكثرهم طمأنينة وأمنًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

نسأل الله تعالى التوفيق لتوحيده، وذكره وشكره وحسن عبادته، والثبات على طريقه، والديمومة على مرضاته.





أهمية التوحيد وخطورة الشرك[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أراد فقدر، وملك فقهر، وخلق فأمر، عُبد فأثاب وشكر، وعُصي فأمهل وغفر، جعل مصير الكافرين إلى سقر، والمتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

أحمده سبحانه وأشكره على سابغ نواله، وجميل أفضاله، فله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، والآلاء المتتابعة، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا أحدًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، بعثه ربه حين لا عَلَمٌ للباطل دافع، ولا منارٌ للحق ساطع، فبلغ ونصح، ودعا للتوحيد فأفصح، ﷺ تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

عباد الله: إن أوجب الواجبات على العبد معرفة توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ومعرفة ما يضاده من الشرك، ذاك أن التوحيد هو القاعدة والأصل والأساس لدين الإسلام الذي لا يقبل الله عملًا إلا به، ويغفر لمن أتى به إن شاء، ولا يغفر لمن ناقض التوحيد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

---

(١) عبد الرحمن بن علي العسكر.

ولهذا لما اشتملت كلمة الإخلاص على إقرار التوحيد ونفي الشرك كانت أفضل الكلام وأعظمه، من قالها مستيقنًا بها كان أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ، كما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قلتُ يَا رَسُولَ الله! مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»(١). ومن كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة، قال ﷺ: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة»(٢).

فلا يستقيم الأمر إلا بالتوحيد، ولا يستقيم التوحيد إلا بمعرفة الشرك ثم الحذر منه، وهذا القرآن كله آمر بالتوحيد ومحذر من الشرك، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]. معرفة التوحيد والتمسك به ومعرفة الشرك والحذر منه مصلحتها راجعة إلى العبد لا إلى غيره، هو المنتفع بالتوحيد كما أنه المتضرر بالشرك، ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

لا نجاة أيها الناس ولا فوز إلا بالتمسك بسبيل الله تعالى، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

عباد الله: لم يأت نبي من الأنبياء إلا وأمر قومه بإخلاص التوحيد لله ونهاهم عن أن يشركوا معه غيره، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ولقد كتب الله على من خالف هذا النهج وأشرك معه غيره أن كانت عقوبته أفظع عقوبةٍ وأعظمها، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

---

(١) رواه البخاري (٩٩).
(٢) صحيح الجامع (٥١٥٠).

عباد الله: هذا إمام الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ضحَّى بحياته من أجل إقامة التوحيد وقضى عمره في دعوة الناس إلى الملة الحنيفية السمحة، خليل الرحمن الذي كان أمةً وحده، كما قال الله عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠] ها هو يخاف الشرك على نفسه وعلى ذريته، فيسأل ربه قائلًا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

إن أعظم الناس منزلة وأعلاهم درجة عند الله هم أنبياء الله ورسله؛ ولهذا اختارهم لحمل أفضل أمر في هذا الكون وهو الدعوة إلى الله، غير أن أعمالهم لا تنفعهم شيئًا إذا أخلّوا بجناب التوحيد، ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

ولقد اقتضت حكمة الله أن الأرض لا تخلو أبدًا من موحّدٍ إلى أن تقوم الساعة، «لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي علَى الحقِّ ظاهرينَ لا يضرُّهم من خذلَهم حتَّى يأتيَ أمرُ الله»[(١)]، فإذا خلت الأرض من موحدين آن للوضع حينئذٍ أن يتغير وللساعة أن تقوم، يقول الرسول ﷺ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يقالَ في الأرضِ: اللهُ، اللهُ»[(٢)].

أيها الناس: أرأيتم هذه السماوات كيف قامت بدون عماد؟ أرأيتم هذه الأرض كيف بُسطت ورسَت بهذه الأوتاد؟ أرأيتم هذه الجبال ورسوخها وعظمتها ما مالت ولا سقطت منذ أن خلقها الله، كل هذه المخلوقات العظيمة يكاد يختلّ نظامها، وتهتز أركانها، ويتزلزل بنيانها؛ من الإشراك بالله تعالى، واقرؤوا إن شئتم قول الله سبحانه وتأملوه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم:٩٠]، أمور فظيعة تقع، ما سببها؟ ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩١-٩٢]، حين وُصِف الله عَزَّ وَجَلَّ بالحاجة إلى الولد، وهل يحتاج إلى الولد إلا الضعيف؟!

(١) صحيح الترمذي (٢٢٢٩).

(٢) رواه مسلم (١٤٨).

أنى يستقيم نظام الكون إلا بإله واحد؟ ﴿أَمِ اتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢١-٢٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١]..

عباد الله: لما كان الأمر بهذا الصورة جاء الإسلام مانعًا من كل ما يكون سببًا للإشراك بالله، لا نتوكل إلا على الله، لا نذبح إلا له، لا ننذر إلا له، لا ندعو إلا إياه، لا نطلب العون إلا منه، من حلف بغير الله فقد أشرك، ولذا لما سمع الرسول ﷺ رجلًا يحلف بأبيه قال ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»(١). وروى الترمذي وأبو داود والحاكم وصححه: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(٢).

فاتقوا الله عباد الله وأطيعوه، وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه، إن ربي غفور رحيم.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٦) ومسلم (١٦٤٦).

(٢) مسند أحمد (٨/ ٢٢٢) وصححه أحمد شاكر.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي وعد الموحّدين بالجنة، وتوعّد المشركين بالنار، أحمده سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، حمى جناب التوحيد عن كل ما يخل به ويشينه، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

يا أيها الناس: إن شر البلية ضلال بعد هدى، وعمًى بعد بصيرة، وغيّ بعد رشد، ولقد خلق الله الخلق يميلون بفطرهم إلى التوحيد دين الفطرة، فانحازت الشياطين بفريقٍ منهم وحوّلوهم عن السداد، وانحرفوا بهم عن طريق الرشاد، يقول الله سبحانه في الحديث القدسي: «خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين»(١).

وإن من الباطل الذي زينته الشياطين وأوقعوا فيه ذوي العقول الضعيفة من الإنس الغلوَّ في الصالحين والأولياء في قالب محبتهم والسير على منهاجهم أو التبرك بآثارهم.

عباد الله: إن للشيطان خطوات، وإن الشرك لا يقع في الأرض جملةً واحدةً، بل تقع ذرائعه إليه أولًا، ويستسهل الجهال الوسائل الموصلة إليه فيزينها الشيطان على صورة قُربات إلى الله، وهكذا حتى يسقط الناس في وحل الشرك وهم لا يشعرون، وانظروا إلى قوم نوح، حين جاء يدعوهم إلى عبادة الله وترك ما يعبدونه من الأصنام: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلمُ عُبِدَتْ»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٤٠).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما صور أوائلهم الصور ليستأنسوا بهم ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها)(١).

عباد الله: لقد حذر النبيّ ﷺ قبل موتِه من أمورٍ هي ذريعة للشرك ووسيلة إليه؛ خشية أن تقع في أمته، كالغلو فيه فضلًا عن غيره من الصالحين، فقد روى ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبيّ ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(٢).

كما حذر لما نزل برسول الله ﷺ المرض جعل يطرح خميصةً على وجهه ويقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»(٣)، بل لقد حذر النبي ﷺ من الغلو بجميع أنواعه فقال: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»(٤).

وإن من ذرائع الشرك والوسائل المفضية إليه: ما يقع من مخالفات بعض الجهال في السعي لحل المشكلات والتداوي من الأمراض، بوسائل غير صحيحة شرعًا ولا عقلًا؛ كل ذلك سعيًا للدواء وطمعًا في الشفاء، كتعليق التمائم والحروز، والذهاب إلى العرافين والسحرة والمشعوذين.

عباد الله: ما من أحد إلا وهو عرضة للبلاء والمرض، وقد نُهينا عن فعل ما يضر ولا ينفع، فقد روى الحاكم وابن حبان عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط، فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعتَ تسعة وتركتَ هذا! قال: «إن عليه تميمة»، فأدخل يده فقطعها، فبايعه ﷺ، ثم قال ﷺ: «من علق تميمة فقد أشرك»(٥).

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٨).
(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).
(٣) رواه البخاري (١٣٩٠) ومسلم (٥٢٩).
(٤) مسند أحمد (٥/ ٨٥) وصححه أحمد شاكر.
(٥) ابن حبان (٦٠٨٦) الحاكم (٨٢٨٩) وصححه الألباني.

فأي فائدة تحصل من خيوط تربط أو خرزٍ يجمع أو حلقة توضع في اليد أو الرجل أو حجب أو حروفٍ مقطعة؟! وهل أحدٌ يشفي سوى الله؟ كلا؛ كما قال إمام الحنفاء وأبو الأنبياء: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]. إنما ذلك شرك وضلال ناشئ عن فساد في الفطرة والعقول.

عباد الله: لقد جُبِل الإنسان على الذهاب إلى أصحاب العلاج والأطباء، غير أن الدواء من الطبيب والشفاء من القريب المجيب سبحانه، فينبغي أن يكون التوكل واعتماد القلب على الله لا على الوسيلة المتمثلة في الطبيب أو الدواء.

ومن صور الشرك ووسائله إتيان الكهنة والعرافين وسؤالهم عن أمور الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، قال ﷺ: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»[1]، وقال صلوات ربي وسلامه عليه: «من أتى كاهنًا أو عرّافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمدٍ»[2].

ويا لله كم نُكب التوحيد من عرَّاف شاع أمره بين الناس، وكم من الناس اليوم يترددون على السحرة والعرافين، ويسألونهم عن ما لا يعلمون، ويطلبون منهم ما لا يملكون، ويلجؤون إليهم فيما ليس يقدرون، ولما ناظر بعض أهل العلم عرافًا من العرافين، فقال له العالم: إني أريد أن أسألك سؤالًا، فقال العراف: ما هو؟ فقال العالم: واعجبًا إنك كنت عرافًا تعلم الغيب، فكيف لم تدر ما هو السؤال قبل أن اسألك إياه؟! ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

ومن ذلك: التشاؤم بالأيام والشهور أو التشاؤم من المرضى أو الطيور، وفي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»[3]، وفي مسند الإمام

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٤٧).

(٣) رواه البخاري (٥٧٥٧) ومسلم (٢٢٢٠).

أحمد: «من رَدَّتْهُ الطيرة عن حاجته فقد أشرك»[1]، إلى غير ذلك من أمور هي عند بعض الناس صغيرة، ولكنها عند الله كبيرة.

يقول عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنما تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروةً، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[2]، ويقول حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[3].

ومن هنا كان لا بد من معرفة خطورة الشرك، كما قال الشاعر:

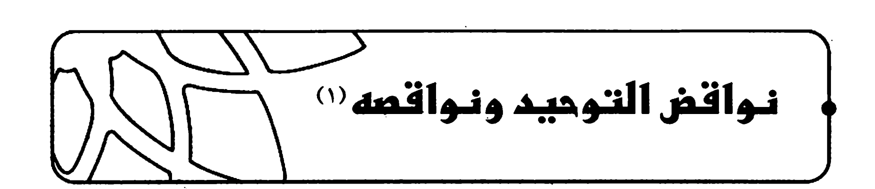
عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوَقِّيْهِ ... ومن لا يعرفُ الشرَّ من الخيرِ يقعْ فيهِ

فاتقوا الله عباد الله: وأخلصوا له العبادة، واجتنبوا كل وسيلة قد تقدح في إيمانكم وتوحيدكم، وتُفضي إلى الإشراك بالله، واعلموا أن وراءكم جنةً ونارًا، وأن أفضل الأعمال الموصلة إلى الجنة توحيد الله، وأن أشنع الأعمال الموصلة إلى النار الإشراك بالله، يقول الرسول ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار»[4].

هذا وصلوا وسلّموا على نبي الهدى، وإمام الورى، محمدٍ ﷺ...



(١) صحيح الجامع (٦٢٦٤).
(٢) ذكره ابن تيمية رحمه الله تبارك وتعالى في مواضع من كتبه، منهاج السنة (٢/ ٣٩٨-٤/ ٥٩٠) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١-١٥/ ٥٤).
(٣) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).
(٤) رواه مسلم (٩٣).



نواقض التوحيد ونواقصه[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أراد فقدر، وملك فقهر، وخلق فأمر، عُبد فأثاب وشكر، وعُصي فأمهل وغفر، جعل مصير الكافرين إلى سقر، والمتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

أحمده سبحانه وأشكره على سابغ نواله، وجميل أفضاله، فله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، والآلاء المتتابعة، لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، هل تعلم له سميًا؟!

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا أحدًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، بعثه ربه حين لا عَلَمٌ للباطل دافع، ولا منارٌ للحق ساطع، فبلغ ونصح، ودعا للتوحيد فأفصح، ﷺ تسليمًا كثيرًا..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن يكن من شيءٍ أولى بالنصح به والابتداء فإنه التقوى؛ لأن تقوى الله سبحانه هي الطريق الموصل إلى المقامات العَلِيَّة، والأحوال الزكية، وبها تقطع حُمَةُ الخطايا، فهي النجاة غدًا، والمناجاة أبدًا، والعاقبة للتقوى.

---

(١) بلال بن عبد الصابر قديري.

عباد الله: يوقن العاقل الحصيف أن الابتلاء بالأمراض والأسقام، والعلل في الأبدان، سنة ربانية في بني البشر، إذ هي من مقتضيات الحكمة الإلهية: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]. ثم إن البشر قاطبة مجمعون إجماعًا لا خلاف فيه أن الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، والمتأمل سيجد الأمراض والأسقام بشتى الأنواع والمظاهر تسري في بني آدم، لا يخلو منها عصر، ولا ينفك منها مصر ولا يكاد، إلا من رحم الله. ويكفي المسلم أنها مكفرات للخطايا رافعة للدرجات، ولكن ثمة أمراضًا أخرى ليست بمكفرات، بل هي مهلكاتٌ موبقات، أصابت في أعقاب الزمن ألوفًا من بني الإسلام بل يزيدون، فأهلكت أممًا وأعقبت ألمًا. لا ينفع مع ذا الداء دواء طبيب، ولا مصل عقار، ويا له من مرض مخوف، يفتك بآخرة العبد ودنياه، ويوبقه بما كسبت يداه. إن هذا الداء العياء، ليبدو ظاهرًا بجلاء، متكررًا باستعلاء، في صور متعددة، وفي بقاع شتى من ديار الإسلام، من عكوف ألوفٍ حول القبور، يدعون بها، أو عندها، أو قُلْ: يدعونها، ومن ثم يقرِّبون لها أو عندها النذور، ويَفِدُونَ إليها للموالد والأعياد، فيا لله ما أشده من مرض أهلك وأوبق الكثيرين!

أيها المسلمون: إن الشرك بالله في شتى المظاهر والصور، مناقضٌ للُباب الرسالات السماوية من لدن آدم إلى محمد -صلى الله عليهم وسلم-، إذ توحدت على كلمة التوحيد دعوتهم وكلمتهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وعلى كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» شيَّدَ المصطفى ﷺ دعوته، وأقام ملته، فالسيرة النبوية من أولها إلى آخرها مكّيها ومدنيها، حضرها وسفرها، سلمها وحربها، كانت دعوة إلى التوحيد، لم تخل فترة من حياته من إعلان التوحيد والدعوة إليه: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»(١). وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي الحادي الذي لا يُملُّ نداه، ولا يتلاشى صداه، ولا ينفك عنها المرء حتى يرحل عن دنياه، ألم تسمع قول النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله دخل الجنة»(٢)، ولكن مجرد النطق بـ«لا إله إلا

(١) رواه أحمد (٢٣١٩٩) وابن حبان (٦٥٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦) وصححه الألباني.

الله» عاريًا عن شروطٍ ومستلزماتٍ لا يصح إلا بها هُو السبب في أدواء القبورية وأضرارهم.

«لا إله إلا الله» علامة الدخول في التوحيد، لا تنفع قائلها إلا باجتماع شروطٍ سبعة: العلم بها المنافي للجهل، واليقين بفحواها المنافي للشك بمحتواها، والإخلاص في قولها المنافي للرياء والشرك، ومن ثم الانقياد لحقوقها منافيًا للترك، والقبول لها قلبًا وقالبًا منافيًا للكذب، ويحبها ولا يقدِّم عليها غيرها منافيًا للبغض، نظم الحافظ الحكمي شروطها السبعة في قوله:

العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادر ما أقول

والصدق الإخلاص والمحبة ... وفقك الله لِما أحبه

عباد الله: هذا الموضوع تتعدّد أفراده وتتنوع متعلقاته، ويطول شرحها، ولكن حسبنا ذكر المهمات، وقديمًا قيل: «اللبيب بالإشارة يفهم»، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن السوار ما أحاط بالمعصم.

إن الأمة أجمعت على أن العبادة حق الله ومستحقه، لا يجوز صرف شيءٍ منها لغير الله، و«الدعاء هو العبادة» كما صح عن رسول الله ﷺ(١).

وربنا -جل وعز- يقول في محكم التنزيل: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦]. والظالمون هم المشركون.

فماذا عسانا أن نسمّي قول ناسٍ: (يا رسول الله المدد المدد)، (يا رسول الله عليك المعتمد)؟!

أو أن يُنادى بعض الأموات عند الكروب والمحن: (يا جيلاني، يا رفاعي، يا شاذلي)؟!

وربنا جل وعلا حكم في المسألة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩) وصححه الألباني.

إن العكوف على قبور الأموات وسؤالهم من دون الله، لم يكن إلا سببًا من أسباب البلاء والنكبات التي حلت في ديار المسلمين، خذ على ذلك مثالًا: فحين هجم التتار على ديار المسلمين وقتلوا منهم مئات الآلاف، وأهلكوا الحرث والنسل، كان ضعف التوحيد في القلوب قد بلغ مداه، والتعلق بغير الله وصل منتهاه، حتى لقد قال بعضهم من الهلع:

يا خائفين من التتَر ... لوذوا بقبر أبي عمر

عوذوا بقبر أبي عمر ... ينجيكم من الضرر!!

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]. إن الجهل بالله جعل فئامًا ينحازون إلى القبور، ويتضرعون عند عتباتها، ويلجؤون إليها لتفريج الكروب، وكثر المروجون لها والداعون إليها من القبوريين والمخرفين، ممن يخترعون حكايات سمجة عن القبر وصاحب القبر وكراماته زعموا، ويطوفون بالقبر كما يُطاف بالكعبة المعظمة، ويدفعون الأموال الطائلة على تلك الأضرحة، حتى ليجتمع في صناديق بعض المقبورين أموال تعد بالملايين، يتقاسمها الخدم والسدنة والحُجَّاب، الذين جعلوا هذه الأضرحة مجالًا لأكل أموال الناس بالباطل، والاسترزاق من الجهال والمغفلين، ولقد أحسن حافظ إبراهيم حيث قال:

أَحْياؤُنَا لاَ يُرْزَقُونَ بِدرهمٍ ... وبألفِ ألفٍ تُرْزَقُ الأمواتُ

مَنْ لي بحظِّ النائمين بِحُفرةٍ ... قامَتْ على أَحْجارِها الصَّلواتُ

يَسعَى الأنامُ لها، ويَجْري حَولَها ... بَحْرُ النُّذُورِ وتُقرَأ الآياتُ

ويقالُ: هذَا القُطْبُ بابُ المُصطَفَى ... ووَسِيلَةٌ تُقضَى بهَا الحاجاتُ

إن بناء المساجد على القبور، أو إدخال القبور إلى المساجد مدعاة لتعظيمها وعبادتها من دون الله، ورسول الله ﷺ يقول: «لا تتخذوا قبري عيدًا»[1]، فقبر غيره أولى بأن لا يتخذ عيدًا، فأي مسجد كان به قبرٌ ينظر إلى الأقدم فيبقى، وإلى المحدث منهما فيهدم أو ينبش. وكان آخر عهده ﷺ قبل موته أن قال: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم

(١) رواه أبو داود (٢٠٤٢) وأحمد (٨٧٩٠) وصححه الألباني.

مساجد»[1]، يحذر من مثل ما صنعوا، والأحاديث الصحاح دلت على معان هي تحريم الصلاة إلى القبور، أو السجود عليها، أو بناء المساجد عليها؛ لأن ذلك مدعاة للتعظيم: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

ومن المضحكات المبكيات: أنه صار لكل ضريح زوار وأنصار يزعمون أنه أسرع إجابة وأقدر على قضاء الحوائج من غيره، وتقوم على إثر ذلك مفاخرات بين أولئك الجهال، وهذا معلوم معروف في بعض بلاد الإسلام التي تكثر فيها هذه الأضرحة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن طريف ما يحكى أن أحد الظرفاء جلس ذات يوم في مزارٍ ومشهد، فجاء من يطلب من صاحب القبر النجدة لامرأته التي تلد ولادة متعسرةً ثم انصرف، فجاء آخر يطلب النجاح لابنه في الامتحان، فقال الرجل الظريف: إن صاحب القبر ليس هنا، حيث ذهب لتوليد امرأة حامل فلعله أن يعود من قريب فانتظره.

أيها الناس: صورٌ أخرى لتلك الشرور وعظائم الأمور التي تطفح بها جنبات هذه الأضرحة، وهو: ما يعرف بالموالد، فيقام للولي كل عام احتفال يسمى مولدًا، وقد يكون للولي الواحد عدة موالد، وكل جماعة تقيم لشيخها مولدًا، وهل تصدقون إن قلت لكم: يبلغ عدد الزائرين لمولد البدوي كل عام مليونين فقط؟! وقل مثل ذلك عن مشهد الأنبابي، ويحصل في موالدهم من الفجور ما الله به عليم، حتى إن الناس وجدوا حول قبر الأنبابي ألف وعاء خمرٍ فارغ، وما يحكى عن الفواحش فكثير لا يحصى، وليس هذا فحسب بل أعظم من هذا هولًا يحصل في موالد متعددة وفي أرجاء شتى، فأين أهل الاحتساب من هذه القبور والأضرحة؟! يهدمونها ليهدموا معها بنيانًا من الوهم قائمًا، فعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما بعثني به رسول الله ﷺ: أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّيته؟»[2]، وتاريخ المسلمين بمثل هذا مليء، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

(١) رواه البخاري (١٣٩٠) ومسلم (٥٢٩).
(٢) رواه مسلم (٩٦٩).

حوادث سنة (٢٣٦هـ) في البداية والنهاية[1]: (فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي ابن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور، ونودي في الناس: من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبنا به إلى المطبق) أي: السجن. ولا غرو في ذلك ولا عجب؛ إذ إن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل مثل ذلك بالشجرة التي بايع الناسُ النبيَّ ﷺ تحتها بالحديبية عام خمس من الهجرة، فلما بلغ عمر أن ناسًا يذهبون إليها ويصلون عندها أمر بها فقطعت، فرضوان الله على عمر.

ومن ذلك: ما قاله أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبائي، أحد الصالحين ببلاد إفريقيا، في المائة الرابعة، كان لديهم عين تسمى: عين العافية، هكذا سماها الناس، قد فتنوا بها، يأتونها من الآفاق من به مرض متعسر، ومن يريد نكاحًا، أو ولدًا وتعذر عليه، يقول: امضوا بنا إلى العافية، قال أبو عبد الله: فإنا في السحر قبل الفجر ذات ليلة إذا سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها، وأذن الصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأسًا).

أيها الناس: إن الداعي إلى هذا التعظيم والانكباب والانبطاح على القبور والمقابر، إنما هو صور من الكرامات المزعومة اختلقوها، ثم غرهم الشيطان فزعموا أن الولي خير من النبي، فقال قائلهم:

مقام النبوة في برزخٍ فُوَيق الرسول ودون الولي

وما علم هؤلاء الأغرار أن نبيًا واحدًا خير من الأولياء جميعًا، كيف لا: والله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ؟! ومن أولئك الضالين المضلين: «الحلاج» الذي كان يدفن شيئًا من الحلوى والخبز والشواء في الصحراء، ثم يدعو أتباعه للخروج معه إلى البرية على وجه السياحة، ثم إذا جاؤوا المكان قال بعض المقربين العالمين بالحيلة: نشتهي كذا وكذا، فيبتعد عنهم ويصلي بالموضع المدفون فيه ركعتين ويأتيهم به، حتى عظم أمره واستفحل خطره حتى قتل.

فـ«لا إله إلا الله» أين عقول وألباب هؤلاء الأتباع للمرتزقة حول المشاهد والأضرحة؟! ولتكتمل الصورة ليُعلم أنه لا يزال بين ظهراني الناس أولياء مزعومون يُلتَجأ إليهم عند

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣١٥).

المهمات، فيفتنون الناس بالتمائم والحروز تعلّق بالأبناء والنساء، تدفع العين أو تجلب الخير أو تدفع الشر، والله يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٧]. وقد رأى النبي ﷺ رجلًا في يده حلقة من صفر، فقال: «ما هذا؟» قال: من الواهنة، قال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»[١]، وعنه ﷺ أيضًا أنه قال: «من تعلق تميمةً فلا أتم الله له»[٢]، وقال: «من تعلق شيئًا وكل إليه»[٣]، ومن هنا فإن مجالس تحضير الأرواح وقراءة الكف والفنجان التي تكشف ما سيجده عن قريب أو بعيد، ما هي إلا ضلالة من الإثم مروعة، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[٤]، وهؤلاء المفتونون بمستقبل الأبراج الذين يزعمون السعادة كامنة في برج الجدي، والغنى مستقرًا لأصحاب برج العقرب، وأما أصحاب برج الجوزاء فيا لتعاسة الحظ وخيبة الأمل، ما هؤلاء من الضلال ببعيد: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨]. ومن مكتشفات القرن العشرين ومخترعاته: أبواب ضلالةٍ، فتحت مصارعها، لا تباع بالأموال وإنما تبذل بالمجان، وتُعرض على الناس في بيوتهم صباحًا ومساءً، في عروض بهلوانية والعاب سحرية، وخُدعٍ من أكلٍ للزجاج والتهامٍ للّهب وبقرٍ للبطون بالأسنة، وصور أخرى من هذه المخادعات، أضلّت وأغوت الكثيرين، ألا فالحذر الحذر من هذه السِحريَّات وإن غُيِّرت مسمياتها. هذه صورٌ لنواقض التوحيد ونواقصه، والرجاء باقٍ والأمل في رحمة الله أن تزال من ديار المسلمين عاجلًا غير آجل، عن قريب لا من بعيد، إنه ولي ذلك والقادر عليه. قد قلت ما قلت، إن صوابًا فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان.

---

(١) رواه أحمد (٢٠٠١٤).

(٢) رواه أحمد (١٧٤٤٠) وابن حبان (٦٠٨٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٧٢) وحسنه الألباني.

(٤) رواه ابن ماجة(٦٣٩) وأحمد (٩٥٣٢) وصححه الألباني.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، أنزل كتبه وبعث رسله إعذارًا وإنذارًا، ونحمده ونستغفره إنه كان غفارًا، ونثني عليه بما هو أهله ونشكره، أسبغ علينا نعمه مدرارًا، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة من يرجون لله وقارًا، ونشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، نصب به الدليل، وأنار به السبيل، فتبدلت الظلمات أنوارًا، صلى الله عليه وعلى أصحابه كانوا على الهدى أعلامًا وعلى الحق منارًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مهاجرين وأنصارًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما أعقب ليلٌ نهارًا. أما بعد: فلعل قائلًا أن يقول: ما الداعي لمثل هذا الحديث ونحن نرتوي في هذه البلاد من معين التوحيد ونستضيء بأنواره؟! ولكنه إعذارٌ وإنذارٌ لكل من علم شيئًا من هذا أو شاهده أن لا ينكر؛ لأن السكوت على من وقع في ناقضٍ للتوحيد رضاءٌ له بنار جهنم، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]. إن هذا الكلام يقال والعيون منصبة على معين السنة النبوية التي ورد فيها عن الحبيب ﷺ قوله: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوسٍ عند ذي الخلصة»[1]، وذو الخلصة: طاغية دوس وصنمهم الذي كانوا يعبدونه في الجاهلية بتُبالة، وهي قرية بين الطائف واليمن.

عباد الله: إن مما ينبغي علينا فعله: أن نبذل الغالي والنفيس في سبيل حماية التوحيد وترسيخه في القلوب، كما أرادت الشريعة أن تحميه، وألا نؤثر عليه شيئًا من المغانم الدنيوية الفانية، فإن النبي ﷺ قد خيّرته قريش بين أن يُعطى السيادة والملك والمال وما شاء من نعيم الدنيا على أن يدَع دعوة التوحيد، فهل أطاعهم في ذلك؟ هل أجابهم إلى شيء مما أرادوه؟!

ولذا لما غزا الإمام محمود الغزنوي رَحِمَهُ اللَّهُ بلاد الهند، وقدم على صنم عظيم لهم يقال له: سومنات، يحجون له من أطراف الهند، وتقرّب إليه القرابين، وتذبح عنده الذبائح، ويؤتى إليه بالنذور، وأنواع الأموال، ويتمسحون به كما يرون يتمسحون بالبقر اليوم، فأراد محمود الغزنوي أن يحرق الصنم ويكسره، فبذل له أصحاب الصنم أموالًا عظيمة وثروة طائلة على

---

(١) رواه البخاري (٧١١٦) ومسلم (٢٩٠٦).

أن يتركه لهم، فقال له بعض جند المسلمين: خذ المال، وانتفع به وانفع به المسلمين، واترك لهم الصنم. قال: (سأستخير الله، وأنظر في أمري. فلما أصبح جاء إليه فهدمه وقال: لأن يقال يوم القيامة: هذا محمود الذي كسر الصنم، أحب إليّ من أن يقال: هذا محمود الذي أخذ المال!) فلما كسره وجد عنده وتحته كنوزًا عظيمةً تعدل أضعاف أضعاف ما بذلوه له، وهكذا تمضي سنة الله، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

عباد الله: إن ربنا سبحانه وتعالى عظيم، وإنه ينبغي لنا أن نحتاط في عباراتنا، ونحن نتكلم في حق الله سبحانه وتعالى، لا نسب الدهر، ولا نسب الريح؛ لأن الله يصرف الدهر، والزمان، وهو خالق الريح، ومصرفها.

اللهم إنا نعوذ بك من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين. اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم، ونعوذ بك اللهم لما لا نعلم.

اللهم اجعل آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن «لا إله إلا الله».



التحذير من أصناف الشرك(1)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه، ونستغفره ونثني عليه الخير كله، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المعبود بحق سبحانه، لا ند له ولا شريك ولا ولد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خير من قام بحق ربه عليه، فعبد ربه حتى أتاه اليقين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، الذين عرفوا ما لربهم من الحق، فقاموا به خير قيام، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

عباد الله: اتقوا الله في الورود والصَدَر، وراقبوه فيما بطن من الأمور وظهر، واعبدوه حق عبادته في الآصال والبُكر، واشكروا نعمه فقد تكفّل بالمزيد لمن شكر، وخافوا مقامه واحذروا بطشه كل الحذر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها المسلمون: اقدروا الله حق قدره، وانظروا في دلائل عظمته، وتفكروا في آياته وآلائه وملكه وسلطانه، وعجائب خلقه وإبداعه؛ لتزدادوا به إيمانًا، وتخرّوا له إذعانًا وخضعانًا.

يقول تبارك وتعالى في كتابه المبين: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠]، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

[آل عمران:١٩٠]، خلقٌ هائلٌ عجيب، وكونٌ عظيم مَهيب، شرق وغرب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وحبّ ونبات، وجمع وأشتات، وأحياء وأموات، وآيات في إثرها آيات، فسبحانه من إله عظيم، أوضح دلالته للمتفكرين، وأبدى شواهده للناظرين، وبين آياته للغافلين، وقطع عذر المعاندين، وأدحض حجج الجاحدين، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

يقول عبد الله بن مسعود: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» أخرجه الدارمي.

ويقول النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»(١). وروى ابن جرير في تفسيره بسنده عن ابن عباس أنه قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم».

أيها المسلمون: وإن من دلائل عظمة المولى وقدرته جل وعلا ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود قال: جاء حبرٌ من اليهود إلى رسول الله فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يهزهنّ ثم يقول: «أنا الملك، أنا الملك»، يقول عبد الله بن مسعود: فلقد رأيت النبي يضحك حتى بدت نواجذه تعجبًا وتصديقًا لقوله، ثم قال النبي: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧](٢).

وقال: «أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»(٣).

---

(١) السلسلة الصحيحة (١٠٩).
(٢) رواه البخاري (٧٥١٣) ومسلم (٢٧٨٦).
(٣) صحيح أبي داود (٤٧٢٧).

وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير»(1). فسبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة لا إله إلا هو الحي الذي لا يموت.

أيها المسلمون: تلك بعض النصوص التي تدل على آيات الله الظاهرة، وقدرته القاهرة، وعظمته الباهرة، فهل قدرنا الله حق قدره؟! هل عظمناه حق تعظيمه؟! هل قمنا بحقه جل وعلا علينا، ونحن خلقه وعبيده؟!.

يقول معاذ بن جبل: كنت ردف رسول الله على حمار يقال له: عُفير، فقال: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله عَزَّوَجَلَّ أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»(2).

أيها المسلمون: إن من أظلم الظلم وأعظم الإثم الإشراك بالله، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:72]، ويقول جل وعلا: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:30-31].

عباد الله: احذروا الشرك وطبائعه، ووسائله وذرائعه، واعلموا أن العلم به طريق الخلاص منه، يقول حذيفة بن اليمان: «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. متفق عليه».

أيها المسلمون: إن مما يؤسف له وقوع بعض المسلمين ممن قصر في باب العلم باعهم، وقلّ في شرع نبيهم محمد نظرهم واطلاعهم، وقوعهم فيما يناقض أصل التوحيد المقصود، أو كماله

(1) رواه البخاري (4800).
(2) رواه البخاري (6500) ومسلم (30).

المنشود، مما يوجب التنويه والتنبيه على مسائل وأحكام في توحيد العبادة والطاعة للملك العلام، جاءت براهين القرآن الساطعة، وحجج السنة القاطعة ببيانها أيما بيان، وإيضاحها بما يروي الظمآن، ويغيث اللهفان، ويهدي الحيران، ويظهر أولياء الرحمن على أولياء الشيطان، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

أيها المسلمون: إن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ والمباني، حتى ولو لم يُقصد قبيح المعاني، والحلف بغير الله شرك أصغر، وصاحبه على إثم وخطر، وإذا قام بقلب الحالف أن المحلوف به يستحق التعظيم كما يستحق الله صار شركًا أكبر، يقول رسول الهدى: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(١)، وقال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»(٢).

فلا يجوز الحلف بنبي أو ولي أو جني أو الكعبة أو الشرف أو الحياة، ولا يجوز الحلف إلا بالله أو أسمائه أو صفاته، ومن حلف بغير الله وجب عليه التوبة وعدم العودة.

أيها المسلمون: اجتنبوا الألفاظ الشركية المستشنعة، والكلمات المنهية المستبشعة، المقتضية مساواة الخالق بالمخلوق، كقول: ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، وتوكلت على الله وعليك، وما جاء في معناها. فقد جاء أن رجلًا قال للنبي: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله ندًا؟! بل ما شاء الله وحده»(٣).

عباد الله: توسلوا إلى الله بأسمائه الحسنى وصفات العلى، توسلوا إليه بإظهار حاجتكم وضعفكم وافتقاركم إليه جل وعلا، توسلوا إليه بالعمل الصالح الحميد، وأعظمه تجريد التوحيد من ألوان الشرك والتنديد. توسلوا إليه بالتوسلات المشروعة، وإياكم والألفاظ المبتدعة والتوسلات المخترعة، التي هي من ذرائع الإشراك برب الأملاك والأفلاك، كالتوسل بجاه النبي أو حرمته أو بركته أو حقه، أو حق الأولياء، أو غير ذلك من التوسل الممنوع والدعاء غير المشروع.

---

(١) صححه الألباني في إرواء الغليل (٢٥٦١).
(٢) صحيح أبي داود (٣٢٤٨).
(٣) السلسلة الصحيحة (١٣٩).

أيها المسلمون: احذروا ما يفعله الطغام وبعض العوام من التعلق بالتمائم والعزائم، فيلبسون الحلق والخيوط، وينظمون الودعات، ويعلقون الحروز والعظام والخرزات، ويحملون أنياب الذئاب وجلود الحيوانات، يعلقونها على الرقاب والدواب والأبواب، معتقدين دفعها الضراء وبوائق اللألواء، ورفعها البأساء وطوارق البلاء، ومنعها عين العائنين وحسد الحاسدين، وكل ذلك من الإشراك الموقع في الردى والهلاك؛ لأن الذي يجب أن يلجأ إليه، وأن تنزل المهمات والملمات عليه، إنما هو الله جل في علاه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٧-١٨].

أيها المسلمون: إن تلك الخرافات والمعلقات لا تعصم من الآفات، ولا تحمي من الأمراض والبليات، والواجب نبذها ونزعها وطرحها وقطعها، قال عليه الصلاة والسلام: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»[1]، وله أيضًا أن رسول الله أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وتركت هذا! فقال: «إن عليه تميمة»، فأدخل يده فقطعها فبايعه بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، وقال: «من علق تميمة فقد أشرك»[2].

ورُوي أن حذيفة بن اليمان رأى رجلًا وفي يده خيط من الحمى رُقي له فيه، فقطعه حذيفة وقال: «لو مت وهو عليك ما صليت عليك»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

أيها المسلمون: إياكم والذهاب إلى السحرة والكهان والمشعوذين والرَّمَّالين والعرافين والمنجمين، وأهل الأبراج وقراءة الكف والفنجان والحازرين، الذين يدعون علم المغيبات، والكشف على المضمرات، فإنهم أهل غش وتدليس، وخداع وتلبيس، ونمنمات وتمتمات، وخرافات وخزعبلات، واستعانة بالجن واستغاثات، وحُجب تحوي حروفًا وأرقامًا

(١) ابن حبان (٦٠٨٦) وقال ابن باز: (ثابت).

(٢) السلسلة الصحيحة (٤٩٢).

وإشارات، بل إنهم يطلبون ممن يـأتيهم ذبـح حيوانـات بـألوان وصـفات، يلطخـون بـدمها الأجساد والحيطان والعتبات، وهم في ذلك يتقربون للجان، ويعبدون الشيطان، ويشـركون بالرحمن، وقد قال: «لعن الله من ذبح لغير الله»(١).

ومن تلبيسهم وتدليسهم إعطاؤهم من يأتي إليهم أشياء تدفن وتغـرق، وأخـرى تسـجر وتحرق، إلى غير ذلك من دخائلهم الكدرة، ودفائنهم القـذرة، فاحـذروا عبـاد الله إتيـانهم أو سؤالهم أو تصديقهم، فقد قال الصادق المصدوق: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبـل لـه صلاة أربعين ليلة»(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقـول فقد كفر بما أنزل على محمد»(٣).

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له»(٤).

أيها المسلمون: حافظوا على صفاء التوحيد من الكدر، وكونوا من لوثـات الشـرك عـلى حذر، واعلموا أنه لا يجوز التبرك بشجرٍ أو قبرٍ أو حجرٍ، أو بقعة أو غارٍ أو عينٍ أو أثر، فعـن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله إلى حُنين، وكان للكفـار سـدرة يعكفـون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم - أي تبركًا بها - يقال لها: ذات أنواط، فمروا بسدرة خضـراء عظيمة، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهـم ذات أنـواط؟ فقـال رسـول الله: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى»: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، «إنها لسنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة»(٥).

أيها المسلمون: اعلموا أنه لا يجوز التبرك بقبر النبي محمد، ولا مكان ولادته، ولا غيره من الأنبياء، ولا يجوز التبرك بذوات الصالحين وآثـارهم وثيـابهم ومـواطن عبـادتهم، ولا يجـوز

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨).
(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠).
(٣) صححه موقوفًا في صحيح الترغيب (٣٠٤٨).
(٤) مجموع فتاوى ابن باز (٨/ ١٦١) إسناده جيد.
(٥) حسّنه الألباني في تخريج كتاب السنة (٧٦).



التبرك بجدران المساجد أو ترابها أو أبوابها بتقبيلها أو التمسح بها، حتى ولو كان المسجد الحرام أو مسجد المصطفى، ويُشرع تقبيل الحجر الأسود، ويُشرع مسح الركنين اليمانيين الحجر الأسود والركن اليماني، لقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لم أر النبي ﷺ يمسح من البيت إلا الركنين اليمانيين» متفق عليه.

ولا يُقصد بذلك التبرك بهما، وإنما يقصد التعبد والاتباع، كما قال عمر بن الخطاب: «والله إني لأقبّلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك».

وبالجملة فلا يجوز التبرك بشيء إلا بدليل من كتاب الله أو سنة رسوله يدل على جواز التبرك به.

أيها المسلمون: إن من الإشراك الموقع في الردى والهلاك الاستغاثة بالأموات ودعاءهم ونداءهم وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الشدائد والكربات، والتقرب لهم بالذبح والنذور، وبالطواف على القبور، وبتقبيل الأعتاب والجدران والستور، وبالعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب عليها، إلى غير ذلك مما هو من عمل عباد الأوثان وأولياء الشيطان، وهو من الشرك الأكبر، المحبط للعمل المصادم لكتاب الله وسنة سيد البشر، يقول جل وعلا: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

أيها المسلمون: إن الغلو في قبور الأنبياء والصالحين باتخاذ المساجد والقباب عليها وتزيينها وجعل الستور عليها من كبائر الذنوب ووسائل الشرك؛ لما ينتج عن ذلك من تصييرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وفي البخاري أن عائشة وعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: لما نزل برسول الله الموت طفق يطرح خميصة على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[2].

أيها المسلمون: إن البناء على القبور وتجصيصها وتقصيصها والكتابة عليها أمر غير مشروع، وفي ديننا مرفوض وممنوع، فعن جابر قال: «نهى رسول الله أن يُجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يبنى عليه». رواه مسلم. وزاد الترمذي وغيره بإسناد صحيح: «وأن يُكتب عليه». وفي صحيح مسلم: أن علي بن أبي طالب قال لأبي هياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله؟! أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته».

عباد الله: إن قصد عبادة الله عند قبر نبي أو ولي وسيلة من وسائل الشرك، ومن اتخاذها مساجد، حتى ولو لم يبن عليها مسجد، ولذا لا يُشرع الدعاء عند القبور ولا عند قبر النبي، وليس ذلك من مواطن الإجابة، فقد روى أبو يعلى والحافظ الضياء في المختارة أن علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله؟! «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»[3].

جعلني الله وإياكم من الهداة المهتدين، المتبعين لسنة سيد المرسلين، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥) ومسلم (٥٣١).

(٢) صححه الألباني في تحذير الساجد (٢٦).

(٣) قوّى إسناده الألباني في أحكام الجنائز (٢٨٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: عباد الله، اتقوا الله حق التقوى، وراقبوه في السر والنجوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

أيها المسلمون: إن من تعظيم الله تحكيم شريعته على عباده، والواجب على المسلمين وأئمتهم وقادتهم الخضوع لشرع الله، والاستسلام لحكمه، ومحاربة ما يخالفه من المبادئ والمذاهب الهدامة الوضعية، من شيوعية واشتراكية، وعلمانية وقوميّة، وغيرها من المذاهب، وإن الإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، ومن جحد أحقية حكم الله ورسوله، أو اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله ورسوله، أو اعتقد أنه مثله، أو اعتقد جواز الحكم بما يُخالف حكم الله ورسوله، فقد كفر بما أنزل على محمد، وخرج من ملة الإسلام، يقول جل وعلا: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء:٦٠]، ويقول جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

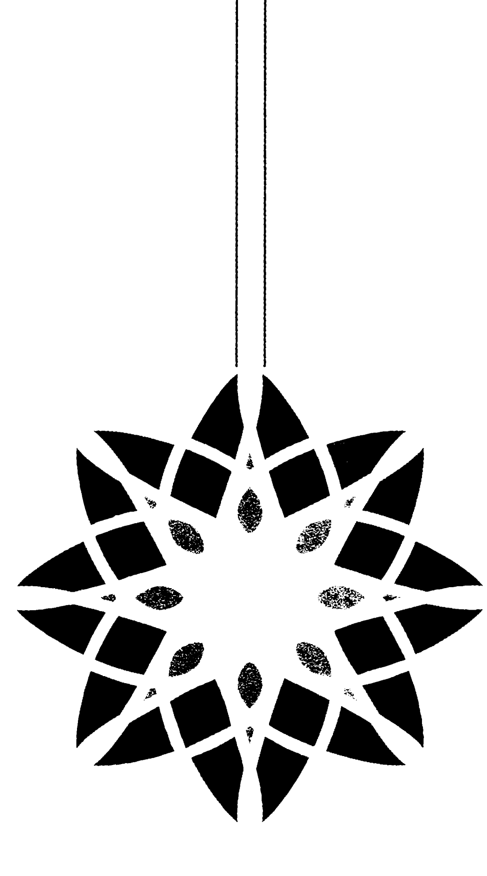
أيها المسلمون: ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله؟ ألم يحِن أن تطمئن قلوبهم بصدق التوكل على الله؟ إن الدين الإسلامي جاء ليحرر الإنسان من أن تستعبده الأهواء والهواجس والمخاوف والتعلق بغير الله تعالى رغبة أو رهبة، خوفًا أو طمعًا، جزعًا أو هلعًا، فكل ذلك معارض للإيمان بالله، مضاد للإخلاص لله، خارج عن مفهوم العبودية لله.

وإن التشاؤم بالأيام والشهور، والتطير بالسوانح والبوارح من الطيور، من أعمال الجاهلية، التي جاءت بإبطالها الشريعة الإسلامية، وليس التشاؤم بالذي يغيّر القدر، ولا شهر صفر بالذي يأتي بالشرر والضرر، وفي البخاري أن رسول الله قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر».

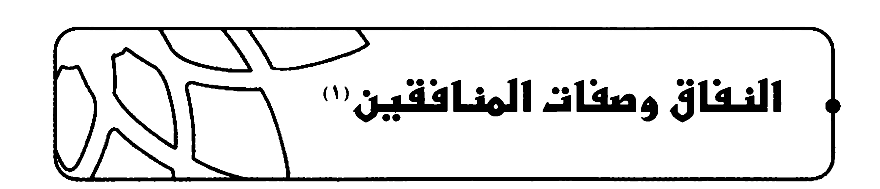
فـاتقوا الله عبـاد الله، وعلقـوا القلـوب بمالكهـا، علقـوا القلـوب بمالكهـا، وحـاربوا الخرافة بجميع أشكالها.

وصلوا وسلموا على خير البرية، وأزكى البشرية، فقد أمركم الله بـذلك، فقـال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





التحذير من الذنوب



النفاق وصفات المنافقين[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله مصرف الأمور بأمره، ومعز الدين بنصره، ومذل الكفر بقهره، أحمده سبحانه وأشكره، أظهر دينه على الدين كله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة مَن طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى بحسن العبادة ربه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، جاء بالصدق، وتأيد بالحق، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله البررة الأطهار، وأصحابه الأئمة الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد:

فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى الذي ما من غائبة في السماء ولا في الأرض إلا ويعلمها ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، فأصلحوا عباد الله بواطنكم كما تعتنون بصلاح ظواهركم، فإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأجسام، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال.

جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سأل حذيفة بن اليمان -وكان حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ- فقال: «أنشدك الله يا حذيفة هل ذكرني رسول الله مع المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدًا بعدك».

الله أكبر يا عمر، عمر يخاف على نفسه النفاق.. يخاف أن يكون من الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

من هو عمر؟ إنك لا تكاد تجد مسلمًا على وجه الأرض لا يعرف عمر؛ فهو من أهم شخصيات أمة الإسلام، ومن أبرز الصحابة الأعلام، في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، ثم هو من أعظم زعماء التاريخ، جاء عن النبي ﷺ في وصفه: أنه من أهل الجنة، وأنه ما سلك فجًا إلا سلك الشيطان فجًا آخر، ويخاف الشيطان منه، وأنه شهيد، ولو كان بعده ﷺ نبي لكان عمر، وأنه مُحدَّث مُلْهَم، ومع ذلك يخاف عمر على نفسه النفاق، فمن ذا الذي يأمن على نفسه النفاق بعدك يا عمر؟!

أيها الأحبة: لقد كان عمر يلاحِظ حذيفة عند الجنائز، فإن صلى حذيفة على الميت صلى عمر، وإن لم يصلِ لم يصل، ولم يكن عمر وحده يخاف النفاق على نفسه، بل قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف على نفسه النفاق).

ويذكر عن الحسن أنه قال: (ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق). وروي عن الحسين أنه حلف: «ما مضى مؤمن قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمِن»، وكان يقول: «من لم يخف النفاق فهو منافق».

وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ فقال: (ومن يأمن النفاق على نفسه؟!) وكان الحسن يسمي من ظهرت منه أوصاف النفاق العملي منافقًا، وروي نحوه عن حذيفة.

وإذا كان هذا البلاء بهذه الخطورة فما هي ماهيّته وحقيقته كي نحذره، إذ لا بد من معرفة الشر للحذر من الوقوع فيه، كما قيل:

عرفتُ الشرَّ لا للشرّ لكن لتوقّيهِ
ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيهِ

إن النفاق هو مخالفة الباطن للظاهر، بأن يظهر صاحبُه الإيمانَ بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد النبي ﷺ، ونزل القرآن بذمِّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار، وهو النفاق الاعتقادي.

وثمة نوع آخر من النفاق، وهو النفاق العملي، وهو طريقٌ موصل إلى الأول وأصوله مذكورةٌ في قوله ﷺ: «أربعٌ من كن فيه كان منافقًا، وإن كانت خصلةٌ منهن فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»(١).

ولقد بين الله تعالى أوصاف المنافقين في كتابه أكمل التبيين حتى يتعرف المؤمنون على أهل هذه الأوصاف فيحذروهم، فمما وصفهم الله تعالى به بالأوصاف التالية:

أنهم لم يرتضوا الاسلام دينًا ولا الكفر الصريح مبدأً، فكانوا مذبذبين بين الكفار والمؤمنين غير أنهم يبغضون المؤمنين ويتولون الكافرين، وأنهم يأخذون من الدين ما سهل عليهم ويقبلون من الحق ما وافق هواهم، ثم هم ينكصون عما خالف أهواءهم ويتقاعسون عن تنفيذ ما يشق عليهم كشهود صلاة العشاء والفجر في المسجد، وإذا أرادوا شيئًا من العبادات فكأنما يستكرهون أنفسهم عليه فيؤدونه بكسل وتثاقل، وأنهم يقولون مالا يفعلون، فيقولون الكلام المعسول بينما يضمرون الكيد والمكر، قلوبهم قاسية، وعقولهم قاصرة، فلا يتأثرون بالقيم الإنسانية النبيلة، والمثل العليا، ولا يقدرون مكارم الأخلاق، أُفقهم ضيق، ونظرتهم محدودة، فصحاء شجعان في السلم، فإذا جد الجد وحصحص الحق استخْفوا بأنفسهم ولاذوا بغيرهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، يخدمون الكفار ويتجسسون لهم ضد المؤمنين، يخذلون المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله، وإذا اشتركوا معهم أحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفهم، وعملوا على تفكيك وحدتهم وتفتيت قوتهم، ييأسون من رحمة الله، وينقطع أملهم في نصره، ويلجؤون في طلب النصر إلى الأعداء ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، ويعتمدون على القوى الحسية وحدها في وزن القوى المتقابلة في الميدان، ويسخرون من الاعتماد على الله عند عدم تكافؤ القوى، يستغلون الفرص المناسبة للطعن في دعاة الإسلام المخلصين وتشويه سمعتهم عن طريق الكذب وتغيير الحقائق، يبثون الشائعات وينشرون الشبهات حول الإسلام ليزعزعوا إيمان المؤمنين به ويصدوا الناس عن

(١) رواه البخاري (٢٤٥٩) ومسلم (٥٨).

الدخول فيه، يحاولون إفساد المجتمع الاسلامي عن طريق تيسير سبل الفساد التي تحطم الأخلاق وتقضي على الفضائل الإنسانية، يحاربون الإسلام عن طريق التسمي به والدعوة إليه، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، يقبضون أيديهم عن إنفاق المال في حقه فهم بخلاء في الحقوق الواجبة.

عباد الله: هذا شيءٌ من صفات المنافقين التي ذكرها الله تعالى في كتابه المبين، ليبين للمؤمنين حتى يحذروا من النفاق ومن صفات المنافقين وليعرفوا حقيقة أعداءهم، إن المنافقين شرٌ على الاسلام والمسلمين من اليهود والنصارى والكافرين، وذلك لأن أولئك قد أعلنوا الكفر، فالمؤمنون جميعًا يدركون عداوتهم وتجتمع كلمتهم ضدهم، أما المنافق فإنه لا يدرك عداوته وخطره على الأمة إلا القليل من المسلمين، وهم أصحاب الوعي الكامل، ولا يتصدى لحربه إلا الذين جمعوا بين الوعي الكامل والإيمان القوي، وغالب المسلمين ينخدعون بالظاهر وتغرهم المظاهر، ويغريهم زخرف القول والوعود الكاذبة، والجري وراء الدعايات الجوفاء عن النظر والتأمل والنقد الهادف والاستشهاد بالماضي على الحاضر، ثم بين عشية وضحاها يصبح والأمر قد انفلت من أيدي المؤمنين وأخذ المنافقون حريتهم الكاملة في تنفيذ مخططاتهم للإفساد في الأرض، ومن هنا كان المنافقون أخطر على الأمة.

وإن مما حدث في هذا الزمان أن المنافقين تسموا بأسماء ظاهرها جمالٌ برّاق، وباطنها مرٌّ المذاق، وتنشر صورهم وتلمع أسماؤهم، وتؤخذ آراؤهم، ولكنهم ينكرون كل معنى في الدين أصيل، وكل مبدأ نبيل، ويتنكرون للدين واللغة والأخلاق الكريمة والآداب والقيم الفاضلة، ويصمون أهلها بالتخلف والرجعية، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ
وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ
شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٤-١٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وأستغفر الله العلي العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي تقدس في علاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولي من تولاه، وأشهد أن نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمدٌ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، حذر أمته من النفاق وأوصاف المنافقين فجزاه الله عن أمته خير ما جازى نبيًا عن أمته.

ثم أما بعد:

لقد حذر الله هذه الأمة من المنافقين وأمر رسوله بجهادهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

وإن الأمة الإسلامية أحوج ما تكون إلى تأمل آيات القرآن، لتحذر من الوقوع في صفات النفاق، وتسلم من شرور المنافقين، فإنهم لا يدّخرون جهدًا في المكر والكيد لهذه الأمة، ولذا حذر الله هذه الأمة تحذيرًا بليغًا لكننا قد لا ندركه أحيانًا إلا بعد فوات الأوان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠].

عباد الله: وإن على العبد أن يتفقد إخلاصه ويتعاهد إيمانه، ويحافظ على طاعة ربه، فإنه إذا أمِن النفاق واستهان بالمعاصي والغفلة وركن إلى هوى النفس؛ قاده ذلك إلى الشر ومراتعه، فينسَلُّ من الخير رويدًا رويدًا حتى يغلف قلبه الران، قال ﷺ: «تُعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشربها نُكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى يصير القلبُ أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنةٌ ما دامتِ السماوات

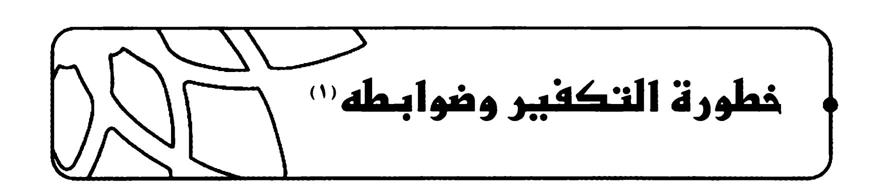
والأرض، والآخر أسود مُرْبدًا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»[1].

فالحذر الحذر عباد الله من النفاق وخصال المنافقين، اصدقوا في الأقوال والأفعال، وبادروا الفتن بصالحات الأعمال، ووفوا بالعهود والمواثيق، والتزموا بالمواعيد على التحقيق، واعفوا واصفحوا عند المخاصمة، وأدُّوا الأمانة إلى العدو والصديق، وكونوا أشداء على أعداء الله من الكافرين والمنافقين، رحماء بالمسلمين أذلة على المؤمنين.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية...



(١) صحيح الجامع (٢٩٦٠).



خطورة التكفير وضوابطه[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه، ونستغفره ونثني عليه الخير كله، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المعبود بحق سبحانه، لا ند له ولا شريك ولا ولد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خير من قام بحق ربه عليه، فعبد ربه حتى أتاه اليقين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، الذين عرفوا ما لربهم من الحق، فقاموا به خير قيام، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عبادَ الله، العيشُ الوثير والخير الوفير والرزق الكثير ثمرةُ تقوَى المولى اللطيف الخبير، فاتقوا الله رحمكم الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨].

أيّها المسلمون: لا يرتابُ الغيورون على أحوال الأُمَّةِ أنها تعيش زمنَ طوفانِ الفِتن، وأنَّ واقعَها المريرَ يعُجّ بفتنٍ عمياء ودَواهٍ دَهياء، قد انعقد غمامُها وادلهمَّ ظلامُها، غيرَ أنّ هناك فتنةً فاقرة، وبليّة ظاهرة، فتنةً امتُحِن المسلمون بها عبرَ التأريخ، فتنة عانت منها الأمّة طويلًا، وذاقت مرارتَها وتجرّعت غُصصَها ردحًا من الزمن، فتنةً طال ليلُها وأرخى سدولَه بشتَّى همومها وناءت بكَلكلِها وغمومها، كم نجَم عنها من سفكِ الدماء، وحلَّ جرّاءَها من نكباتٍ

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

وأرزاء، وبالجملة فهي مُحِيطٌ ملغوم ومركَب مثلوم، ومستنقَعٌ محموم، وخطر محتوم، زلّت فيها أقدام، وضلّت فيها أفهام، وبالتالي فهي جديرةٌ بالتّذكير، حفيَّة بالتفكير، قَمِنَـةٌ بالتبصـير، مـا أحوجنا معها إلى صرخـة نـذير وصـيحة تحـذير، حتـى لا تتجـدَّد فواجـعُ الأمّـة في العنـف والتدمير، الناتج عن فتنة التكفير.

إخوةَ الإسلام، المجازفةُ بالتكفير شرٌّ عظيم وخطر جسيم، كم أذاق الأمّةَ من الـويلات، وجرعهم وخيم العواقب ووبيل النهايات، لا يسارِع فيـه مَـن عِنـده أدنـى مَسـكة مـن ورعٍ وديانة، أو شذرة من عِلم أو ذرّةٍ من رزانـة؛ إذ هـو أمـر تتحـرز مـن التسـرع فيـه العقـول الرجيحة، والأفهام الصـحيحة، أمـر تتصـدّع لـه القلـوب، وتفـزَع منـه النفـوس، وترتعِـد من خطرِه الفرائص.

يقول الإمام الشوكانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وها هنا تُسكَب العبرات ويُناح على الإسـلام وأهلِـه بـما جناه التعصّبُ في الدين على غالبِ المسلمين من الترامي بالكُفر لا لِسنّةٍ ولا لقرآن، ولا لبيانٍ من الله ولا لبرهان، بل لما غلَت به مراجلُ العصبيّة في الـدين وتمكّـن الشـيطان الـرجيم مـن تفريقِ كلمة المسلمين لقَّنهم إلزاماتِ بعضِهم لبعض بما هو شبيهُ الهبـاء في الهـواء والسّـراب بقيعةٍ، فيا لله والمسلمين من هذه الفاقِرة التي هي أعظمُ فواقرِ الـدين والرّزيـةِ التـي مـا رُزِئ بمثلِها سبيلُ المؤمنين...) إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأدلّة الدالّة على وجوب صيانةِ عِرض المسلم واحترامِه تدلّ بفحوى الخطاب على تجنُّب القدح في دينه بأيِّ قادِح، فكيف إخراجه عن الملّـة الإسلاميّة إلى الملةِ الكفريّة؟! فإنّ هذه جنايةٌ لا يعْدلُها جناية وجرأةٌ لا تماثِلها جرأة.

وأين هذا المجترِئ على تكفير أخيه مـن قـولِ رسـول الله ﷺ: «المسـلمُ أخـو المسـلم؛ لا يظلِمه ولا يُسلمُه»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «سِبابُ المسلم فسوقٌ وقِتالُـه كفـر»[2]، وقوله ﷺ: «إنّ دماءَكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[3]) انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4].

---

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر (٢٥٨٠) عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤) عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وثبت عن غيرم من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(٤) السيل الجرار (٤/ ٥٨٤-٥٨٥).

إخوةَ الإيمان، لقد جاءتِ النصوصُ الزاجرة عن هذا المرتعِ الوخيم والمسلَك المشين، يقول سبحانه: ﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء:٩٤]، وفي الصحيحين من حديث ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجلُ لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدُهما، فإن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه»[1]، وفيهما من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «من دعا رجلًا بالكفر أو قال: عدوّ الله وليس كذلك إلا حارَ عليه»[2]، وعند الطبرانيّ بسند صحيحٍ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن رمى مؤمِنًا بكفرٍ فهو كقتلِه»[3].

وعلى هذا المنهَج الناصِع الوضيء سارَ صحابةُ رسول الله ﷺ، خرّج الإمام أحمد والطبرانيّ وغيرهما عن أبي سفيانَ قال: سألتُ جابرًا وهو مجاورٌ بمكّة: «هل كنتم تزعُمون أحدًا من أهل القبلة مشركًا؟ فقال: معاذ الله، وفَزِع لذلك، فقال رجلٌ: هل كنتم تدعون أحدًا منهم كافرًا؟ قال: لا»[4].

وعلى هذا المسلَك المشرِق اللألاء سارَ السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فوضَعوا لهذا الحكم أصولًا وشروطًا وضوابط، ورسموا له حالاتٍ وموانع، لا بدّ من مراعاتها والتثبُّت فيها، وما ذلك إلاّ لخطورته ودقّته.

وأهمُّ هذه الضوابط يا عبادَ الله أنّ التكفيرَ حكم شرعيٌّ ومحضُ حقّ الله سبحانه ورسولِهِ ﷺ، يقول الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته:

الكفر حقُّ الله ثم رسولِه ... بالنصِّ يثبت لا بقول فلان

من كان ربُّ العالمين وعبدُه ... قد كفّراه فذاك ذو الكفران

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب (٦١٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان (٦٠).

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب (٦٠٤٥)، ومسلم: كتاب الإيمان (٦١) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (٧٣٥٤)، ورواه أيضا أبو يعلى في مسنده (٢٣١٧)، قال الهيثمي في المجمع (١/١٠٧): (رجاله رجال الصحيح)، ولم يعزه لأحمد.

ويقول الإمام الطحاويّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا نكفّر أحدًا من أهل القبلةِ بذنبٍ ما لم يستحلّه)[١]، قال ابن أبي العزّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنّ بابَ التكفير وعدم التكفير بابٌ عظُمت الفتنةُ والمحنةُ فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتّت فيه الأهواء والآراء، وتعارضَت فيه دلائلُهم، فالنّاس فيه على طرفين ووسَط)[٢]، ثم قال: (وإنه لمن أعظمِ البغي أن يُشهَد على معيَّن أن اللهَ لا يغفر له ولا يرحمه، بل يخلّده في النار)[٣]، وقال الغزاليّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (والذي ينبغي الاحترازُ منه التكفيرُ ما وجد إليه سبيلا، فإنّ استباحةَ الدماء والأموال من المصلّين إلى القبلةِ المصرّحين بقول: لا إله إلا الله محمّد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألفِ كافرٍ في الحياة أهونُ من الخطأ في سفكِ دمٍ لمسلم)[٤]، وقال الإمام النوويّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (اعلم أنّ مذهبَ أهل الحقّ أنه لا يكفَّر أحدٌ من أهل القبلةِ بذَنب، ولا يُكفَّر أهلُ الأهواء والبدَع وغيرُهم)[٥]، ويقول الإمام القرافيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (كونُ أمرٍ ما كفرًا أيّ أمرٍ كان ليس من الأمور العقليّة، بل هو من الأمور الشرعيّة، فإذا قال الشارع في أمرٍ ما: هو كفر فهو كُفر)، ويقول شيخ الإسلام ابن تيميّة رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلهذا كان أهلُ العلم والسنّة لا يكفِّرون من خالفَهم وإن كان ذلك المخالِف يُكفِّرهم؛ إذِ الكفر حكمٌ شرعيّ، فليس للإنسان أن يعاقبَ بمثلِه كمن كذب عليكَ وزنى بأهلِك، ليس لك أن تكذِب عليه ولا تزني بأهله، لأنّ الكذبَ والزنا حرامٌ لحقّ الله تعالى، وكذلك التكفير حقُّ الله، فلا يُكفَّر إلاّ من كفَّره الله ورسوله)[٦]، وقال الشيخ المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في الدرر السنية: (وبالجملةِ فيجب على كلِّ من نصَحَ نفسَه أن لا يتكلَّم في هذه المسألةِ إلا بعلمٍ وبرهانٍ منَ الله، وليحذَر من إخراج رجلٍ من الإسلام بمجرَّد فهمِه واستحسان عقله، فإنَّ إخراجَ رجلٍ من الإسلام أو إدخالَه من أعظم أمور الدِّين، وقد استزلَّ الشيطان أكثرَ الناس في هذه المسألة).

---

(١) العقيدة الطحاوية (ص١٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٦).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٨).

(٤) التفرقة بين الإيمان والزندقة، انظر: انظر: فتح الباري (١٢/ ٣٠٠).

(٥) شرح صحيح مسلم (١/ ١٥٠).

(٦) الرد على البكري (٢/ ٤٩٢).

الله أكبر، هذا هو ورَعُ السلف في هذا الباب، فكيف يسوغ بعدَ هذه النقول كلِّها لمن لم يبلُغ في مقدار علمهم وفضلهم نقيرًا ولا قطميرًا أن يتجاسَر على المسارعةِ إلى الحكم بالكفر الصُّراح في حقّ إخوانه المسلمين جملةً وتفصيلًا عياذًا بالله عياذًا، أوَما علِم هؤلاء ما يترتَّب على التسرُّع في التكفير من أمورٍ خطيرة مِن استحلال الدمِ والمال ومنعِ التوارُث وفسخِ النكاح وتحريم الصلاةِ عليه وعدَم دفنِه في مقابر المسلمين، مع ما يستوجبه من الخلودِ في النار والعياذ بالله، إلى غير ذلك ممّا هو مزبورٌ في مظانِّه؟! فلا جرَمَ بعد ذلك كلِّه أن يقفَ الشرعُ منه موقِفًا صارمًا، يسدُّ الطريقَ على أحفاد ذي الخويصرة وحرقوص بن زهير ومَن خرج مِن ضئضِئهم ممّن يكفّرون أهلَ الإسلام ويدَعون أهلَ الأوثان، بل يوزّعون صكوكَ جهنّم على الخليقة وهم لا يشعرون، والله المستعان.

أمةَ الإسلام: ومِن الضوابط المهمّة في هذه المسألةِ الخطيرة أنّ المسلمَ لا يُكفَّر بقوْلٍ أو فِعل إلاّ بعد أن تقامَ عليه الحجَّة وتُزالَ عنه الشّبهة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فليس لأحدٍ أن يكفِّر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلِط حتى تُقامَ عليه الحجّة ويبيَّن له المحجَّة، ومن ثبت إسلامُه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامةِ الحجة وإزالة الشبهة)[1].

ومِن الضوابطِ أنه يجب التفريق بين الفِعل والفاعل والإطلاقِ والتعيين وتنزيل النصوص على الوقائع والأشخاص، جاء في مجموع الفتاوى ما نصُّه: «فإنّ نصوصَ الوعيد التي في الكتابِ والسنة ونصوصَ الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوتَ موجبِها في حقِّ المعيَّن إلاّ إذا وُجِدت الشروط وانتفَت الموانِع، لا فرقَ في ذلك بين الأصول والفروع»[2].

ومنها أنَّ الكفرَ نوعان: أكبر وأصغر، اعتقاديّ وعمليّ، وهذا ممّا التبس على كثيرٍ ممّن يتراشقون بالتكفير، فغفلوا عن الجمع بين النصوص والمنهجِ الصحيح فيما ظاهره التعارضُ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧٢).

ولهذا ذهَب جماهير العلماءِ سَلفًا وخلَفًا إلى التفصيل في قضيّة الحاكميّة، وهو مذهبَ حَبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس بالكفرِ الذي يذهبون إليه، وإنما هو كفرٌ دون كفر»[1]، وإليه ذهب الطبريّ وابن كثير والقرطبيّ وعِكرمة ومجاهد وعطاء وطاوس والزجّاج والآجريّ وابن عبد البرّ والسمعانيّ والجصّاص وأبو يعلى وأبو حيّان وابن بطّة وابن عطيّة وابن الجوزيّ وشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وأئمة الدعوة والمحقّقون قديمًا وحديثًا.

وعدَّ أهلُ العِلم أربعَ حالاتٍ في هذه المسألة على تفصيلٍ نفيس يحقِّق الجمعَ بين النصوصِ، ممّا يؤكِّد الإجماعَ على براءةِ أهل السنة من تكفير عُصاةِ الأمّة، مع أنّ وجوبَ الحكم بما أنزل الله لا يتمادى فيه مسلمان، وكلُّ مسلم للحُكم بغير الشريعةِ من القالين، بيدَ أنَّ هذا الجُرمَ المستبين لا ينبغي أن يُخرجنا لحماسةٍ مشبوهةٍ وعاطفة جيّاشةٍ عن قواعدِ أهل العِلم والإيمان وأصولِ أهل السنة والقرآن ومنهجِ السلف في النظرَ والاستدلال، وماذا بعد الحقّ إلا الضلال؟!

ومن الضوابطِ في هذه المسألة أنّه لا يُكفَّر باللوازِم من الأقوال، ولا يُعتبَر بما تؤول إليه مِن أفعال، يقول الإمام الشاطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مذهبُ المحقِّقين من أهلِ الأصول أنَّ الكفرَ بالمآل ليسَ بكفرٍ في الحال)، وقال الحافظ ابن حجر: (إنَّ الذي يُحكَم عليه بالكفر مَن كان الكفرُ صريحَ قوله، وكذا من كان لازمَ قوله وعُرِضَ عليه فالتزمَه، أمّا من لم يلتزمه وناضَل عنه فإنّه لا يكون كافرًا ولو كان اللازم كفرًا)[2].

وأخيرًا يا رعاكم الله فإنّه لا يكفَّر إلاّ من أجمع أهل الإسلام على تكفيره أو قام على تكفيره دليلٌ لا معارِضَ له، حكاه ابن عبد البرّ وابن بطّال وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُمُ اللَّهُ إذ يقول: (ولا نكفِّر إلاّ ما أجمع عليه العلماء كلُّهم)[3].

---

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣)، والطبري في تفسيره (٦/ ٢٥٦)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٠)، وصححه الحاكم (٣٢١٩).

(٢) انظر: فتح المغيث (٢/ ٦٩).

(٣) انظر: الدرر السنية (١/ ٦٥).

مع أنّ من مسلَّماتِ هذه القضيّة العلمَ بأنّ هذا العملَ كفرٌ، فالجاهلُ لا يكفَّر حتى تقومَ عليه الحجّة، يقول الإمام أحمد في الجهمية: (لو قلتُ قولَكم لكفرتُ، ولكنّي لا أكفِّركم لأنّكم عندي جُهّال)[1]، ويقول شيخ الإسلام:(وهذا المتأوِّل ينبغي إقامةُ الحجّة عليه أوّلًا وإظهارُ خطئه وإعلامُه بالحقِّ، كما ينبغي أن تُعلَمَ الموانِع المانعةُ من التكفير، ومنها الجهلُ والخطأ والإكراه، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦]، ومنها التأويل السائغ، ولهذا اتّفقَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على عدَم تكفير من استحلُّوا الخمرَ لوجود الشبهةِ لديهم، وهي تأويلُهم قولَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة:٩٣] الآية)[2].

وبعدُ:

أيها المسلمون: فإنّ الغُيُر حينما يبيِّنون خطورةَ المجازفةِ في التكفير ويذكرون شروطَ التكفير وضوابطَه فإنهم يُعلِنون للعالَم بأسرِه أنّ الإسلام بريء من هذا المعتقَد الخاطئ، وأنّ ما جرى في بلادِنا المحروسَة ويجري في بعضِ بلاد المسلمين من سَفك الدماء المعصومة وإزهاقِ الأنفس البريئة وأعمال التفجير والتدمير والتخريب والإفساد والإرهاب لهُو من الأعمال الإجراميّة المحرّمة، ولا يجوز أن يُحمَّل الإسلام وأهلُه المعتدلون جَريرةَ هذه الأحداث التي هي إفرازُ فِكرٍ تكفيريّ منحرف، ممّا تأباه الشريعة السّمحةُ والفِطر السليمة والعقول المستقيمة، والله المسؤول أن يصلحَ حالَ الأمّة ويكشفَ عنها كلَّ غمّة، وأن يوفِّقَ الجميعَ لما يحبّه ويرضاه، ويهديَهم لما اختُلف فيه من الحقِّ بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

نفعني الله وإيّاكم بآي الكتاب وبسنّة النبيّ الأواب، أقول قولي هذا، وأستغفِر الله العظيمَ الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنّه كان للأوّابين غفورًا.

---

(١) قال نحوه ابن تيمية للجهمية من الحلولية والنفاة، انظر: الرد على البكري (٢/ ٤٩٤).

(٢) ينظر أين موضعه.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله، يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، هو حسبُنا ونعم الوكيل، وأشهد أنّ نبينا محمّدًا عبد الله ورسوله المبعوث بكلّ خلُق جميل وفعلٍ نبيل، صلّى الله عليه وعلى آله المثنَى عليهم بمحكَم التنزيل، وصحبِه ذوي المكانةِ والتفضيل، وسلِّم يا ربِّ تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد: فاتقوا الله عباد الله، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]، وعليكم بالجماعة فإنّ يدَ الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار.

أيّها الإخوةُ في الله: حينما يهيجُ الهوَى في النفوس وتُعرِض عن نورِ الوحي والنصوصِ تُصاب بسُكرٍ أشدَّ من سُكر الكؤوس. وإنّ ظاهرةَ الغلوّ في التكفير والاعتساف لهي من أخطرِ ما بُليت به الأمّة فحوّلها إلى إسرافٍ في أطراف.

لقد بدأت هذه الفتنةُ بحَرب كلام، وانتهت إلى استحلال الدم الحرام، وزاد شططُها حينما حُمِل السلاحُ في وجه الأمّة، وأذكِي أُوارُها حينما برزت في صورةِ فتاوًى تكفيريّة تحريضيّة، تلقّفها حُدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، فسلكوا مسالكَ أهل البغيِ والإجرام، فهل بعدَ هذا يسَعُ السكوتُ من أهل الإسلام؟!

لقد كان الغيورُ على أبناءِ أمّته يرى خلَل الرمادِ وميضَ نارٍ وأنَّ الحربَ أوّل ما تكون فتيّةً، واليومَ نرى الأمرَ أمرًا منكرًا، فما زال الفِكر التكفيريّ يسري بقوّةٍ في صفوف شبابِ الأمة الذين نظر بعضُهم إلى المجتمعات نظرةً سوداويّة قاتمة، وأنّه لا مَخرجَ من المِحَن والبلايا التي رُزئت بها الأمّة إلا بالتكفير ثم التفجير والتدمير.

ومما يزيد في الأسَى ما يُرى من تسرُّب هذه اللوثةِ الخطيرة إلى بعضِ شباب الأمّة، ويعظُم الأمرُ حينما يكون الحكم بالتكفيرِ جزافًا على وُلاةِ أمر المسلمين ومَن بايعهم على الكتابِ والسنة من العلماء الربانيّين، فرُموا بالعَمالة والمداهَنة، بل لقد سَرى الخطَر إلى عوامّ المسلمين وناشئتهم.

ومما مدّ في أجل هذا الفكرِ المتهافِت وبسَط رواجَه هو التقصيرُ في التصدّي له وذكرِ أسبابه، والتي من أهمِّها العجلة في الحكم وضحالةُ العِلم وقلّةُ الفهم والخطأ في منهجيّة الطلَب والتحصيل، فلم يُؤخَذ العلم من أهلِه المعروفين، بل زُهِّد فيهم، وأُفقِدتِ الثقةُ بهم، مع عدَم الدراية بمقاصِد الشريعة وقواعدِ الفقه ورعاية المصالح العليا في الأمّة والتعلُّق بشُبَه ومتشابهات، مع تركٍ للنصوصِ المحكمات الواضحات، إضافةً إلى ما يعُجُّ به واقِع الأمّة من صُورٍ من الظلم والاضطهاد، غيرَ أنَّ ذلك ليس بمبرِّر ولا مُسوِّغ للخَطأ، فالعُنف لا يعالجُ بالعُنف، وإذا كان المصلِحون يرَونَ الأمّة ممزّقةً والممتلكات مغتصَبة والمقدَّسات مستَلبَة فهل المخرَجُ من هذه الرزايا بالتكفير والخروجِ على الجماعة وحمل السلاح في وجه الأمة؟! ألا يفيق هؤلاء؟! ألا يعتبِرون بمن حَولهم؟! ألم يقرؤوا التاريخَ ليدركوا كم أضرَّ هذا الفكرُ بالأمّة وصدّها عن دينها وخوّف شبابها من التمسُّك بالسنة والتزام الشريعة؟! ماذا قدّم هذا الفكر الأحاديّ للأمّة؟! وماذا أثمرَ في مسيرةِ الدعوةِ والعملِ الخيريّ والإصلاحيّ؟! فاللهمَّ غُفرًا غُفرًا، أفلا يَسَع هؤلاءِ ما وسِع أنبياءَ الله ورسلَه وصحابةَ رسول الله ﷺ والسلفَ الصالح ومن تبعهم بإحسان، فشغلوا أنفسهم تعلُّمًا وتعليمًا ودعوةً وإصلاحًا؟!

أيّها الإخوةُ في الله: أمّا العلاجُ فبالعِلم العِلم، وبالفهم الفهم، وبالحِوار الحوار، مع التحري والتدقيق، والتأني والتحقيق، حتى لا تخربَ الديار ويحِلّ الدّمار ويلحَق بالأمّة العارُ والشَّنار، وما أشبهَ الليلةَ بالبارحة، فلقد كفَّر أسلافُ هؤلاء خيارَ هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ، ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وجازى من كفّرهم وعاداهم بما يستحقّ دنيا وأخرى.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ الناس في هذه القضيّة طرفان ووسَط، فأهلُ السنّة والجماعة وسطٌ بين الخوارج والمرجِئة، وكما عانتِ الأمّةُ من فِكر التكفير عانت من الإرجاء والتأخير، ولهذا وضَع أهلُ العلم بابَ الردّة ونواقض الإسلام، غيرَ أنّه لا بدّ أن يتصدَّى لذلك ذوو العِلم الراسخ والبصيرة النافذة.

وقد طالَب بعضُ المنهزمين فكريًّا ممن جهل حقيقة دينه، ومكائد عدوه، بتمييع الدين وذوَبان الشريعة بدعاوى ضعيفة، ومزاعم واهية، ونسبوا إلى دين الله ما ليس منه، وعمّموا النقد على كل منتسب للتدين، وكل محتسب للدعوة، وطالما كانت نظرية التعميم جائرة ظالمة لو كانوا يعقلون.

والدعوةُ موجَّهةٌ بحرارةٍ إلى شباب الأمّة باليقظَة والانتباه وأخذِ الحذر من كلِّ انحرافٍ فكريّ يجانب منهجَ الوسطية والاعتدال، فليحذَروا من أن يُستغَلّوا أو يستهدَفوا ويستفزُّوا، في أفكارٍ دخيلةٍ أو مناهجَ هزيلة.

وإلى المصطادين في الماء العَكِرِ المستغليِّن كلَّ هفوةٍ من بعض الأخيار والصالحين، أن يتقوا الله ويكفوا عن تعميم الأحكام، ونسبة أخطاء الجهال إلى دين الإسلام، فوالله إن هذا هو هدف أعدائكم ليحرفوكم عن دينكم، و لن تصلُحَ حالُ الأمّة إلا بالقيام بأمرِ الدين وإعلاء رايته ونُصرة حَملتِه والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالحكمة والموعظة الحسنة.

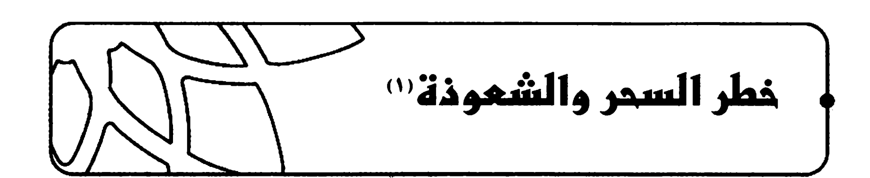
وحسبُنا محضُ النصيحةِ الموافِقة للنصوص الصحيحة والنقولِ الصريحة، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

ألا وصلّوا وسلِّموا رحمكم الله على الرحمةِ المهداة والنعمة المسداة كما أمركم بذلك ربكم في علاه، فقال تعالى قولًا كريما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على سيّد الأولين والآخرين نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمّهات المؤمنين، وصحابته الغرّ الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...







خطر السحر والشعوذة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، أحمده تعالى حمدًا يتجدد بالعشي والإبكار، وأشكره سبحانه على نعمه الغزار، وأسأله المزيد من فضله المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم الغيب والشهادة وكل شيء عنده بمقدار، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم عليه وعلى آله البررة الأطهار، وصحبه الأئمة الأبرار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، صلاة تترى آناء الليل وأطراف النهار، وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله: فإن تقواه سبحانه جُنةٌ من النار، وسبب لدخول الجنة دار القرار، فاسلكوا رحمكم الله مسالك المتقين الأبرار، واحذروا مسالك الأشرار وطرائق الفجار.

أيها المسلمون: إن المستقرئ للتأريخ البشري والمتأمل للتراث الإنساني يجد أن ثمة حقيقة مُرّة مؤلمة، وهي أن العقول البشرية قد تعرضت لعمليات وأدٍ واغتيال خطيرة عبر حقبٍ طويلة، يتولى كبر أسلحتها خناجر الوهم والخرافة، وألغام الدجل والشعوذة، وتلك لعمر الله أعتى طعنة تسدَّد في خاصرة الإنسان العقلية وقواه الفكرية والمعنوية، ومن ثم فإن التحرر الحقيقي من أغلال الوهم والخرافة وآصار الدجل والشعوذة إنما يمثِّل السياج المحكم والدرع الواقي والحصن الحصين لحقٍّ من أهم حقوق الإنسان وهو تحصين عقله من الخيالات، وحفظ فكره من الخرافات. ومن هنا كانت أنبل معارك العقيدة تحرير العقول الإنسانية من كل ما يصادم الفطر، ويصادر الفكر، ويغتال المبادئ والقيم. وهيهات أن تُعمر الحياة وتُشاد الحضارات بالمشعوذين البله الذين لا يرعون للإنسان كرامة، ولا للعقول حصانة وصيانة.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

إخوة العقيدة: لقد بعث الله نبيه محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، فأبطل الله به مسالك الجاهلية، وقضى على معالم الشرك والوثنية، فاستأصل شأفتها، واجتث جرثومتها. وفي طليعة ذلك الأوهام والخزعبلات لِما تُمثله من إزراء بالعقول، يعمد أحدهم إلى نُصُبٍ وحجارة فيعلق بها آماله وآلامه، فيبول عليها الثعلبان فيتركها، وآخر إلى مجموعة من تمر وطعام فيجوع فيأكلها، وثالث يتعلق بحروز وتمائم وخيوط وطلاسم، في انتشار لسوق التخرصات والشعوذات، وإلغاء للتفكير وسلب للعقول.

فلما جاء الإسلام بعقيدة التوحيد الخالصة لله، وأشرقت أنوارها في جميع أصقاع المعمورة، حررت القلوب من رِق العبودية لغير الله، ورفعت النفوس إلى قمم العز والشرف والصفاء، وسمت بالعقول عن بؤر الوثنية ومستنقعات الخرافة والشقاء، كيف وعقيدة المسلم أعز شيء عليه، وأغلى شيء لديه، بها يواجه أعتى التحديات، وبها يصبر على مُرّ الابتلاءات، ويقاوم موجات القلق والأرق والاكتئاب النفسي والاضطرابات، وبها يُقيم سدًا منيعًا ودرعًا مكينًا أمام زحف الأباطيل والضلالات، وغزو الشعوذة والخرافات، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١]، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

إخوة الإيمان: لقد نأى الإسلام بأتباعه عن أوهام الجاهلية وأوضارها، وطهر نفوسهم من رجز الوثنية وأباطيلها، وابتعد بهم عن براثن الإسفاف وبؤر الاستخفاف في كل صوره وأنماطه، ويأتي في الطليعة منها مظاهر السحر والشعوذة والتجهيل، ومعالم الخرافة والدجل والتضليل، لما تمثله من طعنة نافذة في صميم العقيدة، وشرخ خطير في صرح التوحيد الشامخ، وانهيار مُزرٍ يثلم القوة، ويذهب العزة، ويجلب الانتكاسة، ويُلحق الهزائم، ويقضي على العزائم، ويشكك في الثوابت واليقينيات، ويروج لبضاعة التخرصات والخزعبلات، فيقع الاضطراب في المجتمع، وتحصل الفوضى في الأمة، ويُخرق سياج أمنها العقدي، فتغرق سفينتها في مهاوي العدم وبؤر الفناء، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

أمة الإسلام: إنه مع طول الأمد وحصول التخلف المشين لدى فئام كثيرة في الأمة، ووقوع أنواع من التغافل والتزييف للحقائق، مع غلبة الجهل الذريع عند كثير من الناس في أعقاب الزمن، صحب ذلك تلاعب بالألفاظ وتغيير للمصطلحات تحت ستار مسميات معسولة، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، نتج عن ذلك كله تمرير بعض الصور الشركية وتسويق بعض الطقوس البدعية. ولعل مظاهر السحر والشعوذة من أوضح النماذج على هذا التزييف الذي أصاب الأمة في أعز ما تملك من الثوابت والمسلمات، وأغلى ما لديها من المبادئ والمقومات، وهو تمسكها بعقيدتها الإسلامية الصافية من اللوثات الشركية والصور الخرافية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد ليقذف كل يوم بجديد في عالم الخرافة والدجل، ونسج الأكاذيب والشعوذات، وبث الشائعات والخزعبلات، مما يؤكد أهمية حماية جانب الأمن العقدي في الأمة، حتى لا تؤثر سوس الأوهام وتنخر خلايا هذا الإجرام سلبًا في جوانب شتى من حياة الأمة والمجتمع، وتلك عاقبة وخيمة المراتع، ونتيجة تجعل الديار بلاقع، فما حلت أعمال الشعوذة في قلوب إلا أظلمتها، ولا في مجتمعات إلا دمرتها. ويزداد ذهول أهل التوحيد حينما تجد هذه الأوهام رواجًا لدى جبِلٍّ كثيرٍ من العامة ممن ينساقون وراء الشائعات، ويلغون عقولهم عند جديد الذائعات، ويتهافتون تهافت الفراش على النار على الأوهام، ويستسلمون للأباطيل والأحلام، حتى أضل سُرادق الشعوذة عقول كثيرٍ من أهل الملّة والديانة.

ولا تسأل بعد ذلك عما تفعله هذه المسالك المرذولة في أوساط كثيرٍ من الدهماء، وما تحدثه في عقول كثيرٍ من السُذّج والبسطاء. فأين الإيمان عباد الله؟! وأين الحجى والعقول السليمة؟! أوَلسنا نتلو ونؤمن بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧]؟! لكن العجب والعجائب جمّةٌ حينما تُلغى العقول والأفكار أمام قول كل دعي مأفون.

إخوة الإسلام: إن تصديق أدعياء علم الغيب وإتيان السحرة والعرافين والكهنة والرمالين والمنجمين والمشعوذين الذين يزعمون وبئس ما زعموا الإخبار عن المغيبات أو أن لهم قوى خارقة يستطيعون من خلالها جلب شيء من السعد أو النحس أو الضر أو النفع لهو

ضلالٌ عظيم وإثمٌ مُبين، فعلم الغيب مما استأثر الله به وحده سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وإننا اليوم لفي زمانٍ كثر فيه هؤلاء الأدعياء الدجاجلة لا كثّرهم الله، فهم داءٌ خطير، وشرٌ مستطير، يُقوِّض سعادة الأفراد واستقرار الأُسر وأمن المجتمعات.

إن أعمال الشعوذة خصلة شيطانية، وخُلّة إبليسية، ولوثةٌ كفرية، ودسيسة يهودية. لقد أَمِر أمرهم، وتعاظم خطرهم، وتطاير شرهم، واستفحل شررهم، فكم من بيوت هُدِمت، وعلاقات زوجية تصرّمت، وحبال مودة تقطعت بسببهم حسيبهم الله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس:٨١-٨٢].

معاشر المسلمين: في تعاطي السحر وإتيان السحرة جمعٌ بين الكفر بالله والإضرار بالناس والإفساد في الأرض، فكم في كثير من المجتمعات من محترفي هذا العفن ممن يعملون ليل نهار لإفساد عقائد الأمة، مُقابل مبلغ زهيد يتقاضونه من ضعاف النفوس وعديمي الضمائر الذين أكل الحسد قلوبهم، فيتفرجون على إخوانهم المسلمين، ويتشفون برؤيتهم وهم يُعانون آثار السحر الوخيمة، فلا براحةٍ يهنؤون، ولا باستقرار يسعدون، حتى حقق هؤلاء المشعوذون رواجًا كثيرًا، وانتشارًا كبيرًا.

فتارة يأتون من باب العلاج الشعبي والتداوي، وأخرى من باب التأليف والمحبة بين الزوجين، وهو ما يُسمى بالتِّوَلَة، وهي أشياء يزعمون أنها تُحبب الزوجين لبعضهما، وتارة من باب الانتقام بين الخصمين، ومنه الصرفُ والعطف، فاستشرى فسادهم حتى على كثيرٍ من المتعلمين والمتعبدين، فكم من جناياتٍ حصلت بسبب هؤلاء التُعساء، وعداوات زُرعت بسبب هؤلاء الأشقياء عليهم من الله ما يستحقون مُتظاهرين للناس بشيء من الخوارق، موهمين السُذّج بشيء من القَدَر والعلائق. وخسىء أعداء الله وإن طاروا في الهواء، ومشوا على

الماء، وزعموا تحضير الأرواح، والتنويم المغناطيسي، ولبّسوا على العيون بها يسمونه بطريقة الكف والفنجان وغيرها من الأعمال البهلوانية. فهذا دعيٌّ مأفون يزعم أنه يجر المركبات الثقيلة بأسنانه، وآخر يستلقي فتمر المركبة على بطنه، وآخر يبدل العشرات مئينا، والآلاف ملايينا، فتضيع عقول كثيرٍ من الناس ممن يصابون بالهوس المادي، وقد قال ﷺ: «من أتى عرافًا فسأله لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا» خرّجه مسلم في صحيحه[1]، وأخرج الحاكم وأهل السنن من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ»[2]، وقد عدّ المصطفى ﷺ السحر من السبع الموبقات أي المهلكات، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

ومن ذلكم يا عباد الله التعلق بالنجوم والمطالع والأبراج والكواكب، فيزعمون أن من وُلِدَ في برج كذا فهو السعيد في حياته، وسيحصل على ما يريد من مال أو جاهٍ أو حظوظ، ومن وُلِدَ في برج كذا فهو التعيس المنحوس، وسيحصل له كذا وكذا من الشرور والبلايا، في سردٍ مزعوم للفضائح وإعلان موهوم بالقبائح، لا يُقره شرع ولا عقلٌ ولا منطق. وإنك لواجدٌ في بعض البلاد من ذلك شيئًا عجيبًا.

ومن هنا يأتي الواجب العظيم في تكثيف الحصانة العقدية الإيمانية ضد هذه الأعمال الشيطانية، كما أن الواجب القضاء على هذه الفئة الضالة لما تُمثله من خطر على الأمة وإخلال بأمن المجتمع وإفساد لعقائد الناس واستهانة بعقولهم وابتزاز لأموالهم.

إن واجب المسلمين جميعًا التكاتف في القضاء على هؤلاء المشعوذين والإبلاغ عنهم، والتعاون مع الجهات الرسمية في ذلك، ليرى الحاكم فيهم ما يوافق الشرع وتقتضيه المصلحة، حتى لا يحُلّوا عِقْد ثوابت الأمة، ويُشتّتوا لآلئ أمنها ونظامها واستقرارها، ويقضوا على البقية الباقية من تآلف الأُسر وترابط المجتمعات، بزعم دفع الكره وجلب المحبات، وتحقيق الرغبات، فيفرقون بين المرء وزوجه، ويبتزون ضعفاء النفوس وناقصات العقول ممن يلهث

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٣٠) عن بعض أزواج النبي ﷺ بلفظ: «أربعين ليلة».
(٢) صحيح الترغيب (٣٠٤٧).
(٣) رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩).



وراء تُرّهاتهم وأباطيلهم مستجديًا مستنصرًا وهو لا يعلم أنهم إنما يُمنّونه زورا، ويعدونه غرورا، فهم لا يألونه خبالًا، ولا يزيدونه إلا وبالًا.

عن بجالة التميمي قال: كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة»، قال: فقتلنا ثلاث سواحر،[(١)] وصح عن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: .«أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فَقُتِلت»، رواه مالك في الموطأ[(٢)]، وثبت قتل الساحر عن عدد من الصحابة والتابعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (أكثر العلماء على أنه يُقتل الساحر، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ومالك رَحِمَهُمُ اللَّهُ)[(٣)]، قال ابن قُدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا اشتُهِرَ فلم يُنكَر، فكان إجماعًا)[(٤)].

ومع أن العالم يعيش عصر المدنيات والتقانات التي يُفترض أنها تُناوئ الخرافة، وتناقض الشعوذة، وتحارب الدجل، فإن الغيور ليأسى حينما تطورت الخرافة بتطور الزمن، ودخلت مجالات شتى في الاقتصاد والاجتماع والإعلام وغيرها طلبًا للحظ بزعمهم، بل سُخرت بعض وسائل الإعلام وبعض القنوات الفضائية لبثها للتشويش والإثارة، مما يتطلب من أهل العلم والدعوة التركيز على الجانب العقدي في الأمة وإعزاز جانب الحسبة والإصلاح.

ولئن بدت الصورة قاتمة نتيجة الجرح العميق الذي نكأته الشعوذات والخرافات في عقول كثيرٍ من أبناء ونساء الأمة فإن الأمل كبير في أن يسترجع المسلمون ما فرطوا فيه من أمر عقيدتهم، ويجدّوا في إنقاذ التائهين في دروب الباطل والأوهام إلى شاطئ النجاة وساحل الأمان بإذن الله، وكان الله في عون العاملين المخلصين لعقيدتهم ومجتمعاتهم وأمتهم، إنه خير مسؤول، وأكرم مأمول.

أقول قولي هذا، وأسأل الله أن يبارك لي ولكم في القرآن، وينفعنا بما فيه من الآيات والهدى والبيان، وأن يرزقنا السير على سنة المصطفى من ولد عدنان.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إنك أنت الغفور الرحيم.

---

(١) صحيح أبي داود (٢٦٢٤).

(٢) صححه ابن باز في مجموع فتاويه (٧٩/ ٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٤٦).

(٤) المغني (١٢/ ٣٠٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله خلق فأمر، وملك فقهر، وكل شيء عنده بقضاء وقدر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغامًا لمن جحد به وكفر، وأشهد أن نبينا محمدا عبد الله ورسوله الشافع المشفع في المحشر، القائل فيما صح عنه: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفَر»[1]، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه السادة الغرر، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، ففيها الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

واعلموا أن أشد ما ابتليت به النفوس وأصيبت به المجتمعات دخول النقص عليها في أعز ما لديها، في عقيدتها وثوابتها، ومن ذلك أعمال السحر والشعوذة والتطير والتشاؤم والتعلق بالأوهام من بعض الشهور والليالي والأيام وذوي العاهات والأمراض والأسقام. والمؤمن الحق يعيش نقي السيرة صافي السريرة، مطمئن الفؤاد، منشرح الصدر بذكر رب العباد، لا يعرف الوهم إلى نفسه سبيلا، ولا يجد الهلع عليه مدخلًا وطريقا.

أيها الإخوة: ومع أن السحر حقيقة واقعة، والمسَّ والتلبُّس والإصابة بالعين كلها حقائق شرعية وواقعية، إلا أن بعض الناس يعيش حياة الوهم في كافة أموره، فكثيرون هم صرعى الأوهام والوساوس، إذا آلم أحدهم أدنى صداع قال: هذا مسٌّ! وإذا أُصيب بعارض زكام قال: هذه عين! ومن المقرر أن الابتلاء سنة وتمحيص، والبشر عرضة للأمراض والأسقام، ولكن ينبغي إعطاء كل أمر حقه دون إفراط أو تفريط.

إخوة الإسلام: ومع تشخيص الداء فلا بد من وصف العلاج والدواء، إلا أن الله سبحانه لم يجعل شفاء أمة محمد ﷺ فيما حرم عليها، وإن التداوي بالرقى المشروعة أو بألوان الطب الحديث كل ذلك مشروع غير ممنوع، فهو لا ينافي التوكل على الله، لكن حَلّ السحر ودواء العين لا يكون بسحر مثله، وهو ما يعرف بالنُّشرة وهي حلّ السحر عن المسحور، وقد سئل

(١) رواه البخاري (٥٧٥٧) ومسلم (٢٢٢٠).



عنها ﷺ فقال: «هي من عمل الشيطان»[1]، بل الدواء والشفاء يكون بالأدوية الشرعية، ولا يلزم أن يكون من يرقي معروفًا أو مشهورًا أو ممن اتخذ هذا الأمر حرفة يستدر من خلالها أموال الناس ويبتز جيوبهم، بل القرآن شفاء من كل مرض وداء، ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، ومما يعين على ذلك: النظر في أهلية المداوي دينًا وعقيدة واستقامة، وفهمًا وصدقًا وأمانة، وتأهيل المتداوي بأن يكون حسن الظن بالله، قوي التوكل عليه، لا يتّكل على غيره وإن كان راقيًا شرعيًا أو طبيبًا أكاديميًا، بل يسعى للتداوي، لكن القلب متوكل على من بيده الشفاء من كل داء، سبحانه وتعالى.

فعليكم رحمكم الله بالإقبال على القرآن، والبعد عن المعاصي، فلم تكن أعمال الشعوذة لتروج في بعض المجتمعات لولا ضعف العلم والإيمان لدى كثير من أهل الإسلام، وانتشار المعاصي في كثير من البيوتات والمجتمعات، وعليكم يا رعاكم الله بتحصين أنفسكم وأولادكم بالرقى المشروعة والأوراد المأثورة، فهي حصن حصين وحرز أمين، من السحر والمس والعين، حافظوا على أذكار الصباح والمساء وأدعية الدخول والخروج والنوم، أكثروا من قراءة فاتحة الكتاب وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة وسورة الإخلاص والمعوذتين، فإنها حرز لصاحبها بإذن الله من كل داء وبلاء.

وهاكم رحمكم الله وصفة طبية نبوية هي خير لكم وأمان، روى أبو داود والترمذي عن عبد الله بن خبيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»[2]، وعن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات إلا لم يضره شيء»[3].

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢٧٦٠).
(٢) صحيح الجامع (٤٤٠٦).
(٣) صحيح الترمذي (٣٣٨٨).

فالحمد لله الذي ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواء، ونسـأله تعـالى أن يمـن عـلى الجميـع بالشفاء والعافية من أمراض القلوب والأبدان، إنه جواد كريم، ونشكره سبحانه أن يهـيء في بلاد الإسلام من يكفُّ عن الناس كيـد السـحرة الأشرار، وينفـذ حكـم الله فـيهم صـلاحًا للعباد، وحفظًا لأمن البلاد، وتطهيرها من ألوان الشر والفساد.

ألا وصلوا وسلموا رحمكم الله على النبي المصطفى والرسول المجتبى والحبيب المرتضـى كما أمركم بذلك ربكم جل وعلا فقـال تعـالى قـولًا كـريما: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ على نبينا محمد ما ذكـره الـذاكرون الأبـرار، وصـلِّ عليـه مـا اختلـف الليـل والنهار، وصـلِّ عليـه وعـلى المهـاجرين والأنصـار، وعـن التـابعين ومـن تـبعهم بإحسـان إلى يوم الدين...





الخشوع في الصلاة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي فرض الصلاة صلة ورحمة، وجعلها ناهية عن الفحشاء، دافعة للعقوبة والنقمة، أحمده سبحانه على نعمه الجمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وجعل أمتنا خير أمة، وبعث رسولًا منا يتلو علينا آيته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدا عبده ورسوله أرسله ربه للعالمين رحمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله: كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

واعلموا أن الصلاة أعظم واجبات المسلم وأهمها، إنها الفرض العظيم من فروض ديننا الحنيف، والركن الركين من أركان شرعنا المطهر، هذه الشعيرة التي هانت على الأمة فهانت الأمة على ربها سبحانه وتعالى؛ لأنها قطعت الصلة والحبل الذي بينها وبين الله، فأصبح الاتصال بينها وبين خالقها مقطوعا، وعندما انقطع الاتصال بين الأمة وخالقها ذهب دعاء الأمة واستغاثاتها وتضرعها أدراج الرياح، تهاونت الأمة في الصلاة فاستهان بها الأعداء وضحكوا عليها ملء أشداقهم؛ لأن الأمة التي أعزها الله بالدين لن تقوم لها قائمة بغيره، بل ستظل دائما في ذيل الأمم ما دامت بعيدة عن دينها.

عباد الله: لكل شيء روح، وروح الصلاة هو الخشوع، وهو أمر أثنى الله عليه وعلى المتصفين به في كتابه العزيز، يقول سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ

(١) عبد العزيز بن الطاهر بن غيث.

﴿خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]، ويقول سبحانه في الثناء على بعض أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

فمن الأمور المهمة في باب الصلاة أداؤها كما يريد الله، فلا بد أن نؤديها كما يريد الله سبحانه لا كما نريد نحن، وأن لا نمتنَّ على الله بها، بل هو الذي يمتن علينا أن هدانا للإسلام وجعلنا من المصلين، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

الله يمتنّ عليك أيها العبد بأن أعطاك شرف مقابلته والدخول عليه متى شئت، فأنت في هذه الحياة الدنيا من المستحيل أن تقابل سلطانا أو وزيرا أو حتى رئيس بلدية، وإن قابلته فبعد جهد جهيد وترتيبات ومواعيد قد تدوم أشهرا، فإذا كان هذا مع المخلوق فكيف ستكون مقابلة خالق المخلوق، خالق السماوات والأرض، خالق الشمس والقمر والبحار والجبال الجبار المتكبر؟! لا شك أن المنطق يقول بأن مقابلته أصعب وأشد استحالة، ولكن جبار السماوات والأرض منحك هذا الشرف، متى شئت أنت قابلته وكلّمته، فما عليك إن أردت ذلك إلا أن تتطهر وتتوجه إلى القبلة بخشوع وتقول: الله أكبر، عندها يقبل عليك الرب وتكون في حضرته وبين يديه، فعليك أن تؤدي هذه الصلاة كما يريدها هو، وكما شرعها لك في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، لا كما تريدها أنت فتنقرها سريعة كما يحلو لك ودون خشوع وتؤخرها عن وقتها، فهل هكذا أرادها الله منك؟! وهل تفعل مع المخلوق مثل هذا الأمر؟! إن طلب منك رئيسك في العمل تقريرا أو أمرا ما هل تؤديه كما يحلو لك وتقول له: هذا هو العمل، أم أنك تؤديه كما طلب منك وبناء على تعليماته الدقيقة؟! فلماذا تفعل هذا مع تعليمات المدير ولا تفعله مع تعليمات رب المدير مع تعليمات السميع البصير القوي القدير؟!

اعلم يا عبد الله أنك إن أديت عملا لله على غير ما يريد الله فكأنك لم تؤده. فاحذر، واعلم أن الله تعالى يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، والصلاة من ضمن الأعمال، والخشوع من أهم شروطها، يقول ﷺ: «خمس صلوات افترضهن الله عَزَّوَجَلَّ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»[1].

الخشوع في الصلاة إخوة الإيمان من أهم الأمور، فما هو الخشوع؟ تذكر كتب اللغة في معنى الخشوع أنه الخضوع والسكون والتذلل، ويقول قتادة: (الخشوع هو الخوف وغض البصر في الصلاة)، وقال ابن زيد: (الخشوع الخوف والخشية لله) وقرأ قول الله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى:٤٥]، قال: (قد أذلهم الخوف الذي نزل بهم وخشعوا له).

إذًا فالخشوع أمر جميل محبوب؛ لهذا أثنى الله على المصلين المتصفين به، وإذا نظرنا إلى أنفسنا: هل يحقق كل منا هذا الأمر الأساسي من أمور الصلاة؟ لوجدنا أن أكثر المصلين إلا من رحم الله لا يحقق هذا الأمر، بل بالعكس تجدنا نقف أمام المخلوق برهبة أكثر من رهبتنا أمام الخالق، فعندما يقف المرء منا أمام مدير المؤسسة التي يشتغل بها أو أمام أمير المعسكر أو غيره من أصحاب المكانة والجاه، فإن حواسه كلها تكون منتبهة وحركاته محسوبة، القلب يدق بسرعة، وأنفاسه يسمعها تتردد، وعقله متيقظ، فلا تفوته كلمة أو لفتة من لفتات هذا المسؤول الذي أمامه، فما بالنا إذا وقفنا بين يدي الله لا نقف باحترام ولا نعطي هذه الوقفة حقها؟! فالهندام غير مرتب، والقلب هائم لا يدري عن شيء، والأعضاء والجوارح تتحرك في كل اتجاه، فتجد الواحد منا يتململ ثم يحك رأسه ثم يضع إصبعه في أنفه، وتراه يقلب بصره في سقف وحوائط المسجد، فماذا وعى هذا المصلي من الصلاة؟! أكثرنا يا عباد الله إلا من رحم الله لا نعي من الصلاة إلا أمرين نعلم أننا فعلناهما في أكثر الصلوات هما: تكبيرة الإحرام والتسليم، أما ما بينهما فلا تسألني: ماذا فعلت؟ أو ماذا قرأت؟ أو ماذا قرأ الإمام؟

---

(١) صحيح أبي داود (٤٢٥).

أو غير ذلك، فالجسد في المسجد والقلب يحوم في هذه الدنيا طولا وعرضا، والله المستعان.

الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها أمر ضروري يا عبد الله، لأنك عندما تقف في الصلاة فأنت تناجي الله، والله أمامك يراك، فكيف تغفل عنه وأنت بين يديه ولا تعطي لهذا المقام احترامه؟! فما دمت تقف بين يدي خالق الخلق ومدبر الرزق الإله الحق فحاول قدر استطاعتك أن تنضبط في هذه الصلاة وتعقل ما تفعل فيها، ولا يكن همك أن تنهي صلاتك بأي كيفية، فتؤديها ناقصة الاطمئنان وناقصة الأركان ومبتورة الحركات والسكنات، فإن هذا من السرقة، والسرقة في الصلاة من أسوأ السرقات، يقول ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته»، قالوا: يا رسول الله، كيف يسرق من صلاته؟! قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها، ولا يقيم صلبه في الركوع والسجود»[1]. فهل نمتنع عن السرقة من أموال الناس ثم نسرق من صلاتنا التي تقدمها لخالقنا، والتي إن أنقصنا منها اليوم فسنجدها ناقصة يوم القيامة؟! هذا إن قبلت منا.

وللخشوع أمور تعين عليه إخوة الإيمان، نذكرها لعل الله ينفعنا بمعرفتها ويعيننا على تحقيقها:

أول هذه الأمور: استحضار هيبة من نقدم هذه الصلاة له، فعندها سنؤدي هذه الأمانة كما ينبغي، فأنت تقدم هذه الصلاة إلى قيوم السموات والأرض من عنت له الوجوه وخشعت له الأصوات وذل له الخلق أجمعون، فكيف لا تخشع لهذا الإله؟! ومن أحق بخشوعك من دونه؟! كان علي بن أبي طالب ﷺ إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه، فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها»، ويروى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!».

---

(١) صحيح الترغيب (٥٢٤).

ومن الأمور المعينة على الخشوع إفراغ النفس من المشاغل عند الدخول في الصلاة، فحاول أيها المسلم أن لا تدخل إلى الصلاة وأنت مشغول البال مشتت الفكر، وعوِّد نفسك أن تؤجل التفكير في أمورك الدنيوية إلى ما بعد الصلاة؛ لأن هذه الأمور تشغلك عن الإقبال على الله بخشوع، والله سبحانه يريد منك أيها العبد أن تقبل عليه في كامل وعيك، لا أن يكون جسمك عنده والقلب في مكان آخر، فإن المخلوق لا يقبل منك هذا، فكيف يقبله الخالق؟! لذلك راعى الإسلام هذا وحرص على أن لا يدخل المسلم في العبادة وهو مشغول بغيرها، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا حضر العَشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعَشاء»[(1)]. فانظر إلى هذا الدين السمح الذي راعى جوع الإنسان وانشغاله بالطعام فقدمه على الصلاة؛ حتى يؤدي المؤمن صلاته كما ينبغي ولا ينقرها نقر الغراب استعجالا للأكل.

ومن الأمور المعينة على الخشوع النظر إلى مكان السجود؛ لأنك بذلك تكون أكثر خشوعا، وتقيد عينيك عن الحركة والانشغال بما يحيط بك، وتبعدهما عن النظر إلى السماء أو السقف، لأنه أمر منهي عنه، يقول ﷺ فيما رواه البخاري وغيره من حديث أنس: «ما بالُ أقوامٍ، يَرفعونَ أبصارهمْ إلى السماءِ في صلاتهمْ. فاشْتَدَّ قولُهُ في ذلكَ، حتى قال: لَيَنْتَهُنَّ عن ذلكَ، أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهُمْ»[(2)].

ومن الأمور المعينة على الخشوع والمطلوبة في الصلاة عدم تحريك الأعضاء ومنها اليدان، وهما أكثر الأعضاء حركة، رأى بعض السلف رجلا يعبث بيده في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»، فالخشوع ليس للقلب وحده، ولكن الجوارح أيضا تخشع، يقول سبحانه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، ويقول ﷺ في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي»[(3)].

---

(١) رواه البخاري (٦٧١) ومسلم (٥٥٧).
(٢) رواه البخاري (٧٥٠).
(٣) رواه مسلم (٧٧١).

هذه من أهم الأمور المعينة على الخشوع وأداء الصلاة كما ينبغي، فاجتهدوا يا عباد الله في أن تحققوا هذه الأمور؛ لأن الصلاة بلا خشوع كما يقول بعض أهل العلم جثة هامدة بلا روح، علينا أن نخشع في صلاتنا وأن نعي ونعلم ما نقول فيها حتى تنفعنا هذه الصلاة. لما سمع بعض السلف قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣] قال: (كم من مصلّ لم يشرب خمرا هو في صلاته لا يعلم ما يقول؛ أسكرته الدنيا بهمومها).

فاتقوا الله عباد الله، واستعينوا بكل ما يعينكم على أن تؤدوا صلاة مقبولة عند خالقكم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإيمان: علمنا فيما مضى أن الخشوع أمر عزيز عظيم القدر، علينا أن نسعى قدر طاقتنا حتى نحققه لنشعر بلذة العبادة ولننال ثوابها كاملا بإذن الله، ولا يتحقق الخشوع كما قلنا إلا بمعرفة من نقف أمامه في صلاتنا، فإذا امتلأت قلوبنا بهيبته وخشيته تحقق لنا الخشوع شئنا أم أبينا. علينا أن نوقن ونعتقد اعتقادا جازما أن الرب الذي نقوم له ونقدم له صلواتنا وعباداتنا هو الله سبحانه المتفردِ بالعبادة وحده، وهو المتصرف في الكون وحده، وإليه وحده لا لغيره تصرف الأعمال والعبادات والقربات والنذور، لا إله غيره ولا رب سواه، فإذا تأصلت هذه المعاني في النفس وتربعت على عرش القلب عندها سيعلم الإنسان وهو يتهيأ للصلاة أن الأمر جلل، وأن الخطب عظيم، وأن الموقف رهيب، فيخشع قلبه، وترق نفسه، ثم لا يلبث أن تصبح الصلاة عنده لذة لا يرتاح ولا تقر عينه إلا فيها، يقول ﷺ كما في سنن أبي داود من حديث أبي الجعد: «يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها»(١).

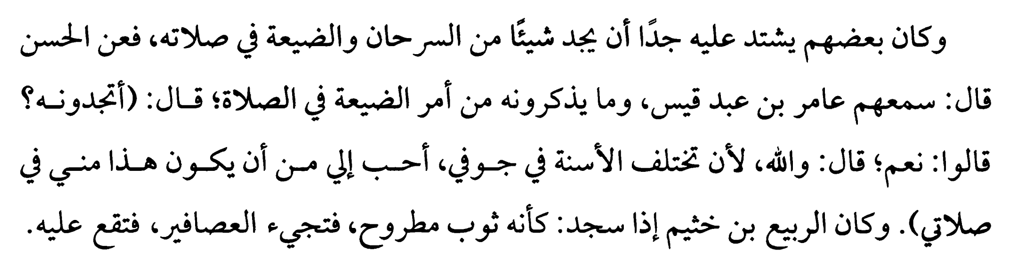
هكذا كان حاله ﷺ مع الصلاة، فيها راحته وبها يأنس، ولا عجب في ذلك فهو القائل أيضا فيما أخرجه النسائي عن أنس: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٢)، كل ذلك لأنه ﷺ أقرب الخلق إلى مولاه، وأعلم الخلق بالله، كان خاشعا لله، وجلا من الله، وهو أسوتنا ﷺ، فلا بد أن نحقق هذه المعاني العظيمة، وأن نعلم أنه لا إله إلا الله؛ لتعمر قلوبنا بحب الله ومخافته.

وحين نتأمل في قصص السابقين من العباد والصالحين نجد عجبًا، فهذا مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان يقوم فيصلي، كأنه راهب، وكان يقول لأهله: هاتوا كل حاجة، فاذكروها لي، قبل أن أقوم إلى الصلاة. وكان يرخي الستر بينه وبين أهله، ويقبل على صلاته، ويخليهم ودنياهم.

---

(١) صحيح أبي داود (٤٩٨٥).

(٢) صحيح النسائي (٣٩٥٠).



وكان بعضهم يشتد عليه جدًا أن يجد شيئًا من السرحان والضيعة في صلاته، فعن الحسن قال: سمعهم عامر بن عبد قيس، وما يذكرونه من أمر الضيعة في الصلاة؛ قال: (أتجدونه؟ قالوا: نعم؛ قال: والله، لأن تختلف الأسنة في جوفي، أحب إلي من أن يكون هذا مني في صلاتي). وكان الربيع بن خثيم إذا سجد: كأنه ثوب مطروح، فتجيء العصافير، فتقع عليه.

لقد كانت قلوبهم معلقة في الملأ الأعلى فما يشعرون بشيء مما يحدث حولهم، عن جعفر بن حيان قال: ذكر لمسلم بن يسار قلة التفاته في الصلاة، فقال: وما يدريكم أين قلبي؟

وعن حبيب بن الشهيد: (أن مسلم بن يسار كان قائمًا يصلي، فوقع حريق إلى جنبه، فما شعر به، حتى طفئت النار). عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه: (أنه كان يصلي ذات يوم، فدخل رجل من أهل الشام، ففزعوا، واجتمع له أهل الدار؛ فلما انصرفوا، قالت أم عبد الله: دخل هذا الشامي، ففزع أهل الدار، فلم تنصرف إليهم أو كما قالت؛ قال: ما شعرت).

وعن شُفى بن ماتع الأصبحي قال: (إن الرجلين ليكونان في الصلاة، مناكبهما جميعًا؛ ولما بينهما، كما بين السماء والأرض؛ وإنهما ليكونان في بيت، صيامهما واحد؛ ولما بين صيامهما، كما بين السماء والأرض). عن أبي بكر بن الثوري قال: (لو رأيت منصورًا يصلي، لقلت إنه يموت الساعة. لشدة خشوعه!) وعنه قال: (لو رأيت منصور بن المعتمر، وعاصمًا، والربيع بن أبي راشد في الصلاة، قد وضعوا لحاهم على صدورهم؛ عرفت أنهم من أبرار الصلاة).

وعن أبي قطن قال: (ما رأيت شعبة ركع قط، إلا ظننت أنه قد نسي؛ ولا قعد بين السجدتين، إلا ظننت أنه قد نسي. لخشوعه وطول صلاته). وعن سفيان الثوري قال: (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها).

وعن عاصم قال: سمعت شقيق بن سلمة - أبو وائل - يقول وهو ساجد: (رب اغفر لي، رب اعف عني، إن تعف عني، فطَولا من فضلك، وإن تعذبني، غير ظالم لي، ولا مسبوق) قال: ثم يبكي.

أيها الأحبة: إن هذا الخشوع لا يأتي دفعة واحدة، بل هو أمر يحتاج إلى دُربةٍ ومجاهدة، دون غفلة أو يأس، فبذلك ينال العبد الخشوع ويتذوق حلاوة العبادة ولذتها، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومن وسائل وأسباب تحقيق الخشوع: الخوف من الله وخشيته، ومحبته ومهابته، واستحضار عظمته في القلب ورهبة الموقف بين يديه، والتّذكّر بأنّ الصّلاة وقوفٌ بين يديّ الله وتكرار ذلك للنّفس حتّى في غير وقت الصّلاة؛ للتّهيّؤ لهذا الموقف. وقد قال بعض السلف: (من عظّم هذا الموقف بين يدي الله في الصلاة؛ هوّن الله عليه الموقف بين يديه يوم القيامة).

ومن ذلك: اتّباع مبدأ الإحسان في جميع الأقوال والأفعال في الحياة اليوميّة، وهو أنْ تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكنْ تراه فهو يراك، فتعوّد وجود رقيب عليك يدفعك للخشوع في صلاتك واستحضار رقابته وأنت بين يديه.

ومن وسائل تحقيق الخشوع: تعويد النّفس على أنّ الصّلاة ليست مجرّد فرض يتمّ اسقاطه ببضع حركاتٍ دون شعورٍ أو تدبّرٍ، إنّما الصّلاة عمود الإسلام وآخر ما وصّى به الرّسول ﷺ وهو في سكرات الموت؛ فقدْرُها عظيمٌ ولا يصحّ إسلام أحدٍ دونها؛ ثم إنها لم تُشرع مشقةً، بل رحمة وتطهيرًا وتزكية للعبد، كما قال الله في آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [المائدة:٦].

ومن أسباب الخشوع: تجنّب الصّلاة في أماكن الإزعاج كالصلاة بقرب التّلفاز أو المذياع أو في مكان فيه ضوضاء ما لم تكنْ هناك ضرورة، والحرص على إغلاق الهاتف النقال أو جعله في وضعية الصامت وقت الصلاة؛ حتّى لا يتشتّت التّركيز والانتباه حين تأتيه مكالمة تشوش عليه وتفسد خشوعه، لا سيما وأن البعض تكون نغمة هاتفه صاخبة أو قد تكون نغمة موسيقى أو نحوها، مما لا يليق بالمسلم والمصلي سماعه.

ومن ذلك: تجنّب الصلّاة وقت الانشغال؛ فذلك مدعاةٌ لعدم خشوع القلب كالانشغال في عملٍ ما أو بكاء طفلٍ أو إعداد طعامٍ إلى غير ذلك، ويلحق بذلك الصلاة وهو حاقن يدافعه الأخبثان.

ومن ذلك: أداء الصّلاة في وقتها والاستعداد لها قبل دخول وقتها بالوضوء، والترديد مع المؤذّن، وصلاة ركعتيّ الوضوء إنْ أمكن، مع كثرة الذكر والاستغفار والتّهليل، فإن ذلك من أنفع الأمور التي تورث الخشوع والخشية، والتّعوّذ بالله من الشّيطان الرَّجيم قبل القراءة لطرد

كلّ ما يخطر بالبال من الوساوس ومن أمور الدُّنيا ومتاعها، وكذا إلزام الـنّفس بقـراءة آيـات القران برويّةٍ وسكينةٍ، والتّمهّل والتّأنّي في الرُّكوع والسُّجود. الإكثار من التّوبـة والاسـتغفار فيما بين الصّلوات. ومن ذلك: قيام اللّيل؛ فإنه يُساعد على تليين القلب والخُشوع في الصّـلاة والخوف من الله واستحضار الدار الآخرة، والتقرب إلى الله ومعرفته.

يقول ابن القيم في كتاب الفوائد: (إذا استغنى النـاس بالـدنيا فاسـتغن أنـت بـالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بـالله، وإذا أنسـوا بأحبـابهم فاجعـل أنسـك بـالله، وإذا تعرفـوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة).

بمثل هذه المعاني الجميلة يتحقق الإيمان إخوة الإيمان، ويتحقق الخشـوع الـذي هـو لـب الصلاة وروحها، والذي هو أفضل ما عمرت به القلوب، لهذا تعوَّذ رسول الله مـن قلـب لا خشوع فيه فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشـع، ومـن نفـس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»[1].

نســـأل الله أن يرزقنـــا الخشـــوع، وأن يعيننـــا عليـــه، اللهـــم أعنـــا عـــلى ذكـــرك وشكرك وحسن عبادتك...



(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

الصلاة.. الصلاة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله جعل الصلاةَ عمادَ الأديان، وبرهانَ صدق الإيمان، ونورَ المؤمنِ في الدنيا والآخرة، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون، فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطِسْتٍ من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أُرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علَونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. ثم عُرِجَ بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قاله الأول ففتح، قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم. قال النبي ﷺ: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدّل القول لديّ، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: قد استحييت من ربي. ثم انْطُلِقَ بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي. ثم أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها من المسك»(١).

في هذا المقام الشريف وفوق تلك السموات وبين أولئك الكرام من الأنبياء والملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فرضت هذه الشعيرةُ العظيمة التي اختصها الله من دون غيرها بذلك، فلم ينزل بفرضيتها ملك من السماء، بل عرج بالنبي ﷺ إلى السماء ليتلقى الأمر بها من الله تعالى مباشرة، فأي منزلة تلك؟! وأي شأن ذاك لهذه الصلاة؟! ولذا كانت أولَ عمل يحاسب عليه العبد يوم القيامة، ولا غرابة حينئذ أن يقول ﷺ عنها: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣).

(٢) صحيح النسائي (٣٩٥٠).

أيها الإخوة المؤمنون: إن مما يبين مكانة الصلاة ومنزلتها أنها ذكرت في القرآن الكريم في خمسة وستين موضعًا، منها قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩].

أما في السنة فقد تضافرت الأحاديث في شأنها، حيث ذُكرت في مائة وثمانية وسبعين حديثًا، منها: قوله ﷺ: «اعلم أنك لا تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة وحط عنك بها خطيئة»(١)، وقال ﷺ: «إن العبد إذا قام يصلي أتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه»(٢)، بل تأمل قوله ﷺ: «تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود؛ حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود»(٣). والصلاة من أحب الأعمال إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأثقلها في موازيين العبد يوم القيامة، قال ﷺ: «صلاة في إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»(٤).

أيها المؤمنون: كلنا خطّاؤون.. كم نقع في الذنوب؟ كم نقارف من الآثام؟ كم نعصي الله بأقوالنا وأفعالنا؟ ولكن من رحمة الله تعالى أن الصلاة تغسلها وتمحوها، كما جاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحترقون تحترقون أي: تقعون في الهلاك بسبب الذنوب الكثيرة فإذا صليتم الصبح غسَلَتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا»(٥)، وذات يوم خرج النبي ﷺ في الشتاء وورق الأشجار يتهافت، فأخذ بغصن من شجرة وقال: «يا أبا ذر، إن العبد المسلم ليصلي الصلاة يريد بها وجه الله فتهافت عنه ذنوبه كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة»(٦).

---

(١) صحيح الجامع (١٠٦٩).
(٢) صحيح الجامع (١٦٧١).
(٣) صحيح ابن ماجه (٣٥٠٨).
(٤) صحيح الترغيب (٤٤٦).
(٥) صحيح الترغيب (٣٥٧).
(٦) صحيح الترغيب (٣٨٤).



أيها المؤمنون: إن دقائق العمر وساعات الحياة ثمينة، والرابح فيها مَن عمَرها بالطاعة قبل فقد الاستطاعة، ووالله إن أعظم ما يفقده أهل القبور ويتمنونه هذه الصلاة، مرّ النبي ﷺ يومًا بقبر فقال: «من صاحب هذا القبر؟» فقالوا: فلان، فقال: «ركعتان أحب إلى هذا من بقية دنياكم»[1].

إن مَن فَقِه هذا الأمر عَلِم شأن الصلاة وعظَّم قدرَها عند الله وعظُم عنده أمر الآخرة فسعى إليها ووصل ليله بنهاره في طلب مبتغاه، وتأمل أحوال السلف الذين قدّروا هذا الأمر حق قدره:

فهذا عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا متوضئ»، ومسروق بن الأجدع يقول: (ما بقي شيء يُرغب فيه إلا أن تعفر وجوهنا في التراب، وما آسى على شيء إلا على السجود لله تعاليج)، وكان زين العابدين علي بن الحسين يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات، بل كان حرصهم على الصلاة يفوق الوصف، يقول ولقد قال عنه الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها لأحد من التابعين، لم تفُته صلاة الجماعة أربعين سنة). يقول سعيد بن المسيب: (ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد).

ويقول إبراهيم بن يزيد: (إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه)، بل بلغ من حرصهم على شهود الجماعة أن أحدهم وهو في سياق الموت يذهب به إلى المسجد، سمع عامر بن عبد الله بن الزبير المؤذن وهو يجود بنفسه فقال: (خذوا بيدي، فقيل: إنك عليل! فقال: أسمع داعي الله فلا أجيبه؟! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب، فركع ركعة ثم مات!).

فاتقوا الله عباد الله: واعرفوا عِظَمَ قدر الصلاة، واحرصوا عليها رحمني الله وإياكم، وأكثروا من التوبة والاستغفار، فإن الله يحب التوابين والمستغفرين والمنيبين.

---

(١) صحيح الترغيب (٣٩١).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، عَظُمَ شأنه، ودام سلطانه، أحمده سبحانه وأشكره، عم امتنانه، وجَزَلَ إحسانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، به علا منار الإسلام وارتفع بنيانه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن من أخطر الأمور التي تساهل فيها طائفة من الناس ترك الصلاة والتهاون فيها وتأخيرها عن وقتها، وتلك عياذًا بالله دلالة الخسران والبوار وتشبه بالمنافقين الفجار الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢]، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة:٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]، ولما ذكر الله تعالى أهل النار أخبر عن سبب عذابهم فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أوصاني خليلي ﷺ: «أن لاَ تشرِكَ بالله شيئًا وإن قُطِّعتَ وحُرِّقتَ ولاَ تترُك صلاةً مَكتوبةً متعمِّدًا فمن ترَكَها متعمِّدًا فقد برئت منْهُ الذِّمَّةُ ولاَ تشرَبِ الخمرَ فإنَّها مفتاحُ كلِّ شرٍّ»[(١)]، وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بين الرجل والكفر أو الشرك ترك الصلاة»[(٢)].

ولقد هم النبي ﷺ أن يحرّق بيوت المتخلّفين عن الصلاة لولا ما فيها من النساء والذرية، وجاء في حديث الرؤيا الطويل من رواية سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «وإنا أتينا على رجل مضطجع وآخر قائم عليه بالصخرة فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصحّ رأسه كما كان، ثم يعود فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، وحين سئل عن هذا قيل له: هو الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة»[(٣)].

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٢٧٥).

(٢) رواه مسلم (٨٢).

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٧).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من ترك صلاةً واحدةً متعمدًا فقد برئ من الله وبرئ الله منه»، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من سرَّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر (مع عِظم جُرمها وأنها من الموبقات المهلكات)، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة، وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتب إلى الآفاق: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه) اهـ.

وكم يأسى ويحزن المؤمن حين يرى فئامًا من المسلمين تضيق بهم أماكن اللهو واللعب وتغصُّ بكثرة من يفد إليها من كل حدب وصوب، بينما تهجر بيوت الله التي قال الله فيها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور:٣٦]، ولو أعطي هؤلاء شيئًا من حطام هذه الدنيا ليشهدوا الصلاة لما تخلّف عنها أحد ولم تكد تسعهم المساجد والجوامع على كثرتها، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلًا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم. والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عِرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»[1].

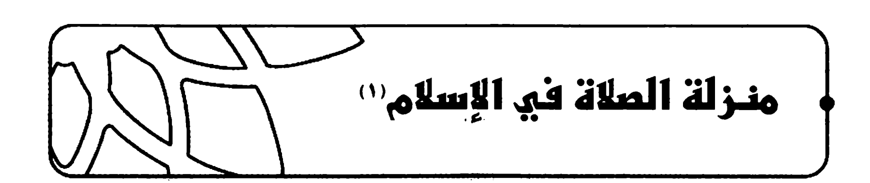
---

(١) رواه البخاري (٦٤٤) ومسلم (٦٥١).

عباد الله: الصلاة الصلاة.. الصلاة نور.. الصلاة صلة بين العبد وربه.. الصلاة مذهبةٌ للأحزان، مطردة للهموم والغموم، جالبة للطمأنينة والسكينة والسرور، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، داوموا عليها وعوّدوا عليها أبناءكم وأهليكم، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه:١٣٢]، فإن ذلك يجلب رضى الله ومحبته، وقد أثنى الله على إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم:٥٥].

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرضى عنا، وأن يجعلنا ممن هم على صلاتهم دائمون، ومن الذين هم على صلاتهم يحافظون، وأن لا يجعلنا من الذين هم على صلاتهم ساهون، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة...





منزلة الصلاة في الإسلام[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

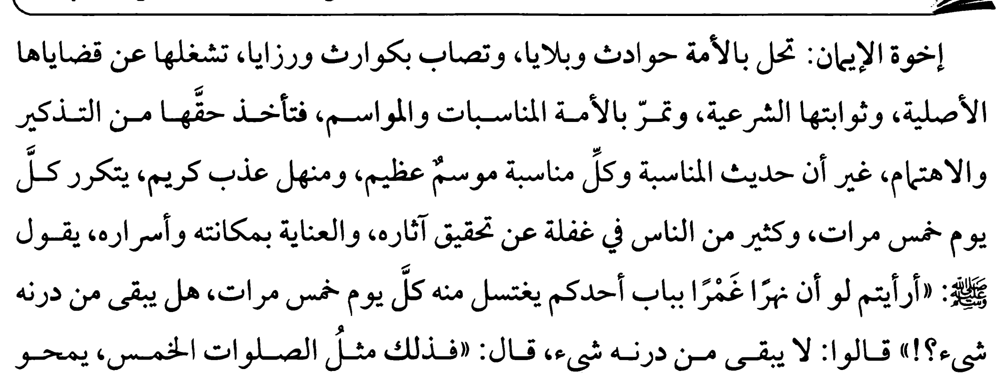
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، سبحانك ربنا، لك الحمد والشكر والثناء، جعلت الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسلوى الطائعين، وقرة عيون المؤمنين، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، ومصطفاه وخليله، أفضل البرية، وسيد البشرية، إمام المتقين، وقدوة المصلين الخاشعين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومَن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها المسلمون، اتقوا الله ربكم ربَّ العالمين، وكونوا بدينكم مستمسكين، وعلى عموده محافظين، وفيه خاشعين خاضعين، تسلكوا سبيل المفلحين، وهذا وايم الله غاية العاملين.

معاشر المسلمين: الإنسان في خضم مشاغل الحياة الدنيوية، وما تفرزه الحضارة المادية من مشكلات نفسية، وتوترات عصبية، يحتاج حاجةً مُلحّة إلى ما ينفس عن مشاعره، ويخفف من لأوائه ومصائبه، ويبعث في نفسه الطمأنينة القلبية، والراحة النفسية، بعيدًا عن العُقد والاكتئاب، والقلق والاضطراب. وهيهات أن يجد الإنسان ذلك إلا في ظل الإسلام وعباداته العظيمة، التي تمثل غذاء روحانيًا نافعًا، ودواء نفسانيًا ناجعًا، لا نظير له في الأدوية المادية.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



إخوة الإيمان: تحل بالأمة حوادث وبلايا، وتصاب بكوارث ورزايا، تشغلها عن قضاياها الأصلية، وثوابتها الشرعية، وتمرّ بالأمة المناسبات والمواسم، فتأخذ حقَّها من التذكير والاهتمام، غير أن حديث المناسبة وكلِّ مناسبة موسمٌ عظيم، ومنهل عذب كريم، يتكرر كلَّ يوم خمس مرات، وكثير من الناس في غفلة عن تحقيق آثاره، والعناية بمكانته وأسراره، يقول ﷺ: «أرأيتم لو أن نهرًا غَمْرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلَّ يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟!» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «فذلك مثلُ الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»(١).

معشر المسلمين: إنه نتيجةً لارتماء كثير من الناس في أحضان الدنيا، والتنافس المحموم في جمع حطامها، وانشغال القلوب والهمم بها، ونسيان المستقبل الدائم والدار الحقيقية، والغفلة عن العمل لها، في هذه الدوامة تناسى بعضهم مكانة هذه العبادة العظيمة، فلم يبالوا بها، ولم يكترثوا بإقامتها، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وصنف آخر يؤديها ولكن مع الوقوع في الزلل، والاستمرار في الخلل، يصلُّون ولكن لا تُرى آثار الصلاة عليهم، لا يتأدبون بآدابها، ولا يلتزمون بأركانها وواجباتها، صلاتهم صورية عادية، لإخلالهم بلبها وروحها وخشوعها، يصلون جسدًا بلا روح، وبدنًا بلا قلب، وحركاتٍ بلا مشاعر وأحاسيس، صلاتهم مرتعٌ للشرود والوساوس، والسرحان والهواجس، يأتي الشيطان أحدهم وهو في صلاته، فيجعله يصول ويجول بفكره في مجالات الدنيا، يتحرك ويتشاغل، يستطيل ويتثاقل، ويلتفت بقلبه وبصره إلى حيث يريد، فينفتل من صلاته وهو لم يعقل منها شيئًا، بل لعلَّ بعضهم لا يعقل منها إلا قليلًا، حتى إن بعضهم لو سألته عما قرأ الإمام في الصلاة الجهرية لم يدرِ، بل لو سألت البعض عما قرأه هو في صلاته لم يعرف لشدة شروده وذهوله وقلة خشوعه وحضوره، وإذا كانت الصلاة هكذا فلا تسأل عن الأحوال، وسيِّئ الفعال، وقبيح الخصال، بعد الصلاة فحشٌ في القول، وإساءة في الفعل،

---

(١) رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).

وأكل للحرام، وتعسُّف في الأخلاق، واجتراح للسيئات، وإصرار على المعاصي والمنكرات، وربما تساءل بعضهم: ألم يقل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فأين نحن من هذه الآية؟! فنحن نؤدي الصلاة ولكن لا أثر لها في حياتنا، ولا ثمرة لها في واقعنا وتغيير أحوالنا، وتحسُّن مناهجنا، وصلاح سائر جوانب حياتنا!!

إخوة العقيدة: إن الصلاة التي يريدها الإسلام هي التي تمثل المعراج الروحي للمؤمن، حيث تسمو روحه كلما قام مصليًا في فريضة أو نافلة، منتقلة من عالم المادة إلى عالم العلو والصفاء، والطهر والنقاء، وفي ذلك مصدر السعادة والسرور، ومبعث الطمأنينة والحبور، وكان ذلك ديدنَ الأنبياء جميعًا عليهم صلوات الله وسلامه، وهكذا كان الحبيب المصطفى القدوة، «إذا حزَبه أمر فزع إلى الصلاة»[1]، ومعنى «حزبه أمر» أي: أصابه واشتد عليه.

أيها الأحبة: الصلاة غذاء القلوب، وزاد الأرواح، مناجاةٌ ودعاء، خضوع وثناء، تذلل وبكاء، وتوسل ورجاء، واعتصام والتجاء، وتواضع لكبرياء الله، وخضوع لعظمته، وانطراح بين يديه، وانكسار وافتقار إليه، تذللٌ وعبودية، تقرب وخشوع لجناب الربوبية والألوهية، إنها ملجأ المسلم، وملاذ المؤمن، فيها يجد البلسم الشافي، والدواء الكافي، والغذاء الوافي، إنها خير عدة وسلاح، وأفضل جُنَّة وكفاح، وأعظم وسيلة للصلاح والفلاح والنجاح، تنشئ في النفوس، وتذكي في الضمائر قوةً روحية، وإيمانًا راسخًا، ويقينًا عميقًا، ونورًا يبدد ظلمات الفتن، ويقاوم أعتى المغريات والمحن، وكم فيها من الأسرار والحكم، والمقاصد والغايات التي لا يعقلها كثير ممن يؤديها، فما أعظم الأجر وأوفر الحظ لمن أداها على الوجه الشرعي، أخرج الإمام أبو داود في سننه أن رسول الله قال: «خمس صلوات افترضهن الله عَزَّوَجَلَّ، مَن أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن؛ كان على الله عهدٌ أن يغفر له»[2].

إخوة الإسلام: لا يخفى على كل مسلم بحمد الله مكانة الصلاة في دين الله، ومنزلتها في شرع الله، فهي عمود الإسلام، والفاصل بين الكفر والإيمان، وإذا كانت بهذه الأهمية

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٩).

(٢) صحيح الجامع (٣٢٤٢).

والخطورة، فإن الذي يحز في النفس، ويؤلم القلب أنه لا يزال في عِداد المنتسبين إلى الإسلام من لا يرفع لها رأسا، ولا يرى في التهاون بها بأسا، ما بال أقوام يعيشون بين ظهراني المسلمين قد خفّ ميزان الصلاة عندهم، وطاش معيارها، بل لربما تعدّى الأمر إلى ما هو أفظع من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهل ينتهي أولئك قبل أن يحلَّ بهم سخط الله، وتعاجلهم المنية وهم على هذه الحال السيئة؟!

أيها الإخوة المصلون: المداومون الخاشعون.. لِتَهْنِكُم الصلاة، ويا بشرى لكم ما شرح الله له صدوركم من هذه الفريضة العظيمة، وهنيئًا لكم ثوابُ الله وفضله العاجل والآجل، لقيامكم بهذا الواجب الشرعي العظيم، ولكن يا أيها المصلون لتعلموا أن للصلاة المقبولة شروطًا وأركانًا، وواجبات وآدابًا، لا بد من الوفاء بها، كما أن هناك مسائل مهمة وأخطاءً شائعة، يحتاج المصلون إلى معرفتها، وقد ورد عند أحمد وغيره: «إن أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته»[1]، وذلك بِعَدَم تمام ركوعها وسجودها وخشوعها، كما ورد عند أبي داود وغيره: «إن المصلي لينصرف من صلاته وما كُتب له إلا ربعها، أو خمسها...» حتى بلغ عشرَها[2]، وهذا يدعو المسلم المصلي إلى أن يتنبه لشأن صلاته، حتى لا يخسر الثواب، ويبوء بالعقاب، متعهدًا طهارتها وشروطها وأركانها وواجباتها، مجتهدًا في الخشوع فيها، فهو لبها وروحها.

أمة الإسلام: لقد مدح الله المؤمنين وأثنى عليهم، ووصفهم بالخشوع له في أجلّ عباداتهم، ورتَّب على ذلك الفوز والفلاح، فقال جل وعلا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح» وقال ابن رجب: (وأصل الخشوع لين القلب ورقّته، وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، لأنها تابعة له)، وقد رأى بعض السلف رجلًا يعبث بيده في الصلاة فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)، روي ذلك عن حذيفة

(١) صحيح الترغيب (٥٢٤).
(٢) صحيح أبي داود (٧٩٦).

وسعيد بن المسيب، ويُروى مرفوعًا لكن بإسناد لا يصح، وفي معنى الخشوع في الصلاة يقول علي بن أبي طالب: «هو الخشوع في القلب، وأن تُلين كَنفَك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك يمينًا ولا شمالًا»، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]، قال: «خائفون ساكنون»، وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (كان الخشوع في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح)، وقال ابن سيرين: (كانوا يغضون أبصارهم إلى موضع سجودهم)، وحكي عن مسلم بن يسار أنه كان يصلي في مسجد البصرة، فسقط حائط المسجد ففزع أهل السوق لهزّته فما التفت، ولما هُنِّئ بسلامته عجب وقال: ما شعرت به.

الله أكبر، هذا هو هدي السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ، الذين كانت قلوبهم تستشعر رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى جميع الجوارح، وكلّ الحركات والملامح، ويغشى أرواحَهم جلالُ الله وعظمته، وهم يقفون بين يديه، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، عندما يشتغلون بلذيذ المناجاة للجبار جَلَّجَلَالُهُ، ويتوارى عن حسِّهم في تلك الحالة كلُّ ما حولهم، فيتطهر وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة، وعندئذ تتضاءل الماديات، وتتلاشى جميع الدنيويات، وحينئذ تكون الصلاة راحة قلبية، وطمأنينة نفسية، وقرة عين حقيقية، كما قال النبي في الحديث الذي رواه النسائي وغيره عن أنس: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»(١)، وعند أبي داود وغيره أن رسول الله قال: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»(٢).

الله أكبر، إنها الراحة الدائمة للنفوس المطمئنة، لكي تشعر من خلال أدائها أنها تناجي من بيده ملكوت كل شيء، وأن المصلي حينما يكبّر ويرفع يديه إنما هو تعظيمٌ لله، وإذا وضع اليمنى على اليسرى فهو ذلّ بين يدي مولاه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (هو ذلّ بين يدي عزيز)، وإذا ركع فهو إقرار بعظمة الله، وإذا سجد فهو تواضعٌ أمام علو الله، وهكذا يكون المسلم في صلاته، يوثق الصلة بمولاه، ليفوز بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد، أخرج الإمام

(١) صحيح النسائي (٣٩٥٠).

(٢) صحيح أبي داود (٤٩٨٦).



مسلم في صحيحه عن عثمان عن النبي قال: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها؛ إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤت كبيرة، وذلك الدهر كله»[1].

أيها الإخوة المصلون: إن المصلي حقًا من يقيم الصلاة كاملة الفرائض والأركان، مستوفيةَ الشروط والواجبات والآداب، يستغرق فيها القلب، ويتفاعل من خلالها الوجدان، ويحافظ عليها محافظة تامة قدر الطاقة، يبعثه على ذلك قلب يقظ، وشعور صادق، وإحساس مرهف، وضمير حيّ، فينصرف بكليته إلى الصلاة؛ لأن الخشوع فيها إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها، واشتغل بها عمّا عداها، وآثرها على غيرها.

ومنزلة الخشوع من الصلاة كمنزلة الرأس من الجسد، فالذي يجعل الصلاة مرتعًا للتفكير في أمور دنياه، ومحلًا للهواجس في مشاغله، قلبه في كل وادٍ، وهمه في كل مكان، يختلس الشيطان من صلاته بكثرة التفاته وعبثه بملابسه ويده ورجله وجوارحه، وربما أخلّ بطمأنينتها، ولم يعِ ما قرأ فيها، فيُخشى أن تُردَّ عليه صلاته، وأن لا تُقبَل.

أمة الإسلام: إنه لمَّا طال بالناس الأمد، وقست قلوبهم، وأساؤوا فهم شعائر الإسلام، أصبحتَ ترى من يُخلّ ببعض شروطها الصلاة وأركانها وواجباتها، فلم تعمل الصلاة عملها في قلوب الناس، ولم تؤثر في حياتهم، فهناك من يؤديها ولكن لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، ولا تمنعه مما يخدش العقيدة، أو يخالف السنة، أو يناقض مبادئ الإسلام، ولا تمنعه من تعاطي الربا، واقتراف الزنا والرشوة والغش، وشرب المسكرات وتعاطي المخدرات، والتساهل في حقوق العباد، والوقيعة في أعراضهم، وما إلى ذلك من المحرمات، فهل أولئك قد أقاموا الصلاة وأدوا حقها؟! والله لو فعلوا ذلك لانتهوا عن كل محرم، وأقلعوا عن كل ما يخالف شرع الله، بدون مشقة أو عنَت، ولكن الخلل في إضاعة جوهر الصلاة، ولا حولا ولا قوة إلا بالله. ال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون الصلاة، ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيهم خاشعًا»، فالله المستعان.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨).



يا أمة محمد: ما هي حالنا اليوم مع هذه الفريضة العظيمة؟! أجساد تهوي إلى الأرض والأذهان غائبة، وأبدان تسجد بين يدي الله ولكن القلوب شاردة، وأفئدة متعلقة بالدنيا إلا من رحم الله، فهل من عودة صادقة أيها المسلمون المصلون إلى ترسُّم خطى المصطفى في هذا الفريضة العظيمة، وغيرها من فرائض الإسلام، لتعود للأمة قوتها وهيبتها بعد أن مُنيت بنكسة خطيرة، أفقدتها كثيرًا من مقوماتها التي تجعلها متماسكة قوية، ألا ما أحرى الأمة وهي تتجرع غصص الهزائم أن تتحرى الأسباب والدوافع لتقوم بالتغلب عليها، وإنها واجدة في شعائر الإسلام -وأعظمها الصلاة- ما يكون سببًا في صقل الأفراد، وتهذيب المجتمعات وصلاح الأحوال، والقضاء على أسباب الضعف والهزيمة، وخُوار الروح المعنوية في الأمة.

نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم ... والحرب تسقي الأرض جامًا أحمرا

جعلوا الوجوه إلى الحجاز فكبّروا ... في مسمع الروح الأمين فكبَّرا

فلنتق الله عباد الله في أمورنا عامة، وفي صلاتنا خاصة، فإن حظ المرء من الإسلام على قدر حظه من الصلاة، ولنفكر في حالنا: ماذا جنينا من جراء التهاون بشعائر الإسلام كلها، لا سيما الصلاة؟! إن أمةً لا يقف أفرادها بخضوع وخشوع بين يدي الله في الصلاة لطلب الفضل والتوفيق منه لجديرة ألا تقف ثابتة في مواقف الصمود والنصر والقوة، لأن هذه كلها من عند الله وحده، فإذا أصلحنا ما بيننا وبين الله أصلح الله ما بيننا وبين الناس، وإن أمة لا يُعفِّر أبناؤها وجوهَهم في التراب ويمرغون جباههم في الأرض تعظيمًا لخالقهم وإعلانًا للعبودية التامة له، لحريّة أن لا تثبت أمام التحديات والمتغيرات، وأن تذوب في خضم المغريات والابتلاءات، وسيول المحن والبلايا، وأن تغرق في مستنقعات الفتن والرزايا، وإن مردّ تردِّي كثير من الأوضاع في شتى البقاع راجع لتردّي أبنائها في أودية المخالفات، وعدم القيام بما هو من أوجب الواجبات، ألا وهو الصلاة، فإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المسؤول أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، ويرزقهم الفقه في دينه والبصيرة فيه، وأن يجعلهم محافظين على شعائر دينهم، معظمين لها، قائمين بعمودها على خير وجه إنه جواد كريم.

أعـوذ بـالله مـن الشـيطان الـرجيم: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بهدي سيد المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي جعل لكل شيء عمادًا، وجعل الصلاة لنا ذخرًا وزادًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده فلا شركاء له ولا أندادًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أكمل الأمة إيمانًا وصلاة وأعظمها عبادة وجهادًا، صلى الله وسلم وبارك عليه، صلاة وسلامًا تامين متلازمين لا نحصيهما أعدادًا، وعلى آله وأصحابه إلى يوم يُبعث الناس زرافات وأفرادًا.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، وعظموا شعائر دينكم، واستحضروا فيها عظمة بارئكم جل وعلا، وفرغوا قلوبكم من الشواغل الدنيوية والعلائق المادية، وأقيموا صلاتكم بقلوب حاضرة خاشعة.

لقد كان الصحابة والتابعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يستغرق الواحد منهم في الصلاة فيُطيلها جدًّا لما يجد من لذة وحلاوة، بل يستغرق في الآية الواحدة خشوعًا وتدبرًا فيكررها حتى ما يكاد يجاوزها إلى غيرها، قال القاسم بن محمد بن أبي بكر: «غدوت يوما وكنت بدأت بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أسلم عليها فإذا هي تصلي الضحى وتقرأ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧]، وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد وتبكي وتدعو».

وكان العنبس بن عقبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسجد حتى تقع العصافير على ظهره فكأنه جذم حائط.

وهذا حبيب بن أبي ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما يسجد يقول عنه أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلو رأيته قلت ميت، -يعني من طول السجود-).

ورؤيَ الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحرم عندما صلى المغرب سجدَ سجدةً فلم يرفع حتى نودي للعِشاء.

وهذا أبو عبد الله البناجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يصلي بالناس فيُصاح بالنفير فلا يخفف الصلاة، فلما فزعوا قالوا: (أنت جاسوس، قال ولم؟ قالوا صيح بالنفير وأنت لم تخفف؟ قال: ما حسبت أن أحدا يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه به الله عَزَّوَجَلَّ).

كان الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور في ظهره سبع عشرة مرة، فلما قضى الصلاة قال: (انظروا ما هذا الذي آذاني).

وسُئل خلف بن أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطرده؟ قال: (أريد أن أعوّد نفسي أن لا يفسد عليّ شيء في صلاتي، قالوا وكيف تصبر؟ فقال: لقد بلغني أن الفساق يصبرون تحت الأسواط في السجن فيقال: فلان صبور، فيفتخرون بذلك، وأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابة ولا أصبر!).

أيها الأحبة: إن من أعظم ما يعين على الصلاة الخاشعة حضور القلب فيها، واستشعار عظمة الخالق جل وعلا، وتفريغ القلوب من الصوارف والشواغل عن الله والدار الآخرة، والتخفف من مشاغل الدنيا، وعمارة القلوب بالإيمان، وسد مداخل الشيطان على الإنسان.

ومما يعين على ذلك أيضًا: قصر النظر على موضع السجود، ووضع اليد اليمنى على اليسرى حال القيام، والتدبر فيما يُقرأ من القرآن، وفيما يُردَّد من الأدعية، وعدم الالتفات، ومراعاة الطمأنينة، والحذر من العجلة ومسابقة الإمام، والعبث والحركة، كل ذلك مع توفيق الله عَزَّوَجَلَّ من الأسباب التي تعين المسلم على إقامة الصلاة كما شرع الله، وكما سن رسوله.

أيها الإخوة في الله: إن من الظواهر الجديرة بالمعالجة، والتي لها أثر كبير في انصراف المصلين عن الخشوع في الصلاة ما قذفت به المدنية المعاصرة من وسائل الاتصال الحديثة، كالهواتف المتنقلة التي بُلي بها كثير من الناس، فيصطحبونها في صلواتهم ومساجدهم، مع نغمات صاخبة، تسبب أذى وإزعاجًا للمصلين، فأي خشوع عند هذا المصلي عفا الله عنه الذي يقطع حلاوةَ إقباله على ربه، ويشوش لذيذ مناجاته لخالقه، ويفسد خشوع المصلين من حوله؛ رنينُ هاتفه المتكرر؟! فيشغل نفسه ويؤذي غيره، فهل هؤلاء الذين جاؤوا إلى المسجد مصطحبين هذه الأجهزة مفتوحة، هل جاؤوا مصلين أم ماذا؟! فليتق الله أولئك في صلاتهم، وليحذروا من إيذاء إخوانهم المصلين، فذلك انتهاك لحرمة بيوت الله، والراغب حقًا في الثواب والأجر، والحريص على الخير والبر، ينتبه جيدًا لمثل هذا، ومتى علم الله من عبده الرغبة في الخير وفقه له وأعانه عليه، ولو أن المسلمين اليوم أدوا هذه الصلاة كما سن رسول الله ﷺ لكانت بتوفيق الله انطلاقة جادة لإصلاح أوضاعهم، وتغيير أحوالهم، وسلامة

مجتمعاتهم، وطريقًا إلى النصر على أعدائهم، وتحقيق ما يصبون إليه في دنياهم وأخراهم؛ لأن في تطبيق شعائر الإسلام السلاح القوي والدرع الواقي من كل مكروه بإذن الله، لأن الدافع إليه قوة الإيمان، وصدق اليقين، والشوق إلى الآخرة.

ألا فاتقوا الله عباد الله: واحرصوا على إقامة صلاتكم؛ فإنها نور لكم في الأرض وذخر لكم في السماء، وإن المتأمل في آيات التنزيل ليجد أن الأمر بالصلاة يأتي دائمًا بأسلوب الإقامة، وفي ذلك معنى زائد على مجرد الأداء، لأن الإقامة تعني الإتمام والعناية، وإن مسؤولية المصلين لعظيمة بالنسبة لأنفسهم، تعاهدًا لها، وعناية بها، وبالنسبة لغيرهم من معارف وأقارب وأبناء وجيران، من حيث أمرهم ونصحهم في هذا الموضوع المهم كما قال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢].

وعلى أئمة المساجد دور كبير في ذلك لأنهم يضطلعون بمهمة كبرى، فعليهم أن يقوموا بها عناية في أنفسهم، وتفقيهًا لإخوانهم بأحكامها وحكمها، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[(١)].

ولا بد من تحقيق التعاون بين الأئمة والمأمومين، وذلك بقيام كل برسالته، لتتحقق النتائج المرجوة بإذن الله.

هذا وصلوا وسلموا رحمكم الله على خير من أقام الصلاة، صاحب المقام المحمود والحوض المورود، واللواء المعقود، كما أمركم بذلك الرب المعبود، فقال تعالى قولًا كريمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله...



(١) رواه البخاري (٦٣١).



كيف تحافظ على صلاتك[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي فرض الصلاة على العباد رحمة بهم وإحسانًا، وجعلها صلة بينهم وبينه ليزدادوا بذلك إيمانًا، وكررها كل يوم حتى لا يحصل الجفاء، ويسرها عليهم حتى لا يكون فيها تعب وعناء، وأجزل لهم ثوابها؛ فكانت بالفعل خمسًا، وبالثواب خمسين؛ فضلًا منه وامتنانًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خالقنا ومولانا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أخشى الناس لربه سرًا وإعلانًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا.

أما بعد:

عباد الله: اتقوا الله تعالى، واعلموا أن من أعظم شعائر الإسلام ومزاياه العظام الصلاة، هذه الشعيرة التي قد خف ميزانها اليوم عند كثير من الناس؛ فأصبحوا لا يؤدونها إلا في النادر -عياذًا بالله- اتباعًا للشيطان، ومجاراة لهوى النفس الأمارة بالسوء، واقتداءً بمن قَلَّ خوف الله وهيبته في قلوبهم، وإنها لخسارة كبيرة أن نرى أعدادًا كثيرة وجموعًا غفيرة من الناس في مجتمع المسلمين لا يبالون بالصلاة، ولا يرتادون المساجد وهم يسمعون المنادي يدعوهم بأعلى صوته، ويقول لهم: (حي على الصلاة.. حي على الفلاح) فيعرضون عنه، وهم يقولون بلسان حالهم، وإن لم يقولوا بلسان مقالهم: لا نريد الصلاة، ولا نريد الفلاح! ولو علموا ما فيها لما ولوا مدبرين، ولما انصرفوا عنها معرضين.

يقول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لأحدثنكم حديثًا لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه، ثم يصلي الصلاة إلا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها»[2].

---

(١) محمد بن سليمان المحيسني.

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٧).



ويقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا؛ فليحافظ على هذه الصلوات الخمس حيث ينادى بهن؛ فإن الله قد شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف»[1].

وما ذاك إلا لإحساسهم بعظمها، ومعرفتهم بمنزلتها ومكانتها عند الله سبحانه؛ إذ هي أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»[2].

ويقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة)[3].

فاعرف نفسك يا عبد الله! واحذر أن تلقى الله عَزَّوَجَلَّ ولا قدر للإسلام عندك؛ فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة فيه.

يقول أحد العلماء: (إن العبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه لقيامه أعظم قيام لله وأقربه، وأغيظه للشيطان وأشده عليه؛ لذا فإنه يجتهد كل الاجتهاد على إفساد صلاته، فيخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي حاجته، وأيس منها، فيذكره إياها في الصلاة؛ ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله عَزَّوَجَلَّ، فينصرف من صلاته مثلما دخل فيها بخطاياه وبذنوبه وأثقاله؛ لأن الصلاة إنما تُكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله بقلبه وقالبه، فهذا هو الذي إذا انصرف منها وجد خِفة في نفسه، وأحس بأثقال وضعت عنه؛ فيجد نشاطًا وراحة، وقرة عين؛ لذلك المحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم وقدوتهم رسول

---

(١) صحيح مسلم، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى (١/ ٤٥٣)، رقم (٦٥٤).
(٢) الترمذي رقم (٤١٣) وصححه الألباني.
(٣) رسالة الصلاة للإمام أحمد (١٥).

الله ﷺ: «أرحنا بالصلاة يا بلال»[1]، ولكن من الناس اليوم من يقول: أرحنا من الصلاة يا إمام، نسأل الله العافية).

عباد الله: إن للصلاة فضائل ومزايا لا توجد في غيرها من الأعمال؛ فهي أول ما فرض الله بعد الشهادتين، وهي التي فرضت في السماء حينما عُرج برسول الله ﷺ إليها؛ وذلك لأهميتها، وهي أكثر الفروض ذكرًا في القرآن، وهي شعار النبيين، وصفة المتقين، وبها أوصى النبي أمته قبل خروجه من الدنيا، وهو وفي سياق الموت، فقال عليه الصلاة والسلام: «الله الله في الصلاة، وما ملكت أيمانكم»[2]، وإنها آخر وصية كل نبي لأمته، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا، كما أنها سبب لتسهيل عسر الموقف في الحشر، وتخفيف الحساب في دار المآب، وسبب لغرس الصدق والأمانة في النفوس، وسبب لمحبة الله، وإجابة دعوته، وشفاعة نبيه ﷺ، وسبب لتكفير ذنوبه، ومحو سيئاته.

أيها المسلمون: اعلموا أن الصلوات الخمس سبب لتكفير الذنوب الصغائر، وأما الذنوب الكبائر، كأكل الربا، والكذب، والغش في المعاملات، وشهادة الزور، والظلم، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وغير ذلك إنما يكفره الله تعالى بالتوبة إليه فقط؛ فاتقوا الله عباد الله، وتوبوا إليه، وحافظو على الصلاة مع الجماعة في المساجد؛ لتكونوا من المؤمنين المهتدين، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٣٤٦)، رقم (٢٣١٣٧).

(٢) ابن ماجه (١٦٢٦)، ومسند أحمد (٢٦٥٢٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي جعل الصلاة ثانية أركان الإسلام، وأمر بإقامتها والمحافظة عليها على الدوام، وأخبر أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر والآثام، أحمده سبحانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد الأنام، وخير من صلى وصام، اللهم صل عليه وعلى آله وصحابته الكرام، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم التمام.

أما بعد:

أيها الإخوة في الله: لقد تساهل كثير من الناس بأمر الصلاة، فمنهم من تركها بالكلية - عياذًا بالله- من ذلك، ومنهم من لا يصليها إلا في رمضان، ومنهم من لا يصلي إلا الجمعة فقط، ومنهم من يصليها ولكن صلاة صُوْرية لا حقيقية، وعادة اتخذها لا عبادة يتقرب بها، ولذلك لا نجد للصلاة أثرًا في كثير من هؤلاء؛ إذ إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وهؤلاء -أعني بهم الذين يصلونها صلاة شكلية- لم تؤثر فيهم صلاتهم، ولم تنههم عن فحشائهم ومنكرهم، وهذا عائد إلى عدة أمور:

الأمر الأول: عدم الخشوع فيها:

فبعض الناس هداهم الله أجسامهم في المصلى، وقلوبهم في كل واد يجولون ويفكرون في كل شيء، حتى في الأمور التي لا مصلحة لهم فيها، وهذا ينقص الصلاة نقصًا كبيرًا، وهو الذي يجعلها قليلة الفائدة للقلب، وقليلة الثواب والأجر، فيخرج المصلي من مصلاه ولم تزده صلاته إيمانًا ولا نورًا كما ينبغي، وما ذاك إلا لأن الخشوع هو روح الصلاة ولبّها؛ فصلاة بلا خشوع كجسد بلا روح، وقشور بلا لب، كما جاء عَنْ عَمَّارِ بن يَاسِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ: يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمُسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»[1].

---

(١) سنن أبي داود: (٦٧٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٦٢٦).

الأمر الثاني: عدم الطمأنينة فيها:

فبعض الناس ينقرها نقر الغراب لا يطمئن فيها، ولا يذكر الله إلا قليلًا، ولقد حذر الله سبحانه على لسان رسوله من هذا الفعل القبيح، كما ورد في الحديث: أن النبي ﷺ صلى بأصحابه، ثم جلس في طائفة منهم؛ فدخل رجل فقام يصلي، فجعل يركع وينقر في سجوده، ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فقال: «ترون هذا! لو مات لمات على غير ملة محمد، ينقر صلاته كما ينقر الغراب الدم»(١).

وقد جعل رسول الله ﷺ لِص الصلاة شرًا من لِص الأموال وسارقها، فقال ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالوا: يا رسول الله! كيف يسرق صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها»(٢)، فصرح النبي ﷺ بأن الذي لا يتم صلاته، ولا يطمئن فيها، أسوأ حالًا من سارق الأموال، ولا ريب أن لص الدين شر من لص الدنيا.

ولقد بين النبي ﷺ بطلان من لا يطمئن في صلاته، وذلك بقوله للرجل الذي لم يطمئن في صلاته: «ارجع فصل؛ فإنك لم تصل»(٣)، فكررها عدة مرات، والنبي يعيد عليه هذه الكلمة، حتى علمه النبي ﷺ وأمره بالطمأنينة.

الأمر الثالث: مسابقة الإمام:

مسابقة الإمام مما تخل بالصلاة خللًا عظيمًا، ولقد ابتلي كثير من المصلين بهذه الخصلة السيئة، فكثير منهم ما إن يبدأ الإمام بالتكبير إلا وتراه سابقًا له أو متساويًا معه، بل إن بعضهم عندما يهوي الإمام مثلًا للسجود تراه يصل إلى الأرض قبله، وهكذا في الركوع والرفع منه، وفي هذا يقول الإمام أحمد: (ليس لمن سبق الإمام صلاة)(٤).

---

(١) ابن خزيمة، باب إتمام السجود والزجر عن انتقاصه وتسمية المنتقص ركوعه وسجوده سارقا أو هو سارق من صلاته (١/ ٣٣٢)، رقم (٦٦٥)، والبيهقي، باب إدراك الإمام في الركوع (٢/ ٨٩)، رقم (٢٤٠٦).

(٢) صحيح الترغيب (٥٢٤).

(٣) رواه البخاري (٧٢٤)، ومسلم (٣٩٦).

(٤) رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ١٤).

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار»[1]، ويقول البراء بن عازب: «كنا خلف النبي ﷺ، فكان إذا انحط من قيامه للسجود لا يحني أحد منا ظهره، حتى يضع النبي جبهته على الأرض»[2].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (أما مسابقة الإمام فحرام باتفاق الأئمة الأربعة). ولقد ضرب ابن عمر رجلًا يسابق الإمام، وقال: «لا وحدك صليت، ولا بإمامك اقتديت»[3].

وأنت يا أخي! خرجت إلى الصلاة تبتغي وجه الله بذلك، وتعلم أنك لم تنصرف من الصلاة إلا بعد إمامك، سواء سابقت أو لم تسابق؛ فعليك بالانتظار والاطمئنان حتى تكتب من الخاشعين.

الأمر الرابع: كثرة الحركة في الصلاة:

وهو الذي قد فشا وطم وعمت به البلوى؛ فأصبح الكبير والصغير، والمتعلم والجاهل فيه سواء -إلا من رحم الله- ألا وهو كثرة الحركة في الصلاة، حتى إنك في بعض الأحيان تشاهد الرجل يصلي فلا تظن أنه يصلي من كثرة حركته، فتارةً يعبث في غترته، وتارة في ثوبه، وتارة ينظر في ساعته، أو في هاتفه، وتارة يقدم رجله اليمنى ويؤخر اليسرى، ثم لا يلبث أن يعكسهما، وبعضهم يضيف إلى ذلك فرقعة أصابعه.. تساهل، واستهتار، واستخفاف بالصلاة، وجهل بحقيقتها.

لقد امتدح الله عباده المؤمنين وذكر أول صفة نالوا بها الفلاح فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢] قال ابن عمر: «كانوا إذا قاموا في الصلاة أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يُقبل عليهم، فلا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا».

---

(١) صحيح البخاري، باب إثم من رفع قبل الإمام (١/ ٢٤٥)، رقم(٦٥٩)، وصحيح مسلم، بَاب تَحْرِيمِ سَبْقِ الْإِمَامِ بِرُكُوعٍ أو سُجُودٍ وَنَحْوَهُمَا (١/ ٣٢٠)، رقم(٤٢٧).

(٢) رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ١٥).

(٣) المصدر السابق (١٦)، وعمدة القاري (٥/ ٢٢٤).

وقد رأى بعض السلف رجلًا يعبث بيده في الصلاة فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه).

وكان عبد الله بن الزبير إذا قام في الصلاة فكأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جذعًا أو حائطًا أو خشبة منصوبة لا تتحرك.

وعن ميمون بن حيان قال: (ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا في صلاته قط، خفيفة ولا طويلة؛ ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع أهل السوق لهدمه، وإنه لفي المسجد، في الصلاة؛ فما التفت).

وعن عبد الله بن عون قال: (رأيت مسلم بن يسار يصلي، كأنه وتد، لا يميل، على قدم مرة، ولا على قدم مرة؛ ولا يتحرك له ثوب. وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلموا، أو ضحكوا، علمًا منهم بأن قلبه مشغول عنهم، وكان يقول: إلهي، متى ألقاك وأنت راضٍ).

وعن الأعمش قال: كان إبراهيم التيمي إذا سجد تجيء العصافير تستقر على ظهره كأنه جذم حائط.

فأين نحن من هؤلاء؟ وإنهم لم يبلغوا ما بلغوه دفعة واحدة، بل مع دوام الاستعانة والمجاهدة، فمن صدق مع نفسه ترقّى إلى مراتب الكمال في العبادات والعادات والآداب والمعاملات، ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

الأمر الخامس: عدم تسوية الصفوف وعدم تسديد الفُرج:

فقد تساهل به البعض، حتى صار لا يهمه إلا أن يقف في الصف فقط، أما كونه متقدم أو متأخر أو بينه وبين أخيه مسافة فهذا ليس عنده بشيء، وقد قال رسول الله ﷺ: «أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفًا وصله الله، ومن قطع صفًا قطعه الله»[1].

(١) سنن أبي داود، تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الصُّفُوفِ بَاب تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ، (١/ ١٨٧)، رقم (٦٦٦).

وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، فقلنا: يا رسول الله! وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «سووا صفوفكم؛ فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»(٢).

ويقول الرسول ﷺ: «لتسوون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم»(٣). فهذه الأحاديث كافية بالأمر بتسوية الصفوف وتعديلها، ودالة على اهتمام الرسول وصحابته بها، فعلينا الاقتداء بنبينا ﷺ وأصحابه.

الأمر السادس: إيذاء المصلين برائحة لا تليق كأكل الثوم والبصل:

البعض قد لا يتنبه لهذه المسألة ولا يشعر بها إلا حينما يتأذى بها من غيره، ومن الآداب الشرعية والأخلاق المرعية أن يحرص الإنسان على طيب رائحته في أي مكان يكون فيه، ومع أي شخص يجلس معه، فكيف إذا كان ذلك في خير البقاع، وعند الوقوف بين يدي الله، لأداء أعظم فرائض الله!

لهذا فقد نهى النبي ﷺ من أكله ثومًا أو بصلًا أن يحضر المسجد، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «من أكل هذه الشجرة؛ فلا يقربنا، ولا يصلين معنا»(٤).

---

(١) صحيح مسلم، بَاب الْأَمْرِ بِالسُّكُونِ فِي الصَّلَاةِ وَالنَّهْيِ عن الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ وَرَفْعِهَا عِنْدَ السَّلَامِ وَإِتْمَامِ الصُّفُوفِ الْأُوَلِ وَالتَّرَاصِّ فيها وَالْأَمْرِ بِالِاجْتِمَاعِ (١/ ٣٢٢)، رقم (٤٣٠).

(٢) صحيح البخاري، باب إثم من لم يتم الصف (١/ ٢٤٥)، رقم (٦٩٠)، ومسلم، باب تسوية الصفوف وفضل الأول فالأول (١/ ٣٢٤)، رقم (٤٣٣).

(٣) صحيح البخاري، باب تسوية الصفوف عند الإقامة (١/ ٢٥٣)، رقم (٦٨٦)، ومسلم، باب تسوية الصفوف وفضل الأول فالأول (١/ ٣٢٤)، رقم (٤٣٦).

(٤) صحيح البخاري، بَاب ما جاء في الثُّوم النيىء وَالْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ (١/ ٢٩٣)، رقم (٨١٨)، ومسلم، بَاب نَهْيِ من أَكَلَ ثُومًا أو بَصَلًا أو كُرَّاثًا أو نحوهما (١/ ٣٩٤)، رقم (٥٦٢).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «من أكل ثومًا أو بصلًا؛ فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا»(١)، وفي رواية لمسلم: «من أكل الثوم والبصل والكراث؛ فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم»(٢). ويقاس على ما ذكر كل ذي ريح كريه كالدخان ونحوه، وهذا كله من محاسن الإسلام وحرصه على تآلف الناس، وإبعاد كل ما من شأنه تنفيرهم، أو تفريق جموعهم.

الأمر السابع: التشويش على الناس بنغمات الهواتف:

هذه ظاهرة حديثة، ومخالفة شاعت، وأخطاء تكررت، فإن البعض من الإخوة وفقهم الله، قد يضعون لهواتفهم نغمات موسيقية لا يقرها الشرع، ولا تليق بالمسلم العاقل، ثم يضيفون إلى ذلك أن تكون هواتفهم مفتوحة وقت الصلاة، فإذا داهمهم أحد باتصال، تشوّش بذلك خشوعهم وخشوع المصلين معهم؛ وأصبحوا في موقف حرج وحالة لا يُحسدون عليها، نتيجة تلك الاتصالات التي كانت بمثابة مُشغل لتلك الأغاني والنغمات الصاخبة.

وإن من اللائق بالمسلم أن يضع لهاتفه عبارة عن منبّه ينبّهه فقط إلى ورود مكالمة، لا أن تكون كما لو أنه يفتتح حفلة غنائية كلما جاءته مكالمة لكونه يحب سماع تلك الأغنية أو الموسيقى مرارًا.

ثم إن من توقير الصلاة وتعظيم شعائر الله أن يضع أحدنا هاتفه على الوضع الصامت من حين دخوله إلى المسجد، ومن نسي ذلك، فالآن، ولا يستحي أحد من الخطأ، فكلنا ذوو خطأ ونسيان، لكن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن يزعج غيره في المسجد بقراءة القرآن: «يا أيها الناس كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة فتؤذوا المؤمنين»(٣). فكيف بالكلام؟

---

(١) صحيح البخاري، بَاب ما جاء في الثُّوم النيىء وَالْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ (١/ ٢٩٢)، رقم (٨١٧).
(٢) صحيح مسلم، بَاب نَهْيِ من أَكَلَ ثُومًا أو بَصَلًا أو كُرَّاثًا أو نحوها (١/ ٣٩٥)، رقم (٥٦٤).
(٣) أبو داود وصححه الألباني.

أيها الإخوة: هذه خصال ذكرناها؛ بعضها يبطل الصلاة، وبعضها ينقص أجرها وثوابها؛ فاجتنبوها رحمكم الله، وجعلنا الله جميعًا من المصلين المفلحين.

صلوا وسلموا على خير عباد الله؛ فقد أمركم الله بذلك، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]..





صفة الصلاة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرع لعبادة الشرائع وأكملها، وبين لهم حدودها وفروضها وسننها، لم يترك عباده في حيرة من أمرهم ولا نقص من دينهم، بل بين لهم الدين وأتم عليهم النعمة، فلم يمت نبيه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فلله الحمد والنعمة والفضل والمنة، وأشهد إلا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا؛ فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

أما بعد:

فيا عباد الله: ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى ذات يوم على المنبر، فكان إذا أراد أن يسجد نزل إلى الأرض ثم سجد عليها، فلما فرغ قال عليه الصلاة والسلام: «إنما فعلت ذلك لتأتموا بي، ولِتعلَّموا صلاتي»[2]. وقد أمر عليه الصلاة والسلام كما عند البخاري أن نصلي كصلاته ﷺ فقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[3].

ينبغي على المسلم أولًا أن يتعلم ويحسن صفة الوضوء، فإذا أحسن المسلم وضوءه فإنه يستقبل القبلة، وقبل أن يكبّر تكبيرة الإحرام عليه أن لا يتلفظ بأي قول، فما يُسمع من بعض

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) صحيح أبي داود (١٠٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٣١).



المأمومين حينما يفرغ المؤذن من الإقامة من قول: توجهنا إلى الله، أو اللهم اجعل لنا منها حظًّا ونصيبًا، أو ما شابه ذلك، لم يرد عن رسول الله ﷺ.

فيكبر تكبيرة الإحرام قائلًا: «الله أكبر». وعليه أن يستحضر معناها، «الله أكبر» أي من كل شيء، بمعنى أن ما في ذهني أو ما في كياني من الدنيا من الهموم ومن الأحزان تتلاشى؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أكبر من كل شيء، ولذا عليه الصلاة والسلام كما عند أبي داود إذا حزبه أمر قال: «أرحنا بها يا بلال»[1]، بينما الواحد منَّا لو جاءه أمر يُثْقله أو همٌّ يقْلِقه فإن الصلاة تكون عليه ثقيلة، بينما حال النبي ﷺ ليس كذلك؛ لأنه يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ أكبر من كل شيء.

فيكبر تكبيرة الإحرام، والسنة له في مثل هذا الموطن أن يرفع يديه مضمومتي الأصابع إما حذو منكبيه وإما حيال أذنيه، ورد هذا وورد هذا، وإن فعل المسلم ما ورد عن النبي ﷺ من وجوه متنوعة، لو فعل ذلك مرة ومرة فعل الأخرى لكان أفضل وأحسن، وأما ما يفعله البعض من كونه يضع إبهاميه عند شحمة أذنيه، فإن هذا قد جاء في سنن أبي داود لكنه حديث ضعيف، وأما السنة كما أسلفتُ إما أن يكون الرفع حذو منكبيه أو حيال أذنيه، وتكون الأصابع مضمومة، ويستحضر المسلم بأن هذا الرفع زينة للصلاة، وأنه تعظيم لله عَزَّوَجَلَّ تعظيمًا فعليًّا، فإنه لما عظَّم الله سبحانه وتعالى بقول: «الله أكبر»، فإنه ذكَّر نفسه بتعظيم فعلي، وذلك بأن يرفع يديه، وليعلم أيضًا أن الرفع إيذان بأنه أحرم في الصلاة، وأنه دخل في مناجاة الله عَزَّوَجَلَّ، إلى غير ذلك من الحكم التي ذكرها العلماء في استحباب رفع اليدين.

والرفع -عباد الله- إما أن يكون مع التكبير، فيكون الرفع مقارنًا للتكبير، وإما أن تبدأ بالرفع ثم تقول: «الله أكبر»، أو تقول: «الله أكبر» ثم ترفع يديك، كل هذا وارد، فهذه الصفات الثلاث واردة عن النبي ﷺ، فلو فعلها المسلم أحيانًا وأحيانًا، مرة هذه ومرة تلك فهذا خير عظيم.

فإذا رفع يديه مع التكبير أو قبل التكبير أو بعد التكبير فإن السنة في حقه أن يضع يده اليمنى على يده اليسرى على صدره في الصلاة، وليس المقصود أن يُبالغ في هذا مثل ما يفعل

---

(١) صحيح أبي داود (٤٩٨٥).



البعض، ربما يرفع يديه إلى أن يصل إلى حنجرته، كلا، الصدر محيطه واسع، وإنما يكون في الوسط، تكون اليدان اليمنى على اليسرى على الصدر في الوسط، وما يفعله البعض من جعل اليمنى على اليسرى جهة الصدر الأيسر باعتبار أن القلب فيها فهذا ليس واردًا عن النبي ﷺ، وشرع الله لا يخضع للاستحسانات ولا للآراء، وإنما يكون اتباعًا واقتداءً وتأسيًا برسول الله ﷺ.

والسنة في حق المسلم أنه من حين ما يرفع مباشرة يضع اليدين على الصدر؛ لأن البعض من الناس يرفع يديه ثم ينزلها حتى تصل جانبيه، ثم يرفعها مرة أخرى، ثم يضعها على الصدر، فهذا ليس من السنة، السنة من حين ما ترفع وتنزل يديك تضع اليمنى على اليسرى على صدرك.

والسنة في حقك أن تنظر إلى موضع سجودك في الصلاة كما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام.

فيقرأ المسلم دعاء الاستفتاح، فيبدأ بدعاء الاستفتاح، ودعاء الاستفتاح إنما يكون في الركعة الأولى، الركعة الثانية والثالثة والرابعة ليس فيها استفتاح، إنما الاستفتاح في الركعة الأولى بعدما يكبر، وأنواع الاستفتاحات كثيرة، مَنْ فعل واحدًا منها أصاب السنة، ومن فعلها مرارًا -مرةً هذا النوع ومرةً هذا النوع- فهذا خير عظيم وأجر كبير، فيستفتح وهو سنة عند جماهير العلماء لو تركه لما بطلت صلاته، ثم يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الشيطان الرجيم، ثم يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم يقرأ الفاتحة.

وقراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة في حق الإمام وفي حق المنفرد، وكذلك في حق المأموم على الصحيح، سواء أكان في صلاة سرية أم جهرية، ومن ثم فإن الناس كثيرًا ما يسألون عن قراءتهم للفاتحة إذا قرأ الإمام في صلاة جهرية بعد الفاتحة حينما يقرأ سورة، هل يقرأ أم لا؟! خلاف بين العلماء، والذي عليه الفتوى من لدن الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين -رحمة الله عليهما- وهو قول لبعض سلف هذه الأمة أنه يقرأ سورة الفاتحة ولو كان الإمام يقرأ؛ لأن سورة الفاتحة مستثناة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وثبت في المسند بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال:

«لعلكم تقرؤون خلف إمامكم!!»، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «لا تفعلوا إلا بأم الكتاب»[1]، ثم إذا قرأ الفاتحة فإن السنة في حقه أن يقول: آمين، ومعناها: اللهم استجب، لأن في الفاتحة دعاء، وهو قول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾، فنقول: آمين، وليست من الفاتحة، وهي سنة، لو تركها لا شيء عليه، لكن الأفضل أن يؤتى بها، وإذا كانت في صلاة جهرية فالسنة في حق المأموم أن يجهر بها وأن يرفع بها صوته كما هي السنة في حق الإمام، ويكون قولها بعد قول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]، يقولها الإمام ويتابعه المأموم في قولها، وأما ما يصنعه البعض من مسابقة الإمام بالتأمين قبل أن ينهي الفاتحة فهذا من المسابقة للإمام التي رتب النبي عليه الصلاة والسلام عليها وعيدًا شديدًا، فلا يجوز لأحد أن يقول: آمين، قبل أن يفرغ الإمام من قول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧].

فإذا قرأ سورة الفاتحة فإن السنة له في الركعة الأولى والثانية، السنة له أن يقرأ سورة أو ما تيسر من القرآن وليست واجبة؛ لأن البعض من الناس نسمعهم إذا قرأ الإمام الفاتحة في صلاة جهرية يقرأ بالفاتحة ويقرأ سورة أخرى يظن أن صلاته لا تصح إلا بقراءة السورة الأخرى، وهذا وقع في خطأ، كيف وقع في خطأ؟!

أولًا: هذه السورة التي بعد الفاتحة سنة.

ثانيًا: أنه يقرأ سورة والإمام يقرأ، ومعلوم أن الإمام إذا قرأ لا يجوز لأحد أن يقرأ لا قرآنًا ولا ذكرًا ولا تسبيحًا ولا ذكرًا ولا استغفارًا ولا غير ذلك، اللهم إلا ما استثناه الشرع من قراءة الفاتحة فقط، ولذلك لو أتيت إلى الإمام وهو يقرأ في الفاتحة وكبرت تكبيرة الإحرام لا تستفتح إنما تستمع، لم؟! لأن دعاء الاستفتاح سنة، ولو استفتحت لخالفت الإمام، قرأت والإمام يقرأ، ومعلوم -كما أسلفت- أن المأموم لا يقرأ شيئًا البتَّة لا قراءة ولا ذكرًا والإمام يقرأ إلا الفاتحة فقط، فيقرأ هذه السورة أو ما تيسر من القرآن، وهي سنة؛ لأنه جاء في قصة معاذ مع ذلك الرجل أنه لما أطال معاذ في القراءة، انصرف هذا الرجل من الصلاة فأتى إلى

---

(١) صححه الوادعي في الصحيح المسند (١٥١٩).

النبي عليه الصلاة والسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا تقول في صلاتك؟!»، قال: أقرأ الفاتحة، وأسأل الله الجنة، وأستعيذ به من النار، ولا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال عليه الصلاة والسلام: «حولها ندندن»[1]، يعني ما أكثرنا من القراءة ولا أطلنا في الركوع ولا في السجود إلا من أجل أن يدخلنا الله الجنة وأن يعيذنا من النار، فإذا فرغ من السورة أو ما تيسر من القرآن فإنه يكبر تكبيرة الانتقال، فيكبّر للركوع، وما يصنع البعض من تأخير التكبير إلى أن يصل إلى الركوع، فهذا خطأ، فمن حين ما تنحني تكبِّر مباشرة، أما ما يفعله البعض -وهو أنه ينحني إلى الركوع وهو ساكت- فإذا وصل إلى الركوع قال: الله أكبر، فهذا خطأ، السنة من حين ما تنحني تكبّر، والسنة أن ترفع يديك مع تكبيرة الركوع.

وتكون صفة الركوع أن يكون الظهر متساويًا مع الرأس، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما يركع، يقول وابصة بن معبد: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصلِّي فكانَ إذا رَكَعَ سوَّى ظَهْرَهُ حتَّى لَو صُبَّ عليهِ الماءُ لاستقرَّ»[2]، من استقامة ظهره عليه الصلاة والسلام، فيقول: سبحان ربي العظيم، لو قالها مرة كفت، وهذا هو الواجب، وأدنى الكمال ثلاث، ولا حد لأكثره، وكلما كان الإنسان معظمًا لله سبحانه وتعالى في ركوعه كان أفضل وأعظم، فإن كان الإنسان يحفظ ما ورد عن النبي ﷺ من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في الركوع فشيء حسن، لكن إن لم يحفظ يقول: «سبحان ربي العظيم»، ثم يعظم الله عَزَّوَجَلَّ بما يليق به سبحانه وتعالى، فإذا رفع من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده»، ومعناها: استجاب الله لمن حمده، ولذلك إذا قلنا: «سمع الله لمن حمده»، ماذا نقول؟! نقول: «ربنا ولك الحمد»، يعني ربنا استجب ولك الحمد.

وهنا يخطئ بعض الأئمة، بل إني أقول: إنه يجني على المأمومين؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال -كما عند البخاري- عن الأئمة قال: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم»[3]، فيجني على نفسه قبل أن يجني على إخوانه المصلين، بعض الأئمة

---

(١) صححه الألباني في صفة الصلاة (١٨٥).

(٢) صحيح ابن ماجه (٧١٩).

(٣) رواه البخاري (٦٩٤).

إذا رفع رأسه من الركوع لا يقول شيئًا، فإذا رفع رأسه لم يقل شيئًا، فإذا انتصب قائمًا قال: «سمع الله لمن حمده»، وهذا خطأ، من حين ما ترفع تقول: «سمع الله لمن حمده» مثل ما ذُكر في التكبير؛ لأن البعض من المسبوقين قد يأتي والإمام خلفه ثلاثة صفوف أو عشرة صفوف، فيظن هذا المأموم أن الإمام ما زال راكعًا فيظن أنه قد أدرك الركعة، وهو في حقيقة الواقع لم يدرك الركعة؛ لأن الإمام قد قام وانتصب، وهنا خطأ، يجب في مثل هذا الموضع أن يبدأ الإمام قائلًا -حينما يرفع رأسه من الركوع-: «سمع الله لمن حمده»، ثم يقول الجميع: «ربنا ولك الحمد»، هذا هو الواجب، وإن زاد «حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه مباركًا عليه ملء السماوات والأرض...»، إلى آخر ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا شيء حسن، لكن إن كان لا يحفظ والإمام يطيل يمكن أن يكرر: «ربنا ولك الحمد، ربنا ولك الحمد»، جاءت بذلك السنة في سنن أبي داود، فإذا أراد أن يسجد يكبر من حين ما ينحني، ولذلك بعض الناس -وهذا الخطأ هو نفس الخطئين السابقين- يقول وهو قائم: «ربنا ولك الحمد»، ثم وهو نازل يقول: «حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه مباركًا عليه ملء السماوات والأرض»، فإذا وصل إلى السجود قال: «الله أكبر»، فهذا خطأ، من حين ما تنحني انتهى ذكر القيام الذي بعد الركوع، فمن حين ما تنحني تبدأ بالتكبير، والسنة -في أصح قولي العلماء فيما أراه- أنه يبدأ بركبتيه قبل يديه، وإن كان عاجزًا فيمكن أن يقدم يديه قبل ركبتيه، لكن السنة فيما يظهر -والعلم عند الله- أنه يقدم ركبتيه قبل يديه.

والسنة في هذا السجود أن يضم أصابع كفيه مستقبلًا بهما القبلة، وأن يرفع ذراعيه ولا يبسطهما بسط الكلب، ويجافي عن عضديه ويرفع فخذيه عن ساقيه وبطنه عن فخذيه، هذا إذا كان منفردًا أو إمامًا، أو مأمومًا بحيث لا يشق على إخوانه، فإن كان عن جانبيه أحد يشق عليه إذا جاف فلا يجافي لأنها سنة، كما أن السنة في الركوع أنه يضع كفيه على ركبتيه مفرجتي الأصابع، ليست مضمومة، وإنما مفرجتي الأصابع كأنه يعتمد عليها لا يمسهما مسًّا فقط، لا، كأنه معتمد عليها كما كان يفعل عليه الصلاة والسلام، والسجود يكون على الأعضاء السبعة (الجبهة مع الأنف - وأطراف أصابع القدمين - والكفين - والركبتين)، ولذلك إذا لم يسجد

الإنسان على هذه الأعضاء السبعة فإن سجوده لا يصح، ومن ثم إذا لم يصح السجود -وهو ركن- لم تصح الصلاة، ومن هنا تقع أخطاء، من بينها:

أن البعض من الناس يسجد على جبهته دون أن يلامس أنفه الأرض، هذا خطأ، لابد أن يصل الأنف إلى الأرض مع الجبهة، وليس معنى هذا كما أسلفتُ أن يبالغ الإنسان وأن يضغط على جبينه وعلى أنفه في الأرض، لا، وإنما المراد أن يصل الأنف إلى الأرض ملامسًا لها وكذلك الجبهة.

ومن الأخطاء: أن البعض -وخصوصًا الشباب- إذا سجد سجد على أطراف أصابعه، وباطن الكفين لا يصلان إلى الأرض ولا يمسان الأرض إذا سجد، وهذا خطأ، فلابد أن تسجد بجميع الكف على الأرض.

ومن الأخطاء: أن البعض يرفع أطراف وأصابع قدميه فلا يمس أصابع قدميه الأرض، وهذا خطأ، لابد أن يسجد على أصابع قدميه، والسنة في حقه أن يرص عقبيه فيلصق العقبين بعضهما ببعض، هذا هو السنة، ولو فرَّج فلا بأس بذلك، لكن السنة كما صح عند ابن خزيمة أن يرص عقبيه، ويقول: «سبحان ربي الأعلى»، والواجب مرة واحدة، وإن قالها ثلاثًا فهو أكمل، وإن زاد فهو أفضل، ولكن في السجود عليه أن يُكثر من الدعاء، كما أن الركوع كما قلتُ عليه أن يكثر من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وليس معنى هذا أن الركوع لا يدعى فيه الله عَزَّوَجَلَّ، لا، لو دعا في بعض الأحيان في الركوع لا بأس بذلك، وردت بذلك السنة، ولو عظَّم الله سبحانه وتعالى في سجوده في بعض الأحيان فقد وردت بذلك السنة، لكن الغالبية في الركوع هو تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، والغالبية في السجود هو دعاء الله عَزَّوَجَلَّ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

وبعد:

نواصل في شرح صفة الصلاة؛ فبعد السجود يرفع المصلي من السجود قائلًا: «الله أكبر»، وبين السجدتين تكون اليدان اليمنى موضوعة على فخذه الأيمن وأطراف أصابعه ممدودة إلى ركبتيه اليمنى، واليد اليسرى موضوعة على فخذه الأيسر، وأطراف أصابع يديه عند ركبة قدمه اليسرى، ويقول: «رب اغفر لي»، هذا هو الواجب، وإن زاد مما وردت به السنة فهو حسن، وإن كرر «رب اغفر لي، رب اغفر لي»[(1)]، جاءت بذلك السنة عن النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الدعاء يقال بين السجدتين؛ لأن البعض من الناس يقولها من حين ما يرفع، لا، هذا الدعاء يقال إذا استتممت جالسًا؛ لأن البعض من الناس وهو ساجد ينهي التكبير في لحظة الرفع ويقول: رب اغفر لي، هذا القول يجب أن يكون وأنت جالس قد استتممت في الجلوس، كما هو الشأن في بعض الناس حينما يرفع قائمًا إلى الركوع الثاني قبل أن ينتصب قائمًا يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:١-٤]، هذا خطأ، قراءة الفاتحة لابد أن تكون وأنت قائم لا تصح وأنت منحنٍ، اللهم إلا إن كنت عاجزًا تعرف أنك لو وصلت إلى القيام ربما ما تدرك الإمام في قراءة الفاتحة، فهذا شيء آخر، أما وأنت سليم قادر على أن تأتي بها فيجب عليك أن تأتي بها وأنت قائم.

فيقول: «رب اغفر لي، وارحمني وعافني واهدني وارفعني وارزقني واجبرني»[(2)]، إلى غير ذلك مما ورد عنه عليه الصلاة والسلام.

وهنا أمر وهو أن البعض من الناس لا تصح له صلاة، لم؟! لأنه من حين ما يرفع من السجود مباشرة يسجد السجدة الثانية، هذا خطأ، أين الطمأنينة؟! يجب أن تكون الطمأنينة

---

(١) صحيح إرواء الغليل (٣٣٥).

(٢) مسند أحمد وصححه أحمد شاكر (٥/ ١٧٢).

موجودة في جميع الأركان، كما يفعل بعضهم إذا رفع من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده»، ثم مباشرة يهوي ساجدًا، هذا خطأ، لابد أن يستتم قائمًا، وأن يطمئن في قيامه.

فيسجد السجدة الثانية ثم يقوم إلى الركعة الثانية، وكما أسلفت لا يقرأ الفاتحة حال نهوضه، وإنما إذا انتصب قائمًا، فيفعل في الركعة الثانية ما فعل في ركعته الأولى ما عدا دعاء الاستفتاح، فدعاء الاستفتاح لا يقال إلا في الركعة الأولى فقط، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذا استتم قائمًا، ثم يبسمل ثم يقرأ الفاتحة، ويفعل في ركعته الثانية ما فعل في ركعته الأولى، ثم إذا رفع من السجدة الثانية في الركعة الثانية، هنا يأتي التشهد، فإن كانت الصلاة ثنائية مثل الفجر أو الكسوف أو الاستسقاء أو العيدين، فهذا التشهد يكون في حقه التشهد الأخير فيتشهد «التحيات لله»، إلى آخر ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام، ولا يجوز أن تبدل الألفاظ، وأن توضع ألفاظ مكان أخرى، لأن البعض من الناس يمكن أن يقرأ التشهد في مكان «رب اغفر لي»، هذا خطأ، «رب اغفر لي» بين السجدتين، والتشهد إذا رفع من السجدة الثانية من الركعة الثانية، هذا هو مقام التشهد، فلا يخلط بين الأمرين، فيتشهد التشهد الكامل، والسنة في حقه، ويتأكد بل أوجبها بعض العلماء، وهو قول قوي، وهو أنه في التشهد الأخير يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[1]، وهنا إذا جلس للتشهد الأخير في الصلاة الثنائية كصلاة الفجر هنا يجلس مفترشًا، وجلسة الافتراش تكون أيضًا بين السجدتين، وتكون في التشهد في الصلاة الثنائية.

ما هو الافتراش؟! الافتراش: أن ينصب رجله اليمنى وتكون أطراف أصابع اليمنى تجاه القبلة، وأما الرجل اليسرى فإنه يفرشها ويجلس بمقعدته على رجله اليسرى، إذًا تكون اليمنى منصوبة وتكون اليسرى مفروشة جالسًا بمقعدته عليها، وتكون يداه كما أسلفنا بين السجدتين تكون في التشهد، ولكنه في مثل هذه الحال تكون اليسرى مبسوطة وتكون اليمنى مضمومة الأصابع، يضم أصابعه، وإما يُحلِّق بأن يضع الإبهام على الوسطى ثم يشير ويحرك بها إذا دعا.

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).

وهل التشهد كله دعاء؟! بمعنى أنه من حين ما أجلس للتشـهد أرفـع إلى أن أفـرغ مـن التشهد، أم أنه فقط في الدعاء إذا قلت مثلًا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، هذا محتمل وهذا محتمل، والأمر في ذلك واسع. هذا إذا كانت الصلاة ثنائية، أما إذا كانت الصلاة ثلاثية مثل المغرب، أو كانت رباعية مثل الظهر والعصر والعشاء، فهنا يـأتي شيء آخر زائد.

أيها الأحبة: إن تعلُّم صفة الصلاة والطهارة لها هو من أوجب الواجبات التي لا ينبغي أن يحجبنا عنها خجل أو حياء، أو غفلة أو استهانة بأهميتها، فهل يتجرأ أحد منا أن يقول لمسـألة من هذه المسائل: من يعلمني كذا؟ أو ما حكم كذا؟ فإنـه لا ينـال العلـم مُسـتحٍ ولا متكـبر؛ ولقد كان الرجل يسلم على عهد النبي ﷺ، ثم أول ما ينشغل به أن يتعلم أمور دينه وما يحتاج إليه من العبادات في يومـه وليلتـه، ولم يـأمر الله نبيـه أن يسـأله الزيـادة مـن شيء إلا العلـم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]..

نسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علَّمنا، إنه قريب مجيب...



القناعة بأهمية الصلاة وفضل الجماعة(1)

الخطبة الأولى:

الْـحَمْدُ للهِ الَّذِي أَمَرَنَا بإقامةِ الصلواتِ، وضاعَفَ الأَجْرَ لِلمُصلينَ فِي الجماعاتِ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، القائل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] وأَشْهَدُ أَنَّ سيدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وصفيُّهُ مِنْ خلقِهِ وحبيبُهُ القائلُ: «صَـلاةُ الْـجَمَاعَةِ تَفْضُلُ عَلَى صَلاَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»(2) اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبـارِكْ علَى سيدِنَا محمدٍ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

فيا أيّها المسلمون: اتَّقوا الله فإنّ تقواه أفضلُ مكتَسَب، وطاعته أعـلى نسـب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيّها المسلمون: لقد أنعَم الله عليكم بنعمٍ سـابغة وآلاء بالغـة، نعـمٍ تنعمـون في ألطافهـا، ومننٍ أُسدِلت عليكم جلابيبُها، وإنّ أعظمَ نعمةٍ وأكبرَ مِنّة هي نعمةُ الإسلام والإيمان، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

فاحمَدوا الله كثيرًا على ما أولاكم وأعطاكم، واشكروه على ما إليه هداكم، حيث جعلكـم من خير أمّةٍ أخرِجت للناس، وهداكم لمعالم هذا الدين الذي ليس فيه التِباس.

ألا وإنَّ من أظهرِ معالِمه، وأعظمِ شعائره، وأنفع ذخائره الصلاةَ، ثانيـةَ أركـان الإسـلام ودعائمه العظام، هي بعد الشهادتين آكَدُ مفروض، وأعظم معرُوض، وأجلُّ طاعةٍ، وأرجى بضاعة، من حفِظها حفِظ دينَه، ومن أضاعها فهو لما سواها أضيَع، هي عمودُ الدّيانة، ورأسُ

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.
(٢) رواه البخاري (٦٤٥)، والترمذي (١٩٩)، واللفظ له.



الأمانة، يقول النبيّ ﷺ: «رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة»(١).

الصلاة.. هي أحسنُ ما قصده المرءُ في كلّ مهِمّ، وأولى ما قام به عند كلِّ خطبٍ مدلهِمّ، خضوعٌ وخشوع، وافتقار واضطرار، ودعاءٌ وثناء، وتحميد وتمجيد، وتذلُّل للعليِّ الحميد، يقول رسول الهدى ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا كان في الصلاة فإنّه يناجي ربّه» متفق عليه(٢).

الصلاة هي سرُّ النجاح وأصلُ الفلاح، وأوّلُ ما يحاسب به العبدُ يومَ القيامة من عمله، فإن صلَحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسَدت فقد خاب وخسِر، المحافظةُ عليها عنوان الصِدق والإيمان، والتهاون بها علامةُ الخذلان والخُسران، من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة، ومن لم يحافِظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهان ولا نجاة، وكان يومَ القيامة مع قارون وفرعونَ وهامان وأُبيِّ بن خلف.

الصلاة فيها نفحاتٌ ورحمات، وهِبات وبركات، بها تُكفَّر السيئات وتُرفَع الدرجات وتضاعَف الحسنات، يقول رسول الهدى ﷺ: «أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يوم خمسَ مرّات، هل يبقى من درنه شيء؟!» قالوا: لا يبقى من درنه، قال: «فذلك مَثَل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهنّ الخطايا» متفق عليه(٣).

الصلاة عبادةٌ تشرِق بالأملِ في لُجّة الظلُمات، وتنقذ المتردّي في دَرب الضلالات، وتأخذ بيد البائِس من قَعر بؤسه، واليائس من دَرك يأسِه، إلى طريق النجاة والحياة، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

أيها المسلمون: إنّ ممّا يندَى له الجبين ويجعل القلبَ مكدَّرا حزينًا ما فشا بين كثيرٍ من المسلمين من سوءِ صنيع وتفريطٍ وتضييع لهذه الصلاةِ العظيمة، فمنهم التاركُ لها بالكلّيّة، ومنهم من يصلّي بعضًا ويترك البقيّة، لقد خفّ في هذا الزمانِ ميزانها، وعظُم هُجرانها، وقلّ أهلُوها، وكثُر مهمِلُوها، يقول الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: دخلتُ على أنس بن مالك

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٧)، والترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح)، وصححه الحاكم (٣٥٤٨)، وانظر السلسلة الصحيحة (١١٢٢).

(٢) رواه البخاري: كتاب الجمعة (١٢١٤)، ومسلم: كتاب المساجد (٥٥١) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد (٦٦٧) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

رضي الله تعالى عنه بدمشقَ وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: «لا أعرفُ شيئًا مما أدركتُ على عهدِ رسول الله ﷺ إلاّ هذه الصلاة، وهذه الصلاةُ قد ضُيِّعت»[(١)].

أيّها المسلمون: إنَّ من أكبر الكبائر وأبيَنِ الجرائر تركَ الصلاة تعمُّدًا، وإخراجَها عن وقتها كسَلًا وتهاوُنًا، يقول النبي ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» أخرجه أحمد[(٢)]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل والكفر أو الشرك تركُ الصلاة» رواه مسلم[(٣)].

وإنّ فوتَ صلاةٍ من الصلوات كمصيبةِ سلب الأموال والضّيعات وفَقد الزوجة والبنين والبنات.

أيّها الجمع: أصِخِ السَّمعَ، لقول النبي ﷺ: «من فاتته صلاة فكأنما وُتر أهله وماله» صححه ابن حبان[(٤)].

يقول عبد الله بن شقيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (كان أصحابُ رسول الله لا يرونَ شيئًا من الأعمال تركُه كفر غير الصلاة) أخرجه الترمذي[(٥)].

أيها المسلمون: إنّ التفريطَ في أمر الصلاة من أعظم أسبابِ البلاء والشقاء، ضَنكٌ دنيويّ وعذاب برزخي وعِقاب أخرويّ، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]، ويقول النبيّ في حديثِ الرؤيا: «إنّه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلِق، وإني انطلقتُ معهما، وإنا أتينا على رجلٍ مضطجِع، وإذَا آخرُ قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه أي: يشدقه، فيتدهدَه الحجر ها هنا، فيتبع الحجَر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصحّ رأسُه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثلما

---

(١) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة (٥٣٠).

(٢) مسند أحمد (٥/ ٣٤٦) والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وهو في صحيح الترغيب (٥٦٤).

(٣) رواه مسلم: كتاب الإيمان (٨٢) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا نحوه.

(٤) صحيح ابن حبان (١٤٦٨) عن نوفل بن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورواه الطيالسي (١٢٣٧)، وأحمد (٥/ ٤٢٩)، وهو في صحيح الترغيب (٥٧٧).

(٥) الترمذي (٢٦٢٢)، وصححه النووي في المجموع (٣/ ١٦)، والألباني في صحيح الترغيب (٥٦٥).

فعل المرّةَ الأولى»، قال: «قلت لهما: سبحان الله، ما هاذان؟ فقالا في آخر الحديث إخبارًا لرسول الله عمّا رأى: أمّا الرجل الذي أتيتَ عليه يُثلغ رأسه بالحجر فإنّه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»(١).

فيا عبد الله، كيفَ تهون عليك صلاتُك وهي رأسُ مالك وبها يصحّ إيمانك؟! كيف تهون عليك وأنت تقرأ الوعيدَ الشديدَ في قول الله جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤-٥]؟! كيف تتّصف بصفةٍ من صفات المنافقين الذي قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]؟!

أيّها المسلمون: الصلاةُ عبادةٌ عُظمى، لا تسقُط عن مكلَّف بحال، ولو في حال الفزع والقتال، ولو في حال المرض والإعياء، ما عدا الحائض والنفساء، يقول تبارك وتعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٣٩]. أقيموا الصلاةَ لوقتِها، وأسبغوا لها وضوءَها، وأتمّوا لها قيامها وخشوعَها وركوعَها وسجودها، تنالوا ثمرتَها وبركتها وقوّتها وراحتها.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) صحيح البخاري (٧٠٤٧) عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخطبة الثانية:

الحَمْدُ لله ذِي الْـجُودِ والإحسانِ، وَصَفَ عُمَّارَ المساجدِ بالإيمانِ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ سيدَنا مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ سيد ولـد عـدنان، اللَّهُـمَّ صَـلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ؛ أما بعد:

أيّها المسلمون: لقد جاءت الأدلّة متكاثرةً متضافرة على وجوب وفضل صلاة الجماعة على الرجال حَضرًا وسفرًا، يقول جـل وعـلا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣]، (مَعَ) المقتضيةُ للجمعية والمعيّة، ويقول تبـارك وتعـالى لنبيّـه محمّـد ﷺ وهـو في ساحة القتال وشـدّة النِّـزال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء:١٠٢]، فلو أُتيح لأحد أن يدَع الجماعة لكان ذلك من بـاب أولى للنبـي ومن معه في حال الحرب.

ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن سرّه أن يلقى الله غدًا مسلِمًا فليحافِظ على هؤلاء الصلواتِ حيث يُنادَى بهنّ، فإنّ الله شرع لنبيكم سُننَ الهدى، وإنّهنّ مـن سُـنن الهـدى، ولـو أنكم صلّيتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلِّف في بيته لتركتم سـنّةَ نبـيكم، ولـو تـركتم سـنّةَ نبيّكم لضللتم، ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافقٌ معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى بين الرجلين حتى يُقام في الصفّ» رواه مسلم(١).

فإلى كل سليم صحيح، إلى أولي القوّة والفُتوَّة، وأصـحاب التقـوى والمـروّة، لقـد اشـتدّ غضبُ رسول الله على المتخلِّفين عن جماعـةِ المسـلمين، فقـال عليـه أفضـل الصـلاة وأزكـى السلام: «لقد هممتُ أن آمر بالصلاة فتُقام، ثمّ آمر رجلًا يصلِّي بالناس، ثمّ أنطلِق معي برجال معهم حُزَم من حَطب إلى قومٍ لا يشـهدون الصـلاة، فـأحرّق علـيهم بيـوتهم بالنـار» متفـق

---

(١) رواه مسلم: كتاب المساجد (٦٥٤).

عليه[1]، ويقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأن تمتلئ أذُنا ابنِ آدم رصاصًا مُذابًا خيرٌ له من أن يسمعَ النداء ولا يجيب»[2].

أيّها المسلمون: تلك أدلّةٌ ونصوص لاح الحقُّ في أكنافِها، وظهر الهدَى في بيانها، ولقد أفصحَت الرسُل لولا صَمَم القلوب، ووضحتِ السُّبُل لولا كدَر الذنوب.

وتعظُم المصيبة حين يكون المتخلِّف عن صلاةِ الجماعة ممّن يُقتدَى بعمله ويُتأسَّى بفِعله، فيتخلّف بتخلُّفه غيره، ولقد كثُر المتخلِّفون في زمانِنا هذا عن صلاةِ الجماعة في المساجد، وهم رجالٌ قادرون أقوياء أصحّاء، لكنهم يسمَعون النداءَ صباحَ مساء، فلا يجيبون ولا هم يذّكّرون، يقول رسول الهدى: «والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدُهم أنّه يجد عرقًا سمينًا أو مِرماتين حسنتين لشهِد العِشاء» متفق عليه[3].

يا عبدَ الله: لا ينبغي أن تأتي المساجدَ في فتور وكسَل، وتقضي وقتًا قليلًا على ملَل وعجل، فإنّ المساجدَ بيوت الله وأحبُّ البقاع إليه جلّ في علاه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «سبعة يُظلّهم الله في ظلِّه يومَ لا ظلّ إلا ظلُّه»، وذكر منهم: «ورجلٌ قلبُه معلَّق بالمساجد» متفق عليه[4].

فيا مَن يتوَانى ويتثاقل، ويتساهل ويتشاغَل، لقد فاتك الخير الكثيرُ والأجر الوفير، يقول ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنة نُزُلًا كلّما غدا أو راح» متفق عليه[5]، و«من تطهّرَ في بيته ثمّ مضى إلى بيت من بيوت الله؛ ليقضيَ فريضةً من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحُطّ خطيئة، والأخرى ترفع درجة»[6]. و«إنَّ أعظمَ الناس أجرًا في الصلاة أبعدُهم إليها ممشًى، فأبعدُهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام، أعظم أجرًا من

---

(١) رواه البخاري: كتاب الخصومات (٢٤٢٠)، ومسلم: كتاب المساجد (٦٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣٠٣).
(٣) رواه البخاري (٦٤٤) ومسلم (٦٥١).
(٤) رواه البخاري: كتاب الأذان (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة (١٠٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) رواه البخاري: كتاب الأذان (٦٦٢)، صحيح مسلم: كتاب المساجد (٦٦٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦) رواه مسلم (١٥٢١).

الذي يصليها ثـم ينـام»[1]، «ولا يـزال قـومٌ يتـأخَّرون حتـى يـؤخّرهم الله»[2]. نعـوذ بـالله من الخذلان والخسران.

يقول المولى سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٦-٣٨].

عباد الله: إننا نرى اليوم من الناس تساهلًا عظيمًا في الصلاة مع الجماعة، فمن الناس من لا يُرَى في المسجد أبدًا وفي جميع الصلوات، ومنهم من لا يُرَى إلا في الجمعة وقد يسكن بجـوار بيت من بيوت الله، ويسمع النداء خمس مرات في اليوم والليلة، إنها لخسارة كبـيرة أن أعـدادًا كثيرة وجموعًا غفـيرة مـن النـاس في مجتمـع مسـلم لا يبـالون بصـلاة الجماعـة ولا يرتـادون المساجد إلا قليلًا..

لقد خرج النبي ﷺ إلى صلاة الجماعة في مرض موته محمولًا بـين رجُلـين حتـى أُقعـد في الصف، نعم في مرض الموت! فماذا يقول المعافون الأصحاء؟! ماذا يقول الشباب الأقوياء؟! ماذا يقول من ينعمون بالقوة والنشاط؟! كيـف ترضـون لأنفسـكم التخلـف عـن المسـجد والجماعة، وما الذي عسى أن تفعلـوه بالصـلاة إذا مرضـتم؟! وكيـف تريـد تحريـر المسـجد الأقصى يا من عجزت عن الصلاة في المسجد الأدنى؟! أين نحن من السلف الصـالح الـذين كانوا يستعدون للصلاة قبل إقامتها، ويسعون إليها قبل النداء لها؟

ذكر الذهبي عن عدي بن حاتم أنه قال: (ما أُقيمت الصلاة منـذ أسـلمت إلا وأنـا عـلى وضوء)، وهذا سعيد بن المسيب يقول: (ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنـا في المسـجد)، قال الأوزاعي: (كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها لأحد من التابعين: لم تفُتـه صـلاة الجماعة أربعين سنة)!

---

(١) رواه البخاري (٦٥١) ومسلم (١٥١٣).

(٢) رواه مسلم (٤٣٨).



وهذا ربيعة بن يزيد يقول: (ما أذن المؤذن لصلاة الصبح منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضًا أو مسافرًا)، بل إن سليمان بن مهران كان يقول لابنته وهي تبكي عند رأسه في مرض موته: (ابكي أو لا تبكي فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام مع الجماعة ستين سنة)، فمن منّا يقدر على مثل ما قدر عليه هؤلاء الرجال ولو لشهر أو سنة؟! أم أنه ينطبق علينا قول الله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم:٥٩]!

هذا الصحابي الحارث بن حسان تزوج في ليلة من الليالي فحضر صلاة الفجر مع الجماعة فقيل له أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الساعة الليلة، فيقول: (والله إن امرأة تمنعني من صلاة الفجر في جماعة لامرأة سوء).

الله أكبر! هكذا كانوا حتى في أفراحهم وأعراسهم، بل حتى وهم مرضى كانوا يُحملون حملًا إلى الصلاة حتى لا يتخلفوا عن الجماعة.

مرض أحد التابعين واسمه ثابت بن عامر، فسمع أذان المغرب فقال لأبنائه: (احملوني إلى المسجد. قالوا: أنت مريض وقد عذرك الله، قال: لا إله إلا الله! اسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح، ثم لا أجيب! والله لتحملُنّي إلى المسجد، فحملوه إلى المسجد، حتى أوقفوه في الصف، فكبّر حتى إذا كان في السجدة الأخيرة من صلاة المغرب قبض الله روحه)، سبحان الله أيُّ خاتمة هذه، وأين نحن من هؤلاء؟!

وختامًا أيها الكرام: اتقوا الله في أنفسكم، واتقوا الله في أهليكم وأبنائكم، فإنهم قرّةِ عيونكم، وتتابُع نسْلكم وذِكرِكم، وإنهم أمانةٌ في أعناقكم، مروهم بالمحافظة على الصّلوات ورغّبوهم في حضور الجُمَع والجماعات، وشجّعوهم بالحوافز والجوائز، وأكرموهم بالدعاء والثناء، نشّئوهم على حبِّ الآخرة، وكونوا لهم قدوةً صالحة: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، يقول ﷺ: «مُروا أبناءَكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشر سنين» أخرجه أحمد[1].

(١) مسند أحمد (٢/ ١٨٧) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه أيضا أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، والدارقطني (١/ ٢٣٠)، والحاكم (١/ ٣١١)، والبيهقي (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩)، وحسنه النووي في المجموع (٣/ ١٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٤٧). وله شاهد من حديث =

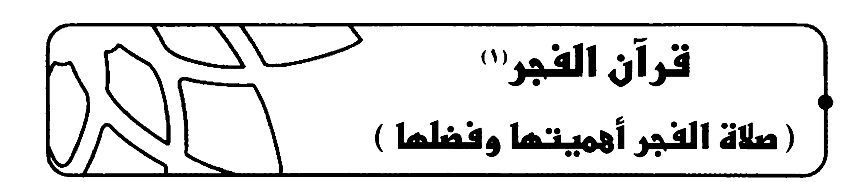
واحذَروا ما يصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة من سائر الملهِيات والمغرِيات، وألحّوا على الله بالدعاء أن يُصلحَ أولادكم وأولادَ المسلمين أجمعين.

اللهمّ أقِرَّ عيوننا وأسعِد قلوبَنا وأبهج نفوسَنا بصلاح شبابنا وفتياتنا، اللهم اجعلنا وذريّاتنا وشبابنا وفتياتنا من مقيمي الصلاة، اللهمّ وتقبل دعاءنا، اللهم مُنّ علينا بالأمن في البلاد والصلاح في الذريّة والأولاد والفوزِ يومَ المعاد...

هذا وصلُّوا وسلّموا على خير البرية، وأزكى البشرية، محمد ﷺ..



= سبرة بن معبد رَضِيَاللَّهُعَنهُ بإسناد حسن، رواه أحمد (٣/ ٢٠١)، وأبو داود في الصلاة (٤٩٤)، والترمذي في الصلاة (٤٠٧) وقال: (حديث حسن صحيح)، وصححه ابن الجارود (ص٧٧)، وابن خزيمة (١٠٠٢)، والحاكم (١/ ٢٥٨)، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في المجموع (٣/ ١٠). وفي الباب أيضا عن أبي هريرة وعن أنس رَضِيَاللَّهُعَنهُمَا وإسناداهما ضعيفان.



قرآن الفجر(١)

(صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وخيرة القربات وغُرّة الطاعات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب الأرض والسموات، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله أفضل البريات، وخاتم الرسالات، القائل: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»(٢)، اللهم صلِّ وسلم وبارك على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه ومن اهتدى بهداه؛ أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الأحبة: لقد جعل الله الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورًا، وإن بعد ظلام الليل الحالك يتنفس الصبح بضيائه، ويشهد الكون في تلك اللحظات المهيبة صراع النور والظلمة واعتراك الليل والنهار، ويبصر ميلاد يوم جديد، ويُقبل الفجر في زُهُوّه وبهائه يتهادى اختيالًا، مِلءَ عينيه أسرار وأخبار، ومواقيت وأقدار، وفي هذا الوقت البديع المبارك يدوّي في سماء الكون النداء الخالد، نداء الأذان لصلاةٍ سُنّتها خير من الدنيا وما فيها، فكيف بفريضتها!

إنها صلاة الفجر، فتهتف الأرض كلها: الله أكبر الله أكبر.. الصلاة خير من النوم. وتكون صلاة الفجر فاتحة يوم مبارك في حياة المسلم، لكأنما يعلّم الإسلام أهله أن يباركوا ابتداء كل أمر بطاعة الله والإقبال عليه، والانقياد والإنابة إليه، وكأنما هي شكر لله على نعمة الإصباح

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) النسائي (٣٩٣٩) وصححه الحاكم (٢ / ١٧٤) ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ١٥) و (١١/ ٣٤٥).

بعد الإظلام حسًّا ومعنى، ويبدأ وقت صلاة الفجر من ظهور الفجر الصادق الذي هو عبارة عن بياض ممتد من الشمال إلى الجنوب إلى طلوع الشمس، والسنة فيها التعجيل، فيصليها بغَلَس قبل الإسفار.

والعجب أنك حين تقارن عدد المصلين في هذه الصلاة مع عددهم في بقية الصلوات ترى أمرًا عجبًا! هل لي أن أطالب نفسي وإياكم بأن يحصي كل فرد مقدار ما فاته من صلاته الفجر في جماعة منذ عام أو حتى شهر مثلًا؟! هل حاولت إحصاء ذلك؟! كيف ستكون النتيجة؟! أليست محزنة؟! جاء عن هُشيم وهو أحد أعلام السلف: أنه صلى الفجر بوضوء العشاء عشرين سنة! فهل يسوغ لنا مثل هذا التفريط؟!

أيها المسلمون: لقد جعل الله هذه الصلاة العظيمة مشهودة تشهدها ملائكة الرحمن، وسماها: ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨]، فقال سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يعني صلاة الفجر).

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح»، يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨][(١)].

وهكذا تكون صلاة الفجر مجتمعًا للملائكة ومحفلًا من محافل الخير الإلهي والعطاء الرباني، لا يحضره إلا كل طاهر مطهر من الأبرار، يستحق أن يكون في ضيافة الرحمن، وقد صح في الحديث عند أبي نعيم عن رجل من أصحاب النبي ﷺ اسمه ميثم أنه قال: «بلغني أن الملك يغدو برايته مع أول من يغدو إلى المسجد، فلا يزال بها معه حتى يرجع فيدخل بها منزله، وإن الشيطان ليغدو برايته إلى السوق مع أول من يغدو، فلا يزال بها معه حتى يرجع فيدخلها منزله»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٤٧١٧).

(٢) صححه موقوفًا في صحيح الترغيب (٤٢٢).

وليست هذه هي الفضيلة الوحيدة لصلاة الفجر، بل لقد تكاثرت النصوص بما لها من الفضائل، فهل تعلم أخي الكريم أن صلاة الفجر في جماعة تعدل قيام ليلة كاملة؟!

روى مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلّى الصبح في جماعة فكأنما صلّى الليل كله»[١]، وروى مالك بسند صحيح أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَدَ سليمان بن أبي حثْمة في صلاة الصبح، فمَرّ على الشِّفاء أم سليمان فقال لها: لم أرَ سليمان في الصبح! فقالت: إنه بات يصلي فغلبته عيناه، فقال عمر: «لأن أَشْهد صلاة الصبح في جماعة أحب إلي من أن أقوم ليلة!»[٢].

وعن رجل من النخع قال: سمعت أبا الدرداء حين حضرته الوفاة قال: أحدّثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يشهد الصلاتين: العشاء والصبح ولو حبوًا فليفعل»[٣].

وإذا كانت الصلاة نورًا، فإن أهل الفجر هم أصحاب النور التام يوم القيامة؛ فعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[٤].

هل تعلم أن هذه الصلاة أمان وحفظ من الله لك سائر اليوم؟! قال ﷺ: «من صلّى الصبح فهو في ذمة الله»[٥]. قال النووي[٦]: (الذِّمَّة هنا: الضمان، وقيل الأمان).

---

(١) رواه مسلم (٦٥٦).
(٢) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٠٣٨).
(٣) صحيح الترغيب (٤١٨).
(٤) صحيح ابن ماجه (٦٤٠).
(٥) رواه مسلم (٦٥٧).
(٦) شرح مسلم (٥/ ١٥٨).

فأهل الفجر في ذمة الله تعالى وجواره، كما جاء في صحيح مسلم من حديث جُندَب بن عبد الله رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «من صلّى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم»(١).

وما ظنكم بمن كان في جوار الله تعالى؟! وأنتم ترون الناس يطمئنون ويأمنون حين يكون أحدهم في جوار عظيم من عظماء الدنيا، وإن من كان في جوار الله فوالله لهو أشد أمانًا وأعظم اطمئنانًا.

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما خص صلاة الصبح بالذكر؛ لما فيها من الكلفة والمشقة، وأداؤها مظنة خلوص الرجل، ومنه إيمانه؛ ومن كان مؤمنا خالصا فهو في ذمة الله تعالى وعهده)(٢).

وفي المراد بالحديث قولان للعلماء:

الأول: أن يكون فيه نهي عن التعرض بالأذى لكل مسلم صلى صلاة الصبح، فإن من صلى صلاة الصبح فهو في أمان الله وضمانه، ولا يجوز لأحد أن يتعرض لِمَن أمَّنَه الله، ومن تعرض له فقد أخفر ذمة الله وأمانه، أي أبطلها وأزالها، فيستحق عقاب الله له على إخفار ذمته، والعدوان على من في جواره(٣). قال ابن عثيمين في(٤): (في هذا دليل على أنه يجب احترام المسلمين الذي صدَّقوا إسلامهم بصلاة الفجر؛ لأن صلاة الفجر لا يصليها إلا مؤمن، وأنه لا يجوز لأحد أن يعتدي عليهم).

ويدل لهذا المعنى ما جاء عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه كان قاعدًا عند الحجاج، فقال له الحجاج: قم فاضرب عنق هذا، فأخذ سالم السيف، وأخذ الرجل، وتوجه باب القصر، فنظر إليه أبوه - عبد الله بن عمر - وهو يتوجه بالرجل، فقال: أتراه فاعلًا؟! فردَّه مرتين أو ثلاثًا، - وخشي ابن عمر أن ابنه سالمًا سيقتل الرجل - فلما خرج به سالم قال

(١) رواه مسلم (٦٥٧).
(٢) شرح مشكاة المصابيح للطيبي (٢/ ١٨٤).
(٣) انظر: فيض القدير للمناوي (٦/ ١٦٤).
(٤) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٩١).

له: أصليت الغداة - أي: الفجر -؟ قال الرجل: نعم. قال: فخذ أي الطريق شئتَ، ثم جاء فطرح السيف، فقال له الحجاج: أضربتَ عنقه؟ قال: لا، قال: ولِمَ ذاك؟ قال: إني سمعت أبي هذا يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن صَلَّى الغَدَاةَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ الله حَتَّى يُمسِيَ»[1].

والقول الثاني من أقوال أهل العلم: أن يكون المقصود من الحديث التحذير من ترك صلاة الصبح والتهاون بها، فإن في تركها نقضًا للعهد الذي بين العبد وربه، وهذا العهد هو الصلاة والمحافظة عليها.

قال البيضاوي: (ويحتمل أن المراد بالذمة الصلاة المقتضية للأمان، فالمعنى: لا تتركوا صلاة الصبح ولا تتهاونوا في شأنها، فينتقض العهد الذي بينكم وبين ربكم، فيطلبكم الله به، ومن طلبه الله للمؤاخذة بها فرط في حقه أدركه، ومن أدركه كبه على وجهه في النار)[2].

فيا عبد الله: أين أنت من هذه الفضائل العظيمة والتي واحدةٌ منها لكافية في أن تتنازل من أجلها عن لذيذ نومك ولين فراشك وتقوم لتصلي مع المسلمين؟! فكيف إذا سمعتَ فضائل أخرى؟!

هل تعلم أن صلاة الفجر هي ضمان للجنة؟! فقد قال ﷺ قال: «من صلّى البردين دخل الجنة»[3]، والبردان: هما الصبح والعصر. وهل يعمل العاملون ويتنافس المتنافسون في هذه الدنيا إلاّ من أجل الجنة؟! فأين هو في صلاة الفجر وعنده هذا الضمان من النبي ﷺ؟!

وهل تعلم أن صلاة الفجر حاجز عن النار؟! وماذا يريد كل مسلم سوى النجاة من النار؟! فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «لن يَلِج النار أحد صلّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: الفجر والعصر[4].

إن أهل الفجر هم أهل الأمان في الدنيا ولهم وعد صادق بأن يروا ربهم عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة؟!

---

(١) المعجم الأوسط (٤/ ٥) وقال الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١١٠): (صحيح لغيره).

(٢) فيض القدير (٦/ ١٦٤).

(٣) رواه البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥).

(٤) رواه مسلم (٦٣٤).

ففي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامّون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، يعني: صلاة العصر والفجر، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠][1].

أسأل الله جل وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يعيننا على أنفسنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، أقول ما قلت، فإن كان صوابًا فمن الله وحده، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وأستغفر الله لي ولكم.

(١) رواه البخاري (٥٧٣) ومسلم (٦٣٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أيها المسلمون: ولما كانت صلاة الفجر بهذه المنزلة العظيمة كان التفريط فيها جرمًا كبيرًا وغفلة عظيمة، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظنّ» أي: أن يكون من المنافقين الذين تثقل عليهم هذه الصلاة، وعن أبي بن كعب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يومًا الصبح فقال: «أشاهد فلان؟» قالوا: لا، قال: «أشاهد فلان؟» قالوا: لا، قال: «إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حَبْوًا على الركب»(١).

عباد الله: لقد تعلّقت قلوب السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بهذه الصلاة لما علموا من جليل فضلها وسوء عاقبة التخلّف عنها، فكانوا أحرص الناس عليها، حتى لقد قال عبد الله بن مسعود: «ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يَتَهَادَى بين الرجلين حتى يُقام في الصف».

وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمر في الطريق مناديًا: «الصلاة، الصلاة»، يوقظ الناس لصلاة الفجر، وكان يفعل ذلك كل يوم. وحين اشتكى سعيد بن المسيب عينه قالوا له: لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة لوجدت لذلك خفة، يرغّبونه في التنزه في ضواحي المدينة حيث الخضرة والجو الطليق، فقال لهم: (فكيف أصنع بشهود العَتَمَة والصبح؟!) أي: العشاء والفجر، فلم يُطِقْ ترك هاتين الصلاتين في جماعة. وتزوج الحارث بن حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ليلة من الليالي فحضر صلاة الفجر مع الجماعة، فقيل له: أتخرج وإنما بنيتَ بأهلك الليلة؟ فقال: (والله إن امرأةً تمنعني من صلاة الغداة في جمع -أي: جماعة- إنها لامرأة سوء!) وقام عبد الرحمن بن مهدي ليلة حتى جهد، فلما طلع الفجر رمى بنفسه على الفراش فنام عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس، فقال: (هذا مما جنى عليّ الفراش)، فجعل على نفسه أن لا يجعل بينه وبين الأرض شيئًا شهرين، ومكث تلك المدة ينام بلا فراش تأديبًا لنفسه!

---

(١) صحيح الترغيب (٤١١).

ومكث الإمام مدين بن أحمد الحميري دهرًا إلى حين وفاته لا تفوته التكبيرة الأولى من صلاة الصبح، وكان يمكث في مصلاه وهو على طهارة إلى أن يركع الضحى، وربما جلس بعد ذلك. وبقي الشيخ الغرناطي نحوًا من عامين أو أزيد يخرج للصلوات الخمس يُهَادَى بين رجلين لشيء كان برجله، حتى كان بعض أصحابه يقول: الغرناطي حجة الله على من لم يحضر الجماعة.

(لقد كانوا يرون فَوْتَ صلاة الفجر في الجماعة غبنًا عظيمًا وخَطْبًا جَليلًا يستحق العزاء. فهذا حاتم الأصم يقول: فاتتني صلاة الجماعة، فعزّاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا! هذا شيء يسير من أخبارهم).

فأين نحن أيها الأحبة من هذه الهمم، ومن هدي هؤلاء الرجال؟

أيها المسلمون: ولقد بلغ من منزلة صلاة الفجر أن خُصّت راتبتها القبلية دون سائر الرواتب بمحافظة النبي ﷺ وحرصه عليها حضرًا وسفرًا، مع أنه يقصر الصلاة المفروضة!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان رسول الله ﷺ في السفر يواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن، ولم يُنقل عنه في السفر أنه صلى سنة راتبة غيرها)، وكان ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل والوتر خاتمته). بل وصف النبي ﷺ راتبة الفجر بقوله: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»، وقال عن هاتين الركعتين الخفيفتين: «لهما أحب إلي من الدنيا جميعًا»[(١)]، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا -أي: حرصًا وتفقُّدًا- منه على ركعتي الفجر»[(٢)]. فإذا كانت هذه منزلة النافلة فكيف بالفريضة؟!

إن من حكمة الله تعالى أنه لم يجعل صلاة الفجر ثلاثًا كالمغرب أو أربعًا كباقي الصلوات، ولعل من اللطائف هنا: أنه ليس السر في كثرة ركعاتها بقدر ما يكون في الاستيقاظ لها ابتلاءً

(١) رواه مسلم (١٦٨٨).
(٢) رواه البخاري (١١٦٩)، ومسلم (١٦٨٦).

واختبارًا من الله لعباده، وهكذا في راتبتها، لم تكن أربعًا قبلها، أو أربعًا قبل وأربعًا بعد، بل هما ركعتان خفيفتان، يقرأ المصلي في الأولى الحمد والكافرون، وفي الثانية الحمد والإخلاص، لكنهما آكد السنن الرواتب، وخير من الدنيا جميعًا.

ومع هذا اليُسر في الكيفية والعظمة في مضاعفة الأجر؛ فقد كثر التخلفَ عن هذه الصلاة في المسجد مع الجماعة؛ فقط لأنها تأتي بعد نوم، وإنك لترى المسجد في الحي المزدحم يمتلئ في الصلوات كلها، حتى إذا جئت لصلاة الفجر ألفيتَه شبه خاوٍ ليس فيه إلا الصفوف القليلة! وهذه والله مصيبة وإن لم ندركها، وغبن وإن لم يشعر به الكثير إلا بعد أن يلقوا ربهم، إذ كيف يفوّت المسلم على نفسه هذا الخير العظيم ويهنأ بالنوم والنعاس؟! كيف يطيب له الفراش ليحرم نفسه بركات الفجر المتنزلة وخيراته المتواترة؟! بل كيف يرضى المسلم أن يتلاعب به الشيطان فيبول في أذنه؟! كما جاء عن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: ذُكِر عند النبي ﷺ رجل، فقيل: ما زال نائمًا حتى أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: «بال الشيطان في أذنه»[1]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (واختُلِف في بول الشيطان فقيل: هو على حقيقته، وقيل: هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر، وقيل: معناه أنه ملأ سمعه بالأباطيل، وقيل: هو كناية عن ازدراء الشيطان به، وقيل: معناه أن الشيطان استولى عليه واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعدّ للبول. وخُصّ البول لأنه أسهل مدخلًا في التجاويف وأسرع نفوذًا في العروق، فيورث الكسل في جميع الأعضاء). وهذه معانٍ كيفما قلّبتها وجدت بعضها شرًا من بعض.

فهل أدرك المتخلّف عن صلاة الفجر متعمّدًا أن فِعْلته من أكبر الكبائر وأشد الموبقات؟!

قال ابن حزم رَحِمَهُٱللَّهُ: (لا ذنب بعد الكفر أعظم من تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها، ومن قتل امرئ مسلم بغير حق).

وهل علم هذا النائم الساهي عن صلاته بقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤- ٥]؟! وهل نسي قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]؟! وإضاعتها تأخيرها عن وقتها.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٤).

أخي: يا من اعتدتَ النوم عن هذه الصلاة حتى استهنتَ بها وأهملتها، هل سمعت بذلك الحديث العظيم الرهيب الذي رواه البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رَسُول اللهِ ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا» فيقص عليه من شاء اللهُ أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فَيَثْلَغُ رأسه -أي: يشدخه ويشقه- فيتدهده الحجر ها هنا -أي: يتدحرج- فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى!» قال: «قلت لهما: سبحان اللهَّ! ما هذان؟ فقالا لي: انطلق انطلق... -ثم قال في آخر القصة: - فإني رأيت منذ الليلة عجبًا فما هذا الذي رأيت قالا لي: أما إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»[1]. نسأل الله العافية.

فأين من يتعمد ضبط المنبه على وقت العمل في السابعة أو الثامنة، ولا يصلي الفجر إلا في هذا الوقت، وقد قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا: (صلاته هذه غير مقبولة، ولا تبرأ بها ذمته، وسوف يُحاسَب عنها)، ولو كان العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة فجرًا؛ لقام لها!

أيها الأخ الكريم: ما الذي غرَّك بربك وألهاك عن صلاة فجرك؟! أهو السهر أمام القنوات؟ أم هي الجلسات والسهرات؟ أم الانشغال والالتهاء بالمراسلات على النت والصفحات؟

ترى أي خير فاتك؟! وأي موت للقلب ابتليت به؟! فهل لك من عودة؟! وهل لك من رجوع؟!

ألا تستحق منك صلاة الفجر أن تبكّر بالنوم رهبةً ورغبةً لله؟ ألا تنام مبكّرًا وتكون مأجورًا على نومك لأنك بكّرت به لأجل الله، كما قال معاذ: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي؟»

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢).

ألا تحب أن تكون من رجال الفجر؟! أولئك الرجال الذين ما إن سمعوا النداء يدوّي: (الله أكبر، الله أكبر، الصلاة خير من النوم)، هبّوا وفزعوا وإن طاب المنام، وتركوا الفرش وإن كانت وثيرة، مُلبّين النداء، لأن ذلك أحب إلى نفوسهم من التقلب على فُرشهم، فيخرج الواحد منهم إلى بيت من بيوت الله تعالى، على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويخاف عقاب الله، وهو يردد: اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل في سمعي نورًا، واجعل في بصري نورًا، واجعل من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا. فما ظنكم بمن خرج لله في ذلك الوقت؟! لم تخرجه دنيا يصيبها، ولا أموال يكتسبها، أليس هو أقرب إلى السعادة، وأولى بمعية الله وكرمه وتوفيقه، وفضله وتيسيره، وعونه وتسديده؟! ماذا يقول ذلك الذي آثر فراشه معرضًا عن نداء ربه عَزَّوَجَلَّ؟! ماذا يقول وقد فوّت على نفسه ذلك الفضل العظيم؟! ويظل خلف سقط المتاع يلهث من صبحه إلى مسائه، ماذا يقول وهو يهدر الوقت الطويل في السهر الضائع وجلسات اللهو واللعب التي ليس وراءها طائل، ولا فيها نفع، بل فيها المضرة في الدين والدنيا؟!

فيا من فقدك مسجدك في صلاة الفجر، يا من تعوّدت النوم عن الصلاة، وجعلتَ النوم معجزة المعجزات، التي لا يمكن التغلب عليها والفكاك منها، إنما وقعت في ذلك القيد لأنك آثرتَ السهَر والسمر على القيام لصلاة الفجر.

أخي الحبيب: يكفي إلى هنا، اطوِ صفحة الماضي، وأقبل إلى ربك تائبًا مستغفرًا، مستعينًا مستهديًا، وافتح مع نفسك ومع ربك صفحةً بيضاء نقية، إن المسجد يفتح لك أبوابه، وداعي الرحمن يدعوك، فأقبل أيها الحبيب الموفق تكن من الفائزين.

ولعل أول خطوة في طريق العلاج هي أن تستشعر أهمية هذه الصلاة وأن تدرك قيمتها، فلو شعر الإنسان بذلك وأدرك أنه يفوته بفواتها خير كثير لربما تحركت همته وانبعثت عزيمته، كما تتحرك وتنبعث لكل أمر عزيز نفيس لديه.

وإن من أنفع ما يعينك عليها: أن تحافظ على أذكار النوم وتدعو الله في الوتر أن يوفّقك للقيام، مع الابتعاد عن المعاصي جملة وتفصيلًا، ولا سيما معاصي العين واللسان، ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ فإن المعاصي تقيّد المرء عن الطاعة، وتحرمه لذتها وخفّتها وحلاوتها.

فاعزم من هذه الساعة أن تكون ضمن الركب المبارك لأهل الفجر، لتحظى بفضائلهم، ولتنجو من الوعيد الشديد للذين ينامون عن فرائض الله تعالى.

يقول تعالى مُثنيًا على أهل ذكره وشكره، ومنهم أهل الغداة والفجر: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»(١).

نسأل الله أن يجعلنا من المداومين على صلاة الفجر، لينالوا بذلك عظيم الثواب والأجر..

هذا وصلّوا وسلّموا على من أُمرتم بالصلاة والسلام عليه، عملًا بقول من لم يزَل قائلًا عليًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) رواه البخاري (٧٤٢٩) ومسلم (٦٣٢).



قيام الليل[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرع لعباده أكمل الشرائع، وفرض عليهم أجلَّ الفرائض، وحبَّب إليهم من العبادات، ما يصلون به إلى أسمى الغايات، ويبلغون به أرفع الدرجات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، ومجتباه من خلقه، ومصطفاه من أنبيائه ورسله، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واستقام على سنته، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيّها الناس: اتقوا الله تعالى حقَّ التقوى، وراقبوه في السرّ والنجوى، واعلموا أنه ما دُفعت الفتن والشهوات، بمثل خالص العبادات والطاعات، وإن أفضل الأعمال هي هذه الصلوات، وأفضل الصلاة بعد المفروضات: قيام الليل بين يدي رب الأرض والسموات، فإنه دأب الصالحين، وروضة المحبين، ومعراج السالكين، ومنهاج القاصدين إلى رضى رب العالمين، ونزهة المشتاقين إلى جنات النعيم.

قيام الليل سُنة مؤكدة، تواترت النصوص من الكتاب والسنة بالحث عليه، والتوجيه إليه، والترغيب فيه، ببيان عظيم شأنه، وجزالة الثواب عليه، وقيام الليل له شأن عظيم في تثبيت الإيمان، والإعانة على جليل الأعمال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ② نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ③ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:١-٥] وأخبر تعالى أنّ في قيامه تواطؤَ القلب مع اللسان: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦] أي: أشد أثرًا على النفس، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

[الإنسان:٢٦]. جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

عبادَ الله: إنّ قيامَ الليل عبادة عظيمةٌ وعمَل جليل، ولقد مدَح الله به عبادَه المؤمنين، فذكر من أخلاقهم وشمائلهم، ومحاسن عاداتهم وعباداتهم، ونوّه بجميل خصالهم وجليل أعمالهم، ومن أخص ذلك قيام الليل، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٥-١٧] أخفَوا قيامَهم في الليل، وصار قيامُهم سِرًّا بينهم وبين ربِّهم، فأنالهم الله ذلك الثوابَ العظيم، ما لا رأت عينٌ، ولا سمِعت أذنٌ، ولا خطَر على قلبِ بشر، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

ووصفهم سبحانه في موضع آخر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٤-٦٦].

ومما وصف الله به عباده وامتدحهم بقيام الليل قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٥-١٨]. فهم قليلًا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، فهم يُحيون كثيرًا من الليل، ويختِمون ذلك بالاستغفار عمّا قصّروا وأساؤوا.

وقال الله لنبيّه ﷺ مُرغّبًا له في القيام: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]. يقول ﷺ: «عليكُم بقيامِ اللَّيلِ، فإنَّهُ دأْبُ الصَّالحِينَ قبلكُم، وقُربةٌ إلى اللهِ تعالى، ومَنهاةٌ عن الإثمِ، وتكفيرٌ للسَّيِّئاتِ، ومَطردةٌ للدَّاءِ عن الجسَدِ»(١).

كذلك من فضائل قيام الليل: أنّهم لا يستوون عند الله، نعم لا يستوي من يقوم الليل ومن لا يقومه، فصاحب القيام أقرب إلى الله وأعلم به، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ

(١) صحيح الجامع (٤٠٧٩).

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] هل يستوي إنسانٌ قضى ليله غافلًا هائمًا نائمًا بين السهرات والقيل والقال ومضيعة الأوقات، وإنسان قائم في ليله يدعو ربه ويبكي من خشية الله جلَّ وعلا، لا يستوون عند الله.

أيّها المسلمون: لقد كان من هدي نبيِّكم ﷺ أنّه كان يقوم الليلَ ويداوم عليه، تقول عائشة أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يقوم الليلَ حتى تفطّرت قدماه، فسألَته قائلةً له: أتفعل هذا وقد غفَر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟! تشير إلى قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، فأجابها عليه الصلاة والسلام بقوله: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!».(١) فإنّ شكرَ الله على نعمِه يكون بالتقرّب إليه بالفرائض، وبالنوافل بعد الفرائض، وكلّما تصوّر العبد نعَمَ الله عليه دعاه ذلك إلى أن ينافِس في صالح الأعمال.

ولقد أخبر ﷺ أنّ قيامَ الليل سببٌ لدخول الجنّة والفوز بها بفضل الله ورحمته، قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمّا قدم النبيّ ﷺ المدينةَ جفل الناس إليه، فكنتُ فيمن جَفل إليه، فاستبنتُ وجهَه فلم أرَ وجهَ كذّاب، فسمعتُ أوّلَ ما قال: «أيّها الناس: أطعِموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنّةَ بسلام»(٢).

وأخبرَ ﷺ ما لقائمِ الليل في الجنّة من النعيم المقيم، فقال: «إِنَّ في الجنةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظَاهِرِها. فقال أبو مالِكٍ الأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هيَ يا رسولَ الله؟ قال: لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وباتَ قائِمًا و النّاسُ نِيامٌ»(٣).

أيّها المسلم: فالمسلم في ليلِه وفي تهجُّده يشكرُ ربَّه، ويَشكو ذنبَه، ويناجي مولاه، فيسأله جنّته ومغفرتَه، ويستعيذ به من عذابه، ويرجو رحمتَه وفضله وإحسانَه، إنّه يقوم من فراشه ومِن لذيذ منامه، ليقفَ بين يدَي ربِّه في تلك اللّحظاتِ المباركة ووقت التنزّل الإلهي، عندما

(١) رواه البخاري (٦٤٧١) ومسلم (٢٨١٩).
(٢) السلسلة الصحيحة (٢/ ١١٣).
(٣) صحيح الترغيب (٩٤٦).

ينزل ربّنا إلى سمائه الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فينادي: هل من سائل فيُعطَى سؤلَه، هل من مستغفرٍ فيُغفَر له، هل من داعٍ فتُجاب دعوته؟!

أيّها المسلم: إنّ في قيام الليل فرصةً لك لتسألَ ربَّك ما أحببتَ من خيرَي الدنيا والآخرة، ففي ذلك الوقت العظيم المبارَك فرصة لك لتشكوَ إلى الله حالك، وترجوه من فضله، وتتوب إليه من زللِك وخطئك، وتسأله ما أحببتَ من خيرَي الدنيا والآخرة، فإنّك تسأل كريمًا وقريبًا مُجيبًا وغنيًّا حميدًا، يحبّ من عباده أن يسألوه ويلتجِئوا إليه، وقد وعَدهم الإجابةَ فضلًا منه وكرَمًا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الليل ساعةً لا يوافقها رجل مسلمٌ يسأل الله خيرًا مِن أمر الدنيا والآخرة إلاّ أعطاه الله إياه، وذلك كلَّ ليلة»(١).

فهي ساعة إجابة وعطاء ومغفرة، وهي فرصةٌ لك -أيها الحبيب- لتقومَ بين يدَي ربّك، تناجيه وتسأله الثباتَ على الحقّ والاستقامة على الهدى، وأن يرزقك من فضله، ويعينك على ذكره وشكره، وأن يختمَ حياتَك بخاتمةِ خير، ولا يتوفاك إلا وهو راضٍ عنك.

أيّها المسلم: قيام الليل له فوائد، يقول ﷺ: «عليكُم بقيامِ اللَّيلِ، فإنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قبلَكُم، وقُربةٌ إلى الله تعالى ومَنهاةٌ عن الإثمِ و تَكفيرٌ للسِّيِّئاتِ، ومَطردةٌ للدَّاءِ عن الجسَدِ»(٢).

كل تلك الفوائد في قيام الليل، ومنها: أنه دأب الصالحين، أي: عادتهم وديدنهم، ومن هنا قيل: إن من لم يكن من عادته قيام الليل فلا يسمى صالحًا، وإن كان مسلمًا أو مؤمنًا؛ لأن من صفات الصالحين ودأبهم: قيام الليل.

وسئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقيل لها: إنّ الله لم يفترِض علينا سوى الصلواتِ الخمس، قالت: «نعم، لعمري ما افترَض الله عليكم إلاّ هذه الصلوات، ولن يطالبَكم إلا بما افترض عليكم،

---

(١) صحيح ابن ماجه (٩٤٠).

(٢) صحيح الجامع (٤٠٧٩).

ولكنّكم قوم تخطؤون وتذنِبون، وما أنتم إلاّ من نبيّكم، وما نبيّكم إلا منكم، ولقد كان يحافظ على قيام الليل».

ومن أجمل الوصايا النبوية، ما جاء في قصة رؤيا عبد الله بن عمر بن الخطاب حيث قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِى حَيَاةِ النبي ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى النبي ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقُصُّهَا عَلَى النَّبِىِّ ﷺ - وفي رواية أنه كان يقول لنفسه: لو كان فيك خير لرأيتَ مثل ما يرى هؤلاء- قَالَ وَكُنْتُ غُلاَمًا شَابًّا عَزَبًا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِى الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَرَأَيْتُ فِى النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِى فَذَهَبَا بِى إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِىَ مَطْوِيَّةٌ كَطَىِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَىِ الْبِئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِالله مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِالله مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِالله مِنَ النَّارِ، - قَالَ - فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِى: لَن تُرَاعْ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فقصّتها حَفْصَةُ عَلَى النبي ﷺ فَقَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله لَوْ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ». قَالَ سَالِمٌ فَكَانَ عَبْدُ الله بَعْدَ ذَلِكَ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلًا[1].

وقال ﷺ يومًا لعبد الله بن عمرو: «يا عبدَ الله: لا تكن مثلَ فلان، كان يقوم الليل فترك قيامَ الليل»[2].

أيّها المسلم: قيامُ شيءٍ من الليل فيه صلاحٌ لدينك، واستقامة لحالك، وتقرّب إلى ربّك رجاء الثواب، وستجد ذلك مُدَّخرًا لك أحوجَ ما تكون إليه، قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تصدّقوا بصدقةِ السرِّ ليومٍ عسير، صلّوا في ظلمةِ الليل لظلمةِ القبور، صوموا يومًا شديدًا حرُّه ليوم النّشور».

أيّها المسلم: إنّ نبيّنا ﷺ كان يحافِظ على قيام الليل، وإذا حُجز عنه لوجعٍ أو غيره قضاه في النهار، فكان يواظِب على إحدى عشرَة ركعة، فإذا عجز عنها لمرضٍ أو غيره صلاّها في الضّحَى ثنتَي عشرَةَ ركعة.

---

(١) رواه البخاري (١١٢١) ومسلم (٢٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (١١٥٢) ومسلم (١١٥٩).

هكذا كان يحافِظ على قيام الليل، حتى إنه يقضيه، وهكذا كان يحافظ عليه صحابتُه الكرام والتابعون لهم بإحسان، فهو خلُق أهلِ الإيمان، يزدادون به خيرًا، ويزدادون بـه قربـةً إلى الله، وهو والله نعيم قبل النعيم، وجنّة قبل دخول الجنة، قال بعض السلف لما دخل عليه رجلٌ ورأى أثرَ الخير عليه والنور على وجهه، فقال: (من قامَ بالليل حسُن وجهه بالنهار)، يعني أنّ لقيام الليل آثارًا على القائم.

قيل لعبد الله بن مسعود: ما نستطيع قيامَ الليل، قال: «قيّدتكُم خطاياكم، لو صدقتُم الله لأعانكم، ألم تسمعوا الله يقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦]؟!». وليعوّد الإنسان نفسه شيئًا فشيئًا حسب ما تطيقه نفسه ترغيبًا له.

وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ».(١) و(الْمُقَنْطِرِينَ): هم الذين أعطوا قِنْطارًا من الأجر. والقنطار: مقدار كبير من الذهب، وأكثر أهل اللغة على أنه أربعة آلاف دينار. وقيل: مِلْء جِلْد ثَور ذَهبًا.

والمراد من الحديث تعظيم أجر من قام بألف آية، وقد روى الطبراني أن النبي ﷺ قال: «والقنطار خير من الدنيا وما فيها»(٢).

وهنا فائدة: يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من سورة «تبارك» إلى آخر القرآن ألف آية»؛ فمن قام بسورة تبارك إلى آخر القرآن فقد قام بألف آية، ومن أراد فليقم بمائة آية، ومن عجز فلا أقل من أن يقوم بعشر آيات؛ لئلا يُكتب من الغافلين، نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين).

أيها الأحبة: إنّ قيامَ الليل نعمة يمنّ الله بها على من يشاء من عبادِه، فيجِد ذلك القائمُ لهذا الوقت لذةً وسرورًا، وانبساطًا وانشراحَ صدر، وحلاوةً وقرّةَ عين، وهو قائم يتلو كتابَ الله ويتدبّره، ويسبّح الله ويحمده، ويثني عليه ويلجأ إليه، فما أعظمَها من نعمةٍ لمن وُفّق لها، ولا

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨) وصححه الألباني.
(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٣٨).

يعرف قدرَها إلا من مُنِح تلك النعمة، قال بعض السلف: (إنّ أهلَ الليل في ليلهم وتهجُّدهم، ألذّ من أهل اللهو في لهوهم)، فهؤلاء في سبيلِ صلاح قلوبهم واستقامةِ حالهم، وهؤلاء في سبيل فساد قلوبهم والغفلة عن ربهم.

نعم والله إنّهم ألذّ، وكما قيل: من كذّب جرّب، فمع أنه لا يوجد لهذا مُكذّب، لكن أيضًا لا يكاد يوجد له مجرّب!

فعلى المسلم الذي يرجو رحمةَ ربّه أن لا يفوّتَ هذا المقام الرفيع، وأن لا يحرم نفسه هذه النعمةَ العظيمة، ولو جزءًا يسيرًا، وقيامًا قليلًا، فما يزال العبدُ يألَف تلك الطاعةَ ويحبّها حتى يوفّقه الله، فيجعله ممّن اعتادَها وأحبها والتذّ بحلاوتها.

جعلني الله وإيّاكم من المسارعين لفعل الخيرات، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه كما يحبّ ربّنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فيا أيّها الناس: اتقوا الله تعالى حقَّ التقوى.

عبادَ الله: إنّ لقيام الليل أسبابًا لمن أراد ذلك وسعَى في الخير، فمنها:

أن يحرِص على الإقلال من السّهر ما وجَد لذلك سبيلًا، ولذا كان نبيّكم ﷺ يكره النومَ قبل العشاء، ويكره الحديثَ بعدها، فكان يكره النوم قبلها خوفًا من فواتها، ويكره الحديث بعد صلاة العشاء لأنه كان إذا صلّى أوى إلى فراشه، فكان يكرَه طولَ الحديث والسَّهر الذي لا داعي له؛ خوفًا من أن يفوِّت عليه فُرصًا عظيمة وخيرات كثيرة، من قيام الليل وصلاة الفجر جماعة.

ومِن الأسباب: ترك الذنوب والمعاصي؛ قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد أعياني قيام الليل؟ إني أبيت معافى وأحب قيام الليل، وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟! فقال الحسن: (ذنوبك قيدتك).

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواءً؟ فقال: (لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل؛ فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف). وقال سفيان الثوري: (حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بسبب ذنب أذنبته).

ومما يعين على القيام: قلة الكلام والطعام، وقد كان بعض الصالحين يقف على بعض الشباب العبّاد إذا وضع طعامهم، ويقول لهم: (لا تأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا، فتناموا كثيرا، فتخسروا كثيرا).

ومن الأسباب المعينة على القيام: كثرة ذكر الله آناء الليل وآناء النهار، وأن تقرأ أذكار النوم، كالمعوذات وآيةَ الكرسيّ عند منامك لتبعِد عدوّ الله عنك، ففي الحديث: «من قرأ آيةَ الكرسيّ كلَّ ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح»[1]، وتختم بالآيتين من سورة البقرة، فمن قرأهما في ليلةٍ كفَتاه، وكان نبيّكم ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: «اللهم فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، ربَّ كلّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا الله، أعوذ بك من شرّ نفسي ومن شرّ الشيطان وشِركه، وأن أقترفَ على نفسي سوءًا أو أجرّه إلى مسلم»[2]، وكان يجمع كفّيه فيقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١] ثلاثًا، ثم يمسَح بهما رأسه ووجهه وما استطاع من جسده. صلوات الله وسلامه عليه[3]، وكان يفعل ذلك دائمًا، حتى إنه لمّا مرِض كانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تأخذ يدَيه، فتنفث فيهما، ثم تمسَح بهما وجهَه وما استطاعت من جسدِه.

فإذا كرر الإنسانُ هذه الأورادَ وقرأها عند نومه وسبّح الله وحمِده وكبّره ونام على خير وطهارة، وعزيمة على القيام، واستعانة بالكريم سبحانه؛ فإنّه يُرجى برحمةِ أرحَم الراحمين أن يمنّ الله عليه، فيوقظه من غفلتِه، ويجعل القيام ألذّ عنده وأخف على نفسه من التقلب في الفراش؛ ويعينه في تلك اللحظاتِ بطاعةٍ ولو قلّت، يجد ثوابَها أحوَج ما يكون إليه.

وأخبر ﷺ أنّ عدوّ الله إبليس لا يزال يثبط العبد عن فعل الخير، ويحول بينه وبين المبادرة إلى العمل الصالحِ، ولن يتغلب العبد عليه إلاّ بالالتجاء إلى الله والتعوّذ من شرّه والتحصن بالأذكار، قال ﷺ: «يعقِد الشيطان على قافية رأسِ أحدكم إن هو نامَ ثلاثَ عُقد، يضرب على كلّ عقدةٍ: عليك ليل طويلٌ فنَم، فإن قام وذكَر الله انحلّت عقدة، وإن توضّأ انحلّت عقدة، وإن صلّى انحلّت العُقَد كلّها، فأصبح طيّبَ النفس نشيطًا، وإلاّ أصبَح خبيثَ النفس

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٣/٢٧٨) صحيح.
(٢) صحيح الترمذي (٣٥٢٩).
(٣) رواه البخاري (٥٠١٧).

كسلانًا»[1]، فسبحانَ مَن يمنّ على مَن يشاء، وسبحانَ مَن يؤهّل لفضلِه من يشاء، وسبحانَ من يختار لفضله من يشاء مِن عباده، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

ونختم بذكر طرف من أخبار العابدين الصالحين، أصحاب قيام الليل:

قال ابن الجوزي: (واعلم أن السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات:

الطبقة الأولى: كانوا يحيون كل الليل، وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء.

الطبقة الثانية: كانوا يقومون شطر الليل.

الطبقة الثالثة: كانوا يقومون ثلث الليل، قال النبي: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ صَلاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ صَوْمُ دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[2].

الطبقة الرابعة: كانوا يقومون سدس الليل أو خمسه.

الطبقة الخامسة: كانوا لا يراعون التقدير، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام.

الطبقة السادسة: قوم كانوا يصلون من الليل أربع ركعات أو ركعتين.

الطبقة السابعة: قوم يُحيون ما بين العشاءين، ويُعسِّلون في السحر، فيجمعون بين الطرفين).

وكان أحمد بن حنبل يصلي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة، فلما حُبس وضُرب ومرض، كان يتألم بعد ذلك أنه لم يعد يصلي سوى مائة وخمسين ركعة. لله درُّ هذه الهمم!

لقد كانوا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يستغرقون جميع أوقاتهم ومنتهى طاقاتهم في طاعة الله من الصيام والقيام والذكر والشكر؛ قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لقد أدركنا أقوامًا كانوا في العبادة على حد لا يقبل الزيادة!)

(١) رواه البخاري (٣٢٦٩) ومسلم (٧٧٦).

(٢) متفق عليه.

وكان يزيد الرقاشي يقوم الليل، فإذا فتَر قال لنفسه: (يا يزيد: من يصلي عنك إذا مِتَّ؟ من يصوم عنك إذا مِتَّ؟) ثم يقوم حتى يصبح. قال عمر بن عبد العزيز: (أفضل الأعمال ما أُكرهت إليه النفوس).

وكان أحد الصالحين يصلي حتى تتورم قدماه فيضربها ويقول: (يا أمّارة بالسوء ما خلقتِ إلا للعبادة).

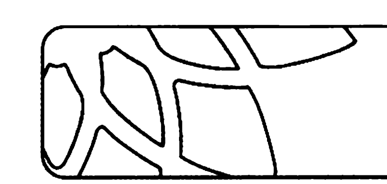
ودخلت إحدى النساء على زوجة الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فرأت بللًا في مُصلّاه، فقالت لامرأته: ثكلتك أمكِ! أراكِ غفلت عن بعض الصبيان حتى بال في مسجد الشيخ؟ فقالت لها زوجة الأوزاعي: (ويحكِ هذا يُصبح كل ليلة، من أثر بكائه في سجوده).

لقد ذاقوا لذة المناجاة، وحلاوة القيام بين يدي الله، كما قال أبو سليمان الداراني: (لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا!).

إنّ لله عبادًا فُطَنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجُّةً واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنَا

هذا وصلُّوا -رحمكم الله- على محمّد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].





فضائل وآداب الجمعة(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، من هداه فهو السعيد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، أحمده سبحانه وأشكره، والشكر من أسباب المزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أشرف من أظلت السماء، وأكرم من أقلَّت البِيد، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، أهل التوفيق والتسديد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الوعيد.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الإخوة ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوه رحمكم الله حق التقوى، فتقواه أقوم وأقوى، وأعدوا واستعدوا فالأوقات تمضي، والأعمار تنقضي، ومن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة. وجنة الله لا تُنال بالتمني، ولا بشرف النسب، كما لا تنال بالفخر بعمل الآباء ولا الأجداد، ولا بالتكاثر في الأموال والأولاد: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

أيها المسلمون: أمةُ الإسلام.. أمةُ المصطفى.. اصطفاها ربها واصطفى لها، واختارها واختار لها: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج:٧٨] اصطفى لها الدين، واصطفى لها محمدًا ﷺ، خيارًا من خيارٍ من خيار، أكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام دينًا: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨].

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

امتنَّ الله عليها بخصائص، وخصَّها بفضائل لم تكن للأمم قبلها، فاختار الله لها من البقاع مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الليالي ليلة القدر، وخص عشر ذي الحجة بمزيدٍ من الفضل، وليوم عرفة من الشرف مالا يخفى، ويوم النحر يوم ضوابط التكفير الأكبر.

هناك مواسم للاجتهاد في الطاعات، ومناسبات للإقبال على العبادات، تتكرر وتدور، لتبدد الفتور، وتجدد النشاط، وتوقظ الغافلين، يُقبل المقبلون فيها على ربهم، فيزدادون له حبًا ومنه قُربًا، مواسم تتجدد لينفكَّ العبد من الانهماك في أشغاله، ويتحلل فيها من قيود مهنته وأعماله.

أيها الإخوة: وإن من هذه الأيام ومن مواسم النفحات يومًا جلَّ بين الأيام قدره، وعلا في الإسلام ذكره، إنه عنوان الملة، وعيد أهل الإسلام، هدى الله له أمة الإسلام، وأضل عنه الأمم الأخرى، فحقٌّ على الأمة أن تعرف قدره، وتحفظ منزلته، إنه يوم بدء الخليقة، ويوم منتهى الدنيا، إنه يوم الجمعة، عيد الإسلام، يشرق على المسلمين ليؤلف بينهم بالمودة، ويربطهم برباط الجماعة، ويظهر فيهم الوحدة والعزة.

ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد»[1]. وفي لفظ مسلم: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا؛ فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة»[2] وعند أبي داود وغيره من حديث أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم تبلغني»[3] وعند مسلم: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة»[4]. فهو أعظم مجامع المسلمين بعد يوم عرفة.

---

(١) رواه البخاري (٨٧٦) ومسلم (٨٥٥).
(٢) رواه مسلم (٨٥٦).
(٣) صحيح أبي داود (١٠٤٧).
(٤) رواه مسلم (٨٥٤).

ولقد كان من هدي رسول الله ﷺ تعظيم هذا اليوم، وتشريفه، وتخصيصه بعباداتٍ يختص بها عن غيره، فله في الدين أحكامٌ مقررة، وآدابٌ محفوظة مرعية.

ففي يوم الجمعة: يشرع قراءة سورة الكهف، كما أخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما بسندٍ صحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»(١).

كما تستحب في هذا اليوم وليلته كثرة الصلاة على نبينا محمد ﷺ، كما في الحديث الصحيح: «فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»(٢). وفي حديثٍ آخر: «أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة»(٣).

يقول الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رسول الله ﷺ سيد الأنام، والجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيرة، وكل خيرٍ نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنها نالته على يده... فأعظم كرامة تحصل له إنما تحصل يوم الجمعة، إذ فيه بعثُهم إلى قصورهم ومنازلهم في الجنة، ويوم الجمعة هو يوم المزيد إذا دخلوا الجنة، وهو عيدٌ لهم في الدنيا... وهذا كله إنما عرفوه وحصلوه بسببه وعلى يده عليه الصلاة والسلام، فمن شكره وأداء القليل في حقه أن يكثروا من الصلاة عليه في هذا اليوم والليلة). اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

ومن خصائص يوم الجمعة -أيها المسلمون- هذا المشهد الكبير، وهذا الجمع الغفير لصلاة الجمعة، إنها صلاة أسبوعية جامعة، يجتمع فيها المسلمون في مساجدهم الكبار ليشهدوا الخير والذكر، صلاة يعمر فيها المسلمون بيوت الله خير عمارة، ويذرون البيع واللهو

---

(١) رواه الحاكم (٢ / ٣٩٩) والبيهقي (٣/ ٢٤٩) قال ابن حجر في تخريج الأذكار: (حديث حسن، وهو أقوى ما ورد في قراءة سورة الكهف).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

(٣) قال الألباني في تمام المنة (٣٢٤): (حسن بمجموع طرقه، وهو صحيح دون ذكر «ليلة الجمعة»).

والتجارة، يتحللون من شئون معاشهم، ويتذكرون يوم معادهم، ويوثقون صلتهم بربهم، ويطمعون في مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفراتٌ لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(١).

و«من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام»(٢). نعم؛ فالحسنة بعشر أمثالها، وهذا يوم ليس كسائر الأيام، اجتماعٌ إسلامي مهيب يزدان فيه المسلم ببهاء المنظر، وطهارة المخبر، وشذا المسك والعنبر، اجتماعٌ يشرح الصدور، ويسر القلوب، ويرضي الرب تبارك وتعالى، فتقررت له أحكام شرعية، وآداب مرعية، من الاغتسال والتطيب، واتخاذ الزينة، والعناية بسنن الفطرة، والمبادرة بالتبكير، والمشي للصلاة بسكينة وتوقير.

في الخبر عنه ﷺ أنه قال: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيبه إن كان له، ولبس أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتي المسجد ثم يركع ما بدا له، ولم يؤذِ أحدًا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينهما»(٣).

وخطب النبي ﷺ يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار، فقال: «ما على أحدكم وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته»(٤) والماشي إلى الجمعة له في كل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها، كما في خبر: «من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام فأنصت؛ كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها» وذلك على الله يسير(٥). وهذا أعظم حديث في مضاعفة الثواب، كما ذكر ذلك أهل العلم، فلو أنك تخطو إلى بيت الله مئة خطوة، تكون قد حصلت على ثواب مئة سنة، وهذا قد يكون أكثر من عمر الإنسان، يحصّله في بعض يوم أو في

(١) رواه مسلم (٣٤٩).
(٢) رواه مسلم (٨٥٧).
(٣) حسّنه الألباني في صحيح ابن خزيمة (١٧٧٥).
(٤) صحيح ابن ماجه (٩٠٦).
(٥) صحيح الجامع (٦٤٠٥).

ساعة من نهار، فيا لله كم من أناس ماتوا وقد زادوا بهذا الحديث إلى ثوابهم، وأضافوا مئات السنين إلى أعمارهم، وكم من أناس ماتوا ولم يظفروا بالعمل به ولو لمرة واحدة، وذلك والله غبنٌ عظيم، نسأل الله أن يرزقنا العزيمة على الرشد وأن يعيننا على ذكره وشكره.

ومما يتأكد من الآداب: التبكير إلى هذه الصلاة في هدوءٍ وسكينة، من أجل استماع الذكر، وتدبر القرآن، والتهيؤ للإنصات للموعظة، وقبول النصح، لعل الله أن يغفر الذنوب، ويعظم الأجور، ومن ذا الذي يبخل على نفسه بالتقدم والبكور والمسارعة للاستكثار من الأجور؟!

ولقد قال بعض أهل العلم: كانت الطرقات على عهد السلف عامرة وقت السحر وبعد الفجر بالمبكرين إلى الجمعة الذين يمشون بالسُّرُج، ويقال إن أول بدعة أخرجت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وإن البكور إليها لدليل شدة العناية بها، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قربهم من الإمام وتبكيرهم إلى الصلاة، ولهذا جاء عن علقمة قال: رحت مع عبدالله - يعني: ابن مسعود، إلى صلاة الجمعة - فوجد ثلاثة نفر قد سبقوه، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد.

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[1].

ومن لطائف الأسرار في هذا المقام ما نبَّه إليه بعض أهل العلم حيث قال: لما كان يوم جمعة في أسبوع كالعيد في العام، وكان العيد مشتملًا على صلاة وقربان، وكان يوم الجمعة يوم صلاة، جعل الله سبحانه التبكير فيه إلى المسجد والمسارعة بدلًا من القربان.

عباد الله: من أحب الخير لنفسه فليتقرب إلى الله وليبادر وليجتنب التشاغل بالشواغل، من قال لصاحبه: أنصت فقد لغا، ومن مس الحصى فقد لغا، وليمتنع عن إيذاء المصلين والتشويش عليهم بتخطي رقابهم، فقد جاء رجلٌ يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، ورسول

---

(١) رواه البخاري (٨٨١) ومسلم (٨٥٠).

الله ﷺ قائمٌ يخطب فقال له: «اجلس فقد آذيت وآنيت»(١) أي: آذيت بالتخطي، وآنيت: تأخرت عن المبادرة والتبكير.

كما ينبغي للمسلم إيذاء إخوانه بالروائح الكريهة في بدنه وملبسه ومأكله ومشربه، أو إزعاجهم بالنغمات الصاخبة في هاتفه، بل ينبغي ضبط الهاتف ليسلم للعبد خشوعه وأجره.

ومن الآداب: حسن الاستماع إلى الخطبة، فهي موعظةٌ للمتقين، وذكرى للمؤمنين، وتنبيه للغافلين، وتعليم للجاهلين، هي تزكية للنفوس، وترقيقٌ للقلوب، وشفاء للصدور، وتذكيرٌ بالله، وترغيبٌ في ثوابه، وترهيبٌ من عقابه، وما أنفع الكلم الطيب حين تحيا به القلوب!

خطبٌ ومواعظ، فيها الثناء على الله، وتمجيده والشهادة له بالوحدانية، ولنبيّه بالرسالة والبلاغ، وتذكيرٌ للعباد بأيام الله، ووصيتهم بتقواه، وما يقربهم إليه وإلى جنانه، ويباعدهم عن سخطه ونيرانه.

خطبٌ مشتملة على أصول الإسلام، وقواعد الديانة، وما تقتضيه الأحوال، وحثٌ على الفضائل، واجتناب الرذائل، مما يصلح الفرد والمجتمع في العاجل والآجل، إنها تجديدٌ للعزائم، وتواصٍ بالشمائل والمكارم، دعوات حق، وكلمات صدق، أمرٌ بمعروف، ونهيٌ عن منكر، بالحكمة والموعظة الحسنة.

الله أكبر! حين تخرج هذه المواعظ من قلوبٍ صادقة، لا ترى لها فضلًا على سامعها، لتصب في آذان صاغية، وأفئدة منشرحة، تحب الناصحين، وتستجيب للواعظين، تسمع حين تسمع بقلوبٍ واجفة، وأجسادٍ خائفة، تتلقى أوامر ربها على وجه العناية والرعاية، فتستفيق القلوب الغافلة، وتنشط الهمم الوانية، ويراجع المرء نفسه لينظر ما قدمت يداه، وتقف النفس وقفة صادقة لتنظر ما قدمت لغد.

هذه هي خطب الجمعة، في مضامينها وعظاتها، وهذا هو المصلي الناصح لنفسه، قد نفعه ربه بالإرشاد والعظات، وحسن الاستماع والإنصات.

---

(١) صحيح الجامع (١٥٥).

مظاهر الغفلة عن صلاة الجمعة:

يقابل ذلك -أيها الإخوة- قومٌ غافلون، متهاونون، كأنه لم يطرق آذانهم الوعيد الشديد، فلم يعرفوا لهذا اليوم حقه، ولم يكترثوا بفضله: «من ترك ثلاث جمعٍ تهاونًا، طبع الله على قلبه»[١]، بهذا صح الخبر عن نبيكم محمدٍ ﷺ، ويقول عليه الصلاة والسلام وهو قائمٌ على أعواد منبره: «لينتهين أقوامٌ عن ودعهم الجمع والجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»[٢].

قومٌ ساهون لا يقيمون لهذا اليوم وزنًا، ولا يحسبون له حسابًا، أهل لهوٍ وغفلة يعبُّون من اللهو عبًّا، ويشربون من الأهواء بأوفى المكاييل، لا يعرفون بيوت الله، ولا يشرف أحدهم في إقامة شعائر الله، منهم من بجوار المساجد بيوتهم ولكنهم أبعد الناس عنها بقلوبهم، نسأل الله أن يوفقنا وإياهم لطاعته، وأن يشرح صدورنا لمرضاته.

وهناك فئة كسالى، قد يأتون إلى المساجد في فتورٍ وملل، ينتظر الواحد منهم إقامة الصلاة؛ ليأتي مسرعًا ثائر النَّفْسِ والنَّفَس، فيدخل إلى الصلاة مشوش الفكر، شارد الذهن، لم يراعِ أدب الإسلام في دخول بيوت الله، ولم يعمل بسنة رسول الله ﷺ في التزام السكينة والوقار، فاته أجر التبكير إلى الصلاة، أما علم هذا أن منتظر الصلاة كالمرابط في سبيل الله، والملائكة تستغفر له ما دام في مصلاه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه؟ قال عليه الصلاة والسلام: «لا يزال قومٌ يتأخرون حتى يؤخرهم الله»[٣].

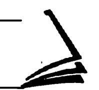
ومن أصناف الغافلين أيها الإخوة: من لا يدعوه إلى الإنصات وحسن الاستماع إلا حب التطلع والاستطلاع، ليقارن بين هذا وذاك، ولعله مبتلى بتتبع الزلات، وعد الهفوات، مما ليس من مسالك صالح المؤمنين، وإلا فمن ذاك فينا معصوم؟ ومن الذي يسلم من الخطأ؟

---

(١) صحيح الترغيب (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٨٦٥).

(٣) رواه مسلم (٤٣٨).



أو يستغني عن النصح؟ وليس كل قائل خير من سامعه، ولا كل متبوع خير من تابعه، ولكن:

يكمّل بعضنا بعضًا بنصح فيه توضيحُ
وقد يُغني عن التصريح إجمالٌ وتلميحُ

ومن مظاهر الغفلة والذل والانهزام عند بعض المسلمين: إعلاؤهم لشأن أعياد الكفار وأيامهم، حتى تضاءلت منزلة يوم الجمعة عندهم، فلا يقيمون لها وزنًا، ولا يرفعون لها شأنًا، وكأنها ذيلٌ في آخر الأسبوع، ليس لها عندهم من الرعاية الشرعية ولا الرسمية كما يعتنون بأعياد الأمم الأخرى الأسبوعية وأيامها، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

إن حقًا على من أحب الخير لنفسه أن يعرف لهذا اليوم فضله، ويعطيه حقه، ويتقرب إلى الله بما يستطيع من العبادات المشروعة، ويؤدي الواجب، رغبة في الخير، وتلمسًا للفضل، مقبلًا على مواطن الطاعات، بالعزائم النشطة، والنفس المتفتحة، والآمال الواسعة، بفضل الله وبرحمته يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة:٩-١١].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمدٍ ﷺ، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غناء إلا في الافتقار إلى رحمته.

أحمده سبحانه وأشكره، إذا أطيع شكر، وإذا عصي تاب وغفر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وحجته على الخلائق أجمعين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فيا أيها الإخوة: هذا هو يوم الجمعة بفضله ومنزلته، وذكره وخصائصه، وذلكم هو الدين بحكمه وحكمته، فليس الدين بصومعة منعزلة، ولا الدنيا بسوقٍ منفصلة، لكن المسلمين إذا فرغوا من صلاتهم لم ينقطعوا عن الصلة بربهم، ولم يغفلوا عن ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] عملٌ وكد، ونشاطٌ وجدّ، مع ذكرٌ وشكر، لا انفصام بين ذلك ولا انفصال.

كان عراك بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف بباب المسجد ثم قال: «اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك فأنت خير الرازقين».

فلماذا -يا عبد الله- لا تتحلى بحلل الصالحين، وتتزيا بزي المتقين، وتكثر من ذكر الله وتلاوة كتابه، وتكثر أيضًا من الصلاة والسلام على حبيبه وخليله محمدٍ ﷺ، وتحرص على حفظ إخوانك، فلا تفرق بين اثنين، وتصالح من خاصمت، وتتقي الله عسى أن تربح وتفلح؟ فكمل نفسك بالمحامد، وارعها في دواوين المتقين الأماجد.

واعلم -وفقك الله- أن أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ قد نصوا على أنه لا يجوز السفر يوم الجمعة لمن تلزمه صلاة الجمعة بعد دخول وقتها إلا إذا كان سيؤديها في مسجدٍ في طريقه.

ولا تنسى -وفقني الله وإياك- أن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه، فقد قال ﷺ: «إن في الجمعة ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائمٌ يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه»[1]، وأرجى أوقاتها ساعتكم هذه، وما بين العصر إلى غروب الشمس.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله- واجتهدوا في الخير تصيبوه بإذن الله، وتحروا الفضل تبلغوه إن شاء الله، ثم صلوا وسلموا على عبد الله ورسوله محمد نبيكم فقد أمركم ربكم فقال قولًا كريمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) صحيح النسائي (١٤٣١).

الجنائز آداب وأحكام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتفرد بالبقاء، ذي العزة والكبرياء، كتب مقادير الخلائق وأقسامها، وقدَّر أمراضها وأسقامها، سبحانه وبحمده، له ما في السماوات وما في الأرض ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، رحمةً من لدنه وفضلًا، وحكمةً منه وعدلًا.

أحمده سبحانه وأشكره على حلو القضاء ومُرِّه، وأعوذ به من سطوته ومكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مستزيدًا من إحسانه وبرِّه.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أحاطه ربه بتأييده ونصره، وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم بعثه وحشرِه؛ أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

أيها المسلمون: الدُّور ثلاث: أولًا: دار الدنيا. ثانيًا: دار البرزخ. ثالثًا: دار الآخرة.

وابن آدم: روح وجسد، والدار الآخرة هي دار القرار التي يقوم فيها الناس لرب العالمين.

والنعيم المقيم، والعذاب الأليم، على الأرواح والأجساد، والقبر آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة، وهو إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وشدته أمارة للشدائد كلها، وما يراه العبد فيه عنوان ما يصل إليه.

(١) صالح بن حميد.

والموت ليس عدمًا محضًا، ولا فناءً صِرفًا؛ ولكنه تبدُّل حال، وانتقال من دار إلى دار، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، قال بعض أهل العلم: قدَّم ذكر الموت على الحياة تنبيهًا إلى أنه يتوصل به إلى الحياة الحقيقية، وقد قال عز شأنه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

إن حقًا على العاقل اللبيب: النظر والتفكر، والمحاسبة والتدبر، فكأس المنايا تذوُّقها حتمٌ على كل حي، فهل ينتظر الصحيحُ إلا السقَم، والكبير إلا الهرم، والموجود إلا العدم، على هذا مضت الخلائق، وعلى هذا جُبِلَت الدنيا، اجتماع وفرقة، محيا وممات، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١].

والمصائب خطبٌ موجع، والمنايا حولٌ مفجع، والغنيمة بالصبر والرضا وحسن الظن والاستعداد؛ حتى قال بعض السلف: (لولا المصائب لوردنا القيامة مفاليس)، والمرء إذا مات سلا عنه أحبابه، ونسيه أصحابه، وذُهل عنه من أنفق عمره في محبته، وأتعب نفسه في ملاطفته.

فإذا تذكر الموت متذكر فليكن تذكره لا من أجل فراق الأحباب والأصحاب؛ ولكن من أجل فراق العمل لدار القرار، والزاد للمنقلب والمصير، فمن نظر نظرة استعداد ووجل، زاد في الجد والعمل.

أيها الإخوة: وهذه وقفة تذكرٌ وتذكير بحال المسلم وهو يودِّع دار الدنيا ويُقبِل على ربه، فهذه الجنائز تمرُّ على الأسماع والأشخاص وقليل من يدّكر، ووقفة مع أحكامها وآدابها وحكمها وعبرها؛ فدينكم دين الإسلام لم يترك شاذة ولا فاذة إلا وضحها وبينَّها في حِكمها وأحكامها، وعبرها وأسرارها.

وفي هذا المقام يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهدي رسول الله ﷺ في هذا أفضل الهدي، فهو يشتمل على الإحسان إلى الميت، ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة الحي العبودية لله وحده فيما يُعامل به الميت، وتجهيز المنتقِل إلى الله

على أحسن أحواله؛ فالمسلمون يقفون صفوفًا يحمدون الله ويستغفرونه لميِّتهم، ويسألون الله له الرحمة والمغفرة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه قبره، ثم يسألون له التثبيت، فهو أحوج ما يكون إليه، ثم يتعاهدوه بالزيارة في قبره، للسلام عليه، والدعاء له، كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا). اهـ

ومن أجل مزيد تفصيل في ذلك أيها المسلمون! فإن أول ما يُنبَّه إليه من الآداب والأحكام: أن يُتعاهد المريض في مرضه؛ فيُؤمر بالصبر على ما أصابه، والرضا بقدر الله، وإحسان الظن بربه، فذلك حال المؤمن فـ«أمره كله له خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن»(١) ويكون على حال من الخوف والرجاء، يخاف عقاب الله بسبب ذنبه وتقصيره، ويرجو رحمته بما يعلم من سعة رحمته.

دخل رسول الله ﷺ على شابٍ وهو في مرض الموت، فقال: «كيف تجدك»؟ قال: والله يا رسول الله إني لأرجو الله وإني لأخاف ذنوبي، فقال له رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف»(٢).

وليؤدِّ الحقوق إلى أصحابها إذا تيسر ذلك، وإلا فليوص بها، وتوشك المنايا أن تسبق الوصايا، وإذا كان عنده فضل مال فليوص بالثلث فأقل للأقربين من غير الوارثين، ولمن أحب من المسلمين، وكذا في وجوه الخير، وكم هو جميل أن يحتاط المرء لنفسه فيجعل من وصيته أن يجهز ويدفن على السنة؟ وقد قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أنا متُّ فلا تؤذِنوا بي أحدًا فإني أخاف أن يكون نعيًا، وأني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النعي» وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويستحب له استحبابًا مؤكدًا أن يُوصيهم باجتناب ما جرت به العادة من البدع في الجنائز، ويؤكد العهد بذلك).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).
(٢) صحيح الترمذي (٩٨٣).

وإذا حضره الموت فعلى من حضره من أهله أو غيرهم تذكيره بالآخرة وأمره بالتوبة برفق وتلطف، وأن يلقنه الشهادة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»(١)، ويدعون له، ولا يقولون إلا خيرًا، فقد جاء في الخبر: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرًا، فإن الملائكة يُؤمِّنون على ما تقولون»(٢).

فإذا قضى وأسلم الروح؛ فتُغمَّض عيناه، ويُغطى بدنه ووجهه، ويُدعى له، تقول أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قُبِضَ تبعه البصر»؛ فضج ناس من أهله، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يُؤمِّنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا ولهم يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونوّر له فيه»(٣).

ولا مانع من تقبيله لمن أحب ذلك من أقاربه أو معارفه.

ومن السنّة: الإسراع في تجهيزه ودفنه بعد تيقُّن وفاته؛ ففي الحديث الصحيح: «أسرعوا بالجنازة! فإن تكُ صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تكن سوى ذلك فشرٌّ تضعونه عن رقابكم»(٤)، وعند أبي داود: «لا ينبغي لجيفة مسلم أن تبقى بين ظهراني أهله»(٥).

ولا مانع من التأخير لمصلحة تتعلق بذلك؛ كانتظار قريب يحضر قريبًا، أو للتعرف على سبب الوفاة إذا كانت بجناية أو جريمة، ثم يقوم بتغسيله من يحسن ذلك من المسلمين العدول ذوي الثقة والديانة من أقاربه أو غيرهم.

وفي صفة التغسيل تقول أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «دخل علينا رسول الله ﷺ ونحن نغسل ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو سبعا أو أكثر من ذلك إذا رأيتن ذلك. قالت:

---

(١) صحيح الجامع (٥١٥٠).
(٢) رواه مسلم (٩١٩).
(٣) رواه مسلم (٩٢٠).
(٤) صحيح الجامع (٩٦٤).
(٥) رواه أبو داود برقم (٣١٥٩) وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: (ما سكتُّ عنه فهو صالح).

قلت: وترًا؟ قال: نعم! واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتُنَّ فآذنّني، قالت: فلما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حقوة -أي: إزاره- فقال: أشعرنها إياه -أي: اجعلنه يلي جسدها- قالت أم عطية: فمشطناها ثلاثة قرون»، وفي رواية: «نقضنه ثم غسلنه وظفرن شعرها ثلاث ظفائر، قرنيها وناصيتها وألقينه خلفها، قالت: وقال لنا: ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»(١). ويُطيّب في بدنه وكفنه، والرجل يغسله الرجال، والمرأة يغسلها النساء، والزوجان يغسل أحدهما الآخر، ومن كان دون سبع سنين يغسله الرجال والنساء.

ومن الآداب في حق الغاسل: أن يستر ما يرى، ولا يحدّث فيما قد يطلع عليه من مكروه، ولا يحضر الميت إلا الغاسل ومن يعينه، ثم يُكفنَّ بكفن ساتر لجميع البدن، ويكون الكفن حسنًا أبيضًا نظيفًا أو جديدًا من غير سرف ولا مغالاة، وإذا تيسر فيكون للرجل ثلاثة أثواب؛ فإن رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب سحولية من كرسف -أي: من قطن- ليس فيها قميص ولا عمامة، أُدرج فيها إدراجا، والمرأة تُكفَّن في خمسة أثواب إذا تيسَّر، إزار وخمار وقميص ولفافتين، ثم يُصلى عليها، وكُلَّما كثر المصلون كان أفضل للميت وأنفع، ويُستحب أن تكثر الصفوف خلف الإمام ثلاثة صفوف فصاعدًا، وفي الحديث: «ما من ميت يُصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شُفِّعوا فيه»(٢)، وفي حديث آخر: «إلا غفر له»، وفي الحديث أيضًا: «ما من رجل مسلم يموت ويقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يُشركون بالله شيئًا إلا شفّعهم الله فيه»(٣).

وصفة الصلاة: أن يكبر أربعًا، يقرأ بعد الأولى سورة الفاتحة، وبعد الثانية يُصلي على النبي ﷺ، وبعد الثالثة يُخلص الدعاء للميت، وبعد الرابعة يُسلّم تسليمة واحدة، ولو سلَّم تسليمتين فلا بأس.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٩) وغيره.
(٢) رواه مسلم (٩٤٧).
(٣) رواه مسلم (٩٤٨).

ومن الدعاء المأثور في ذلك: «اللهـم اغفـر لحينـا وميتنـا، وشـاهدنا وغائبنـا، وصـغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه عـلى الإسـلام، ومـن توفيتـه فتوفـه عـلى الإيمان، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، اللهم اغفر لـه وارحمـه، وعافـه واعـف عنـه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الذنوب والخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وأدخلـه الجنـة، وقه فتنة القبر وعذاب النار»[1].

واتباع الجنازة حق من حقوق المسلم، وفي الصحيحين: «من شـهد الجنـازة حتـى يُصـلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تُدفن فله قيراطـان، قيـل: ومـا القيراطـان؟ قـال: مثـل الجبلين العظيمين -وفي لفظ مسلم - أصغرهما مثل أحد»[2]. قـال أبـو هريـرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ وهـو راوي الحديث: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة» ويُسنَّ الإسراع بها.

يقول أبو بكرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: «لقد رأيتنا ونحن مع رسول الله ﷺ نرمل رمَلًا»[3] وهـو إسراع من غير شدة يُخاف منها ضرر على الميت، أو مشقة على المشيعين، ويمشـي أمامهـا وخلفهـا، وعن يمينها وعن يسارها، والراكب يسير خلفها.

يقـول أنـس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: «كـان رسـول الله ﷺ وأبـو بكـر وعمـر وعـثمان رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ يمشـون أمام الجنازة وخلفها»[4].

والنساء لا تتبع الجنائز ولا تزور المقابر؛ لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، ولا يجوز أن يتبـع الجنازة ما يخالف الشرع، يقول الإمام النووي رَحِمَهُاللَّهُ: (واعلم أن الصواب والمختـار مـا كـان عليه السلف -رضوان الله عليهم- من السكون والسكوت في حال السير مـع الجنـازة؛ فـلا ترفع أصوات بقراءة ولا بذكر ولا غير ذلك). قال رَحِمَهُاللَّهُ: (والحكمة في ذلك ظـاهرة، وهـي أنه أسكن للخاطر، وأجمع للفكر، قال: ولا تغتر بكثرة المخالفين).

---

(١) رواه مسلم (٩٦٣).
(٢) رواه البخاري (١٣٢٥) ومسلم (٩٤٥).
(٣) صحيح أبي داود (٣١٨٢).
(٤) صححه في إرواء الغليل (٣/ ١٩١).

والدفن في القبر من إكرام الله لابن آدم، قال جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١] ويوسع القبر، ويعمّق ويُلحَّد، يقول عليه الصلاة والسلام: «احفروا، وأوسعوا، وأعمقوا، وأحسنوا»[١]. ويُدخل الميت القبر من قِبل رجليه، يقول ابن سيرين: كنت مع أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جنازة، فأمر بالميت فَسُلَّ من قِبَلِ رجله في القبر، ويوضع على جنبه الأيمن، ووجهه نحو القبلة، ثم يُسدَّ اللحد ويدفن، ويرفع القبر عن الأرض قليلًا ويجعل مُسنَّمًا، فإذا فرغوا من الدفن استُحب أن يدعوا للميت ويستغفروا؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل».

والقبور محترمة لا تُهان، ولا تُوطأ، ولا يُجلس عليها، ولا يُتَّكأ، ولم يكن من هديه عليه الصلاة والسلام ولا سنته تعلية القبور، ولا تشييدها، ولا البناء عليها، وكل هذه بدعٌ منكرة مخالفة لهديه عليه الصلاة والسلام.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله- وزوروا القبور؛ فإنها تذكر الآخرة، وأكثروا من ذكر هادم اللذات -الموت- فمن أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: أولًا: تعجيل التوبة. ثانيًا: قناعة القلب. ثالثًا: نشاط العبادة.

ومن نسي الموت عوقب بثلاث: أولًا: تسويف التوبة.

ثانيًا: ترك الرضا بالكفاف. ثالثًا:

الكسل في العبادة. يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد ﷺ، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٦٤٤).

الخطبة الثانية:

الحمد لله خلق فسوى، وقدَّر فهدى، وأسقم وعافى، وأمات وأحيا، وأنَّ عليه النشأة الأخرى.

أحمده سبحانه وأشكره، يُجزي كلَّ نفس بما تسعى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، هدى من الضلالة، وبصَّر من العمى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، هم المعالم على الهدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى.

وبعد:

يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، الصلاة عون على مواجهة المصائب والكروب، ولما جاء ابن عباس -وهو في طريق سفره- خبر وفاة أخيه قثم، نزل عن دابته، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم قال: «فعلنا ما أمر الله به».

فلتعلموا -رحمكم الله- أن من آداب الجنائز: الحمد والاسترجاع والرضا، قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، وليقل: «اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها»[(١)]. وحزن القلب، وبكاء العين دون نياحة أو تسخُّط هو من طبع النفس وجِبلَّتها، فلا حرج فيه ولا مُؤاخذة، وقد بكى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وذرفت عيناه، وقال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[(٢)].

وتحرم النياحة: وهي شيء زائد عن البكاء، من رفع الصوت، وضرب الوجه، وشق الجيب، وجذب الشعر ونشره، وفي الحديث: «ليس مِنَّا من لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

(٣) رواه البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٣).

قال ابن القيم: (إن الجزع يُشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه ورده خاسئًا، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بالويل والثبور والسخط على المقدور).

وقد برئ الرسول ﷺ من الصالقة: وهي التي ترفع صوتها عند المصيبة. ومن الحالقة: وهي التي تنتف أو تحلق شعر رأسها جزعًا. ومن الشاقة: التي تشق جيبها وثوبها تسخُّطًا. يقول عبيد بن عمير: (ليس الجزع أن تدمع العين، ويحزن القلب؛ ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ).

ومن الآداب الشرعية المرعية: تعزية أهل الميت؛ فيعزيهم بما يسليهم، ويكف أحزانهم، ويحملهم على الرضا والصبر، ويأتي من الدعاء والألفاظ بما ثبت في السنة، وما لا يخالف الشرع، كأن يقول: إن لله ما أخذ، ولله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. أو: أحسن الله عزاءك، وجبر مصابك، وأعظم أجرك، وغفر لميتك، وأخلفك خيرًا منه، وألهمك الصبر، ورزقك الشكر، والمحروم من حُرم الثواب، والمأثوم من جزع لأليم المصاب.

إن لله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل بائس، فبالله فثق، وإياه فارجُ، فإن المصاب من حرم الثواب، وإياك أن يحبط جزعُك أجرَك، فتندم على ما فات من ثواب مصيبتك، وإنك لو اطلعت على عظَمة ما أعد الله لفضل المصابين لعرفت أن المصيبة قد قصرت عن الثواب.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، ويقول الحسن البصري: (ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة مُحرقة ردّها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردّها صاحبها بحلم).

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله- وتذكروا واعتبروا بسرعة زوال هذه الدار، وقرب الارتحال لدار القرار، فأنتم في دار ممر، لا دار مقر، فليصبر ساكنها فإنها طُبعت على كدر، (وليطفئ نار

مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد، فلو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نـوم أو كظـل زائـل؛ إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور) ابن القيم.

ومن أصيب بمصيبة فليـذكر أعظـم المصـائب، وهـي مصـيبة مـوت النبـي ﷺ، كـما في الحديث: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب»[1].

اصـــبر لكـــل مصـــيبة وتجلَّـــدِ | واعلـــم بـــأن المـــرء غـــير مخلـــدِ

وإذا أتتـــك مصـــيبةٌ فاصـــبر لهـــا | واذكـــر مصـــابك بـــالنبي محمـــدِ

ثم صلوا وسلموا على من خاطبه ربه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]. نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربكم؛ فقال عز قائل عليمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].



(١) صحيح الجامع (٣٤٧).



فريضة الزكاة في الإسلام[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فرض الزكاة على عباده تزكية للنفوس، وتطهيرًا للقلوب، وتنميةً للأموال، وسدًا لعوز المحتاجين، وتحقيقًا لروح المودة والإخاء، والرأفة والرحمة والصفاء، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، ومصطفاه وخليله، ومجتباه وحبيبه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد:

أيها المسلمون: اتقوا الله جل وعلا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، واعملوا أن دينكم الإسلامي الذي منَّ الله به عليكم ورضيه لكم، وأكرمكم بالانتساب إليه، قد بني على أسس متماسكة، وقواعد مترابطة، إذا اختل منها شيءٌ تصدع ما سواه. قال ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام من استطاع إليه سبيلًا»[2].

أيها المسلمون: إن من هذه الأركان العظيمة، ركنًا عظيمًا تساهل الناس فيه، وعمت الغفلة عنه؛ لضعف الإيمان في النفوس، وإيثار العاجلة بزينتها وأموالها ومتاعها؛ على الآجلة الباقية، ألا وهو الزكاة.

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦).

الزكاة -عباد الله- هي الركن الثالث من أركان هذا الدين، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥]. فقد ذكر الله الزكاة في كتابه مقرونةً بالصلاة تعظيمًا لشأنها، وتنويهًا بذكرها، وترغيبًا في أدائها، وترهيبًا من تركها والتساهل فيها.

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن فقال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[(١)].

فالزكاة يا إخوة الإسلام: ثالث أركان هذا الدين العظيم، مَن جحَد وجوبَها كفَر، ومن منعها أخِذَت منه قهرًا، ومَن حبسها تهاونًا، وأمسَكَها تكاسلًا، وكتمَها بخلًا، وغيّبها شحًّا، أو أنقَصَها أو أخّرها عن وقت وجوبها، مع إمكانِ أدائها وداعي إخراجها، فهو عاصٍ وآثم ومعتدٍ وظالمٌ، لا يسلَم مِن تبِعَتها، ولا يخرج من عُهدتها إلاّ بإخراجِ ما وجَب في ذمّتِه منها وتعلّق بماله من حقِّها، ومَن مضَت عليه سنون لم يؤدِّ زكاتَها لزِمَه إخراجُ الزكاة عن جميعها، والتّوبةُ والاستغفار عن تأخيرِها.

في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، يؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».[(٢)] ولذا قال الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها. وكان عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا جاء رمضان خطب الناس وقال: «هذا شهر الزكاة، فأخرجوا فيه زكاة أموالكم». وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ثلاث

(١) رواه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).
(٢) رواه البخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢١).

آيات مقرونة بثلاث، لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢]، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه.

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤]، فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] فمن صلى ولم يزكِ لم يقبل منه».

أيها المسلمون: والزكاة في الإسلام حق الفقراء في أموال الأغنياء، وهذا الحق أوجبه الله عَزَّوَجَلَّ، وهو حق معلوم قد حددت الشريعة مقاديره وأنصبته المختلفة في أنواع الأموال، وحصيلة الزكاة لا تترك للأهواء، بل حدد الإسلام مصارفها في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة:٦٠]. فيجب إخراجُ الزكاة علَى الفَور بوضعِها في مواضِعها، وصرفِها في مصارِفها، وإيصالها إلى مستحقِّيها، وهم ثمانيَةُ أصناف، لا يجوز صرفُها إلى غيرِهم مِن بناء المساجد والقناطِر وتكفينِ الموتَى ووَقف المصاحف وغيرِها من جِهات البر والخير.

أيها المسلمون: ولقد ورد الترهيب الشديد والوعيد الأكيد لمانعي الزكاة، وفي حق من قصر فيها، وتساهل في أدائها، تحذيرًا وإنذارًا، وإبداءً وإعذارًا، بأسلوبٍ لو خوطبت به الجبال الصم؛ لخشعت وتصدعت، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦-٧]. وقال تعالى في آية أكثر تفصيلًا لما يحيق بمانع الزكاة من الويل والثبور يوم البعث والنشور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

إن هذه الأموال لما كانت أعزّ الأموال على أربابها، كانت أضرّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة إذا منعوا زكاتها، فيحمى عليها في نار جنهم، وناهيك بِحرِّها فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال أهل العلم: لما طلبوا باكتنازها المال والجاه شان الله بها وجوههم، ولما طووا كشحًا عن الفقير إذا جالسهم كويت جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتمادًا عليها كويت ظهورهم. وقد بينت سنة النبي ﷺ كيفية هذا الكي؛ فقد جاء في

صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بَرَدَت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار»[1]. إن هذا العذاب ليس في يوم أو شهرٍ أو سنة، لكنه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، فقولوا لي بالله عليكم: من ذا الذي يطيق ذلك الهول العظيم؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

وروى البخاري عن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه -يعني شدقيه- ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا النبي ﷺ الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]»[2]، أي: إن المال يمثل له في صورة شجاع أقرع، والشجاع الحية الذكر، والأقرع الذي طال عمره وسقط شعره، والزبيبتان نقطتان سوداوان فوق العينين، وهو أخبث الحيات، يطوقه ثم يأخذ بشفتيه فيقول: أنا مالك.. أنا كنزك..

ولم يقف الشرع -عباد الله- عن حد الوعيد بالعقاب الأخروي، بل هدّد كل من يبخل بحقه عَزَّوَجَلَّ بالعقوبة الدنيوية وبالنكال والوبال وإذهاب البركة من المال؛ كما حكى الله عن أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:١٧-٣٣]، فمانع الزكاة مهدد في الدنيا كذلك بزوال ماله،

---

(١) رواه مسلم (٩٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٥).

وقال ﷺ: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»[1]، وقال ﷺ: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»[2].

أيها المسلمون: في إيجابِ الزكاة مواساةٌ للفقراء، ومَعونة للبُؤَساء والضعفاء، وصِلة بين ذوِي الحاجاتِ والأغنياء، وعونٌ على مجانبة البخل والشّحِّ والإباء عن العطاء، كم سدَّت الزكاة مِن خَلّة، وكَم جبرت من فاقَة، وكم فرَّجت عن معسرٍ كُرِبَ، فضائلُها لا تعَدّ وبَركاتها لا تُحَدّ.

فيا مَن جمع المال وأوعَاه، وكنزه وأخفاه، سَتَنال عِقاب ما بخِلت، وستُعايِن شؤمَ ما عمِلتَ.

يا مانِع الزّكاة: أنسِيتَ أن الأموالَ عارِية عند أربابها، ووديعة عند أصحابها؟! أنَسيتَ أنّ الزّكاة يعود نفعُها عليك ويرجِع ثوابها إليك؟! فحذارِ حذار أن تكونَ ممّن يراها نقصًا ويعدّها غُرمًا وخسارًا، فلا ينفِق إلاّ كرهًا، ولا يرجو لما يُعطي ثوابًا.

يا أهلَ المال والرِّياش والكسب والمعاش: ارحموا السائلَ المحروم، وأَعطوا الفقيرَ المعدوم، وتصدَّقوا على المسكين المهموم الذي لا يجِد ما يقوم به وكِفايَتِه وكفاية من يعول.

يا أهلَ البَذل والسّخاء والإنفاق والعَطاء: أبشِروا بحسنِ الجزاءِ والخَلَف والبركة والنّماء، فقد قال الصادق المصدوق ﷺ: «ما نقَصَت صدقةٌ من مال»[3].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم..

(١) صحيح الترغيب (٧٦٣).
(٢) صحيح الجامع (٧٩٧٨).
(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين وخاتم النبيين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

وبعد:

عباد الله: إن تكاليف الحياة كثيرة ومتزايدة، التكاليف ترهق الكاسب وتفتن الكاسد، الكاسب تتضاعف عليه النفقة، فما الحال بالمعدم الكاسد؟! لقد وصفهم رسول الله ﷺ فقال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا»، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣][(١)].

فاتقوا الله عباد الله: وأدوا زكاة أموالكم، طيبةٍ بها نفوسكم، فقد أعطى الله الكثير، وطلب أقل القليل، ولو أن الميسورين من المسلمين اليوم قاموا بهذه الفريضة حق القيام، وصرفوا الزكاة في مصارفها، ووضعوا الأمر في نصابه، لما وجد على الأرض من يتسول لفاقة، ومن يلح في مسألة لحاجة، ولاختفت مظاهر الإجرام والسطو والاختلاس والسرقة.

كم في الناس -عباد الله- من أرملة تضمّ أيتامًا لا عائل لهم، ولا تستطيع الكسب فتنفق عليهم؟ كم من شيخ كبير وهن منه العظم، وما عنده ما يستعين به على عجزه، ولا ولد بارّ يسعفه في شيخوخته؟ كم في الناس من عاجز أُقعد عن الكسب؟ أولئك -عباد الله- ومن على شاكلتهم في حاجة إلى التخفيف من متاعبهم في زمن عضّهم فيه الفقر، وأثقلت كواهلهم النفقات.

وأنت -يا عبد الله- يا مَن وفّقك الله لأداء الزكاة وأعانَك على إخراجها، جعلها الله لك طَهورًا ونورًا وقربَة وهناءَةً وبركة وسرورًا، وآجَرك الله فيما أعطَيتَ، وضاعف لك فيما أنفقتَ، قال جل في علاه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩).

أيها المسلمون: يُستحَبّ للمسلِم أن يلِيَ توزيع زكاته بنفسِه، وله أن يَعهَد بتوزيعها إلى مَن يثِق به مِن الأُمَناء الأقوياء، ولا يجوز للوكِيلِ استثمارُ أموالِ الزكاة ولا الاتِّجارُ بها، ويجِب على من وُكِلَ إليه توزيعُ مالٍ زكويّ أن يعجِّلَ بإخراجه لمستحقِّيه، ولا يجوز له تأخيرُه بلا مَصلَحةٍ معتبرة.

ومن تولَّى قِسمةِ زكاةٍ نيابةً عَن معيَّن فلا يُعَدّ من العاملين عليها، ولا يستحِقّ فيها، ولا يجوز له الأخذ مِنها، إلاّ أن يكونَ فقيرًا فيُعطَى منها قَدرَ كِفايته. وأمّا العاملون عليها الذين هم من أهلِها فهم جُباتها وسُعاتها وحُفّاظها وقُسّامها الذين يبعثهم الحاكم لأخذها ويولِّيهم على تحصيلِها.

أيها المسلمون: الزّكاةُ أنواع وأقسامٌ ولها مسائِل وأحكام، فاسألوا أهلَ العلم عمّا أشكَل، وراجِعوا أهلَ الذّكر عمّا أقفَل، فهذا من أوجب العلم، فاستعينوا بالعلم على أداءِ الواجب، وبالصّبر على شكرِ الواهِب، القائِلِ في الكتاب المجيد: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

عباد الله: المطر نعمة لا يعدلها نعمة، به حياة الأرض، وبه حياة الأبدان، إذا جاء المطر فرح به الناس، وما ذاك إلا تيمّنًا منهم بما يعود به المطر من المعاني التي تصاحبه عند نزوله، وإن حرمان البلدان من الأمطار ما هو إلا إنذار وتهديد من الله لعباده ليعودوا إلى رشدهم وينظروا في أنفسهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩]. يقول ﷺ: «خمس خصال إن ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ»، وذكر منهنّ: «ولم يمنع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»(١). فانظروا -رحمكم الله- إلى هذا التوافق، لمّا منع الناس إخراجَ ما بأيديهم من الزكاة منع الله القطرَ أن ينزل من السماء: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، كثيرًا ما يستسقي الناس في خطبهم وفي صلواتهم فلا يسقون في كثير من الأحيان، بل ربما أقاموا صلاة الاستسقاء مرة بعد مرة، فلا يظهر لهم معالم استجابة، أفلا يكون هذا نذيرًا لأصحاب الأموال أن يخرجوا زكاة ما بأيدهم رحمةً بأنفسهم، وأداءً لواجب في أعناقهم وتبرئةً لذممهم؟!

(١) صحيح الجامع (٧٩٧٨).

نسأل الله أن يفتح على قلوب المسلمين، ويجعلهم إخوة متعاونين متكافلين، يرحم كبيرهم صغيرهم، ويعطي غنيهم فقيرهم..

هذا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على نبي الرحمة والهدى، من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين، وعن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وارض عنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.





فضل الصدقة(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، خلـق فسـوى، وقـدر فهدى، وأخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثقلين بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أقام الله بـه الحجـة، وأوضـح بـه المحجة، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وخلفائـه الأربعـة، أبي بكـرٍ وعمـر وعثمان وعلي، وعلى سائر أصحابه الأخيار، النجباء الأطهار.

أما بعد:

فاتقوا الله بامتثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه، فذلك سعادةُ الدنيا والأخرى، والتفلُّـتُ مـن التّقوى خسران عظيـم ومـآلٌ وخيـم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عبادَ الله: إنَّ الأعمالَ الصالحةَ تتفاضَل عند الله بنفعِها لفاعلِها ولغيره، ويتضاعف ثوابُهـا بدوامِ منافعِها وعمومِها، والحسنات الجاريةُ والصّدَقات النافعة من الإحسانِ الذي هو أعـلَى مراتِبِ الإسلام، فإنَّ الدينَ إسلامٌ وإيمان وإحسان.

والإحسان أن تعبدَ الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ويدخل في مسمَّى الإحسان نفعُ الخلق بعمومِ المنافع ابتغاءَ وجهِ الله تعالى كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤]،

(1) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

وكما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٤-٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨-٩].

عباد الله: إن الصَّدَقاتِ فيها إحسانٌ إلى المتصدِّق نفسِه؛ لأنَّ الله يثيبه على الحسنةِ بعَشر أمثالها إلى سَبعمائةِ ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، وعن ابن عبّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله: «إنَّ الله كتب الحسناتِ والسيِّئات، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعمَلها كتبَها الله عنده حسنةً كاملة، فإن همَّ بها فعمِلها كتبها الله عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، فإن همَّ بسيِّئةٍ فعمِلها كتبها الله عنده سيِّئةً واحدة»[1].

والمتصدِّق يحسن إلى نفسِه لأنّه بالصّدقة يتَّصف بالرحمة التي هي من أكرمِ الصِّفات، كما جاء عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنزَع الرّحمة إلا من شقيٍّ»[2]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الرّاحمونَ يرحمهم الرّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم مَن في السماء»[3]، وعن النّعمان بن بشيرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطفِهم مَثَل الجسَد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسَد بالسَّهر والحمَّى»[4].

والمتصدِّق يحسِن إلى نفسِه؛ لأنَّ الله يدفع بالصدقاتِ الشرور والمكروهات، ويجلِب بها الخيرَ والبرَكات، فعن أبي أمامةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي

(١) رواه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١).

(٢) صحيح أبي داود (٤٩٤٢).

(٣) صحيح الترمذي (١٩٢٤).

(٤) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

مصارع السوء و الصدقة خفيا تطفيء غضب الرب، وصلة الرحم زيادة في العمر، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»[1]، وعن معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «والصّدقةُ تطفئ الخطيئةَ كما يطفِئ الماء النارَ»[2]، فأين من يريد أن يطفئ غضب الرب؟ أين من يريد أن يطفئ أثر خطيئته؟ بل أين من يريد أن يستظل في ظل صدقته في يوم شديدِ حرُّه، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقتِه يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس»[3]، ومن السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

الصدقة نماء في المال وبركة في الحال والمآل، قال ﷺ: «ما نقصَت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع عبدٌ لله إلاَّ رفعه الله»[4]، وتصديقُ ذلك في كتاب الله تعالى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

والمتصدِّق أحقُّ بمالِه من وارثِه، فإنَّ النفع الحقيقيَّ للمال هو النفعُ الأخرويّ، وأما نفعُ المال الدنيويّ فينتهي بموتِ الإنسان، قال ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من مَالِهِ ثلاث: ما أكلَ فأفنى، أو لبِس فأبلى، أو تصدَّق فأمضى، وما سِوى ذلك فهو ذاهبٌ وتارِكُه للناس»[5]، وعن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّكم مالُ وارثِه أحبّ إليه من مالِه؟» قالوا: يا رسولَ الله، ما مِنّا أحدٌ إلاّ ماله أحبُّ إليه! قال: «فإنَّ مالَه ما قدَّم، ومالُ وارثِه ما أخَّر»[6].

وقد كان السّلَف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحرَصَ الناس على المسارعةِ إلى كلِّ خير وإلى الإنفاق في كلِّ سبيل برٍّ، عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو طلحةَ مِن أكثرِ الأنصارِ مَالًا، وكان أَحَبّ ماله إليه

(١) صحيح الجامع (٣٧٩٦).
(٢) حسّنه الألباني في إرواء الغليل (٢/ ١٣٨).
(٣) صحيح الترغيب (٨٧٢).
(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٥) رواه مسلم (٢٩٥٩).
(٦) رواه البخاري (٦٤٤٢).

بَيْرُحَاء، وهي نخلٌ فيها ماءٌ طيِّب كان يشرَب منه النبيّ وكانت قريبةً من مسجدِه عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإني قد تصدَّقتُ بها أرجو بِرَّها وذُخرَها، فاجعلها يا رسولَ الله حيث شئت، فقال النبيّ: «بخٍ بَخ، ذلك مالٌ رابح، ذلك مال رابح»(١).

جاء عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: الصلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، والصدقة شيء عجيب، والصدقة شيء عجيب! وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن استطعت أن تجعل كنزك حيث لا يأكله السوس، ولا تناله اللصوص، فافعل؛ بالصدقة!».

ورأى الأحنف في يَد رجل درهما فقال: لمن هذا؟ قال: لي قَال: (ليسَ هو لك حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر)، وتمثل بقول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكتَهُ ... وإذا أنفقته فالمال لك

وقال محمد بن حبان: (كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عُرف بالسؤدَد، وانقاد له قومه، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام وإكرام الضيف).

وروى ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن ابن أبي حازم عن أبيه قال: (أمست عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صائمةً وليسَ عندها إلا رغيفان، فجاء سائلٌ فأمرت له برغيف، ثم جاء آخر فأمرتْ له بالرغيف الآخر، فأبتْ مولاتها أنْ تدفعهُ إليه فطرحته إليه عائشة من تحت الستر، فقالت لها مولاتها: انظري على ما تفطرين؟ فلما أمست عائشة إذا ضاربٌ يضرب الباب، فقالت: من هذا؟ قال: رسول آل فلان، قالت عائشة: إن كان مملوكًا فأدخليه، فدخل وإذا به يحمل شاة مشوية عليها خبز، فقالت لها عائشة: اعتدي كم ها هنا خبز هو خيرٌ من رغيفك، فلا والله ما كانوا أهدوا إليَّ قبلَها شيئًا).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٩) ومسلم (٩٩٨).

وروي أن فقير طرق باب أحد العلماء ليلًا فسأل العالم امرأته فقالت: ليس عندنا إلا عشر بيضات قال: ادفعيهنَّ إليه فأعطتهن إياه إلا بيضةً واحدة، أبقتها لأولادها وبعد وقت طرق الباب رجلٌ وأعطى الشيخ صرةً بها تسعون دينارًا فسأل العالمُ امرأته عما أعطت الفقير؟ قالت: تسع بيضات فقال: وهذه تسعون دينارًا والحسنة بعشر أمثالها.

مـن يفعـل الخـير لا يعـدم جوازيـه ... لا يضـيع العـرف بـين الله والنـاسِ

وأبوابُ الخير التي تَنفع المسلمين كَثيرة، وطرق البرِّ متعـدِّدة، والصّـدقاتُ إذا وقَعَت في مواقِعِها ونالَت مستحقِّيها فرَّج الله بها كَربَ المكروب، وسدَّ بها حاجةَ المحتاج، وأعان الله بها المساكين، وقضى الله بها المنافِعَ، ويسَّر الله بها المصـالح، وتحقَّـقَ بهـا التكافـلُ الاجتماعـيّ بـين المسلمين، وشكر الله لصاحبها، وضاعف له ثوابها، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قـال: قـال رسـول الله: «ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّب ولا يقبَل الله إلا الطيِّب إلاَّ أخذها الـرحمن بيمينِـه وإن كانـت تمـرةً، فتربـو في كـفِّ الـرحمن حتـى تكـون أعظَـمَ مـن الجبـل كـما يـربِّي أحـدُكم فَلُوَّه أو فَصيلَه»[1].

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة).

والوقفُ الذي تُجعَل غَلَّته للإحسـان إلى المنقطعِـين للعلـم وللفقـراءِ والمحتـاجين وبنـاء المساجدِ والعناية بها أو بِناء المستشفياتِ والمدارِس، وإنشاءُ المكتبَات التي تنشُرُ العلمَ، وحفـرُ الآبار ومدُّ شَبكات الماء، وغير ذلك، كلُّ هذا ونحوه من أفضَلِ الـبرِّ عنـد الله ومـن الصّـدقَة الجاريةِ التي تنال صاحبَها في حياتِه وبعد مماتِه.

وما أكثَرَ سبلَ الخير، وما أيسَرَ الطاعات على من وفَّقـه الله تعـالى، والرّسـولُ ﷺ يقـول: «ابغوني الضّعفاء؛ فإنما تُرزَقون وتنصَرون بضعفائِكم»[2].

فاحرصوا رحمكم الله على الإحسانِ إلى أنفسِكم ولو باليسير من المالِ الذي منَّ به عليكم، وإلى الإحسانِ إلى أنواع المحتاجِين من الفقراءِ والأيتـام والمعـاقِين والشّـباب الـذين يسـعَونَ

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤).

(٢) صحيح الجامع (٤١).



للزّواج والمنقطِعِين لطلَبِ العلم وحلقات تعليم القرآن والمرضَى والمدينين والمُعسِـــرين، والله تعـــالى يقـــول: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل:٢٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والـذكر الحكـيم، ونفعنا بهدي سيد المرسلين وبقوله القويم، أقول قولي هـذا، وأسـتغفر الله العظـيم الجليـل لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله ربِّ العالمين، الرّحمن الرحيم، مالك يومِ الـدين، أحمـد ربِّي سـبحانه وأشـكره، وأتوب إليه وأستغفِره، وأشهد أن لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له القويّ المتـين، وأشـهد أن نبيّنا وسيّدنا محمّدا عبده ورسوله، بعثه الله بالهدَى واليقين، ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس:٧٠]، اللهـمّ صـلّ وسـلّم وبـارك عـلى عبـدك ورسـولك محمـد وعـلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فاتّقوا الله أيّها المسلمون حقَّ التَقوى، وتمسَّكوا من الإسلام بالعروةِ الوثقَى، واعلمـوا أن المجتمع الإسلامي نسيج مترابط، والمسلمون إخوة، وقد جاء الإسلام بالتكافل والتكامل بين أفراده، فـ«المؤمِنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضه بَعضًا»[1].

ولا يليق أبدًا بالعبد إذا أنفق أو أعطى أو أحسن؛ أن يعجب بنفسه ويغتر بعملـه، لأن لله الفضل والمنة وحده، فهو الرازق، ثم هو الذي أنعم عليك بـأن جعلـك المعطي ولم يجعلـك الآخذ المحتاج، وهو الذي فتح لك باب العطاء والصدقة، ولو أغنـى جميـع النـاس؛ لأُغلـق عنك هذا الباب من أبواب الخير.

كان الفضيل بن عيّاض يقول: (نِعم السائلون؛ يحملون أزوادنا إلى الآخـرة بغـير أجـرة، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعال). وقال الإمام الشعبي: (من لم يرَ نفسـه إلى ثـواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته؛ فقد أبطل صدقته؛ وضرب بها وجهـه). وكـان سـفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ينشرح إذا رأى سائلًا على بابه، ويقول: (مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي). بل يقول حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أصبحتُ يومًا وليس ببابي صاحب حاجة، إلا علمـت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها».

فيا من يريد سعادة الدارين، ويا من اشتدت عليه الأمور، وشكى ضيق الرزق، وضـنك العيش، وقاسى الهم والغم، وعانَى الحزن والقلق، عليك بالإحسان والصدقة والبـذل، فـإن

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).

«من نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كرَبِ الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستَر مسلمًا ستَره الله في الدنيا والآخرة، والله في عونِ العبدِ ما كان العبد في عونِ أخِيه»[1]، «ومَن كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجتِه»[2].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنَّ للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو من ظالم بل من كافر فإن الله تعالى يدفعُ بها عنهُ أنواعًا من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهلُ الأرض كلُّهم مقرُّون به لأنَّهم جرَّبوه).

ويقول ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (فالإنسان إذا بذل الشيء ولا سيما المال يجد في نفسه انشراحًا، وهذا شيء مجرب.. لكن لا يستفيد منه إلا الذي يعطي بسخاء وطيب نفس، ويخرج المال من قلبه قبل أن يخرجه من يده، أما من أخرج المال من يده، لكنه في قرارة قلبه فلن ينتفع بهذا المال).

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في أسباب شرح الصدر: (ومنها الإحسانُ إلى الخلق ونفعُهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرحُ الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمُهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان، أضيقُ الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمُهم همًا وغمًا).

عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ يقول: «دَاوُوا مَرضاكُمْ بِالصَّدقةِ»[3].

هذه امرأة أصيبت بفشل كُلوي - نسأل الله العافية والشفاء لمرضى المسلمين - عانت منه كثيرًا، ثم بحث أولادها عن مَنْ يتبرعُ لها بكُلْيَة، فوجدوا فتاة ستبيعها كليتها مقابل مبلغ جزيل من المال، وحضرت تلك المرأةُ إلى المستشفى، ووافقت على كافة الإجراءات، وتم إحضار المتبرعة لتبيت في المستشفى قبل اليوم المحدد لإجراء العملية وأخذ كليتها، وفي الليل سمعت المرأة المريضةَ تلك الفتاة تبكي بكاءً شديدًا، فسألتها عمّا إذا كانت خائفة أو مُكرهةً

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨).

على ما أقدمت عليه، فقالت لها: والله ما دفعني للتَّبرع بكليتي إلا فقري وحاجتي، فما كان من المرأة المريضة إلا أن دعت أولادها، وأخذت منهم المبلغ المتفق عليه، ثم أعطته تلك الفتاة، وقالت: هذا المال لكِ، اذهبي لشأنكِ ولا أريد منك شيئًا، وإن كان لي من شفاء وعافية فهي من الله وحده، تعجب أولادها من الموقف، لكنهم لم يجرؤوا على الوقوف أمام رغبة والدتهم، وبعد أيام جاؤوا بوالدتهم إلى المستشفى للكشف عليها كونها شعرت بتحسن، فلما تم الفحص تعجب الأطباء إذ لم يجدوا أثرًا للمرض، فقد شفاها الله تعالى بفضله وكرمه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (بل ها هنا من الأدوية التي تشْفي من الأمراض ما لمْ يهتد إليها عقولُ أكابر الأطباء، ولم تصل إليها عُلومُهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، كقوة القلب، واعتماده على الله تعالى، والتوكل عليه والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلُّل له، والصدقة والدعاء، والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جرَّبْتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته ولا قياسه، وقد جرَّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرةً، ورأيناها تفعلُ ما لا تفعل الأدوية الحسية).

فالصدقة دواء وشفاء ... والستر في البذل والسخاء:
ويُظهرُ عيبَ المرءِ في الناس بخلُه ... ويَستُرُه عنهم جميعًا سخاؤُه
تَغطَّ بأثوابِ السخاءِ فإنني أرى ... كلَّ عيبٍ والسخاءُ غطاؤُه

ولا تحقرَنَّ أيها الكريم من المعروف شيئًا؛ فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، ويقول تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:١٦].

والصدقة متيسرة لكل أحد، المهم صحة النية وصدق العزيمة، فلا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو شربة ماء، بل من لم يجد بتاتًا فلا يبخل ولو بالابتسامة وأن يلقى الناس بوجه بشوش طليق، فالتبسُّم في وجوه الناس صدقة، وبكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة،

وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وهذا من تيسير الله وفضله وكرمه على عباده.

وقد كان أبو مرثد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء، ولو كعكة أو بصلة.

وسئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي الصدقة أفضل؟ قال: «الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْـمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ؟» قال القرطبي في تفسير الآية السابقة: (في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال. قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء). وقال بعض أهل العلم: إذا كان الله قد غفر لمن سقى كلبًا على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسا العُراة من المسلمين؟

سأل رجل عبد الله ابن المبارك قائلا: يا أبا عبد الرحمن! قرحةٌ خرجت في ركبتي منذ سبع سنين، وقد عالجت بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم أنتفع به، فقال: (اذهب فانظر موضعًا يحتاج فيه الناس إلى الماء، فاحفر هناك بئرا فإني أرجو أن تنبع هناك عين ويمسك عنك الدم)، ففعل الرجل فشُفي بإذن الله.

وإن أفضل الصدقة ما كان على ذي رحم، فإنها صدقة وصلة، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من آتاه الله منكم مالًا فليصل به القرابة، وليحسن فيه الضيافة، وليفك به العاني الأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين، وليصبر فيه على النائبة؛ فإن بهذه الخصال ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة».

وليحرص العبد على أن يبقى له أثر طيب بعد مماته، يقول ﷺ: «إذا ماتَ ابن آدمَ انقطع عمَله إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفَع به، أو وَلدٍ صالح يدعو له» رواه مسلم.

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧].

عبادَ الله: إنَّ الله أمرَكم بأمرٍ بدأ فيه بنفسِه فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقد قال: «مَن صلّى عليَّ صلاةً واحدة صلَّى الله عليه بها عشرًا». فصلّوا وسلِّموا على إمام المرسَلين، وسيّد الأوّلين والآخرين.



أحكام الصيام[1]

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى، واعلموا أن الله خلقكم لعبادته كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقد بين الله لكم طريق عبادته، ومن عليكم بمواسم الخير تتكرر عليكم وتتوالى بما فيها من الفضائل والمكارم وعظيم الأجور، فعظموا - رحمكم الله - هذه المواسم، واقدروها حق قدرها، بفعل الطاعات والقربات، واجتناب المعاصي والموبقات، فإن الله لم يجعل هذه المواسم إلا لتكفير سيئاتكم، وزيادة حسناتكم، ورفعة درجاتكم.

أيها الناس: إن من المواسم العظيمة التي ينبغي للإنسان أن ينتهز فرصها بطاعة الله ذلكم الشهر الكريم، الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، شهر الخير والبركات والرحمة.

هذا الشهر جعله الله تعالى ميدانًا للتسابق إلى الخيرات، فإنه شهر تضاعف فيه الحسنات، وتعظم فيه السيئات، «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

من ذنبه»(١)، «ومن قامه إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»(٢)، «ومن أتى فيه بعمرة كان كمن أتى بحجة»(٣)، فيه تفتح أبواب الجنة وتكثر الطاعات من أهل الإيمان، وتغلق أبواب النار فتقل المعاصي من أهل الخير، وتغل فيه الشياطين فلا يخلصون إلى أهل الإيمان بمثل ما يخلصون إليهم في غيره.

أيها الناس: «صوموا لرؤية هلال رمضان»(٤)، ولا تقدموا عليه بصوم يوم أو يومين؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تقدّموا رمضان بصوم يوم أو يومين»(٥)، إلا إذا كان على الإنسان قضاء من رمضان الماضي فليقضه، أو كان له عادة بصوم فليصمه، فإذا كان للإنسان عادة أن يصوم يوم الاثنين وصادف أن يكون قبل رمضان بيوم أو يومين فلا حرج عليه أن يصومه، وكذلك من كان يصوم من الشهر ثلاثة أيام فلم يتيسر له أن يصومها إلا في آخر شعبان فلا حرج عليه في ذلك، ولا تصوموا يوم الشك: وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا كان في ليلته ما يمنع رؤية الهلال من غيم أو قتر، ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «لا تصوموا حتى تَرَوا الهلال ولا تُفْطِرُوا حتى تَرَوْهُ، فإنْ غُمَّ عليكم فاقدروا له»(٦)، ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»(٧)، وقال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبي القاسم ﷺ»(٨).

وصوم رمضان أحد أركان الإسلام، فرضه الله على عباده، فمن أنكر فرضيته وقال بعدم وجوبه فهو كافر مرتد والعياذ بالله؛ لأنه مكذب لله ورسوله، وإجماع المسلمين، قال الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠).
(٢) رواه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٧٥٩).
(٣) صحيح الجامع (٤٠٩٨) بمعناه.
(٤) صحيح الجامع (٣٨٠٩) بمعناه.
(٥) رواه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).
(٦) صحيح البخاري (١٨٠٧).
(٧) رواه البخاري (١٩٠٩) ومسلم (١٠٨٨) بلفظ «أغمي».
(٨) صحيح ابن حبان (٣٥٩٥).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالصوم واجب على كل مسلم، بالغ، عاقل، قادر، مقيم، ذكرًا كان أم أنثى، غير الحائض والنفساء، فلا يجب الصوم على كافر، فلو أسلم في أثناء رمضان لم يلزمه قضاء ما مضى، ولو أسلم في أثناء اليوم من رمضان أمسك بقية اليوم ولم يلزمه قضاءه، ولا يجب الصوم على صغير لم يبلغ، لكن إن كان لا يشق عليه أُمر به؛ ليعتاده، فقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُصوّمون أولادهم الصغار حتى إن الصبي ليبكي من الجوع فيعطونه لعبةً يتلهى بها إلى الغروب، كما جاء في الحديث المتفق عليه من حديث الرُبيع بنت مسعود رضي الله تعالى عنها(١).

ويحصل بلوغ الصغير إن كان ذكرًا بواحد من أمور ثلاثة: أن يتم له خمس عشرة سنة، أو تنبت عانته، أو ينزل منيًا بشهوة باحتلام أو غيره، وتزيد الأنثى بأمر رابع: وهو الحيض، فمتى حصل للصغير واحد من هذه الأمور فقد بلغ ولزمته فرائض الله وغيرها من أحكام التكليف إذا كان عاقلًا، وهنا نقف لننبهكم على أن بعض النساء تبلغ بالحيض وهي صغيرة، فقد تحيض لإحدى عشر سنة ولكنها لا تصوم إما لجهلها أو لجهل أهلها، وعلى هذا فيجب البحث عن هذا الأمر ونشره بين الناس حتى يعرف؛ لأن السؤال عنه كثير، فإن بعض النساء تحيض وهي في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة وتظن هي أو أهلها أنه لا يجب عليها الصوم حتى تبلغ خمس عشرة سنة وهذا خطأ، فمتى حاضت ولو لتسع سنين وجب عليها الصوم؛ لأنها صارت مكلفة.

ولا يجب الصوم على من لا عقل له كالمجنون، والمعتوه، ونحوهما، وعلى هذا فإن المعتوه لا يلزمه الصوم، ولا الإطعام عنه، ولا الطهارة، ولا الصلاة؛ لأنه فاقد للتمييز فهو بمنزلة الطفل، ولا يجب الصوم على من يعجز عنه عجزًا دائمًا كالكبير والمريض مرضًا لا يرجى برؤه، ولكنه يطعم بدلًا عن الصيام عن كل يوم مسكين بعدد أيام الشهر، لكل مسكين خمس

(١) رواه البخاري (١٩٦٠) ومسلم (١١٣٦).

صاع من البر، أي: أن الصاع المعروف عندنا هنا يكفي لخمسة فقراء عن خمسة أيام، والأحسن أن يجعل مع الطعام شيئًا يأدمه من لحم أو دهن، ويجزئ عن البر الرز، بل هو خير منه في بعض الأحوال، وأما المريض بمرض يرجى برؤه فإن كان الصوم لا يشق عليه ولا يضره وجب عليه أن يصوم؛ لأنه لا عذر له، وإن كان الصوم يشق عليه ولا يضره فإنه يفطر ويكره له أن يصوم، وإن كان الصوم يضره فإنه يحرم عليه أن يصوم، ومتى برء من مرضه قضى ما أفطر، فإن مات قبل برؤه فلا شيء عليه.

والمرأة الحامل التي يشق عليها الصوم لضعفها أو ثقل حملها يجوز لها أن تفطر ثم تقضي إن تيسر لها القضاء قبل وضع الحمل أو بعده إذا طهرت من النفاس، والمرضع التي يشق عليها الصوم من أجل الرضاع أو ينقص لبنها بالصوم نقصًا يخل بتغذية الولد تفطر ثم تقضي في أيام لا مشقة فيها ولا نقص على الولد.

وأما المسافر فإن قصد بسفره التحيُّل على الفطر فالفطر حرامٌ عليه، ويجب عليه الصوم حتى في سفره؛ لأن هذا سفر لا تستباح به الرخص، وإن لم يقصد بسفره التحيل على الفطر فهو مخير، إن شاء صام، وإن شاء أفطر وقضى عدد الأيام التي أفطر، والأفضل له فعل الأسهل عليه، فإن تساوى عنده الصوم والفطر فالصوم أفضل؛ لأنه فعل النبي ﷺ؛ ولأنه أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أخف من القضاء غالبًا، فإن كان الصوم يشق عليه بسبب السفر كره له أن يصوم، وإن عظمت المشقة واشتدت حرم أن يصوم؛ لأن النبي ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا ﷺ بقدح من ماء بعد العصر، فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب والناس ينظرون، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»[1].

أيها المسلمون: أتدرون متى كان سفر النبي ﷺ هذا؟ إنه كان سفره في فتح مكة، وقد فتحها النبي ﷺ في أثناء الشهر، قيل: في اليوم العشرين من الشهر، وبقي مفطرًا في مكة عشرة

(١) رواه مسلم (١١١٤).

أيام بقية الشهر لم يصم ﷺ، وبهذا نعرف خطأ ما يتكلّفه بعض الناس من الصوم إذا ذهبوا للعمرة، فتجد الصوم يشق عليهم في مكة ومع ذلك يصومون، وهذا خلاف هدي النبي ﷺ، فوالله ما هم أشد عزيمة ولا حبًا للطاعة من رسول الله ﷺ، ولا هم أكمل هديًا من هدي النبي ﷺ، ومع ذلك لم يصم في مكة في العشر الأواخر من رمضان، بل ترك الصوم؛ لأن الفطر كان في ذلك الوقت أيسر له، وعلى هذا فإذا وصل الإنسان إلى مكة وهو معتمر وكان يشق عليه أن يؤدي العمرة وهو صائم قلنا له: أفطر ولو في أثناء اليوم، وأدِّ العمرة بخشوع وراحة، وقد وسع الله عليك، فلا تشق على نفسك.

أقول ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

أيها المسلمون: (إنه لا فرق في المسافر بين أن يكون سفره عارضًا لحاجة أو مستمرًا في غالب الأحيان، مثل: أصحاب سيارات الأجرة أو غيرها من سيارات النقل الكبيرة، والذين لا يزالوا معظم أوقاتهم في سفر وتنقل، فإنهم متى خرجوا من بلدهم فهم مسافرون، تجري عليهم أحكام المسافر، فيجوز لهم ما يجوز للمسافرين الآخرين من الفطر في رمضان، ويجوز لهم قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، والجمع بين الظهر والعصر، أو بين المغرب والعشاء عند الحاجة، والفطر لهم أفضل من الصيام إذا كان الفطر أسهل لهم، ويقضونه في أيام الشتاء؛ لأن أصحاب هذه السيارات لهم بلد ينتمون إليها، وأهل فيها يأوون إليهم، فمتى كانوا في بلدهم فهم مقيمون، وإذا خرجوا منها فهم مسافرون، لهم ما للمسافرين وعليهم ما على المسافرين، ومن سافر في أثناء اليوم في رمضان وهو صائم فالأفضل أن يتم صومه، فإن وجد مشقة فليفطر، ثم يقضيه بعد ذلك، ولا يتقيد السفر بزمن، فمتى خرج من بلده مسافرًا فهو على سفر حتى يرجع إلى بلده، ولو أقام مدةً طويلة إلا أن يقصد بتطويل مدة الإقامة التحيل على الفطر فإنه يحرم عليه الفطر، ويلزمه الصوم؛ لأن فرائض الله لا تسقط بالتحيل عليها)، (ولا يجب الصوم على الحائض والنفساء ولا يصح منهما)، (إلا أن تطهرا قبل الفجر ولو بلحظة فيجب عليهما الصيام، ويصح منهما وإن لم تغتسلا إلا بعد طلوع الفجر، ويلزمهما قضاء ما أفطرتاه من الأيام).

أيها المسلمون: هذه جملة من أحكام الصوم، وإذا كان الناس في رمضان يصومون ويقومون فإن من المهم أن تبين أحكام القيام في هذا الشهر المبارك، فلقد رغَّب النبي ﷺ في قيام هذا الشهر وقال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[1]، وإن صلاة التراويح من قيام رمضان فأقيموها، وأحسنوها، وقوموا مع إمامكم حتى ينصرف،

(١) رواه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٧٥٩).

فإن «من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة تامة»[١]، وإن كان نائمًا على فراشه، وإن على الأئمة أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ في هذه التراويح، فيراعوا من خلفهم، ويحسنوا الصلاة لهم فيقيموها بتأنٍ وطمأنينة، ولا يسرعوا فيها، فيحرموا أنفسهم ومن وراءهم الخير، أو ينقروها نقر الغراب لا يطمئنون في ركوعها ولا سجودها، ولا قيامها ولا قعودها، إن على الأئمة أن لا يكون هم الواحد منهم أن يخرج قبل الناس، أو أن يكثر عدد التسليمات دون إحسان الصلاة، فإن الله تعالى يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] ولم يقل: أيكم أسرع نهاية أو أكثر عملًا بلا إحسان.

وقد كان نبيكم ﷺ وهو أحرص الناس على الخير والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر (كان لا يزيد على إحدى عشرة ركعة لا في رمضان ولا في غيره)[٢]، ولكنه يطيل ذلك، وفي الصحيحين: «كان النبي ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة»[٣]، فمن صلى التراويح إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة فلا حرج عليه، وقد صح عن النبي ﷺ «أنه قام بأصحابه في رمضان، ثم ترك ذلك خشية أن تفرض على الناس فيعجزوا عنها»[٤]، (وصح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أمر أبي بن كعب وتميم الداري أن يقوما في الناس بإحدى عشرة ركعة)[٥]، فهذا العدد الذي قام به النبي ﷺ وواظب عليه واتبعه فيه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أفضل عدد تصلى به التراويح، ولكن ينبغي أن يطيل الإنسان فيها حتى يتمكن الناس من الدعاء، ولو زاد الإنسان على هذا العدد رغبة في الزيادة لا رغبة عن السنة لم يُنكر عليه؛ لورود ذلك عن بعض السلف، وإنما المنكر ما يحصل من البعض من الإسراع الفاحش الذي يفعله بعض الأئمة فيفوتوا الخير على أنفسهم وعلى من خلفهم.

---

(١) صحيح الترمذي (٨٠٦).

(٢) رواه البخاري (٣٥٦٩) ومسلم (٧٣٨).

(٣) رواه البخاري (١١٦٤) ومسلم (٧٣٨).

(٤) صحيح ابن حبان (٢٥٤٣).

(٥) صححه الألباني في صلاة التراويح (٥٣).



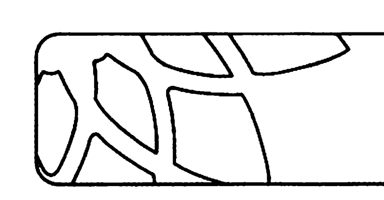
عباد الله: ينبغي على المسلم أن يعرف أحكام دينه، وينبغي على من أراد أن يصلي أن يتعلم أحكام الصلاة، وعلى من أراد أن يحج أن يتعلم أحكام الحج، ومن أراد أن يزكي أن يتعلم أحكام الزكاة، وكذلك ينبغي على من أراد أن يصوم أن يتعلم أحكام الصيام، سواء كان ذكرًا أو أنثى، الموفق من أراد الله به الخير فوفقه للتفقه في أحكام الدين، ولذا فلم يأمر الله نبيه بطلب الزيادة من شيء من الخير إلا من العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] وقال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

ثم اعلموا رحمكم الله أن رمضان شهر القرآن، وشهر التوبة الغفران، والجود والإحسان، فيه تفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران، وتصفد الشياطين، وفيه ليلة خير من ألف شهر، لذا فقد عرف السلف الصالح قيمة هذا الموسم المبارك، فشمروا فيه عن ساعد الجد واجتهدوا في العمل الصالح طمعًا في مرضاة الله ورجاء في تحصيل ثوابه، فقد ثبت أنهم كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم، وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: (أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهم: أيقبل منهم أم لا؟).

وقد كانوا أكثر ما يجتهدون في القيام وتلاوة القرآن، فقد كان مالك بن أنس إذا دخل رمضان يفر من الحديث ومجالسه أهل العلم ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف، وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العباد وأقبل على قراءة القرآن، وكان منهم من يختمه في ثلاث، ومنهم من يختمه في أقل من ذلك، فشمّروا وبادروا، وسارعوا وتسابقوا، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا جميعًا لاغتنام الأوقات بالطاعات، وأن تحمينا من فعل المنكر والسيئات، اللهم اهدنا صراطك المستقيم، وجنبنا صراط أصحاب الجحيم، اللهم اجعلنا ممن يصوم رمضان ويقومه إيمانًا بك، واحتسابًا لثوابك، إنك جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





انتصارات رمضان[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله ذي القوة والجبروت، والقهر والملكوت، قديرٌ فما شيء عليه يفوت، عليمُ الحال بالجهر والسكوت، والظهور والخفوت، وأشهد ألا إله إلا الله وحده الحي الذي لا يموت، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ذوي اليُمن والقنوت.

أما بعد: فاتقوا الله عبادَ الله.

أيها المؤمنون: تلمُّسُ المنح واستبصار الفضائل سبيلٌ للظفر وحيازة المغانم، ورمضان منحة ربانية تحمل في طياتها صنوف البر والخيرات. ومن مفردات تلك المنح: تنزّل النصر فيه؛ فللنصر مع رمضان اقتران قدريٌّ وثيق الارتباط، ترتبت فيه النتائج على الأسباب بأمر الله سبحانه.

معشر الصائمين: أيام رمضان مآثر لعزِّ الأمة المعقود، ومفاخر لأملها المنشود؛ ففي هذا الشهر من ثاني سنيّ الهجرة النبوية فرض الله الجهاد على الأمة مع افتراض شعيرة الصيام؛ فكان رمضان موسم نصر للمسلمين على امتداد التاريخ، حين شهدت أيامه الخالدة معارك خاضها المسلمون مع الأعداء على تنوع دياناتهم ومِللهم، واختلاف أقطارهم وأمصارهم، وتفاوت عَددهم وعُدَّتهم، أكرَمَ الله فيها أولياءه بالنصر المبين، فكانت تلك المواقع الرمضانية فيصلًا في تاريخ الأمة، ونقطة تحوُّل في مسيرتها واتساع رقعتها، وشامة في جبين عزها ومجدها.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

ففي رمضان من السنة ٢هـ كان يوم الفرقان حين انتصر المسلمون على كفار قريش في غزوة بدر، وفي رمضان من السنة ٨هـ كان فتح مكة.

وفي رمضان من السنة ١٣هـ كانت موقعة البويب مع الفرس على يد الصحابي المثنى بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي رمضان من السنة ١٥هـ كانت معركة القادسية الشهيرة بقيادة الصحابي سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي رمضان عام ٥٣هـ استعاد المسلمون جزيرة رُودُس على يد القائد جنادة بن أبي أمية بأمر الخليفة الصحابي معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي رمضان من عام ٩٣هـ فتحت الأندلس على يد القائد طارق بن زياد.

وفي رمضان من السنة ٩٤هـ افتُتحت بلاد الهند والسند على يد القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي.

وفي رمضان من عام ٢٢٣هـ كان فتح عمورية المشهور في عهد الخليفة المعتصم العباسي.

وفي رمضان من عام ٢٦٤هـ فُتحت مدينة سرقوسة في جزيرة صقلية الأوربية.

وفي رمضان من عام ٥٨٣هـ كان تحرير مدينة صفد من قبضة الروم على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

وفي رمضان من عام ٦٥٨هـ كانت هزيمة المغول في معركة عين جالوت بقيادة المظفر قطز.

وفي رمضان من عام ٦٦٦هـ كان فتح أنطاكية.

وفي رمضان من عام ٦٧٣هـ افتتحت أرمينيا الصغرى.

وفي رمضان من عام ٧٠٢هـ كُسرت شوكة المغول في معركة شقحب.

وفي رمضان من عام ٧٩١هـ فتحت بلاد البوسنة والهرسك على يد القائد العثماني السلطان مراد.

وفي رمضان من عام ٨٨٩هـ فُلّ حدُّ الروس على يد العثمانيين في واقعة القَرْم.

وفي تاريخنا المعاصر في رمضان عام ١٩٧٣م حطَّم المصريون المسلمون خط بارليف اليهودي، وجرعوا اليهود هزيمة نكراء، فكانت الهزيمة الوحيدة لهم في تاريخنا المعاصر كذلك في شهر رمضان...

معشر الصائمين: إن المتأمل في أسباب إنزال الله النصر على عباده يجد أنها فضل من الله أفاضه على أوليائه حين انتصروا على نفوسهم وحققوا تقوى ربهم، والذي كان الصيام أحد وسائل تحقيقها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]؛ فكانوا مؤهلين لتنزُّل النصر عليهم، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

وفي رمضان نجد الانتصار على النفوس أقوى ما يكون؛ انتصار على الرياء وملاحظة الخلق بتصفية العمل للخالق ابتداءً بتبييت نية الصوم، يقول ﷺ: «لَا صِيَام لمن لم يبيِّت الصّيام من اللَّيْل»(١).

وانتصارٌ على الشياطين بالتصفيد وتضييق مجاريهم بالصيام، يقول الرسول ﷺ: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْـجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ»(٢).

وانتصار على الشهوات التي كثيرًا ما يكون داعيها الفرج والبطن واللسان، قال ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي»(٣). ويقول الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(٤).

وانتصار على الشح والبخل والأثرة، يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»(٥).

---

(١) صحيح النسائي (٢٣٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٧٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٢) ومسلم (١١٥١).

(٤) رواه البخاري (٦٠٥٧).

(٥) رواه البخاري (٣٢٢٠) ومسلم (٢٣٠٨).



وانتصار على سوء الخلق، يقول الرسول ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ. إِنِّي صَائِمٌ»[1].

وانتصار بالاجتماع وعدم التفرق، يقول الرسول ﷺ: «الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَالفِطْرُ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، وَالأَضْحَى يَوْمَ تُضَحُّونَ»[2].

وانتصار بالاعتزاز بالإسلام، وخلع ربقة التقليد المهين للخارجين عن طاعة رب العالمين، يقول الرسول ﷺ: «فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ»[3].

ويضاف لهذه الانتصارات أنَّ رمضانَ وقتُ تنزُّلِ القرآن، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، والقرآن من أعظم ما يُجاهد به الكافرون، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

كما أن رمضان شهر الصبر، والنصر قرين الصبر، يقول الرسول ﷺ: «النصر مع الصبر»[4].

وفي رمضان الأدعية التي لا تُردّ، يقول الرسول ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا ترد دعوتهم: الصَّائِم حَتَّى يفْطر، وَالْإِمَام الْعَادِل، والمظلوم»[5]. فلأجل ذا غدا رمضان من أعظم مواسم نصر المؤمنين...

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، وجعلني وإياكم بآياته من العاملين...

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١).
(٢) السلسلة الصحيحة (٢٢٤).
(٣) رواه مسلم (١٠٩٦).
(٤) السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).
(٥) صحيح ابن ماجه (١٤٣٢).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

إن رمضان لم يزل محطة انتصار المسلمين على الصعيد الشخصي والأممي، وإن في تلك الانتصارات الرمضانية عبرة وأي عبرة، ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار، وإن الأمة التي لا تقرأ تاريخها ولا تستفيد من ماضيها لحاضرها ومستقبلها لهي أمة مقطوعة بتة، فالماضي والتاريخ ليس مفتاحًا لفهم الحاضر فحسب، بل هو أساسٌ من أسس إعادة صيغة الحاضر وبناء المستقبل، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٤].

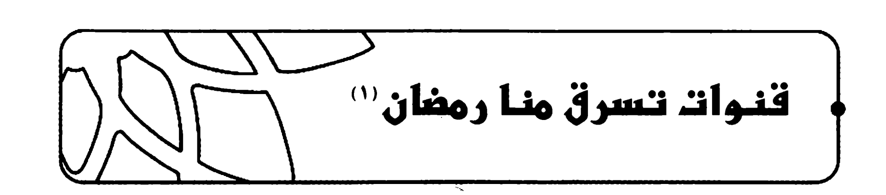
أيها الأخوة: يشهد التاريخ الإسلامي أنَّ أغلب الغزوات والمعارك التي قادها المسلمون في شهر رمضان كانت تُكلَّل بالفوز والانتصار، ومن هنا حرص الرسول الكريم ﷺ أن تكون أغلبُ غزواته في شهر رمضان؛ تقربًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإرشادًا للمسلمين إلى سبيل الاستعداد لاحتمال الشدائد في الجهاد، وهنا تجتمع - لدى المجاهد الصائم - مجاهدةُ النفس ومجاهدةُ الأعداء؛ فإنِ انتصر تحقَّق له انتصاران: هما الانتصار على هوى النفس، والانتصار على أعداء الله..

إن واقع الأمة اليوم في كثير من بقاعها وأصقاعها وأحوالها وأوضاعها يستدعي النظر والاعتبار، والتفكر والادكار، ولو أن المسلمين استوعبوا دروس الماضي لما أخطئوا في كثيرٍ مما أخطئوا فيه، والذي ينظر في تغيرات الأمم في مللها وأخلاقها، ويتأمل في تقلبات الدول في سياساتها واقتصادها هو أقدر على تفهم الحوادث الماضية، والتي هي صورة مشابهة لكثيرٍ من الوقائع المعاصرة، ألم يكن لهذه الأمة أعداء من قبل؟ ألم تتغلب عليهم رغم فارق القوة والعَدد والعُدد؟ ثم ألم تنعكس هذه العبادات كالصيام مثلًا على قيمهم وأمجادهم وحضاراتهم؟ إذًا: فلنثق بنصر الله، وبوعد الله، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وإمعانًا في حسن الظن بالله، وامتدادًا لعوائد نصره الرمضاني، فإنا نترقب مخايل تنزُّل النصر على هذه الأمة في هذا الشهر الكريم، ونرقب بعين الأمل بزوغ شمس الحق وهيمنتها؛ فانتصارات رمضانَ أثبتَتْ أنَّ طريقَ تنزُّلِ النصرِ الإلهي الوحيد للأمة إنما يكون بانتصارها على ذاتها، حين تستقيم على صراط الله المستقيم، الذي يظل رمضان أقوى محطَّةِ تزوُّدٍ للسَّيْرِ فيه.

هذا وصلُّوا وسّلموا..





قنوات تسرق منا رمضان[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتصف بصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال، أحمده سبحانه على الإنعام والإفضال والعطاء والنوال، وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة أدّخرها ليوم لا بيع فيه ولا خلال، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى أسدّ الأقوال وأحسن الأفعال، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه خير صحبٍ وخير آل.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى واحمدوه واشكروه على أن بلغكم شهر رمضان، رمضان النور والذكر والخير والطهر، فيه ليلة القدر، والعطايا الكثر، فيه عِزُّ الفتح وفيه نصر بدر، وفي ختامه بهجة العيد وفرحة الفطر.

أيها المسلمون: نسمع عن سرقة الجواهر والأثاث والدنانير وعن الاعتداء وقطع الطريق، لكن كيف يُسرق من الناس شهر رمضان؟! نعم أيها الكرام، من هم أولئك الذين يسرقون منا رمضان ثم يعلنون سرقاتهم هذه على رؤوس الأشهاد ويبشرون بها قبل حلول الشهر سائر العباد؟! وكيف واتَتْهُم الجراءَة ليسرقوا من الناس شهرهم، بعد أن مثّلوا وخرّبوا أوقاتِ الشهور الأخرى التي لم يكفِهم الفساد فيها فجلبوه إلى رمضان؟! بقول ملفّق، وزخرف منمّق!

في زخرف القول تزيينٌ لباطله — والحق قد يعتريه سوء تعبيرِ

لعلّكم إذًا عرفتم هؤلاء السارقين، إنهم من اعتدى على الأمّة قبل وبعد وأثناء رمضان، فانبروا بقنواتهم الفضائية المهترئة وباسم الترفيه عن الصائمين والتسلية عليهم بطرح برامج

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

ومسلسلات لهم تتنافس فيما بينها لسرقة ساعات رمضان وجوِّه الروحي من عباد الرحمن الذين رضوا بها فشاهدوها مضيِّعين معنى الصوم الحقيقي والوصول إلى التقوى.

أيها الإخوة: في رمضان يعطى السائل ويغفَر للتائب، تتّصل القلوب ببارئها، وتمتلئ المساجد بروّادها؛ هذا مُصلٍّ، وهذا ذاكر، وآخر يتلو كتاب ربّه، كلهم يرجون الأجر والتخلّص من أوزار الذنوب. ترى هؤلاء وتحمَد الله على هذا الإقبال الذي يتحقق به مقصود الصيام وثمرته.

لكنك بالمقابل تحزن حين ترى فئامًا من الناس يستقبلون رمضان انتظارًا لأن تتسلّط عليهم هذه القنوات ببرامجها التي تحمل شرًا ولهوًا ولغوًا، بل قد تحمل استهزاء بدين الله وشرائعه وتشويهًا للتاريخ ومراجعه، فما الذي دهى القوم؟! قد يكون هدف هذه القنوات ماديًا لجلب المال، ولكن بالمقابل كيف بمن أضاع فرصة رمضان العظيمة بالمغفرة والرحمة والعتق من النار ليشتري بدلًا منها لهوًا وعبثًا أو وزرًا وإثـمًا؟! ثم ألم يكف هذه القنوات ورجالها ما أفسدوه خلال العام في بيوت المسلمين ليعتدوا على حُرمة هذه الشهر الكريم بهذا الفسق والفجور بالبرامج الرمضانية كما يسمونها؟! ما الذي دهى القوم؟! وأيّ قناعات تسرّبت إليهم ليجعَلوا من شهر التقى والعفاف موسم حياة لاهية وسمر عابث؟! أين هم من النداء الرمضاني: يا با غي الخير أقبل، ويا با غي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار في كل ليلة؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله أن لا يحرمنا بذنوبنا.

أيها المسلمون الصائمون: إن البرامج الفضائية كما هو مشاهد تنشط في رمضان بشكل عجيب، ويتضاعف جهود المحطات وقنوات البث، وقد يتساءل البعض حول حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه أن رسول الله قال: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين» وفي رواية مسلم: «وصفدت الشياطين»(١)، وفي رواية الترمذي وابن ماجه: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ من شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧٧) ومسلم (١٠٧٩).

الْـجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْـوَابُ النَّـارِ فلـم يُفْـتَحْ منهـا بَـابٌ، وَفُتِّـحَـتْ أَبْـوَابُ الْـجَنَّةِ فلـم يُغْلَـقْ منها بَابٌ...» الحديث[1].

فهل ما يقع من معاصٍ ومنكرات يتعارض مع هذا الحديث؟ والجواب: أن فَتْح أبـواب الجنَّة في رمضان وغَلْق أبواب النار وتصفيد الشياطين، الصحيح أنَّه محمولٌ على حقيقته، وهو ظاهر الحديث، وأنَّ الجنَّة تُفتَح حقيقةً في رمضان، وتغلَّق أبواب النار، وتُسَلْسَـل الشـياطين، ولا شيء يصرف الكلام عن ظاهره.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَـإِنْ قِيـلَ: فنـرى الشـرور والمعـاصي تقـع في رمضان كثيرًا، فلو كانت الشياطين مُصَفَّدة لَمَا وقع شرّ؟ فالجواب من أوجه:

أحدها: أَنَّهَا إِنَّمَا تُغَلّ عَنْ الصَّائِمِينَ الصَّوْمَ الَّذِي حُوفِظَ عَلَى شُرُوطِهِ وَرُوعِيَتْ آدَابُهُ، أمَّـا ما لم يُحافظ عليه فلا يُغَلّ عن فاعله الشيطانُ. الثاني: أنَّا لو سلَّمنا أنَّها صُفِّدَت عن كلِّ صائم، لكن لا يلزم من تصفيد جميـع الشـياطين ألاَّ يقـع شرّ؛ لأنَّ لوقـوع الشـرّ أسـبابًا أُخَـر غـير الشياطين، وهي: النفوس الخبيثة، والعـادات الركيكـة، والشـياطين الإنسـيَّة. والثالـث: أن يكون هذا الإخبار عن غالب الشياطين والمَرَدة منهم، وأمَّا مَن ليس مِن المَرَدة فقد لا يُصَـفَّد. والمقصود: تقليل الشُّرُورِ، وهذا موجود في شهر رمضان؛ لأنَّ وقوع الشرور والفواحش فيـه قليلٌ بالنسبة إلى غيره من الشهور)[2].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِهَذَا قَالَ النَّبِـيُّ ﷺ «إِذَا دَخَـلَ رَمَضَـانُ فُتِّحَـتْ أَبْـوَابُ الْـجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ»؛ فَإِنَّ مَجَارِيَ الشَّيَاطِينِ، الَّـذِي هُـوَ الـدَّمُ، ضَـاقَتْ؛ وَإِذَا ضَاقَتْ انْبَعَثَتْ الْقُلُوبُ إِلَى فِعْلِ الْـخَيْرَاتِ، الَّتِي بِهَـا تُفْـتَحُ أَبْـوَابُ الْـجَنَّةِ، وَإِلَى تَـرْكِ الْـمُنْكَرَاتِ الَّتِي بِهَـا تُفْـتَحُ أَبْـوَابُ النَّـارِ، وَصُـفِّدَتْ الشَّـيَاطِينُ فَضَـعُفَتْ قُـوَّتُهُمْ وَعَمَلُهُـمْ بِتَصْفِيدِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَفْعَلُوا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي غَيْرِهِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُـمْ قُتِلُوا وَلَا مَاتُوا؛ بَلْ قَالَ: (صُفِّدَتْ) وَالْـمُصَفَّدُ مِـنْ الشَّـيَاطِينِ قَـدْ يُـؤْذِي، لَكِـنَّ هَـذَا أَقَـلُّ

(١) رواه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٩).
(٢) المفهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ١٣٦).

وَأَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ؛ فَهُوَ بِحَسَبِ كَمَالِ الصَّوْمِ وَنَقْصِهِ؛ فَمَنْ كَانَ صَوْمُهُ كَامِلًا دَفَعَ الشَّيْطَانَ دَفْعًا لَا يَدْفَعُهُ الصَّوْمُ النَّاقِصُ؛ فَهَذِهِ الْمُنَاسَبَةُ ظَاهِرَةٌ فِي مَنْعِ الصَّائِمِ مِنْ الْأَكْلِ)[١].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهَذَا مِنْ مَعُونَةِ الله للمسلمين، أَنْ حَبَسَ عنهم عَدُوَّهُمْ الَّذِي يَدْعو حزْبَه ليكونوا مِنْ أصحاب السَّعير، ولِذَلِكَ تَجِدُ عنْدَ الصالِحِين من الرَّغْبَةِ في الخَيْرِ والعُزُوْفِ عَن الشَّرِّ في هذا الشهرِ أَكْثَرَ من غيره)[٢].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقيل: في هذا إِشَارَة إِلَى رَفْعِ عُذْرِ الْمُكَلَّفِ، كَأَنَّهُ يُقَالُ لَهُ: قَدْ كُفَّتِ الشَّيَاطِينُ عَنْكَ؛ فَلَا تَعْتَلَّ بِهِمْ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ ولا فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ)[٣].

فالذين وراء هذه البرامج هم مردة شياطين الإنس، بل هم من هذه الأمة، لكنهم مع الأسف يتنكّرون لدينها وأهلها، وأحكامها الشرعية وآدابها المرعيّة بهذه البرامج ودعمها المادي وهي التي لا هدف لها إلا تفويت الأجر والثواب وجرح شعيرة الصيام، فهي تعمل طوال ساعات الليل والنهار، حتى انشغل بها الكثيرون في نهار رمضان وليله عن الذكر والاستغفار وقراءة القرآن، وجلسوا أمام الشاشات مكتفين من الصيام بالإمساك عن الطعام فقط، وهذا عام سواء في شاشات القنوات، أو شاشات الصفحات والانشغال بما يعجُّ في الشبكة العنكبوتية من منشورات ومقاطع وصور ومراسلات في شتى المواقع والحسابات.

أيها المسلمون: هل ينكر أحدٌ منا أن الله حرم علينا معاشر الرجال النظر إلى المرأة الأجنبية؟! فكيف حين تظهر بكامل زينتها أمام الملايين من الناس؟ سواء في نشرة إخبارية، أو برامج ومسلسلات مُخلة بالآداب، أو حفلات غنائية ماجنة، نسأل الله العفو والعافية.

إن كثيرًا مما نراه يُعرض على الناس في رمضان أو في غير رمضان هي برامج تتعارض مع الآداب والمبادئ والقيم، قنوات حرمتِ الناسَ السكينة والهدوء بأفلام رعاة البقر ومسلسلات الخلاعة والعنف والجريمة، تبثّ على مدار الساعة ولا تستحي أن تتوقّف حتى

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٤٦).

(٢) مجالس شهر رمضان لابن عثيمين (ص ٨) بتصرف.

(٣) فتح الباري (٤/ ١١٤).

في رمضان، تُرى هل صارت المرأة سلعةً يتاجر باستعراضها وبأعراضها أصحاب القنوات سعيًا لجذب الجماهير وكسب الأموال؟ هل تبلّدت أحاسيس الناس؟! وهل ماتت النخوة والغيرة والعفة؟ حتى صرنا لا ننكر مثل هذه المشاهد التي لا يرضاها دين ولا يقرّها عُرف، وصار من الطبيعي أن تظهر المرأة حاسِرة الرأس كاشفةَ لما ينبغي ستره، وتقبَّلنا كلَّ هذا على أساس أنه تمثيل، وأصبح الرجل الخليع الماجن يوصف بأنه ممثل قدير، وما هو في الحقيقة إلا جاهل يلهث وراء الشهرة والمال حتى ولو كان ذلك على حساب الآداب والقيم، وحتى لو تعارض مع شرع الله وأمره ونهيه!

أيها الصائمون: أسألكم وأنتم تعرفون الجواب: هل يتناسب كل ما ذكر مع رمضان شهر جمع الحسنات وشهر نزول الرحمات والبركات؟! كيف تنزل علينا الرحمات؟! ما هذه التناقضات التي نعيشها؟! نمسك عن الطعام والشراب ولا نمسك عن النظر والاستماع لما لا يليق؟ هل الصيام فقط الامتناع عن الأكل والشرب؟! من كان لا يعرف الصيام إلا بهذه الصورة فهو مخطئ، الصيام هو صيام الجوارح كلها لكي تصل في النهاية إلى الغاية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

فهل مشاهدة هذه البرامج تُكسب التقوى؟! إنها تقضي على البقية الباقية من إيمان العبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا كان تركها والتنزه عنها هو الحق والصواب، فهو في رمضان أحق وأصوب.

يا من ابتلي بمشاهدة هذه المحرمات، إننا نخاطب الإيمان الذي في قلوبكم ونخاطب الصيام الذي تصومون أن تتقوا الله جل وتعالى وأن يستحي الواحد منا من ربه فلا يعصيه ويخالفه وهو صائم أو مفطر، ولا يعصيه بنعَمِه التي أنعمها عليه، فهل هذا شكرٌ لله أن بلّغك رمضان حين حال الموت بين البعض وبين بلوغهم رمضان فماتوا قبل رمضان فلم يدركوه؟!

أيها المسلمون الصائمون: إننا نخاطب الإيمان الذي في قلوبكم أن تحفظوا نعمة البصر ولا تطلقوها في النظر إلى ما حرم الله، فإن النظر نعمة، وإن النظرة إلى الحرام سهمٌ مسموم من سهام إبليس، إن النظر بمنزلة الشرارة في النار، ترمَى في الحطب اليابس، وقد تحرقه كله.

كـل الحـوادث مبـدؤها مـن النظـر ... ومعظم النار مـن مستصـغر الشـرر
كم نظـرةٍ فعلـت في قلـب صـاحبها ... فعـل السـهام بـلا قـوسٍ ولا وتـر
والمـرءُ مـا دام ذا عـينٍ يقلبهـا ... في أعين الغيـد موقـوفٌ عـلى الخطـر
يسـرُّ مقلتَـه مـا ضرّ مهجتَـه ... لا مرحبًـا بسـرورٍ عـاد بالضـرر

إن من غضّ بصره عما حرم الله عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هـو خـيرٌ منـه، فكـما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى بـه مـا لم يـره مـن أطلـق بصـره في محارم الله، وهذا أمرٌ يحسه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة والذنوب كالصـدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي.

ثم بعد هذا كله أيها الآباء، ما ذنب الأولاد والنساء المحصنات في البيوت أن نربيهم عـلى مسلسلات الخلاعة والمجون ويكبرون على التناقضات، فيتربى الطفل منذ الصـغر والمـرأة في المنزل وعندهم أن لا مانع من النظر إلى النساء والاختلاط والمناظر المخلة بالآداب والقيم، ثم يشتكي الواحد منا بعد ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي تسببها هذه الأحوال الناتجة عن التفريط والإهمال.

بل صارت هذه الشاشات والصفحات سواء في النت أو الفضائيات سببًا لتفـرق الأهـل واختلال نظام الأسرة، لم يعد الاجتماع والألفة بينهم كـما كانـت، حتـى إنهـم ربـما يجتمعـون بأجسادهم وهم متفرقون بأذهانهم وقلوبهم وعقولهم، فكـل مـنهم ينظـر في شاشـة جهـازه منشغلًا بالمطالعة والتواصل مع غير مـن يجالسـه، ولم يعلـم أن مـن يجـاوره في مجلسـه أحـق بالإقبال عليه ممن يراسله في هاتفه.

أين هذا الحال الرمضاني الذي نتكلم عنه عن حال سلفنا وقدواتنا في رمضان حين كـانوا يقيمون ليله بالقرآن ويصومون النهار؟ بل أين هدوء ليالي رمضان التي كنا نعرفها قديمًا، حين كان لليل رمضان جوّه الخاص في المسجد وشفافيته الفياضة وروحانيتـه الخاصـة في الأسرة، بين صلاة تراويح وتدارس لكتاب الله واستغفار بالأسحار وتبكير إلى الصلوات؟ نسـأل الله العون على مرضاته.

بارك الله لي ولكم في الفرقان العظيم، ونفعنا وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى وتوبوا إليه، واعلموا أن ربكم بفضله ومنّه قد جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه، يستبقون فيه بطاعته، فبادروا وفقكم الله إلى الخيرات، وأصلحوا من أحوالكم، فالمسؤولية عظمى والمحاسبة دقيقة.

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَاوُنٌ ... وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ

فَحَظِّي إِذَنْ مِنْ صَومِيَ الجُوعُ وَ الظَّما ... فَإِنْ قُلْتُ إِنِّي صُمْتُ يَومِي فَمَا صُمْتُ

لقد كان الصالحون لا يدعون شيئًا يزاحم القرآن في رمضان، كان الإمام أحمد يُغلِق الكتب ويقول: (هذا شهر القرآن). وكان الإمام مالك بن أنس لا يفتي ولا يدرِّس في رمضان، ويقول: (هذا شهر القرآن).

يا عبد الله: يا من أيام عمره في حياته معدودة، يا من عمره يقضى في الساعة والساعة فيما لا فائدة منه، يا كثير التفريط في قليل البضاعة، يا شديد الإسراف، يا قوي الإضاعة، كأني بك عن قليل ترمى في جوف قاعة مسلوبًا لباس القدرة وبأس الاستطاعة، وجاء منكر ونكير في أفظع الفظاعة، كأنهما أخوان من الفظاظة من لبان الرضاعة، وأمسيت تجني ثمار هذه الزراعة، وتمنيت لو قدرت على لحظةٍ لطاعة، وقلت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] وما لك كلمةٌ مطاعة، يا متخلِّفًا عن أقرانه قد آن أن تلحق الجماعة، وتعلن التوبة عن تلك الآثام هذه الساعة.

انظر لآثار الصالحين وأفعالهم يا عبد الله، واقتدِ بهم، واستكثروا من الطاعات والنوافل من بعد الفرائض استغلالًا لشهركم، واسعوا في قضاء حوائج المحتاجين، وتفقدوا أحوال المساكين، يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أُحبّ للصائمين الزيادة في الجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله ﷺ).

أوصى أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أصحابه يومًا فقال: «إن سفر القيامة طويل، فخذوا ما يصلحكم، وصوموا يومًا شديد الحر لحرّ يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور،

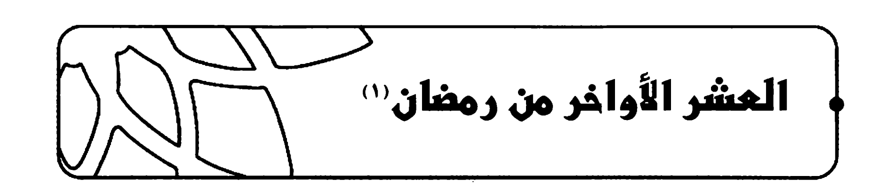
وتصدقوا بصدقة السر ليوم العسر»، ولما قيل للأحنف بن قيس إنك شيخ كبير والصوم يضعفك قال: (إني أعدّ لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله).

إنه شهر القرآن عباد الله، فيه تصفو القلوب، وتزكو النفوس بالإقبال على الصلاة وقراءة آي القرآن الكريم، من صامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، بشر بقدومه رسول الله صحابته فقال: «أتاكم شهرُ رمضانَ، شهرٌ مباركٌ، فرض اللهُ عليكم صيامَه، تُفتحُ فيه أبوابُ السماءِ، وتُغلقُ فيه أبوابُ الجحيمِ، و تُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ، لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ، من حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ»[1].

هذا وصلوا وسلموا...



(١) صحيح الترغيب (٩٩٩).



العشر الأواخر من رمضان(1)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل الصوم جُنّة، وسببًا موصلًا للجنة، ورياضةً للنفوس المطمئنة، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أعبد الخلق وأتقاهم، وأكملهم وأزكاهم، الذي كان إذا أقبلت العشر جدَّ وشدّ المئزر، وأحيا ليلَهُ، وأيقظ أهله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

جرَتِ السنونُ وقد مضى العمر ... والقلبُ لا شكرٌ ولا ذكرُ

والغفلةُ الصمّاءُ شاهرةٌ ... سيفًا به يتصرّمُ العمرُ

حتى متى يا قلب تغرق فيُ ... لجَجِ الهوى، إنّ الهوى بحرُ

ها قد حباك الله مكرمةً ... طرقت رحابك هذه العشرُ

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

عباد الله: ها هو شهر رمضان، شهر الإحسان وتلاوة القرآن، وشهر المغفرة والعتق من النيران، يتهيأ للرحيل والزوال، تصرّمت ساعاته، وانقضت لياليه وأيامه كغيرها من الليالي والأيام التي مرت علينا وكأنها أضغاث أحلام، لم نكد نفرح بقدومه حتى صرنا نحزن لانقضائه، ولم نكد نستقبله حتى أصبحنا نودعه.

أيها المسلمون: مضت أكثر أيام شهركم، وانقضت لياليه شاهدة عليكم بما عملتم، وحافظة لما أودعتم، تدعون يوم القيامة يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، فينادي ربكم سبحانه: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[(١)].

عباد الله: هذا هو شهركم وهذه نهايته، ولربما يكون هذا الشهر آخر شهر يصومه بعضنا، فكم من مستقبل لرمضان لم يستكمله! وكم من مؤمل بعود إليه لم يدركه! وتلك الأيام نداولها بين الناس.

أيها المسلمون: لئن مضى من شهركم الكثير فقد بقي فيه بقية هي خير مما مضى، بقيت من شهركم العشر الأواخر، وإن من رحمة الله بعباده - وهو الغنيُّ عنهم - أن جعل أفضل أيام رمضان آخره، كما جعل أفضل الليل آخره، وكما جعل أفضل ساعات الجمعة آخرها؛ إذ النفوس تنشط عند قُرب النهايات، وتستدرك ما فاتها رغبةً في التعويض.

ولذا كان رسول الله ﷺ يحتفي بالعشر الأواخر احتفاءً عظيمًا، ويعظّمها تعظيمًا جليلًا، ويُوليها عنايةً خاصة، ويجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها، ويزيد فيها من العبادة ما لا يزيد فيما سواها من أيام وليالي الشهر، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»[(٢)]. وكانت تقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما عند مسلم: «كان يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٤).

(٣) رواه مسلم (١١٧٥).

عباد الله: ومن بعده عليه الصلاة والسلام سارت قوافل الصالحين المقربين على الطريق ذاته، تقف عند العشر وقفة جد وصرامة، تنهل من معينها، وترتوي من فيض عطاءاتها، وتعمل فيها ما لا تعمل في غيرها، فلقد كان السلف الصالح من أسرع الناس امتثالًا واتباعًا للنبي في اغتنام العشر، فكان كثير منهم يجتهدون في ليالي العشر اجتهادًا عظيمًا، قال أبو عثمان: (كانوا يعظمون ثلاث عشرات: العشر الأول من محرم، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأواخر من رمضان).

وكان قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يختم القرآن في كل سبع ليال مرة، فإذا دخل رمضان ختم في كل ثلاث ليال مرة، فإذا دخلت العشر ختم في كل ليلة مرة.

ومن شدة تعظيمهم لهذه الأيام كانوا يتطيبون لها ويتزينون، وكان بعضهم يغتسل كل ليلة ليكون أنشط له في العبادة، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه ليخلو في محرابه يدعو الله ويعبده وهو في أكمل هيئة وأبهى صورة. قال ابن جرير: (كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر، وكان النخعي يغتسل كل ليلة).

ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، فقد روي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل وتطيب ولبس حلة إزار ورداء، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسهما إلى مثلها من قابل. وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر. وكان ثابت البناني وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيبان المسجد في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر! قال ثابت: (وكان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم وكان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر).

هكذا كانوا تعظيما لهذه العشر، وهكذا كانوا اجتهادا في العبادة وانقطاعا لها في هذه الليالي المباركات.

عباد الله: ولقد كان نبيكم ﷺ لشدة عنايته باستغلال هذه العشر الأواخر من رمضان يحرص على الاعتكاف فيها، وهو لزوم المسجد لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فاعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه من بعده.

أيها المسلمون: الاعتكاف سُنّة متبوعة، وفضيلة مشروعة، والمعتكف ذكر الله أنيسه، والقرآن جليسه، والصلاة راحته، ومناجاة الحبيب متعته، والدعاء والتضرع لذته، إذا أوى الناس إلى بيوتهم وأهليهم ورجعوا إلى أموالهم وأولادهم لازم هذا المعتكف بيت ربه، وحبس من أجله نفسه، يقف عند أعتابه يرجو رحمته ويخشى عذابه، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «السنة للمعتكف أن لا يخرج إلا لحاجته التي لا بد منها، ولا يعود مريضًا، ولا يمس امرأته، ولا اعتكاف إلا في مسجد جماعة، والسنة لمن اعتكف أن يصوم» اهـ. ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (شرع الله الاعتكاف الذي مقصوده وروحه: عكوف القلب على الله تعالى والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، فيصير أنسه بالله بدلًا من أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه يوم الوحشة في القبور حيث لا أنس له يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم). اللهم وفقنا لاغتنام الخيرات، وضاعف لنا الدرجات.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

عباد الله: إن مما يزيد العشر الأواخر فضلًا وبركة أن فيها ليلة القدر، وهي ليلة عظيمة وشريفة تعدل عبادتها ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، هي دُرّة الليالي، وواسطة العقد، وهي خير ليالي السنة ومكانها في ليالي العشر الأواخر من رمضان كمكان يوم عرفة - الذي هو خير أيام السنة - من أيام العشر الأُوَل من ذي الحجة، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»[1]. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بلغني أن رسول الله أُري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغه غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر).

أيها الأحبة إن من الخُذلان تضييع هذه المواسم والأزمان، وتفويت هذه الليالي والأيام، وليت شعري إن لم نغتنم هذه الأيام فأيَّ موسم نغتنم؟ وإن لم نُفرِّغ الوقت الآن للعبادة فأيَّ وقت سنفرّغه لها؟

سبحان الله! أيُّ غبنٍ وخذلان أن تُهجَرُ المساجد وتُعمر الأسواق في أعظم ليالي السنة وأفضلها، بل وفي الساعة الشريفة التي ينزل فيها ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ليعطي السائلين، ويغفر للمذنبين، ويتوب على التائبين المنيبين، في الثلث الأخير من الليل!

أيها المسلمون: إن ليلة القدر تُطلب في أوتار العشر الأواخر من رمضان، فإن ضعف العبد أو عجز عن قيام العشر كلها فلا يُغلَبَنَّ على السبع الأواخر، لما روى ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله «التمسوها في العشر الأواخر يعني: ليلة القدر، فإن ضعف أحدكم أو عجز، فلا يُغلبن على السبع البواقي»[2].

---

(١) رواه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠).

(٢) رواه مسلم (١١٦٥).

فاجتهدوا رحمكم الله في هذه البواقي من ليالي الشهر، أحيوها بالعبادة، وأكثروا فيها من الصلاة والأذكار والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، كما كان نبيكم يفعل، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، أرأيت إن علمتُ أي ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»[1].

عباد الله: ليلة القدر يفتح فيها الباب، ويقرب فيها الأحباب، يسمع الخطاب، ويرد الجواب، ليلة ذاهبة عنكم بأفعالكم، وقادمة عليكم غدًا بأعمالكم، فيا ليت شعري ماذا أودعتموها؟! وبأي الأعمال ودّعتموها؟! أتراها ترحل حامدة لصنيعكم أم ذامة تضييعكم؟!

هذا أوان السباق فأين المتسابقون؟! وهذا أوان القيام فأين القائمون؟!

تَرَحَّلَ الشَّهْرُ وَا لهْفَاهُ وانصَرَما ... واخْتَصَّ بالفَوْزِ في الجَنَّاتِ مَنْ خَدَما
وَأَصْبحَ الغافِلُ المسكينُ مُنكَسِرًا ... مِثْلي فيا وَيْحَهُ يا عظمَ ما حُرِمَا
مَن فاتَهُ الزَّرْعُ في وقْتِ البذارِ فما ... تَراهُ يَحْصدُ إلَّا الهمَّ والنَّدَما

أيها المسلمون: كفى تقصيرًا وغفلة واتباعًا للهوى، كفى إعراضًا عن ذكر الله وشكره، فقد انقضى الثلثان من شهر رمضان كلمح البصر، ولكن بقي الثلث، والثلث كثير أو كبير.

أخي الحبيب: إنها والله لنعمة كبرى أن تفضل الله عليك ومدَّ في عمرك حتى بلغت هذه العشر المباركة، وإن من تمام شكر هذه النعمة أن تغتنمها بالاستكثار من الأعمال الصالحة.

تذكَّر أنها عشرُ ليالٍ فقط تمرُّ كطيف خيالٍ في المنام، ثم تنقضي كلمح البصر ولا تعود إلا بعد عام، لا تدري ما الله صانعٌ فيه، ولا تدري على من تعود!

فليكن همُّك فيما بقي من ليالي هذا الشهر المبارك أن تُرِيَ الله من نفسك خيرًا، بالاجتهاد في الطاعات، وعدم تفويت هذه الساعات، استعن بالله وكن عونًا لمن حولك ومن هم تحت يدك على القيام والتلاوة وذكر الله تعالى، يقول سفيان الثوري: (أحب إليّ إذا دخل العشر الأواخر أن يجتهد بالليل، ويُنهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك).

---

(١) صحيح الترمذي (٣٥١٣).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم يكن النبي ﷺ إذا بقي من رمضان عشرة أيام يدع أحدا من أهله يطيق القيام إلا أقامه).

فأنزلوا هذه الليالي منزلتها، واقدروها حق قدرها، وأحيوها في مساجدكم وفي بيوتكم، وتهيأوا لها وفرّغوا لها أوقاتكم، لعلها أن تترك أثرًا طيبًا على ذريتكم وأهليكم، ولا تجعلوها كغيرها من سائر الليالي، فإن لها عند الله تعالى شأنًا عظيمًا، وإن التقرب إلى الله تعالى فيها بالطاعة أكبر فضلًا وأعظم أجرًا، فالمحروم من حُرِمَ خيرها وبركتها.. جعلنا الله ممن يوفق فينال ثوابها، ويحوز بركتها.

هذا وصلُّوا وسلّموا على البشير النذير، والسراج المنير، محمد صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر.



رمضان مدرسة لتجديد الإيمان[(١)]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي يمنُّ على عباده بمواسم الخير أفراحًا، ويدفع عنهم بلطفه أسباب الردى شرورًا وأتراحًا، أحمده تعالى حمدًا يتجدد غدوًا ورواحًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مبدع الكائنات أرواحًا وأشباحًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله رافع لواء الدين دعوة وإصلاحًا، والهادي إلى طريق الرشاد سعادة وفلاحًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خيار هذه الأمة تقىً وصلاحًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقبت الليالي والأيام مساءً وصباحًا، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأوصيكم -عباد الله- ونفسي بتقوى الله جل وعلا، فهي العدة العتيدة لمن رام خيرًا وصلاحًا، ونشد عزًا وفلاحًا، وقصد برًّا وتوفيقًا ونجاحًا.

يَا ذَا الَّذِي مَا كفاهُ الذَّنْبُ فِي رَجَبٍ ... حَتَّى عَصَى ربَّهُ فِي شهر شعبانِ
لَقَدْ أظَلَّكَ شهرُ الصَّومِ بَعْدَهُمَا ... فَلاَ تُصَيِّرْهُ أَيْضًا شَهْرَ عِصْيانِ
وَاتْلُ القُرانَ وَسَبِّحْ فيهِ مجتَهِدًا ... فَإِنه شَهْرُ تسبِيحٍ وقُرْآنِ
كَمْ كنتَ تعرِف مِمَّنْ صَام فِي سَلَفٍ ... مِنْ بين أهلٍ وجِيرانٍ وإخْوَانِ
أفْنَاهُمُ الموتُ واسْتبْقَاكَ بَعْدهمُ ... حَيًّا فَمَا أقْرَبَ القاصِي من الداني

في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغُلقت أبواب النار وصفدت الشياطين»[(٢)].

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.
(٢) رواه مسلم (١٠٧٩).

يا لها من فرصة عظيمة، ومناسبة كريمة، تصفو فيها النفوس، وتهفو إليها الأرواح، وتكثر فيها دواعي الخير، تفتح الجنات، وتتنزل الرحمات، وترفع الدرجات، وتغفر الزلات، وتحط الأوزار والخطيئات، يجزل الله فيها العطايا والمواهب، ويفتح أبواب الخير لكل راغب، ويعظم أسباب التوفيق لكل طالب، فلله الحمد والشكر على جزيل نعمائه، وترادف مننه وآلائه، ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

أيها المسلمون: أرأيتم بماذا تقاس أفراح أهل الإيمان؟! إنها أفراح علوية، ومسرات روحية، تطلق النفوس من قيد المطامع الشخصية، وتحررها من أسر الأغراض المادية، وتحلق بها في آفاق أسمى وأولى، وتترقى بها في طموحاتٍ أرحب وأعلى، لذلك كانت أفراح أهل الإيمان عن الملذات تتسامى، وعن المشتهيات تترفع وتتعالى، أفراح المؤمنين تتجدد بتجدد مواسم الخير والعطاء، ومناسبات الطهر والصفاء، والمحبة والمودة والإخاء، والبر والسعادة والهناء، وكيف لا يفرح المؤمن بفتح أبواب الجنان؟! وكيف لا يفرح المذنب بإغلاق أبواب النيران؟! فيا بشرى للمسلمين بحلول شهر الصيام والقيام!

ويا لها من فرحة غامرة تعيشها الأمة الإسلامية هذه الأيام، فهي إزاء دورة جديدة من دورات الفلك السيار، والزمن الدوار، وإن في مرور الليالي والأيام لعبرًا، وفي تصرُّم الشهور والأعوام لمزدجرًا ومدكرًا.

تمر الأيام وما أسرعها! وتمضي الشهور وما أعجلها! يهل علينا رمضان بعد مضي عام كامل، كم في هذا العام من عزيز مفقود، وكريم مولود، كم فيه من عزيز ذل، وذليل عز، ووضيع ارتفع، ورفيع اتّضع.

يطل علينا موسمٌ كريم، وشهر عظيم، ويفد علينا وافدٌ حبيب وضيف عزيز، شهر رمضان المبارك بأجوائه العبقة، وأيامه المباركة الوضاءة، ولياليه الغر المتلألئة، ونظامه الفريد المتميز، وأحكامه وحِكَمه السامية.

معاشر المسلمين: إن الأفراد والأمم لمحتاجون لفترات من الراحة والصفاء لتجديد معالم الإيمان، وإصلاح ما فسد من أحوال، وعلاج ما جد من أدواء، وشهر رمضان المبارك هو المحطة الروحية التي تجد فيها هذه الأمة فرصتها الثمينة لاستجلاء تاريخها، واستنهاض

همها، وإعادة أمجادها، وإصلاح أوضاعها، إنه محطة لتعبئة القوى الروحية والخلقية التي تحتاج إليها الأمة، بل يتطلع إليها كل فردٍ في المجتمع، إنه مدرسة لتجديد الإيمان، وتهذيب الأخلاق، وتقوية الأرواح، وإصلاح النفوس، وضبط الغرائز، وكبح جماح الشهوات، إنه مضمار يتنافس فيه المتنافسون، ويستبق العاملون، للوصول إلى قمم الفضائل، وكريم الشمائل، وبه تتجلى وحدة الأمة الإسلامية وأخوتها.

أيها الأحبة: الصيام مدرسة للبذل والجود، والبر والصلة، فهو حقًّا معين الأخلاق ورافد الرحمة، ومنهل عذب لأعمال الخير في الأمة، فما أجدرها وهي تستقبل شهرها أن تقوم بدورها، وتحاسب نفسها، وتراجع حساباتها، وتعيد النظر في مواقفها، ما أحوجها إلى استلهام حكم الصيام، والاستفادة من معطياته، والنهل من معين ثمراته ونمير خيراته.

أمة الإسلام: بماذا عسانا أن نستقبل شهرنا الكريم، وموسمنا الأغر العظيم؟! إن الناظر في واقع الناس اليوم إزاء استقبال هذا الشهر الكريم يجدهم أصنافًا:

فمنهم من لا يرى فيه إلا جوعًا لا تتحمله البطون، وعطشًا لا تقوى عليه العروق.

ومنهم من يرى فيه موسمًا سنويًّا للموائد الزاخرة باللذيذ المستطاب من الطعام والشراب، وفرصة سانحة للسمر والسهر واللهو إلى هجيعٍ من الليل، بل إلى بزوغ الفجر، ممتطين صهوة الفضائيات، وما تقذف به شتى القنوات، وما تعج به شبكات المعلومات، يتبع ذلك استغراق في نومٍ عميق نهارًا، فإذا كان من ذوي الأعمال تبرَّم بعمله، وإذا كان من أصحاب المعاملات ساءت معاملاته وضاق بها صدره، وإذا كان موظفًا ثقل عليه الالتزام بأداء مسئولياته، وقلَّ إنتاجه وعطاؤه، وغالب هذا الصنف هم من يملؤون الأسواق هذه الأيام تكلُّفًا وتخزينًا للمواد الغذائية المتنوعة، زاعمين أن ذلك يترجم الاستقبال الأمثل لرمضان، وهذا كله إنما يصدر ممن ليس له عناية بمغزى هذا الشهر الكريم والغاية من فرض الصيام.

ثم هناك صنف في الأمة -هم بحمد الله الأكثرون إن شاء الله- وهم من يرى في رمضان غير هذا كله، وأجلَّ منه جميعه، إذ يرون فيه دورة إيمانية تدريبية لتجديد معانٍ عظيمة في النفوس، من تحقيق التقوى، والإيمان العميق، والخلق القويم، والصبر الكريم، والعمل

النبيل، والإيثار الجليل، والتهذيب البليغ، والإصلاح العام للأفراد والمجتمعات، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣]، لا تشديدًا عليكم، بل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فإن العبادات لم تُفرض ليعاني الناس مشقتها ويكابدوا عنتها، إنما فرضت لتطهير القلوب وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق وكبح جماح الشهوات، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وإن من أول ما ينبغي أن تُستقبل به هذه المحطة الإيمانية والمنحة الربانية: التوبة الصادقة من جميع الذنوب والمعاصي، وأي عبدٍ لم يُلمّ بشيءٍ من ذلك؟! كما يجب الخروج من المظالم، وأداء الحقوق إلى أصحابها، وفتح باب المحاسبة الجادة للنفوس، والمراجعة الدقيقة للمواقف، والعمل على الاستفادة من أيامه ولياليه صلاحًا وإصلاحًا، بهذا الشعور والإحساس يتحقق الأمل المنشود، وتسعد الأفراد والمجتمعات بإذن الله.

أما أن يدخل رمضان ويراه بعض الناس تقليدًا موروثًا، وأعمالًا صورية محدودة الأثر وعادات روتينية ضعيفة العطاء، فهذا لقلة العناية بمقاصد الشرع، وقلة الفقه لمراد الله تعالى، بل لعل بعضهم أن يزداد بحلول رمضان سوءًا وانحرافًا وتضييعًا لبعض العبادات والصلوات والعياذ بالله، فهو للعبث واللهو في الليل، وللنوم والسهو في النهار، وذلك والله انهزام نفسي، وعبثٌ شيطاني، له عواقبه الوخيمة على الفرد والمجتمع، وقد قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[(١)].

فإذا لم يتقرب العبد إلى ربه في هذا الشهر فمتى يتقرب؟ وإذا لم يسارع إلى الخيرات ويبكر إلى الصلوات ويحرص على التلاوات فيه فمتى؟ وإذا لم يتخلص من قيود الأهواء والشهوات فيه فمتى عساه يفعل؟

(١) رواه البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠).

أيها المسلمون: إن رمضان فرصة للمذنبين للتوبة والإنابة، وفرصة للمقصرين للمبادرة إلى الأعمال الصالحة وتعوُّد المداومة عليها، كما أنه فرصة للطائعين للاستزادة من العمل الصالح، يا لها من فرصٍ لا يُرحم فيها إلا مرحوم، ولا يحرمها إلا محروم!

فالله الله -عباد الله- في الجد والتشمير دون استثقالٍ لصيامه، واستطالة لقيامه، واستبطاءٍ لأيامه، وحذار حذار من الوقوع في نواقضه ونواقصه، أو تعاطي مفطراته الحسية والمعنوية، من الغيبة والنميمة، واللهو واللغو، والنظر إلى الحرام، فإن ذلك مما يجرح الصيام وينقص أو قد يبطل ثوابه، وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه ﷺ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[1].

إخوة الإيمان: جاء شهر الخيرات والبركات، فالذين يستقبلونه على أنه شهر جوعٍ ونومٍ، وحرمانٍ نهاري، وشبع وسهر ليلي، وأعمالٍ وأقوالٍ لا تجاوز اللسان، ولا يعمر به جنان، لن يستفيدوا من معطياته، ولن ينهلوا من خيراته، وأما الذين يستقبلونه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان، ومحطة لتهذيب الأخلاق والسلوك، وتقوية الضمائر والأرواح، وتحرر من أغلال الشهوة، وتحكُّم العادة، ووحل المعصية، وانطلاقة جادة لحياة أفضل، ومستقبلٍ أكمل، فهؤلاء هم المستشعرون لما فيه من الفضل، المستثمرون له على الحقيقة، قد أغذُّوا السير وجدُّوا في المسير لتحصيل بركاته، والنهل من خيراته، هؤلاء هم الخليقون بالرحمات، الحقيقون المكرمات، الجديرون بالعطايا والهبات، المبشرون حقًا بفتح أبواب الجنات، هؤلاء -بإذن الله- هم المعوَّل عليهم -بعد الله- في صلاح الأوضاع، واستنزال النصر، واستنهاض الهمم، والارتقاء للقمم، وكسب الجولات، في إسعاد المجتمعات، ومواجهة التحديات.

وما أحوجنا إلى هذا الجيل الإيماني اليوم ونحن نواجه المؤامرات من قوى الشر والطغيان، وإن الغيور ليتساءل بحرقة وأسى: بأي حالٍ يستقبل رمضان أولئك الصائمون من الفقراء والمعوزين، والمساكين والمعدمين، والمظلومين والمستضعفين؟ إن كنا في ستر وعافية، فلنتذكر من ضاقت به الحيلة، وتقطعت به السُّبل، وأوصدت أمامه الأبواب.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٧).

إن الواجب علينا -يا عباد الله- شكر نعمة الله على ما نعيشه من أمنٍ وأمـان، وأن نتفقـد إخوتنا ونقدم لهم ما نستطيعه من دعاءٍ وبذل وعطاء، لا سيما من ذوي المال واليسار، والغنى والاقتدار، في تلمُّس احتياجات إخوانهم الذين تربطهم بهم عقيدة الإسلام والجوار والرحم، كيف لا وقد حلَّ فينا شهر الخير والبركة، وهو شهر الجود والبذل والعطاء، وقـد كـان النبـي عليه الصلاة والسلام أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، بل يكون أجـود بـالخير من الريح المرسلة، فلنتحسس إخواننا المحتاجين مـن قريـبٍ وبعيـد، ونمـد لهـم يـد العـون والمساعدة، وهذا من واجب الأخوة ومقتضيات المروءة.

اللهم أهلَّ علينا شهر رمضان بالأمن والإيمان، والسلامة والإسـلام، والتوفيـق لمـا تحبـه وترضاه يا ذا الجلال والإكرام، واغفر اللهـم لنـا مـا سـلف وكـان، مـن الـذنوب والخطايـا والعصيان، اللهم اجعله شهر عزٍّ ونصرٍ للإسلام والمسلمين في كل مكان، اللهـم وأعنـا فيـه على الصيام والقيـام، واجعلنـا ممـن يصـومه ويقومـه إيمانًـا واحتسـابًا، إنـك خـير مسـؤول وأكرم مرتجى مأمول.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسـلمين مـن كـل ذنـب، فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله يمنُّ على عباده بمواسم الخيرات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب البريات، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله المبعوث بكريم السجايا وشريف الصفات، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرمات، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسماوات؛ أما بعد:

إذا رمضان أتى مقبلًا ... فأقبل فبالخير يُستقبلُ
لعلك تخطئه قابلًا ... وتأتي بعذر فلا يقبلُ

اتقوا الله -عباد الله- واشكروه على ما منّ به عليكم من قرب حلول شهر الصيام والقيام، واعلموا -يا رعاكم الله- أن إدراك شهر رمضان نعمة عظمى ومنة كبرى، فكم من أناسٍ حال بينهم وبينه هادم اللذات ومفرق الجماعات، ولقد كان رسولكم ﷺ يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان، يستحث بذلك عزائم المؤمنين، ويشرح صدور المسلمين للإقبال على طاعة رب العالمين، ويشوقهم ويرغبهم فيما عند الله من الفضل العظيم والخير العميم، فقد روى ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والبيهقي من حديث سلمان رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يومٍ من شعبان فقال: «أيها الناس: قد أظلكم شهرٌ كريم مبارك، شهرٌ فيه ليلة خيرٌ من ألف شهر...»(١).

وفي الحديث الآخر: «أتاكم شهرُ رمضانَ، شهرٌ مباركٌ، فرض اللهُ عليكم صيامَه، تُفتحُ فيه أبوابُ السماءِ، وتُغلقُ فيه أبوابُ الجحيمِ، و تُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ، لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ، من حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ»(٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان صُفِّدَتِ الشياطينُ ومَرَدةُ الجنِّ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير: أقبل، ويا باغي الشر: أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة»(٣).

---

(١) تمام المنة (٣٩٥) قال الألباني: (صحيح لغيره).
(٢) صحيح الترغيب (٩٩٩).
(٣) صحيح الجامع (٧٥٩).

أيها الأحبة: إن شهر رمضان هو شهر القرآن، فينبغي أن يكثر العبد المسلم من قراءته، وقد كان من حال السلف العناية بكتاب الله، فكان جبريل يدارس النبي القرآن في رمضان، وكان عثمان بن عفان يختم القرآن كل يوم مرة، وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع، وبعضهم في كل عشر، فكانوا يقرءون القرآن في الصلاة وفي غيرها، قال مسبِّح بن سعيد: (كان محمد بن إسماعيل البخاري يختم في رمضان في النهار كل يوم ختمة، ويقوم بعد التراويح كل ثلاث ليالٍ بختمة).

فيا من هجر كتاب الله طوال العام، هذه فرصة لأن تفتح صفحةً بيضاء وتعقد عهدًا وثيقًا مع القرآن، فإنه روح الحياة، وحياة الروح ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، وهو المبارك، وما زاحم القرآن شيئًا إلا باركه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، فلا تكن ممن علا الران قلوبهم، وأقفلت الغفلة أفئدتهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، ولا تكن ممن يشكوهم النبي يوم القيامة إلى ربه بهجرهم كتاب الله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]، اجعل القرآن ربيعًا لقلبك، ونورًا لصدرك، وجلاء لحزنك، وذهابًا لهمك وغمك، وتسلية وتزكية لنفسك.

تأسَّ بنبيك ﷺ، فقد كان إذا جاء رمضان استعد له، لا بالمآكل والمشارب، بل بالطاعة والعبادة والجود والسخاء، فإذا هو -مع ربه- العبدُ الطائعُ والمنيبُ الخاشعُ، ومع عباده الرسولُ الجائعُ السخيُّ الجوادُ الكريمُ.

وأعدوا أنفسكم للتخلق بأخلاقه، والاستفادة من حكمه وأسراره، فيا من يريد تجارة لن تبور، ورزقًا لا ينفد، وربحًا لا يحد ولا يعد: في هذا الشهر تدرك، وبالصيام فيه تلحق بركب الفائزين، ها هي سوق الخير نصبت فأين المتاجرون؟! وساحة العفو اتسعت فأين المتنافسون؟!

وهمسة محبٍ ناصح في أذن كل من يواقع معصية، أو يقترف خطيئة، إن شهر رمضان فرصة للإقلاع والندم والتوبة والإنابة، وهو مدرسة الصبر والتحمل والقوة والإرادة، فلنبادر جميعًا إلى الكف عن الوقوع في أي لونٍ من ألوان المحرمات في حقوق الله أو في حقوق عباد

الله، لاسيما والأجواء الإيمانية والأوقات الروحانية تعين على ذلك، كيف لا والعمر قصير، والأجل يأتي بغتة. والله المستعان.

كما أن رمضان دعوة وذكرى للقائمين على وسائل الإعلام، والمسؤولين عن القنوات الفضائية، أن يتقوا الله في الأمة في هذا الشهر الكريم، فيبثوا الخير والفضيلة، ويكفوا عن الشر والرذيلة، تأدبًا مع قدسية الزمان، ورعاية لحرمة شهر رمضان، هذا إن رُمنا الاستفادة من هذا الشهر الكريم، وإننا لفاعلون إن شاء الله.

هيا أيها المؤمنون: قد فتحت أبواب الجنة، فأين الراغبون؟!

ويا أيها المذنبون: قد أغلقت أبواب النار، فأين التائبون توبة صادقة نصوحًا شاملة لكل جوانب الحياة؟!

قال الحسن البصري: (إن الله جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب اللاهي، في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون).

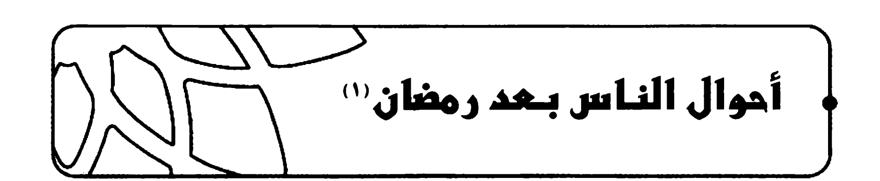
فأروا الله من أنفسكم خيرًا، وتذكروا أنها هو أيام معدودات، وساعات تمر كلمح البصر، فاجعلوا رمضانكم هذا ليس كأي رمضان مضى، وافتحوا فيه صفحة جديدة من حياتكم، مسطرة بأحرف الخير والبر والتقوى والعمل الصالح.

أتى رمضان مزرعة العبادِ ... لتطهير القلوب من الفسادِ
فأدِّ حقوقه قولًا وفعلًا ... وزادك فاتخذه إلى المعادِ
فمن زرع الحبوب وما سقاها ... تأوه نادمًا يوم الحصادِ

هذا، وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على خير الورى وأفضل من وطئ الثرى، كما أمركم بذلك المولى جل وعلا، فقال تعالى قولًا كريمًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].







أحوال الناس بعد رمضان(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله مُقلِّب الأيام والشهور، والسنين والدهور، كريمٍ ودود، غفورٍ شكور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله الحريص الصبور، دعا فأبلغ، وبشَّر وأنذر، وبلَّغ رسالة ربه في جميع الأمور، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الميامين البدور، وعلى أصحابه أهل البرِّ والأجور، ومن تبعهم بإحسان ما سطع ضياءٌ، ولاحَ نور.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه، والثبات على دينه، والعزيمة على الرشد، والغنيمة من كل برٍّ، وإياكم والقصور والفتور؛ فإنهما يُهلِكان العبد ويُقعِدانه عن التزوُّد بمعالي الأمور: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧].

أيها المسلمون: الفرص الثمينة ما لفواتها عِوَض، وإن انتهازها لدليلٌ جليٌّ على قوة الإرادة النابعة عن عزمٍ مُوفَّق، ومن فرِح بالبطالة جَبُن عن العمل، ولا يغُرنَّ المرء رغباتُه الصالحة مُجرَّدة عن العمل، فإنه لن يستفيد منها إلا إذا انتهز كلَّ فرصةٍ سانحةٍ له، وعموم الأعمال الصالحة لا تُكلِّف المرء وقتًا طويلًا ما لم يشُقَّ على نفسه ويُرهِقها عُسْرًا.

ولذا -عباد الله- فإن الميدان سباق، والأوقات تُنتَهَب، وما فات ما فات إلا بالخلود إلى الكسل، ولا نِيلَ خيرٌ إلا بالجِدِّ والعزم، وثمرة الأمرَيْن -عباد الله- أنَّ تعب المُحصِّل للفضائل راحةٌ في المعنى، وراحة المُقصِّر في طلبها تعبٌ وشيءٌ يُعاب عليه إن كان ثَمَّ فهمٌ وإدراك.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

والدنيا كلها إنما تُراد لتُعبَر لا لتُعمَر، وسيُودَع كلُّ واحدٍ منَّا قبره ولَمَّا يقضِ لُبانتَه منها، ومن ثَمَّ يأسف على فقد ما وُجودُه أنفع له في حين إن تأسُّفه ربما يكون نوع عقوبةٍ عاجلةٍ على تفريطه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ [الزمر:٥٦-٥٨].

وما هذه الدنيا -عباد الله- إلا كمائدةٍ شِبَعها قصير، وجوعها طويل، ومن سلك الطريق الواضح دون فتورٍ أو مللٍ ورَدَ الماء فنَهَلَ منه رِيًّا، ومن خالفَ فقد وقع في التيه ولاتَ ساعة ارتواء.

أيها المسلمون: إن شهر رمضان قد انصرم وانمَحَق، وتفرَّق نظامُه بعد أن اتَّسَق، وانطوَت صحيفةُ ذلك السوق بعد عرضٍ وطلب، وبيعٍ وشراء، وربحٍ وخسارة، وغبنٍ وغِبطة، وصارت أحوال الناس في رمضان وبعد رمضان ثلاثة أضرُب:

فضَربٌ من الناس: ظنُّوا أن الله لا يُعبَد إلا في رمضان، ولا يُطاع إلا في رمضان، ولا محارم له إلا في رمضان، فبئس القوم هؤلاء الذين لا يعرفون الله إلا في رمضان، وبئس القوم هم إذ لم يربحوا من صومهم إلا الجوع والعطش، ولا من صلاتهم إلا التعب والسهر: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣]. قيل لبشر الحافي: إن قومًا يتعبدون في رمضان ويجتهدون في الأعمال، فإذا انسلخ تركوا! قال: بئس القوم قومٌ لا يعرفون الله إلا في رمضان.

وضَربٌ آخر من الناس: حمَّلوا أنفسهم ما لا تُطيق، فأثقَلوا عليها في العبادة فوق ما أراده الله لهم، وراغَموها دون تلطُّف، وإن مما لا شكَّ فيه أن الرواحل إذا قطَعَت مرحلتين في مرحلةٍ واحدة فهي خَليقةٌ بأن تقِف، والطريق الشاقُّ ينبغي أن يُقطَع بألطفِ ممكنٍ، ولذا فإن أخذ الراحة للجدِّ جِدٌّ، وغوصُ البحَّار في طلبِ الدُّرِّ صعودٌ له، ومن أراد البيِّنة على ذلك فليستمِع إلى قول النبي ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغِلوا فيه برِفق»[1].

---

(١) صحيح الجامع (٢٢٤٦).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس: خذوا من الأعمال ما تُطيقون، فإن الله لا يمَلُّ حتى تملُّوا، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دامَ وإن قلَّ»(١).

أما الضَّربُ الثالثُ -عباد الله-: فهم أولئك المؤمنون المُلهَمُون، الخائفون الراجُون، الراغبون الراهبون، الذين توسَّطوا يوم تبايَن آخرون، واعتدلوا يوم شذَّ مغرورون، بواطنُهم كظواهرهم، رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات من عُبَّاد ربِّ الشهور كلها، فهم يعبدون الله في كل حين، ويعلمون أن الله اختصَّ رمضان بزيادة فضلٍ وعملٍ لا يُلغِي عملَ الشهور كلها، ولا يستهينُ بالعمل في غيره، يعلمون أن رسول الله ﷺ جَوادٌ في كل أحيانه، وإنما يزداد جُوده في رمضان.

ولأجل هذا -عباد الله- فإن هناك عباداتٍ هي من الثوابت التي لا تتغيَّر بعد رمضان؛ كالصلاة، والزكاة، وصوم النوافل، والصدقة، والدعاء، وأمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عن منكر، وغير ذلكم كثير.

ناهيكم -عباد الله- عن ثابت التوبة الذي لا يتغيَّر؛ بل هو مطلوبٌ في كل حينٍ وآن، كما قال جل وعلا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقد كان النبي ﷺ يتأوَّلها بقوله: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»(٢).

ألا فاعلموا -عباد الله- أنكم قد علمتم ما سمعتم، ولقد أحسن من انتهى إلى ما سمع أو علِم، ولقد ذُقتُم طعم العبادة في رمضان، ولذَّة القُرب من الله، فلا تُعكِّروا هذا الصَّفوَ بالكَدَر، ولا تكدّروا هذا الهناءَ بالشقاء، ولا تفسدوا القُرب بالبُعْد: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل:٩٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلتُ ما قلت، إن صوابًا فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنه كان غفَّارًا.

---

(١) رواه البخاري (٥٨٦١) ومسلم (٧٨٢).

(٢) صحيح ابن ماجه (٣٠٩١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فاتقوا الله -عباد الله-، سلوا الله الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وسلوه القبول لما تيسَّر من يسير الطاعات في رمضان، فقد قال معلى بن الفضل: (كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم).

وخرج عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في يوم عيد الفطر، فقال في خطبته: «أيها الناس! إنكم صمتم لله ثلاثين يومًا، وقمتم ثلاثين ليلة، وخرجتم اليوم تطلبون من الله أن يتقبل منكم».

أيها الأحبة: لا ترجعوا بعد رمضان إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفِطام، فما الرَّضَاع إلا للطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، وعليكم بالصبر على مرارة الفِطام، والعقد على العافية والمعافاة؛ لأن النكسة أصعب من المرض، والحَوْر بعد الكَوْر بلاءٌ وانهيار.

ولذا فإن من أعظم ما يُعين المرء على الثبات، وحصد الأجور الكبيرة في مُقابل العمل الصغير: ما جاء في أجور صيام النوافل التي يعلم المُقصِّر من خلالها أنه سيكون حِلْسَ - أي: إِلْفَ - تفريطٍ يجعله من القَعَدَةِ المتخلِّفين إذا هو لم يُبادر ويتدثَّر بفضلها ونورها، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «مَن صام رمضانَ وأَتْبَعَهُ سِتًّا من شوالٍ، كان كصومِ الدهرِ»[(١)]، ووجه ذلك -عباد الله- أن الله جل وعلا جعل الحسنة بعشر أمثالها، فصيامُ رمضان يُعدُّ مُضاعفًا بعشرة شهور، وصيام الستّ بستين يومًا، فيتحصَّل من ذلكم أجر صيام سنةٍ كاملة.

وفي الحديث الآخر: أن النبي ﷺ قال عن صيام ثلاثة من كل شهر -وهي أيام البيض-: «إنها كصيام الدهر»[(٢)]، وعدد أيام البيض في السنة مع ستٍّ من شوال اثنان وأربعون يومًا، فمن صام رمضان، وستًّا من شوال، وأيام البيض في سنةٍ واحدة؛ صار كمن صام سنتين كاملتين، فيتحصَّل بصيام اثنين وسبعين يومًا أجرُ سبعمائةٍ وعشرين يومًا: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ

(١) (٦٣٢٧).

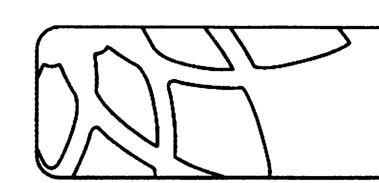
(٢) صحيح الترغيب (١٠٤٠).

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

هذا؛ وصلُّوا -رحمكم الله- على خير البرية، وأزكى البشرية: محمد بن عبد الله صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنَّى بملائكته المُسبِّحة بقُدسه، وأيَّه بكم أيها المؤمنون، فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وزِد وبارِك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وارضَ اللهم عن خلفائه الأربعة: أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن أمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن أجمعين-، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين.





الحج أحكام وآداب[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله؛ بَوَّأ لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مكان البيت العتيق، وجمع لمن قصده خالصًا مخلصًا أسباب التوفيق، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، يسَّر السبيل لبيته المحرم؛ فجاءوا حُجاجًا وعُمارًا من كل فجٍ عميقٍ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً بها المخرج من كل ضيق، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، ذو المجد المؤثَّل والنسب العريق، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فتقوى الله سبيل النجاة، وطريق الفلاح، فاتقوه رحمكم الله لعلكم تفلحون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيها الإخوة! في هذه الأيام المباركة يتجه المسلمون إلى بيت الله الحرام؛ لأداء فريضة من فرائض الله، تاركين في سبيل ذلك أوطانهم، وأولادهم، وأموالهم، متجهين إلى مكان واحد، في زمن واحد؛ قاصدين ربًا واحدًا، وهدفًا واحدًا؛ فإذا وصلوا إلى الميقات، خلعوا ثيابهم المألوفة، ولبس كل واحد منهم إزارًا ورداءً شبيهة بأكفان الموتى، وكأنهم مسافرون إلى الدار الآخرة، واقفون في عرصات القيامة، لا فرق في ذلك بين الصغير والكبير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأبيض والأسود، والعربي والعجمي، فالكل جاء جوًا وبرًا وبحرًا؛ لحضور هذا التجمع الإسلامي الكبير؛ استجابة لنداء الله عَزَّوَجَلَّ على لسان خليله: ﴿وَأَذِّن فِي

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

ﱡﭐٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ ﱠ [الحج:٢٧-٢٨]. ويدخلون في حرم الله مُحرمين خاضعين خاشعين متذللين، قد تركوا ما فاتهم، واتجهوا إلى الله بقلوبهم وأبدانهم، ويترقبون في تلك المشاعر العظيمة من الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ومنى، ورمي الجمار، وذبح الهدي على اسم الله، والحلق أو التقصير وغيرها من أعمال الحج... إلى أن يُودعوا البيت، كل ذلك بقلوبٍ خاشعة، وأعينٍ دامعة، وألسنةٍ مكبرة مهللة ملبية داعية.

يالها من مواقف عظيمة! تُسكب فيها العبرات، ويُتاب فيها من السيئات، ويُكثر فيها من الصالحات؛ لتقال العثرات، وتُغفر الخطيئات، وتُستر الزلات بعفو الله ولطفه.

إنها أرضٌ مباركة ضمَّت أروع حوادث التاريخ، وأعظم ملاحم الإنسانية، أرض تروي أوديتها وجبالها ووهادها ورمالها تاريخًا عريقًا، زاخرًا بالبطولات، وألوان الجهاد والانتصارات.

أرضٌ تغيرت بسيرتها ومسيرتها معالم التاريخ، وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق وأسمى المراتب.

كم وقف بساحاتها من الجموع؟! وكم سالت على ثراها من الدموع؟! وكم ذابت في عرصاتها فوارق الأجناس واللغات؟! وزالت عندها حواجز العنصريات والعصبيات؟!

كم تآلفت فوقها قلوب! وفُرِّجت على ثراها كروب! وحُطت فيها من أوزار وغُفرت ذنوب؟!

كم امتزجت فيها دموع المذنبين! وتعانقت أصوات المستغفرين! وتوحدت رغبات الراغبين؟!

أيها المسلمون: يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]. إن الحج عبادة عظيمة تتداخل فيها أنواع من العبادات لا يتيسر تداخلها في غيره: عبادة في المال، وعبادة في البدن، أعمال بالقلوب والألسنة والجوارح، جَمعت أنواعًا من التعبد عملًا وقولًا ونيةً.

وهذه طائفة من الآداب والتوجيهات بَسَط أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ القول فيها، وحثوا مريد الحج على مراعاتها، والحفاظ عليها؛ تَلَمُّسًا للحج المبرور وسعيًا للعمل المقبول والسعي المشكور، الذي يرجع منه الحاج كيوم ولدته أمه من الذنوب.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، ويقول ﷺ في الحديث الصحيح: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[٢]. «وسئل النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[٣].

وأول تلك الآداب التي ينبغي أن يتمثلها في كل عبادة لله - ومنها الحج -إخلاص العمل لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، وعبادة الله وفق ما شرع الله، فلا رياء ولا سمعة، ولا جهل ولا إخلال بالسنة، أولئك هم الذين يرجون لقاء ربهم، وأولئك هم المخلصون الذين يتقبل الله أعمالهم، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]. وهم المتقون الذين يرجون قبول أعمالهم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ويدخل في هذا أن لا يتفاخر الحاج أو يكثر من ذكر كونه قد وفق لحج هذا العام، فقد كان الصالحون يُخفون ذلك لئلا يذهب عليهم ثواب حجهم.

وحري بمن عزم على السفر على الحج أن يتحرّى الحلال في نفقته، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، ثم يوصي أهله بتقوى الله، ويكتب وصيته، وماله وما عليه، ويبادر التوبة النصوح ورد المظالم وقضاء الديون، لأنه لا يدري ما يعرض له، كما أن عليه اختيار الرفقة الصالحة، ومعرفة أحكام السفر والحج.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

فإذا وصل الميقات سُنَّ له أن يتحرى الاقتداء بالنبي ﷺ من أول شروعه بـالإحرام وأداء المناسك؛ كما قال ﷺ لأصحابه في حجة الوادع: «خذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[1].

فيغسل ويتنظف، ويأخذ من شعره وأظافره ما يحتاج إلى أخذ، ليس هـذا مـن خصـائص الإحرام، ولكنه مطلوب عند الحاجة، وهو سنة، ولذا قال بعض أهل العلم: أما من كانت له أضحية وعزم على الحج فإنه لا يأخذ من شعره وأظـافره إذا أراد الإحـرام، لأن هـذا سـنة، فيرجح جانب الترك المنهي عنه على جانب الأخذ المسنون، وهذا بخلاف التقصـير أو الحلـق للعمرة أو للحج، فإنه نسك لا بد منـه، فـإذا اغتسـل، وتنظـف، وتطيـب في جسـده - دون إحرامه - ولبس ثياب الإحرام؛ استحب له أن يحرم عقيب صلاة مفروضـة إن كانـت، وإلا فليس للإحرام صلاة تخصه كما رجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

واستحب له كذلك قبل الدخول في الإحرام أن يحمـد الله، ويسـبحه، ويكـبره، لحـديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «ثم ركب رسول الله ﷺ حتى استوت به راحلته عـلى البيـداء، حمـد الله، وسبّح، وكبّر، ثم أهلَّ بحج وعمرة»[2]. وهذا من السنن التي قلّ من يتفطن لهـا، ولـذا قـال الحافظ ابن حجر: (وهذا الحكم، وهو استحباب التسبيح، وما ذُكر معه قبل الإهلال قلّ مـن تعرّض لذكره مع ثبوته). ثم ينوي بقلبه الدخول في النُّسُك الذي يريد، فإن كان قارنًـا قـال: لبيك عمرة وحجًا، وإن كان متمتعًا قال: لبيك عمرة متمتعا بهـا إلى الحـج، وإن كـان مفـردًا قال: لبيك حجة.

ومعنى التمتع: أن يحرم بالعمرة ثم يفرغ منها ويتحلل، ثم يحرم بـالحج في عامـه، وعليـه هدي كما أن عليه طوافًا وسعيًا للعمرة، وطوافًا وسعيًا آخر للحج، ولكثرة أعماله أمـر النبـي ﷺ به أصحابه، واعتبره عدد من العلماء أفضل أنواع النسك.

---

(1) رواه مسلم (١٢٩٧).

(2) رواه البخاري (١٥٥١).

أما القِران: فمعناه أن يحرم بالحج والعمرة جميعًا، وعليه هدي كالمتمتع، وليس عليه إلا سعي واحد بين الصفا والمروة، فإن سعى مع طواف القدوم كفاه عن سعي الحج مع طواف الحج أيام التشريق، لأن هذا الطواف ركن في الحج لجميع الحجاج، ولا يبدأ إلا في يوم العيد.

وأما الإفراد: فهو أن يحرم بالحج وحده، وليس عليه هدي، أما في الطواف والسعي فهو مثل القارن ليس عليه إلا سعي واحد، وأما الطواف فيلزمه طواف الحج في أيام التشريق، ولو طاف للقدوم.

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض الحجاج إعلانهم النية، كأن يقول: اللهم إني نويت الإحرام بالحج متمتعًا، أو قارنًا، أو مُفرِدًا، فهذا لا ينبغي؛ لأن النية محلها القلب، والتلفظ بها بدعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تنازع العلماء هل يستحب أن يتكلم بذلك، كما تنازعوا هل يستحب التلفظ بالنية في الصلاة؟ والصواب المقطوع به: أنه لا يستحب شيء من ذلك، فإن النبي ﷺ لم يشرع للمسلمين شيئًا من ذلك، ولا كان يتكلم قبل التكبير بشيء من ألفاظ النية، لا هو ولا أصحابه).

وهذا التلفظ بالنية المنهي عنه غير رفع الصوت بالتلبية في النسك الذي يريد - كما تقدم - فهذا مطلوب، فيكتفي الحاج المتمتع بالقول (لبيك عمرة متمتعا بها إلى الحج)، والقارن يقول: (لبيك عمرة وحجًا)، ويقول المفرد: (لبيك حجًا).

ويسن رفع الصوت بالتلبية للرجال، وتخفيها النساء، وهي من شعائر الحج، يقول النبي ﷺ «ما من مُلَبٍّ يلبي إلا لبّى ما عن يمينه وعن شماله من شجر وحجر، حتى تنقطع الأرض من هنا وهناك»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أمرني جبريل برفع الصوت في الإهلال فإنه من شعائر الحج»[2].

فإذا وصل الحاج إلى البيت قدّم رجله اليمنى، وقال ما ورد عند دخول المسجد، ثم قصد الحجر إن تيسر له ذلك دون مزاحمة، وإيذاء الآخرين، وقبله وإلا استلمه بيده اليمنى، فإن لم يتيسر له يبدأ الطواف قائلا: (بسم الله، والله اكبر) اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء

(١) صحيح الترغيب (١١٣٤).

(٢) السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٨٣).

بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد ﷺ، ويكثر من الدعاء والذكر وتلاوة القرآن بقلب خاشع متأمل، وليس للطواف أدعية مخصوصة بكل شوط.

ومن أخطاء بعض الحجاج: أنهم يصطحبون معهم حال الطواف أدعية مكتوبة قد لا يفقهون معناها، بل ولا يحسنون نطقها، ولو أنهم دعوا الله بما يعرفونه ويحفظونه ويفقهونه من الأدعية لكان أولى لهم وأحرى باستجابة دعائهم، لأن المهم حضور القلب وصدق الدعوة، لا لفظها وصياغتها.

فإذا وصل الحاج إلى الركن اليماني استلمه من غير تقبيل إن تيسر، ويقرأ بين الركنين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

وكلما مر بالحجر الأسود كبر مرة واحدة، وأشار إليه بيده اليمنى إن لم يتيسر تقبيله ولا استلامه، فلا يتكلف في المزاحمة لتقبيله، بل عند الزحام والمشقة يكون الأولى ترك ذلك تيسيرًا على نفسه وإخوانه.

ومما يخطئ فيه بعض الحجاج أنهم يتمسحون بجوانب من البيت أو المقام، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين دون الشاميين فإن النبي ﷺ استلمهما لأنهما على قواعد ابراهيم، والآخران هما في داخل البيت.. وأما سائر جوانب البيت ومقام إبراهيم، وسائر ما في الارض من المساجد وحيطانها، ومقابر الأنبياء والصالحين كحجرة نبينا ﷺ، ومغارة إبراهيم... وصخرة بيت المقدس فلا تُستلم ولا تُقبّل باتفاق الأئمة).

ويستحب في طواف القدوم الاضطباع والرَّمَل، والاضطباع: أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه الأيمن، وطرفه على عاتقه الأيسر، فيكون المنكب الأيمن مكشوفًا إظهارا للجلادة في مقام العبادة، ويظن البعض أن الاضطباع يبقى منذ أن يُحرم إلى أن يخلع ثياب الإحرام، وهذا خطأ، فإنما محل الاضطباع الطواف فقط، قال ابن عابدين: (والمسنون الاضطباع قبيل الطواف إلى انتهائه لا غير).

أما الرَّمَل: فهو إسراع المشي مع تقارُب الخُطى من غير وثب، ويكون في الأشواط الثلاثة الأولى فقط إن تيسّر، فإذا فرغ من الطواف سوَّى رداءه وصلى ركعتي الطواف خلف المقام أو

في أي مكان من البيت إن كان هناك زحام، فيقرأ في الركعة الأولى (الكافرون) وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

يرقى على الصفا إن تيسّر له، أو يقف عنده ويقرأ قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، ويقول: أبدأ بما بدأ الله به، ويستحب أن يستقبل القبلة، ويحمد الله، ويكبره، ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده؛ يكرر هذا ثلاث مرات، ويدعو بين ذلك رافعًا يديه، كما ثبت ذلك من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]. وهذا الذكر والدعاء قلّ من يتمسك به مع ثبوته. ثم يسعى إلى المروة، ويفعل على المروة كذلك، ماعدا قراءة الآية فإنه لا يكررها، وإنما يقرؤها في مبدأ الشوط الأول، ويسرع بين العلمين الأخضرين، ويدعو ويذكر الله بما شاء، أو يتلو القرآن، ومن الأدعية الثابتة في السعي عن ابن عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رب اغفر وارحم إنك أنت الأعز الأكرم».

وعلى الحاج أن يتذكر بشكل عام عظمة هذه المشاعر ولا يغفل عن الحكمة من هذه المناسك، ومنها:

* أن يستشعر حاجته إلى الله وفقره إليه كحاجة وفقر أم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك الكرب العظيم.

* تذكر أن من كان يطيع الله كإبراهيم فإنه لا يضيعه ولا يخيب دعاءه، وهذه حكمة بالغة.

يقول: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

---

(١) صحيح مسلم رقم (١٢١٨).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإيمان: فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، أحرم من لم يكن محرمًا بالحج، فإذا كان فجر التاسع تحرك الحجاج إلى عرفات و «الحج عرفة» كما قال ﷺ(١)، والوقوف بها يبدأ من زوال الشمس إلى الغروب.

وينبغي استشعار عظمة هذا اليوم واستثماره بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن مع حضور القلب وخضوعه، فما رئي الشيطان أحقر ولا أذل منه في يوم عرفة، إلا ما جاء عنه في يوم بدر.

قال عليه الصلاة والسلام: «خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(٢).

ويخطئ بعض الحجاج في عدم استثمار هذا اليوم وإضاعته بكثرة الأحاديث التي لا قيمة لها، ويخطئ آخرون بإضاعة وقتهم في صعود جبل الرحمة، فهو لا أصل له ولا فضيلة فيه على بقية عرفة، قال الشنقيطي: (وما قاله الطبري والماوردي في استحباب ذلك لا يعوّل عليه).

فإذا تحقق الغروب سار الحجاج إلى مزدلفة ملبين بسكينة ووقار، فإذا وصلوا مزدلفة صلوا بها المغرب والعشاء جمعا وقصرا، ثم يبيتون بها، حتى إذا أصبحوا صلوا الفجر في أول وقتها، ثم يستقبلون القبلة يذكرون الله تعالى ويدعونه حتى يسفر الصبح جدا، ثم يدفعون إلى منى قبل طلوع الشمس مُلبّين وعليهم السكينة، والمبيت بمزدلفة واجب لا ينبغي التساهل فيه، وقد أذن النبي ﷺ للضعفاء أو أصحاب الأعذار بالدفع منها بعد مغيب القمر. فإذا

---

(١) صحيح النسائي (٣٠١٦).

(٢) صحيح الترمذي (٣٥٨٥).

وصل الحجاج إلى منى رموا جمرة العقبة - وهي أقرب الجمرات إلى مكة - بسبع حصيات، ولا يرمون غيرها في هذا اليوم.

أما اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر لمن تأخر فيرمي الجمرات الثلاث مبتدئًا بالصغرى، ثم الوسطى، ثم جمرة العقبة، وهنا عدة أمور يحسن التنبيه عليها في الرمي:

- أن الرمي كغيره من أعمال الحج لإقامة ذكر الله - كما ورد في الحديث - وهنا حكمة خاصة، ألا وهي تذكر موقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أتى المناسك فاعترض له الشيطان في جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الارض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الارض، ثم عرض له في الجمرة الثالثة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الشيطانَ ترجمون، وملةَ أبيكم تتبعون». ومن السنة بعد رمي الجمرة الأولى والثانية التوقف بعدهما للدعاء، فتلك من السنن المهملة عند بعض الحجاج، أما جمرة العقبة فلا دعاء عندها لا يوم للنحر ولا في أيام التشريق.

ويجوز تأخير الرمي في اليوم الحادي عشر إلى اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر، لأن أيام التشريق كلها وقت للرمي، فيرمي عن الحادي عشر ثم يرجع ويبدأ الرمي عن اليوم الثاني عشر، وهذا أولى من التوكيل.

كما يجوز الرمى ليلًا، قال النووي: (الرمي في الليل فيه وجهان، أصحُّهما الجواز).

وبعد رمي جمرة العقبة ينحر المتمتع والقارن هديه في الحرم، وكل أيام التشريق وقت للهدي.

وينتبه للسنن المشروعة في الهدي، ويأكل ويهدي ويتصدق منها ثم يحلق رأسه أو يقصر، والحلق أفضل، فإذا أتم الحجاج رمي الجمار في اليوم الثاني عشر لمن تعجل، وفي الثالث عشر لمن تأخر، وعلى من أراد التعجل أن يخرج قبل غروب الشمس. ثم يغدوا إلى البيت ليطوفوا طواف الوداع لمن طاف للحج وسعى، ومن أخر طواف الإفاضة - وهو طواف الحج - فطافه عند الخروج أجزأ عن الوداع، لكن ينويه أيضًا للحج لأنه ركن، وطواف الوداع يدخل ضمنه.



وعلى الحاج أن يسال الله ويبتهل إليه دائما بالدعاء وطلب القبول، ومغفرة الذنوب، فتلك مواطن تستجاب فيها الدعوات، وتسكب فيها العبرات، ويكفر الله بها السيئات.

وعلى الحاج كذلك أن يتعرف على إخوانه المسلمين، ويعاون المحتاج منهم، ويطعم الجائع، ويسقي الظمآن، وينصح ويعلم الجاهل، فالحج فرصة لتعارف المسلمين، وتآلفهم، وتعاونهم على البر والتقوى.

أيها المسلمون: من قدر على الحج فينبغي أن يسارع إليه ولا يحرم نفسه المبادرة إليه، فإن خير البر عاجله، ولا يدري الإنسان ما يعرض له من الشواغل والقواطع والموانع.

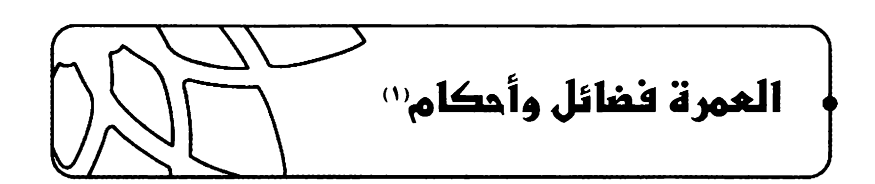
ثم اعلموا رحمكم الله أنه ستظلكم عما قريب أيام فاضلة عند الله، ألا وهي عشر ذي الحجة، أقسم الله بها في كتابه فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١-٢]. وأخبر ﷺ عن فضلها بقوله: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله منه في هذه الأيام العشر، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله، ولم يرجع من ذلك بشيء»(١). فاغتنموا هذه الأيام بأنواع الطاعات، ولا تكن الأيام عندكم سواء، واسألوا الله التوبة والمغفرة والقبول، وألحوا على الله بإصلاح أحوال المسلمين، ونصرة هذا الدين، فان الله سميع مجيب.

واعلموا – رحمكم الله – أنه يجب على من أراد أن يضحى أن يمسك عن الأخذ من شعره وظفره وبشرته، كما أخبر النبي ﷺ.

اللهم هيء للمسلمين من أمرهم رشدًا، وتقبل منهم عباداتهم إنك سميع الدعاء.



(١) صحيح الترمذي (٧٥٧).



العمرة فضائل وأحكام[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، خلق خلقه أطوارًا، وصرفهم كيف شاء سبحانه عزةً واقتدارًا، أنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله إعذارًا وإنذارًا، أحمد ربي وأستغفره إنه كان غفارًا، وأثني عليه بما هو أهله وأشكره، أسبغ علينا نعمه مدرارًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من يرجو لله وقارًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، نصب به الدليل، وأنار به السبيل، فتبدلت الظلمات أنوارًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا على الهدى أعلامًا، وعلى الحق منارًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم مهاجرين وأنصارًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما أعقب ليل نهارًا.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، فعليكم بتقوى الله فالزموها، وبادروا بالأعمال الصالحة والتزموها، الزمان يطوي مديد الأعمار، وكل مَنْ عليها راحل عن هذه الدار، التسويف لا يورث إلا حسرة وندمًا، وطول العمر لا يُعْقِب إلا هرمًا وسقمًا، فواعجبًا لنفوس طال على الدنيا إقبالها، وغلب عن الآخرة إعراضها وإدبارها! ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

عباد الله: يقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]. وهذا أمر من الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإتمام العمرة له سبحانه، فالعمرة شعيرة من شعائر ديننا الحنيف.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

والعمـرة في لغـة العـرب: الزيـارة، وهـي في اصـطلاح فقهائنـا: زيـارة البيـت الحـرام لأداء مناسك مخصوصة.

وقد أجمع العلماء على مشروعية العمرة، ولكـنهم اختلفـوا في حكمهـا، فقـال بعضـهم بوجوبها، والصحيح قول من قال باستحبابها. وأمـا قـول الله تعـالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦] فلا يدل على وجوبها، بل غاية ما في الآية الكريمة الأمر بإتمامها لمن شرع فيها.

عباد الله: العمرة طاعة عظيمة، وهي والله غنيمة، فقد جاء في السنة النبوية المطهرة ما يدل على عظيم فضلها وجزيل ثوابها، فمـن فضـائلها أنهـا تمحـو الآثـام وتكفـر الـذنوب، فعـن أبي هريرة أن رسول الله قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جـزاء إلا الجنة»[1] أخرجه الشيخان. وندب النبي إلى الإكثار منها؛ لأنها تنفي الذنوب والفقر عـن صاحبها، فقال: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فـإنهما ينفيـان الفقـر والـذنوب كـما ينفـي الكِـيرُ خَبَثَ الحديد والذهب»[2].

أيها المؤمنون: ليس للعمرة وقت معين، بل تقع في أي وقت من السنة ما عدا أيـام الحـج، وأفضل أوقاتها في رمضان؛ لقوله ﷺ: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي»[3]. فإن لم يتمكن المسلم من ذلك فليحاول القيام بهـا في ذي القعـدة؛ لأن النبـي اعتمـر أربـع مـرات جميعهـا في ذي القعدة.

ومن الأخطاء أن البعض يعتقد أن للعمرة في رجب ميزة معينة، وهذا لم يثبت فيه دليل.

وأما الوقت الذي ينبغي أن يكون بين العمرة والعمرة فقد قال الإمام أحمد لما سئل: كـم بـين العمـرتين؟ قـال: (ينتظـر حتـى يُحَمِّـمُ رأسـه، أي: يسـودّ بنبـات الشـعر عليـه) وذلك بعد الحلق.

---

(١) رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).
(٢) صحيح النسائي (٢٦٣٠).
(٣) رواه البخاري (١٧٦٤) ومسلم (٣٠٩٨).

عباد الله: ومن عزم على أداء هذه العبادة العظيمة فلينتبه لعدة أمور:

فمن ذلك: أن يخلص في عبادته؛ ولا يريد بعمله الدنيا أو الرياء والسمعة، لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

ومنها: أن يقف على أحكامها ويتعلم هدي النبي ﷺ فيها؛ لأن الله لا يقبل العمل إذا خالف هدي النبي ﷺ، ولذا قال النبي لأصحابه يوم حجة الوداع: «لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»(١).

ومنها التوبة ورد المظالم، قال ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضَى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار»(٢).

ومنها: أن يتزود لعمرته لئلا يريق ماء وجهه بسؤال الناس، كما في الحديث: «من تكفَّل لي أن لا يسأل شيئًا وأتكفّل له بالجنة؟» فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا(٣).

ومنها أن يتحرى المال الحلال في نفقته؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

عباد الله: وصفة العمرة أن يُحرم المعتمر من الميقات، فيتجرّد من لباسه، ويلبس الإزار والرداء، وله أن يتطيب في بدنه قبل أن ينوي الإحرام، وينبغي أن يختار البياض من الثياب، ولا يحل له أن يلبس الخُفّ إلا إذا لم يجد غيره، وليس للمرأة ثياب معينة لإحرامها، بل حجابها الشرعي هو إحرامها، لكنها لا تَنتَقِب ولا تلبس القفّازين؛ لقوله ﷺ:

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٣) صحيح الترغيب (٨١٣).



«لا تَنْتَقِب المحرمـة، ولا تلـبس القفّـازين»[1]. ولكـن إذا مـرَّ الرجـال بهـا سـترت وجههـا دون أن تنتقب.

ثم يشرع المعتمر في التلبية بعد أن يقول: لبيك اللهم عمرة، فيلبـي قـائلًا: لبيـك اللهـم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لـك والملـك، لا شريـك لـك. يكررهـا ويجهـر بهـا في الطرقـات، وهـذا هـو هـدي النبـي ﷺ، حتـى إذا بلـغ البيـت وبـدأ في الطواف قطع التلبية.

ويبدأ الطواف بمجرد دخوله إلى المسجد الحرام، والبداية تكون عند الحجر الأسود، فإن استطاع أن يستلمه استلمه وقبّله وكبّر، ثم بدأ طوافه، وإلا استلمه بعصا ونحوهـا وقبّـل مـا استلم به، وإن لم يتيسر له شيء من ذلك أشار إليه إشارة - دون أن يقبّل يديه - قـائلًا: بسـم الله، الله أكبر، ثم يبدأ الطواف ويجب أن يكون على طهارة.

فإذا جاء إلى الركن اليماني وهو الركن السابق للحجر الأسود استلمه بلا تقبيـل، ويقـول حين يطوف بينه وبين الحجر الأسود: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:٢٠١] ويكون طوافه بالبيت على طهارة.

وفي الطواف سُنّتان: الرَّمَل، وهو الإسراع في المشي في الأشواط الثلاثة الأولى مع تقارب الخطى. والاضْطِبَاع: وهو أن يجعل طرفي ردائه على كتفه الأيسـر، ويُبـدي الكتـف الأيمـن، ويكون هكـذا في الطـواف كلـه، فـإذا فـرغ مـن طوافـه أعـاد ثيابـه فـوق كتفـه، ولا يصـلي ركعتي الطواف مُضْطَبِعًا.

والمرأة إذا أحرمت ثم حاضت بقيت عـلى إحرامهـا حتـى تطهـر، ثـم تطـوف بالبيـت، ولا تطوف بحيضتها.

وإذا شك الطائف في عدد الأشواط بنى على الأقل، وإذا أقيمـت الصـلاة صـلى وأكمـل طوافه ولم يستأنف من جديـد، ولا يطـوف داخـل الحِجْـر الـذي يسـمى بحِجْـر إسـماعيل، وإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لا علاقة له به؛ فالحِجْر جزء من الكعبة.

---

(١) رواه البخاري (١٨٣٨).

فإذا فرغ من الطواف قصد المقام وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، وصلّى خلفه ركعتين إن تيسّر له ذلك، وإلا ففي أي مكان من المسجد، يقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وسورة الكافرون، وفي الثانية بالفاتحة والإخلاص، وليشرب من ماء زمزم ويستلم الحَجَر الأسود إن تيسر له ذلك.

ثم يذهب إلى جبل الصفا، ويقرأ قبيل الوصول إليه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]، ويقول: أبدأ بما بدأ الله به. ثم يرقى الصفا حتى يعاين الكعبة، فيستقبلها ويرفع يديه قائلًا: الله أكبر ثلاثًا لا إله إلا وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم يدعو بخيري الدنيا والآخرة، ثم يقول الذكر، ثم يدعو، ثم يكرر الذكر، ثم ينصرف ساعيًا إلى المروة، فإذا وصل بين العلمين الأخضرين أسرع من غير أن يؤذي أحدًا، فإن لم يتمكن من ذلك إلا بأذية بعض المسلمين فلا يركض؛ لأن ترك الأذية واجب، والركض مستحب، والواجب مقدم على المستحب.

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم وللمؤمنين، فيا فوز المستغفرين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: يسعى المعتمر سبعة أشواط، الذهاب من الصفا إلى المروة شوط، والإياب منها إلى الصفا شوط، فيبدأ بالصفا وينتهي بالمروة، فإذا فرغ من السعي خرج من المروة فحلق أو قصر، والحلق أفضل؛ لأن النبي ﷺ دعا للمحلّقين ثلاث مرات، وللمقصّرين مرة واحدة. والواجب أن يعمّ المعتمر كل شعر رأسه سواء بالحلق أو التقصير، أما تقصير بعض الشعر من بعض أجزاء الرأس فهذا ليس من هدي النبي في شيء. وأما المرأة فليس عليها حلق، وإنما تأخذ من شعرها قَدْر أُنملة من كل ضَفِيرة فيه.

عباد الله: ومما ينبغي التنبه له أن المرأة يسقط عنها الحج والعمرة إذا لم تجد المحرم، تيسيرًا عليها وحفظًا لها، فلا يجوز لها الحج أو العمرة بلا زوج أو محرم، فعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم»، فقال رجل: يا رسول الله، إني اكتُتِبت في غزوة كذا وكذا وامرأتي حاجة، فقال: «ارجع فحُجَّ مع امرأتك»[(1)].

ومما ينبغي للمعتمر والزائر لبيت الله: التحلي بالأخلاق النبيلة والآداب الفاضلة، في الظعن والإقامة، والحل والترحال، فإن أثقل شيء في ميزان المؤمن حسن الخلق، وإن المؤمن ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولقد كان السلف أحسن الناس أخلاقًا وأكثرهم خدمة لرفقتهم، بل كان بعضهم يشترط على رفقته أن يكون أميرهم في السفر لا لشيء إلا ليخدمهم، فإذا سافروا قام يخدمهم، فمن جاء ليعاونه أمره بالقعود وألزمه بألا يفعل شيئًا! وقيل لابن عباس: لقد سافرنا فكان معنا فلان، وكان من أكثرنا صلاة. فقال ابن عباس: «من كان يخدمكم؟ قالوا: فلان. قال: ذاك أكثركم أجرًا».

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١).

ومن ذلك الرفق ولين الجانب مع من يسافر ويقيم برفقتهم، مع غض البصر، وحفظ السر، والأمانة، والصدق، والعفو والصفح والتغاضي، وإعانة الغير على الخير، وإرشاد الجاهل، وبذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، فإن السفر سمي سفرًا؛ لكونه يُسفر عن أخلاق صاحبه، لما فيه من مشقة تُخرج حقيقة الأخلاق والآداب والطباع.

واعلموا وفقكم الله أن زيارة المسجد النبوي سنة نُدِبنا إليها، ولكن لا علاقة لذلك بمناسك الحج أو العمرة، فمن اعتمر أو حج ولم يزر المسجد النبوي فلا إثم عليه ولا حرج، وإن تمكن من الزيارة فهو أفضل، ولكنه ينوي بها زيارة المسجد النبوي لا القبر؛ لقول النبي ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»(١).

ومن الأخطاء أن الناس يُحمّلون المعتمر السلام للنبي ﷺ، ويقولون: قل له: فلان يسلم عليك! وهؤلاء ينبغي أن يُوجَّهوا بحديث النبي: «إن لله ملائكة سيّاحين يبلغوني عن أمتي السلام»(٢). فمن يُسر الشريعة ومن رحمة الله وفضله أن كل من يصلي ويسلم على النبي ﷺ من أمته؛ فإن صلاتهم وسلامهم تبلغه منهم حيثما كانوا.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.



(١) رواه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧).

(٢) صحيح الترغيب (١٦٦٤).

إنه الله جَلَّجَلَالُهُ[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله، أحمده تعالى وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وصبر على ما أصابه في سبيل ذلك، صَلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله، وترسم خطاه إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى واذكروا نعمة الله عليكم، واشكروه عليها؛ فبالشكر تدوم النعم.

أما بعد: يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعًا وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها -وفي رواية البخاري: لا يحفظها أحد إلا- دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفوّ يحب

---

(١) ناصر الأحمد.

(٢) رواه البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧).

العفو، وأهله حييّ يحب الحياء وأهله، برٌّ يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم). انتهى..

فهل لك أخي المسلم أن تتأمل معي بعض ما يسرد عليك بعد قليل وأن تتفكر فيه لتدرك شيئًا من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

إذا حل الهم، وخيم الغم، واشتد الكرب، وعظم الخطب، وضاقت السبل وبارت الحيل. نادى المنادي: يا اللهُ يا الله «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[1] فيفرّج الهم، وينفّس الكرب، ويذلل الصعب ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]. إنه الله جَلَّجَلَالُهُ.

إذا أجدبت الأرض، ومات الزرع، وجف الضرع، وذبلت الأزهار، وذوت الأشجار، وغار الماء، وقل الغذاء، واشتد البلاء. خرج المستغيثون بالشيوخ الركع، والأطفال الرضع، والبهائم الرتع، فنادوا: يا اللهُ يا الله، فينزل المطر، وينهمر الغيث، ويذهب الظمأ، وترتوي الأرض ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]. إنه الله جَلَّجَلَالُهُ.

إذا اشتد المرض بالمريض، وضعف جسمه، وشحب لونه، وقلت حيلته، وضعفت وسيلته، وعجز الطبيب، وحار المداوي، وجزعت النفس، ورجفت اليد، ووجف القلب، وانطرح المريض، واتجه العليل، إلى العليّ الجليل. ونادى: يا اللهُ يا الله، فزال الداء، ودب الشفاء، وسُمع الدعاء ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤]. إنه الله جَلَّجَلَالُهُ.

إذا انطلقت السفينة بعيدًا في البحر اللجيّ، وهبّت الزوابع، وتسابقت الرياح، وتلبدّ الفضاء بالسحب، واكفر وجه السماء، وأبرق البرق، وأرعد الرعد، وكانت ظلمات بعضها

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦) ومسلم (٢٧٣٠).

فوق بعض، ولعبت الأمواج بالسفينة، وبلغت القلوب الحناجر، وأشرفت على الغرق، وتربص الموت بالركّاب. اتجهت الأفئدة، وجأرت الأصوات، يا اللهُ يا الله، فجاء عطفه، وأشرق ضياؤه في الظلام الحالك، فأزال المهالك ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٢٢-٢٣]. إنه الله جَلَّجَلَالُهُ.

إذا حلقت الطائرة في الأفق البعيد، وكانت معلقة بين السماء والأرض، فأشّر مؤشر الخلل، وظهرت دلائل العطل، فذعر القائد، وارتبك الركاب، وضجت الأصوات، فبكى الرجال، وصاح النساء، وفُجع الأطفال، وعم الرعب، وخيم الهلع، وعظم الفزع، ألحُّوا في النداء، وعظم الدعاء، يا اللهُ يا الله، فأتى لطفه، وتنزلت رحمته، وعظمت منّته، فهدأت القلوب، وسكنت النفوس، وهبطت الطائرة بسلام. إنه الله جَلَّجَلَالُهُ.

إذا اعترض الجنين في بطن أمه، وعسرت ولادته، وصعبت وفادته، وأوشكت الأم على الهلاك، وأيقنت بالمات. لجأت إلى منفّس الكربات، وقاضي الحاجات، ونادت: يا اللهُ يا الله، فزال أنينها، وخرج جنينها. بارك الله لها في الموهوب، ورزقت بره، وجعله الله من عباده الصالحين.

إذا حلّت بالعالم معضلة، وأشكلت عليه مسألة، فتاه عن الصواب، وعزّ عليه الجواب، مرّغ أنفه بالتراب، ونادى: يا اللهُ يا الله، يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني، «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

فيأتي التوفيق، وتُحلّ المغاليق، فينكشف السحاب، ويُلهم الجواب.

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

أيها المسلمون: إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، إنه الملاذ في الشدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلة، يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء، ويدعوه آملًا في الشفاء، ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخُلف من كل فائت، والعوض من كل مفقود، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، ويتجه إليه المظلوم آملًا يومًا قريبًا ينتصر فيه على ظالمه فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠]. ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلًا أن يرزقه ذرية طيبة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٤-٧].

وكل واحد من هؤلاء يُؤمّل في أن يجاب إلى ما طلب، ويحقق له ما ارتجى، فما ذلك على قدرة الله ببعيد، وما ذلك على الله بعزيز.

أي سكينة يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة، ويوم الشدة، فيدعوه بما دعا به محمد -صلى الله عليه- وسلم من قبل: «اللهـمَّ ! ربَّ السماوات وربَّ الأرضِ وربَّ العرشِ العظيمِ. ربَّنا وربَّ كلِّ شيء. فالقَ الحبِّ والنوى. ومنزلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ. أعوذ بك من شرِّ كلِّ شيءٍ أنت آخذٌ بناصيته. اللهمَّ ! أنت الأولُ فليس قبلك شيء. وأنت الآخرُ فليس بعدك شيء. وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شيء. وأنت الباطنُ فليس دونك شيء. اقضِ عنا الدَّينَ وأغنِنا من الفقرِ»[1].

إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، سلوة الطائعين، وملاذ الهاربين، وملجأ الخائفين، قال أبو بكر الكتاني: (جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصغرهم سنًّا، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق ساعة، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، ومتصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبته، فإن تكلم فبالله، وإن نطق

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

فعن الله، وإن عمل فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جبرك الله يا تاج العارفين).

إليه وإلاّ لا تُشدّ الركائب ومنه وإلاّ فالمؤمل خائب

وفيه وإلاّ فالغرام مضيّعٌ وعنه وإلاّ فالمحدث كاذب

من علق نفسه بمعروف غير معروف الله فرجاؤه خائب، ومن حدث نفسه بكفاية غير كفاية الله فحديثه كاذب، لا يغيب عن علمه غائب، ولا يعزب عن نظره عازب ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

أيها المسلمون: إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين، يحي ميتًا ويميت حيًا، ويجيب داعيًا، ويشفي سقيمًا، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، يجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلم جاهلًا، ويهدي ضالًا، ويرشد حيرانًا، ويغيث لهفانًا، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلىً، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويؤمن روعةً.

إنه الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، السماء بناها، والجبال أرساها، والأرض دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، يبسط الرزق، ويغدق العطاء، ويرسل النعم.

إنه الله التواب الرحيم، ذو الفضل العظيم، الواسع العليم، العزيز الحكيم، ابتلى إبراهيم بكلمات، وسمع نداء يونس في الظلمات، واستجاب لزكريا فوهبه على الكبر يحي هاديًا مهديًا، وحنانًا من لدنه وكان تقيًا، أزال الكَرب عن أيوب، وألان الحديد لداود، وسخر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورُفع إليه عيسى، وشق القمر لمحمد ﷺ، ونجّا هودًا وأهلك قومه، ونجّا صالحًا من الظالمين، فأصبح قومه في دارهم جاثمين، وجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وفدا إسماعيل بذبح عظيم، وجعل عيسى وأمه آية للعالمين، ونجّا لوطًا وأرسل

على قومه حجارة من سجيل منضود، ونجّا شعيبًا برحمته، وأهلك أهل مدين بعدله ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥].

إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، أغرق فرعون وقومه، ونجّاه ببدنه ليكون لمن خلفه آية، وخسف بقارون وبداره الأرض ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢]. ونجّا يوسف من غياهب الجب، وجعله على خزائن الأرض.

إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأوجد وأبلى، ورفع وخفض، وأعز وأذل، وأعطى ومنع، ورفع ووضع.

هدى نوحًا وأضل ابنه، واختار إبراهيم وأبعد أباه، وأنقذ لوطًا وأهلك امرأته، ولعن فرعون وهدى زوجته، واصطفى محمد ﷺ ومقت عمه وجعل من أنصار دعوته أبناء ألد خصومه كخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، وسبحانه رضا نفسه، وسبحانه زنة عرشه، وسبحانه مداد كلماته.

إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، أرغم أنوف الطغاة، وخفض رؤوس الظلمة، ومزق شمل الجبابرة، ودمّر سد مأرب بفأرة، وأهلك النمرود ببعوضة، وهزم أبرهة بطير أبابيل، عذب امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وغفر لامرأة بغيّ؛ لأنها سقت كلبًا كاد يموت من العطش.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نظر بعين الاختيار إلى آدم، فحظي بسجود ملائكته، وإلى ابنه، فأقامه في منزلته، وإلى نوح، فنجاه من الغرق بسفينته، وإلى إبراهيم، فكساه حلّة خلّته، وإلى إسماعيل، فأعان الخليل في بناء كعبته، وافتداه بذبح عظيم من ضجعته، وإلى لوط، فنجّاه وأهله من عشيرته، وإلى شعيب، فأعطاه الفصاحة في خطبته، وإلى يوسف، فأراه البرهان في همّته، وإلى موسى، فخطر في ثوب مكالمته، وإلى داود فألان الحديد له على حدته، وإلى سليمان، فسخّر له الريح يتنقل بها في مملكته، وإلى أيوب، فيا طوبى لركضته، وإلى يونس، فسمع ندائه في ظلمته، وإلى زكريا، فقرن سؤاله ببشارته، وإلى عيسى، فكم أقام ميتًا من حفرته، وإلى محمد ﷺ، فخصه ليلة المعراج بالقرب من حضرته والوصول إلى سدرته. وأعرض عن إبليس،

فخَزَي ببعده ولعنته، وعن قابيل، فقلب قلبه إلى معصيته، وعن نمرود، فقال أنا أحيي الموتى ببلاهته، وعن فرعون، فادعى الربوبية على جرأته، وعن قارون، فخرج على قومه في زينته، وعن أبي جهل، فشقي مع سعادة أمه وابنه وابنته، هكذا جرى تقديره ولا اعتراض على قسمته ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣]. انتهى..

أيها المسلمون: إنه الله جَلَّجَلَالُهُ، من تقرب إليه شبرًا تقرب إليه ذراعًا، ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، فالباب مفتوح ولكن من يلج؟ والمجال مفسوح ولكن من يُقبل؟ والحبل ممدود ولكن من يتشبث به؟ والخير مبذول ولكن من يتعرض له؟ فأين الباحثون عن الأرباح؟ وأين خطّاب الملاح؟ أين عشّاق العرائس؟ وطلاّب النفائس؟!

من أقبل إليه، تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه، ناداه من قريب، ومن ترك من أجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد رضاه، أراد ما يريد، ومن تصرف بحوله وقوته، ألان له الحديد، أهل ذكره هم أهل مجالسته، وأهل شكره هم أهل زيادته، وأهل طاعته هم أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته إن تابوا إليه فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو رحيم بهم، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعايب، الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عنده بواحدة، فإن ندم عليها واستغفر، غفرها له، يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثير من الزلل.

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا	واعصي الهوى فالهوى ما زال فتّانا
أما ترين المنايا كيف تلقطنا	لقطًا وتُلحق أُخرانا بأولانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه	نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس ما لي وللأموال أتركها	خلفي وأخرج من دنياي عريانا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا	ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن	كانت تخرّ له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا	مستبدلين من الأوطان أوطانا

خلــوا مــدائن كــان العــز مفرشــها   واستفرشــوا حفــرًا غُــبرًا وقيعانــا

يــا راكضًــا في ميــادين الهــوى مرحًــا   ورافــلًا في ثيــاب الغــيّ نشــوانا

مضــى الزمــان وولى العمــر في لعــبٍ   يكفيك ما قــد مضــى قــد كــان مــا كانــا

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بحالنا، وأن يلهمنا رشدنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا إنه ولي ذلك والقادر عليه، أقول هذا القول...



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها المسلمون: اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن من لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفًا تقطع قلبه في الآخرة إذا حُقّت الحقائق، وظهرت الوثائق، وحضرت الخلائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ:٤٠].

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة	فلقد علمتُ بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن	فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعًا	فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا	وجميل عفوك ثم إني مسلم

أيها الأحبة: إن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا.

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود يا غاية المنى	فكل الذي فوق التراب تراب

سبحانه ما أعظمه وأرحمه، سبحانه سبقت رحمته غضبه، سبحانه سبق عفوه عقوبته، لا أحد أصبر على أذى خلقه منه، تجرأ عليه اليهود فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وتجرأ عليه النصارى فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ

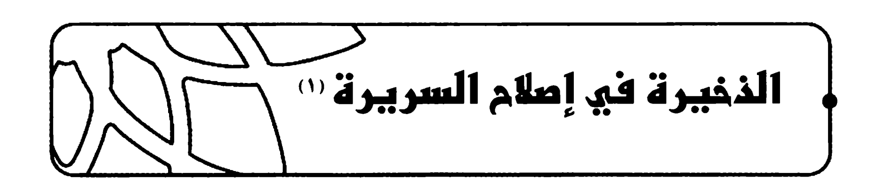
ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٢-٧٣]، ومع كل هذه الجرأة دعاهم جل وعلا إلى التوبة فقال بعد ذلك: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٤] فلو تابوا لقبل توبتهم وغسل حوبتهم، هذا وهم كفار مشركون، يهود ونصارى فكيف بالمسلم العاصي.

فسبحانه من خالق عظيم، جواد كريم، الكرم صفة من صفاته، والجود من أعظم سماته، والعطاء من أجل هباته، فمن أعظم منه جودًا؟ الخلائق له عاصون وهو لهم مراقب، يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، يجود بالفضل على العاصي، ويتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاه فلم يستجب له؟ أم من ذا الذي سأله فلم يعطه؟ أم من ذا الذي أناخ ببابه فنحاه؟ فهو ذو الفضل ومنه الفضل، وهو الجواد ومنه الجود، وهو الكريم سبحانه ومنه الكرم.

وأنت إله الخلق ربي وخالقي ... بذلك ما عَمَّرتُ في الناس أشهدُ
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلها أنت أعلى وأمجدُ
لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدي وإياك نعبدُ

اللهم إنا مذنبون فاغفر لنا، ومقصرون فتجاوز عنا، ومخطئون فاعف عنا..





الذخيرة في إصلاح السريرة [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله بارئ البريَّات، العالم بالظواهر والخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمده على ما أسداه من الفضائل والكرامات. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فهو المُسْتَحِق لجميع العبادات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خاتم الرسالات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المسارعين للخيرات، وسلم تسليمًا كثيرًا مزيدا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

معاشر المؤمنين والمؤمنات: إنَّ المتأمِّلَ في نفسه ومَنْ حوله من الناس -بكافة طبقاتهم- لَيَرى اهتمامًا بالغًا وانصرافًا تامًا -إلَّا مَن رحِم الله- إلى العناية بالمظاهر المرئية، والأشكال السطحية، وغفلة تكاد تكون عامة عن العناية بالأعمال القلبية، والذخائر الخفية.

فكم يُتعب كثيرٌ من الناس نفسه، ويُرهق بدنه، ويذهب ماله دون أجر أو ثواب، بل لربما لحقه من ذلك الوزر والعقاب والعياذ بالله تعالى، أليس يعمل بعض الناس وينفق طلبًا لمصالح دنيوية، وأغراض شخصية.

وآخرون يُظْهِرون الحب والتصنيع، ويبطنون البغض والقطيعة، وغيرهم يتزينون للناس بالطاعة، وإذا خلوا بارزوا الله بالمعصية! فالمظاهر زاهية، والبواطن واهية، وهم في ذلك ما بين مستقلٍّ ومستكثرٍ، والله المستعان! مظاهرُ تخلب الأبصار، ولكن ماذا لو انكشف الخمار، وأزحنا الستار، عما تكنه القلوب وتخفيه، ويُجلله الظلام ويغطيه، مما لا يطلع عليه إلا الله، ولا يعلمه أحد سواه؟!.

---

(١) محمد بن إبراهيم السبر.

يقــول تعــالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمـران:٢٩]، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤].

إنها الغفلة التي تجعل العبد يُبـدي مـا لا يُخفيـه، ويُخفـي مـا لا يبديـه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤]؟ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء:١٠٨].

إن العناية بالسريرة، وهي ما يستتر عن الناس ولا يطلع عليه إلا الله مِن أعمال القلـب أو الجوارح، لهو أمر في غاية الأهمية، ويزداد أهميةً كلما رأينا إغفال الناس له، مع قلة التذكير بـه، قال حذيفةُ بن قتادة: إن أطعتَ الله في السِّرِّ أَصْلَحَ قلْبَكَ، شئتَ أو أَبَيْتَ!.

إن العناية بإصلاح أعمال القلوب من أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وأجل القربـات والطاعات، قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صـلحت صـلح لهـا سـائر الجسـد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألأ وهي القلب»(١).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأخبر أن صلاح القلب مستلزم لصـلاح سـائر الجسـد، وفساده مستلزم لفساده، فإذا رأى ظاهر الجسد فاسدا غير صالح علم أن القلب ليس بصالح بل فاسد، ويمتنع فساد الظاهر مع صلاح الباطن، كما يمتنع صلاح الظاهر مع فساد الباطن، إذ كان صلاح الظاهر وفساده ملازما لصلاح الباطن وفساده).

وقال أبو حاتم: (قطبُ الطاعات للمرءِ في الدنيا: هـو إصـلاح السـرائر، وتـرك إفسـاد الضمائر). وسُئِل أحمد بن الخضر: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: (رعاية السر عـن الالتفـات إلى شيءٍ غيرِ الله عَزَّوَجَلَّ).

فينبغي للمرء المسلم أن يعتني بهذا الباب العظيم بالقلب، وإصلاحه، وتزكيته، وتهذيبه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أعمال القلوب أفضل من أعمال الجوارح). اهــ. ينبغـي للعبـد أن يتعرف على ما يحب الله ويرضاه، وأن يخلِّص قلبه مما يضادّه.

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

وأعمال القلوب تتضمن: إخلاصَ الدين لله تعالى، والنصح له ولعباده، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد وتوابع ذلك من أنواع الأذى.

وكذلك وجل القلوب من ذكر الله تعالى، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله، وخوف الله تعالى سرًا وعلانيةً.

والرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا، واختيار تلَف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله تعالى من العبد ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما، والحب في الله والبغض في الله، والعطاء له، والمنع له، وأن تكون جميع الحركات والسكنات له.

وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستشعار بعمَل الحسَنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء.

وحسن الخلق، ومحبة ما يحب لنفسه لإخوانه المؤمنين، ومواساة المؤمنين ومناصرتهم والحزن بما يحزنهم، ومعاداة الكافرين، وبغضهم، وعدم الركون إليهم، وغيرها من أعمال القلوب.

هذه الأعمال -عباد الله- هي محل نظر الرب عَزَّوَجَلَّ، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١)، ويقول ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥](٢).

وما أصاب المسلمين ما أصابهم اليوم من الذل والصَّغار -وهم الأعلون في الأصل- إلا بسبب فساد بواطنهم، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «يوشك أن تَدَاعَى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا: أمِن قلة نحن يومئذ يا

(١) رواه مسلم (٤٦٥١).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥).

رسول الله؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، وَلَيَنْزِعَنَّ الله المهابة من صدور أعدائكم، ولَيَقْذِفَنَّ في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الهون يا رسول الله؟ قال: «حُبُّ الدنيا، وكراهية الموت»(١).

إن الخلوة بالنفس الأمَّارةِ بالسوء أمرٌ خطير، وابتلاءٌ عظيم، فها هو الليل قد أرخى سدوله على العبد، وأخفاه عن أعين الناس، وها هي الأبواب قد أغلقت وأحكم إغلاقها، وقد اجتمعت على العبد دواعي الشهوة، وأسباب المعصية، ووساوس الشيطان، فهل يا ترى يقدم على المعصية ناسيًا أو متناسيًا نظر الرب جل وعلا، متجاهلًا نظرَ مَن لا تخفى عليه خافية، أم يغلِّبُ نفسهُ وهواه؟.

أيقدم على المعصية حال خلوته مع ربه، ويبتعد عنها عند ما يكون بين الناس؟ ولسان حاله يقول:

أَنَا الَّذِي أغْلَقَ الأبواب مجتهِدًا	على المعاصِي وعينُ الله تنظُرُني
إذا ما خلوتَ الدَّهْرَ يومًا فلا تقُلْ	خلوْتُ ولكن قُل عليَّ رقيبُ
ولا تحسَبَنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً	ولا أنَّ ما تُخْفِي عليه يَغيبُ

إنها مزلَّةُ أقْدَامٍ، ومضلَّة أقوام، أين الخوف من الله؟ أين اليقين بمراقبته؟ أهو الخوف من الخَلق دون الخالق؟: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا صاحب الذنب، لا تأمنن من سوء عاقبته، ولَما يتبع الذنب أعظم من الذنب الذي عمِلْته، وخوفُكَ مِن الريح إذا حرَّكَتْ سِتر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك مِن نظَر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته». اهـ. وقال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تكن وليَّ الله في العلانية، وعدوَّه في السر).

(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٩٧).

إنَّ مَن يُقْدِمُ على الذنب في تلك الحالة يكون قد عرَّضَ نفسه للعقوبة والفضيحة العاجلة في الدنيا، والآجلة في الآخرة أمام الناس أجمعين، يومَ تبلى السرائر، وتنكشفُ الضمائر، ألا ما أشدَّ خسارَتَهُ! وما أعظمَ ندامَتَهُ!.

ويكفيه ذلك الوعيد الشديد، الذي يزلزل القلوب خوفًا وفرَقًا، عندما قال عليه الصلاة والسلام: «لأعْلَمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تِهامةَ بيضاءَ، فيجعلها اللهُ هباءً منثورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله، صِفْهُم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أما إنهم من جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»[1].

إنه لَأَمْرٌ خطير، وفعلٌ حقير، أن يجعل الإنسان نظرَ المخلوق أعزَّ عليه من نظرِ الخالق؛ يقول بعض السلف: (ما أَسَرَّ عبدٌ سريرة إلا أظهرها الله على قسَماتِ وجهِه، أو في فلَتات لسانه، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]).

نعم والله! ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، ألا ترون مَن بات على معصية وعكف على منكر كيف يصبح أسود الوجه، خبيث النفس، ضيق الصدر، سريع الغضب، بذيء اللسان، ساءت به الظنون، يظهر عليه ذلك أو بعضه مهما اجتهد في إخفائه، يراه كل مَن نوَّرَ الله بصيرته، وأما من شاركه في الحال فهيهات أن يرى ذلك! لأن المؤمن يرى بنور الله جل وعلا.

سبحان الله! أتخوِّنُ مَن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ أما يعلم هذا أن الله جَلَّجَلَالُهُ يغار، وأنَّ غيرته أن يأتي العبد محارمه، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ألا يعلم بأن الله يرى يعلم السر والنجوى بيد أنه سبحانه يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يأخذه بذنبه ويوفيه حسابه والله سريع الحساب ولا يظلم ربك أحدًا.

يقول أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من صَفّى صُفِّي له، ومن كدَّر كُدِّر عليه، ومن أحسنَ في نهاره كوفئَ في ليله، ومن أحسنَ في ليله كوفئَ في نهاره، ومن صدق في ترك الشهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوةٍ تركت له). اهـ.

---

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني (٣٤٤٢).

لقد كان سلف الأمة أشد عناية بإصلاح سرائرهم، وحفظ جوارحهم، وإليكم عباد الله طائفة من قصصهم اعتذر أثناءها عن التعليق، حتى لا أكدر صفوها، وأفسد رونقها، ولكن أسوقها إليك، وأسردها عليك؛ لتسبح في فضائها الرحيب، وتطلعَ على خبرها العجيب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ففي الجهاد: يقول محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سنان قال: (كنت بطرسوس، فصاح الناس: النفيرَ النفيرَ! فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطف الجمعان خرج رومي فطلب البراز، فخرج إليه رجلٌ فشدَّ عليه العلج فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد. فالتفت إليَّ ابن المبارك فقال: يا فلان، إن قُتلت فافعل كذا وكذا، ثم حرك دابته وبرز للعلج، فعالج معه ساعةً فقَتل العلجَ، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر، فقتله حتى قتل ستة علوج، فطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين ثم غاب، فلم نشعر بشيءٍ، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله، لَئِن حدَّثْتَ بهذا أحدًا وأنا حيٌّ...).

وفي الصلاة والدعاء يقول سلام بن أبي مطيع: (كان أيوب يقوم الليل، يُخفِي ذلك، فإذا كان قبيل الصبح رفع صوته كأنه إنما قام تلك الساعة).

وفي الصيام: عن إسحاق بن خف قال: (أقام عمرو بن قيس عشرين سنة صائمًا ما يعلم به أهله، يأخذ غداءه، ويغدو إلى الحانوت فيتصدق بغذائه ويصوم، وأهله لا يدرون).

وفي الصدقة: عن محمد بن إسحاق، قال: (كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين يؤتون بالليل).

وفي قراءة القرآن الكريم: عن الأعمش قال: (كنت عند إبراهيم النخعي، وهو يقرأ في المصحف، واستأذن عليه رجل، فغطى المصحف، وقال: لا يرى هذا أني أقرأ فيه كل ساعة).

وفي البكاء: عن حماد بن زيد قال: (كان أيوب ربما يحدث بالحديث فيرى فيلتفت ويمتخط، فيقول: ما أشدَّ الزكام!).

هؤلاء رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهمتهم عند الثريا بل أعلى، إن عرفوا تنكروا وإن

رُئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك السماء.

فهلا استيقظت الهمة، وانكشفت الغمة، واتضحت الطريق للحاق بهم ولو في الساقة أو من بعيد؟! فلله هاتيك القلوب، وما انطوت عليه من الضمائر! وما أودعنه من الكنوز والذخائر! ولله طيب أسرارها يوم تبلى السرائر!.

سيبدو لها طيبٌ ونورٌ وبهجةٌ — وحُسْنُ ثَنَاءٍ يومَ تُبْلَى السَّرائِرُ

تالله! لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه، واختارت على ما سواه وآثرت ما لديه.

إذا ما قال لي ربي — أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي — وبالعصيان تأتيني

فما قولي له لمّا — يعاتبني ويُقصيني؟

قيل للحسن: سبقنا القوم على خيلٍ دُهمٍ، ونحن على حُمرٍ معقرة، فقال: إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم!

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

عباد الله: من أهم عوامل ارتقاء العبد عند الله تعالى ونيل الدرجات العلا إصلاحه لسريرته، فينبغي على العبد أن يبذل جهده كله في أن يكون في إصلاح قلبه، وتدارك حاله، وأن يكون ظاهره في مستوى باطنه.

وكم نحن بحاجة -عباد الله- عظيمة إلى إصلاح سرائرنا! وهناك وسائل تعتبر ذخيرةً لإصلاح السريرة، وهي كثيرة، منها الخلوة المشروعية، فإنه لا بد للعبد من أوقات يخلو بها مع نفسه، يذكِّره ويناجيه، ويحاسب نفسه ويعاتبها، ويتدبر ويتفكر، وإلا وقع في شراك الغفلة، وقساوة الخُلطة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَن فقد أنسه بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادقٌ ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وبين الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله.

ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها، ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم، ومن كان فتحه في وقوعه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيءٍ استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس) اهـ. قال ﷺ: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»(١).

ومن وسائل إصلاح السريرة المراقبةُ، وهي أن يتيقن العبد بأن الله تعالى مطلعٌ عليه، وأنه لا تخفى عليه خافية، مهما بالغ العبد في إخفائها، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن:٤].

فمتى ما أحس العبد بانفراده وخلوته، وتحرَّكَ في نفسه داعي المعصية، فلْيَتَذَكَّرْ أن الله يعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصدور، فيدفع تلك الخاطرة، ولسان حاله يقول:

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

وإذا خلـــوْتَ بريبـــةٍ فِي ظُلْمَـــةٍ والــــنَّفْسُ داعِيـــةٌ إلى الطُّغْيـــانِ
فاسْـتَحْيِ مِـــنْ نظَـر الإلــهِ وقُــلْ لهــا إنَّ الَّـــذي خلـــقَ الظـــلامَ يـــراني

والحياء من الله جل وعلا من أعظم وسائل إصلاح السرائر؛ لأن الحياء من الله تعالى يدفع إلى ترك كل قبيح يكرهه الله، وفعل كل خير يحبه الله، بحيث لا يـراك أبـدًا حيث نهـاك، ولا يفقدك حيث أمرك، قال رجل ذات يوم للنبي ﷺ: أوصِني، قال: «أوصـيك أن تسـتحي الله كما تستحي رجلًا صالحًا من قومك»[1].

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَن صلَّى صلاةً والناسُ ينظرون إليه، فإذا خلا فلْيُصَـلِّ مثلها، فإن لم يفعل فإنه استهانة يستهين بها ربه، ألا يستحي أن يكـون النـاسُ أعظـمَ في عينـه من الله تعالى؟».

ومما يعين على إصلاح السريرة تذكر المساءلة بين يدي الرب عَزَّوَجَلَّ، فيتذكر العبد موقـف الحسـاب والعـرض عـلى رب الأربـاب، قـال تعـالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]، وقـد وقـف النـاس للحسـاب، ودنـت الشمس من رؤوس العباد، وجيء بجهنم تُقاد بسبعين ألف زمام، ووقف الملائكـة الكـرام، واشتد الزحام، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨].

فيتذكر ذُلَّه وفرَقَهُ عند ما يُدعَى للوقوف بين يدي الجليل، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥]، بأي قدم تقف بين يدي الله، وبأي عمل تَقدِمُ عليه؟ وبأي لسانٍ تتحدث إليه، وفي يدك كتاب عملك لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

إذا مــــا قـــــال لي ربي أمــــا اســــتَحْيَيْتَ تعْصِــــيني
وتُخفــي الـــذنبَ عـــن خَلْقــي وبالعصـــــيانِ تـــــأتيني

فأعدّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا.

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤١).

ومن الوسائل المهمة لإصلاح السرائر التوبة؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيتوبُ العبد توبةً نصوحًا خاصة لله تعالى، يقلعُ معها عن معاصيه، ويندم على ما سلف في ماضيه، ويعزم على أن لا يعود، وهو يتمثل قول القائل:

كم قد زَلَلْتُ فلم أذْكُرْكَ في زَلَلي ... وأنت يا سيدي في الغيبِ تذكُرُني

كم أكشِفُ الستر جهلًا عند معصيتي ... وأنت تلطف بي حقا وتسترني

لأبكينَّ بدمع العينِ من أسَفٍ ... لأبكِيَنَّ بُكاءَ الوالهِ الحزِنِ

يقول الربيع بن خثيم: (السرائر اللاتي يخفين من الناس وهن لله بواد، التمسوا دواءَهن، وما دواؤهن إلا أن تتوب فلا تعود؟).

فيا من بارز الله بالمعاصي.. تذكر يوم يؤخذ بالنواصي، واستحي من الله حياءك من رجل صالح من قومك، يا من تلذذ بمعاصي الخلوات، اعلم أنها أعظم أسباب الانتكاسات، ويا من بحث عن اللذة في معصية الله، هل بقيت لذة لعاصي؟ لقد ذهبت لذات المعاصي وبقي عقابها، كما ذهب تعب الطاعات وبقي ثوابها، فطوبى لمن يذكر ماضيه فيحمد الله على توفيقه، ويا حسرة من يذكر ماضيه فيندم على تفريطه وتقصيره وتضييعه.

عباد الله: عليكم بالإكثار من الأعمال الصالحة في السر والعلن، والاشتغال بما ينفع؛ فالأعمال الصالحة من المحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل، والمداومة على الذكر، سبب في الهداية والتوفيق، والمحبة، والحفظ من الله رب العاملين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، قال أبو الحسن الزاهد رَحِمَهُ اللَّهُ عندما سُئِل: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: (كما عصيت الله تعالى سرًا، تطيعه سرًا، حتى يدخل إلى قلبك لطائف البر).

وآخرها -وهو أهمها- الدعاءُ؛ فيكثر العبد من الدعاء والتضرع لله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح سريرته، ويُطَهِّر باطنه، ويتحرى بذلك أوقات الإجابة، وأسباب الاستجابة. فعليكم بالابتهال والدعاء، والتوبة والندم الصادق، فإن من عجز عن ترك معصية لا نجاة له إلا

بصدق اللجوء إلى الكريم سبحانه، وإكثار الاستغفار والدعاء، ومن صدق في ذلك فلن يخيب أبدًا..

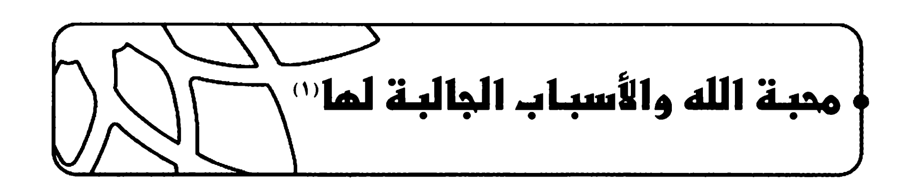
ومن تلك الأدعية، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

ومما ورد في السنة المطهرة عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يكون من آخرِ ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفت، وما أنت به أعلم مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[1].

اللهم إنا نسألك أن تمنَّ علينا بسترك الجميل، وفضلك الجزيل، اللهم اجعل سريرتنا خيرًا من علانيتنا، واجعل علانيتنا حسنة، اللهم إنا نسألك الإيمان والعفو عما سلف وكان من الذنوب والعصيان، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



(١) رواه مسلم (٧٧١).



محبة الله والأسباب الجالبة لها[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الذي جعلَ حبَّه أشرفَ المكاسِب، وأعظمَ المواهِب، أحمده سبحانه وأشكرُه على نعمة المطاعِم والمشارِب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المُنزَّه عن النقائِص والمعايِب، خلقَ الإنسانَ من ماءٍ دافِقٍ يخرجُ من بين الصُّلب والترائِب، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه الداعِي إلى أعلى المراتب، صلَّى الله عليه وعلى آله ومن سار على نهجه من تابعٍ وصاحب.

أما بعد:

فأُوصِيكم ونفسي بتقوى الله؛ فهي سبيلُ النجاة والفلاح، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عباد الله: محبَّةُ الله من لوازِم الإيمان، ولا يتمُّ التوحيدُ حتى تكتملَ محبَّةُ العبد لربِّه، والمحبَّةُ لا تُحدُّ بحدٍّ أوضحَ منها، ولا تُوصَفُ بوصفٍ أظهرَ منها، وليس هناك شيءٌ يُحبُّ لذاتِه من كل وجهٍ إلا اللهُ سبحانه الذي لا تصلحُ الألوهيةُ والعبوديَّةُ والذلُّ والخُضوعُ والمحبَّةُ التامَّةُ إلا له سبحانه .

محبَّةُ الربِّ سبحانه شأنُها غيرُ الشأن؛ فإنه لا شيءَ أحبُّ إلى القلوبِ من خالقِها وفاطِرِها، فهو إلهُها ومعبُودُها ووليُّها ومولاها وربُّها ومُدبِّرُها ورازِقُها ومُميتُها ومُحيِيها؛ فمحبَّتُه نعيمُ النفوس، وحياةُ الأرواح، وسُرورُ النفس، وقُوتُ القلوب، ونورُ العقول، وقُرَّةُ العيون، وعِمارةُ الباطن.

---

(١) عبدالباري الثبيتي.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكِية أجمَلُ ولا ألـذّ ولا أطيَـبُ ولا أسرُّ ولا أنعمُ من محبَّة الله والأنسِ به، والشوق إلى لقائِه.

قال يحيى بن مُعاذ: (عفوُه يستغرِقُ الذنوبَ؛ فكيف رِضوانُه؟ ورِضوانُه يستغرِقُ الآمال؛ فكيف حُبُّه؟ وحبُّه يُدهِشُ العقول؛ فكيف ودُّه؟ وودُّه يُنسِي ما دُونَه؛ فكيف لُطفُه؟).

وبمِقدار ما يستكثِرُ المرءُ من حبِّ الله بمِقدار ما يشعُر بلذَّة الإيمان وحلاوتِه، ومـن غمـرَ قلبَه بمحبَّة الله أغناه ذلك عن محبَّة غيره وخشيتِه والتوكُّل عليه؛ فـلا يُغنِـي القلـب ولا يسُـدُّ خلَّتَه، ولا يُشبِعُ جوعتَه إلا محبَّتُه سبحانه .

ولو حصلَ له كلُّ ما يلتذُّ به لم يأنَس ولم يطمئِنّ إلا بمحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا فقـدَها القلـبُ كان ألمُه أعظمَ من ألَمِ العين إذا فقدَت نورَهـا، والأُذن إذا فقـدَت سـمعَها، والأنـف إذا فقـدَ شمَّه، واللسان إذا فقدَ نُطقَه؛ بل فسادُ القلب إذا خلا من محبَّة فاطِره وبارِئه وإلهِه الحق أعظـمُ من فساد البدَن إذا فقدَ الروح.

حقيقةُ المحبَّة: أن تهبَ كلَّك لمن أحببَتَه حتى لا يبقَى لك منه شيءٌ، وتسبِقَ محبَّةُ الله جميـعَ المحابِّ وتغلِبَها، وتكون سائرُ محابِّ العبد تبَعًا لهذه المحبَّة التي بها سعادةُ العبد وفلاحُه.

يتفاوَتُ المُحِبُّون في قدر المحبَّة؛ لأن الله تعالى وصـفَ المـؤمنين بشـدَّة الحُـبِّ لـه، فقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وفي قوله: أَشَدُّ دليلٌ على تفاوُتهم في المحبَّة؛ لأن المعنى: أشدُّ فأشدُّ.

محبَّةُ الله: إيثارُه لمحبوباتِه على نفسِك وروحك ومالِك، ثم مُوافقتُك لـه سرًّا وجهـرًا، ثـم علمُك بتقصيرِك في حبِّه؛ أي: أن يكون كلُّك بالمحبوب مشغولًا، ونفسُـك لـه مبذُولـة، مـع سفر القلب في طلب المحبوب، ولهَج اللسان بذِكره على الدوام، وقد قال نبيُّنا ﷺ: «وأسألُك حبَّك، وحبَّ من يُحبُّك، وحبَّ عملٍ يُقرِّبُ إلى حُبِّك»(١).

المحبَّةُ إذا اشتدَّت وعظُمَت عند صاحبِها وارتقَت فإنها تُصـبِحُ ولهًـا، والوَلَـهُ هـو شـدَّةُ المحبَّة، والتألُّه لله تبارك وتعالى هو شدَّةُ محبَّة الله، ومحبَّةُ ما جـاء مـن عنـد الله تبـارك وتعـالى،

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٥) واللفظ له، وأحمد (٢٢١٦٢).

وحاجتُهم إلى التألّه أعظمُ من حاجتِهم إلى الغِذاء؛ فإن الغِذاءَ إذا فُقِد يفسُد الجسمُ، وبفقدِ التألُّه تفسُد النفسُ.

المؤمنُ إذا عرفَ ربَّه أحبَّه، وإذا أحبَّه أقبلَ إليه، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبال إليه لم ينظُر إلى الدنيا بعينِ الشهوة، ولم ينظُر إلى الآخرة بعين الفترة.

حبُّ الله يحمِلُ المرءَ على فعل الواجِبات وترك المُحرَّمات، ويحمِلُ العبدَ على فعل المُستحبَّات، وينهَاهُ عن المكرُوهات.

حبُّ الله يملأُ القلبَ بلذَّة الإيمان وحلاوتِه، «ذاقَ طعمَ الإيمان من رضِيَ بالله ربًّا، وبالسلام دينًا، وبمُحمَّدٍ رسولًا».(١)

محبَّةُ الله تُخرِجُ من القلب محبَّةَ كلِّ ما يكرهُه الله، وتنبعِثُ الجوارِحُ بمحبَّة الله إلى الطاعات، وتغدُو النفسُ مُطمئنَّة، وفي الحديث القُدسي: «.. فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشِي بها».(٢)

المُحبُّ يجِدُ من لذَّة المحبَّة ما يُنسِيه المصائِب، ولا يجِد من مسِّها ما يجِدُ غيرُه. محبَّةُ الله من أقوَى الأسباب في الصبر عن مُخالَفتِه ومعاصِيه؛ فإن المُحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ.

وكلما قوِيَ سُلطانُ المحبَّة في القلب كان اقتِضاؤُه للطاعة وترك المُخالفة أقوى، وإنما تصدُرُ المعصيةُ والمُخالفةُ من ضعفِ المحبَّة وسُلطانها.

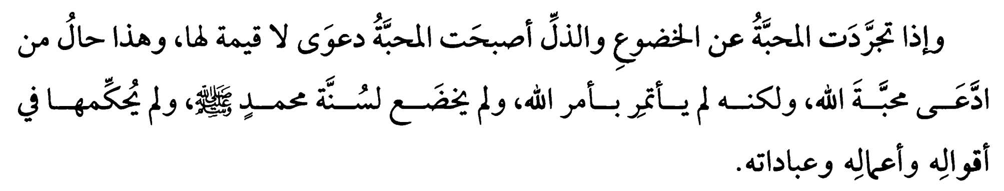
والمُحبُّ الصادقُ عليه رقيبٌ من محبوبِه يرعَى قلبَه وجوارِحَه، والمحبَّةُ المُجرَّدة لا تُوجِبُ هذا الأثرَ ما لم تقترِن بإجلال المحبوب وتعظيمِه، فإذا قارنَها الإجلالُ والتعظيمُ أوجبَت هذا الحياءَ والطاعةَ، وإلا فالمحبَّةُ الخاليةُ عنهما إنما تُوجِبُ نوعَ أُنسٍ وانبِساطٍ وتذكيرٍ واشتِياقٍ، ولهذا يتخلَّفُ أثرُها ومُوجَبُها، ويُفتِّشُ العبدُ قلبَه فيرَى نوعَ محبَّةٍ لله، ولكن لا تحمِلُه على ترك معاصِيه.

وسببُ ذلك: تجرُّدُها عن الإجلالِ والتعظيمِ، فما عمرَ القلبَ شيءٌ كالمحبَّة المُقترِنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهِب الله للعبد - أو أفضلُها -، وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء.

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).



وإذا تجرَّدَت المحبَّةُ عن الخضوعِ والذلِّ أصبحَت المحبَّةُ دعوَى لا قيمة لها، وهذا حالُ من ادَّعَى محبَّةَ الله، ولكنه لم يأتمِر بأمر الله، ولم يخضَع لسُنَّة محمدٍ ﷺ، ولم يُحكِّمها في أقوالِه وأعمالِه وعباداته.

ولا يحبُّ الله ولا يدَّعِي محبَّتَه أحدٌ لا يُتابعُ رسولَ الله ﷺ، ولهذا قالت اليهودُ والنصارى كما حكَى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨].

فالدعوَى المُجرَّدةُ كلٌّ يدَّعِيها، وقضَى الله على الدعاوَى، وبيَّن الحقيقةَ من الزَّيف بقوله سبحانه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

ومن علامة محبَّة الله: محبَّةُ أهل طاعته، ومُوالاةُ أوليائِه، ومُعاداة أهل معصيته، ومُجاهدةُ أدائِه، ونصرُ أنصارِه، وكلما قوِيَت محبَّةُ العبد لله في قلبِه قوِيَت هذه الأعمال.

وهنا يجدُرُ بنا أن نعرِفَ الأسبابَ الجالِبَةَ لمحبَّةِ الله، ومنها: معرفةُ نعم الله على عباده التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

ومن الأسباب:

معرفةُ الله تعالى بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه؛ فمن عرفَ اللهَ أحبَّه، ومن أحبَّ اللهَ أطاعَه، ومن أطاعَ الله أكرمَه، ومن أكرمَه الله أسكنَه في جِوارِه، ومن أسكنَه الله في جِوارِه فطُوبَى له.

ومن أعظم الأسباب:

التفكُّرُ في ملكوت السماوات والأرض وما خلقَ الله من شيءٍ من الآيات الدالَّة على عظمته وقُدرته وجلالِه وكمالِه وكِبريائِه ورأفتِه ورحمتِه ولُطفِه، إلى غير ذلك من أسماء الله الحُسنى وصفاتِه، فكلما قوِيَت معرفةُ العبد بالله قوِيَت محبَّتُه له ومحبَّتُه لطاعته.

ومن الأسباب الجالِبة لمحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ: مُعاملةُ الله بالصدقِ والإخلاص، ومُخالفةُ الهوى؛ فإن ذلك سببٌ لفضل الله على عبدِه وأن يمنحَه محبَّتَه.

ومن أعظم ما تُستجلَبُ به المحبَّة: كثرةُ ذكرِ الله؛ فمن أحبَّ شيئًا أكثرَ من ذِكرِه، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي نصرَ عبادَه بصالح الدعوات، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وأيُّ المُكرَمات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربُّ البريَّات، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه المُؤيَّدُ بالمُعجِزات، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبِه أجمعين.

أما بعد:

فأُوصِيكم ونفسي بتقوى الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

وها هنا - إخوة الإسلام - أربعةُ أنواعٍ من المحبَّة يجبُ التفريقُ بينها:

الأول: محبَّةُ الله، ولا تكفِي وحدَها في النجاة من عذابِ الله والفوزِ بثوابِه؛ فإن المُشرِكين وعُبَّاد الصليب واليهود وغيرهم يُحبُّون الله.

الثاني: محبَّةُ ما يُحبُّ الله، وهذه هي التي تُدخِلُ في الإسلام وتُخرِجُ من الكفر، وأحبُّ الناس إلى الله أقومُهم بهذه المحبَّة وأشدُّهم فيها.

الثالث: الحبُّ في الله ولله، وهي من لوازِم محبَّة ما يُحِبُّ، ولا تستقيمُ محبَّةُ ما يُحبُّ إلا فيه ولَه.

الرابع: المحبَّةُ مع الله، وهي المحبَّةُ الشركيَّةُ، وكلُّ من أحبَّ شيئًا مع الله لا لله ولا من أجلِه ولا فيه فقد اتَّخَذَه ندًّا من دون الله، وهذه هي محبَّةُ المُشرِكين، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

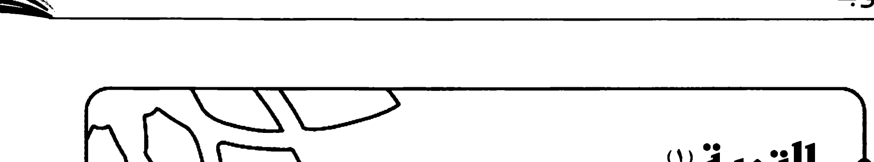
عباد الله: استشعروا محبة الله في قلوبكم، واغرسوها في قلوب أبنائكم وبناتكم وأهليكم، ذكّروهم بنعم الله تعالى، نعمة الصحة والعافية، والأمن والكفاية، من أوى إلى بيته ذكر نعمة ربه، ومن نظر ببصره ذكر نعمة ربه، ومن شرب حتى ارتوى ذكر نعمة ربه، اجعلوا من جلساتكم وراحتكم واجتماعاتكم فرصة لغرس محبة الله تعالى بالتذكير بنعمته وستره وكرمه.

أيها الناس: تذكّروا أن الله يحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المنفقين، ويحب المخلصين، ويحب الصابرين، ويحب الصادقين، ويحب أهل العفو والحلم، وأهل البر والصلة، ويحب مكارم الأخلاق ومعالي الآداب، ويكره سفاسف الأمور وأراذل الأخلاق، ويبغض الطعان واللعان والفاحش البذيء، ولا يحب الظالمين، والمعتدين، والمفسدين، والمتكبرين..

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يأخذ بنواصينا للبر والتقوى..

ألا وصلُّوا - عباد الله - على رسولِ الهُدى؛ فقد أمركم الله بذلك في كتابه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





التوبة[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله من لجأ إليه بلَّغه فوق مأموله، ومن سأله أعطاه أكثر من سُوله، أحمده سبحانه منَّ على من تاب إليه وأنابَ بعفوه وغُفرانه وقَبوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ مؤمنٍ بالله ورسوله، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله بيَّن سبل الهدى وبلَّغ الدينَ كلَّه بفروعه وأصوله، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله وأصحابه، أقاموا شرع ربهم بكماله وشموله، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأوصيكم -أيها المسلمون- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله- فلقد نطقَت الغِيَر بالعِبَر، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، واعتبِروا بمن مضى من القرون والأقران، وسلُوا القبورَ عن ساكنِيها، فالعاقلُ من راقبَ العواقبَ، ومن أخطأَته سهامُ المنيَّة قيَّده عِقالُ الهَرَم، ألا يكفي زاجرًا للمُقيمين مَن رحَل؟!

عباد الله: اتقوا الله واعلموا أن الله قد أوجب التوبة على عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقال أيضًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم:٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود:٣].

وقد أمر النبي ﷺ بالتوبة والاستغفار كما عند مسلم في صحيحه فقال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»[2]، وفي رواية أخرى عند البخاري قال ﷺ:

---

(١) يزيد بن الخضر بن قاسي.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢).

«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1]. فهذا رسول الله ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، فكيف بمن دونه من الناس؟!

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة، فالتوبة أيها الإخوة المسلمون واجبة على كل مسلم ومسلمة، وهي واجبة من جميع الذنوب والمعاصي بدون استثناء؛ صغيرة كانت أم كبيرة.

والتوبة عباد الله هي الإقلاع عن الذنب من ترك واجب أو فعل محرم، فهي الرجوع من معصية الله إلى طاعته سبحانه وتعالى.

وكما أن لكل عمل من الأعمال شروطًا ليقبل عند الله، فإن للتوبة شروطًا كذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] أي: توبة صادقة، ولتكون التوبة توبة نصوحًا كما قال تعالى وتكون مقبولة وصحيحة يجب أن يتوفر فيها شروط كما سيأتي بيان ذلك.

والتوبة من الذنب عباد الله على حالتين:

الحالة الأولى: إذا كان الذنب بين العبد وبين ربه سبحانه؛ أي: إذا كانت المعصية بينك أخي المسلم وبين ربك، ولا تتعلق بحق آدمي آخر، ففي هذه الحالة للتوبة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: الإقلاع عن المعصية؛ أن تقلع أخي المسلم عن المعصية، وأن تكف عنها، فإن كنت تاركًا لواجب وجب عليك فعله، وإن كنت فاعلًا لمحرم وجب عليك تركه.

الشرط الثاني: الندم على فعلها؛ أن تشعر بالحزن على فعلك لتلك المعصية، وتتمنى أنك لم تفعلها، قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) رواه ابن ماجه وغيره وصححه الألباني (٣٤٤٨).



الشرط الثالث: **العزم على عدم الرجوع إلى ذلك الذنب؛ أن تعزم بإرادة قوية في قلبك أن لا تعود أبدًا إلى تلك المعصية مستقبلًا. فهذه هي شروط التوبة إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى.**

وأما الحالة الثانية: **إذا كان الذنب بين آدمي وآدمي آخر؛ أن تكون المعصية بينك أخي المسلم وبين عبد أو مسلم آخر، ففي هذه الحالة يجب أن يتوفر في التوبة أربعة شروط؛ الثلاثة التي ذكرناها سابقًا من إقلاع وندم وعزم على عدم العودة، والشرط الرابع: أن يبرَأ التائب من حق صاحبه؛ أي: أن تبرأ أخي المسلم من حق صاحبك الذي اعتديت عليه، فإن كنت أخذت مالًا أو نحوه رددته إلى صاحبه، وإن كانت غيبة استحللته منها، وإن كان حد قذف أو نحوه مكنته من نفسك أو طلبت عفوه، فإن فقد أحد الشروط في تلك الحالتين لم تصح التوبة.**

وزاد بعض العلماء في شروط التوبة الإخلاص، أي: أن تكون توبة الرجل خالصة لله تعالى، وأن يقصد بها وجه الله رغبة في مغفرته وثوابه، وخوفًا من عذابه وعقابه، ولا تصح التوبة إذا كانت خوفًا من عصا سلطان، أو رغبة في جاه أو مال أو شيء من عرض الدنيا.

ومما لا يخفى على أحد منا أن أبواب التوبة مفتوحة لكل أحد، ولكن الذي ينبغي أن يعرفه المسلم أن هناك أوقاتًا تغلق فيها أبواب التوبة:

الوقت الأول: **عند بلوغ الروح الغرغرة، فإذا بلغت الروح الحنجرة أغلقت أبواب التوبة على الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾ [النساء:١٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغِر»[١]، أي: ما لم تبلغ روحه الحنجرة.**

أما الوقت الثاني: **فهو عند طلوع الشمس من مغربها، قال عليه الصلاة والسلام: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[٢]. فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلقت أبواب التوبة على الناس جميعًا.**

---

(١) رواه الترمذي وغيره وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٣).



ومن مسائل التوبة عباد الله أنه قد يحدث للمسلم أن يتوب من ذنب أو معصية ما، ثم يمرّ عليه وقت ويقع في الذنب مرة أخرى بعد توبته منه، فوقوعه في الذنب لا يبطل توبته الأولى، ما دام يأتي في كل مرة بشروط التوبة.

ومن المسائل كذلك أن التوبة من بعض الذنوب دون الأخرى صحيحة على الراجح من أقوال أهل العلم، فإذا كان الإنسان تاركًا للصلاة ولا يؤدي زكاة أمواله، فتاب من تركه للصلاة وأصبح يصلي، فتوبته من ترك الصلاة صحيحة، وتبقى عليه معصية وكبيرة منع الزكاة.

وإياك أخي المسلم أن تحقر ذنبًا من الذنوب، وتحسبه صغيرًا فتترك التوبة منه، فقد تحقر ذنبًا وتراه عيناك صغيرًا وهو عند الله عظيم، والذنب الصغير مع الذنب الصغير يتراكم ويصبح كبيرا.

لا تحقرن صغيرة إنّ الجبال من الحصى

وبعض الناس تسول لهم أنفسهم ارتكاب الحرام بنية التوبة، فتسهل عليهم المعصية بهذه الحيلة الباطلة، يقول: أسرق ثم أتوب، أنوي التوبة في قلبي وأسرق، أو أتعامل بالربا بنية التوبة، ثم أتوب، أو أزني بنية التوبة ثم أتوب، وهكذا، فتصبح حيلة للوقوع في المعاصي، وفي الحقيقة كل هذا تلبيس من إبليس، وكيد من مكائده لإيقاع الناس في الحرام، فالمسلم لا يستعمل الحيلة مع الله تعالى، لأنه يدري أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والتوبة تحتاج إلى توفيق من الله، وما يدريك لعلك لا توفق إلى أسباب التوبة، ولا إلى طريقها، بعد ارتكابك للمعصية، فتصير غارقًا فيها مدمنًا عليها، أما تدري أن جزاء وعقاب المعصية معصية مثلها أو أكبر منها؟! وما يدريك لعلك تموت قبل التوبة، أو أنك تموت وأنت تقترف تلك المعصية، ولن تغني عنك نيتك شيئًا، فاحذر أخي المسلم من هذه المكيدة الشيطانية.

ومما ينبغي على المسلم أن يعلمه أن الجهر بالمعصية أخطر من الإسرار بها، والجهر بالمعصية أعظم إثمًا وأشد جرمًا من الإسرار بها، قال عليه الصلاة والسلام: «كل أمتي معافى إلا

المجاهرين»[1]، والمجاهرون هم الذين يجهرون بمعصية الله جهارًا نهارًا، أمام أعين الناس، لا يستحيون من الله، ولا يستحيون من الناس، فالذي يشرب الخمر أو يعصي الله بنوع من أنواع الفجور والفسوق على قارعة الطريق أمام أعين الناس أعظم إثمًا عند الله من الذي يعصيه في كل هذا وهو يستر نفسه، ويستر معصيته عن أعين الناس.

«كل أمتي معافى إلا المجاهرين»، لأن الجهر بالمعصية أمام الناس عباد الله فيه شيء من الاستحلال، ونوع من التحدي لله في محارمه أمام عباده، والجهر بالمعصية من موجبات غضب الله وسخطه وعذابه، والجهر بالمعصية فيه دعاية ودعوة وإشهار للحرام، ويورث في قلوب الناس الرغبة في ارتكابها؛ فالناس مفطورون على حب التوافق ومشابهة بعضهم بعضًا، خاصة عند قصار العقول وضعاف النفوس، فيزين لهم الشيطان ارتكاب الحرام، فيكثر الفساد، ويشيع وينتشر في أوساط المسلمين، فمن ستر معصيته عن أعين الناس وستر نفسه معترفًا بذنبه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة ووفقه للتوبة. وأما من فضح نفسه، وأعلن وجهر بذنبه أمام الناس، كان وبال أمره خسرًا، وعقابه عند الله كبيرًا، ولم يكن من المعافين كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومن الناس من تجده قد أسرف على نفسه بكثرة الذنوب والمعاصي حتى غرق فيها، ويرى نفسه أنه قد هلك بها، فيدخله القنوط واليأس من رحمة الله، وإذا تذكر التوبة قال: ذنوبي كثيرة وكبيرة وثقيلة، فأنى يغفر لي؟!

ومثل هذا نقول له: استمع يا أخي المسلم المذنب إلى هذا النداء الرباني، نداء الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال تعالى عن يعقوب: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال أيضًا: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

فلا تقنط من رحمة ربك لكثرة ذنوبك، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون، وتب إلى الله، فأبواب التوبة مفتوحة، قال عليه الصلاة والسلام فيما[1]: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». فلا تقنط ولا تيأس أبدًا أيها المسلم من رحمة الله الواسعة، فكم من تائب عن ذنوب كثيرة وعظيمة تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى من الناس من هو منهمك في معصية الله تعالى، إما أن يكون تاركًا لواجبات أو مرتكبًا لمحرمات، أو قد خلط بين الأمرين، وإذا ذكرته بالله وقدمت له النصيحة وقلت له: يا أخي، تب إلى الله، دع عنك هذا الأمر الخبيث، يقول لك بكل ارتياح وطمأنينة: ربي غفور رحيم. فنقول: نعم صدقت، إن الله غفور رحيم، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]، ولكن بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٥٠].

نعم ربنا غفور رحيم، ولكنه سبحانه في نفس الوقت شديد العقاب وعذابه أليم، غفور رحيم لمن اعترف بذنبه، وتاب وآمن وعمل صالحًا، وشديد العقاب لمن تكبر على الله تعالى، وأصر على ذنبه، وتهاون في الرجوع والتوبة، فلا يجوز للمسلم أن يتكل على رحمة الله وهو متمادٍ في العصيان، وقد كان من تمام منهج الأنبياء والصالحين عبادة الله بين الخوف والرجاء، الخوف من عذابه وسخطه، والرجاء لرحمته وثوابه، فلا يؤخذ بالرجاء ويهمل الخوف، أو العكس، بل يؤخذ بهما معًا.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٧٥٩).




فإذا رأيت من نفسك أخي المسلم قنوطًا ويأسًا استحضر رحمة الله، وإذا رأيت من نفسك تقصيرًا وميلًا للعصيان استحضر خوف الله، وهكذا يعيش المسلم بين الخوف والرجاء، وهكذا كان دأب الأنبياء والمؤمنين الصالحين الأولين، حتى امتدحهم الله في كتابه فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦] أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في رحمته.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وهو بالحمد جدير، أحمده سبحانه وأشكره على فضله العميم وخيره الوفير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه البشير النذير والسراجُ المُنير، صلّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله ذوي القدر العليِّ وأصحابه أولي الشرف الكبير، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ومن على طريق الحق يسير، وسلَّم التسليم الكثير.

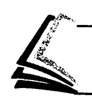
أما بعد:

أيها الإخوة الأعزاء: ويقول النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[1]، فلا أحد معصوم عن الخطأ والمعصية، وكلنا نخطئ، وكلنا نذنب، ونقع في العصيان، والمعصوم من عصمه الله تعالى، ولكن الذنب الأكبر في عدم التوبة والاستغفار، قال ﷺ من رواية مسلم: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون، يغفر لهم»[2]، ومعنى الحديث أي: لولا أننا معشر البشر نذنب ونستغفر، لذهب الله بنا، وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم، لأن الله يحب أن يغفر لعباده، ويحب من عباده على ما اقترفوه من ذنوب أن يكونوا توابين ومستغفرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ولم يقل: التائبين، بل قال: ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ على صيغة المبالغة التي تدل على كثرة تكرار التوبة لله تعالى.

إن من فضل الله وكرمه فرحته بتوبة عبده كثيرًا، قال النبي ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»[3]

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٤٧).
(٢) رواه مسلم (٢٧٤٨).
(٣) رواه مسلم (٢٧٤٧).



وكما سبق لقد كان رسول الله ﷺ وهو من هو مكانة ومنزلة عند ربه وطاعة وتقربا إلى مولاه سبحانه كان يتوب في اليوم ويستغفر الله أكثر من سبعين مرة إذ يروي البخاري بسنده أن النبي ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

فما بالنا اليوم ونحن في زمن الفتن ومع ما يقع منا من تقصير وذنوب لا نتوب ولا تخبت قلوبنا لخالقها وتهتدي.

عباد الله: إن مما يمحو الله به المعاصي و الذنوب التوبة النصوح، وزيادة على هذا فقد جعل الله برحمته أسبابًا لمغفرة الذنوب والمعاصي، ومن أعظم هذه الأسباب توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، قال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم: «ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة»(٢).

ومن موجبات المغفرة كذلك إفشاء السلام وحسن الكلام، روى الطبراني بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «إن موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام»(٣).

ومن الأسباب كذلك التي يمحو الله بها الخطايا والذنوب الصلاة والأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]. ففعلك للحسنات أخي المسلم يذهب السيئات ويمحوها، وقد قال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، وقد ثبت في السنة الصحيحة أن الوضوء والصلاة والتسبيح بعدها والعمرة والحج وصيام رمضان وصلاة الجمعة وكل أعمال البر من فعل الخيرات والطاعات مما يحط الله بها الخطايا، ويمحو بها السيئات، وذلك ذكرى للذاكرين.

عن الفضل بن موسى قال: (كان الفضيل بن عياض لصًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]، فلما سمعها قال: بلى يا رب! قد آن. فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها قافلة، فقال بعضهم: نرحل. وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلًا على

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٣) صحيح الجامع (٢٢٣٢).

الطريق يقطع علينا. قال: ففكرتُ وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني؟ وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام).

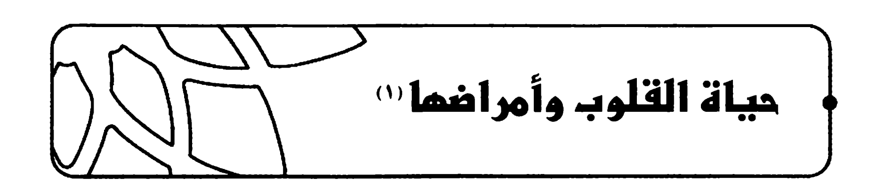
أيها المسلمون: إن للتوبة والاستغفار فوائد عظيمة، تعود على المسلم التواب المستغفر بالخير في الدنيا والآخرة؛ فإن التوبة توجب محبة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. والتوبة توجب الفلاح، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]. والتوبة والاستغفار يدفعان عذاب الله عنا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]، فلا ينزل عذاب الله على عباد الله إن هم لازموا التوبة والاستغفار.

ومن الفوائد كذلك أن الاستغفار يبسط الرزق ويكثره، ويأتي بالمال والبنين، حتى كان بعض السلف إذا أراد الولد جدد توبته لله ولازم الاستغفار، قال تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

فاتقوا الله عباد الله: وتوبوا إلى ربكم واستغفروه، فلئن كان نبيكم يستغفر الله في اليوم مائة مرة، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووضع الله عنه وزره، فكيف بحالنا؟ مع كثرة ذنوبنا وتقصيرنا؟

أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يتجاوز عنا تقصيرنا، وأن يتوب علينا توبة نصوحًا يرضى بها عنا.





حياة القلوب وأمراضها[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتصرف بالحكمة والتقدير.. المنزه عن الشبيه والنظير، أحمده سبحانه وأشكره على فضله العميم وخيره الوفير، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو الحكيم الخبير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله.. البشير النذير والسراج المنير، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان وعلى نهجهم يسير، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله رحمكم الله حيثما كنتم، وقوموا بالأمر الذي من أجله خُلقتم؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

أيها المسلمون: في مستفتح العام يحسن التذكير. وما يتذكر إلا من ينيب، من غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، واشتدت عليه حسراته. لا بد من وقفةٍ صادقةٍ مع النفس في محاسبةٍ جادةٍ، ومساءلةٍ دقيقةٍ، فوالله لتموتن كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتجزون بما كنتم تعملون. هل الأعمار إلا أعوام؟ وهل الأعوام إلا أيام؟ وهل الأيام إلا أنفاس؟ وإن عمرًا ينقضي مع الأنفاس لسريع الانصرام.

أفلا معتبر بما طوت الأيام من صحائف الماضين؟ وقلَّبت الليالي من سجلات السابقين؟ وما أذهبت المنايا من أماني المسرفين؟ كل نفس من أنفاس العمر معدود. وإضاعة هذا ليس بعده خسارة في الوجود.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

هذه يد المنون تتخطف الأرواح من أجسادها. تتخطفها وهي راقدة في منامها. تعاجلها وهي تمشي في طرقاتها. تقبضها وهي مكبة على أعمالها. تتخطفها وتعاجلها من غير إنذار أو إشعار. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ها هو ابن آدم يصبح سليماً معافى في صحته وحُلّته، ثم يمسي بين أطباق الثرى قد حيل بينه وبين الأحباب والأصحاب.

ويلٌ للأغرار المغترين. يأمنون الدنيا وهي غرارة. ويثقون بها وهي مكارة. ويركنون إليها وهي غدارة. فارقهم ما يحبون، ورأوا ما يكرهون. وحيل بينهم وبين ما يشتهون. ثم جاءهم ما يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

إنها الدنيا: تُبكي ضاحكًا، وتضحك باكيًا. وتُخيف آمنًا، وتؤمن خائفًا، وتفقر غنيًا، وتغني فقيرًا. تتقلب بأهلها، لا تُبقي أحدًا على حال. العيش فيها مذموم، والسرور فيها لا يدوم، تُغيِّر صفاءها الآفات، وتنوبها الفجيعات، وتفجع فيها الرزايا، وتسوق أهلها المنايا. قد تنكرت معالمها، وانهارت عوالمها.

أيها الإخوة: لا يعرف حقيقة الدنيا بصفوها وأكدارها، وزيادتها ونقصانها إلا المحاسب نفسه. فمن صفَّى صُفِّيَ له، ومن كَدَّر كُدِّر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله. ومن سرَّه أن تدوم عافيته فليتق الله ربَّه، فالبر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان. وإذا رأيت في عيشك تكديرًا وفي شأنك اضطرابًا، فتذكر نعمةً ما شُكرت، أو زلة قد ارتكبي فجودة الثمار من جود البذار، ومن زرع حصد، وليس للمرء إلا ما اكتسب، وهو في القيامة مع من أحب.

يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من عرف أنه عبدٌ لله وراجعٌ إليه فليعلم أنه موقوف. ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليُعد لكل سؤال جوابًا. قيل: يرحمك الله فما الحيلة؟ قال: الأمر يسير. تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى. فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي).

أيها الإخوة: وهذه وقفة محاسبة مع النفس، بل مع أعز شيء في النفس، مع ما بصلاحه صلاح العبد كله، وما بفساده فساد الحال كله. وقفةٌ مع ما هو أولى بالمحاسبة وأحرى بالوقفات الصادقة يقول نبيكم محمد: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١). ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه»(٢).

ويقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(داوِ قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم، ولن تحب الله حتى تحب طاعته).

أيها المسلمون: من عرف قلبه عرف ربَّه، وكم من جاهل بقلبه ونفسه، والله يحول بين المرء وقلبه. يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هلك من لم يكن له قلبٌ يعرف المعروف وينكر المنكر».

أيها الإخوة: لا بد في هذا من محاسبةٍ تَفُضُّ تغاليق الغفلة، وتوقظ مشاعر الإقبال على الله في القلب واللسان والجوارح جميعًا.

من لم يظفر بذلك فحياته كلها والله هموم في هموم، وأفكارٌ وغموم، وآلامٌ وحسرات. بل إن الله لم يبعث نبيه محمدًا إلا بالمهمتين العظيمتين: علم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

بل لقد علّق الله فلاحَ عبده على تزكية نفسه وقدم ذلك وقرره بأحد عشر قسمًا متوالية؛ اقرؤوا إن شئتم وتأملوا: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:١-١٠].

أيها الإخوة: إن في القلوب فاقةً وحاجةً لا يسدها إلا الإقبال على الله ومحبته والإنابة إليه، ولا يلم شعثها إلا حفظ الجوارح، واجتناب المحرمات، واتقاء الشبهات.

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٥٤).



معرفة القلب من أعظم مطلوبات الدين، ومن أظهر المعالم في طريق الصالحين. معرفة تستوجب اليقظة لخلجات القلب وخفقاته، وحركاته ولفتاته، والحذر من كل هاجس، والاحتياط من المزالق والهواجس، والتعلق الدائم بالله؛ فهو مقلب القلوب والأبصار. جاء في الخبر عند مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن عَزَّ وَجَلَّ كقلب واحد يصرفه حيث يشاء. ثم قال رسول الله: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»(١).

ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]. ومن دعاء رسول الله: «وأسألك قلبًا سليمًا».

والقلوب - أيها الإخوة - أربعة: قلب تقي نقي فيه سراج منير فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف مظلم؛ فذلك قلب الكافر: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨]. وقلب مرتكس منكوس؛ فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء:٨٨]. وقلبٌ تمده مادتان؛ مادة إيمان، ومادة نفاق فهو لِما غلب عليه منهما. وقد قال الله في أقوام: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٦٧].

وفي القلب قوتان: قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل. وقوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل. فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه. ومن عرفه واتبعه فهو المنعم عليه السالك صراط ربه المستقيم. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا موضع لا يفهمه إلا الألبّاء من الناس والعقلاء، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العالية والنفوس الأبية الزاكية).

ورجل الدنيا وواحدها هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه، وأكثر الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم.

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).

إذا كان الأمر كذلك أيها الأحبة. فاعلموا أن صاحب القلب الحي يغدو ويروح، ويمسي ويصبح وفي أعماقه حسٌ ومحاسبة لدقات قلبه، وبصر عينه، وسماع أذنه، وحركة يده، وسير قدمه، إحساس بأن الليل يدبر، والصبح يتنفس، والكون في أفلاكه يسبح بقدرة العليم وتدبير الحكيم؛ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢]. قلب حي تتحقق به العبودية لله على وجهها وكمالها، أحب الله وأحب فيه. يترقى في درجات الإيمان والإحسان فيعبد الله على الحضور والمراقبة، يعبد الله كأنه يراه، فيمتلئ قلبه محبةً ومعرفةً، وعظمةً ومهابةً وأُنسًا وإجلالًا. ولا يزال حبه يقوى، وقربه يدنو حتى يمتلئ قلبه إيمانًا وخشية، ورجاء وطاعة، وخضوعًا وذلة؛ «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه». كلما اقترب من ربه اقترب الله منه: «من تقرب إليّ شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا»[1]. فهو لا يزال رابحًا من ربه أفضل مما قدم، يعيش حياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]. «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[2]. من بذل شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وجازاه أفضل ما قدم.

أصحاب القلوب الحية صائمون قائمون، خاشعون قانتون، شاكرون على النعماء، صابرون في البأساء، لا تنبعث جوارحهم إلا بموافقة ما في قلوبهم، تجردوا من الأثرة والغش والهوى. اجتمع لهم حسن المعرفة مع صدق الأدب، وسخاء النفس مع مظانة العقل. هم البريئة أيديهم، الطاهرة صدورهم، متحابون بجلال الله، يغضبون لحرمات الله، أمناء إذا ائتمنوا، عادلون إذا حكموا، منجزون ما وعدوا، موفون إذا عاهدوا، جادون إذا عزموا، يهشون لمصالح الخلق، ويضيقون بآلامهم، في سلامة من الغل، وحسن ظن بالخلق، وحمل الناس على أحسن المحامل. كسروا حظوظ النفس، وقطعوا الأطماع في أهل الدنيا.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله أنه قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير»[3]، فهي سليمة نقية، خالية من الذنب، سالمة من العيب.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٠).

يحرصون على النصح والإخلاص، والمتابعة والإحسان. همتهم في تصحيح العمل أكبر منها في كثرة العمل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧]. أوقفهم القرآن فوقفوا، واستبانت لهم السنة فالتزموا، ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهمتهم عند الثريا بل أعلى. إن عُرفوا تنكَّروا، تحبهم بقاع لأرض، وتفرح بهم ملائكة السماء.

هذه حياة القلوب وهذه بعض آثارها.

أما القلوب المريضة فلا تتأثر بمواعظ، ولا تستفزها النذر، ولا توقظها العبر. أين الحياة في قلوب عرفت الله ولم تؤد حقه؟؟ قرأت كتاب الله ولم تعمل به. زعمت حب رسول الله وتركت سنته. يريدون الجنة ولم يعملوا لها، ويخافون من النار ولم يتقوها.

رُب امرئ من هؤلاء. أطلق بصره في حرام فحُرم البصيرة، ورب مطلق لسانه في غيبة فحرم نور القلب، ورب طاعم من الحرام أظلم فؤاده، لماذا يُحرم محرومون قيام الليل؟ ولماذا لا يجدون لذة المناجاة؟ إنهم باردو الأنفاس، غليظو القلوب، ظاهرو الجفوة؟؟.

القلب الميت: الهوى إمامه، والشهوة قائده، والغفلة مركبه، لا يستجيب لناصح، يتّبع كل شيطان مريد. الدنيا تُسخطه وترضيه، والهوى يصمه ويعميه. ماتت قلوبهم ثم قبرت في أجسادهم، فما أبدانهم إلا قبور قلوبهم. قلوب خربة لا تؤلمها جراحات المعاصي، ولا يوجعها جهل الحق. لا تزال تتشرب كل فتنة حتى تسود وتنتكس، ومن ثم لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا.

عباد الله: غفلة القلوب عقوبة، والمعصية بعد المعصية عقوبة، والغافل لا يحس بالعقوبات المتتالية ولكن ما الحيلة؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥].

الخطبة الثانية:

الحمد لله المستحق للحمد والثناء، له الخلق والأمر، يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره وأعوذ بالله من حال أهل الشقاء. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الأسماء الحسنى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: من خاف الوعيد قصُر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب، وما شغل عن الله فهو شؤم. التوفيق خير قائد، والإيمان هو النور، والعقل خير صاحب، وحسن الخلق خير قرين. يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله. وإنما خف الحساب يوم القيامة على أقوام حاسبوا أنفسهم في الدنيا. وشق الحساب على أقوام يوم القيامة أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة. فحاسبوا أنفسكم رحمكم الله وفتشوا في قلوبكم).

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشرِبها نكتت فيه نكتة سوداء. وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مربادٌّ كالكوز مُجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب هواه، وقلب أبيض لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»[١].

يقول بعض الصالحين: (يا عجبًا من الناس يبكون على من مات جسده، ولا يبكون على من مات قلبه). شتان بين من طغى وآثر الحياة الدنيا، وبين من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

---

(١) رواه البخاري (١٤٤).

تمرض القلوب وتموت إذا انحرفت عن الحق وقارفت الحرام؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ﴾ [الصف:٥]. تمرض القلوب وتموت إذا افتتنت بآلات اللهو وخليع الصور؛ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٧].

كل الذنوب تميت القلوب، وتورث الذلة، وضيق الصدر ومحاربة الله ورسوله.

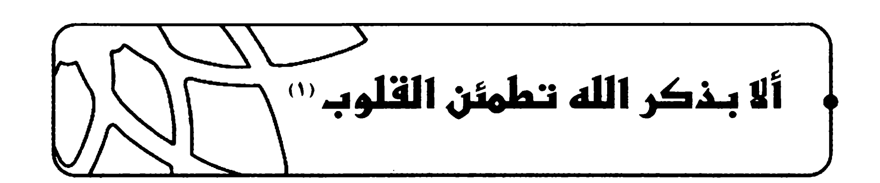
يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: (ابن آدم: هل لك بمحاربة الله من طاقةٍ؟ فإن من عصى الله فقد حاربه، وكلما كان الذنب أقبح كان في محاربة الله أشد. ولهذا سمى الله أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله ورسوله لعظم ظلمهم وسعيهم بالفساد في أرض الله. قال وكذلك معاداة أوليائه فإنه تعالى يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه).

أيها المؤمنون: القلب ملك الأعضاء، فهل تصلح الأعضاء إذا فسد الملك؟ وهل تستقيم الجوارح إذا انحرف الفؤاد؟ وهل تحيا الأبدان بالطاعة إذا ماتت القلوب؟

عباد الله: السلامة لا يعدلها شيء، وإن سلامة القلوب هي أعظم مطلوب، فإن بين أيديكم يومًا لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى ربه بقلب سليم، فسلّموا القلوب من أمراضها، وداووها من أدوائها، وطهروها من أدناس الحقد والحسد، والكبر والبطر، والغفلة واتباع الهوى، واشغلوها بذكر ربها تسكن وتطمئن، وأحيوها بكلام الله تسعد وتنشرح، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

هذا وصلوا وسلموا على النبي محمد..





ألا بذكر الله تطمئن القلوب[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الملك الغفار، أحمده سبحانه وأشكره على فضله وكرمه المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الخلق والاختيار، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله المصطفى المختار، اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله حق التقوى واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

عباد الله: يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

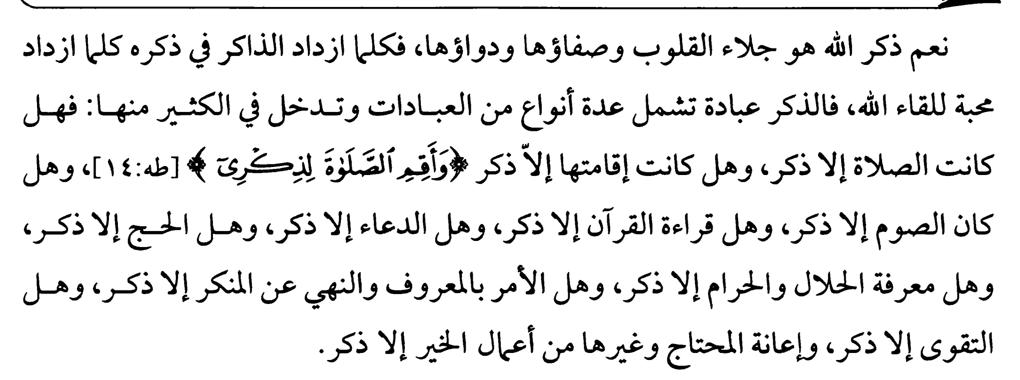
ويقول الرسول ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى، قال: «ذكر الله»[2].

فإذا اضطربت النفس وحار القلب فماذا نفعل وقتئذ، وإذا أرقت العيون فسهرت فلم تنم فماذا نفعل حينئذ، وإذا اشتدت الكروب وكثرت المصائب وعصفت الخطوب فماذا نفعل عندئذ، وإذا كثرت الهموم والغموم وتفشت السموم، فماذا نفعل عند ذاك، وأي عمل نقوم به لنذهب من سمائنا الغموم، وأين الدواء لهذا الداء داء القلق والإضراب النفسي. إنه يا معشر المسلمين ذكر الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

---

(١) بركات ملحم.

(٢) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني (٣٣٧٧).



نعم ذكر الله هو جلاء القلوب وصفاؤها ودواؤها، فكلما ازداد الذاكر في ذكره كلما ازداد محبة للقاء الله، فالذكر عبادة تشمل عدة أنواع من العبادات وتدخل في الكثير منها: فهل كانت الصلاة إلا ذكر، وهل كانت إقامتها إلاّ ذكر ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤]، وهل كان الصوم إلا ذكر، وهل قراءة القرآن إلا ذكر، وهل الدعاء إلا ذكر، وهل الحج إلا ذكر، وهل معرفة الحلال والحرام إلا ذكر، وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا ذكر، وهل التقوى إلا ذكر، وإعانة المحتاج وغيرها من أعمال الخير إلا ذكر.

عباد الله: فالناس ينقسمون بالنسبة لذكر الله إلى أصناف: فمنهم من لا يذكر الله فهؤلاء قست قلوبهم عن ذكر الله فلا يذكرون الله أبدًا ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

نعم، إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة؛ لأن منها لما يخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، فلا تجعل قلبك أقسى من الحجارة قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤] سببه أن جميع الأسباب الطبيعية تنتهي إلى الذات الإلهية، بما أن ملكوت جميع الأشياء تصف بالشعور والإدراك، وقد ثبت هذا في محله، قال بعض المفسرين في شرح هذه الآية: (هذه القلوب أشد قسوة من الصخر الصلد، لا هي تقبل الحق ولا هي ذات حياة معنوية وكمال عقلي، لا تفور من داخلها عواطف الخير ولا تجد النصيحة والحكمة والعبرة من آذانها وعيونها سبيلًا إلى ضميرها ووجدانها الجاف والميّت، ولا تحني رأسها أمام العظمة والقدرة والآيات المحسوسة، مع أن صخور الجبال الشامخة تتساقط أمام قدرة الله وقهر آياته ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ [البقرة:٧٤]).

إذن فهؤلاء أموات لا حياة فيهم أن قلوب هؤلاء لا تخضع أمام عظمة الحق وآياته، وليس سبب قسوة قلب هؤلاء إلى هذا الحد هو طينتهم، بل إن ذلك من آثار أعمالهم التي أفقدت قلوبهم القابلية التي كانت موجودة فيها وستكون نتائج أعمال أصحاب القلوب المتحجرة هؤلاء هي الضلال.

يقول رسول الله ﷺ: «مَثَل الَّذِي يَذْكُر رَبّه وَالَّذِي لَا يَذْكُر رَبّه مَثَل الْـحَيّ وَالْـمَيِّت»(١)، ويقول ﷺ: «ما من قومٍ يقومون من مجلسٍ لا يذكرون اللهَ فيه؛ إلا قاموا عن مثلِ جِيفةِ حمارٍ، وكان عليهم حَسرةٌ يومَ القيامةِ»(٢)، فمن جف لسانه عن ذكر الله تشرب كل باطل ولغو وفحش، ومن ترطب لسانه بذكر الله كان بعيدا عن كل لغو وفحش.

وصنف لا يذكرون الله إلا قليلًا، فهؤلاء هم المنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، فهم يذكرون الله ولكن لا يذكرونه كثيرًا، فقلة الذكر علامة من علامات النفاق وقسوة القلب، فمجالس الغفلة التي لا يذكر فيها اسم الله، ولا يصلى فيها على نبيه، فهؤلاء من الغافلين الذين كان لهم الشيطان قرينًا، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، وهذا الصنف موجود بكثرة عباد الله سرى النفاق في دمهم وجرى في عروقهم ونسوا ما ذُكِّروا به فقست قلوبهم عن ذكر الله، فتشربت كل باطل وزور فأصبح غذاؤها فتسممت وماتت على ذلك.

فهو قرينه أينما ذهب في أكله وشربه ونومه وكلامه وسكوته، فلا بركة في طعامه ولا في شرابه، ولا بركة في نومه ولا كلامه ولا سكوته ولا سكونه، ولا بركة في ماله حتى لو بلغ الجبال، فهو لا يذكر الله ولا يعرفه إلا في المناسبات كعقود الزواج وعند العزاء، وإن ذكر الله في غير ذلك اتهم الذاكر بالجنون والشعوذة.

ومنهم من داوم على ذكر الله وشكره وحسن عبادته فألسنتهم وقلوبهم تلهج دائمًا بذكر الله، وهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]، نعم لقد وعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم، فكلما ذكروا الله ذكرهم الله، «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي،

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧) ومسلم بلفظ: مثلُ البيتِ الذي يذكر اللهَ فيه، والبيتِ الذي لا يُذكَرُ اللهَ فيه، مثلُ الحيِّ والميِّتِ (٧٧٩).
(٢) صحيح الترغيب (١٥١٤).

وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

يقول ابن عباس: أي أن يذكر الله في الليل والنهار، في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسراء والضراء، والسر والعلانية، فالذاكرون لله عَزَّوَجَلَّ بين الغافلين بمنزلة الصابر في المعركة بين الفارين «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: ورجلًا ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»(٢)

نعم عباد الله: هذا الصنف موجود هم أعوان الخير ومفاتحه، هم أهل الله وخاصته يعيشون ويقتاتون على هذا الغذاء الروحي على ذكر الله تشربت أبدانهم وشربت نفوسهم منه ولم ترتوي فاستيقظت ضمائرهم عبدوا الله حق عبادته حتى وصلوا درجة الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٣).

وهم قلة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] كيف لا يكون هذا غذاؤهم ورسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ»(٤).

فذكر الله عَزَّوَجَلَّ أعظم جنود الله. سئل الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أعظم جنود الله؟ قال: «إني نظرت إلى الحديد فوجدته أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى النار فوجدتها تذيب الحديد، فقلت: النار أعظم جنود الله. ثم نظرت إلى الماء فوجدته يطفئ النار، فقلت: الماء أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى السحاب فوجدته يحمل الماء فقلت: السحاب أعظم جنود الله ثم نظرت إلى الهواء وجدته يسوق السحاب فقلت: الهواء أعظم جنود الله ، ثم نظرت إلى الجبال فوجدتها تعترض الهواء فقلت: الجبال أعظم جنود الله ، ثم نظرت إلى الإنسان فوجدته

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).
(٣) رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٨).
(٤) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧٧).

يقف على الجبال وينحتها. فقلت: الإنسان أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى ما يُقعد الإنسان فوجدته النوم فقلت: النوم أعظم جنود الله، ثم وجدت أن ما يُذهب النوم فوجدته الهم والغم، فقلت: الهم والغم أعظم جنود الله ، ثم نظرت فوجدت أن الهم والغم محلهما القلب فقلت: القلب أعظم جنود الله، ووجدت هذا القلب لا يطمئن إلا بذكر الله فقلت: إن الذكر أعظم جنود الله».

فذكر الله نعمة عظمى ومنحة كبرى، به تستجلب النعم، وبمثله تستدفع النقم، وهو قوت القلوب، وقرة العيون، وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح ما أشد حاجة العباد إليه، وما أعظم ضرورتهم إليه، لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال لأنه جلاء القلوب ودواؤها يقول أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: «لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ، ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء».

فإذا ترك الذكر صدئ، فإذا ذكره جلاه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

نعم عباد الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] ورسول الله ﷺ يقول: «من أطاع الله عَزَّوَجَلَّ فقد ذكره وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى الله لم يذكره وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن»(١).

فيكفيك أيها المهموم - لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين - ، قالها يونس في بطن الحوت ولو لم يقلها للبث في بطنه إلى يوم يبعثون.

ويكفيك أيها الخائف أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم وهو في النار فانقلب بفضل الله من حال إلى أحسن حال.

يكفيك يا من ضاق عليك رزقك أن تقول: أستغفر الله العظيم ، فمن لازم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

---

(١) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٥٥٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا. فقال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عَزَّ وَجَلَّ يباهي بكم الملائكة»[1].

عباد الله: الذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟ ولهذا جاء في الحديث من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أحسن ما أعطي السائلين.

ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى، والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته، وقد أخبر النبي أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه الثناء والذكر، وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجابًا.

فالدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته، وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل.

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليسَ يَتَحَسَّرُ أهلُ الجنَّة على شيءٍ إلّا ساعةً مَرَّة بهم ولم يذكروا الله تعالى فيها!».

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (مَا تَنَعَّمَ الْمُتَنَعِّمُونَ بِمِثْلِ ذِكْرِ الله تَعَالى).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:(إنَّ العبدَ ليأتي يومَ القيامةِ بسيئاتٍ أَمْثَالَ الجبالِ فَيَجِدُ لِسَانَهُ قد هَدَمَهَا مِن كَثْرَةِ ذِكْرِ الله تعالى).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (مَنِ استطاعَ أَلَّا يبيتَ إِلَّا طَاهِرًا ذاكرًا مُسْتَغفرًا فليفْعَل فإنَّ الأَرْوَاحَ تُبْعَثُ على ما قُبِضَتْ عَلَيهِ).

قيل لأبي الدرداء: نراك لا تفتر عن الذكر فكم تُسبّح؟ قال: «مئة ألف، إلا أن تخطئ الأصابع!».

وقال أحد الصالحين: (مَا أَعْلَمُ مَعْصِيَةً أقبحُ مِن تَرْكِ ذِكْرِ الله تعالى).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ وَأَنْفعَهُ مَا وَاطَأَ فِيهِ الْقَلْبُ اللِّسَانَ، وَكَانَ مِنَ الْأَذْكَار النَّبَوِيَّة وَشَهِدَ تَفَكَّرَ الذَّاكِرُ مَعَانِيهِ ومَقَاصِدَهُ).

عباد الله:

اذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، وصلوا على نبيكم كما أمركم ربكم.



التوكل على الله [1]

الخطبة الأولى:

الحمدُ لله، الحمدُ لله ذلَّت لعزَّته الرِّقابُ وخضَعَت، وعنَت لجبروته الوجوهُ وخشَعَت، لا إله إلا هو عمَّت رحمتُه كلَّ شيءٍ ووسِعَت، أحمدُه سبحانه وأشكرُه توالَت علينا نعماؤُه وكثُرَت، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُنجِي قائلَها في يومٍ تذهلُ فيه كلُّ مُرضِعةٍ عما أرضعَت.

وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه جاهدَ في الله حقَّ جهاده حتى علَت راياتُ الملَّة وارتفعَت، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى عِترتِه الطيبين الطاهرين إلى النسَب الشريف انتسَبَت، وعلى أصحابه الغُرِّ الميامين صُدورُهم بهذا الدين انشرَحَت، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ وسلَّم تسليمًا كثيرًا ما توالَت الأيامُ والليالي وتعاقبَت.

أما بعد: فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -، فرِزقُكم لن يأخُذَه غيرُكم فاطمئنُّوا، وعملُكم لن يقوم به غيرُكم فاشتغلُوا به وجِدُّوا، وربُّكم مُطَّلعٌ عليكم فمنه فاستَحيُوا، والموتُ آتٍ لا ريبَ فيه فله استعِدُّوا، وكونوا - وفَّقكم الله - ممن أبصَرَ ففهِم، وفهِمَ فعلِمَ، وعلِمَ فعمِلَ.

أيُّها المسلمون: أسعدُ الخلق أعظمُهم عبوديةً لله، وكلَّما كان العبدُ أذلَّ لله وأعظمَ افتقارًا إليه كان أقربَ إليه وأعظمَ قدرًا عندَه وعندَ خلقِه، والعبدُ عاجزٌ عن الاستقلال بجلبِ مصالحه ودفع مضارّه، محتاجٌ إلى الاستعانة بخالقِه، والله سبحانه هو الصّمد الغنيّ عمّا سواه، وكلّ ما سواه فقيرٌ إليه.

---

(١) عبدالمحسن القاسم.

وذنوبُ العباد كثيرة، ولا نجاةَ لهم منها إلاّ بمعونة الله وعفوِه، وكثيرٌ من الكبائر القلبيّة مِن الرِّياء والكبر والحسَد وترك التوكّل قد يقع فيها المرءُ وهو لا يشعر بها، وقد يتورّع عن بعض الصّغائر الظاهرة وهو في غفلةٍ عن هذه العظائم.

والأسبابُ المجرّدة تخذل المرءَ عن تحقيقِ مُناه، وقد يطرُق بابًا يظنّ أنّ فيه نفعَه فإذا هو ضررٌ محض، ولا ينجي من ذلك إلاّ التوكّل على العزيز الرحيم؛ لذا عظّم الله من شأن التوكّل وجعله منزلةً من منازل الدين، وقرنَه بالعبادة في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، وجعله سببًا لنيل محبّته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وجعله شرطًا لحصول الإيمان به ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

مقامٌ جليلُ القدر عظيم الأثر، فريضةٌ من ربّ العالمين، به رضا الرحمن، وفيه منعَة مِن الشّيطان، منزلتُه أوسع المنازلِ وأجمعُها، أقوى السّبل عند الله وأحبُّها، أمر الله به رسولَه عليه الصلاة والسلام في قولِه: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء:٨١].

والرّسُل هم أئمّة المتوكّلين وقدوتُهم، قال تعالى عن نوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنّه قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [يونس:٧١]، وقال الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال هودٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦]، وقال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]، وقال شعيبٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وقال رسُل الله لأقوامِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال مؤمنُ آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

وفي مطلعِ النبوّة والتنزيل أمرٌ بالتوكّل وأنه يفتح المغلَق ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق:٣]، وجعله الله صفةً لأهل الإيمان يتميّزون به عمّن سواهم ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

والشّيطان لا سلطانَ له على عبادِ الله المتوكّلين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩].

والتوكّل مانعٌ من عذابِ الله كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك:٢٨-٢٩]، وموجبٌ لدخولِ الجنّات كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٨-٥٩].

بل المتوكّلون حقًّا يدخلون جنّة ربّهم بغير حساب، كما وصفهم نبيّهم بذلك في قوله: «هم الذين لا يستَرقون ولا يكتَوون ولا يتطيّرون وعلى ربّهم يتوكّلون»(١).

وأوصى النبيّ ﷺ ابنَ عبّاس بالتوكّل وهو غلام صغيرٌ لتأصيل العقيدةِ في نفسه في بكور حياته فقال له: «يا غلام، احفَظ الله يحفظْك، احفظِ الله تجدْه تجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعِن بالله»(٢).

قال ابن القيم: (التوكّل أصل لجميع مقاماتِ الإيمان والإحسان ولجميع أعمالِ الإسلام، وإنّ منزلتَه منها منزلةُ الجسدِ من الرأس).

في التوكّل راحةُ البال، واستقرارٌ في الحال، ودفعُ كيدِ الأشرار، ومن أقوى الأسبابِ التي يدفع بها العبدُ ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمِهم، وبه قطعُ الطمع عمّا في أيدي الناس. سئِل الإمام أحمد عن التوكّل فقال: (هو قطعُ الاستشراف باليأس من النّاس).

والتوكّل على غير الله ظلم وامتِهانٌ للنّفس، وسؤالُ المخلوق للمخلوق سؤالٌ من الفقير للفقير، قال النبي ﷺ: «واعلَم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمَعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢١٨).
(٢) صحيح الترمذي (٢٥١٦).
(٣) صحيح الترمذي (٢٥١٦).



ومتى التفتَ القلبُ إلى غير الله وكَلَه الله إلى من التفتَ إليه، وصارَ ذليلًا مخذولًا، قال ﷺ: «من تعلّق شيئًا وُكل إليه»[1]، قال شيخ الإسلام: (ما رَجا أحدٌ مخلوقًا أو توكّل عليه إلا خاب ظنّه فيه).

وكلُّ من أحبَّ شيئًا لغير الله فلا بدّ أن يضرّه، وهذا معلومٌ بالاعتبار والاستقراء. ولا يحملنّك عدمُ رجاء المخلوق على جفوةِ الناس وترك الإحسانِ إليهم واحتمالِ الأذى منهم، بل أحسِن إليهم لله لا لرجائِهم، وكما أنّك لا تخافهم فلا ترجُهم، وارجُ اللهَ في الناس، ولا ترجُ النّاسَ في الله.

أيّها المسلمون: الأرزاقُ بيدِ الخلاّق، فما كان لك منها أتاك على ضعفِك، وما كان لغيرِك لم تنلْه بقوّتك، ورزقُ الله لا يسوقه إليك حرصُ حريص، ولا يردّه عنك كراهيةُ كاره، والرزقُ مقسومٌ لكلّ أحد من برٍّ وفاجر ومؤمنٍ وكافر، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]. والرزق يساق إلى الدواب مع ضعف كثيرٍ منها وعجزها عن السّعي في طلب الرزق، قال جل وعلا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ [العنكبوت:٦٠]، وقد ييسِّره الله لك بكسبٍ وبغير كسب.

والنّاس يؤتَون من قلّة تحقيقِ التوكّل، ومن وقوفِهم مَع الأسباب الظّاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، ولو حقّقوا التوكّلَ على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقَهم مع أدنى سبب، كما يسوق للطير أرزاقها بمجرّد الغدوّ والرّواح، وهو نوعٌ من الطلب والسّعي لكنّه سعيٌ يسير، قال عليه الصلاة والسلام: «لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطيرَ تغدو خِماصًا وتروح بطانًا» رواه أحمد.

فلا تضيِّع زمانَك بهمِّك بما ضُمِن لك من الرّزق، فما دامَ الأجلُ باقيًا كان الرزقُ آتيًا، قال حاتم الأصمّ: (لّما علمتُ أنّ رزقي لن يأكلَه غيري اطمأنّ قلبي).

أيّها المسلمون: وقّت الله للأمور أقدارَها وهيّأ إلى الغايات أسبابَها، وأمورُ الدنيا وزينتُها قد يدرِك منها المتوانِي ما يفوت المثابر، ويصيبُ منها العاجزُ ما يخطئ الحازم.

---

(١) صحيح الترمذي (٢٠٧٢).

والالتفاتُ للأسباب نقصٌ في التّوحيد، ومحوُ الأسبابِ أن تكونَ أسبابًا نقصٌ في العقيدة، والإعراضُ عن الأسباب التي أمِر بها قدحٌ في الشرع، وعلى العبدِ أن يكونَ قلبه معتمِدًا على الله لا على الأسباب.

ونبينا محمّد ﷺ أكملُ المتوكّلين، ولم يخلَّ بالأسباب؛ فقد ظاهرَ بين دِرعين يومَ أحد، واستأجَر دليلًا يدلّه على طريق الهِجرة، وحفَر الخَندقَ غزوةَ الأحزاب.

وحقيقةُ التوكّل القيام بالأسباب والاعتمادُ بالقلب على المسبِّب، واعتقادُ أنّها بيده، فإن شاء منَع اقتضاءَها، وإن شاء جعلها مقتضيةً لضدّ أحكامِها، وإن شاء أقام لها موانعَ وصوارفَ تعارِض اقتضاءَها وتدفعه.

والموحّد المتوكّل لا يطمئنّ إلى الأسباب ولا يرجوها، كما أنّه لا يهمِلها أو يبطلها، بل يكون قائمًا بها ناظِرًا إلى مسبِّبها سبحانه ومجرِيها. وإذا قويَ التوكّل وعظم الرجاء أذِن الله بالفرج، ترك الخليلُ زوجتَه هاجرَ وابنَها إسماعيل صغيرًا رضيعًا بوادٍ لا حسيسَ فيه ولا أنيسَ ولا زرعَ حوله ولا ضرع توكّلًا على الله وامتثالًا لأمره، فأحاطهما الله بعنايتِه، فإذا الصّغيرُ يكون نبيًّا وصفَه الله بالحِلم والصّبر وصدقِ الوَعد والمحافظةِ على الصلاة والأمرِ بها، والماءُ المبارك زمزَم ثمرةٌ من ثمار توكّل الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولّما عظم البلاءُ ببني إسرائيل وتبِعهم فرعونُ بجنوده وأحاطوا بهم وكان البحر أمامَهم ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، قال نبيّ الله موسى الواثق بنصر الله: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فأمره الله بضربِ البحر فصار طريقًا يبَسًا، ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣].

ويونسُ التقمَة حوتٌ في لجَج البحر وظلماته، فلجأ إلى مولاه وألقى حاجته إليه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] فنُبِذ وهو سقيم في العراء، ومضى مجرَّدًا في الخلاء.

وأمّ موسى ألقَت ولدَها موسى في اليمّ ثقةً بالله امتثالًا لأمره، فإذا هو رسولٌ من أولي العزم المقرّبين.



ويعقوبُ قيل له: إنّ ابنَك أكله الذئب، ففوّض أمره إلى الله وناجاه، فردّه عليه مع أخيه بعد طول حزنٍ وفراق.

ولّما ضاق الحال وانحصَر المجَال وامتنَع المقال من مريمَ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ عظُم التوكّل على ذي العظمَة والجلال، ولم يبقَ إلاّ الإخلاصُ والاتّكال، فأشارت إليه، فقالوا لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]، فعندها أنطقَه الله فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠].

ونبيّنا محمّدٌ ﷺ يتوارى مع صاحبِه عن قومِه في جبلٍ أجرَد في غارٍ قفرٍ مخوف، فبلغ الروع صاحبَه، فقال: يا رسول الله، والله لو أنّ أحدَهم نظرَ إلى قدميه لأبصرَنا، فقال الرّسول ﷺ وهو واثقٌ بربّه: «يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين اللهُ ثالثهما»، فأنزل الله تأييده ونصرَه وأيّده بجنودٍ لا ترى، فسكن الجأش وحصَل الأمنُ وتمّت الهجرة وانطلقت الرّسالة.

وإذا تكالبَت عليك الأيّام وأحاطت بك دوائرُ الابتلاء فلا ترجُ إلا الله، وارفَع أكفَّ الضراعة، وألقِ كنفَك بين يدي الخلاّق، وعلِّق رجاءَك به، وفوِّض الأمرَ للرّحيم، واقطَع العلائقَ عن الخلائِق، ونادِ العظيم، وتحرَّ أوقاتَ الإجابة كالسّجود وآخر الليل.

وإذا قويَ التوكّل والرجاء وجُمع القلب في الدّعاء لم يردَّ النداء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

فسلِّم الأمرَ لمالكه، والله عزيزٌ، لا يُضِلّ من استجارَ به، ولا يضيِّع من لاذ بجنابه.

وتفريجُ الكربات عند تمام الكرب، واليُسر مقترنٌ بالعسر، وتعرَّف على ربّك في الرخاء يعرفك في الشدّة، و(حسبُنا الله ونعمَ الوكيل) قالها الخليلان في الشّدائد، ومَن صدق توكّله على الله في حصولِ شيء ناله، ومن فوّض أمرَه إليه كفاه ما أهمّه، ومن حقّق التوكّلَ لم يكِله إلى غيره، بل تولاّه بنفسه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وعلى قدرِ حسن ظنّك بربك ورجائك له يكون توكّلك عليه، فاجعَل ربّك وحدَه موضعَ شكواك، قال الفضيل رَحِمَهُٱللَّهُ: (والله، لو يئستَ من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك ما تريد).

وهو سبحانه القدير، لا تتحرّك ذرّة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقةٌ إلاّ بعلمه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

[الشعراء:٢١٧-٢١٩]، قال إبراهيم الخوّاص: (ما ينبغي للعبدِ بعدَ هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ غير الله).

ومن تعلّق بغيرِ الله أو سَكن إلى علمِه وعقلِه ودوائِه وتمائمه، واعتمَد على حولِه وقوّته وكله الله إلى ذلك وخذَله، قال في تيسير العزيز الحميد: (وهذا معروف بالنّصوص والتجارب).

وأرجحُ المكاسبِ الثقة بكفايةِ الله وحسنُ الظن به، وليكن بما في يدِ الله أوثق منه بما في يده، ومن ظنّ أنّه يُنال ما عند الله بمعصيته ومخالفتِه كما يُنال بطاعته والتقرّب إليه، أو ظنّ أنه إذا ترك شيئًا من أجلِه لم يعوّضه خيرًا منه، أو ظنّ أنّ من فعل شيئًا لأجلِه لم يعطِه أفضلَ منه، أو ظنّ أنّه إذا صدقه في التوكّل عليه أنه يخيّبه ولا يعطيه ما سأله فقد ظنّ بالله ظنّ السّوء، ولا يسلم من هذا إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاتِه، وعرف موجِب حكمتِه وحمده.

قال ابن القيم: (أكثرُ الخلق، بل كلّهم إلا من شاء الله يظنّون بالله غيرَ الحقّ وظنّ السّوء، فإنّ غالبَ بني آدم يعتقِد أنّه يستحقّ فوقَ ما شاءه الله له، ومن فتّش في نفسِه وتغلغل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامنًا، فليعتنِ اللبيبُ النّاصح لنفسه بهذا، وليتُب إلى الله ويستغفره في كلّ وقت مِن ظنّه بربه ظنَّ السوء، وليظنَّ السوء بنفسه).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٨-٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذّكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كلّ ذنب فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشّكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ نبيّنا محمّدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

أمّا بعد:

أيها المسلمون: لا يستقيمُ توكّل العبد حتى يصحّ توحيده، وعلى قدر تجريده التوحيدَ يكون صحّة التوكّل. ومتى التفتَ العبد إلى غير الله أخذ ذلك شعبةً من شعب قلبه، فنقص من توكّله بقدرِ ذهابِ تلك الشعبة. ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالخَلق لم تسدَّ فاقتُه، ومن سرّه أن يكون أقوى النّاس فليتوكّل على الله، ومن سرّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

والرّضا والتوكّل يكتنفان المقدور، فالتوكّل قبلَ وقوعه، والرضا بعد وقوعه، والرضا ثمرة التوكل، وروح التوكّل التفويض وإلقاءُ أمورِك كلّها إلى الله، يقول داود بن سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: (يستدلّ على تقوى المؤمن بثلاث: حسنُ التوكّل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسنُ الصبر فيما قد فات)، وكلّما كان العبدُ بالله أعرفَ كان توكّله عليه أقوى، وقوّة التوكّل وضعفُه بحسَب قوة الإيمان وضعفِه.

ومن توكّل على الله فلا يعجَل بالفرج، فالله ذكَر كفايتَه للمتوكِّل عليه، وربّما أوهمَ ذلك تعجيل الكفايةِ وقتَ التوكّل، فالله جعَل لكلّ شيء قدرًا ووقتًا، فلا يستعجِل المتوكّل، فيقول: قد توكّلتُ ودعوت فلم أر شيئًا!! فالله بالغ أمرِه، قد جعل لكلّ شيء قدرًا، والله هو المتفرِّد بالاختيار والتّدبير، وتدبيرُه لعبدِه خيرٌ من تدبيرِ العبدِ لنفسِه، وهو أرحمُ به مِنه بنفسه.

ثمّ اعلموا أنَّ الله أمركم بالصّلاة والسّلام على نبيّه، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهمّ صلِّ وسلِّم على نبيّنا محمّد، وارضَ اللهمّ عن خلفائه الراشدين...



لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وحدَه لا شريك له قيّوم السموات والأرضين، وأشهد أن سيّدنا ونبيّنا محمّدًا عبـد الله ورسوله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وقائد الغرّ المجّلين، صلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آلـه الطيّبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغرّ الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم -إخواني- بتقوى الله تعالى والخوف منه سرّا وعلانية، فاتقوا الله -عباد الله- ما استطعتم، وتدارَكوا بالتوبة النصوحِ ما فرَّطتُم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحًا فيما تركت، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أيهـا المسـلمون: إنكـم حـين تسـعدون وتحمـدون الله سـبحانه أن جعلكـم مسـلمين وهـداكم للحـق المبـين بحاجـةٍ أيضًـا إلى سـؤال الله جـل في عـلاه أن يـربط عـلى قلـوبكم لتكونوا من المؤمنين.

كم نحن بحاجةٍ ماسةٍ لهذا الربط الرباني، لأننا به نستطيع إكمال الطريق إلى الله جل وعلا، وقد ذكر الله امتنانه على عباده بالربط على قلوبهم في مواضـع هـم في غايـة الشـدة والخـوف، وعلى وشك الانهزام النفسي والسقوط في براثن الشيطان، لولا لطف الله وعنايتـه في الوقـت المناسب لارتدوا على أعقابهم خاسرين.

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



ثلاثة مواطن يربط الله فيها على قلب من لجأ إليه واستعان به وتوكل عليه:

الموطن الأول: عند الجهاد في سبيل الله تعالى، في معركة بدر الكبرى يحتف المشركون بالمسلمين في كثرةٍ كاثرةٍ من العدد والعتاد، والقوة والبأس، وهم في ضعف إلا بالله، وقلة إلا مع الله، وخوف إلا من الله، فلما علم الله ما في قلوبهم جاء نصره لهم، وربطه على قلوبهم، وتأييده بملائكته لتكون معهم، فينتصروا على الكافرين. قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١].

أيها المسلمون:

الموطن الثاني: عند قول كلمة الحق أمام من لا يقبل بها من سلطان أو غيره وهو ذو بأس وجاه وقوة، وأعظم الحق الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وعدم الشرك به سبحانه، فيدعو المؤمن بالله جل وعلا من كفر بالله وخالف أمره، فإنهم إن أرادوا أن يبطشوا به حين واجههم بالقول السديد، ونطق لهم بالحق وأخذهم بالوعد والوعيد، هنا يربط الله على قلبه ويثبته حتى يقول بالحق وبه يعدل.

انظروا كيف نصر الله الفتية الصالحين حين أخذوا على أنفسهم أن يدعوا أقوامهم لتوحيد الله ويعبدوه وحده لا يشركون به شيئًا، فلما أراد الكفار أن يبطشوا بهم ويقتلوهم وينكلوا بهم حماهم الله وحفظهم وربط على قلوبهم حتى لا يفتنوا فينكبوا على وجوههم كافرين. قال تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف:١٤].

لما فتح عبد الله بن علي دمشق ذُكر أنه قتل في يوم واحد ستا وثلاثين ألفًا من المسلمين، وأدخل بغاله وخيوله في المسجد الأموي الجامع الكبير، ثم جلس للناس وقال للوزراء: (هل يعارضني أحد؟ قالوا: لا، قال: هل ترون أحدًا سوف يعترض عليّ؟ قالوا: إن كان فالأوزاعي والأوزاعي محدّث الشام وعالمها، أمير المؤمنين في الحديث، أبو عمرو، كان زاهدًا عابدًا، من رواة البخاري ومسلم. قال: فأتوني به، فذهب الجنود للأوزاعي فما تحرك من مكانه، قالوا: يُريدك عبد الله بن علي، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، انتظروني قليلًا، فذهب

فاغتسل، ولبس أكفانه تحت الثياب؛ لأنه يعرف أن المسألة موت أحمر ودماء. ثم قال لنفسه: الآن آن لك يا أوزاعي أن تقول كلمة الحق، لا تخشى في الله لومة لائم. فدخل على هذا السلطان الجبار، قال الأوزاعي وهو يصف القصة: فدخلت فإذا أساطين من الجنود صفَّان قد سلُّوا السيوف، فدخلت من تحت السيوف؛ حتى بلغت إليه، وقد جلس على سرير، وبيده خيزران، وقد انعقد جبينه عقدة من الغضب، قال: فلما رأيته، والله الذي لا إله إلا هو كأنه أمامي ذباب، قال: فما تذكرت أحدًا، لا أهلًا، ولا مالًا، ولا زوجة، وإنما تذكرت عرش الرحمن إذا برز للناس يوم الحساب، قال: فرفع بصره وقال: يا أوزاعي، ما تقول في الدماء التي أرقناها؟ قال الأوزاعي: حدّثنا فلان، قال: حدثنا ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّـي رَسُولُ الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْـمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»[1]، فإن كان من قتلتهم من هؤلاء فقد أصبت، وإن لم يكونوا منهم فدماؤهم في عنقك. قال: فنكتَ بالخيزران ورفعت رأسي أنتظر السيف، ورأيت من حوله يستجمعون ثيابهم ويرفعونها عن الدم. قال: وما رأيك في الأموال التي أخذناها؟ قال الأوزاعي: إن كانت حلالًا فحساب، وإن كانت حرامًا فعقاب! قال: خذ هذه البدرة كيس مملوء من الذهب، قال الأوزاعي: لا أريد المال، قال: فغمزني أحد الوزراء، يعني خذها، لأنه يريد أدنى علة ليقتل، قال: فأخذ الكيس ووزَّعه على الجنود وهو يخرج، حتى بقي الكيس فارغًا، فرمى به وخرج، فلما خرج قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قلناها يوم دخلنا وقلناها يوم خرجنا. ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤]).

بارك الله لي ولكم في الكتاب والسنة، ونفعنا بما فيهما من البينات والحكمة، أقول قولي هذا...

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: أيها المسلمون:

والموطن الثالث من مواطن الربط على القلب: عند المصائب والابتلاءات.

فإن البلاء لا يزال بالمؤمن يأتيه ويصاب منه حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة، إلا أن هذه المصائب قد تهز إيمان المرء وتفرغ قلبه من كل شيء، فيحتاج حينها إلى عون الله وتوفيقه أن يثبّته عند المصيبة ويربط على قلبه ليكون المؤمنين.

أوحى الله إلى أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما كان رضيعًا إذا خافت عليه من بطش فرعون وجنوده أن ترميه في البحر، ووعدها أن يرده إليها، إلا أن الحبل المربوط بسرير موسى انقطع وسار إلى قصر فرعون وأخذه آل فرعون، ففزعت أم موسى وخافت أن يقع به ما وقع لبني إسرائيل من القتل والتنكيل، فأصبح فؤادها كما أخبر الله فارغًا من أي شيء إلا من التفكير في موسى وكيف تسترجعه من جديد، حتى إنها همت أن تذهب لقصر فرعون فتخبرهم أنه ابنها لولا أن ربط الله على قلبها وثبتها على الحق حتى تمضي حكمة الله ولتكون من المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص:١٠].

إن الإنسان قد يظن نفسه قويًا فإذا جاءته المصائب ضعف وتسخط على الله واعترض على أقداره المؤلمة، فإذا تقوى بالذكر وتحلى بالصبر ربط الله على قلبه ليكون المؤمنين.

إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أوقد قومه له النار وأرادوا قذفه بها قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وصبر، فأنجاه الله منها، ونبينا محمد ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما اجتمع عليهم الأحزاب قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم.

إن صفة الثبات على الإسلام والاستمرار على منهج الحق نعمة عظيمة حبا الله بها أولياءه وصفوة خلقه، وامتن عليهم بها، فقال مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤].

عباد الله:

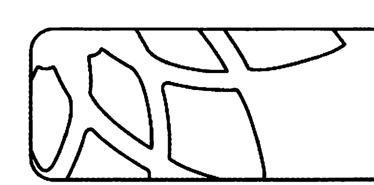
إن من أعظم وسائل الثبات: تلاوة القرآن وتدبره والعمل به، إن من حق القرآن علينا أن نتدبر معانيه، وأن نفهم مقاصده ذلك أن القرآن هو كتاب الله الخالد، ومعجزة رسوله الباقية، ونعمته السابغة، وحكمته الدامغة، وهو ينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، أنزله الله على رسوله ﷺ لنقرأه تدبرًا، ونتأمله تبصرًا، ونسعد به تذكرًا، ونجتهد في إقامة أوامره ونواهيه، وعلمًا تزداد البصائر فيه تأملًا فيزيدها هداية وثباتًا وتبصرًا. قال تعالى: ﴿شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [ص:٢٩].

لقد أنزل الله القرآن ليكون بشيرًا ونذيرًا، وهاديًا إلى ما ارتضى له من دينه، فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله، بيّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها أو حجة تتلوها، و القرآن الكريم وسيلة التثبيت الأولى للمؤمنين، ولقد أنزل الله القرآن العظيم منجّمًا مفصلًا، وجعل الغاية منه هي التثبيت لقلب النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

أيها الإخوة الكرام: كونوا مع الله في الرخاء يكن معكم في الشدة والبلاء، إن العبد ما اعتصم بالله لو كادته السموات والأرض جعل الله له من بينها فرجًا وخرجًا.

ألا وصلوا وسلموا على البشير النذير والسراج المنير.





الرضا بما قسم الله[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الكريم الفتَّاح، أحمده سبحانه فالقُ الحبِّ والنوى والإصباح، وأشكرُه على نعمٍ تتجدَّدُ في الغُدُوِّ والرَّوَاح، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً هي للجنةِ مِفتاح، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه بيَّن لأمته سبيلَ الفلاح، صلّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله وأصحابه ذوي الجُودِ والكَرَم والسماحِ، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما سجَى ليلٌ وأشرقَ صباح، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله وأطيعوه، واستقيموا إليه واستغفروه.

أيها المسلمون: هدفٌ منشودٌ إذا فقدَه الإنسانُ فإنه لا يستقرُّ على حالٍ، ولا يسكُنُ إلى قرار، وغايةٌ مُبتغاه بدونها صاحبُها قلِقٌ مُتبرِّمٌ، مُضطربٌ حائر، وأمنيةٌ مُتمنَّاه إذا لم يُحقِّقها طالبُها فهو أشبَهُ بحيوانٍ شرس، أو سبُعٍ مُفترس، والمُجتمع بدونها كذلك مُجتمعُ غابةٍ من غير غايةٍ ولو لَمَعَت فيه بوارِقُ حضارةٍ أو أَثَارةُ تقدُّمٍ، المقاييسُ فيه للأشدِّ والأقوى وليس للأصلَحِ والأتقى.

هدفٌ وغايةٌ وأمنيةٌ يطلبُها كثيرون في غير موضِعِها، ويتطلَّبُها مُتطلِّبُون من غير مظانِّها، جرَّبوا ألوانًا من المُتَع وصُنوفًا من الشهوات فما وجدُوها، حسِبَها قومٌ في الغِنَى ورغَدِ العيشِ، وظنَّها آخرون في الجاهِ والمقامِ العريض، واعتقَدَتها فئاتٌ في حُسن العلوم والمعارِف، خاضَ

---

(١) محمد ويلالي.

في البحث عنها العلماءُ والفلاسِفة، والأغنياءُ والفقراء، والملوك والوُجهاء، إنها -يا عباد الله-: السعادةُ والطمأنينةُ والرضا والسَّكينة.

ما أعظمَ الفرقِ بين رجلَين أحدُهما عرفَ الغايةَ وطريقَها فاطمأنَّ واستراحَ، وآخرُ ضالٌّ يخبطُ في عِماية، ويمشي إلى غير غاية، لا يدري كيف المَسير، ولا إلى أين المصير؟! ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

كم من صاحبِ مالٍ وفير، وخيرٍ كثير، تجلَّى رِضاهُ وطُمأنينتُه وقناعتُه في تحرِّي الحلال وأداء حقِّ الله فرضًا وندبًا، أعطَى الأجيرَ أجرَه، ولم يُذِلَّ نفسَه من أجلِ مالٍ أو جاهٍ.

وآخرُ عنده ما يكفيه، ولكن قد ملأَ الطمعُ قلبَه، وانتشرَ التسخُّطُ بين جوانحِه، حتى أدخله مداخل الشبهات والرِّيَب، فهو جزِعٌ من رِزقه، مُتسخِّطٌ على رازِقِه، يبُثُّ شكواه إلى المخلوقين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤].

معاشر الأحِبَّة: الرِّضا نعمةٌ عظيمةٌ، يبلُغُها العبدُ بقوَّةِ إيمانه بربِّه وحُسن اتِّصالِه به، ينالُها بالصبرِ والذكرِ والشكرِ وحُسن العبادة، وقد خاطَبَ اللهُ نبيَّهُ محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه:١٣٠].

الرِّضا -أيها الإخوة- بابُ الله الأعظم، وجنةُ الدنيا، ومُستراحُ العارفين، وحياةُ المُحبِّين، ونعيمُ العابدين، وقُرَّةُ عيون المُشتاقين.

الرِّضا سرُّ السعادة، وطريقُ السَّكينة، وجادَّةُ الطمأنينة. الرِّضا شجرةٌ منبتُها النفس.

أيها الناس: ضمن سلسلة من مكارم الأخلاق، هناك وصية جليلة من أعظم وصايا رسول الله ﷺ، تتعلق بأمور غاية في الأهمية من امتثلها استحق حقيقة الوصف بالعابد لله المخلص في عبادته، ذلك في قوله ﷺ في وصاياه لأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّقِ الْـمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ

النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[١].

وسنتناول وصية من الوصايا التي اشتمل عليها هذا الحديث البديع، تتعلق بقول النبي ﷺ: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ».

والرضا خلافُ السُّخْط/ السَّخَط، كما في الدعاء الذي علمناه رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ»[٢]. وقوله ﷺ: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخِط فله السَّخَط»[٣].

وعرّفوه اصطلاحًا بقولهم: (سكون القلب إلى اختيار الرب). وقيل: (سرور القلب بِمُر القضاء). وقيل: (هو: استقبال الأحكام بالفرح). وقيل: (ارتفاع الجزَع في أي حكم كان).

وليس الرضا هو الاستسلام، لأن الاستسلام هو الانهزام وعدم بذل الجهد لتحقيق الهدف، أما الرضا فهو استفراغك الوسع في تحقيق الهدف، لكن لم توفق إليه، فترضى بما قسم الله لك من غير جزع، أو ضجر، أو سخط، كالذي تزوج ولم يرزق الولد، والذي أصيب بمرض لم يستطع دفعه، والذي ابتلاه الله بالفقر وضيق ذات اليد، فاجتهد في تحصيل الغنى فلم يوفق. هنا يأتي التحلي بصفة الرضا بما كتبه الله وقدّره، فتحيل القلب إلى سرور دائم، وتشعر النفس بنعيم مقيم. قال عبد الواحد بن زيد: (الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وسراج العابدين).

وقال أبو عبد الله البَرَاثي: (من وُهب له الرضا، فقد بلغ أقصى الدرجات).

فالرضا هو قبول حكم الله في السراء والضراء، والعلم أن ما قسمه الله هو الخير كله. قال الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من اتّكل على حسن اختيار الله تعالى، لم يتمنّ غير ما اختار الله له».

(١) الترمذي وحسنه الألباني (٢٣٠٥).
(٢) رواه مسلم (٤٨٦).
(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٩٦).

وقال أبو عثمان الحيري: (منذ أربعين سنة، ما أقامني الله في حال فكرهته، وما نقلني إلى غيره فسخطته).

وهذا الفهم السليم للرضا هو الذي يهوّن المصاب، ويخفف وطأة الرُّزء، ويضعف سَوْرة الخطب.

قال علقمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، قال: (هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيسلم لها ويرضى).

وقال عامر بن قيس: (أحببتُ الله حبًا هوّن عليّ كلَّ مصيبة، ورضَّاني بكل بليَّة، فلا أُبالي مع حبي إياه علامَ أصبحت، وعلام أمسيت).

عند ذلك يستوي عند المسلم حال الفقر وحال الغنى.

قال ابن عون: (لن يصيب العبدُ حقيقة الرضا، حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى).

فهل تعلم -يا عبد الله- أن الأرزاق بيد الله مقسومة، ومقاديرَها عند الله معلومة محسومة، وأن الفقر قد يكون أفضل لك من الغنى؛ قال السفاريني: (فمن عباده من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه لفسد عليه دينه. ومنهم من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقره لفسد عليه دينه، فمهما قسمه لك من ذلك فكن به راضيًا مطمئنًا، لا ساخطًا ولا متلونًا، فإنه -جل شأنه- أشفق من الوالدة على ولدها). يقول الرسول ﷺ: «إن الله تعالى قسّم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله تعالى يُعطي المال من أحب ومن لا يُحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب».(١)

إن الأرزاق مكفولة، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فكيف يبتغي بعض الناس الزيادة بالطرق الحرام، أو بالاعتداء على الأبرياء بسرقة أموالهم، أو التحايل على ما في أيديهم، أو ظلمهم والاعتداء عليهم، أو إشهار السلاح في وجوههم، أو قَطْع طريقهم، مما

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢٧١٤).

أصبحنا نسمع به في الصباح والمساء؟! يقول النبي ﷺ: «ولا يحملن أحدكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته»(١).

وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورُزِق كفافًا، وقَنَّعَهُ الله بما آتاه»(٢).

اقنـع بـرزق يسـير أنـت نائلـه ... واحـذر ولا تتعـرض للإرادات

فـما صـفا البحـر إلا وهـو منـتقص ... ولا تكـدَّر إلا بالزيـادات

ها هو رسول الله ﷺ سيد البشر، ومجتبى رب العالمين، عاش من ألوان الفاقة والحاجة ما قد لا يقدر عليه غيره، فواجهها بالرضا والقناعة.

وصف عُمَرُ بن الْخَطَّابِ أثاث بيت رسول الله ﷺ فقال: «وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا -ورق شجر يدبغ به مسكوبًا-، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أهبٌ مُعَلَّقَةٌ -جلود غير مدبوغة-، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟!. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله: إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله؟!. فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟!»(٣).

ولقد بشر رسول الله ﷺ المبتلين بالفقر والضيق والحاجة أنهم أسبق إلى الجنة من غيرهم، فقال: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وفي رواية: «بأربعين خريفًا»(٤).

بل تعظم البشارة حين نعلم أنهم يدخلون الجنة بغير حساب؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا أدى العبد حق الله، وحق مواليه، كان له أجران». قال: فحدثتها كعبًا، فقال كعب: «ليس عليه حساب، ولا على مؤمن مُزْهِد -قليل المال-»(٥).

إن الغنـي هـو الغنـي بنفسـه ... ولـو أنـه عـاري المناكـب حـافي

مـا كـل مـا فـوق البسـيطة كافيًـا ... وإذا قَنِعـت فـبعض شيء كـافي

---

(١) صحيح الترغيب (١٧٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩١٣).

(٤) صحيح الترمذي (٢٣٥٣).

(٥) رواه مسلم (١٦٦٦).

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله المحمُود على كل حالٍ وفي كل حال، حمدًا كثيرًا طيبًا مُبارَكًا فيه يليقُ بـما لـه مـن العظمة والجلال، وأشكرُه جزيلَ الشُّكر على ما أنعمَ من الإكرامِ والإفضال، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو الكبيرُ المُتعال.

وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه أكرمَه ربُّه بالنبُوَّة والإرسال، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آلِه وأصحابِه خيرِ صحبٍ وآل، والتابعين ومـن تـبِعَهم بإحسـانٍ إلى يـوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

معاشر المُسلمين: إن تحقيق صفة الرضا يقتضي إجالة النظر في أحـوال النـاس الآخـرين، لتعلم مقدار نعم الله عليك، التي قد يغبطك عليها الملايين من البشر، فقـط أغمـض عينيـك قليلًا وحاول المشي، لتعرف قدر نعمة النظر!

لقد فَضَّلك الله على كثـير مـن المبتلـين، وعصـمك مـن كثـير مـن الأكـدار، والأسـقام، والأوجاع؛ يقول النبي ﷺ: «من رأى مبـتلى فقـال: الحمـد لله الـذي عافـاني ممـا ابـتلاك بـه وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا، لم يصبه ذلك البلاء»[1].

وليس شرطُ الرِّضا أن لا يُحِسَّ السعيدُ بالألم والمكارِه؛ بل المطلـوبُ أن لا يعـترِضَ عـلى مجارِي الأقدار، ولا يتسخَّطُ من الحوادِثِ والنوازِل؛ فهو راضٍ كرِضا المريضِ بشُرب الـدواء المُرِّ؛ لأنه يعلمُ العاقبةَ ويرجُو العافيةَ. فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «ما ابتُليتُ ببليـة إلا كان لله عليَّ فيها أربعُ نِعم: إذْ لم تكن في ديني، وإذ لم أُحرَم الرضا، وإذ لم تكن أعظمُ منهـا، وإذ رجوت الثواب عليها».

أيها المسلمون: السعادةُ والرِّضا إيمانٌ بالله وبرسوله، ورِضا نفسٍ وانشراحُ صدرٍ، المـؤمنُ يغمُرُه الرِّضا؛ لأنه عميقُ الإدراكِ لفضلِ الله العَميم، وإحسانِه العظيم، إحساسُه بـنِعَم الله في نفسه وهي نعمٌ لا يُحصِيها في سمعِهِ وبصرِهِ ويدِهِ وقدمِـهِ ومُخِّـه وعظمِـه، وطعامِـه وشرابِـه، ونومِه ويقَظَته، وأهلِه وفي شأنه كلِّه.

---

(١) صحيح الترمذي (٣٤٣٢).

يا عبد الله: السعادةُ والرِّضا ليس بوفرة المال، ولا عِظَم الجاه، ولا كثرة الولد، ولا بنَيْل المُتَع والمنافع، الرِّضَا يحُدُّ من ثَورة الحرص والطمع، وطُغيان الشراهة والجشَع، ويُرشِّدُ الأخذَ بالأسباب: (اتقوا الله، وأجمِلوا في الطلبِ). فالغِنى ليس بكثرة العَرَض، إنما الغِنى غِنى النفسِ.

الرِّضا يُوقِفُ الراضِي عند حُدود قُدراته ومواهِبه، ويُبصِّرُه بأقدار الله، فلا يتمنَّى ما لا يتيسَّرُ له، ولا يتطلَّعُ إلى ما لا يستطيع؛ فالشيخُ لا يتمنَّى أن يكون شابًّا، وغيرُ الجميل لا يتطلَّعُ إلى أن يكون جميلًا: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢].

يقول عطاء: (الرِّضا سُكونُ القلبِ باختيارِ الله للعبد، وأن ما اختارهُ الله له هو الأحسنُ فيرضَى به). وسُئِلَ أبو عُثمان البِيْكَنْدي عن الرِّضا فقال: (من لم يندَم على ما فاتَ من الدنيا ولم يتأسَّف عليها). وقال بعضُ الحُكماء: (من رضِيَ بقضاء الله لم يُسخِطهُ أحدٌ، ومن قنِعَ بعطائه لم يدخله حسدٌ).

ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارضَ بما قسمَ الله تكن أغنى الناس، واجتنِب محارِمَ الله تكن أورعَ الناس، وأدِّ ما فرضَ الله تكن أعبدَ الناس».

وقيل للحُسين بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الفقرُ أحبُّ إليَّ من الغِنى، والسَّقَمُ أحبُّ إليَّ من الصحة». فقال الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (رحِمَ الله أبا ذرٍّ! أما أنا فأقول: من اتَّكَل على حُسن اختيار الله لم يتمنَّ غيرَ ما اختارَ الله له).

عباد الله: الرضى والسعادةُ ينبوعٌ يتفجَّرُ من القلبِ والنفسِ الكريمةِ الرَّاقِيَةِ التَّقِيَّةِ الطاهِرة، نفسٌ سعيدةٌ أينما حلَّت في السوق أو في الدُّور، في البَراري أو بين الصُّخور، في الأُنسِ والوَحشة، في المُجتمعِ وفي العُزلَة؛ فمن أرادَ السعادةَ فليسأل عنها نفسَه التي بين جنبَيْه.

فلا تطمَع -رحمك الله-، ولا تهلَع ولا تجزَع، ولا تُفكِّر فيما لا وصولَ إليه، ولا تحتقِر من فضَّلَكَ اللهُ عليه، واعلَم أن كلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقدَر، واللهُ أعلمُ بشؤونِ خلقِه يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويرفَعُ ويضَعُ، ويُعطِي ويمنَعُ، فهو الذي أغنى وأقنَى، وأضحَكَ وأبكى؛ فمن رضِيَ طابَ عيشُه، ومن تسخَّطَ طالَ طيشُه.

المؤمنُ وحدَه هو الذي يغمُرُه الإحساسُ بالرِّضا بكل قدَرٍ من أقدار الله؛ فهو مؤمنٌ أن تدبيرَ الله أفضلُ من تدبيرِه لنفسِه. المؤمنُ يملأُ الرِّضا جوانِحَه؛ لأنه يعلمُ أن الخيرَ بيدَي ربِّه، والشر في هذه الدنيا لا يُناقِضُ الخيرَ ولا يُعارِضُه؛ بل قضَت سنَّةُ الله أن لا يكون صبرٌ إلا مع شُكرٍ، ولا كرَمٌ من غيرِ حاجةٍ، ولا شجاعةٌ من غيرِ مُخاطَرةٍ؛ فالفضائلُ والخيراتُ لا تظهَرُ إلا بأضدادِها، فالشِّبَعُ مع الجُوع، والرِّيُّ مع الظَّمَأ، والدِّفْءُ مع البَرْدِ، وما عرَفَه المؤمنُ من حكمةِ الله في خلقِهِ وأسرارِ كونِه وآياتِه فهو بفضلِ الله، وما خفِيَ سلَّمَه لربِّه العليم الخبير.

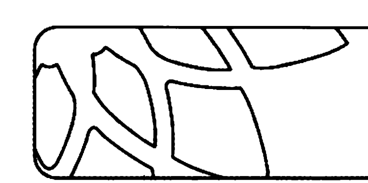
المؤمنُ المُطمئنُّ الراضِي يلهَجُ بذكرِ الله، ويستشعِرُ نعَمَ الله: (الحمدُ لله الذي أطعمَنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا، وجعلَنا مُسلمين). (الحمدُ لله الذي كساني هذا ورَزَقنيه من غيرِ حولٍ مني ولا قُوَّةٍ). و(الحمدُ لله الذي أحياني بعد ما أماتَني وإليه النشور). (الحمدُ لله الذي أذهبَ عني الأذَى وعافاني). (اللهم إني أصبَحتُ منك في نعمةٍ وعافيةٍ وسِترٍ، فأتِمَّ عليَّ نِعمتَك وعافِيَتك وسِترَكَ في الدنيا والآخرة). (اللهم ما أصبَحَ بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقِكَ فمنك وحدَكَ لا شريكَ لك، فلك الحمدُ ولك الشكرُ). فالحمدُ لله رب العالمين، والحمدُ لله على كل حال.

هذا هو المؤمنُ، يغمُرُه الرِّضا والطمأنينة والسعادةُ في كل حينٍ، وعلى كل حالٍ، مُتعلِّقٌ بربِّه، راضٍ عنه، مُطمئنٌّ إليه، يتلقَّى ويتقبَّلُ أقدارَ الله في نعمائها وبأسائها، والدنيا وتقلُّباتها في إقبالِها وفي إدبارِها، ويعلمُ علمَ اليقين أن الله يُريدُ بعباده اليُسرَ ولا يُريدُ بهم العُسرَ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

المؤمنُ الراضِي السعيدُ مُوقِنٌ أن الله معه؛ فهو في معيَّة الله يحفَظُه ويكلؤُه، (أنا عند ظنِّ عبدِي بي وأنا معَه إذا ذكَرَني)، ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]. إن شعورَ المؤمن بمعيَّة الله يجعلُه في أُنسٍ دائمٍ ونعيمٍ موصولٍ.

رضيت بما قسمَ الله لي ... وفوّضتُ أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى ... كذلك يُحسن فيما بَقِي





المنجيات والمهلكات

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، فأهل أنت أن تحمد، وأهل أنت أن تعبد، وأنت على كل شيء قدير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا حياة إلا في رضاه، ولا صلاح إلا في هداه، شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالإلهية كل مصنوعاته، تسبح له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحار وحيتانها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]. وأشهد أن نبينا وقدوتنا وسيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، عليه من ربه أزكى سلام وأفضل صلاة، ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه.

أما بعد:

فأوصيكم -عباد الله- ونفسي بتقوى الله، فإنها وصيته سبحانه للأولين والآخرين من عباده، فنعم الموصي ونعم الموصى ونعمت الوصية.

بتقوى الله يتحقق تاج السعادة، وفي ظلالها ينال وسام السيادة، وعلى ضوء سناها تحصل الريادة، ومن ذرى عليائها تنطلق دفة القيادة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

عباد الله: يقول نبينا ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر؛ وأما المهلكات: فشُحٌّ مُطاع، وهوىً مُتَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه» رواه البيهقي وحسنه الألباني.

هذه المنجيات الثلاث التي كان النبي ﷺ يسألها ربه فيقول: «اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر»[1].

ذكر في الحديث ثلاثة أمراض مهلكة، وبإزائها ثلاثة علاجات لهذه الأمراض، فخشية الله مقابلة لاتِّباع الهوى؛ لأنها تمنعه، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١]، وذكر القصد في الغنى والفقر بإزاء الشح المطاع، وذكر كلمة الحق في الغضب والرضا بإزاء إعجاب المرء بنفسه.

إن تقوى الله وخشيته بالسر والعلانية ملاك الأمور، فيها مراقبة العلام على الدوام، والاستحياء منه سبحانه وتعالى؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]، أي: ينجيه من كل كرب، ولو كانت السموات والأرض رتقًا على عبد فاتقى الله؛ لجعل له من بينهما مخرجا.

وهكذا جعل الله للمهاجرين الفرج، وجعل لأم إسماعيل الفرج، وجاء بالفرج لعباده الثلاثة في الغار، وكذلك نجى جريجًا بعدما شفى أيوب، ولا يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم، قال إسحاق الغزواني: (زحف إلينا أزدمهر -من قادة الفرس- عند مدينة الكيرج في ثمانين فيلًا، فكادت تنفض الخيول والصفوف -يعني: صفوف المسلمين-.

فكَرِب لذلك محمد بن القاسم -قائد المسلمين-، فنادى عمران بن النعمان أهل حمص وأمراء الأجناد فنهضوا، فما استطاعوا، فلما أعيته الأمور نادى مرارًا: لا حول ولا قوة إلا بالله! فكف الله الفيلة، وسلط عليها الحَر، ففزعت إلى الماء، وتركت الساحة، فحملت خيل المسلمين، وكان الفتح بإذن الله).

---

(١) صحيح النسائي للألباني (١٣٠٤).

فمهما كان عند العدو من عدد وعُدد فإن المسلمين إذا اتقوا الله ذهب الله بسلاح الكفار، وجعل الدائرة عليهم؛ المؤمن على خير، ترحب به الأرض، وتستبشر به السماء، ولن يساء إليه في بطنها إذا أحسن على ظهرها؛ يا عبد الله! لن يساء إليك في بطنها إذا أحسنت على ظهرها.

والقول بالحق في الرضا والسخط، يعني: أن نقول الحق في الغضب، في الرضا، على نفسك، على قريبك، أين ما كنت؛ وهكذا يقول الحق ولا يبالي، الإسلام يربي المسلم على هذا المبدأ؛ لأن قول الحق مهم، إذا لم يقل الإنسان بالحق خفي الحق، وظهر الظلم، وانحسر العدل، وذهبت الحقوق، وضاعت الأمور.

فلابد أن يُربي الإنسان نفسه على قول الحق، وأن نربي أولادنا من الصغر على قول الحق، ولذلك لو أنك سألت ولدك من كسر كذا؟ فصدق معك، وقال: أنا، ربما تكون عدم معاقبته مكافأة على صدقه؛ فيتعود الصدق، بينما لو عاقبته مباشرة -هذه قضية تنشأ من الصغر-يا عباد الله- وهذا القول بالحق عزيز؛ لأن النفس تدعو إلى قول الباطل؛ لتحصل على ما ليس لها.

كان الصحابة قوالين بالحق، حتى عندما يُظلم الواحد منهم لا يتعدى في الانتصار؛ لما جاء رجل إلى عمر وافترى على سعد وقال: إن سعدًا لا يسير بالسرية -يعني: تارك الجهاد في سبيل الله-، ولا يقسم بالسوية -يعني: هو أمير علينا لا يعدل-، ولا يعدل في القضية.

فقال سعد: «أما والله لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا -بالاحتياط في الدعاء، بعض الناس إذا أراد أن يدعو على شخص أسرف وفجر- قال: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة؛ فأطل عمره، وأطل فقره، وعرِّضْه للفتن». فكان هذا الرجل بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد، يتعرض للجواري بالطرقات وقد سقط حاجباه على عينيه من كبر السن، هكذا ينظر إليه الناس.

عباد الله: ومن الواجب قول الحق ولو كان في الأعداء؛ لّما بعث النبي عليه -الصلاة والسلام- عبد الله بن رواحه إلى خيبر يخرص عليهم -اليهود أبقاهم في خيبر يعملون على شيء والباقي للمسلمين-، فعبد الله بن رواحه يحسب الآن ثمار الأشجار، جعلوا له حليًا من حلي نسائهم رشوة، فقالوا له: هذا لك، وخفف عنا، وتجاوز في القسْم، فقال لهم: «يا معشر

اليهود، أنتم أبغض الخلق إليّ، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم» -يعني: أنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، ولكن لا يحملني بغضي لكم على أن أجور عليكم-، قالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

أثنى الله تعالى على أنبيائه: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص:٤٥]، قوة في تنفيذ الحق: أولي الأيدي، وبصيرة في الدين.

والحديث يقول ثالثًا: «القصد في الغنى والفقر»، بعض الناس إذا جاءه المال أسرف، وإذا قل عنده بخل، ما عنده ميزان ولا ميزانية، قال: (والقصد في الغنى والفقر)، حسن تدبير، قوة عقل، اقتصاد، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩]، ﴿إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ [الفرقان:٦٧].

وهكذا كان الاقتصاد من النبوة، (كفى بالمرء سرفًا أن يشتري كل ما اشتهى)، كما قال عمر: أكلما اشتهيت اشتريت؟ ولذلك قال العلماء: الاقتصاد خلق محمود، يتولد من خلقين: العدل والحكمة، فبالعدل يعتدل، وبالحكمة يضع الأشياء في مواضعها؛ فالإمساك في موضع الإنفاق مذموم، والإنفاق في موضع الإمساك مذموم، مثال على الإنفاق في موضع الإمساك: الإنفاق في المحرمات، لا تنفق ولا ريالا.

قال: (وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه)، الشح: منع الحقوق، الشح: يشمل البخل، لكن الشح أسوأ من البخل، كيف؟ يقول عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الشح أشد من البخل، الشحيح يشح على ما في يديه فيحبسه، وهذا يفعله البخيل، ويشح على ما في أيدي الناس حتى يأخذه».

ففي هذا يفوق الشحيح البخيل سوءًا، فهو يأخذ ما في أيدي الناس، يأخذ حقوق الناس، ويمنعهم حقوقهم. هكذا إذًا: (شحًا مطاعًا)، خصلة ذميمة، خلة شنيعة، شدة الحرص توجب البخل والظلم، ومنع الخير، بل وكراهية الخير.

والنبي عليه الصلاة والسلام قال لنا: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج»[1]، وقال: «لا يجتمع الشح والإيمان في جوف عبد»[2]، و«شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع»[3].

من القصص التي فيها عبرة فيما جاء عن سلفنا: دخل الحسن البصري على رجل يعوده في مرضه، فرآه يصوب بصره في صندوق في بيته ويصعده؛ ثم قال الرجل للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤدِّ فيها زكاة، ولم أصل منها رحمًا؟ قال: (ثكلتك أمك! ولمن كنت تجمعها؟! قال: لروعة الزمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشيرة.

ثم مات الرجل، فشهده الحسن، فلما فرغ من دفنه قال: انظروا إلى هذا المسكين أتاه شيطانه، فحذره روعة زمانه، وجفوة سلطانه، ومكاثرة عشيرته عما رزقه الله إياه، وغمره فيه، انظروا كيف خرج منها مسلوبًا محزونًا!).

ثم التفت إلى الوارث -السلف يوصون الورثة في المقبرة- وقال له: (أيها الوارث، لا تخدعن كما خُدع صويحبك بالأمس، أتاك هذا المال حلالًا -يعني: من طريق الميراث-، فلا يكونن عليك وبالًا، أتاك عفوًا صفوًا ممن كان له جَموعًا مَنوعًا من باطل جمعه، وحق منعه؛ قطع فيه لجج البحار، ومفاوز القفار، لم تكدح أنت فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين، إن يوم القيامة يوم ذو حسرات، وإن من أعظم الحسرات غدًا أن ترى مالَك في ميزان غيرك! فيالها من عثرة لا تُقال، وتوبة لا تُنال!).

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، نسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٧) ومسلم (١٥٧).

(٢) صحيح النسائي (٣١١٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٥١١) وصححه الألباني.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين؛ أشهد أن لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله: ينبغي على المسلم أن يكون كريمًا بخلقه، كريمًا بماله، كريمًا بجاهه، كريمًا بعلمه، يقدم ولا يسأل الناس شيئًا، وسيبقى البخل وصمة عار، وإمساك الحقوق مسبة.

هذا الشح يورث قطيعة الرحم، والظلم، والبغي، والعدوان، ويجرِّئ على المعاصي، ويغضب الرحمن، ويهلك الإنسان، «إياكم والشح، فإنما أهلك من قبلكم الشح»[1]؛ ويورث الشح منع الحقوق، والبخل من الشح، قالت أم البنين -أخت عمر بن عبد العزيز-: (أفٍّ للبخل! والله لو كان طريقًا ما سلكته، وثوبًا ما لبسته).

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، عبد الرحمن بن عوف كان يُكثر من الدعاء في الطواف: «اللهم قني شح نفسي». فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا! قال: «إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة».

وذكر بعض أهل العلم: أن جماعة من المحدثين منهم أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وحُبيش بن مبشر الثقفي جلسوا يومًا فأجمعوا أنهم لا يعرفون رجلًا صالحًا بخيلًا، فلا بد أن يكون البخل يورث الفسق، ويورث الفساد، والذي لا يُعطي سيبقى هذا عارًا عليه.

قال الشاعر:

أَمِنْ دَارِ الكِلابِ تَرومُ عَظْمًا؟ ... لَقَدْ حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْمُحَالِ!

وقال عمرو بن الأهتم يدعو زوجته أن تترك لومه في بذله وكرمه:

ذَرِينِي فَإِنَّ البُخْلَ يَا أُمَّ هَيْثَمٍ ... لِصَالِحِ أَخْلاقِ الرِّجَالِ سَروقُ

ذَرِينِي وَحَظِّي فِي هَوَايَ فَإِنَّنِي ... عَلَى الحَسَبِ العَالِي الرفيعِ شَفُوقُ

وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الهُدُوءِ دَعَوْتُهُ ... وَقَدْ حَانَ مِنْ نَجْمِ الشِّتَاءِ خُفُوقُ

---

(١) رواه أبو داود (١٦٩٨) وصححه الألباني.

فقالت الزوجة الصالحة -وهذا أثر أهل البيت في تثبيت الإنسان على خير في نفسه-:

فقُلْتُ لَهُ: أهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا   فَهذا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَغَبُوقُ

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بِأهْلِهَا   وَلَكِنَّ أخلاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

الهوى المتبع خطير جدًا، الهوى ما تميل إليه النفس، الهوى يهوي بصاحبه في النار، الهوى يُتّبع، يجذب، ولكن يسحب إلى الدركات، صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، إذا تكلم فبهواه، وإذا صمت فبهواه، وإذا أعطى فلهواه، وإذا منع فلهواه، يعيش لهواه، يُعميه ويصميه.

إن المأسور مَن أسره هواه، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣]، فأنت اليوم ترى أصحاب العلاقات على الشبكات وفي الاتصالات يتبعون الهوى، فهذا يصاحب امرأة، والله قال: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، غير مسافحين ولا متخذي أخدان.

لقد دخل الهوى في العلاقات الشخصية، فصِرتَ ترى المحادثات والمكالمات والعلاقات مبنية على الهوى، يستجريهم الهوى، يتقاذفهم الهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

في البدع والضلالات الهوى، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣]، وهكذا الذين يتيحون المجال للهوى أن يتلاعب بهم. أهل البدع حذر السلف من مجالستهم، لا تجالسوا أهل الأهواء، الهوى يجذب، ولكن الذي يمنع نفسه من الهوى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

قالوا: إن شخصًا كان يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة، فمشى إلى جانبها ثم قال:

أَهْوَى هَوَى الدِّينِ واللَّذاتُ تُعْجِبُنِي   فكيفَ لي بِهَوَى اللَّذَّاتِ والدِّين؟

نريد أن نجمع بين المتناقضات، نجمع بين الصلاة في المسجد ورؤية الأفلام الإباحية! نريد أن نجمع بين الأدعية والاستغفار وقراءة القرآن وإقامة العلاقات المحرمة، ونريد أن نجمع بين الصدقات والزكاة وبين الربا!.

أَهْوَى هَوَى الدِّينِ واللَّذاتُ تُعْجِبُنِي   فكيفَ لي بِهَوَى اللَّذَّاتِ والدِّين؟



أنا أطوف حول الكعبة وأنظر إلى النساء الأجنبيات، فكيف لي بهوى اللـذات والـدين؟! فقالت المرأة: دع أحدهما تنل الآخر. لا مجال للجمع بين النقيضين، دع أحدهما تنـل الآخـر. الذي يُفكر بالجمع بين نقيضين لا يمكن، يكذب على نفسه، يكذب على الله قبـل ذلـك. وإذا تأملت حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كـل واحـد مـنهم خـالف هواه، فنال تلك الرتبة.

قوله في الحديث: «وإعجاب المرء بنفسه»، هذه مصيبة! فمن الناس مـن يُعجَـب بذكائـه وتفكيره وعبقريته ورأيه، منهم من يُعجب بخطه، منهم من يُعجب بعضلاته وجسده وقوته، منهم من يُعجب بمنصبه، منهم من يُعجب بماله، منهم من يُعجب بأولاده، منهم من يُعجب بخدمه، منهم من يُعجب ببيته ومركبه، إعجاب المرء بنفسه قاتل.

رأى محمد بن واسع ابنًا له يمشي مشية منكرة فقال له: تدري بكم شُريت أمك؟ لأن أمه كانت أمة، بثلاثمائة درهم، وأبوك لا كثر الله في المسلمين مثله، وأنت تمشي هـذه المشـية! قـال بعضهم: (رأيت في الطواف رجلًا بين يديه خُدام يمنعون منه الناس، ثم رأيته بعد ذلك عـلى جسر ببغداد ذليلا يسأل الناس، فتعجبت منه، فقلت: أنت الذي كنت في مكة؟! قـال: نعـم، إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه).

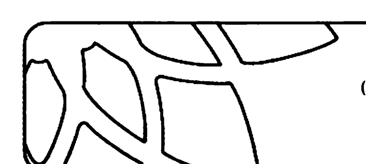
عباد الله: ما الذي يملكه الإنسان حتى يُعجب بنفسه؟ رأى مالك بن دينار رجل يمشـي بخيلاء، فنهاه، فقال الرجل: ألا تدري من أنا؟ قال: (نعم، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفـة قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة).

لقد كان الصالحون لا يرون أنفسهم شيئًا، بل يحذرون أشـد الحـذر أن يهلكهـم العجـب والكبر، أو أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة إكبار، وإلى غيرهم نظرة احتقار.

قيل لأحمد بن حنبل: جزاك الله عن الإسلام خيرًا. فقال: (بل جـزى الله الإسـلام عنـي خيرًا، من أنا؟ وما أنا؟) وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: لا يزال الناس بخـير مـا أبقـاك الله فيهم. فقال: «اسكت، لا يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم».

نسأل الله أن يرزقنا التواضع، والقناعة، وأن يهدي قلوبنا، ويسدد نياتنا..





أثر الذنوب والمعاصي[1]

الخطبة الأولى:

الحمد الذي أوجد الخليقة من عدم وأنشاها، وقام بأرزاقها وكفاها، وأبان لها طريق رشدها وهداها، ومنّ بفضله على خلاصة اصطفاها، فهي في مراضيه تدأب وبطاعته تتباهى، أحمده سبحانه على نعم تتناهى، وأشكره شكر من عرف نعمه فرعاها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف معناها وعمل بمقتضاها، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في سبيل الله ورفعوا لواها.

أما بعد:

عباد الله: اتقوا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه في السر والعلن ولا تعصوه، واعلموا أن الذنوب والمعاصي تضر في الحال والمآل، وأن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان.

وما في الدنيا والآخرة شر وداء، إلا وسببه الذنوب والمعاصي، فبسببها أُخرج آدم عَلَيهِالسَّلَامْ من الجنة، وأخرج إبليس من ملكوت السموات، وأُغرق قوم نوح، وسُلطت الريح العقيم على قوم عاد، وأرسلت الصيحة على قوم ثمود، ورفعت قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها الله عليهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجّيل منضود، وأرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظُلل.. فسبب المصائب والفتن كلها الذنوب، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]. فالذنوب والمعاصي ما حلت في ديار إلا أهلكتها، ولا في قلوب إلا أعمتها، ولا في أجساد إلا عذبتها، ولا في أمة إلا أذلتها، ولا في نفوس إلا أفسدتها، ولا في نعم إلا نغّصتها وأزالتها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

(١) علي بن عبدالله النمي.

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وحُطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]. ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء:١٦٠].

ومن شؤم المعصية: أنها تمنع القطر، وتسلط السلطان، ففي سنن ابن ماجه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤن وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القِطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»(1). وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]. قال: (دواب الأرض تلعنهم، يقولون: يُمنع عنا القطر بخطاياهم).

وقال عكرمة: (دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون: مُنعنا القطر بذنوب بني آدم).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم».

وشؤم المعصية بلغ البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ومن شؤم المعصية أنها تورث الذل والمهانة، وتفسد العقل وتشوش الذهن، وتورث الهم والغم، وتضعف الجوارح، وتعمي البصائر، وتُظلم بالقلوب، وتضيق الصدور، وصدق الله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٢٦٢).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه. وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن»(1)، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلب هكذا مثل الكف فيذنب الذنب فينقبض منه ثم يذنب الذنب فينقبض منه حتى يختم عليه فيسمع الخير، فلا يجد له مساغًا».

وقال الحسن: (الذنب على الذنب، ثم الذنب على الذنب حتى يغمر القلب فيموت. فإذا مات قلب الإنسان لم ينتفع به صاحبه). قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

وقال سليمان التيمي: (إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته).

ومن خطورة المعاصي أنها تضعف الحفظ، وربما أذهبته، وتحرم صاحبها العلم، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نورٌ ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

فاتقوا الله عباد الله: واحذروا غوائل الذنوب، ولا تستهينوا بعواقبها، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أقلّوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله عَزَّوَجَلَّ بشيء أفضل من قلة الذنوب.

قال بلال بن سعد: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت).

---

(١) صحيح الجامع (١٦٧٠).

وقال بشر: (لو تفكَّر الناس في عظمة الله، ما عصوه عَزَّوَجَلَّ).

وقال وهيب بن الورد: (اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك).

ومن خطورة السيئة وشؤمها فعل السيئة بعدها: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠].

قال أبو الحسن المزين: (الذنب عقوبة الذنب).

وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ أن سبب كفر بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء أنهم اقترفوا المعاصي، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

واعلموا - عباد الله - أن الذنب دَين في ذمة فاعله لا بد من التوبة منه لمحو أثره وتفادي سوء عاقبته. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: البِر لا يبلى، والإثم لا يُنسى.

وقال الفضيل بن عياض: (ما عملت ذنبًا إلا وجدته في خلق زوجتي ودابتي).

ونظر أحد العُبّاد إلى صبي فتأمل محاسنه، فأُتي في منامه وقيل له: لتجدن غِبّها -أي: أثرها- ولو بعد حين. فنسي القرآن بعد سنين.

وقال ابن سيرين حين ركبه الدَّين واغتمَّ لذلك: (إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة، وقيل: إنه عيَّر رجلًا بالفقر، وقال له: يا مفلس، فأُصيب بها أصيب به).

ومن أضرار الذنوب والمعاصي أنها تثقل صاحبها عن العبادة، كما قال رجل للحسن: يا أبا سعيد! إني أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك.

وقال الحسن: (إن الرجل ليذنب الذنب فيُحرم به قيام الليل).

وقال الثوري: (حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته).

وقال أبو سليمان الداراني: (لا تفوت أحد صلاة الجماعة إلا بذنب).

وقال بعض السلف: كم من أكلة - يعني من حرام - منعت قيام ليلة، وكم من نظرة - يعني: حرام - منعت قراءة سورة. ومن هنا نجد أن سبب انصراف الكثير عن تلاوة القرآن

وتدبره ولذة تلاوته وترتيله؛ إنما هي ذنوب ارتُكبت، ثم استهان بها أصحابها فنسوها ولم يستغفروا منها، فكانت سببًا لحرمان ذلك النعيم المقيم والخير العميم، من تلاوة كتاب الله العظيم.

لذا فإن المؤمن العاقل يجتهد في البعد عن الذنوب، ويهجر أهل الذنوب والمعاصي، فإن شؤم معصيتهم يبلغه. ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم، قال: قلت: يا رسول الله! يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم»(١).

ولما تزلزلت المدينة على عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: والله لئن عادت مرة أخرى لا أساكنكم فيها. أي: أن ذلك لم يكن إلا بذنوبهم!

نسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يوفقنا لما يرضيه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري (٢١١٨) ومسلم (٢٨٨٢).

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

خــــل الــــذنوب صــــغيرها وكبيرهـــــا فهـــــو التقـــــى
واصــــنع كـــماشٍ فـــوق أر ض الشـــوك يحـــذر مـــا يـــرى
لا تحقـــــرنَّ صـــــغيرةً إن الجبـــال مـــن الحصـــى

عباد الله: كما أن الذنوب والمعاصي تمحق بركة العمر، وبركة الرزق والمال، وبركة العلم والعمل، وبركة الأهل والذرية، فكذلك الاستقامة على طاعة الله وتقواه سبب الحياة الهانئة والعيشة الطيبة الرغيدة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، وهي تجلب البركة على العباد والبلاد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]. قال الحسن: (لو استقاموا على طاعة الله، وما أمروا به لأكثر الله لهم الأموال حتى يغتنوا بها). ثم يقول الحسن: (والله إن كان أصحاب محمد لكذلك، كانوا سامعين لله مطيعين له، فُتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر). قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق».

وحين كان ابن آدم عرضة للذنب، فمن رحمة الله أن فتح له باب التوبة والاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ علّه أن يسلم مما تسببه من الأكدار، ويحصل البركات التي تمنعها الذنوب والأوزار، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

فَيَا أَيُّهَا الْمُذْنِبُونَ وَيَا أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ إِلَى اللهِ؟ وَهَلْ مِنْ عَوْدَةٍ إِلَى الْغَفُورِ الرَّحِيمِ؟

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٣-٥٥].

فاتقوا الله عباد الله: واستقيموا إليه واستغفروه، وتوبوا إلى الله، يقول النبي ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة»(١). وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]. وعلى العبد المؤمن أن يأخذ بأسباب المغفرة وأجلها التوبة النصوح والاستغفار والاعتراف بالذنب والندم عليه.

وفي الحديث: «ما من عبد يذنب ذنبًا فيتوضأ، فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب، إلا غفر الله له»(٢).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلًا أذنب ذنبًا فقال: أي رب! أذنبت ذنبًا. أو قال: عملت عملًا، فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: عبدي عمل ذنبًا، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب. قد غفرت لعبدي»(٣). وقال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر الله له»(٤).

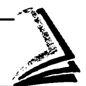
فيا من تكاسل عن الصلاة: أما آن الأوان أن تعود إلى مولاك، فإنه مشتاق لرؤيتك بين يديه، سيفرح بعودتك رحمة منه بك، لا حاجة منه إليك.

ويا من عقَّ والديه، وقطع رحمه، وأساء لأهله وجيرانه، الله الله في حسن العشرة، والبر والصلة، فليس شيء أسرع جزاء من البر والصلة، ولا أسرع عقوبة من البغي والقطيعة والظلم.

ويا من خاض في المال الحرام، إياك إياك، واقنع بما من الحلال أغناك، فإنما تتخوض بالحرام في نار جهنم، وإنما تأكل من جمر جهنم.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).
(٢) صحيح الجامع (٥٧٣٨).
(٣) رواه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).
(٤) صحيح ابن حبان (٦٢٤).



ويا من أطلقت بصرك في الحرام، تذكر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، وتذكر الأعمى الذي يود لو أنه اكتفى عن استجداء الآخرين، ولا تنس أنك مسؤول عن هذه النعمة العظيمة.

ويا من اعتاد إطلاق لسانه فيما لا يرضي الله، والخوض في أعراض الآخرين، من غيبة ونميمة، وكذب وسخرية، وتفاخر واستهزاء، وغمز ولمز، ولعن وطعن، كفى كفى، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، اعقل لسانك، فالعاقل للسانه عاقل. «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم».

عباد الله: لقد نصح الله عباده إلى المسارعة بالتوبة و البعد عن التسويف فقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

و قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]

قال السعدي: (أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام).

فينبغي المسابقة والمسارعة إلى التوبة دون تردد أو تسويف، وتدارك ما بقي من العمر بالرجوع إلى الله والفرار إليه سبحانه، فالبدار البدار إخوة الإيمان، و الفرار الفرار، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠]. بادروا بالتوبة قبل الفوات: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

اسمع إلى هذه القصة: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها، فلما قعد مقعد الرجل من امرأته، أرعدت فبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة. قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل فقال: اذهبي والدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي الكفل ربه أبدا. فمات من ليلته. وأصبح مكتوبا على بابه: قد غُفر للكفل.

ماذا لو تأخر قليلًا؟ ماذا لو لم يتب في تلك الليلة؟ ماذا لو وقع في الفاحشة؟ ماذا لو هجم عليه هاذم اللذات وهو سادر في غفلته منغمس في شهوته؟ كيف ستكون خاتمته؟

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها   من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقى عواقب سوء في مغبتها   لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ

فهل نبادر إخوة الإيمان بالتوبة إلى الله قبل أن يوافينا الأجل؟ هل نستغل فرصة الحياة قبل أن تتصرم ونحن في لهو و غفلة، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٦-٥٨]

أخي الحبيب كم سمعنا من المواعظ فما اتعظنا؟ وكم سمعنا من التذكير فما تذكرنا؟ فإلى متى اللهو والغفلة؟ وإلى متى التسويف بالتوبة وأنت لا تدري متى فجأة الموت وحلول الأجل؟

أخي جرب أن تسمع موعظة مؤثرة، أو تستمتع بتلاوة خاشعة، أو ترتل آيات القرآن، قف مع نفسك وقفة حازمه وحاسب نفسك و اتخذ قرار الرجعة والتوبة والإنابة، وإياك ثم إياك من التسويف.

أخي الكريم: كلنا نذنب، ونقصّر، لكن لنتذكر أن الله كريم جواد، تواب رحيم، بر كريم، يفرح بتوبة التائبين، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها، فلترجع أيها العاصي إلى من بيده النواصي، كفى طاعة للنفوس في أهوائها، كفى سعيًا وراء شهواتها، آن الأوان لتقديم ما يحبه الله ويرضاه، على ما تحبه النفس وتهواه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

أسأل الله الرحيم الرحمن أن يفتح لنا أبواب رحمته و يرزقنا التوبة النصوح يحسن لنا الختام.



ذنوب الخلوات(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله السميع العليم، يعلم السر وأخفى وهو بكل شيء عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.. به المعتصم وإليه الملتجا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، سيد الأتقياء، وإمام الصالحين الأولياء، خير الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فلا يزال الإنسان في هذه الحياة الدنيا بين الخطأ والصواب، والحسنة والسيئة - إلا من عصم الله - حتى يلقى ربه، فيجد ما عمل حاضرًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. تعرض الأعمال على الله فلا تخفى منها خافية، هناك وفي تلك الساعة يتذكر الإنسان ما قدمت يداه، وينظر ما عملت يمينه ويسراه،، وتبلى السرائر، ويفاجئ كل عامل بما أسرَّ وأعلن، يذكِّره الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]، حينئذٍ تظهر الحقائق، فيبرز للناس رجال على هيئة أهل الدين والصلاح، لم يكن يرى منهم إلا كل خير، ولهم أعمال كجبال تهامة؛ لكنها تذهب كلها يوم القيامة هباء منثورًا؛ بعد التعب والنصب، والجد في العبادة والاجتهاد في الدنيا، فما سبب ذلك وعلته؟

---

(١) صالح بن حميد.

يبينها المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - إذ يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا؛ فيجعلها الله عَزَّوَجَلَّ هباءً منثورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم!! قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»(١).. وما أهم أن نتأمل هذا الحديث العظيم الذي يكاد قلب السامع له أن ينفطر خوفًا أن يكون ممن اتصف بشيء مما فيه، حين يأتي يوم القيامة وهو فرح بما قدم من الصالحات، مطمئن بما عنده من القربات، واثق بما بذل من جهود وأعطى من هبات!!

وإذا كان صاحب رسول الله ﷺ ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يخاف أن يكون منهم، ويحذر أن يكون من جملتهم؛ فماذا سنقول نحن والتقصير قد ملأ حياتنا، ومنسوب الإيمان قد قلَّ في قلوبنا - إلا من رحم الله -؟ يقول ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: صفهم لنا، جلهم لنا، فيجيب المصطفى ﷺ بما لم يكن في الحسبان، ويخبر - بأبي هو وأمي - أنهم من المسلمين، ولهم من الأعمال الجبارة ما لهم؛ من قيام الليل، وصدقة، وصيام؛ لكنهم جعلوا الله عَزَّوَجَلَّ أهون الناظرين إليهم عندما راقبوا الناس، فعملوا في الظاهر ما يخالف الباطن، ونسوا أو تناسوا أن الله بكل شيء عليم، وأنه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧].

إذا أفلس أهل هذه الطاعات بسبب ذنوب الخلوات، فكيف بمن هو مفلس أصلًا من فعل الطاعات ثم هو يجترئ على الله في الخلوات بانتهاك المحارم واقتراف الموبقات!

وما أهم أن يتذكر كل واحد منا ذلك، وأن يربي نفسه على الخوف من الله في السر والعلن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١]

---

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٠٥).

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وإن مكر الله تعالى لا يأمنه إلا الخاسرون الذين يمكثون على معصية الله، وارتكاب محارمه؛ حتى يفجأهم بأمره الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] ولو تأملنا في أغلب من كان هذا حاله، وسألنا عن سببه تغيره؛ لوجدنا ذنوب الخلوات هي من كانت تنخر في دينه، حتى هزل عمله وضعف - وإن كان الناس يرونه حسنًا -؛ ويلقاه يوم القيامة هباء منثورًا - نعوذ بالله من هذه الحال، ومن أحوال أهل النار -، وقد أجمع العارفون بالله بأن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن عبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات يقول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة لا يطلع عليها الناس؛ إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك؛ فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت)، وفي هذا الباب يمكن أن يدخل حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذ يقول: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله، وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها»[(١)]. ويفسر ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي يقول فيه الرسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»[(٢)]، وأما لا يبدو للناس فلا يعمله إلا الله الذي يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

يـا مـن يـرى مـد البعـوض جناحهـا في ظلمــة الليــل البهــيم الأليــل
ويــرى منــاط عروقهــا في نحرهــا والمــخ مــن تلــك العظــام النحــل
ويــرى خريــر الــدم في أوداجهــا متــنقلًا مــن مفصــل في مفصــل
ويــرى وصــول غــذا الجنــين ببطنهــا في ظلمــة الأحشــا بغــير تنقــل
ويــرى مكــان الــوطء مــن أقــدامها في ســيرها وحثيثهــا المســتعجل
ويــرى ويســمع حــس مــا هــو دونهــا في قــاع بحــر مظلــم متهــول
أمــنن عــليَّ بتوبــة تمحــو بهــا مــا كــان منـــي في الزمـــان الأول

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

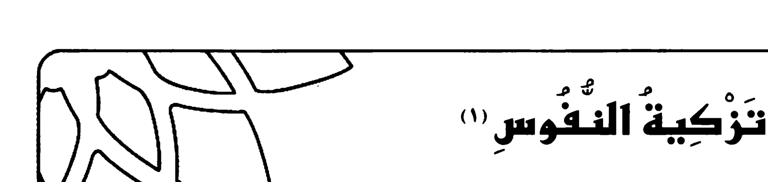
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

إن مراقبة الله في السر والعلن مما يكسب القلب نورًا وضياءً، وما تُرفَعُ به الدرجات في الدنيا والآخرة. الصحابي الجليل سعد بن معاذ استشهد وهو في ريعان الشباب حيث نزل من السماء سبعون ألف ملك يشيعونه فأي سريرة أخفاها سعد جعلت سبعين ألف ملك ينزلون يشيعون جنازته إن من الفقه إن لسعد أعمال وسرائر جعلت ذكره يشيع حتى في السموات فخرج الرسول ﷺ يجر رداءه حتى لا يغلبه أحد في الخير لا تنافسه الملائكة في إنهم يكرمون سعد أكثر منه فنزل ﷺ ودفنه وقال إن عرش الرحمن اهتز لصعود روح سعد وهذا يدل أن الملأ الاعلى يحتفون بأرواح الصالحين وربما رجل في الدنيا لا يعرفه أحد ولم يظهر على الشاشات ولم يعتلي المناصب ويجهله جيرانه وربما يموت ولا يدري أحد أنه مات ولا يحمل جنازته إلا قليل وترى الناس لا يذكرونه وبعد أيام ينسونه وربما يكون عنده من الأعمال عند الله ما يحتفي به أهل السماء ويرفع مقامه ويمد له في قبره مد البصر ويرى من رحمة الله ما لا يراه غيره فالأمور كلها سرائر مودعة في القلوب وأعمال صالحة يتقرب بها إلى علام الغيوب، فالله الله في التوبة والعودة إلى الله مما كان في الخلوات، وما أخفيناه عن الناس مما لا يخفى على السميع البصير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولنملأ الخلوات - التي كانت لا تخلو من الهفوات - بالطاعات، والقرب من رب الأرض والسموات.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ... ولا أن ما تخفي عليه يغيبُ

أيها المقصرين -وكلنا كذلك- أرغموا الشيطان بصدق الندم والتوبة والانطراح بين يدي الكريم الرحمن، ليغفر بعفوه ولطفه ما سلف منا وكان، اقصموا ظهر عدوكم بالاستغفار والتوبة الصادقة، فإنها أحب شيء إلى الله، وإنه سبحانه ليفرح بها رحمةً بكم، لا حاجة إليكم، فبادروا وسارعوا وسابقوا..

اللهم اغفر لنا أجمعين،، وارحمنا يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وصل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.



تَزْكِيةُ النُّفُوسِ[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله.. الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، رضي لنا الإسلام دينًا والشريعة منهجا، أحمده سبحانه يجعل من كل همٍّ فرجا ومن كل ضيقٍ مخرجا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.. به المعتصم وإليه الملتجا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله.. بلزوم هديه الفوز والنجاة، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أولي الأحلام والنهى وذوي الحجا والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما انفلق إصباحٌ وما ليلٌ سجى، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد:

معاشر المؤمنين عباد الله: اتقوا اللهَ تعالى؛ فإنَّ مَن اتقى اللهَ وَقاهُ وأَرْشَدَه إلى خَيرِ أمورِ دينِهِ ودُنياه. وتقوى الله جلَّ وعلا: عملٌ بطاعةِ الله على نورٍ من الله رجاءَ ثوابِ الله، وترْكٌ لمعصية الله على نورٍ من الله خيفةَ عذابِ الله.

ثمَّ اعلموا - عباد الله - أنَّ مِن أَعظمِ المِنَنِ الربَّانيَّةِ والهِباتِ الإلهيةِ التي يَمُنُّ اللهُ جلَّ وعلا بها على عبدِهِ: توفيقَهُ له لتزكيةِ نفسِهِ ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

وتَزْكِيَةُ النَّفْسِ - أيها المؤمنون- أصلُها عائِدٌ إلى النَّماءِ والطَّهارةِ؛ فتزكيةُ النَّفْسِ: تنميةُ الخيراتِ والبَرَكاتِ فيها، وتطهيرُها من الأُمورِ الدَّنيئةِ والحَقَاراتِ، وقد امتنَّ اللهُ جلَّ وعلا على الأمَّةِ ببعثةِ محمدٍ ﷺ ليتلوَ على الناسِ آياتِ الله جلَّ وعلا وليُزَكِّيهم، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

أيُّها المؤمنون: إنَّ تزكيةَ النَّفسِ لها أساسٌ عظيم وأصْلٌ متين لا زكاءَ لها إلا به؛ ألا وهو توحيدُ الله وإخلاصُ الدِّينِ له جلَّ وعلا، فالتوحيدُ أساسُ التزكيةِ، ولهذا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعونَ عدوِّ الله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٨-١٩] أي: تزكَّى بتوحيد الله والبراءةِ من الشرك والكفر به جلَّ وعلا.

عباد الله: وكتابُ الله عَزَّ وَجَلَّ القرآنُ الكريمُ هو أَعْظَمُ كتابٍ لتزكيةِ النّفوسِ، فأَحْظَى الناسِ وأَحْرَاهُم بالتَّزكية أعظمُهم عنايةً بكتابِ الله وقد مر معنا قول الله جل وعلا ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٢٩].

عباد الله: ودِينُ الله جلَّ وعلا كلُّه بعقائِده العظيمةِ وعباداتِه الجليلة وأخلاقِه وآدابِه الكريمة كلُّه تزكيةٌ للنَّفْسِ ورَفْعٌ لها لعالي المقاماتِ ورفيعِ الرتب.

أيُّها المؤمنون: إنَّ تزكيةَ النَّفسِ هي فلاحُ العبدِ وسعادتُهُ في دنياهُ وأُخراهُ، ولقد أقسم الله أحد عشر قسمًا في كتابه لم يقسم بمثلها، يقول اللهُ سبحانه وتعالى في سورة الشمسِ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾ [الشمس:١-١١]، قد أفلح من زكَّى نفسَه: أي تحقَّق فلاحُهُ، والفلاحُ هو حِيازةُ الخيرِ في الدنيا والآخرةِ، فالمفلِحُ حقًّا وصِدْقًا في دنياه وأُخراه مَنْ زكَّى نفسَهُ، والخائبُ الخاسرُ مَن دسَّاها أيْ: غَمَسَها في الرذيلةِ وأوقعها في حقاراتِ الأمورِ ودنيءِ الصِّفاتِ وسيءِ المعاملاتِ والأخلاقِ، وفي الدعاءِ المأثورِ عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ»(١).

عباد الله: وينبغي أنْ نعلمَ في هذا المقامِ أنَّ التَّزكيةَ مِنَّةُ الله على مَن يشاءُ مِن عبادِهِ؛ ولهذا يقول جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١]، فعليك أيُّها المؤمنُ الراغبُ بفلاحِ نفسِكَ وسعادتِها في الدنيا والآخرةِ أنْ تُقبِلَ على

(١) صحيح الترمذي (٣٥٩١).

الله جلَّ وعلا صادقًا في الدعاءِ عظيمَ الرَّجاءِ فيما عند الله أنْ يُزكِّيَ نفسَك، ومن أعظمِ الدعواتِ في هذا البابِ ما جاء في صحيح مسلم عن النبي عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»(١).

ثمَّ أيُّها المؤمن اتبعْ هذه الدعواتِ المباركاتِ ببذلِ الأسبابِ النافعاتِ وبِمُجاهدةِ النَّفْسِ على طاعةِ ربِّ الأرضِ والسماواتِ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فلابُدَّ في هذا المقامِ من مُجاهدةٍ للنَّفْسِ وصَبْرٍ ومُصابَرةٍ ومُرابَطةٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، مُجاهدتُك لِنَفسِك على الصلاةِ وعلى الصيامِ وعلى أداءِ عموم الطاعاتِ ومُجاهدتُك لها على البعدِ عن المنكراتِ وتَوقِّ الآثامِ كلُّ ذلكم من تزكيتِك لِنَفْسِكَ.

ولهذا – عباد الله – لابدَّ في هذا الباب مِن مُجاهدةٍ للنَّفْس من جهتين:

– من جِهَةِ الأعمالِ الصالحاتِ؛ يُجاهِدُ العبدُ نفسَه لِتفعلَها.

– ومن جهة الأعمالِ المحرماتِ؛ يُجاهِدُ نفسَه على البُعد عنها.

وكلٌّ من الأمْرَينِ تزكيةٌ للنَّفْسِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٤-١٦] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٥-١٦] آياتٌ نسمعُها مُتكرراتٍ في صلاتِنا للجُمُعَةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٤-١٧] وهذا – عباد الله – في باب مُجاهدةِ النَّفْسِ على فعلِ الأوامر.

وفي باب مُجاهدةِ النَّفْسِ على تَرْكِ النَّواهي وأنَّ ذلكم داخلٌ في بابِ التَّزكيةِ يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، فهذه تزكيةٌ للنَّفْسِ.

ولهذا – عباد الله – ينبغي على المسلِمِ الناصحِ لنفسِهِ الحريصِ على زكاتِها أنْ يَتوقى المنكرات، وأنْ يتجنَّبَ المحرماتِ، وأنْ يُغلِقَ مَنافِذَ الأهواءِ والشهواتِ – وما أكثرَها –،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

وكيفَ يَطْمَعُ فِي زكاةِ نفْسِهِ مَنْ أَشْرَعَ على قلبه مَنافذَ الشـرِّ بِنَظَـرِ عَيْنَيْـهِ وسَـماعِ أُذُنيـهِ لأُمـورِ الباطلِ ومُثيراتِ الأهواءِ والشهواتِ !! فلا سبيلَ للتَّزكيةِ إلا بإغلاقِ هذه المنافذِ وأَطْرِ النَّفْسِ على الحقِّ أَطْرًا وزَمِّها بِزِمامِ الشريعةِ وأخْذِها بِخِطامِ الدِّينِ لِتنقـادَ مُستسـلِمةً مُذعِنـةً مُطيعـةً لربِّ العالمين؛ فيفوز صاحِبُها الفوزَ المبين، يقول اللهُ تبـارك وتعـالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه:٧٥-٧٦].

أسألُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيمِ بأسمائِهِ الحُسْنى وصِفاتِهِ العليا أنْ يجعلَنا جميعًـا مـن هؤلاءِ. أقول هذا القولَ واستغفرُ اللهَ لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنبٍ فاستغفروه يغفر لكم إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله عظيمِ الإحسانِ واسعِ الفضلِ والجودِ والامتنانِ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه؛ صلى اللهُ وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعدُ عباد الله: اتقوا اللهَ تعالى ربَّ العالمين.

أيُّها المؤمنون: التزكية أمر مطلوب، لكن لِيَحذَرَ المؤمنُ في هذا المقام - مقامِ تزكيةِ النَّفْسِ - أنْ يدَّعي لِنَفسِهِ زكاءَ نفسِهِ، فإنَّ المؤمنَ الصادقَ مهما اجتهد في الأعمالِ الصالحاتِ وتَباعدَ عن الأعمالِ المنكراتِ المحرماتِ لا يُزَكِّي نَفْسَهُ ولا يدَّعي لها الرِّفْعةَ والكمالَ، واللهُ جلَّ وعلا يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

المؤمنُ الصادقُ - عباد الله - لا يزالُ مُجتهِدًا في الأعمالِ الصالحاتِ والجدِّ والاجتهادِ في طاعةِ الله جلَّ وعلا، وهو في الوقتِ نفسِهِ يرى نفسَهُ مُقصِّرًا مُفرِّطًا، خائفًا أن لا يُقبَلَ منه عملُهُ، يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، جاء في المسنَد أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سألت النبيَّ ﷺ عن معنى هذه الآية قالت: يَا رَسُولَ الله أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»[1]؛ ولهذا من عظيمِ الدعاءِ: دعاءُ إمامِ الحُنَفاءِ وابنِهِ إسماعيلَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ [البقرة:١٢٧]، قرأ أحدُ السَّلفِ هذه الآيةَ الكريمةَ فبكى وقال: (إمامُ الحُنَفاءِ، خليلُ الرَّحمنِ، يَبني بيتَ الرَّحمنِ بأمرِ الرَّحمنِ ويَخافُ ألاَّ يُقبَلْ !!).

ولهذا - عباد الله- المؤمنُ الصَّادقُ يُجاهِدُ نفسَهُ على الأعمالِ الصالحاتِ، ومهما جدَّ واجتهدَ فإنَّه لا يزالُ يرى نفسَهُ مُقصِّرًا في جَنْبِ الله، ولا يزالُ راجيًا طامِعًا من الله عَزَّوَجَلَّ الإثابةَ والقبُولَ، خلافًا لِمَنْ يقومُ بقليلٍ من الأعمالِ وكثيرٍ من المخالفاتِ ثمَّ يرى نفسَه مِن أحسنِ النَّاسِ عملًا ومِن أَزْكَاهُم طاعةً لله، وهذا هو عينُ الغُرورِ - والعياذُ بالله -.

(١) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٠٣).

عباد الله: وفي بابِ تزكيةِ النَّفْسِ ينبغي على المسْلِمِ أنْ يَحذرَ من الطَرائقِ المُحدَثَةِ، والمناهجِ المبتدَعَةِ التي يدَّعي أربابُها أنَّهم يُزكُّون بها نفوسَ النَّاسِ بما ليس من دين الله تعالى، فالتَّزكيةُ حقًّا وصِدْقًا لا تكون إلا بالطريقةِ النَّبويةِ والنَّهجِ المحَمَّديّ، فكلُّ تزكيةٍ تؤَسَّسُ على غيرِ نهجِهِ فهي ضلالٌ وباطل، وفي الحديثِ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَّيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وكان صلواتُ الله وسلامُه عليه يقولُ في كلِّ خُطبةِ جُمُعةٍ: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»(٢).

فتزكية النفوس عن طريق الشرع، فلا سبيل إلى تزكية النفوس إلا من طريق الرُّسلُ، قال ابنُ القيمّ (وتزكيةُ النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدَّ، فمن زكَّى نفسه بالرياضةِ والمجاهدة والخلوةِ التي لم يجيءَ بها الرسل، فهو كالمريضِ الذي يعالجُ نفسَه برأيه، فالرسلُ أطباءُ القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم والتسليم لهم)(٣).

فبادروا عباد الله إلى تزكية النفوس وتربيتها، واعلموا أن من وسائل تزكية النفس دوام المحاسبة، قال ابن القيمّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (زكاةُ النفس وطهارتُها موقوفةٌ على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهُر ولا تصلحُ البتَّةَ إلا بمحاسبتها). قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنّ المؤمنَ لا تراهُ إلا قائمًا على نفسِه ما أرادتِ بكلمةِ كذا؟ ما أردتِ بأكلة كذا؟ ما أردتِ بمدخلِ كذا ومخرج كذا؟ ما أردتِ بهذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعودُ إلى هذا، ونحو هذا من كلامٍ، فمحاسبةِ النفسِ يّطلعُ على عيوبها ونقائضِها، فيمكنُه السعيُ في إصلاحها. وقال أيضًا: وأخطر ما على المكلَّفِ: الإهمالُ، وتركُ المحاسبةِ والاسترسال، وتسهلُ الأمورِ وتمشيتُها، فإنَّ هذا يؤولُ به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرورِ، يُغمضُ عينَه عن العواقب، ويَّتكلُ على العفو، فيهملُ محاسبةَ نفسِه والنظرَ في العاقبةِ، وإذا فعلَ ذلك سهُل عليه مواقعةُ الذنوب وأنِسَ بها، وعَسُر عليها فطامُها)(٤)،

(١) رواه مسلم (١٧١٨).
(٢) صحيح النسائي (١٥٧٧).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣١٥).
(٤) إغاثةُ اللهفان (١/ ١٣٦).

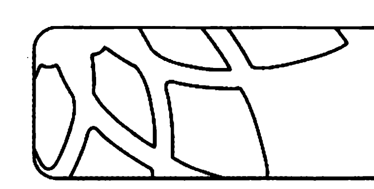
وقال ميمونُ بن مهران: (لا يكونُ الرجلُ من المتقين حتى يحاسبَ نفسَه أشدَّ من محاسبةِ شريكِهِ، حتى يعلمَ من أين مطعمُه، ومن أين ملبسُة، ومن أين مشربُه أمِنْ حلالٍ ذلك أم من حرام)(١).

ثمَّ - عباد الله - أكثِروا من الصَّلاةِ والسَّلامِ على رسولِ الله ﷺ، فقد أمرَكم اللهُ جلَّ وعلا بذلك في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا».

عباد الله: اذكروا اللهَ يذكرْكم، واشكروه على نِعَمِهِ يزدْكُم، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥].



(١) حليه الأولياء (٤/ ٨٩).



محاسبة النفس[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله خلقَ الليلَ والنهارَ، وقدَّرَهما مواقيتَ للأعمال ومقادير للأعمار، لا إلـه إلا هـو جعلَ في مرورِ الأيامِ والليالي عِبَرًا لأهل هذه الدار، أحمده سبحانه وأشكره على عظيم آلائـه، والشكرُ سبيلٌ للمزيد والاستِكثار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مُخلِصة بصدق المُعتقَد وصحةِ الإقرار، وأشهد أن سيدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسـوله النبـيُّ الأُمِّي العربيُّ الهاشميُّ المُصطفى المُختـار، صـلَّى الله وسـلَم وبـارَك عليـه وعـلى آلـه السـادة الأطهار، وأصحابه البَرَرَة الأخيار، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما تعاقبَ الليـلُ والنهـار، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسـي بتقـوى الله عَزَّوَجَلَّ، فـاتقوا الله -رحمكـم الله-، فمن عرفَ الله أعطاه حقَّه، ومن أحبَّ رسولَ الله -ﷺ- لزِمَ سنَّته، ومن قرأَ كتابَ الله عمِـلَ به، ومن أرادَ الجنةَ عمِلَ لها، ومن خافَ النارَ هربَ منها، ومن أيقنَ بالموت استعدَّ له.

يقول عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «اشتدَّ خوفي من اثنين: طولِ الأمل، واتِّباعِ الهوى؛ أمـا طـولُ الأمـل فيُنسِي، وأما اتِّباعُ الهوى فيصدُّ عن الحق».

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

عباد الله: إن تقوى القلب ومحاسبة النَّفْس طريقةُ المـؤمنين، وسِـمَةُ الموحـدين، وعنـوان الخاشعين، فالمؤمن مُتَّقٍ لربه، محاسبٌ لنفسه، مستغفِرٌ لذنبه، يعلم أن النفسَ خطرُها عظـيم،

(١) ناصر بن مسفر الزهراني.

وداؤها وخيم، ومكرها كبير، وشرها مستطير، فهي أَمَّارةٌ بالسوء، ميَّالة إلى الهوى، داعيـة إلى الجهل، قائدة إلى الهلاك، توَّاقة إلى اللهو، إلا من رحم ربي.

فلا تُتْرَكُ النفس لهواها؛ لأنها داعيةٌ إلى الطغيان، مَن أطاعها قادته إلى القبائح، وَدَعَتْـهُ إلى الرذائل، وخاضت به المكاره؛ تطلعاتُها مُريبة، وغوائلها عجيبة، ونزعاتهـا مخيفـة، وشرورهـا كثيرة؛ ولذلك علَّمَنا ﷺ في خطبة الحاجة أن نكرر دائـما، ونـردد أبـدا، قولـه: «ونعـوذ بـالله من شرور أنفسنا»[1].

والناس قسمان: قسم ظَفِرتْ به نفسُه فمَلَكتْهُ وأهلكته وسيَّرتْه فأرْدَتْه، وصار طوعا لهـا، وتحت أوامرها؛ وقسم ظفـر بنفسـه، وانتصــر عليهـا، وأمسـك زمامهـا، وأحكـم لجامهـا، فقد أفلح وأنجح؛

ومن ظفرت به نفسه فسارت به على هواها، ومشت به في رضاها، فقد خسر وهلك.

والـنَّفْسُ رَاغِبَـةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَـا وَإِذَا تُـرَدُّ إِلَى قَليـلٍ تَقْنَـعُ

فمن ترك سلطان النفس حتى طغى، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٨-٤١].

وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاثة أوصاف: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة؛ فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، وامتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه، واشتاقت إلى لقائه، وأنِست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

وإذا كانت النفس بضد ذلك فهي أَمَّارةٌ بالسوء، تـأمر صـاحبها بـما تهـواه مـن شـهَوات الغي، ودروب الردى، واتِّباع الباطل. وأما النفس اللوامة فقد قيل هـي التـي تنـدم عـلى مـا فات، وتلوم عليه.

---

(١) صحيح النسائي (١٤٠٣).

قال عطاء، عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته».

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن المؤمن، والله! ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل، فيندم ويلوم نفسه؛ وإن الفاجر ليمضي قدما لا يعاتب نفسه). فيجب أن يكون المؤمن محاسِبا لنفسه، مُتَّهِمًا لها، لائما على تقصيرها.

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]. فهذه الآية دليل على وجوب محاسبة النفس، والنظر في أحوالها، والمتابعة لأعمالها؛ يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: (أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادَّخَرْتُم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، واعلموا أنه عالمٌ بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية).

وقد أقسم الله تعالى بالنفس، وذكرها مع يوم القيامة؛ دلالةً على أهميتها ومنزلتها، وبيانا لضرورة المحاسبة وأهميتها، فقال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢] ؛ فالإنسان بصير بعيوب نفسه، عالم بدخائلها، ولو تظاهر بالأعذار وجادل عن نفسه، فلن ينفعه ذلك يوم القيامة، وهذا إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها، وإصلاح عيوبها قبل فوات الأوان.

ولقد كان السلف -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- وأرضاهم أشد الناس محاسبة لأنفسهم، واتهاما لها، واعترافا بتقصيرها وجهلها، مع ما كانوا عليه من الدين القويم، والصراط المستقيم، والقدر العظيم؛ أعمال عظيمة، وأخلاق كريمة، ونفوس مستقيمة؛ هدى وصلاح، جهاد وكفاح، بذل وعمل، جود وكرم، بكاء وندم، سهر وألم، مسارعة إلى الخيرات، منافسة في الطاعات، صفاء في النيات.

ومع ذلك كله لم يَدِلُّوا بأعمالهم، ولم يعجبوا بأحوالهم، أو يباهوا بأفعالهم، بل اتهموا أنفسهم بالتقصير، وكانوا في غاية الخوف والوجل من العلي القدير، وعلى رأسهم البشير النذير ﷺ، الذي أخبر أنه لن يدخل الجنةَ أحدٌ بعمله، حتى هو ﷺ، إلا أن يتغمده الله

برحمته، وهو الذي قام حتى تفطرت قدماه، وكان يبكي حتى تبل دموعه الثرى، وكان يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة، ويعد له وهو يستغفر لربه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة.

ولكن الإنسان يعجب حينما يتأمل أحوال كثير من الناس، أعمال قليلة، وطاعات متهالكة، وأحوال مزرية، ومع ذلك لا حساب، ولا عتاب، ولا ندم، ولا ألم، ولا خشية، ولا وجل. ذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما يقف مع نفسه وقفة محاسبة دقيقة صرخ قائلا: يا ليتني كنت شجرة تعضد.

وذاك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يخشى على نفسه أن يكون من المنافقين، وكان يقول: «والله لوددت أن أنجو يوم القيامة كفافا، لا علي ولا لي». وكان يقول: «لو نادى مُنَادٍ يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدا لخشيت أن أكون أنا». وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم؛ وتَزَيَّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية». وكتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أحد عماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه مَن حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن أَلْهَتْهُ حياتُه، وشَغَلَتْهُ أهواؤه، عاد أمره إلى الندامة والحسرة».

ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردتُّ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟). ويقول: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته). ويقول: (المؤمن قَوَّامٌ على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي؛ ولكن، والله! ما من صلة إليك، هيهات هيهات! حيل بيني وبينك؛ إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه).

ويقول مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: (رحم الله عبدا قال لنفسه: ألستِ صاحبةَ كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فكان لها قائدًا).

وقال إبراهيم التيمي: (مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها؛ ثم مثلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها؛ ثم قلت لنفسي: يا نفس! أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال: فأنتِ في الأمنية، فاعملي).

بل لقد وصل الحال ببعضهم إلى أن اتخذ في داره قبرا ينزل فيه ويغلق على نفسه، ثم ينادي ويبكي، ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، ثم يخرج من القبر ويقول لنفسه: قد أُعْطِيتِ رغبتك، فاعملي.

وكان الأحنف بن قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاسبتَه لنفسه يذكرها نار الآخرة، فيجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: (يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟).

وعن وهب بن منبه، قال: (مكتوب في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمد؛ فإن في هذه الساعة عونا على تلك الساعات، وإجماما للقلوب).

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عرف أرباب البصائر من جملة العبادات أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمَن حاسب نفسه قبل أن يحاسَب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسُن منقلبه ومآبه؛ ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاتبة، ثم بالمجاهدة).

وقال بكر بن عبد الله المزني -الذي كان آية في التقوى والصلاح-: (لما نظرتُ إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم). وقال محمد بن واسع - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إلي). ويقول ميمون بن مهران: (لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَن أحسن الظن بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه).

هكذا كانوا -رَحِمَهُمُ اللَّهُ ورضي عنهم- يلومون أنفسهم، ويبكون تقصيرهم، ومَنْ لم يتَّهِم نفسَهُ على دوامِ الأوقات كان مغرورا، ومن نَظَر إليها باستحسان فقد أهلَكَها؛ فالنِّعْمَةُ العُظْمَى هي في الخروج من حُظُوظها العاجلة، والتخلص من رِقِّها، وأعرفُ الناس بأنفسهم أشدُّ الناس محاسبةً لها، ورقابةً عليها، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد:

إخوة الإيمان: محاسبة النفس طريقٌ للنجاح، وسبب للفلاح، وأمارةُ سعادة، ودليلُ رشادة، وهنالك أمور كثيرة تعين على محاسبة النفس، وتُقَوِّي بواعث الخير فيها، ومن ذلك:

١-استشعار رقابة الله على العبد واطلاعه على خفاياه، وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣٥].

٢- أن يعلم العبد أنه مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

٣- أن يتذكر الحساب الأكبر يوم القيامة، وأن يعلم أنه من شدد على نفسه في الحساب هنا، يسَّر الله عليه الحساب هنالك: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ

تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٨].

عباد الله: إن هناك فئة من الناس خف عليها الحساب، والوقوف بين يدي رب الأرباب، فمن هي؟ إنهم أولئك الذين لازموا مبدأ المحاسبة، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن، فخفّ حسابهم الحق بين يدي الله تعالى.

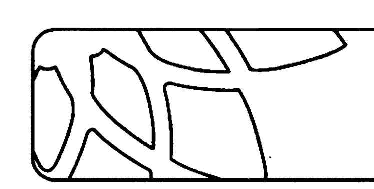
عباد الله: أكثروا من ذكر الموت، فتذكُّر الموت، وأهوال القيامة، ما ذُكر في قليل إلا كثّره، ولا كثير إلا قلله، يدعو المؤمن إلى محاسبة النفس، والأخذ بزمامها إلى طريق الخير والفلاح، يقول ﷺ: مشيرا إلى هذا الأمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»(١)، وفي رواية «واعدد نفسك في الموتى»(٢)، وقال رجل لآخر: أوصني. فقال: (عسكر الموتى ينتظرونك).

فلْنُعِدَّ للسؤال جوابا، ولْنعلم يقينا أن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، ومن تذكر هول المطلع على الله، حاسب نفسه وأعَدَّ العُدَّة.



(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٣٤٣) وصححه أحمد شاكر، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٤١٨).



التقوى والمتقين(1)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وجعل أُمتنا وله الحمد خير أمة، وبعث فينا رسولًا منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويُعلمنا الكتاب والحكمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك له شهادةً تكون لمن اعتصم بها خير عصمة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله للعالمين رحمة وخصَّه بجوامع الكلم فربما جمع أشتات الحِكَم والعلم في كلمة أو شطر كلمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً تكون لنا نورًا من كل ظلمة وسلم تسليمًا كثيرًا.

أيها الناس: أوصيكم ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، اتقوا يومًا الوقوف فيه طويل والحساب فيه ثقيل.

وبعد:

عباد الله: مع التقوى سيكون حديثنا، مع صفات المتقين سنعيش في هذه الدقائق بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

والتقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية، وتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وقاية تقيه من ذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «المتقون هم الذين يحذرون من الله وعقوبته».

وقال طلق بن حبيب رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى: (التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله).

وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢].

(١) أمير بن محمد المدري.

«تقوى الله أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

وعرّف علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- التقوى فقال: «هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

فاحرص يا أخي الكريم على تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ لتعيش سعيدًا في الدنيا وفي الآخرة.

نتكلم عن التقوى لأن التقوى هي التي تصحبنا إلى قبورنا فهي المؤنس لنا من الوحشة والمنجية لنا من عذاب الله العظيم.

دخل علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- المقبرة فقال: «يا أهل القبور ما الخبر عندكم: إن الخبر عندنا أن أموالكم قد قُسِّمت، وأن بيوتكم قد سُكنت، وأن زوجاتكم قد زُوجِّت، ثم بكى، ثم قال: والله لو استطاعوا أن يجيبوا لقالوا: إنا وجدنا أن خير الزاد التقوى».

التقوى هي خير ضمانة نحفظ بها أولادنا ومستقبل أبنائنا من بعدنا قال تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

وتأملوا عباد الله: كيف أن الله سبحانه سخّر نبيًا هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ووليًا هو الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ لإقامة جدار في قرية بخيلة فاعترض موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

ثم يخبر الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ سبب فعله بالغيب الذي أطلعه الله عليه في هذا الأمر، فيقول: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]. وقال ابن عباس: «حُفظا بصلاح أبيهما، وكان الأب السابع، والله أعلم».

والتقوى وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (الأمر بالتقوى كان عامًا لجميع الأمم)، وقال بعض أهل العلم: (هذه الآية هي رحى آي القرآن كله؛ لأن جميعه يدور عليها، فما من خير عاجل ولا آجل، ظاهر ولا باطن إلا وتقوى الله سبيل موصل إليه ووسيلة مبلّغة له، وما من شر عاجل

ولا ظاهر ولا آجل ولا باطن إلا وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ حرزٌ متين وحصنٌ حصين للسلامة منه والنجاة من ضرره).

فالتقوى أصلح للعبد وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وهي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، الكافية لجميع المهمات.

التقوى وصية النبي -صل الله عليه وسلم- لأمته فعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(1).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»(2).

والتقوى هي وصية الرسل الكرام لأقوامهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٤].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٤١-١٤٢].

والتقوى وصية السلف الصالح رضوان الله عليهم، كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في خطبته: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله»، ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه فوصاه بوصيته قائلًا: «اتق الله يا عمر».

وكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ابنه عبد الله: « أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه من اتقاه وقاه، واجعل التقوى نصب عينيك وجِلاء قلبك».

---

(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٠٧).
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

وكتب عمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ التي لا يُقبل غيرها، ولا يُرحم إلا أهلها، ولا يُثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»، ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أوصيكم بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فإن، تقوى الله خَلَف من كل سعي، وليس من تقوى الله خلف».

وقال رجل لرجل أوصني، قال: (أوصيك بتقوى الله، والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فيكفي المتقون شرفًا أن الله معهم برعايته وحفظه).

ومن وصايا الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[(١)]

ماذا نفهم من وصية النبي ﷺ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالتقوى؟

نفهم أن المرء محتاج للتقوى ولو كان أعلم العلماء، وأتقى الأتقياء، يحتاج إلى التقوى؛ لأن الإنسان تمر به حالات يضعف فيها إيمانه وينقص، يحتاج إلى التقوى للثبات عليها، يحتاج إلى التقوى للازدياد منها.

اتق الله حيثما كنت، في السر والعلانية، في الشدة والرخاء، في الخلوة والجلوة.

أتبع السيئة الحسنة تمحها، بادر إذا أخطأت أو قصرت بفعل الحسنات، فالحسنات يُذهبن السيئات.

وخالق الناس بخلقٍ حسن..، هناك أشياء بين العبد وخالقه وبينه والناس، ودخول الجنة معلَّق بخطين، العلاقة مع الله بالتقوى والعلاقة مع الناس بحسن الخلق، وهذه هي وصية النبي ﷺ في هذا الحديث..

والتقوى هي أجمل لباس يتزين به العبد، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [الأعراف:٢٦].

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيًا

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٦٠).



والتقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

وبها الطريق إلى الجنة، فقد سئل النبي ﷺ ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات، شحٌ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا»(٢).

والنبي ﷺ كان يسأل الله التقوى في دعائه فيقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»(٣).

وفي دعاء السفر كان يقول ﷺ: «اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى»(٤).

والنبي ﷺ أوصى مسافرًا فقال: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شَرَف»(٥).

إذًا فالتقوى في السفر بالذات لها طعم خاص، فالمسافر يغيّر مكانه وحاله، وقد يكون في بلاد الغربة لا يخشى مما يخشى منه في بلده وموطنه، ولا يخشى فضيحة لو عُرف، لكن في بلده يخاف الفضيحة، لذلك كانت ملازمة التقوى في السفر مهمة جدًا. وعلى كل حال الإنسان يسأل الله التقوى في السفر والحضر.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(١) حسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٤).
(٢) حسّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).
(٣) رواه مسلم (٢٧٢١).
(٤) رواه مسلم (١٣٤٢).
(٥) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٣).

عباد الله:

إن تقوى الله - إذا استقرَّت في القلوب وارتسمت بها الأقوال والأعمال والأحوال- أثمرت من الفضائل والفوائد والثمار ما تصلح به الدنيا والآخرة، وما يشحذ همم أولي الأبصار إلى صراط العزيز الغفار.

أيها المؤمنون:

إن من فوائد التقوى وثمارها أنها سبب لتيسير العسير، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]. وتقوى الله تعالى سبب لتفريج الكروب وإيجاد المخارج والحلول عند نزول الخطوب، وهي سبب لفتح سبُل الرزق، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

تقوى الله سبب لنجاة العبد من الهلاك والعذاب والسوء، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

وهي سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات والفوز بالغرف والجنات قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥].

فاتقوا الله عباد الله: فإن تقوى الله تعالى هي أكرم ما أسررتم، وأعظم ما ادخرتم وأزين ما أظهرتم.

وقال تعالى ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥].

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ... ولاقيت يوم الحشر من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم تُرصد كما كان أرصدا

وكل من أراد العز في الدين والدنيا والبركة في الرزق والوقت والعمل فعليه بتقوى الله؛ فإنها من أعظم ما استُنزلت به الخيرات واستُدفعت المكروهات.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

إن تقوى الله تعالى أعظم جُنّة يحتمي بها العبد يوم القيامة.

قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١]..

اللهم اجعل لنا وللمسلمين من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل همٍ فرجًا، اللهم فرّج هم المهمومين، واقضِ الدين عن المدينين، واغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا وللمسلمين.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

اعلموا أنّ التقوى سببٌ في توفيق العبد في الفصل بين الحق والباطل ومعرفة كل منهما: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد:٢٨].

التقوى سبب لعدم الخوف من ضرر وكيد الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].

التقوى سبب لنزول المدد من السماء عند الشدائد ولقاء الأعداء: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

التقوى سبب لتعظيم شعائر الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

التقوى سبب لنيل رحمة الله، وهذه الرحمة تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة: قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

التقوى سبب للإكرام عند الله عَزَّوَجَلَّ: قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات:١٣].

وسُئِل النبي ﷺ من أكرم الناس؟ من أرفعهم حسبًا؟ فقال: الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قالوا ليس عن هذا نسأل، بيّن لهم بعد ذلك، فقال عندما سُئِل من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم لله»(١).

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨٣).

فأكرم الناس وأفضل الناس وخير الناس عند الله أتقاهم، التقي النقي، ولذلك

فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وذُكِر أن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

التقوى سبب للفوز والفلاح، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢].

إنها سبب للنجاة يوم القيامة من عذاب الله: قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ [الليل:١٧].

إنها سبب لقبول الأعمال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧].

التقوى طريق لميراث الجنة قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم:٦٣].

إن المتقين لهم في الجنة غرفٌ مبنية من فوقها غرف: قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:٢٠].

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْـجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(١).

فلا يفعل هذه الأعمال المباركة إلا المتقين.

إنهم بسبب تقواهم يكونون فوق الذين كفروا يوم القيامة: في محشرهم، ومنشرهم، ومسيرهم، ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة:٢١٢].

(١) رواه الترمذي وحسّنه الألباني (٢٥٢٧).

إنها سبب في دخولهم الجنة: وذلك لأن الجنة أعدت لهم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة:٦٥].

إن التقوى سبب لتكفير السيئات والعفو عن الزلات: قال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق:٥].

إن التقوى سببٌ لنيل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، قال جل شأنه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣١].

إن التقوى سبب لعدم الخوف والحزن وعدم المساس بالسوء يوم القيامة، وقال تبارك تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

إنهم يحشرون يوم القيامة وفدًا إليه تعالى، والوفد هم القادمون ركبانًا، وهو خير موفود، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم:٨٥].

إن الجنة تقرب لهم، قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١].

اللهم اجعلنا من الذين يتّقونك، حتى نجني من ثمار التقوى ما يُفرحنا يوم نلقاك، وأنت عنا راض.. يا حبيب المتقين.. يا رب!

جاء رجل إلى الجنيد - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى - وقال له: (إن الشيطان عارضني في صلاتي الليلة. فقال له الجنيد: لأنك لم تتق الله).

جاء رجل إلى بشر الحافي، فقال له: إني أخاف ألا يقبل الله أعمالي، قال له بشر: (إن كنت تخافه حقًا فاتق الله).

قال حكيم: (لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق، فطيف به في السوق لم يستحِ منه!).

قال داود لابنه سليمان: «يا بني! إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحسن توكّله على الله فيما نابه، وبحسن رضاه فيما آتاه، وبحسن زهده فيما فاته»، وقال أيضًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لو أن رجلًا اتقى مائة شيء، ولم يتق شيئًا واحدًا لم يكن من المتقين».

قال معروف الكرخي - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى -: (إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتْك امرأة ولم تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك).

قال ابن المعتمر:

خلِّ الذنوبَ صغيرها ... وكبيرها فهو التُّقى
واصنع كماشٍ فوق ... أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة إن ... الجبال من الحصى

وسأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كعبًا فقال له: «ما التقوى؟ فقال كعب: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقًا فيه شوك؟ قال: نعم. قال: فماذا فعلت؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أشمر عن ساقي، وانظر إلى مواضع قدمي وأقدم قدمًا وأؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة. فقال كعب: تلك هي التقوى. تشمير للطاعة، وترك للمعصية، وورع من الزلل، ومخافة وخشية من الكبير المتعال سبحانه».

عبد الله كيف تكون تقيًّا؟

أولًا: أن تحب الله أكثر من أي شيء.

ثانيًا: أن تستشعر مراقبة الله دائمًا.

ثالثًا: البعد عن المعاصي والأوزار.

تفنى اللذاذة ممن نال لذتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبّتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

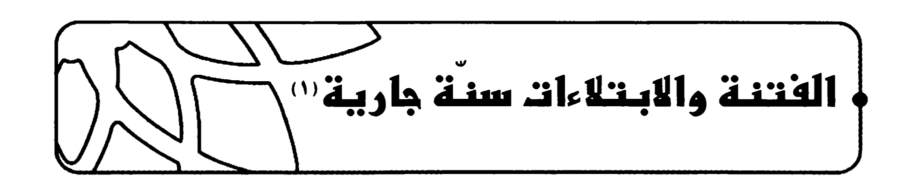


رابعًا: أن تتعلم كيف تقاوم هواك وتتغلب عليه.

خامسًا: أن تدرك مكائد الشيطان ووساوسه.

أسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من عباده المتقين، هذا وصلوا -رحمكم الله - على خير البرية، وأزكى البشرية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بذلك، فقال في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].





الفتنة والابتلاءات سنّة جارية[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله.. الحمد لله الذي له الجلال والجمال والكمال، له الأسماء الحسنى والصفات العلا وهو الكبير المتعال، أنعم على خلقه بشرعه، وجعل القلوب مخاطبات بوحيه، فمنها ما اطمأنت ومنها التي ولت فولّاها سبحانه ما تولت، ومنها التي دلت ثم زلت فمنه سبحانه يُرجى الثباتُ في الحياة وعند النزع وفي القبر بعد الممات.

أحمده سبحانه وهو للحمد أهلٌ، وأسأله العفو والصفح وهو ذو المنة والفضل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم وبارَكَ عليه - وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى حق التقوى، وأخلصوا له في السر والنجوى.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

حقيقٌ بمن اتقى الله أن يعلم أن لله يوما تُكَعُّ فيه الرجال وتُنسَف فيه الجبال وتترادف الأهوال وتَشهَد الجوارح والأوصال، وتُبلى السرائرُ ويُكشفُ ما في الضمائر؛ فرحم الله من عمل لآخرته ولم تُلْهه الدنيا عن الآخرة الباقية.

أيها المسلمون: لما خلق الله الأرض ودحاها ووضع فيها زينتها وقدَّر فيها أقواتها أسكنها خلقه من الجن والإنس، وحتى يتم نعمته ويقيمَ حجته والى فيهمُ النبواتِ وأنزل فيهم الشرائع وبعث إليهم الرسالات، وجعل الهدى والنور الذي جاء به الأنبياء هو تاجُ نعمه وذروةَ سَنامِ فضله، فلا زينةُ الدنيا ولا ممالكُ الأرض ولا خيراتُ الحياة ولا كنوزُها تَعدِل

---

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

نعمةَ الهدى والنور الذي جاء به رسل الله من لَدُنْـه؛ إذ كيـف تسـاوي هدايـة السـماء بمتـاع الأرض؟! وكيف يقايس ما عَاقِبَتُه الحسنى وجنةُ الخلد بما مآله الفناءُ والزوال؟!

وجعل الله حملةَ ميراث الأنبياء ومعتنقي شِرْعة السماء هم خيار أهل الأرض في الأرض؛ فهم الذين خالط وحيُ الله شغافَ قلوبهم، واستضاءوا بنور الله في دروبهم، وهم الذين ذلت جوارحهم وانقادت نفوسهم لشرع الله.

عباد الله: ولما كان دينُ الله عزيزًا وشريعته غالية، فإنه لا يستحق حملَها إلا خيارٌ من خيار، فكانت الابتلاءاتُ والمحن تعرض للمؤمنين والأذيةُ والفتن تحيط بالمصـدقين حتـى لا يبقـى على الدين إلا من يستحقه وليعلم الله الذين صدقوا..

الفتنة والابتلاء سنة جارية في الأولين والآخرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو حقيقة ذات تكاليفَ وأمانـةٌ ذات أعبـاء وجهـادٌ يحتاج إلى صبر، والله - تعالى- يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكنَّ الابـتلاءَ يكشـف في عالم الواقع ما هو معلومٌ لله تعالى فيحاسب الناس على ما يقع من عملهم؛ فهو فضـل مـن الله وعدل وتربيةٌ للمؤمنين وصقل.

والفتن والابتلاءات أنواعٌ وصـور: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فمنهـا السراء والضراء، ومنها الفتنة بانتشار المنكرات وغلبة الأهـواء، وكثـرة الـدعاة عـلى أبـواب جهنم وكثرة الاختلاف، وخلط الحق والباطل، ومن الفتنة أن يتعـرض المـؤمن لـلأذى مـن الباطل وأهله ثم لا يملك النصر لنفسه ولا المنعة، ومن الفتنة أن يعيش المؤمن بدينه كالغريب بـين النـاس.. قـال رسـول الله ﷺ: «بَـدَأَ الإِسْـلامُ غرِيبًـا، وسَـيَعُودُ غرِيبًـا كَـمَا بَـدَأَ؛ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(١).

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

أيها المسلمون: الحديث عن الثبات وقت المحن والصبر في البلاء والفتن حديثٌ موجه إلى عموم المؤمنين من الأخيار والصالحين والدعاة وطلبة العلم والمحتسبين حين يتسرب الوهن والإحباط إلى بعض المسلمين، ويرون تسلط الأعداء والمرجفين، ومن يُشعل فتيل الخلافات ويثير النزاعات ويطرحون الأفكار الغريبة المشتتة..

وإذا كان أثرُ العلماء والمصلحين ظاهرًا في تسكين الناس وتثبيتهم على الحق حين الشدائد وكثرة الفتن.. فإن ثمة مرجفين يجدون في أوقات ضعف الأمة وتكالب الأعداء عليها فرصًا لترويج باطلهم وتشكيك الناس في عقائدهم؛ يسخرون من الدين ويلمزون المطوعين من المؤمنين، ويُسهمون في إحباط الأمة وتخاذلها وتمييع مبادئها لتضييع هويتها..

لا تحْذُوا حذَو عصابةٍ مفتونةٍ ... يجدون كل قديمٍ أمرًا منكرا

ولَوِ اسْتَطَاعُوا في المجَامِعِ أنْكَرُوا ... مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِم أوْ عُمِّرَا

مِنْ كلِّ مَاضٍ في القَدِيمِ وهَدْمِهِ ... وإِذَا تقَدَّمَ لِلْبِنَايَةِ قَصَّرَا

أيها المسلمون: أيها الأخيار والصالحون: لقد قص الله علينا في كتابه، وروى لنا رسوله في سنته من سِيَرَ الأمم السابقة وأتباع الديانات السالفة، وقوة اطمئنان القلب لما جاء عن المرسلين على كثرة الصوارف وشدة بأس المخالف ما يبين معه أن إيمانهم لو وُزِنَ بالجبال لرجح بها، فهذا يُنشَرُ بالمِنشار من رأسه إلى قدميه ما يتزحزح عن دينه، وأولئك تُخدَّد لهم الأخاديدُ فتُسجَر بالنار ثم يقذفون فيها..

كما ضرب لنا نبينا محمدٌ ﷺ وصحابتُه الكرام أروعَ الأمثلة في الثبات على الدين؛ مما أوصل لنا الدين كاملا والعقيدة نقية صافية حتى اعتنقها ملايين البشر وعمَّتِ السهلَ والوعر.

وفي كل زمان فتنٌ وابتلاءات، ومع ذلك يبقى الدينُ ويبقى الخير، وفي زماننا هذا - ويالزماننا !! زمنِ زلزلة المفاهيم وخلخلةِ الثوابت وتقلبِ الآراء وانتكاس المبادئ.. زمنِ إعادة النظر في كل شيء دينيٍّ وإرْثٍ عقديٍّ.. زمنِ السخرية من الدين وأهله وانتقاص الشريعة وحَمَلتِها، حتى كثر المتساقطون على الطريق واستحكم اليأس في بعض النفوس؛ فصار الباعثُ على إعادة

النظر في بعض أحكام الشريعة المستقرة ليس دليلا راجحا أو مأخذًا واضحًا، إنما الباعث ضغط الواقع أو اتباع الهوى ومسايرةُ الناس.

أيها المسلمون: أيها المؤمنون.. أيها الأخيار والصالحون: المؤمن لا يهن ولا يحبط ولا يستكين ولا ييأس ولا يستوحش من الطريق لقلة السالكين، ولا ينظر إلى الهالك كيف هلك، بل ينظر إلى الناجي كيف نجا.

إننا اليوم أحوجُ ما نكون إلى الفأل والعمل والبشارة وتحفيز الهمم ومعرفة السنن.. سنن الله في أوليائه وأعدائه، سنن الإدالة والنصر والمد والجزر؛ حتى يطمئن مؤمن ولا يغتر فاجر، ولئلا يكون كثرة الباطل مدعاةً لليأس والقنوط، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:١١٦].

لا يجوز أن يضعف صاحب الحق أو يهين؛ فإن لهذا الدين إقبالا وإدبارا وامتدادًا وانحسارا.. ضعفٌ وقوة وفرقة واجتماع وغربة وظهور وابتلاء وتمكين.. ينطق بذلك وحي السماء ويؤيده تاريخُ البشر..

وفي الخبر المتفق عليه.. قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف الحرب بينكم؟ قال: سجال.. يُدال علينا مرةً ونُدَالُ عليهِ أخرى، قال: كذلك الرسلُ تُبتَلَى ثم تكونُ لهمُ العاقِبة»[1].

حكمةٌ بالغة وسنةٌ ماضية: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

أخرج الترمذي بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ قال: «يأتي على النَّاسِ زمَانٌ الصَّابرُ فيهم عَلى دِينِه كالقَابِضِ على الجَمْر»[2]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «ويلٌ للعرَبِ منْ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) ومسلم (١٧٧٣).

(٢) صحيح الترمذي (٢٢٦٠).

شرٌّ قد اقترَب؛ فِتنًا كقِطعِ الليل المظْلمِ.. يُصبحُ الرَّجلُ مؤمِنًا ويمسي كافرا؛ يبيعُ قومٌ دينَهُم بعَرَضٍ منَ الدُّنيا قليل، المتمسِكُ يومئذٍ بدينِهِ كالقَابِضِ على الجمر» أو قال: «على الشَّوك»(١).

إنها ابتلاءاتٌ وإدالات، والشدائد كاشفات لأصحاب النفوس كبيرة.. والذين لا تزيدهم إلا صبرًا ويقينا وحزمًا وعزمًا.

إخوة الإسلام: إخوة الإيمان: إننا بحاجة إلى تجديد الإيمان في قلوبنا وفي أعمالنا؛ سيَّما في وقت الشدائد والفتن: معاني الإيمان واليقين وحسن الظن بالله والتسليم، والصبر، وصدق الولاء، والتضرع لله والدعاء، وحسن المجاهدة وتهذيب النفوس وإصلاحها، والعبودية لله والاستعانة به وحسن التوكل عليه، والعمل بجدٍّ وفأل، وتوحيد الصف وجمع الكلمة، ومدافعة الباطل بلا يأس.

وكل هذه المعاني حققها المؤمنون السابقون في مُثُلٍ تُقوِّي العزائم وتشحذ الهمم، واقرأوا ما قص الله في القرآن من سيرة الرسل الكرام حتى قال الله تعالى في الختام: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي نقوي به قلبك وتسكن إليه نفسك؛ لأنهم بُلوا فصبروا، وجاهدوا فظفروا).. انتهى كلامه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

واقرأ في سيرة الرسول الكريم ﷺ وكيف كان الفأل والعمل في أحلك الظروف والمواقف:

فيبشر بظهور الدين وهو طريدٌ بين مكة والطائف - كما أخرجه ابن سعد في (الطبقات) - ويعِد سُراقةَ بسواريْ كِسرى وهو مُطاردٌ في الهجرة، وتحاصر المدينة بعشرة آلاف مقاتل وتنقض اليهود عهدها؛ فيبشر ببشارته الثلاث عند ضربه الصخرة التي عرضت - كما في صحيح البخاري -.

ودرج الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وتربَّوْا على هذه المثل، فهذا أبو بكرٍ الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقف في أحلكِ المواقف حين ارتدتِ العربُ ووقف جيش أسامة بين خطر الروم وبلاء المرتدين،

(١) رواه أحمد (٨٨٦٩) وصححه الألباني.



فيثبت أبو بكرٍ وحده حتى يثبِّت الله المؤمنين، وينفِذ للروم جيش أسامةَ، ويقاتل المرتـدين في اليمامة، ويحفظ الله الدين بمواقف المؤمنين..

إن الثبات يحتاج إلى عزيمةٍ وجد وإيمانٍ ويقين.

أيها المؤمنون: وللدعاء أثرٌ عظيم في الثبـات والنصـر، والاستعاذة مـن الفـتن واردة في الصحيحين، وفي الحديث المتفق عليه: «وأعُوذُ بِكَ مِنْ فتنةِ المحيَا والمَمات»[1]..

وما انتصر النبي ﷺ في بدر حتى سقط رداؤه من على منكبه دعاءً وتضرعا.

والعلم النافع يميِّز به المسلمُ بين الحق والباطل حين تلتبس الأهـواء، والسـير في ركـاب جماعة المسلمين أمنٌ من الفتنة، كما في حديث حذيفة المُخرَّج في الصحيحين.

ومن سيماء المؤمنين: التثبتُ من الأخبار.. خاصة فيما يتعلق بالدين وحملته، أما التَّخوُّض في الباطـل واعـتماد أخبـار الفسـاق والاتكـاء عـلى الحكايـات والقصـص الغريبـة فـذلك شأن الجهلة والغوغاء.

عباد الله: إن مرحلة الضعف والانحسار تدعو إلى إعادة بنـاء الأمـة وتسـهم في مراجعـة حالها مع ربها، وكلما اشتدت الفتن وتلاحقت كلما اشتدت الحاجة للعبادة حيث ينشرح صدر المؤمن ويطمئن قلبه، ويحرسه الله من وسوسة الشياطين وإغوائهم.

والعبادة وقت الفتن هي وصية النبي ﷺ لأمته حيث قال: «بادِرُوا بالأعمالِ الصالحةِ فتنًا كقِطعِ الليلِ المظْلِم.. يصبحُ الرجلُ مؤمِنًا ويُمسِـي كافِرا»[2]، وقـال ﷺ: «العبـادةُ في الهَـرْج كهجرةٍ إليَّ»[3].

فرقٌ بين من يتخوض في لُجَّة الفتن وبين من يركن إلى الله تعالى ويهاجر بقلبه إليه، ويتملق بين يديه ويدعو إلى سبيله ويسعى إلى الإصلاح وتسـكين الفـتن وتثبيـت النـاس عـلى الحـق ودلالتهم عليه، فرق بين من ينشر الخير ويزكيه وبين من ينشر العيوب والإحباط والتثبيط..

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٧) ومسلم (٥٩٠).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٨).

إنها سلبية لا تليق بالمسلم، ومن قال: «هلك الناس فهو أهلكهم»، والمؤمن - أبدًا - قائم على سفينة المجتمع ألا تكثر خروقها، وليس عليه إلا السعيُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

لقد قيل لمن هو خيرٌ منا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨].

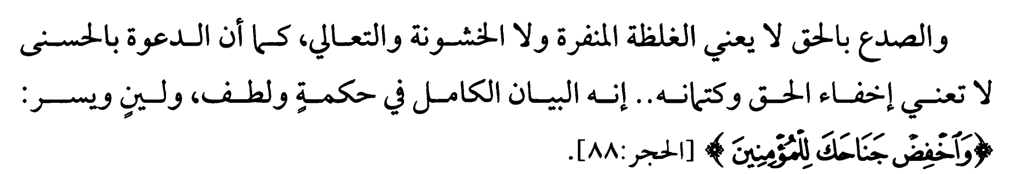
وقال من هو خيرٌ منا: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨].

والمسلم يلزم نفسه بمجالس الصلاح ويهرب من مواطن الريَب والفساد: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

وجماع كل الوصايا.. وجماع كل الوصايا ما وصى الله تعالى به رسوله محمدًا ﷺ في آخر سورة الحجر.. حيث قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٨٧-٩٩].

إن النبي ﷺ بشرٌ لا يملك أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله والاستهزاء بدعوة الحق فيغار ويضيق بالشرك والانحراف؛ لذلك يؤمر بالتسبيح والحمد والعبادة والثبات حتى يأتيه الأجل، فيُعرِض عن الكافرين ويلوذ بجوار الرب الكريم؛ ويؤمر بالصدع والبيان لأن الصدع بالحق والجهر به ضرورةٌ في الدين لتتنبهَ الفطرة الغافلة وتتعلمَ الأمم اللاهية: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

أما جعلُ العقيدة والشريعة عضين.. يُعرض جانب ويُوارى جانب مراعاةً للجماهير وأهواء الناس فهذا خلاف ما أُمر به الرسول ﷺ.



والصدع بالحق لا يعني الغلظة المنفرة ولا الخشونة والتعالي، كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني إخفاء الحق وكتمانه.. إنه البيان الكامل في حكمةٍ ولطف، ولينٍ ويسر: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بسنة سيد المرسلين..

أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله.. الحمد أول كتابه وآخر دعوى أحبابه ساكني دار ثوابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له توحيدًا وتقديسًا لجنابه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

أيها المسلمون: فإن الصبر وصية الله للرسل والأنبياء والصلحاء والأولياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

الصبر رفيق الدرب حين تظلم الدنيا، والصبر منحةٌ من الله للثبات على الحق، وحين يغتر الدهماء بالباطل إذا تكاثر واستشرفت له النفوس وتطاولت له الأعناق: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

الصبر هو الواحة الخضراء لمن فقد الظل في الصحراء، وفي خطاب الله لرسوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤].

وبعد أن ذكر الله قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذي دعا قومه عشرة قرون حتى نصره الله قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

وبعد المعارك الطاحنة في سورة (آل عمران) ونزال المشركين وجدال الكتابيين وذكر أحوال المنافقين.. ختم الله السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وإذا علم الله صدق النوايا وتميز الصابرون الصادقون وانقطعت العلائق بأسباب الأرض وتعلقت بالله القلوب تحققت سنة الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠].

أيها المسلمون: لا يزال الإنسانُ في فتن وبلاءٍ وشدَّةٍ حتى يضعَ قدمَه في الجنة، وبرحمة الله وفضلِه شرعَ سبحانه أسبابًا لزوالِ الخُطوبِ؛ فتوحيدُ الله هو أسرعُ مُخلِّصٍ للكُروب، وقد فزِعَ إلى ذلك يونسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فنُجِّيَ من الغمِّ؛ قال عليه الصلاة والسلام: «دعوةُ ذي النُّونِ: لا إله إلا أنت سُبحانك إني كنتُ من الظالمين، ما دعا بها مكروبٌ سبعَ مراتٍ إلا فرَّجَ الله كربَه»؛ رواه أبو داود.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يُلقِي في الكُرَبِ العِظام سِوى الشرك، ولا يُنجِّي منها إلا التوحيدُ، وقد علِمَ المُشرِكون أن التوحيدَ هو المُنجِّي من المهالِكِ؛ ففرعونُ نطقَ بكلمةِ التوحيد عند غرقه لينجُو ولكن بعد فواتِ الحين). والتوكُّلُ على الله وتفويضُ الأمر إليه يكشِفُ ما نزلَ، قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام:٦٤].

ولما لجأَ الرجلُ المؤمنُ من آل فرعون إلى الله كُفِي شرَّ قومه، قال سبحانه عنه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر:٤٤، ٤٥]. والتضرُّع إلى الله بالدعاء سببُ تغيُّر الحال، قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

والصلاةُ مُزيلةٌ للهموم كاشِفةٌ للغموم، والله سبحانه أمرَ بالاستعانةِ بها عند حُلولِ المصائبِ، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:١٥٣].

وذكرُ الله أنيسُ المكروبين، قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٩٧، ٩٨].

والاستغفارُ سببُ تفريجِ الخُطوبِ؛ لأن الذنوبَ هي مُوجِبُ الكُروب، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

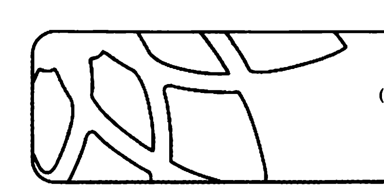
والتوبةُ تحطُّ السيئات وتُفرِّجُ الكُرُبات، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

ومن عاملَ اللهَ بالتقوى والطاعة في حال رخائِه عاملَه الله باللُّطفِ والإعانةِ في حال شدَّته، وجعل له فرقانا من الفتن والتباس الأمور: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩].

والله وعدَ عبادَه بالفرجِ بعد الشدَّة، وإذا اشتدَّ الكربُ لاحَ الفـرَج، وحُسـنُ الظـنِّ بـالله واجبٌ، والتفاؤُلُ بزوالِ ما نزلَ من المصائبِ من حُسن المُعتقَد، قال سبحانه : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦].

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ثم صـلوا وسـلموا عـلى مـن أمـركم الله بالصلاة والسلام عليه..





الاستقامة على الدين[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض بالحقِّ، ولِتُجْزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلَق الثَّقَلَيْن الجنَّ والإنسَ لِغايةٍ تُراد منهم، وهي أن يعرفوه ويعبدوه وحده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وغاية تراد بهم، وهي الجزاء بالعدل والفضل ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله وخليله، لا خير إلا دلَّ الأمةَ عليه، ولا شَرَّ إلا حذَّرَها عنه. فَصَلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى أَيُّهَا النَّاسُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى أَنْ هَدَاكُمْ للإِسْلاَمِ، وَجَعَلَكُمْ مِنْ أُمَّةِ خَيرِ الأَنَامِ، عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إِنَّ الثَّبَاتَ عَلَى دِينِ الله تَعَالَى، والاستقامةَ على صِرَاطِهِ المُستَقِيم، وَالمُدَاوَمَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالحَذَرَ مِنَ الوُقُوعِ فِي المَعَاصِي وَالمُحَرَّمَاتِ دَلِيلُ صِدْقِ الإِيمَانِ، وَثَمَرَةُ الهِدَايَةِ، وَسَبَبُ حُصُولِ الخَيرَاتِ، وَتَنَزُّلِ الرَّحَمَاتِ، وَالوُصُولِ إِلَى أَعْلَى المَقَامَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَحْقِيقِ الكَرَامَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَبِهِ يَحْصُلُ اليَقِينُ، وَمَرْضَاةُ رَبِّ العَالَمِينَ، وَيَجِدُ المُسْلِمُ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ، وَطُمَأْنِينَةَ النَّفْسِ، وَرَاحَةَ البَالِ، وَبَرْدَ اليَقِينِ؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ

(١) ناصر بن محمد الغامدي.

قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (أعظم الكرامة: لزوم الاستقامة).

إِنَّ الاستقامةَ والثَّبَاتَ عَلَى دِينِ الله هُوَ الرُّجُولَةُ الحَقَّةُ، وَالانْتِصَارُ العَظِيمُ فِي مَعْرَكَةِ الطَّاعَاتِ وَالأَهْوَاءِ، وَالرَّغَبَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ وَهُوَ الضَّمانُ -بِإِذْنِ الله- للحُصُولِ عَلَى الجَنَّةِ وَالمَغْفِرَةِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الثَّابِتُونَ المُسْتَقِيمُونَ أَنْ تَتَنَزَّلَ عَلَيهِم المَلائِكَةُ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِتَطْرُدَ عَنْهُمُ الخَوفَ والحَزَنَ، وَتُبَشِّرَهُم بالجَنَّةِ، وَتُعْلِنَ وَقُوفَهَا إِلَى جَانِبِهِم في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

قَالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمْ يُشرِكُوا بالله شَيئًا، ولَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِلَهٍ غَيرِهِ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى أَنَّ اللهَ رَبُّهُم». وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ الله فَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ، واجْتَنَبُوا مَعْصِيَتَهُ).

مَا أَجْمَلَ الطَّاعَةَ إِذَا أُتْبِعَتْ بِالطَّاعَةِ! وَمَا أَعْظَمَ الحَسَنَةَ وَهِيَ تَنْضَمُّ إِلَى الحَسَنَةِ لِتَكُونَ سِلْسِلَةً مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ التِي تَرْفَعُ العَبْدَ إِلَى الدَّرَجَاتِ العُلَى، وَتُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ بِرَحْمَةِ الله وَفَضْلِهِ! وَمَا أَتْعَسَ المَرْءِ وَأَقَلَّ حَظَّهِ مِنَ الإِسْلامِ أَنْ يَهْدِمَ مَا بَنَى، وَيُفْسِدَ مَا أَصْلَحَ، وَيَرْتَدَّ إِلَى حَمْأَةِ المَعْصِيَةِ وَظُلْمَةِ الكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ ذَاقَ لَذَّةَ الإِيمَانِ، وَحَلاَوَةَ الطَّاعَةِ!.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ المُصْطَفَى ﷺ في صَلاَتِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»(١). وَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ المُدَاوَمَةُ عَلَى الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَو كَانَتْ قَلِيلَةً؛ سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هَلْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْتَصُّ مِنَ الأَيَّامِ شَيئًا؟ قَالَتْ: لاَ، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً،

(١) السلسلة الصحيحة للألباني (٣٢٢٨).

وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ؟! متفقٌ عليه. وَيَقُولُ ﷺ: «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»[1].

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَبَى قَومٌ المُدَاوَمَةَ، والله مَا المُؤْمِنُ بالـذِي يَعْمَلُ الشَّهْرَ أو الشَّهْرَينِ، أو عامًا أَو عَامَينِ، لاَ وَالله! مَا جُعِلَ لِعَمَلِ المُؤْمِنِ أَجَلٌ دُونَ المَوتِ). ثُمَّ قَرأَ قَولَ الحَقِّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

وَإِنَّ الثَّبَاتَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلُزُومَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ عَزِيزٌ وَعَظِيمٌ، لاَ سِيَّمَا مَعَ فَسَادِ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةِ المُغْرِيَاتِ، وَتَتَابُعِ الشَّهَوَاتِ، وَكَثْرَةِ الشُّبُهَاتِ، وَضَعْفِ المُعِينِ، وَكَثْرَةِ الفِتَنِ التِي أَخْبَرَ عَنْهَا المُصْطَفَى ﷺ بِقَولِهِ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَو يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا؛ يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[2].

وَالنَّفْسُ الثَّابِتَةُ عَلَى دِينِ الله تَعَالَى تَحْتَاجُ إِلَى المُرَاقَبَةِ التَّامَّةِ، وَالمُلاَحَظَةِ الدَّائِمَةِ، وَالأَطْرِ عَلَى الحَقِّ وَالعَدْلِ، وَالبُعْدِ عَنْ مَوَاطِنِ الهَوَى وَالمُجَاوَزَةِ وَالطُّغْيَانِ؛ وَلأَجْلِ هَذَا فَقَدْ أَرْشَدَ النبيُّ الكَرِيمُ ﷺ أُمَّتَهُ بِقَولِهِ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا»[3]، وَبِقَولِهِ ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»[4]، وَالسَّدَادُ هُوَ حَقِيقَةُ الاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ، وهُوَ الإِصَابَةُ في جَمِيعِ الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ والمَقَاصِدِ. وأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وأَجَلُّ قَولُ الحَقِّ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]. وَهُوَ تَوجِيهٌ إِلَهِيٌّ كَرِيمٌ لِجَبْرِ مَا قَدْ يَحْصُلُ مِنْ ضَعْفٍ بَشَرِيٍّ، وقُصُورٍ إِنْسَانِيٍّ.

وَمَدَارُ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله وَالاسْتِقَامَةِ عَلَى مَنْهَجِهِ وَطَاعَتِهِ عَلَى أَمْرَينِ عَظِيمَينِ: حِفْظُ القَلْبِ، وَحِفْظُ اللِّسَانِ؛ فَمَتَى اسْتَقَامَا اسْتَقَامَتْ سَائِرُ الأَعْضَاءِ، وصَلَحَ الإِنْسَانُ في سُلُوكِهِ وحَرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ، ومَتَى اعْوَجَّا وَفَسَدَا فَسَدَ الإِنْسَانُ، وضَلَّتْ أَعْضَاؤُهُ جَمِيعًا.

وَفِي الصَّحِيحَينِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[5]، وَعِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٣).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٦) وأحمد (٢٢٤٣٢) وصححه الألباني في تمام المنة برقم (٢٣٤).

(٤) رواه البخاري (٦٤٦٤) ومسلم (٢٨١٨).

(٥) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

أَنَسِ بن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»(١)، وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ وَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلاَبًا مِنْ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْيَانًا»(٢).

وَإِنَّ للثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله، وَالاسْتِقَامَةِ عَلَى شَرْعِهِ، أَسْبَابًا وَأَخْلاَقًا، مَتَى مَا أَخَذَ بِهَا الْمُسْلِمُ وَتَخَلَّقَ بِهَا وَحَرِصَ عَلَيهَا ثَبَّتَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى دِينِهِ، وَعَصَمَهُ مِنَ الحَورِ بَعْدَ الكَورِ، وَالضَّلاَلِ بَعْدَ الهُدَى.

فَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الأَسْبَابِ الإِيمَانُ الصَّادِقُ بالله تَعَالَى، وَالاعْتِصَامُ بالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالتَّمَسُّكُ بِهِمَا عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَإِنَّهُمَا النُّورُ وَالضِّيَاءُ اللَّذَينِ يُهْتَدَى بِهِمَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَيُرْجَعُ إِلَيهِمَا عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ، وَيُعْتَصَمُ بِهِمَا وَقْتَ الفِتَنِ، مِصْدَاق مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُذَكِّرُ أُمَّتَهُ بِهِ قَائِلًا: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَينِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(٣).

وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الحِكَمِ العَظِيمَةِ التِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ مُفَرَّقًا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ التَّثْبِيتُ عَلَى الحَقِّ؛ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢]، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:١٠٢].

فَالاعْتِصَامُ بالقُرْآنِ، وَقِرَاءَتُهُ، وَحِفْظُهُ، وَمُدَارَسَتُهُ، وَالقِيَامُ بِهِ، مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله؛ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيهِ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وَزِيَادَةِ الإِيمَانِ؛ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢].

وَلِمُعَالجَتِهِ لأَمْرَاضِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، وَاشْتِمَالِهِ عَلَى القَصَصِ الحَقِّ الذِي يُسَلِّي الْمُؤْمِنِينَ وَيُبَشِّرُهُم بالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَيُبَيِّنُ عَاقِبَةَ الْمُجْرِمِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُحَارِبِينَ لله وَرُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَبْرَ

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٥٤).

(٢) قال الألباني في السلسلة الصحيحة(١٧٧٢): (صحيح بمجموع طرُقه).

(٣) حسّنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح برقم (١٨٤).

التَّــــأْرِيخِ؛ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

وَمِنْ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله تَعَالَى كَثْرَةُ العِبَادَةِ لله رَبِّ العَالَمِينَ، وَالمُدَاوَمَةُ عَلَى الطَّاعَةِ وَلَو قَلَّتْ، وَالاقْتِصَادُ فِي السُّنَّةِ، وَالحَذَرُ مِنَ المَعَاصِي وَالمُبْتَدَعَاتِ، وَالاسْتِجَابَةُ لله تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالانْتِهَاءُ عَمَّا نَهَيَا عَنْهُ، وَالعَمَلُ بِمَا يُوعَظُ بِهِ المَرْءُ مِنْ خِلَالِ آيَاتِ القُرْآنِ وَنُصُوصِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الأُمُورَ مِمَّا يُقَوِّي اللهُ تَعَالَى بِهَا قُلُوبَ المُؤْمِنِينَ، لِتُصْبِحَ ثَابِتَةً رَاسِخَةً، لاَ يُزَعْزِعُهَا إِرْجَافُ المُرْجِفِينَ، وَلاَ تَهْوِيلُ المُبْطِلِينَ؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]، ﴿وَلَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وَعَنِ البَرَاءِ بن عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ القَبْرِ؛ فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]»(١).

وَقَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: (أَمَّا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُثَبِّتُهُم بِالخَيرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَفِي الآخِرَةِ فِي القَبْرِ).

وَمِنْ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله الرِّضَا بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ، وَالاطْمِئْنَانُ إِلَى خِيرَتِهِ لِلعَبْدِ، وَأَنَّ الخَيرَ فِيمَا اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَالشَّرَّ فِيمَا صَرَفَهُ عَنْهُ؛ ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]، وَالثِّقَةُ بِنَصْرِ الله تَعَالَى وَوَعْدِهِ لِعِبَادِهِ؛ ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢]، وَعَدَمُ الاغْتِرَارِ بِالبَاطِلِ وَكَثْرَةِ أَهْلِهِ وَشَوكَتِهِم فَإِنَّهُمْ جَمِيعًا تَحْتَ قَهْرِ الله وَقُوَّتِهِ؛ ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]،

(١) صحيح النسائي (٢٠٥٦).

وَمَعْرِفَةُ زَيفِ البَاطِلِ وَسُرْعَةِ زَوَالِهِ مَهْمَا عَلاَ وَارْتَفَعَ، فَلاَ يَسْتَوِي مَنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى مَولاَهُ وَنَاصِرَهُ مَعَ مَنْ كَانَ إِبْلِيسُ مولاَهُ وَقَائِدَهُ.

وَبِمِثْلِ هَذَا كَانَ المُصْطَفَى ﷺ يُثَبِّتُ المُسْلِمِينَ عَلَى الحَقِّ فِي أَشَدِّ الظُّرُوفِ، وَأَصْعَبِ المَواقِفِ، فَالصَّحَابَةُ يُعَذَّبُونَ أَشَدَّ العَذَابِ وَهُمْ مُسْتَضْعَفُونَ مُطَارَدُونَ مُشَرَّدُونَ، قِلَّة يُنَكِّلُ بِهِمُ المُشْرِكُونَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَنَزَّلُ القُرْآنُ عَلَى رَسُولِ الله يُبَشِّرُ المُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَهَزِيمَةِ المُشْرِكِينَ؛ ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٥-٤٦]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وَمِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله تَعَالَى الدُّعَاءُ وَالإِلْحَاحُ عَلَى الله فِي الثَّبَاتِ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ حَتَّى المَمَاتِ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧-١٤٨].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَكْثَرَ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقَالَتْ لَهُ زَوجُهُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيس آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَينَ أُصْبُعَينِ مِنْ أَصَابِعِ الله؛ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»[1].

وَمِنْ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الله المُدَاوَمَةُ عَلَى ذِكْرِ الله تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ الصِّلَةُ العُظْمَى بِالله تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى مَعَهُ فَمَعَهُ الفِئَةُ التِي لاَ تُغْلَبُ، وَالحَارِسُ الذِي لاَ يَنَامُ، وَالهَادِي الذِي لاَ يَضِلُّ. وَتَأَمَّلْ -أَخِي المُسْلِمُ- كَيفَ قَرَنَ اللهُ تَعَالَى الذِّكْرَ بِالثَّبَاتِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفِي مَوقِفٍ مِنْ أَشَدِّ المَواقِفِ وَأَخطَرِهَا؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥].

---

(١) صحيح الترمذي (٣٥٢٢).



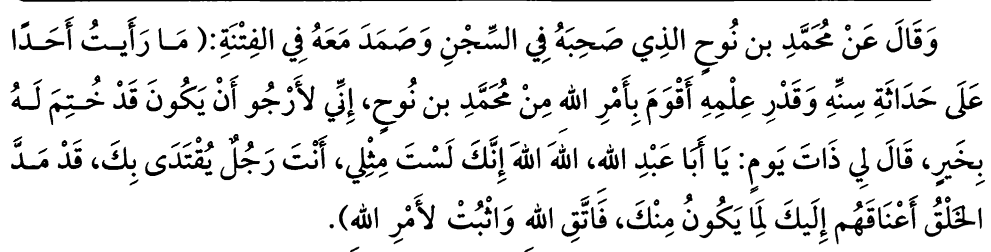
وَإِنَّ مِمَّا يُعِينُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللهِ وَلُزُومِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الذِي لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ سُلُوكُ سَبِيلِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَأَتْبَاعِ الدَّلِيلِ وَالأَثَرِ، وَالاهْتِدَاءُ بِهَدْيِهِم عِلْمًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، فَإِنَّ الحَيَّ لاَ تُؤْمَنُ عَلَيهِ الفِتْنَةُ؛ وَإِنَّ أَهْلَ البِدَعِ وَالخَارِجِينَ عَنْ مَنْهَجِ السَّلَفِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ شَكًّا وَاضْطِرَابًا فِي الحَيَاةِ وَعِنْدَ المَمَاتِ.

وَعَلَى الْمُسْلِمِ البَاحِثِ عَنِ الثَّبَاتِ وأَسْبَابِهِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مُرَافَقَةِ الصَّالِحِينَ، وَالالْتِفَافِ حَولَ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ العَامِلِينَ، وَالدُّعَاةِ الصَّادِقِينَ الذِينَ يُثَبِّتُونَ النَّاسَ عِنْدَ الفِتَنِ، وَيُؤَمِّنُونَهُم فِي أَزْمِنَةِ الخَوفِ وَالرَّهْبَةِ، وَيُكْثِرَ مِنْ مُجَالَسَتِهِم، فَإِنَّ مُلاَزَمَتَهُم وَمُجَالَسَتَهُم تَزِيدُ الإِيمَانَ، وتُثَبِّتُ الأَقْدَامَ عَلَى طَرِيقِ الرَّحْمَنِ.

وَهَا هُوَ الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ أَنَسُ بن مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «لَـمَّا كَانَ الْيَومُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْـمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيءٍ، فَلَـمَّا كَانَ الْيَومُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ الأَيدِيَ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا». رواه الترمذيُّ وابنُ ماجه وأحمدُ وسندُهُ صحيحٌ.

وَلاَ يُنْسَى مَوقِفُ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ ثَبَتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُذَكِّرًا النَّاسَ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى الذِي أَخْبَرَ عَنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحِينَ ثَبَتَ عَلَى الحَقِّ فِي وَجْهِ الْمُرْتَدِّينَ وَحَارَبَهُم، حتَّى نَصَرَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَقَمَعَ فِتْنَةَ الرِّدَّةِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَوَاقِفِ الصَّالِحِينَ فِي تَثْبِيتِ الذِينَ آمَنُوا فِي الفِتَنِ وَشَدِّ أَزْرِهِم عِنْدَ المِحَنِ مَا وَقَعَ للإِمَامِ أَحْمَدَ بن حَنْبَلٍ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الذِي نَصَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ دِينَهُ فِي فِتْنَةِ القَولِ بِخَلْقِ القُرْآنِ؛ فَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ أَحْمَدَ بن حَنْبَلٍ لَـمَّا صَارَ إِلَى رَحْبَةِ طَوقٍ بِالشَّامِ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَعْرَابِ، فَقَالَ: يَا هَذَا إِنَّكَ وَافِدُ النَّاسِ، فَلاَ تَكُنْ شُؤْمًا عَلَيهِم، وَإِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ اليَومَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُجِيبَهُم إِلَى مَا يَدْعُونَكَ إِلَيهِ! فَيُجِيبُوا فَتَحْمِلَ أَوزَارَهُم يَومَ القِيَامَةِ، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ اللهَ فَاصْبِرْ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَا بَينَكَ وَبَينَ الجَنَّةِ إِلاَّ أَنْ تُقْتَلَ. قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: (فَكَانَ كَلاَمُهُ مِمَّا قَوَّى عَزْمِي عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الامْتِنَاعِ عَنْ ذَلِكَ الذِي يَدْعُونَنِي إِلَيهِ).



وَقَالَ عَنْ مُحَمَّدِ بن نُوحٍ الذِي صَحِبَهُ فِي السِّجْنِ وَصَمَدَ مَعَهُ فِي الفِتْنَةِ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَقَدْرِ عِلْمِهِ أَقْوَمَ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ مُحَمَّدِ بن نُوحٍ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ خُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ، قَالَ لِي ذَاتَ يَوم: يَا أَبَا عَبْدِ الله، اللهَ اللهَ إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَى بِكَ، قَدْ مَدَّ الخَلْقُ أَعْنَاقَهُم إِلَيكَ لِمَا يَكُونُ مِنْكَ، فَاتَّقِ اللهَ وَاثْبُتْ لأَمْرِ اللهِ).

فَكَانَ لِمِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ثَبَاتِ الإِمَامِ أَحْمَدَ عَلَى قَولَةِ الحَقِّ: إِنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ تَعَالَى مُنَزَّلٌ غَيرُ مَخْلُوقٍ، حَتَّى ظَهَرَ الحَقُّ، وَبَطَلَ مَا كَانَ يُرَوِّجُ لَهُ أَهْلُ البِدَعِ مِنَ القَولِ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَانْقَمَعَتِ الفِتْنَةُ، وَخَرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ مِنَ السِّجْنِ شَامِخًا عَزِيزًا، مُهَابًا مُكْرَمًا، مَذْكُورًا بِهَذَا المَوقِفِ العَظِيمِ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ.

وَيَقُولُ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ وَاصِفًا شَيخَهُ شَيخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيمِيَّةَ -رَحِمَهُمَاٱللَّهُ تَعَالَى-: (وَعَلِمَ اللهُ مَا رَأَيتُ أَحَدًا أَطْيَبَ عَيشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ العَيشِ وَخِلافِ الرَّفَاهِيَةِ وَالنَّعِيمِ، بَلْ ضِدّهَا، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الحَبْسِ وَالتَّهْدِيدِ وَالإِرْهَاقِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيشًا، وَأَشْرَحِهِم صَدْرًا، وَأَقْوَاهُم قَلْبًا، وَأَسَرِّهِم نَفْسًا، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ؛ وَكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الخَوفُ، وَسَاءَتْ بِنَا الظُّنُونُ، وَضَاقَتْ بِنَا الأَرْضُ، أَتَينَاهُ، فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ نَرَاهُ، وَنَسْمَعَ كَلامَهُ، فَيَذْهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَيَنْقَلِبَ انْشِرَاحًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا وَطُمَأْنِينَةً).

وَهَكَذَا يَكُونُ دَورُ الأَخْيَارِ وَالصَّالِحِينَ فِي تَثْبِيتِ المُسْلِمِينَ عِنْدَ الفِتَنِ، وَتَقْوِيَةِ قُلُوبِهِم وَنُفُوسِهِم عِنْدَ المِحَنِ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ الجَلِيلَ لِي ولَكُمْ وَلِسَائِرِ المُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ وَتُوبُوا إِلَيهِ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمِ.

الخطبة الثانية:

الحَمْـدُ لله وَكَفَـى، وَالصَّـلاَةُ والسَّـلاَمُ عَـلَى عِبَـادِهِ الـذِينَ اصْـطَفَى، وَالتَّـابِعِينَ لَهُـمْ بِإِحْسَانٍ وَمَنِ اقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فعن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يـا رسـول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

عباد الله: الاستقامة والثَّبَاتَ عَلَى دِينِ الله تَعَـالَى هُـوَ حَقِيقَـةُ الإِسْـلاَمِ؛ فَـإِنَّ الإِسْـلاَمَ فِي حَقِيقَتِهِ إِيمَانٌ بالله وَحْدَهُ، ثُمَّ اسْتِقَامَةٌ وَثَبَاتٌ عَلَيهِ حَتَّى المَمَاتِ.

وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ الإِيمَانِ، وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ عَلَى الله تَعَالَى، وَقُوَّةِ النَّفْسِ، وَرَبَاطَةِ الجَأْشِ، وَالتَّأَسِّي بِأَنْبِيَاءِ الله وَرُسُلِهِ عَلَيهِم الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، الذِينَ ضَرَبُوا أَرْوَعَ الأَمْثِلَـةِ وَأَصْـدَقَهَا فِي الثَّبَاتِ عَلَى الدِينِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالاَتِ الله تَعَالَى، رُغْـمَ مَـا نَـالَهُم مِـنَ الأَذَى، وَمَـا لَحِقَهُـم مِـنَ العَذَابِ وَالضَّرَرِ، مِمَّا سَطَّرَهُ كِتَابُ الله تَعَالَى قُرْآنًا يُتْلَى إِلَى يومِ القِيَامَةِ فِي صَـبْرِ أُولِي العَـزْمِ مِـنَ الرُّسُلِ، وَثَبَاتِهِم عَلَى دِينِ الله وَتَبْلِيغِ رِسَالاَتِهِ.

وَإِنَّ عَلَى المُسْلِمِ الصَّادِقِ فِي إِيمَانِهِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى الثَّبَاتِ سِيَّمَا فِي هذَا العَصْرِ؛ عَصْرِ التَّحَدِّيَاتِ وَالفِتَنِ وَالمُغْرِيَاتِ، فَبِالثَّبَاتِ يَعِيشُ المُسْلِمُ، وَيَسْتَمِرُّ عَلَى مَنْهَجِ الله ثَابِتَ الأَرْكَانِ، عَظِيمَ القِيَمِ، مُحَقِّقًا أَسْمَى غَايَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَإِنَّ عَلَيهِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى تَحْصِيلِ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلاَقِ الثَّابِتِينَ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الصَّبْرُ، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبْرِ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى التَّحَصُّنِ بِالعِلْمِ الشَّرْعِيِّ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو العَمَى، وَيُبَدِّدُ الشُّبُهَاتِ، وَيَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ الذِي لا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلاَ الْتِبَاسَ، وَأَنْ يَتَأَسَّى بِمَوَاقِفِ الصَّالِحِينَ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ مَعَ شِدَّةِ العَذَابِ الذِي لَحِقَهُمُ.

حَدَّثَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَـمَّا كَانَـتْ اللَّيلَـةُ الَّتِـي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَـةُ الطَّيِّبَـةُ؟ فَقَـالَ: هَـذِهِ

---

(١) رواه مسلم (٨٣).



رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَونَ وَأَولاَدِهَا، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَينَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَـةَ فِرْعَـونَ ذَاتَ يَوم إِذْ سَقَطَتْ الْـمِدْرَى -يَعْنِي المِشْطُ- مِنْ يَدَيهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ الله، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَـةُ فِرْعَـونَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لاَ، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرَتْهُ.

فَدَعَاهَا فَقَالَ: يَا فُلاَنَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيرِي؟! قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَمَرَ بِبَقَـرَةٍ مِـنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَولاَدُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَينَا مِنَ الْـحَقِّ.

قَالَ: فَأَمَرَ بِأَولاَدِهَا فَأُلْقُوا بَينَ يَدَيهَا وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي؛ فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَـذَابِ الآخِـرَةِ؛ فَاقْتَحَمَتْ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَاحِبُ جُرَيجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَونَ». رواه أحمدُ بإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

اللهُ أَكبَرُ! مَا أَعْظَمَ إِيمَانِ هَذِهِ المَرْأَةِ! وَمَا أَشَدَّ ثَبَاتِهَا! لَقَدْ كَانَتْ تَعِيشُ فِي قَصْرِ المَلِكِ مُكَرَّمَةً مُعَزَّزَةً، فَأَخْرَجَهَا الإِيمَانُ، وَمَلَكَ عَلَيهَا أَمْرَهَـا، وَفِي سَـبِيلِ الله يَسْـتَرْوِحُ المُؤْمِنُـونَ العَـذَابَ، وَيُوَاجِهُونَ الطُّغَاةَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَلْطُفُ بِهِـم، وَيُثَبِّـتُهُم عَـلَى الحَـقِّ بِالكَرَامَـاتِ وَخَـوَارِقِ العَـادَاتِ، وَيُكْـرِمُهُم فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ؛ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وَلَقَدْ قَالَ المُصْطَفَى ﷺ لأَصْحَابِهِ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَـلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْـمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَينِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِـكَ عَـنْ دِينِـهِ، وَيُمْشَـطُ بِأَمْشَاطِ الْـحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَو عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»(١).

فأين نحن من الثبات حال الرخاء قبل حال الشدة؟ وأين الاستقامة على العبادة حال الصحة قبل حال السقم؟ إن أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه، وإن قلّ، فإنه أدل على الصدق وأكثر أثرًا في القلب، فليجعل كل امرئ منا لنفسه عملًا صالحًا يداوم عليه، لا يعلمه

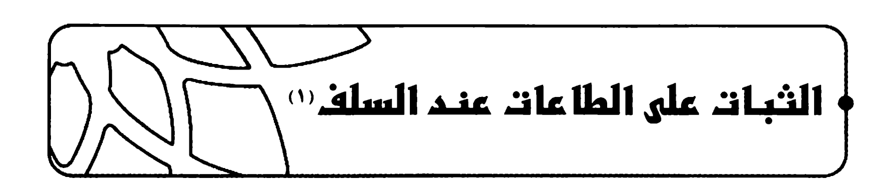
---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦١٢).

أحد إلا الله، كصيام ثلاثة أيام من الشهر، أو صدقة يخفيها لمحتاج، أو تلاوة يومية لـورد مـن القرآن، أو تسبيحات يسبح الله تعالى، أو ركعات في جوف الليل، ومن عجـز فقبـل النـوم.. المهم أن تكون بينك وبين الله خبيئة من عمل صالح لا يطلع عليهـا إلا الله تعـالى، فإنهـا مـن أعظم العمل، وأنفعه في الدنيا والآخرة، ومن أسباب استجابة الدعاء.. نسـأل الله أن يوفقنـا لمرضاته، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ مُحَمَّدِ بن عَبْـدِ الله، وَعَـلَى آلِـهِ وصَـحْبِهِ أجمَعِـينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.





الثبات على الطاعات عند السلف[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله العليِّ الكبير، تعالى وتنزَّه عن الشبيه والنَّظير والمُعين والظَّهير، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، أحمده سبحانه وأشكره أعطى الكثير، وتجاوز عن التقصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالِصةً مُخلِصةً أرجو بها النجاة من عذابِ السَّعير، وأشهد أن سيدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله البشيرُ النذير، والسراجُ المُنير، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله وأصحابه ذوي القدرِ العليِّ والشرفِ الكبير، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ وعلى نهجِ الحق يسير، وسلَّم التسليمَ الكثير.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فإن الكرامةَ كرامةُ التقوى، والعِزَّ عِزُّ الطاعةِ، والأُنسَ أُنسُ الإحسان، والوَحشة وحشةُ الإساءة، الحياةُ -يا عبد الله- في مُداومة الذكر، والعافيةُ في مُوافقة الأمر، والنجاةُ في لُزوم الكتاب والسنة، والفوزُ لمن زُحزِحَ عن النارِ وأُدخِلَ الجنة: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

إِخْوَةَ الْإِيمَانِ:

تَأْتِي مَوَاسِمُ الرَّحَمَاتِ، فَتَهُبُّ عَلَى الْعِبَادِ بِخَيْرِهَا وَخَيْرَاتِهَا، وَنُورِهَا وَهِدَايَاتِهَا، تَأْتِي فَتَتَرَوَّضُ فِيهَا النُّفُوسُ عَلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَتَكْتَسِبُ فِيهَا كُلَّ هُدًى وَرَشَادٍ.

لَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ أَهَمِّيَّةِ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى الطَّاعَةِ فهي لا تخفى، وَلَنْ نَتَذَاكَرَ الْأَسْبَابَ الْمَعْنِيَّةَ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَيْهَا - مَعَ أَهَمِّيَّةِ التَّذْكِيرِ بِهَا دَوْمًا - فهي معلومة كإدمان الدعاء والتضرع، وكثرة

(١) إبراهيم بن صالح العجلان.

الذكر، واختيار الصحبة الصالحة، وتأمل قصر الحياة الدنيا وزوالها، ومطالعة أخبار الأنبياء والعلماء والصالحين المصلحين من المتقدمين..

وهنا سَنَقِفُ مَعَ صَفَحَاتٍ وَضَّاءَةٍ، وَصُوَرٍ بَرَّاقَةٍ، مِنْ سِيَرِ سَلَفِنَا وَصَالِحِي أُمَّتِنَا، وَشَأْنِهِمْ فِي الْـمُحَافَظَةِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَضِّهِمْ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.

إِنَّ اسْتِذْكَارَ أَخْبَارِ هَؤُلَاءِ وَسِيَرِهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ لِشَحْنِ النُّفُوسِ لِلْمَعَالِي، وَارْتِقَاءِ الْهِمَمِ لِلْخَيْرِ، وَعَدَمِ الْإِعْجَابِ بِالْعَمَلِ.

لَقَدْ كَانَ سَلَفُكُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَصْدَقَ الْأُمَّةِ عَمَلًا، وَأَشَدَّهُمْ لَهَا إِتْقَانًا، وَخَبَرُهُمْ فِي هَذَا عَجَبٌ مِنَ الْعُجَابِ، لَمْ يَكُونُوا مَوْسِمِيِّينَ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَاتِرِينَ بَقِيَّةَ عَامِهِمْ، كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَشَبَّثُ بِعَمَلِهِ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ جَسَدِهِ، فَلَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا خُرُوجُ الرُّوحِ.

هَذِهِ الْـجَوَارِحُ الَّتِي تَمَسَّكَتْ بِصَالِحِ الْعَمَلِ كَانَتْ تَحْمِلُ قُلُوبًا مَلْأَى بِالتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ، وَالْـمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ لِلْمَلِكِ الدَّيَّانِ، حَتَّى هَانَ كُلُّ نَصَبٍ وَتَعَبٍ فِي سَبِيلِ الْـجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ، بَلْ كَانَتْ حَلَاوَةُ الْـحَيَاةِ لَا تُذَاقُ إِلَّا فِي جَوِّ هَذِهِ الطَّاعَاتِ.

وَمَعَ قُدْوَتِنَا وَحَبِيبِنَا ﷺ وَخَبَرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ:

كَانَ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا وَاظَبَ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ كُلَّهَا، وَإِنْ شَغَلَهُ شَاغِلٌ عَنْهُ قَضَاهُ فِيمَا بَعْدُ، تُحَدِّثُنَا أُمُّنَا أُمُّ الْـمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَتَقُولُ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ، وَكَانَ إِذَا نَامَ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ مَرِضَ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً[(١)].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ تُسْأَلُ الْـخَبِيرَةُ عَائِشَةُ عَنْ عَمَلِ رَسُولِ الله ﷺ: هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ؟ فَتَقُولُ: لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَطِيعُ،[(٢)] (وَالدِّيمَةُ: الْـمَطَرُ الدَّائِمُ، شَبَّهَتْ عَمَلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَوَامِهِ بِدِيمَةِ الْـمَطَرِ).

مَسْجِدُ قِبَاءَ يَبْعُدُ عَنْ دَارِهِ وَمَسْجِدِهِ مَسَافَةً لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ زِيَارَةَ هَذَا الْـمَسْجِدِ وَالصَّلَاةَ فِيهِ جُزْءًا مِنْ بَرْنَامَجِهِ الْأُسْبُوعِيِّ.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٦) ومسلم(٧٨٣).

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي قِبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ، وَكَانَ يَأْتِيهِ رَاكِبًا وَمَاشِيًا».

هَـذِهِ الْقُـدْوَةُ الْـمُثْلَى، وَالْهِمَّـةُ الْـمُشْتَعِلَةُ بِـالْأَعْمَالِ، كَانَـتْ صُـورَةً حَيَّـةً انْعَكَسَـتْ عَلَى صَحَابَتِهِ ﷺ،

فَهَذَا بِلَالُ بن رَبَاحٍ يُبَشِّرُهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْـجَنَّةِ، وَأَنَّهُ سَمِعَ دَفَّ نَعْلَيْهِ فِيهَا، فَيَسْأَلُهُ عَنْ أَرْجَى عَمَلٍ عَمِلَهُ فِي الْإِسْلَامِ؟ فَإِذَا الذِّكْرَيَاتُ تَطُوفُ فِي ذَاكِرَةِ بِلَالٍ، فَـلَا يَـرَى سَـبْقَهُ فِي الْإِسْـلَامِ وَجِهَادَهُ، وَلَا يَرَى تَعَرُّضَهُ لِلِابْتِلَاءِ أَوَّلَ الدَّعْوَةِ، وَصَبْرَهُ عَلَى أَلَمِهَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا كَانَ أَرْجَى عَمَلٍ عِنْدَهُ هُوَ مُوَاظَبَتَهُ وَاسْتِمْسَاكَهُ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْـمَعْرُوفِ، فَيَقُولُ: «مَا عَمِلْـتُ عَمَـلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ».(١)

اشْتَكَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ حَالَهَا لِأَبِيهَا، وَشِدَّةَ حَاجَتِهَا وَزَوْجِهَا لِلْخَـادِمِ؛ فَأَوْصَـاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَوْرَادٍ مَخْصُوصَةٍ، قَالَ لَهُمَا: «أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَـاجِعَكُمَا أَنْ تُكَـبِّرَاهُ أَرْبَعًـا وَثَلَاثِـينَ، وَتُسَـبِّحَاهُ ثَلَاثًـا وَثَلَاثِـينَ، وَتَحْمَـدَاهُ ثَلَاثًـا وَثَلَاثِـينَ؛ فَهُـوَ خَـيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»(٢).

فَإِذَا الزَّوْجَانِ يَتَلَقَّيَانِ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ، فَلَا يَدَعَانِهَا طِيلَةَ حَيَاتِهِمَا، لَا فِي سَفَرٍ وَلَا حَضَرٍ، وَلَا فِي سِلْمٍ وَلَا حَرْبٍ، يُحَدِّثُنَا عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ عَنْ نَفْسِهِ، فَيَقُولُ: «مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ»، فَقَالَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ: «وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ».

وَمَعَ خَبَرِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْعَمَـلِ، وَمَـا أَعْجَـبَ أَخْبَـارَ ابْـنِ عُمَـرَ! يَـرَى ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُؤْيَا فِي مَنَامِهِ، فَيَقُصُّهَا عَلَى أُخْتِهِ حَفْصَةَ أُمِّ الْـمُؤْمِنِينَ، فَتَحْكِيهَا حَفْصَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١١٤٩).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠٥) ومسلم (٢٧٢٧).

(٣) رواه البخاري (١١٥٦) ومسلم (٢٤٧٩).

انْتَهى التَّعْبِيرُ، وَلَكِنْ هَلِ انْتَهى أَثَرُهُ؟ كَلَّا، كَلَّا، لَقَدْ فَعَلَتْ هَـذِهِ الْكَلِماتُ الْـمَعْدُودَاتُ فِعْلَهَا فِي نَفْسِ ابْنِ عُمَرَ فَهَلَعَ، وَشَحَذَ هِمَّتَهُ لِقِيَامِ اللَّيْلِ، لَيْسَ مَـرَّةً وَاحِـدَةً وَلَا مَـرَّاتٍ، وَإِنَّـمَا لِجَمِيعِ لَيَالِي الْعُمْرِ، غَيَّرَتْ تِلْكَ الْكَلِماتُ مُجْرَى حَيَاةِ ابْنِ عُمَرَ وَبَرْنَامَجَهُ فِي الْيَقَظَةِ وَالْـمَنَامِ.

قَالَ سَالِمُ بن عَبْدِ الله: فَكَانَ عَبْدُ الله لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا.

وَهَذَا عَبْدُ الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَ شَابًّا يَافِعًا فِي زَمَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ يُشِـعُّ هِمَّـةً وَعَمَلًا فِي الطَّاعَاتِ، فَكَانَ يَسْرُدُ الصَّوْمَ سَرْدًا، فَنَهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: «صُمْ مِنْ كُـلِّ شَـهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»، فَقَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَكْفِيكَ مِـنْ كُـلِّ شَهْرٍ خَمْسٌ»، قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِـكَ، فَقَـالَ: «سَـبْعًا»، فَقَـالَ: إِنِّي أُطِيـقُ أَكْثَـرَ، فَقَـالَ: «تِسْعًا»، فَقَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ، حَتَّى قَـالَ لَـهُ النَّبِـيُّ ﷺ: «لَا صَـوْمَ فَـوْقَ صَـوْمِ دَاوُدَ، صُـمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمًا».

فَاسْتَمْسَكَ ابْنُ عَمْرٍو بِهَذَا الْعَمَلِ وَهُوَ فِي أَوَّلِ شَبَابِهِ بَعْدَ الْبُلُوغِ، وَمَـا زَالَ مُوَاظِبًـا عَلَيْـهِ طِيلَةَ عُمْرِهِ حَتَّى شَابَ وَضَعُفَ وَرَقَّ عَظْمُهُ، فَكَانَ يَقُولُ: «لَيْتَنِي كُنْتُ أَخَذْتُ بِرُخْصَةِ رَسُولِ الله ﷺ»؛ أَيْ: صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ(١).

وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ عَمَلَهُ الَّذِي وَاظَبَ عَلَيْهِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ، فَكَانَ يَصُومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا حَتَّى لَقِيَ اللهَ تَعَالَى.

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ خَبَرُ أُمِّ حَبِيبَةَ، وَخَبَرُ مَنْ بَعْـدَهَا فِي التَّسَلْسُـلِ عَـلَى مُوَاظَبَـةِ الْعَمَـلِ، تَقُصُّ عَلَيْنَا أُمُّ حَبِيبَةَ أُمُّ الْـمُؤْمِنِينَ خَبَرَهَا، فَتَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُـولَ الله ﷺ يَقُـولُ «مَـنْ صَـلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْـجَنَّةِ»(٢).

قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»، وَقَالَ عُتْبَةُ بن أَبِي سُـفْيَانَ الرَّاوِي عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ».

وَيَسْتَمِرُّ التَّسَلْسُلُ الْعَمَلِيُّ لِرُوَاةِ الْـخَبَرِ، فَيَقُولُ عَمْرُو بن أَوْسٍ: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٩) ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه مسلم (٧٢٨).

مِنْ عُتْبَةَ»، وَيَقُولُ النُّعْمَانُ بن سَالِمٍ: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو بن أَوْسٍ».

* وَهَا هِيَ أُمُّ الْـمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَ لَهَا مَعَ صَلَاةِ الضُّحَى شَأْنٌ وَأَيُّ شَأْنٍ! كَانَتْ تُصَلِّي كُلَّ ضُحَى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْغَلَهَا أَيُّ شَاغِلٍ عَنْهَا، تُعَبِّرُ عَنْ شِدَّةِ اهْتِمَامِهَا بِهَا، فَتَقُولُ: «لَوْ نُشِرَ لِي أَبَوَايَ مَا تَرَكْتُهُنَّ».

عَدِيُّ بن حَاتِمٍ الطَّائِيُّ أَحَدُ الصَّحَابَةِ كَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: «مَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا عَلَى وُضُوءٍ».

وَهَذَا سَعِيدُ بن الْـمُسَيَّبِ إِمَامُ التَّابِعِينَ، تَنْزِلُ بِهِ سَكَرَاتُ الْـمَوْتِ وَعِنْدَ رَأْسِهِ بَنَاتُهُ يَبْكِينَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُنَّ: «أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِالله؛ فَوَالله مَا فَاتَتْنِي تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

نَزَلَ الْـمَوْتُ بِعَبْدِ الله بن إِدْرِيسَ الأودي، فَبَكَتْ عِنْدَهُ ابْنَتُهُ، فَقَالَ: (لَا تَبْكِي؛ فَقَدْ خَتَمْتُ الْقُرْآنَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَرْبَعَةَ آلَافِ خَتْمَةٍ).

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، أَحَدُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَقُرَّائِهِمْ، جَلَسَ سَبْعِينَ سَنَةً يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ إِلَى أَيَّامِ الْـحَجَّاجِ، فَأَخَذَ عَنْهُ الْقُرْآنَ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ.

وَمَاتَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ بن عَلِيِّ بن الْـحُسَيْنِ، فَغَسَّلُوهُ، فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى آثَارِ سَوَادٍ فِي ظَهْرِهِ، فَسَأَلُوا؛ فَعَرَفُوا أَنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَحْمِلُ جِرَابَ الدَّقِيقِ لَيْلًا عَلَى ظَهْرِهِ لِيُعْطِيَهُ الْفُقَرَاءَ!

تِلْكَ عِبَادَ الله شَذَرَاتٌ مِنْ أَخْبَارِ الْقَوْمِ مَعَ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَمُسْتَحَبَّاتِ الطَّاعَاتِ، فَلَا تَسَلْ بَعْدَ ذَلِكَ: كَيْفَ يَكُونُ حِرْصُهُمْ عَلَى الْوَاجِبَاتِ وَاهْتِمَامُهُمْ بِالْفَرَائِضِ.

لَا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنَا مَعْ ذِكْرِهِمْ ... لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْـمُقْعَدِ

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْـحَكِيمِ، أَقُولُ مَا سَمِعْتُمْ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الْخطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ الله سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا إِخْوَةَ الْإِيمَانِ: الثَّبَاتُ عَلَى صَالِحِ الْعَمَلِ هُوَ نِدَاءُ الرَّحْمَنِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وَهِيَ وَصِيَّةُ الله لِصَفْوَتِهِ مِنْ رُسُلِهِ؛ قَالَ عِيسَى بن مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]

فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ، تَحْتَاجُ إِلَى سِقَايَةٍ وَرِعَايَةٍ لِتَنْمُوَ وَتُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلَنْ يَبْلُغَ الْعَبْدُ مَنْزِلَةَ عِبَادِ الله الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ إِلَّا بِالثَّبَاتِ عَلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ ثَبَاتًا لَا يَنْقَطِعُ دُونَ الْمَوْتِ.

عِبَادَ الله:

وَإِذَا وُفِّقَ الْعَبْدُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الطَّاعَاتِ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ الْمَكَاسِبُ، وَحَفَّتْ بِهِ الْمَوَاهِبُ، فَمَحَبَّةُ الله تُزَفُّ لَهُ؛ «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ».(١)

وَسَيِّئَاتُهُ وَخَطِيئَاتُهُ فِي تَكْفِيرٍ دَائِمٍ؛ «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».(٢)

وَإِنْ حَبَسَهُ مَرَضٌ أَوْ سَفَرٌ عَنْ طَاعَتِهِ، فَأَجْرُهُ مُدَّخَرٌ، وَثَوَابُهُ مَحْفُوظٌ؛ «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٣).

(١) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٦).

الْـمُدَاوِمُ عَلَى الطَّاعَةِ أَهْلٌ لِأَنْ يُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرٍ؛ فَالْوَاقِعُ وَالسُّنَنُ تَشْهَدُ أَنَّـهُ مَـنْ عَـاشَ عَـلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، الدَّوَامُ عَلَى الطَّاعَةِ فِي الرَّخَاءِ سَبَبٌ لِتَقَشُّعِ الْكُرُوبِ فِي الشِّدَّةِ؛ «تَعَـرَّفْ عَـلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1].

الدَّوَامُ عَلَى الطَّاعَةِ سَبَبٌ لِطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، وَرَاحَةِ الـنَّفْسِ؛ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

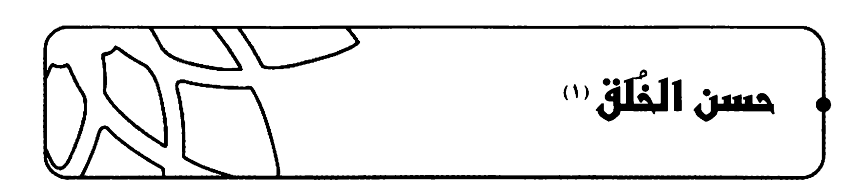
فَيَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، هَا قَدْ طَرَقْتُمْ أَبْوَابًا مِنَ الطَّاعَـاتِ فِي أيـام العشـر الخاليـات، فَوَاصِـلُوا الْـمَسِيرَ فِي دُرُوبِ الطَّاعَاتِ، وَامْلَؤُوا دِيوَانَ حَسَنَاتِكُمْ بِالْبَاقِيَـاتِ الصَّـالِحَاتِ، فَمَـنْ زَرَعَ فِي دُنْيَاهُ حَصَدَ فِي أُخْرَاهُ، وَمَنْ تَغَافَلَ عَنْ بَذْرِ الْـحَصَادِ، تَأَوَّهَ نَادِمًا يَوْمَ التَّنَادِ.

ثُـمَّ أَبْشِـرُوا أَيُّهَـا الْعَـامِلُونَ وَأَمِّلُـوا؛ فَـرَبُّكُمْ كَـرِيمٌ شَـكُورٌ، يُـرْبِي الصَّـدَقَاتِ، وَيُضَـاعِفُ الْأُجُـورَ؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٤].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ...



(١) صححه الألباني في التوسل (٣٥).



حسن الخُلق [1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله، أحمده حمدًا يليق بجلال وجهه وعظمة سلطانه كما يحمده المتقون، وأشكره شكرًا يزيد نعمه التي لا يحصيها العادُّون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لاذ بحماهُ الخائفون، وتعلق بأذيال رجائه الراجون، وألحَّ في سؤاله السائلون. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ أدبه ربه فأحسن تأديبه، ثم أثنى على خُلقه فكان خلقه القرآن، يتلوه في النهار، ويتجافى جنبه عن مضجعه والناس نيام، ﷺ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا في النهار فرسانًا، وفي الليل قيامًا، يقنتون لربهم ويسجدون، ويتعبدون ويخشعون؛ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله واستباق الخيرات، والمسارعة في الباقيات الصالحات، ومجانبة المعاصي والمحرمات، والصبر على المكروهات، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

أيها الإخوة المؤمنون: الأخلاق الكريمة، والصفات الحسنة، لها اعتبار كبير في دين الله تعالى، وإذا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق تُبنى على الإيمان والإخلاص والمتابعة للنبي ﷺ؛ فإن علاقات المخلوقين فيما بينهم يُبنى أغلبها على أساس الأخلاق والسلوك؛ لذا أخبر ﷺ أن البر حسن الخلق.

بل جعل النبيُّ حسنَ الخلق من أبواب الخيرية، قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا»، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا»[2].

---

(١) إبراهيم بن محمد الحقيل.

(٢) رواه البخاري (٣٥٥٩) ومسلم (٢٣٢١).

وأخبر عليه الصلاة والسلام أن حسن الخلق أفضلُ ما أعطي المسلم، فعن أسامة بن شريك قال: قالوا: يا رسول الله! ما أفضل ما أعطي المرء المسلم؟ قال: «حسن الخلق»(١).

ما كان هذا الاهتمام منه ﷺ بحسن الخلق إلا لعظم منزلته عند الله تعالى، كيف لا وهو سببٌ للقرب من الله تعالى، ونَيْل محبته؟! فعن أبي ثعلبة الخُشْني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنكُم أخلاقًا»(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «أحَبُّ عبادِ الله إلى الله أحسَنُهُمْ خُلُقًا»(٣).

وحسن الخلق كذلك طريقٌ يوصل إلى كمال الإيمان؛ قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»(٤).

ويعظم شأن الأخلاق الحسنة حتى يكون صاحبها في عبادة دائمة يعادل درجة الصائم القائم، مع أنه قد لا يكون مجتهدًا في نوافل العبادات، لكن تقصيره في جانب النوافل يجبره دماثة خُلقه وطيب معشره، فأدرك بذلك من الأجر ما يدركه الصائم الذي لا يُفطر والقائم الذي لا يفتر، يقول ﷺ: «إن المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائمِ القائمِ»(٥).

والأخلاق الحسنة تثقل ميزان العبد في وقت يكون أحوج ما يكون إلى مثقال الذرة من الأجر؛ بل صحَّ في الحديث أن حسن الخلق هو أثقل الأعمال الصالحة في الميزان، قال عليه الصلاة والسلام: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»(٦).

وحسن الخلق كذلك من أقوى الأسباب التي تُدخل الجنة، فقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام: ما أكثر ما يُدخلُ الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسنُ الخلق». قيل: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الجوفان: الفم والفرج»(٧).

---

(١) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، للوادعي (١٦).
(٢) صحيح الترمذي (٢٠١٨).
(٣) صحيح الجامع (١٧٩).
(٤) رواه أبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢) وصححه الألباني في كتاب الإيمان لأبي عبيد (٢٨).
(٥) صحيح أبي داود (٤٧٩٨).
(٦) صحيح الترمذي (٢٠٠٢).
(٧) صحيح الترمذي (٢٠٠٤) قال الألباني: (إسناده حسن).

ويُعطَى صاحبُ الخلق الحسَن بيوتًا في أعلى الجنة ووسطها وربضها؛ جزاءً لترقِّيه في معالي الأخلاق ومكارمها، فقد روى أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(1)، فهنيئًا لمن جمع هذه البيوت كلها، والتي هي جزاء لصفات يجمعها الخُلق الحسن.

وقد ورد أن المرأة إذا تزوجت عدة مرات في الدنيا، نتيجة وفاة أزواجها أو طلاقها منهم، فإذا دخلت الجنة ودخل أزواجها الجنة فإنها تُخيّر، فتختار أحسنهم خلقًا.

أيها الإخوة: إن استعراضُ النصوص الدالةِ على فضل حسن الخلق، ومكانته في الإسلام، وتعداد مزاياه، لا يكفيه وقت قليل، ولا يتسع له هذا المقام؛ لكن هذا غيض من فيض، وتلك أمثلة تنير الطريق للسائرين، وتوضح الدرب للسالكين، على أنه لم يتوقف فضل حسن الخلق على ما يكون في الآخرة من الثواب والجزاء؛ بل شمل الدنيا أيضًا؛ فمُلْكُ قلوب الناس، ونيلُ محبتهم إنما يكون بالأخلاق الحسنة، قال الأشعث بن قيس يومًا لقومه - وكان سيدهم-: (إنما أنا رجل منكم، ليس فيَّ فضلٌ عليكم؛ ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذلُ لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحوطُ حريمكم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليَّ فهو خير مني، ومن زدت عليه فأنا خير منه، قيل له: يا أبا محمد، ما يدعوك إلى هذا الكلام؟ قال: أحضُّهم على مكارم الأخلاق. وقد ذهب الخلق الحسن بخيري الدنيا والآخرة).

إذا تقرر هذا الفضل في الخلق الحسن فما هو؟ وما كيفية إدراكه؟ حتى يحصلَ المسلم على ثوابه؟!

سئل الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- عن حسن الخلق فقال: (أن لا تغضب ولا تحتدَّ)، وقال أيضًا: (أن تحتمل ما يكون من الناس).

وإنما جعل حسن الخلق في عدم الغضب والحدة؛ لأن الغضب والحدة يولدان الاعتداء باليد، والجرح باللسان سبًا وشتمًا، وقد يولدان الغيبة والنميمة والكذب، وكل ذلك يتنافى مع

(1) حسّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٠٠).

حسن الخلق. وقال الحسن وابن المبارك -رَحِمَهُمَااللَّهُ تعالى-: (هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى)، وقال الواسطي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: (هو أن لا يخاصِم ولا يخاصَم، من شدة معرفته بالله).

ونقل الحافظ ابن رجب عن بعض أهل العلم قوله: (حسنُ الخلق: كظم الغيظ لله، وإظهارُ الطلاقة والبِشْر إلا للمبتدع والفاجر - المجاهر بفجوره-، والعفوُ عن الزالين إلا تأديبًا أو إقامة حدٍّ، وكف الأذى عن كل مسلم أو مُعاهد، إلا تغييرًا لمنكر، أو أخذًا بمظلمة لمظلوم، من غير تعدٍّ).

قال السفاريني: (وهذا في غاية التحقيق... ثم ذكر أن من حسن الخلق: أن يحبّ للمسلمين ما يحب لنفسه، وأن يتواضع لهم، ولا يفخر عليهم، ولا يختال... ولا يتكبر ولا يعجب، وإن تكبر عليه غيره فليحمل منه ذلك، ويعامله باللين، ويغض الطرف عن أهل الرقاعة من المتكبرين، وأن يوقر الشيخ الكبير، ويرحم الطفل الصغير، ويعرف لكل ذي حق حقه، مع طلاقة الوجه، وحسن التلقي، وداوم البشر، ولين الجانب، وحسن المصاحبة، وسهولة الكلمة، مع إصلاح ذات بين إخوانه، وتفقد أقرانه وأخدانه، وأن لا يسمع كلام الناس بعضهم في بعض، وأن يبذل معروفه لهم لوجه الله، لا لأجل غرض، مع ستر عوراتهم، وإقالة عثراتهم، وإجابة دعواتهم، وأن لا يقف موقف التُّهَم، وأن يحلم عمن جهل عليه، ويعفو عمن ظلمه...) اهـ.

أيها الإخوة: هذا وزنُ حسن الخلق في دين الله تعالى، وهذه حدودُ الأخلاق الحسنة وصفاتها؛ فليزن كلٌّ منا أخلاقه بميزانها، فمن كان سيء الخلق أو ضعيفًا يتعامل فقط حسب ما يعامله الآخرون، فليحسن خلقه، ومن كان ذا خلق حسن فليحمد الله تعالى، ويسأله الثبات.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦].



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم، إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله! اتَّقوا الله وحسِّنوا أخلاقكم؛ فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق، والبذاءة والفحش وسوء الخلق تدل على قلة التقوى.

حسن الخلق هو: بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى. وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام، والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له. وتعطي من حرمك من التعليم، والمنفعة، والمال. وتعفو عمن ظلمك في دم، أو مال، أو عرض. وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب). وقال ابن القيم: (وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل).

وقال الماوردي في تعريف حسن الخلق، ووصف حسن الخلق: (أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة).

وقال الشيخ ابن سعدي في حسن الخلق: (هو خلق فاضل عظيم، أساسه الصبر، والحلم، والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلق أجمعين، فهو احتمال الجنايات، والعفو عن الزلات، ومقابلة السيئات بالحسنات، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]).

أيها المؤمنون: لقد كان نبيكم وحبيبكم وقدوتكم ﷺ أحسن الناس أخلاقًا، وألطفهم معشرًا، وأكثرهم عفوًا، وأوسعهم حلمًا، كما قال ربه عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وقال عنه في تعامله مع أصحابه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وإن من أهداف بعثته عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، كما قال في الحديث: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[١].

وقد أمر رسول الله ﷺ بلزوم الأخلاق الحسنة، ومجاهدة النفس على التحلي بها، وليس عذرًا لصاحب الخلق السيء أن يقول: طبعٌ جُبلت عليه؛ إذ إن من الأخلاق ما هو مكتسب يؤخذ بالدّربة والرياضة؛ ودليل ذلك أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «أفْشِ السَّلامَ وابذُلِ الطَّعامَ، واستحْيِ من الله استحياءَك رجلًا من أهلِك، وإذا أسأتَ فأحسِنْ، ولتُحسِّنْ خُلقَك ما استطعتَ»[٢]، وفي حديث آخر قال له: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[٣]. فهذا يدل على أن منه ما هو مكتسب يربي الإنسان نفسه وأهله وأولاده عليه، وكذا أن لا يكون الخُلق فقط بناءً على تعامل الناس، فإن أساؤوا أساء، وإن أحسنوا أحسن، بل قال: «وخالق الناس بخلق حسن»، كيفما كان تعاملهم، بل حتى المسيء منهم قال الله عنه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

واسمعوا إلى هذا الكلام الجميل من الحافظ ابن رجب -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-، حيث قال: (وقوله ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن» هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه؛ فإن كثيرًا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلمًا لهم ومفقهًا وقاضيًا، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا

---

(١) صحيح الجامع (٢٣٤٩).
(٢) السلسلة الصحيحة (٣٥٥٩).
(٣) صحيح الترغيب (٣١٦٠).

يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به ولا يخالطهم. وكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته، إهمالُ حقوق العباد بالكلية، أو التقصير فيها، والجمعُ بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيزٌ جدًا، لا يقْوَى عليه إلا الكُمَّلُ من الأنبياء والصدِّيقين).

أيها الإخوة: كم يحتاج الناس منا إلى حسن الخلق! إننا لن نسَع الناس بأموالنا ولا بجاهنا، ولكن يسعهم منا حسنُ أخلاقنا؛ لا يريد من يتعامل معنا منا إلا الكلمة الطيبة، والابتسامة الجميلة، والتعامي عن الهفوة، وتلمس العذر.

قال أيوب: (لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عمّا في أيدي الناس، والتجاوز عنهم). وقال سلمة بن دينار: (السيئُ الخلق أشقى الناس به نفسُهُ التي بين جنبيه، هي مِنه في بلاء، ثم زوجتُهُ، ثم ولدُهُ، حتى أنه ليدخل بيته، وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته، فينفرون منه فرَقًا منه).

يحتاج إلى حسن أخلاقنا والِدانا حتى نحقق برّهما ونحوز رضاهما، ومِن أحق الناس بحسن أخلاقنا أهلونا وأولادُنا حتى نعينهم على القيام بحقنا وبرنا، كما يحتاجه إخواننا وقراباتُنا حتى تدوم المودة، وتتحقق الصلة؛ وحسنُ الأخلاق مع الجيران هو من إكرام الجيران، والنبي ﷺ يقول: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكْرِم جاره»[1].

ومن أشدِّ الناس حاجة إلى الأخلاق الحسنة من يكثر تعاملهم مع الناس، وتشتدُّ حاجة الناس إليهم، من العلماء، وطلاب العلم؛ لحاجة الناس إليهم في الفتيا والسؤال عن أمور الدين، والقضاء؛ لفصلهم في النزاعات والخصومات، والمسؤولون والمدراء، لكثرة تعامل من هم تحت إدارتهم معهم.

ويجب أن يتحلى بالخلق الحسن من كان في مواجهة جماهير الناس، وتشتدُّ الحاجة إليهم، كالأطباء والموظفين في الدوائر التي يكثر مراجعوها؛ فعليهم بالصبر واللين، والمداراة والرفق، وأن يُحسِّنوا أخلاقهم للناس، ولا تكن كثرةُ المراجعين سببًا لسوء أخلاقهم؛ فذلك امتحانٌ لهم، ولا شك أنهم ليسوا كغيرهم في الثواب والأجر.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٧).



كم من موظف مسؤول نال محبة الله والناس بحسن أخلاقه! وكم من آخر مبغوض عند الله والناس لسوء خلقه، وحدّة لسانه وقلة صبره!

وكم من موظف دخلتَ عليه في حاجة لك فربما عجز عن قضائها لك؛ لكنه أزال ما في قلبك، وشفى صدرك بكلمة طيبة، واعتذار لطيف، واستقبال حسن، وآخر لا هو الذي قضى معروفا، ولا ردّ ردًّا لطيفًا، وصدق القائل:

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ … فليَحسُنِ النطقُ إن لم يحسن الحالُ

كم من موظف كانت لك عنده حاجة فقضاها، مع ابتسامة جميلة، وكلمة طيبة، ومبادرة لطيفة، وتواضع جمّ، فنال عندك حسن الثناء والدعاء، وعند الله الثواب والجزاء، وتجد آخر عبوس الوجه، مقطب الجبين، إذا نظر نظر شزرًا، وإذا تكلم تمطط في كلامه، يلقي إليك أوراقك بطرف أصابعه، كأنما ينفق عليك أو يرزقك، بل ربما سد الأبواب في وجهك ليُخرج بغير حق ما في جيبك، ويضطرك للرشوة عدوانًا وظلمًا، فعسَّر عليك ما كان يسيرًا، وحجّر من الأمر ما كان واسعًا، وكلّفك مالًا بغير وجه حق، فأكل السُّحت، وباء بالظلم والإثم، وما علم أنه إنما أكل في بطنه نارًا، واستحق بها جناه عارًا، وكفاه دعوة النبي نكالًا وبوارًا، فقد قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به»[1].

قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته -أي: نومة القيلولة- فعرض له رجل بيده طومار -صحيفة مطوية داخل اسطوانة- وخاف أن يدخل بيته قبل أن يقضي حاجته، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه فشجَّهُ، فقام عمر في الشمس والدماء تسيل على وجهه، ولم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر للرجل بحاجته، وخلّى سبيله.

إنك أيها الحبيب مُختبر مُمتحَن في هذه الحياة، فاختر لنفسك ما شئت، وأحب للناس ما تحب لنفسك، وعامل الناس كما تحب أن يعاملوك به، واعلم بأنه لا يبقى للعبد في الدنيا إلا

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٨).



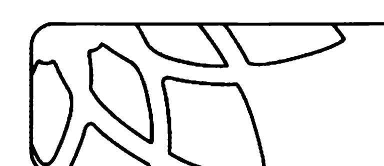
الذكر الجميل، وعند الله الثواب الجزيل، فكن حسن الأخلاق مع الناس؛ حتى تنال محبة الله تعالى ومحبتهم، وتذكر بخير حيًا وميتًا.

فإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيَت ... فإن همُ ذهبَتْ أخلاقهم ذهبوا

اللهم كما حسنت خَلْقنا فحسن أخلاقنا، اللهم صلِّ على محمد وآله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.







بالهمم تنهض الأمم[1]

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إنه هو البر الرحيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الداعي إلى الدين القويم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وزوجاته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

اتقوا الله -عباد الله-، وأعدّوا العدةَ ليوم تتفطر فيه الأكباد وتتقلب فيه القلوب والأبصار، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

أيها الناس: اعلموا أن الإسلام دين العزة والمجد، ودين الرفعة والجد، فلا كسل ولا خمول ولا ذلة ولا تواكل في الإسلام، ومن هنا فإنّ ديننا الحنيف يحثّ على علوّ الهمة ورفعة العزيمة وقوة الإرادة، إن عالي الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته، وتحقيق بغيته، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره، وأن المصالح والخيرات، و اللذات و الكمالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا على جسر من التعب:

بَصُرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جسر من التعبِ

فقل لِمُرَجِّي معالي الأمور ... بغير اجتهادٍ: رجوتَ المحالا

معاشر الآباء والأمهات والإخوة والأخوات: ما من عاقل إلا وله في حياته هدف يسعى لتحقيقه، ورسالة يودُّ أداءها، أي: أن له همًا في هذه الحياة؛ لذا قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء

---

(١) عبدالله بن عمر البكري.

حارث وهمام»[1]. قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى همام: (وإنما كان أصدقها لأنه ما من أحدٍ إلا وهو يهم بأمر، خيرًا كان أو شرًا). إذًا فكل أحد يحمل بين جوانحه همًا وهدفًا يحركه في هذه الحياة ويوجه طاقاته لتحقيقه.

اجتمع ذات يوم بفناء الكعبة أربعة من أبناء سادات قريش هم: عبد الله بن عمر، وعروةُ بن الزبير، وأخوه مصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، فقال لهم مصعب: «تمنَّوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال: ولاية العراق وتزوُّجُ فلانة وفلانة وسماهما، وتمنى عروة العلم والفقه في الدين، وتمنى عبد الملك الخلافة، وتمنى ابن عمر الجنة. فسعى كلٌّ منهم لإدراك غايته، واستجمع قواه في تحقيق أمنيته، فنال مصعب ولاية العراق وتزوج بمن سمَّى، ونال عروة الفقه فكان من الأئمة العظام ومن فقهاء المدينة السبعة، ونال عبد الملك الخلافة والملك، واجتهد ابن عمر في طلب الجنة، ونرجو أن يكون من أهلها».

وفي القصة شاهدان: الأول: كيف ربَّى النبي ﷺ أصحابه، وماذا كان همهم في الحياة، وكيف كانوا سادة الدنيا بذلك. فابن عمر الذي تربى بين يدي النبي ﷺ كان أسمى الأربعة همة وأنبلهم طلبة، فكان هدفه أنبل، وكانت أمنيته أسمى.

والشاهد الثاني: تفاوتُ همم الرجال مع أن مطالب الأربعة كلّها في حدود المباح، لكن شتَّان بين من جعل همه بلوغ الجنة أو الفقه في الدين وهو طريق إلى الجنة، وبين من جعل همه التزوج بامرأة أو نيل منصب زائل، إن تركه الناس فيه فلم يخلعوه لم يتركه الموت حتى ينزله من كرسيه ويقذف به تحت التراب.

وفي القصة شاهد آخر: وهو أن ما يحمله الإنسان بداخله من همٍ ورسالة يُحرّك طاقاتِه نحو تحقيقه، فإذا به يتحقق، لا لأنه تمنّاه، ولكن لأنه جدَّ في تحقيقه وبذل أسباب الوصول إليه، فتحقّق بإذن الله.

وتأمل معي -أخي الكريم- تفاوت الهمم وكيف تتفاوت مقادير الرجال بتفاوتها، فمن الناس من همه جمع الدراهم وتكثيرها، وربما شح بها على نفسه أو أهله لأن همه في رؤيتها كثيرة وإن لم ينتفع بها، وهو بمثابة العبد الذي يحرس المال لسيده ولا حظ له فيه، ومنهم من

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٧٣).

همّه نيل المناصبِ والترفع بها، ومنهم من همه في الحياة امرأة يرى أنه إن ظفر بها فاز فوزًا عظيمًا، وإلا فقد فاتته الحياة، ومن الناس من همه البنيان والعمران، فيرى أنه متى أكثر من العمران وأطال البنيان فقد قام بواجبه في الحياة؛ لأن الغرض من الحياة عند البعض أن نعمر الأرض ونحرثها ونزينها وكأننا خلقنا لها لا أنها خلقت لنا مع أن مولانا سبحانه يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ومن الناس من همه بطنه، ومنهم من همه نزواته، بل من الناس من همه أن يصبح لاعبًا يركض خلف مطاط منفوخ.. ولا تزال الهمم تدنو وتدنو حتى إن من الناس من همه أن يكون مغنيًا يتمايل طربًا فيتمايل معه السفهاء، أو ممثلًا يشيع الفاحشة وينشر الرذيلة ويروّج للباطل لينال به عرضًا زائلًا وصيتًا حائلًا.. وهكذا لا تزال الهمم تصغر وتصغر حتى يصبح هم أحدهم في أمر تافه حقير يقضي ساعات عمره في الانشغال به، مع أنه يعود عليه بالضرر عاجلًا أو آجلًا، وكلٌ يسير إلى غايته، ويجهد في تحقيق رسالته، ومن هنا ينشأ التفاوت بين النبلاء والغوغاء، بين العقلاء والسفهاء؛ لأن منازل الرجال وكذلك النساء تتفاوت بتفاوت ما يحملونه من الهموم والغايات، فالهمم العالية تسمو بصاحبها إلى ذرى المعالي، والهمم الدنيئة تسفُل بصاحبها إلى الحضيض، وكلٌ يسعى لإدراك غايته وتحقيق أمنيته، جليلةً كانت أم حقيرة، خيرًا كانت أم شرًا..

ألا بلّغ الله الحِمَى من يريده ... وبلّغ أكناف الحمى من يريدها
وشتان بين من همُّه الحِمَى ... ومن همه كنيف الحمى.

معاشر المسلمين: علو الهمة يكون أولًا بتربية النفس على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، وشمائل العظماء، وعدم الرضى بالدون، فإن الراضي بالدون دنيء.

لعمرك ما أهويت كفّي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بماشٍ ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة ... وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أنّي لم تصبني مصيبةٌ ... من الدّهر إلّا قد أصابت فتىً قبلي

ولقد كان الصحابة الكرام -عليهم الرحمة والرضوان- مثالًا يحتذى في علو الهمة وإدراك الغايةِ من هذه الحياة؛ لأن النبي ﷺ رباهم على المعالي والترفع عن السفاسف والتّوافه، حتى في طلب الجنة كان النبي ﷺ يحثهم على طلب الفردوس منها، وهو خيرُ بقاعها، وهو منتهى الهمم النبيلة، فقال ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس؛ فإنه سِرُّ الجنَّةِ»[1]. أي: أفضل موضع في الجنة، وقال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[2].

وهذا عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لغلامه: (يا غلام: لا يكن همّك ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح، وما تسكن وما تجمع، كل هذا همُّ النفس والطبع، فأين همُّ القلب؟! همُّك ما أهمَّك، فليكن همّك ربّك عَزَّوَجَلَّ وما عنده).

واعلم -أيها الحبيب اللبيب- أن الهمّ الذي تحمله بين جنبيك هو الذي يحدِّدُ قيمتك في سوق الرجال، فإن كان همُّك في الحياة رضوان الله عَزَّوَجَلَّ فتحيا بدينك ولدينك ذابًا عن حياضه حاميًا لحماه دائبًا في نشره مجاهدًا لعزه ونصره مجتهدًا في نصح الخلق وتعبيدهم لخالقهم، ساعيًا في الخيرات آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، فاعلم أن همَّك عظيم ومطلَبك كريم، فأخلص العمل لله جل وعلا، واقتفِ سنة رسول الله ﷺ، وسترى الثمار يانعة بإذن الله، فإن كنت ذا علم فعلِّمه من لا يعلم، وإن كنت ذا مال فلا تبخل بالبذل لإعزاز دينك وغوث إخوانك ودحر أعداء دينك، وإن كنت ذا منصب وجاه فاستعمله في مرضاة ربك وخدمة دينك وأمتك.

أما من كان همُّه في الحياة ليس إلا منصبًا رفيعًا، وقصرًا منيفًا، ومالًا وفيرًا، ولا همَّ له في دينه فلا يغضب لله ولا ينتصر لأولياء الله من العلماء والدعاة، ولا يأبه بانتهاك حدود الله فهذا

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠).



ميت يمشي بين الأحياء، فأحسن الله عزاءه في نفسه، ولا كثر في المسلمين من جنسه، فبطن الأرض خير له من ظهرها.

ومـا للمـرء خـيرٌ في حيـاةٍ إذا مـا عُـد مـن سـقط المتـاع

قال الخطيب البغدادي: (سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي، يحكي أن محمد بن جرير الطبري مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة فأي همة هذه التي وصلت بهذا العالم الجليل إلى هذه المنزلة العالية!).

وهذا الإمام أبو الفرج ابن الجوزي يقول عن نفسه: (كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني). ويقول: (ولو قلت إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد لا أزال في الطلب). فإذا كان قدر ما قرأ وهو في الطلب (عشرين ألف) مجلدة، واحتسبنا أن صفحات المجلد الواحد في المتوسط (٣٠٠) صفحة، كان مقدار ما قرأ (٦٠٠٠٠٠٠) ستة ملايين صفحة، وإذا كان ما كتب بأصبعيه (ألفي) مجلدة، كان مقدار ما كتب (٦٠٠٠٠٠) ستمائة ألف صفحة، هذا ما قرأ ونسخ، فما هو مقدار ما كتب وصنف؟!

ويحدث الإمام ابن عقيل عن همته وهو في عشر الثمانين من عمره، فيقول: (إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين.

وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى، فقال: (إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج! لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر. وكان الإمام البخاريّ يقوم في اللّيلة الواحدة ما يقرب من عشرين مرّة لتدوين حديث أو فكرة طرأت عليه، وقالت بنت الشافعي: أسرجتُ لأبي في ليلة سبعين مرة، كلما أراد أن ينام تأمل مسألة فقهية، فيقوم ويكتبها).

يقول ابن الجوزيّ: (تأمّلت أحوال النّاس في حالة علوّ شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين حسراتهم حينئذ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشّباب، ومنهم من فرّط في اكتساب العلم ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللّذات. فكلّهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك

لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فإن كانت للشّيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت، قال: وا أسفاه على ما جنيت؟ وإن لم يكن له إفاقة صار متأسّفا على فوات ما كان يلتذّ به. فأمّا من أنفق عصر الشّباب في العلم فإنّه في زمن الشّيخوخة يحمد جنى ما غرس ويلتذّ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من لذّات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذّات العلم.

ولقد تأمّلت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الّذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدّنيا، وأنفقت زمن الصّبوة والشّباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني ممّا نالوه إلّا ما لو حصل لي ندمتُ عليه، ثمّ تأمّلت حالي فإذا عيشي في الدّنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين النّاس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم. ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشّدائد ما هو عندي أحلى من العسل، كنت في زمان الصّبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلّا عند الماء، فكلّما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همّتي لا ترى إلّا لذّة تحصيل العلم).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

إخوتي الكرام: لقد أصيب المسلمون في عصورهم المتأخرة بدنو الهمم والرضا بالهوان والقعود عن معالي الأمور، والاشتغال بالسفاسف والترهات على مستوى الأفراد والجماعات، فصاروا إمّعات وببغاوات إلا من رحم الله، وغلب على الأمة اللهو والبطالة والعبث؛ ولهذا أصبحت الأمة غرضًا لأعدائها الذين تسلطوا عليها وجاسوا خلال ديارها فساموها سوء العذاب، بعد أن كانت عزيزةً مهيبة الجناب، فهوت من عليائها، ونزلت من شامخ عزها، ولقيت صغارًا بعد شمم، وذلًا بعد عزة، وجهلًا بعد علم، وعبثًا ولهوًا بعد جدٍ وحزم. فما أحوجنا أن نرجع إلى ديننا وأن نُعلي هممنا، فبالدين نرجع إلى الجادة، وبالهمم العالية ننفض غبارَ الذل ونرفع غِشاوةَ المهانة.

معاشر المسلمين: إن المسلم بطبيعته عالي الهمة؛ لأنه يشعر أنه مُبتعث لهداية الخلق والأخذ بأيدي الضالين إلى معرفة الله وما شرعه لخلقه، فهذا ربعي بن عامر يعرّف كسرى بحقيقة المسلم فيقول له: (نحن قوم ابتعثنا الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان -يعني بعد تحريفها- إلى عدل الإسلام).

نعم -أيها الكرام-، هذه حقيقة المسلم وهذه همته، ولكنها تضعف بضعف العلم ونقص الإيمان، فكلما زاد العلم بالله ودينه وزاد الإيمان علت الهمة. وهذا سرّ علو همة الصحابة والتابعين الذين امتدّ سلطانهم من جنوب فرنسا إلى تخوم الصين، فهمة المسلم إنما تضعفها المعصية والجهل بحقائق الدين، وإلا فالأصل في المسلم علو الهمة، فهمته قد علت الجوزاء، ولم تتسع لها الأرض، فتطلعت إلى ما أعد الله لأوليائه في السماء.

وإن الهمة العالية لا تزال بصاحبها تزجره عن مواقف الذل ومواضع التهم وتنأى به عن التلطخ بالرذائل وتحثه على اكتساب المكارم والفضائل. والهمةُ العالية ترفع القومَ من سقوط، وتبدلهم بالخمول نباهة وبالضعة رفعة، ذلك أن علوَّ الهمة يستلزم الجدَّ والإباء ونُشدان المعالي وتطلابَ الكمال والترفع عن الدنايا. ولا تزال الهمة النبيلة ترقى بصاحبها في مراقي الكمال في

دينه ودنياه، فلا يقصر همه على نفسه، بل يصل خيره لغيره، ويسعى في مصالح الأمة، ويجتهد في كلّ ما يرفع عنها الغمة، يحيا لأهداف سامية، فيحيا كبيرًا ويموت كبيرًا، أما الذي يعيش لنفسه فلا يُفرَح بحياته، ولا يؤسى لوفاته، وإن صغير الهمة عندما يرى أعداء الأمة في قوة وسطوة يذوب أمامهم رهبة، ويُطرق إليهم رأسه انبهارًا وذلة، ثم لا يلبث أن يسيرَ في ركابهم، ويسارع في مشاكَلتهم ومرضاتهم، ويهرول خلفهم في كل صيحة هرولة الإمعة الأبله.

والناس ألفٌ منهمُ كواحدٍ ... وواحدٌ كالألف إنْ أمرٌ عنى

معاشر الإخوة: إن هذا الدين العظيم أشد ما يكون حاجةً إلى رجال يحملون همَّه، رجال أقدامهم في الثرى وهمة هاماتهم في الثريا؛ لذا كان الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (يا له من دين لو أن له رجالًا).

إن علو الهمة هو أول طريق النجاح في الدين والدنيا بعد تقوى الله جل وعلا، ولكن لا بد من التخطيط السليم لتحقيق الأهداف، فالهدف الذي لا نخطط لبلوغه يبقى حلمًا جميلًا يصعب الوصول إليه كما قال بعضهم:

إذا تمنيت بتّ الليل مغتبطًا ... إن المُنى رأس أموال المفاليس

فينبغي تخيُّر الأهداف السامية والغايات النبيلة، ثم التخطيط لأهدافنا، دينية كانت أم دنيوية، مباحة من المكاسب والتجارات أن العلوم والمهارات أم غيرها، وينبغي أن تكون أهدافنا واضحة، فوضوح الهدف في ذهن صاحبه من أقوى أسباب تحقيقه بعد عون الله وتوفيقه، وحبذا لو كُتبت الخطة، فقد ثبت بالتجارب أن الخطة المكتوبة أجدى وأفضل ثمرة من غيرها. وقد استغنى السلف عن ذلك لوضوح الهدف في أذهانهم وقلة الصوارف والشواغل عن بلوغ الغايات.

عندما نتحدث عن علوّ همم السلف فإنما ذلك لأنهم جعلوا الهموم همًا واحدًا هو هَم الآخرة وطلب رضى الله، وقد قال ﷺ: «من جعل الهموم همًا واحدًا هم آخرته كفاه الله هم

دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك»[1]. وإن التحلي بما كانوا عليه من كريم الصفات وجميل الشيم من مفاتيح العزة بإذن الله، لعلنا نربي جيلًا يصنعون الأمجاد، ويبنون البلاد، ويصلحون العباد.

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرومِ فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

ولكن هل انتهى زمن الهمم العالية؟! هل همم الرجال تاريخ أم لا زال له شواهد في الواقع؟! إن أمة الإسلام ولود لا يزال فيها همم تطرب النفوس لذكرها وتعطر المجالس بأخبارها، هل تريدون أن تسمعوا عن علو الهمة في زماننا؟! أبشركم، فالنماذج كثيرة، ولكن سنقتصر على ذكر نموذجين لعلو الهمة في زماننا، همة عالم إمام وهمة داعية إغاثي مبارك:

أما الأول فهو العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول أحد مرافقيه الذين سافروا معه برًا، والشيخ قد تقدمت به السن يقول: بعد الساعة الثانية ليلًا قال الشيخ لمرافقيه: يبدو أننا تعبنا، قفوا لننام، فوقفنا فما مست أقدامنا الأرض إلا ونمنا من التعب، وشرع الشيخ في الصلاة، فلما استيقظنا قبل صلاة الفجر فإذا بالشيخ يصلي. ويقول بعض من أصحابه: لا أذكر أن ابن باز أخذ إجازة لا شهرًا ولا يومًا، بل كل وقته لدينه وأمته، نشر للعلم، وقضاء لحوائج الناس، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ومناصحة للقريب والبعيد من الولاة والعامة، حتى كتب لبعض الطغاة كتابًا شديدًا لإيذائه للصالحين وقتله للمصلحين، وختم كتابه بقوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

داوم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من سبعين سنة بين قضاء وإفتاء ومناصب علمية، قضى من خدمته قرابة ثلاثين عامًا بعد استحقاقه للتقاعد، وجاوز التسعين وهو على منصبه يباشر مهامه الكثيرة التي تنوء بها العُصبة من الرجال، فإذا انتهى الدوام كان بقية يومه بين تعليم وإفتاء وإغاثة ملهوف ومساعدة محتاج وشفاعة لمستضعف، لا ينام إلا نحو أربع ساعات هي حظ نفسه منه، وباقي يومه لدينه وأمته، أتته الدنيا فأعرض عنها؛ لأن همته جاوزت حدود التراب وما

---

(١) حسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٩).

عليه، ولو شاء أن يكون من الأثرياء لكان، فقد أثرى من هو دونه جاهًا ومنصبًا، ولكنه آثر الزهد والخروج من الدنيا خفيفًا، فكان يبذل ماله بذلًا قلّما تسمع به أذن، فقد كان من كرماء هذا الزمان، وله في الجود والإنفاق في وجوه الخير مواقف لا يتسع المقام لذكرها. وبالجملة فقد كانت الدنيا عنده أهون من أن يُلتفت إليها؛ لأن همته أعلى من الدنيا وما فيها، حتى قال بعضهم: نحن نركض خلف الدنيا وابن باز يهرب منها. فما أحوج أبناء العشرين والثلاثين والخمسين لهمة ابن التسعين -عليه رحمة الله وعلى سائر علماء المسلمين-.

وأما المثال الآخر الذي يشهد أنه لا زال للهمة رجال ولا زالت الأمة ولادة: فطبيب عربي مسلم سمع بجهود المنصرين في إفريقيا، فتحركت فيه حمية الدين ونخوة المؤمن، فترك حياة الرغد والرفاه والوظيفة المرموقة ليعيش في إفريقيا سنوات طويلة، وظل أكثر من ثلاثة عقود إلى أن توفاه الله يجوب أدغالها ويخوض مستنقعاتها غير مبالٍ على أي فراش نام، أو من أي طعام أكل، ومن أي ماء متعكر شرب، فقضى هناك زهرة شبابه؛ باذلًا نفسه لدينه، دائبًا في الدعوة والإغاثة حتى تقدمت به السن، فلم يبالِ بكبر سنه، ولم تعقْه الأمراض التي أنهكت جسده الذي صار مستودعًا لعدد منها، هانت عليه نفسه في الله، وعلت همته في سبيل الله، فأسلم على يده الملايين من أهل هذه القارة السمراء، وبنى المئات من المساجد والمدارس والمشافي، ووقف للتنصير في هذه القارة كالطود الأشم، فلم يلقه المنصّرون في بلدة إلا عادوا أدراجهم وانكفؤوا في جحورهم، رجل واحد يفعل كل هذا، فرزقه الله محبة الخلق، فلا يسمع بجهده أحد إلا أحبه، إنه الدكتور عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، هذه هي الهمم، وهؤلاء هم الرجال.

هم الرجال وعيب أن يقال لمن   لم يتصف بمعالي وصفِهم رجلُ

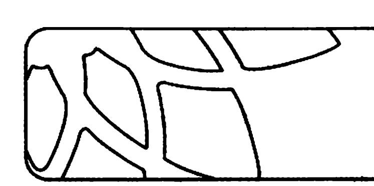
وقد يقول قائل: وأين نحن من هذه الهمم؟! هذا مما يعجز عنه أكثر الناس، فنقول: سددوا وقاربوا، وليبذل كل منا لدينه ما يستطيع وما في وسعه، وفي المجال الذي يُحسنه، فلدى كل مسلم ما يستطيع أن يُقدمه، فلا تحقرن نفسك -أيها الحبيب-، فإن لم تكن بحرًا فكن بئرًا، وإن لم تكن بئرًا فكن دلوًا، وإن لم تكن سيفًا فكن غمدًا، وإن لم تكن قلمًا فكن حبرًا.

أيها الناس: إن العاقل اللبيب من جعل همَّه في مرضاة الله، وعلم أنه لن ينال من الدنيا إلا ما كتب له مولاه، فاجتهد في رضاه، وآثره على هواه، وبذل الأسباب ثم توكل على الله، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[1].

هذا؛ وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية...



(١) صحيح الجامع (٦٥١٠).



الإحسان إلى الناس(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الكريم المنَّان، ذي العطاء والإحسان، خلَق الخلق ليَعبدوه، وأجزَل عليهم النِّعم ليَشكروه، وأنار قلوب المؤمنين بالقرآن، فسبحانه من إله عظيمٍ، ومنعم كريم، أشهد أن لا إله إلا هو الواحد الدَّيَّان، تبارك بمجَده وعليائه، وتقدَّس بجبروته وكبريائه، وهو الكريم الرحمن، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد ولد عدنان، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أمَّا بعدُ:

أيها المؤمنون: إن السعادة هدف منشود، ومطلب جميلٌ محمود، يَسعى إليه البشر جميعًا، بل كلُّ مخلوق يسعى لِما فيه راحته وأُنسه، وللسعادة أبواب ومفاتيح تُستجلَب بها، إلا أن هناك بابًا من أبواب السعادة وتحصيل الأُنس، يَغفُل عنه كثيرٌ من الناس، وهو سهلُ المنال، قريب المأخذ، وعاقبته جميلة، وأثره سريعٌ، فما هو يا تُرى؟

إنه الإحسان إلى الناس، وتقديم الخدمة لهم بما يُستطاع، فالخلق عيالُ الله، وأحبُّ الخَلق إلى الله أنفعُهم لعياله، والإحسان إلى الخَلق من تمام الإحسان في عبادة الله؛ قال الله سبحانه

(١) لم نتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



عن قوم تنكّبوا عن طريق الإحسان: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر:٤٢-٤٤]. فسببُ دخولهم سقر، هو تَرْكهم الصلاة وتَرْكهم الإحسان إلى الخَلق بإطعام المسكين، وقد اقتضَت حكمة الله تعالى أن تنوَّعت أرزاق العباد واختَلَفت، والناس متفاوتون من حيث الغنى والفقر؛ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢].

جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، ولْيَحِدَّ أحدكم شفرته ولْيُرح ذبيحته»[1]، هذا الحديث فيه ذكر قاعدة الإحسان، والتعامل به مع كل شيء، وفيه فضيلة الإحسان حتى إلى البهائم المأكولة في حال ذبحها، وهذا شيء يغفل عنه بعض الناس، فيسيئون إلى البهائم في كيفية ذبحها.

عباد الله: إنَّ للفقر لوعته وللعَوز حُرقته، وكم هي مُرَّة تلك الآلام والحسرات التي يَشعر بها ذلك الفقير المُعدم، حين يرمي بطَرْفه صوبَ بيته المتواضع المملوء بالرعيَّة والعيال، وهم جِياع لا يَجدون ما يَسدُّ جَوْعتهم، أو مَرضى لا يجدون مَن يعالجهم، كم من مَدين أرْهَق ظَهره ثِقَلُ الدَّيْن، وناء جسدُه عن تحمُّل هذا الهمِّ المُؤرِّق، كم من فقير ضاقَت به الدنيا وانسدَّت في وجهه أبواب الرزق، لولا بقيَّة باقية من الأمل والرجاء فيما عند الله، فيأتي من يسد تلك اللوعة، ويطفئ ما يعانيه من الحرقة، إنهم أهل الإحسان في الدنيا؛ لأن أحدهم يعلم أنه إذا أحسن إلى الآخرين في هذه الدنيا، كانت النتيجة إحسانَ الله إليه في الدنيا والآخرة.

عباد الله: إن أول المستفيدين من الإحسان هم المحسنون أنفسهم، إذْ فتح الله لهم بابًا من أبواب الخير والبر يجنون ثمراتِه عاجلًا في نفوسهم وأخلاقهم وضمائرهم؛ فيجدون الانشراح والسكينة والطمأنينة.

جرّب أيها الأخ الحبيب.. إذا طاف بك طائف من هم أو ألمّ بك غم فامنح غيرك معروفًا وأسدِ له جميلًا؛ تجِد السرور والراحة، أعط محرومًا، انصر مظلومًا، أنقذ مكروبًا، أعِن منكوبًا، عُد مريضًا، أطعم جائعًا؛ تجد السعادة تغمرك من بين يديك ومن خلفك.

---

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).



أما الثمرة في الآخرة، فتأمل معي هذه القصة العجيبة:

ومن عجائب أخبار السلف الصالح ما روى أهل السير عن أحمدَ بن مسكين أحدِ علماءِ القرن الثالث الهجري في البصرة، قال: (امتُحِنتُ بالفقر سنة تسع عشرة ومائتين، فلم يكن عندنا شيء، ولي امرأة وطفلها، وقد طوينا على جوع يخسف بالجوف خسفا، فجمعت نيتي على بيع الدار والتحوّل عنها، فخرجت أتسبب لبيعها فلقيني أبو نصر، فأخبرته بنيتي لبيع الدار فدفع إلي رُقاقتين من الخبز بينهما حلوى، وقال أطعمها أهلك. ومضيت إلى داري فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي، فنظَرَت إلى الرقاقتين وقالت: يا سيدي، هذا طفل يتيم جائع، ولا صبر له على الجوع، فأطعمه شيئًا يرحمك الله، ونظر إليّ الطفل نظرة لا أنساها، وخيّل إليّ حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه، فدفعت ما في يدي للمرأة، وقلت لها: خذي وأطعمي ابنك. والله ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام، فدمعت عيناها، وأشرق وجه الصبي، ومشيت وأنا مهموم، وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار وإذ أنا كذلك إذ مرّ أبو نصر - وكأنه يطير فرحًا، فقال: يا أبا محمد، ما يجلسك ها هنا وفي دارك الخير والغنى؟! قلت: سبحان الله! ومن أين يا أبا نصر؟! قال: جاء رجل من خراسان يسأل الناس عن أبيك أو أحدٍ من أهله، ومعه أثقال وأحمال من الخير والأموال، فقلت: ما خبره؟ قال: إنه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودَعه مالًا من ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال، ثم ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التجارة هناك، وأيسَر بعد المحنة، وأقبل بالثراء والغنى، فعاد إلى البصرة وأراد أن يتحلّل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في ثلاثين سنة. يقول أحمد بن مسكين: فحمدت الله وشكرته، وبحثت عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتها وأجرَيت عليهما رزقا، ثم اتجرت في المال، وجعلت أَرُبُّه بالمعروف والصنيعة والإحسان وهو مقبل يزداد ولا ينقص، وكأني قد أعجبتني نفسي وسرّني أني قد مُلِأَت سجلاتُ الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كُتبت عند الله في الصالحين، فنمت ليلةً فرأيتُني في يوم القيامة، والخلق يموج بعضهم في بعض، ورأيت الناس وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم، فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسّمة، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها مخزيات، ثم وُضِعَت الموازين، وجيء بي لوزن أعمالي،

فجعلت سيئاتي في كفة وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السجلات، ورجحت السيئات، ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه، فإذا تحت كل حسنةٍ شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس، كالرياءِ والغرورِ وحبِ المحمدة عند الناس، فلم يسلمُ لي شيء، وهلكتُ عن حجتي وسمعتُ صوتًا: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا، وأنا أنظر لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنت بهما على المرأة وابنها، فأيقنت أني هالك، فلقد كنت أُحسِنُ بمائةِ دينارٍ ضربةً واحدة فما أغنَت عني، فانخذلت انخذالًا شديدًا، فوُضِعَت الرقاقتان في الميزان، فإذا بكفة الحسنات تنزل قليلًا ورجحت بعضَ الرجحان، ثم وُضعت دموع المرأة المسكينة التي بكت من أثر المعروف في نفسها، ومن إيثاري إياها وابنها على أهلي، وإذا بالكفة ترجُح، ولا تزال ترجُح حتى سمعت صوتًا يقول: قد نجا). وصدق رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»(١).

عباد الله: إن الإحسان كالمسك ينفع حامله وبائعه ومشتريه، وقد ثبت في الحديث أنَّ امرأة كانت عاصية بعيدة عن الله سبحانه وتعالى خرَجت ذات يوم، فبينما هي تسير في الطريق إذ رأتْ ذلك الكلب الذي اكتوَى بحرّ الهجير، قد أنهَكَه العطش والظمأ، وقد وقَف على بئر ذات ماءٍ، لا يَدري كيف يَشرب، فهو يلهث الثَّرى من شدَّة الظمأ، فلمَّا رأتْه تلك المرأة العاصية، أشفَقت عليه ورحمته، فنزَلت إلى البئر وملأَت خُفَّها من الماء، ثم سقَت ذلك الكلب، وأطفَأت ظمأَه وعطشَه، في لحظة صدق ورأفة ورجاء لرحمة الله، فنظرَ الله إلى رحمتها بهذا المخلوق، فشكَر لها معروفها، فغفَر ذنوبها، بشربة ماء غُفِرت ذنوبها، وبشربة ماء سُتِرت عيوبها، وبشربة ماء رَضِي عنها ربُّها، إنها الرحمة التي أسكنَها الله القلوب، إنها الرحمة التي يَرحم الله بها الرُّحماء، ويفتح بها أبواب البركات والخيرات من السماء، بُعِث بها سيِّد الأوَّلين والآخرين؛ كما قال ربُّنا في كتابه المبين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦).

الإحسان إلى الآخرين، والرحمة والرفق بهم؛ شعار المسلمين ودِثار الأخيار والصالحين، وشأن الموفَّقين المُسدِّدين، كم فرَّج الله بها من هموم، وكم أزالَ الله بها من غموم، إذا أسكنَها الله في قلبك فتَح بها أبواب الخير في وجهك، وسَدَّدك وألْهَمك، وأرْشَدك وكنتَ من المحسنين.

عباد الله: من شعائر الإسلام العظيمة إطعامُ الطعام، والإحسان إلى الأرامل والأيتام، والتوسيع عليهم؛ طلبًا لرحمة الله الملك العلاَّم، قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم لا يَفتُر، وكالصائم لا يُفطِر»؛(١).

الذي يُطعم الأرملة، ويُدخل السرور عليها - إحسانًا ورحمة - كالصائم الذي لا يُفطِر من صيامه، والقائم الذي لا يَفتُر من قيامه، فهنيئًا ثم هنيئًا لأمثال هؤلاء الرُّحماء.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبدٍ أنعَم الله عليه نعمةً، فأسبَغها عليه، ثم جعَل من حوائج الناس إليه، فتبرَّم، فقد عرَّض تلك النعمة للزوال»؛(٢).

وعن أبي هريرة أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «امسَح رأس اليتيم، وأطعِم المسكين»؛(٣).

فيا مَن رام محبَّة الله ورجا رحمته، ارحَم الضُّعفاء، وأحسِن إلى المساكين، وأعط المحتاجين، وأعِن العاجزين، ولا تَبخل بشيء من البر، ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وإن كان يسيرًا فإنه صدقة تؤجر عليها؛ عن أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا نبي الله، علمني شيئًا أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»(٤). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ وجد غصن شوكٍ على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢).
(٢) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦١٨).
(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٤٥).
(٤) رواه مسلم (٢٦١٨).
(٥) رواه مسلم (١٩١٤).

وفي الصحيحين قال ﷺ: «كل سُلامى -أي: مفصل- من الناس عليه صدقة، كل يوم تَطلُع فيه الشمس، تَعدل بين الاثنين صدقة، وتُعين الرجل في دابَّته، فتَحمله عليها، أو تَرفع له عليها متاعه صدقة»، قال: «والكلمة الطيِّبة صدقة، وكل خُطوة تَمشيها إلى الصلاة صدقة، وتُميط الأذى عن الطريق صدقة..»[1].

اللهمَّ اجعَلنا من المحسنين لعبادك، المُخلصين لوجهك، اللهمَّ اجعَلنا من مفاتيح الخير، ومغاليق الشر، يا كريم يا رحمن.

---

(١) البخاري ومسلم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمَّا بعدُ:

أيها الإخوة: لقد جعل الله نفع الناس والإحسانَ إليهم عبادةً عظيمة؛ فأمر سبحانه بالإحسان في آياتٍ كثيرة، وأخبَر أنَّه يحبُّ المُحسنين، وأنَّه مع المُحسنين، وأنه يَجزي المُحسن بالإحسان، وأنه يجزي المحسنين بالحُسنى وزيادة، وأنه لا يضيع أجر المُحسنين، ولا يضيع أجرَ من أحسن عملًا، ولقد ورد ذِكْرُ الإحسان في مواضِعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم؛ تارة مقرونًا بالإيمان، وتارة مقرونًا بالتَّقوى أو بالعمَل الصَّالِح، وكلُّ ذلك مما يدلُّ على فضل الإحسان وعظيم ثوابه عند الله تعالى.

ومن المعاني التي يشملها الإحسان أنه يكون فيما بين العبد وبين ربِّه، وهو أعلى مراتب الدِّين، وقد فسَّره النبيُّ ﷺ بأن تعبد الله كأنَّك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومعنى ذلك أنَّ العبد يعبد الله تعالى على استحضار قربِه منه، وأنه بين يديه كأنَّه يراه، وذلك يوجب الخشيةَ والخوف والتَّعظيم، ويوجب النُّصح في العبادة وتحسينها وإتمامها.

أما الإحسان إلى الغير، وهو بِمَعنى الإنعام عليهم، وإعانتهم والرفق بهم، فمن ذلك:

خدمتهم وقضاء حوائجهم، والسعي في تنفيس كروبهم، وأولى الناس بالخدمة والرعاية الأهل والأقرباء، ولذلك جاء عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» أخرجه الترمذي)، عن الأسود قال: سألت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عن ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة).

ومن منا لا يبالي بكسب قلوب أقرب الناس إليه كالوالدين، والزوجة والأقرباء، وترى بعض الناس لا يراعي مكارم الأخلاق ولا يرعى القريب وذا الرحم، ولا يستطيع أن يكسب وده أبيه وأمه، وقلب زوجته أو أخته، بل قد تجده في خصام دائم معهم، نظرًا لقلة التغاضي ودقة ملاحظة الأخطاء وغياب العفو والحرم والتغافل عن حياة كثير من الناس.

وممن يجب أن نحسن إليهم ونكسب قلوبهم وودهم وثقتهم الجيران، جاء في الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يؤذ جاره و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»، وأي إكرام يقدم إلى الجار أكبر من نصحه بالحكمة والموعظة الحسنة ودعوته إلى الهدى والتقى، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى مساواة الجار بالنفس، فقد جاء عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ -أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ- مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، فمما ينبغي التحبب إلى الجار، وعيادته إذا مرض، وتعزيته عند المصيبة، وتهنئته بالفرح، والصفح عن زلته، وعدم التطلع إلى عوراته، وستر ما انكشف من عيوبه، والاهتمام بالإهداء إليه وزيارته وصنع المعروف إليه، وعدم أذيته، فعن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه». ومعنى بوائقه غشه، وشره، خيانته. فالذي لا يطمئن منه جاره، ولا يأمنه على بيته و أهله، في حال غيبته حضرته، ليس بمؤمن. لأن المؤمن هو من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، ونسائهم والبوائق الشرور والأذى.

ومن الإحسان كذلك أن نكسب الذين نعمل معهم أو يعملون معنا، فالطبيب يكسب المرضى، والأستاذ يكسب التلاميذ، والموظف يكسب المراجعين، وكم سمعنا عن طبيب طيب لا يتبرم من المرضى بل يحسن إليهم بالكلمة والنظرة حتى يحسن نفسياتهم ويكون عونًا على شفائهم، وكمم من معلم رغب تلاميذه في التعليم برفقه وتشجيعه وحسن تدبيره، وكم من موظف يبادر في إنجاز معاملات الناس فيكون بذلك محسنًا محبوبًا عند الله وعند خلقه، مُثابًا حتى ولو كان ذلك عمله ووظيفته، أما عندما يُشاع عكس هذه التعاملات بين الناس فحينئذٍ يغيب الإحسان ويظهر الفساد وتكثر المظالم، وهنا يدعو المظلوم على الظالم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب وقد جاء عن معاوية رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال سمعت رَسُول الله يقول: «من ولاه اللهَّ شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرهم، احتجب اللهَّ دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة».

أَحْسِـنْ إِلَى النَّـاسِ تَسْـتَأْسِرْ قُلُـوبَهُمُ فَطَالَمَـا اسْـتَأْسَرَ الإِنْسَـانَ إِحْسَـانُ

وَكُـنْ عَـلَى الـدَّهْرِ مِعْوَانًـا لِـذِي أَمَـلٍ يَرْجُـو نَـدَاكَ فَـإِنَّ الْـحُرَّ مِعْـوَانُ

ومن الوسائل في كسب قلوب الناس: حسن الخلق والحلم وكظم الغيظ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وقد كان سيدنا محمد ﷺ القدوة الحسنة، والمثل في كظم الغيظ والصفح عن المسيء، والعفو والصفح هو أولى درجات الإحسان، فإن من لم يحتمل الأذى، لا يستطيع أن يحسن إلى هؤلاء الناس ولا أن يكف عنهم الأذى، وإن من أحسن إلى الناس ليقال: أحسَن، أو ليُشكر، أو ليُرد له الجميل، فسيأتي يوم يتوقف فيه عن الإحسان؛ ذلك لأنه إنما فعل ذلك ليلقى الجزاء من الناس، وليعاملوه بالمثل، فلا بد أن يجد من يجحد معروفه وينسى جميله، أو يرد الإحسان بالإساءة، وحينئذٍ لا يحتمل، مع أن أعظم الثواب والأجر إنما يكون مع من لا يعترف بإحسانك ولا يكف عن الإساءة إليك، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله: «يا عقبة، ألا أخبرك بأفضلِ أخلاق الدنيا والآخرة؟ تَصِلُ من قطعك، وتعطي من حرمَك، وتعفو عمَّن ظلمك»[1] وهنا تكون التجارة الحقة مع الله.

أيها الإخوة: إن الله وصف عباده المؤمنين الذين يحسنون إلى الناس فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:٨-١٠]. فلم ينتظروا من الناس جزاءً على معروفهم، بل ولا كلمة شكر منهم؛ لأنهم إنما أحسنوا إليهم لوجه الله وخوفًا من لقائه، ومن هنا كان كثير من الصالحين إذا أحسن إلى أحد أو أعطى مسكينًا فإنه لا يطلب منه حتى أن يدعو له، بل إذا دعا له المسكين قابله بدعوة مماثلة لئلا تكون تلك جزاءً لمعروفه فلا يثاب عليه بعد ذلك عند الله تعالى.

(١) رواه أحمد (١٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٣٦).

أخي الحبيب: هل تريد أن تُنَفّس كربتُك ويزولَ همُك؟ فرج كربات للمساكين.. هل تريد التيسير على نفسك؟ يسّر على المعسرين.. هل تريد أن يستر الله عليك؟ استر عباد الله، وكما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل.

قال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(1). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (من رفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه).

أخي الكريم: تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن الإحسان إلى الخلق سيعود إليك صداه ولو بعد حين، وأن الصدقة ولو بالقليل تفعل الشيء الكثير إذا وافقت إخلاصًا من المتصدق وحاجة عند الفقير، والبحث عن صاحب الحاجة اليوم أمر مطلوب، إذ اختلط الحابل بالنابل، وأفسد الكاذب على الصادق، فينبغي للمتصدق أن يتحرّى في صدقته المحتاجين دون المحتالين، لكن دون إفراط أو مبالغة وإساءة الظن بالآخرين. وقد يقول قائل ويسأل سائل: أين نجد هؤلاء المحتاجين؟! وكيف السبيل إليهم؟! فأقول: اجتهد في البحث تجدهم، ومن يتحر الخير يوفق إليه.

إنَّ الإحسان كالمِسْك؛ يَنفع حامِلَه وبائعه ومشترِيَه، شَربة ماء مِن بغيٍّ لكلب أثْمرَت دخول جنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض؛ لأنَّ صاحب الثواب غَفور شكورٌ، غنيٌّ حميد، جوَادٌ كريم، فلا تحتَقِرْ إحسانك وَجُودك وعطاءك، مهما قلَّ.

اللهمَّ أعنَّا على ذِكرك، اللهمَّ فرِّج همَّ المهمومين، ونفِّس كَرْبَ المكروبين، واقضِ الدَّين عن المَدينين، اللهمَّ اغفِر لنا ذنبنا كلَّه؛ دِقَّه وجِلَّه، علانيته وسرَّه، أوَّله وآخرَه.



---

(1) رواه مسلم (٢٦٩٩).



فهرس الموضوعات

